مرآة الزمان في تواريخ الأعيان

تصنيف
شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله
المعروف بسبط ابن الجوزي
٥٨١ - ٦٥٤هـ

الجزء الثاني

حقق هذا الجزء وعلق عليه

محمد بركات   كامل الخراط   عمار ريحاوي

الرسالة العالمية

بسم الله الرحمن الرحيم

مرآة الزمان في تواريخ الأعيان

٢



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

٢٠١٣م / ١٤٣٤هـ



دار الرسالة العالمية

شركة الرسالة العالمية م.م.

Al-Resalah Al-A'lamiah m.
Publishers

الإدارة العامة

Head Office

دمشق - الحجاز

شارع مسلم البارودي

بناء خولي وصلاحي

2625

(963)11-2212773

(963)11-2234305

الجمهورية العربية السورية

Syrian Arab Republic

info@resalahonline.com

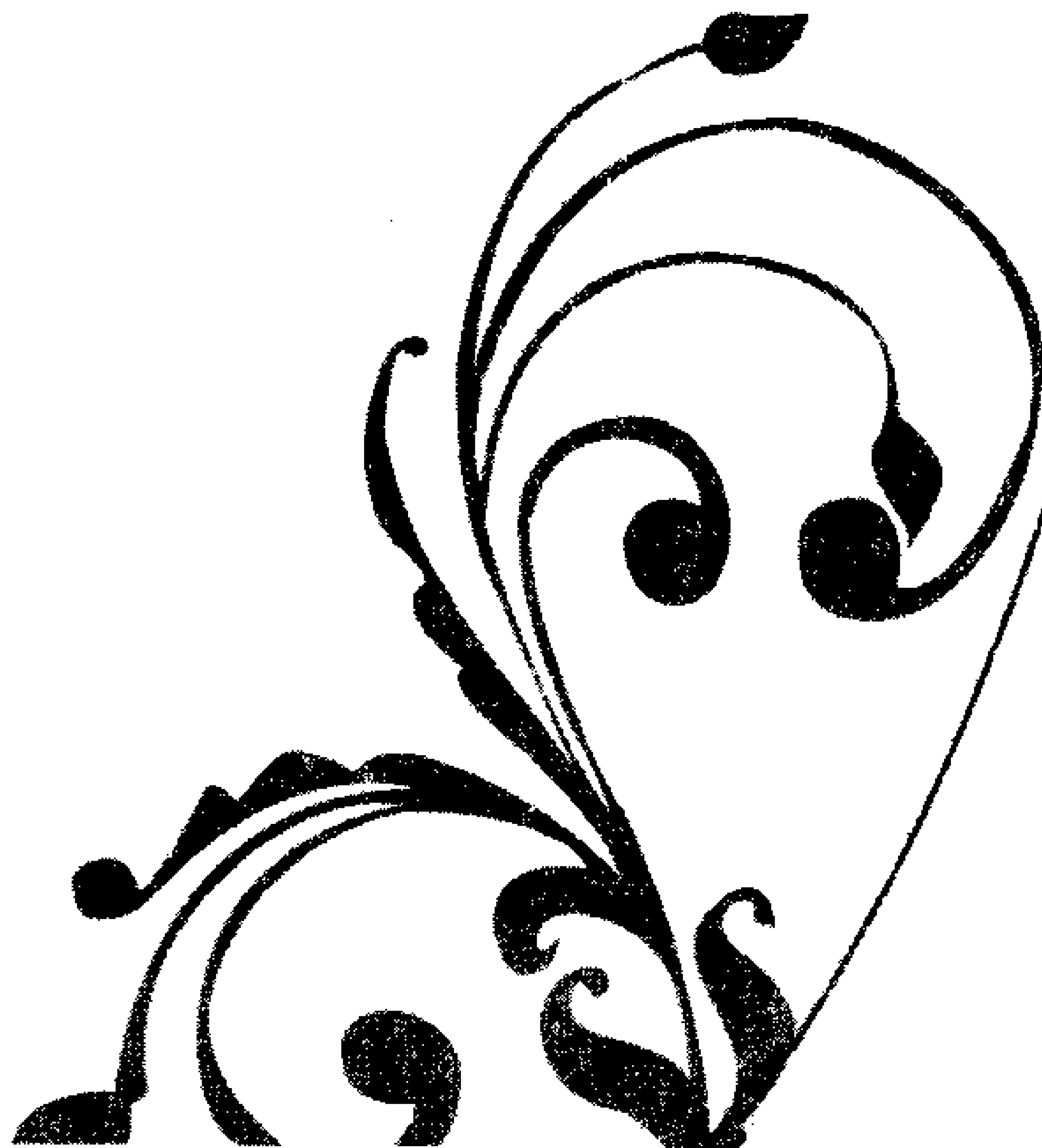
http://www.resalahonline.com

فرع بيروت

BEIRUT/LEBANON

TELEFAX: 815112- 319039- 818615

P.O. BOX:117460



المخطوطات المعتمدة في هذا الجزء

١ـ نسخة لاله لي، وهي من أول الكتاب إلى عذاب قوم شعيب، ورمزنا لها بـ: (ل).

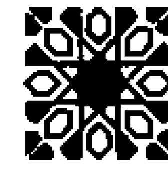
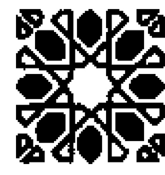
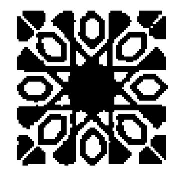
٢ـ نسخة كوبريللي، من أول أخبار الأمم الماضية إلى سنة (٦هـ)، ورمزنا لها بـ: (ك).

٣ـ نسخة الخزائنية، من قصة زكريا ويحيى إلى سنة (٧هـ)، ورمزنا لها بـ: (خ).

٤ـ نسخة باريس، من أول الكتاب إلى ذكر والد رسول الله ﷺ، ورمزنا لها : (ب).

٥ـ مطبوعة الدكتور إحسان عباس، ورمزنا لها بـ: (ط).

وانظر وصفاً مفصلاً لهذه النسخ في مقدمة الجزء الأول.

فَصْل في ذِكْر أيّوب عليه السَّلام[١]

قال مقاتل: ذكره الله في خمسة مواضع. وأيوب اسم أعجمي، واختلفوا في نسبه، والمشهور أنه أيوب بن أموص بن رزاح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، ذكره جدي رحمه الله في «التبصرة»، قال: وأبوه ممن آمن بالخليل عليه السلام لما ألقي في النار، قال: وأمه بنت لوط عليه السلام[٢].

وكان أيوب في زمان يعقوب، وتزوج ابنة يعقوب واسمها رحمة، وقيل: دينا، وقيل: ليًّا، وقيل: إنما تزوج أيوب رحمة بنت ميشا بن يوسف بن يعقوب.

وقال الكلبي: أيوب بن أموص بن رازح - بتقديم الألف على الزاي - ابن العيص بن أموص بن العيص بن إسحاق عليه السلام. وقال قتادة: أيوب بن رزاح بن دعوابيل بن العيص.

وحكى الثعلبي عن وهب بن منبه قال: كان أيوب رجلاً من الروم، وهو أيوب بن أموص بن رزاح بن روم بن عيص بن إسحاق عليه السلام[٣].

واختلفوا في زمانه:

فحكينا عن جدي في «التبصرة» أنه كان في زمان يعقوب.

وقال مجاهد: لم يكن نبيّاً في زمان يعقوب وإنما نبّيء بعد يوسف.

وقال مقاتل: كان بعد سليمان. وقيل: بعد يوسف، والأول أشهر وأثبت.

قلت: وذكر الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في «تاريخ نيسابور» عن قتيبة بن سعيد قال: سمعتُ عبد الله بن لهيعة، وسأله رجل: هل ورد خراسانَ نبيٌّ، قال: نعم أيوب المبتلى ورد كورةَ بُخارى واستضافهم فأضافوه، فدعا لهم بالبركة فهي مباركة.

قلت: والعجب من رواية الحاكم مثلَ هذا عن ابن لهيعة، وقد علم أنه ضعيف. ولم

---

(١) انظر قصته في: الزهد لأحمد ٥٤، ١١٣، وتفسير الطبري ١٦/ ٣٣٣، وتاريخه ١/ ٣٢٢، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٧٢، و«عرائس المجالس» ص ١٥٥، و«تفسير الثعلبي» ٦/ ٢٩٤، و«تاريخ دمشق» ٣/ ٢٤٩ (مخطوط)، و«التبصرة» ١/ ١٩١، و«زاد المسير» ٥/ ٣٧٥، و«المنتظم» ١/ ٣٢٠، و«البداية والنهاية» ١/ ٥٠٦.

(٢) «التبصرة» ١/ ١٩١.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٥٥.

يثبت أن نبياً من الأنبياء دخل العجم، وخصوصاً أيوب، فإنه ما فارق الشام.

وقال الكلبي: كانت منازله البَثَنِيَّةُ من أرض الشام والجابِيَة وكورة دمشق، فكان الجميع له، ومقامه بقرية تعرف بدير أيوب، وقبره بها وإلى هلم جراً. وكان غنيّاً كثير الضيافة على مذهب إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان له ثلاثة عشر ولداً، وله أصنافٌ من الأموال والإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير، وكان له خمس مئة فدان يتبعها خمس مئة عبد، لكل عبد امرأة ومال وولد، وكان برّاً رحيماً تقيّاً يكفل الأرامل واليتامى ويحمل المنقطعين، وما كان يشبع حتى يشبع الجائع، ولا يكتسي حتى يكسوَ العاري، وكان قد امتنع من عدوِّ الله إبليس أن يصيبَ منه ما يصيبُ من أهل الغنى والثروة بالغِرَّةِ والغفلة، وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدَّقوه: رجلٌ من أهل اليمن يقال له: أليفز، ورجلان من أهل بلاده يقال لأحدهما: بلدد، والآخر: صافر[١].

فصل في تلخيص قصته

ذكر علماء السير كابن إسحاق ووهب والسدي وعطاء فيما رووه عن ابن عباس وغيره، دخل حديث بعضهم في حديث بعض، وحكاه الثعلبي عن وهب بن منبه قالوا: إن لجبريل من الله مقاماً ليس لأحد من الملائكة في القربة والفضيلة مثله، وإنَّ جبريل هو الذي يتلقى الكلام من الله تعالى، فإذا ذكر الله عبداً بخير تلقَّاه جبريل، ثم يتلقاه ميكائيل ثم الملائكة المقربون، فيشيع ذلك في الملائكة الحافِّين من حول العرش، ثم ينزل إلى سماء سماءٍ، ثم تهبط به الملائكة إلى الأرض، وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السماوات يقفُ فيهنَّ حيث يشاء، ومن هناك وصل إلى الجنَّة حتى أغوى آدم، فلم يزل يصعدُ ويتردَّد إلى السماء حتى رُفِعَ عيسى عليه السلام فَحُجِبَ من أربع سماوات، فكان يصعد في ثلاث حتى بُعِثَ نبينا ﷺ، فحجب عن الثلاث الباقيات، فهو وجنوده محجوبون عن السماوات إلى يوم القيامة ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾[الحجر: ١٨].

وكذا قال جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة»: وكان إبليس لا يحجب عن

(١) هم في الكتاب المقدس سفر أيوب الإصحاح الثاني: أليفاز التيماني وبلدد الشوحي وصوفر النعماني.

السماوات، قال: وهذا هو خلاف قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾[البقرة: ٣٨] وكان إهباطَ سخطٍ، وآدم لم يعد إلى الجنة، وكذا إبليس لا يعود إلى السماوات، ويحتمل أن الشياطين الذين يسترقون السمعَ أخبروه بثناء الملائكة على أيوب[١].

قالوا: ولما سمع إبليس أنَّ الله ذكر أيوب وأثنى عليه أدركه البغي والحسد، فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه وقال: يا ربِّ سلِّطني على أيوب، فقال الله: قد سلطتك على ماله وولده ولم أُسَلِّطْكَ على جسده.

وقد روى هذا المعنى عبد الله بن أحمد بن حنبل في «كتاب الزهد» عن أبيه عن كثير ابن هشام عن حماد بن سلمة بإسناده عن ابن عباس وذكره موقوفاً[٢].

وقد روى السُّدي ووهب أن إبليس قال: إلهي إني نظرتُ في أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ثم لم تجرّبْهُ بشدةٍ ولا بلاء، وأنا زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرنَّ بك، فقال الله تعالى: اذهب فقد سلطتك على ماله. فجمع عفاريته وشياطينه وقال لهم: ما عندكم من القوة فإني قد سُلِّطت على مال أيوب، وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال، فأروني سلطانكم، فصار بعضهم ناراً وبعضهم ماء وحالوا ما بين المشرق والمغرب[٣].

فإن قيل: فكيف قال الله تعالى: اذهب فقد سلَّطتك عليه، وتسليط العدوِّ على الوليّ غير لائقٍ بالحكمة، وخصوصاً إذا لم يفعل فعلاً يستوجب به العقوبة؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه نزل به مريض فنظر إليه فاستقذره وأبعده عن فنائه، فابتلاه الله بمثل مرضه، قاله قتادة.

والثاني: لأنه وقف ببابه سائل فقير فرده خائباً، فقال له الله تعالى: خوَّلتك وأعطيتك ووسعت عليك وترد السائل خائباً؟! لأبتلينَّك، قاله ابن أبي نجيح.

---

(١) «التبصرة» ١/ ١٩١.

(٢) لم نقف عليه في المطبوع من كتاب «الزهد».

(٣) انظر «تاريخ دمشق» ١٠/ ٧٠، و«عرائس المجالس» ١٥٦.

والثالث: أنه استغاث به مظلوم فلم يساعده على ظالمه فابتلاه الله، قاله ابن عباس.

والرابع: لأنه كان في زمانه ملك ظالم أقطعه أرضاً ترعى خيلُهُ فيها، فدخل العلماءُ على الملك فأنكروا عليه ظلمه إلا أيوب، فإنه لم ينهه عن الظلم لأجل مرعى دوابّه، فأوحى الله إليه: تركتَ إنكارك على الظالم من أجل مرعى دوابّك؟! لأسلِّطنَّ عليك عدوَّك، ولأُطيلنَّ عذابك، قاله الليث بن سعد.

وحكى الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» أن الواقعة كانت بمصر، فقال: قال أبو إدريس الخَولاني: أجدَبَ الشام فكتب فرعون مصر إلى أيوب أنْ هلُمَّ إلينا فإن لك عندنا سعةً، فأقبل بخيله وَرَجلِهِ وبنيه وماشيته، فأقطعه أرضاً، وكان نبيُّ ذلك الزمان شعيباً عليه السلام، فدخل شعيب على فرعون ووعظه وقال: يا فرعون أما تخاف أنْ يغضبَ الله غضبةً تغضبُ لها السماوات والأرض والجبال والبحار؟! وكان أيوب حاضراً فسكت، فلما خرج من عنده أوحى الله إلى أيوب: سكتَّ عن فرعون لأجل أرضه، استعدَّ للبلاء. قال: يا إلهي، فديني؟ قال: أُسَلِّمُهُ لكَ، قال: فما أُبالي[1].

وروى الحافظ حديثاً عن عقبة بن عامر قال: قال النبيُّ ﷺ: «أَوْحَى الله لأَيُّوبَ: تَدرِي ما جرمُك حتى ابتَليتُكَ؟ قال: لا، قال: إنَّك دَخَلتَ على فِرعَونَ فداهَنْتَهُ في كلمتَين»[2].

قلت: ولا يصحُّ هذا الحديثُ مرفوعاً وإنما هو موقوف؛ وأيوب لم يفارق الشام ولا دخل مِصْر باتفاق الرواة.

والخامس: أن إبليس قال: يا إلهي لو سلَّطتني عليه لكفَرَ بك وأطاعني، فسلَّطه عليه ليظهر صبره وكَذِبَ إبليس، قاله مقاتل.

قال وهب والسُّدي وغيرهما: ثم إن إبليس فرَّق عفاريته في ماله، فأرسل بعضهم إلى إبله، فجاؤوها وهي في مباركها، فلم تشعر الرعاة حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار تنفخ منه أرواح السَّموم، لا يدنو منه أحدٌ إلا احترق، فلم يزل يحرقها

---

(١) «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٠.

(٢) «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٠.

حتى أتى على آخرها، فلما فرغ منها جاءه إبليس في صورة راعٍ من رعاتها، وأيوب قائم يصلي فقال: يا أيوب هل تدري ما صنع ربّك الذي تعبده بإبلك ورعاتها؟ قال: ما صنع؟ قال: أرسل عليها ناراً من السماء فأحرقتها ورعاتها، وقد عجب الناس من ذلك فمن قائل يقول: ما كان أيوب يعبدُ شيئاً وما كان إلا في غرور، ومن قائل يقول: لو كان له إله لدعاه، ولو كان له عنده قدر لحماه. فقال أيوب: الحمد لله حين أعطى، وله الحمد حين أخذ، عرياناً دخلتُ إلى الدنيا، وعرياناً أَخرجُ منها، ولو كان فيك أيها العبد خير لأَخذَ روحكَ مع الأرواح فأجرى فيك [وصيَّرك شهيداً مع الشهداء] لكنه علم منك شرّاً فأخَّرك. فرجع إبليس خائباً خاسئاً ذليلاً وقال لأعوانه: ما عندكم من القوة؟ قالوا: مرنا بما شئت، فأرسل بعضهم إلى الغنم وبعضهم إلى البقر وإلى الخيل، ففعلوا بها مثل ما فعلوا بالإبل، وجاء إلى أيوب في صورة راعٍ فذكر له مثل ذلك، فردَّ عليه مثل ذلك الجواب(١).

فلما رأى أنه لا يلتفت إلى المال سأل الله أن يسلطه على ولده وقال: فتنةُ الولدِ أعظم لأن المال يعودُ، فسلَّطه على ولده، فجاء إليهم وهم في قصرهم، فزلزله عليهم، فوقعت الحيطان والخشب عليهم، فشدخهم، ومثَّل بهم، وقلب القصرَ عليهم، ثم انطلق إلى أيوب في صورة معلمهم، وقد لطخ وجهه بالدم، وهو يبكي وينوح ويقول: يا أيوب، لو رأيت أولادَك وما حلَّ بهم من البلاء ـ ووصفَ ذلك ـ لأحزنك وساءك، ولم يزل ينوح ويحزن حتى بكى أيوب وحثا التراب على رأسه، فاغتنم إبليس الفرصةَ وصعد إلى الله تعالى. ثم إن أيوب ندم واستغفر، فصعدت الملائكة إلى الله تعالى فأخبرته بندمه وتوبته فرجع إبليس خاسئاً.

وقال مجاهد: لم يبكِ أيوب وإنما أنَّ أنةً. وقال وهْب: ولما قال لأيوب ما قال، قال: لو كان فيك خير لهلكت معهم، ثم عرفه فقال: اغرب لعنك الله.

فحينئذ سأل إبليس أن يسلّطه على جسده، فسلَّطه على جسده وقال: لا سلطانَ لك على قلبه ولسانه وعقله. فأتاه وهو ساجد فنفخ في منخريه نفخةً أشعل منها جسده،

(١) انظر تفسير الطبري ١٦/ ٣٣٦، و«عرائس المجالس» ص ١٥٦، وما بين معكوفين منه.

وصار من قَرْنه[١] إلى قدمه أمثال الثآليل مثل أليات الغنم، ووقعت فيه حكةٌ لا يملكها، فحكَّها بأظفاره حتى سقطت، ثم بالحجارة والمسوح حتى تقطَّع وأنتن.

وقال مجاهد: أول من أصابه الجدريّ في الدنيا أيوب.

وقال وهب: فأخرجه أهل القرية فألقوه على كناسةٍ، وبنوا عليه عريشاً، ورفضه الناس كلُّهم ولم يبقَ من يتردَّدُ إليه سوى زوجته رحمة، كانت تختلفُ إليه بما يصلحه، ولم يبق منه إلا اللسانُ للذكر والقلبُ للمعرفة، وكان تُرَى عروقه وأمعاؤه وعظامه من وراء جلده.

فإن قيل: فما الحكمة في ابتلائه بالدود؟ فالجواب: لأن المريضَ الذي أبعده عن بابه كان به هذا المرض، فاستقذره، فابتلي بمثل ذلك.

فإن قيل: فلم ابتلاه أولاً بأخذ المال ثم بالولد ثم بالنفس؟ فالجواب: لأن المال وقاية الولد، والولد وقاية النفس، والنفس وقاية القلب.

وقال وهب: ولما رأى أولئك النفر الثلاثة[٢] حاله هجروه واتهموه وجاؤوا إليه فأنَّبوه ولاموه، وقالوا: تبْ إلى الله فقد أذنبتَ ذنباً عظيماً، وكان معهم فتى حديث السن، وكانوا هم كهولاً، فقال الفتى: أيها الكهول، لقد كان لأيوب عليكم من الحقوق ما يوجب ترك كلامكم له، فهل تدرون حرمةَ من انتهكتم ومن الذي اتهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب صفوة الله وخيرته من خلقه؟ فإن كان ما نزل به من البلاء هو الذي نَقَصَ منزلته عندكم فإن الله يبتلي الصدّيقين والنبيين والشهداءَ والصالحين ليكونوا أئمة للصابرين وعظةً للعابدين، وليس ذلك لسخطه عليهم ولا لهوانهم عليه، ولكنها كرامة أكرمهم بها، وقد كان الواجب أن تساعدوه وترحموه وتبكوا معه لا أن تعيّروه وتوبخوه. فبكى أيوب وقال: إن الله يزرع الحكمة في قلب من يشاء وليستْ الحكمة بكبر السنِّ وطول التجربة.

ثم أقبل أيوب على الثلاثة وقال: أتيتموني مؤنبين[٣] ظالمين مُبَكِّتين، لقد أعجبتكم نفوسكم وظننتم أنكم ناجون من البلاء، تالله لقد اعتديتم وجُرتم، ولو أنصفتم لوجدتم

---

(١) القرن: جانب الرأس، وانظر عرائس المجالس ١٥٨.

(٢) يعني الثلاثة الذين آمنوا به، وقد مرَّ ذكرهم في الصفحة ٨.

(٣) في (ل) و(ب): مؤمنين، والمثبت من (ط).

لكم ذنوباً سترها الله عليكم بالعافية التي ألبسكم، ولقد كنتم فيما مضى توقرونني وتسمعون كلامي وتعرفون حقي، فأصبحتم اليوم أشدَّ عليَّ من مصيبتي، وذكر كلاماً طويلاً، ثم أعرض عنهم وسجد وقال: إلهي لأيٍّ شيء خلقتني؟ ليتك لمّا كرهتني لم تخلقني، يا ليتني كنت حيضة، يا ليتني كنت نسياً منسياً، ويا ليتني لم تلدني أمي، وذكر الثعلبي عن وهب كلاماً طويلاً أعرضت عنه لأن فيه نوعَ اعتراضٍ.

فصل في المدة التي أقام فيها في البلاء

واختلفوا فيها على أقوال:

أحدها: أنها كانت سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، قاله ابن عباس وعامة العلماء.

والثاني: ثلاث سنين، قاله وهب.

والثالث: ثماني عشرة سنة، قاله الربيع بن أنس. قال جدي في «التبصرة»: وقد رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ[1]. والأول أشهر لوجهين:

أحدهما: لما ذكر الحسن البصري، فإنه قال: أيوب: تنعمت سبع سنين فابتُليت سبع سنين.

والثاني: أنَّ المريض الذي وقف ببابه وردَّه أقام ببابه سبع ساعات فعوقب سبع سنين، وقال الحسن: مكث أيوب على الكُناسة سبع سنين، وكان يأخذ الدودة من الأرض إذا سقطت ويعيدها إلى جسده ويقول: كلي من رزق ربك، اللهم إنْ كان هذا رضاك فشدِّدْ، وإن كان من سخطك فاغفر.

فصل في سبب سؤاله العافية

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه اشتهى إداماً فلم يقدر عليه حتى باعت امرأته شعرها، أو قرناً من

(١) «التبصرة» ١/ ١٩٢، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ١٠٩، والثعلبي في عرائس المجالس ١٦٢، وانظر الدر المنثور ٤/ ٣٣٠، قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ١٨٩: رفع هذا الحديث غريب جداً.

شعرها، واشترت له ما طلب، فسبقها إبليس إليه وقال: قد وجدتُ امرأتك مع رجل، وقد قطع شعرها فحينئذ قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[الأنبياء:٨٣]، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أن الله أنساه الدعاء مع كثرة الذكر، فلما انقضى زمان البلاء ألهمه الله الدعاء، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: أن نفراً من بني إسرائيل مروا به فقال بعضهم: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم فعندها دعا، قاله نوف البكالي.

وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان له أخوان فأتياه يوماً فوجدا منه رائحة منكرة فقالا: لو علم الله من هذا خيراً ما بلغ به هذا، فما سمع شيئاً أشدَّ عليه من ذلك فقال: اللهم إن كنت تعلم أني لم أبتْ ليلة وأنا شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقني ـ وهما يسمعان ـ اللهم إن كنت تعلم أني لم ألبس قميصاً وأنا أعلم مكان عارٍ فصدقني، ثم سجد وقال: اللهم لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي فكشف ما به.

والرابع: أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلةٍ وقال: قولي له: ليذبحها وقد برأ، فجاءته وقالت: لقيني شيخ من صفته كذا وكذا وذكر كذا وكذا، فعرفه وقال: كدتِ أن تهلكيني، لئن فرَّجَ الله عنِّي لأجلدنك مئة جلدة، أمرتني أن أذبح لغير الله، ثم طردها عنه وبقي وحيداً ليس معه معين فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قاله الحسن.

والخامس: أن الله أوحى إليه في عنفوان شبابه: إني مبتليك، فقال: يا رب وأين يكون قلبي؟ قال: عندي، قال: افعلْ ما شئت، فلما ابتلاه قال: إني معافيك، فقال: وأين يكون قلبي؟ قال: عندك، قال ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قاله إبراهيم بن شيبان.

والسادس: أن الوحي انقطع عنه أربعين يوماً فخاف هجران ربه.

والسابع: أن الدود أكل جميع جسده، فلما دبَّ إلى قلبه خاف فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قاله مقاتل، وكان اثني عشر ألف دودة.

قال جدي رحمه الله في هذا المعنى: قال بلسان الحال: يا ربِّ قلبي هو الوكيل المنفق أموالَ الصبر، فإذا قضي عليه لم يبق للضيف قوت.

وقال ابن عباس: أكل الدودُ جميعَ جسد أيوب، فلما لم يبق شيءٌ سلَّط الله الدودَ بعضه على بعض فأكل بعضهُ بعضاً حتى بقيت دودتان، فجاعتا فأكلت الواحدة الأخرى، وبقيت واحدة فجاعت فدبَّتْ إلى قلبه لتنقره، فقال أيوب: إلهي إن فقدت حلاوة ذكرك من قلبي لم يهن عليَّ ما ابتُليت به ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[1].

والثامن: أن جبريل جاءه فقال: يا أيوب، لا تقدر أن تصبر معه، فإن بلاياه في خزائنه كثيرة، ومتى لم تشكُ إليه لا يرفع عنك البلاء، فاعترف بالعجز فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قاله ابن نجيح.

والتاسع: أن دودة عضَّته فآلمته ألماً زاد على جميع ما قاسى، فبكى فرحمه الله، قاله مقاتل.

والعاشر: أن زوجته مرضت فتأخرت عنه أياماً، فلم يبق له من يقوم بأمره فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ قاله مقاتل بن حيان.

وقال الجنيد: عرَّفه فاقة السؤال ليمنَّ عليه بكرم النوال.

وقال مجاهد: أوحى الله إليه: لولا أني أفرغتُ مكانَ كلِّ شعرة منك صبراً لما صبرتَ[2].

فإن قيل: فلم لم يدعُ أوّلَ ما نزل به البلاء؟ فالجواب من وجهين، أحدهما: أنه علم أمرَ الله فيه ولا تصرُّفَ للعبد مع مولاه.

والثاني: أنه أراد مضاعفة الثواب فلم يسأل كَشْفَ البلاء ليأخذ منه نصيباً.

فإن قيل: فكيف قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[ص: ٤١] والشيطان لا يمس؟ فالجواب من وجهين أحدهما: أنه لما كان الشيطان هو السبب فيما أصابه أضيف إليه.

والثاني: أنه ما كان يحسن به أن يقول مسَّني الله، فاستعمل الأدب مع الله، وإن كان ذلك بقضائه وقدره.

قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾[ص: ٤٢] قال ابن عباس: جاءه جبريل عليه السلام

(١) انظر «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٥.

(٢) انظر «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٩.

فقال له: قم قائماً، فقال: وكيف أقدر، فقال: قم قائماً، فقام وركض برجله، فنبعت عين ماء، فقال: اغتسلْ فاغتسلَ، ثم نحاه من مكانه وقال: اركضْ فركضَ، فنبعت عينٌ أخرى فقال: اشربْ فشربَ، فذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[ص: ٤٢].

فإن قيل: فقد كان يكفيه ركضة واحدة، قلنا: الركضة الأولى لزوال الضرّ، والثانيةُ دليل الفرح والطرب بالعافية. وإنما خصَّ الرجل بالركض لأن العادة جاريةٌ أن ينبع الماء من تحت الرجل، وكان ذلك معجزةً له.

قلت: وقد احتجَّ محمد بن طاهر المقدسيّ على جواز الرقص بهذه الآية، ولا حجة له فيها لأن ذلك الركض لم يكن رقصاً وإنما كان من باب المعجزات لا من باب الرقص المعتاد.

وقال السُّدي: جاءه جبريل بحلَّةٍ من الجنة فألبسه إياها، وكانت امرأته غائبة فجاءت فلم تعرفه، فقالت له: يا عبد الله أين المبتلى الذي كان هاهنا، لعلَّ الذئاب أكلته؟ فقال لها: أنا أيوب، فقالت: اتَّق الله ولا تسخر بي.

واختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾[الأنبياء: ٨٤] على قولين:

أحدهما: ذكره ابن عباس وابن مسعود قالا: كانت امرأته قد ولدت سبع بنين وسبع بنات، فردَّهم الله عليه، وأقامهم من قبورهم، وآتاه مثلهم في الدنيا.

والثاني: أن الله ما أحياهم وإنما آتاه أجورهم في الآخرة، قاله مجاهد وابن الكلبي.

والأول أصح، لأن الله سبحانه وتعالى نصّ عليه، وفيه إظهار شرف أيوب.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ردَّ الله على امرأته شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكراً.

وقال كعب: لما أمطر الله عليه الجراد من الذهب جعل يأخذ الجراد بيده فيجعله في ثوبه فأوحى الله إليه: يا أيوب، أفما شبعت؟ فقال: يا إلهي ومن يشبع من فضلك.

وقد روي مرفوعاً، قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بَينَما أيُّوبُ يَغتَسِلُ عُرياناً خَرَّ عليه جرادٌ مِن ذَهَبٍ، فجَعَلَ أيُّوبُ يَحثُو

في ثَوبِه، فناداه ربُّه تعالى: يا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُن أَغنيتُك عما تَرى؟ قال: بلى يا ربِّ، ولكِنْ لا غِنَى لي عن بَرَكتِكَ» انفرد بإخراجه البخاري(١).

وقال وهب: تطاير الجراد من الماء الذي اغتسل فيه، وكان له أَنْدَران أحدهما للقمح والآخر للشعير، فبعث الله سحابتين فأفرغت إحداها على أندر القمح ذهباً والأخرى [على أندر الشعير] فضة، وتطاير الجراد على الكلِّ وإنما خصَّ الجراد لكثرته(٢).

قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[ص: ٤٤] وهو الشِّمراخ، وقيل: الحزمة، من العيدان أو الحشيش ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾[ص: ٤٤] قال ابن عباس: كان قد حلف ليجلدنَّ زوجته مئةَ جلدة، وما كان ذلك يحسن في مقابلة صبرها وما لاقت في خدمته من الشدائد، فأفتاه الله تعالى بذلك.

واختلفوا في سبب يمينه على أقوال: أحدها: حديث السخلة التي جاء بها إليها إبليس، وقد ذكرناه. والثاني: أن إبليس جلس على طريق زوجته كأنه طبيب، فقالت له: يا عبد الله هاهنا رجلٌ مبتلى فهل لك أن تداويه؟ قال: نعم، على شرط أن يقولَ إنني شفيته، فأخبرته بذلك فقال: ذاك الشيطان، لله عليَّ إن شفَاني الله لأجلدنَّكِ مئة جلدة. قاله ابن عباس(٣).

والثالث: أن إبليس لقيها فقال: أنا الذي فعلت بأيوب ما فعلت، وأنا إله الأرض وجميع ما أخذتُ منه بيدي، فانطلقي أريك، ومشى بها غير بعيد ثم سحر بصرها فأراها وادياً عميقاً فيه أهلها وولدها، فأتت أيوب فأخبرته فقال: لعنه الله، ثم حلف، قاله وهب(٤).

وقال ابن عباس: قال إبليس لجنوده: قد أعياني أيوب، فقالوا: عليك بزوجته، فإنه ما أخرج آدم من الجنة غير امرأته، فجاء إليها فوسوس لها بأنواع الوساوس حتى حلف

(١) أحمد في «مسنده» (٨١٥٩)، والبخاري (٢٧٩).
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٧ وما بين معقوفين زيادة منه، والأندر: البيدر.
(٣) انظر «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٧.
(٤) انظر «تاريخ دمشق» ١٠/ ٦٧.

أيوب ليجلدنها مئة جلدة، فأفتاه الله لطفاً بها فجمع العيدان، وقيل: كانت مئة سنبلة، فضربها ضربة واحدة. وهل ذلك خاصٌّ له أو عام؟ قال ابن عباس: هو عام، وقال مجاهد: هو خاصّ، والأول أصح.

واختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده أو أمته أو زوجته مئة سوط، أو أقل أو أكثر، فأخذ حزمةً وضرب بها، قال أصحابنا: إن أصابه بكلٍّ واحد منها برىء في يمينه، وقال الشافعي ومالك وأحمد: لا يبرأ، وجه قولهم: إن ذلك كان خاصّاً بامرأة أيوب رفقاً بها، وهذا المعنى معدوم في حق غيرها. ولنا: ما كان جائزاً في شرع غيرنا فهو جائزٌ في شرعنا إلا أن يوجد النسخ، ولم يوجد، قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠].

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾[ص: ٤٤] ولم يصبر حتى قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ فأين صبره؟ فالجواب: أنَّ المذموم هو الشكوى إلى الخلق، أمَّا إلى الخالق فلا. وشكواه إلى الله بما ذكرنا من الأسباب لا يدلُّ على أنه لم يصبر، ألا ترى إلى قول يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٦]، ثم قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[يوسف: ١٨ ؛ ٨٣] على أن قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ قد ذهب بعض العارفين إلى أنه دعاء لا شكوى، وقد أشار إليه أبو القاسم ابن حبيب قال: والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾[الأنبياء: ٧٦] والاستجابة إنما تتعقب الدعاء.

فإن قيل: فكيف الجمع بين قوله ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ وبين قوله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[التحريم: ٢].

فالجواب: إنه لم يكن في من تقدَّم من الأمم كفارةُ يمين، وإنما شُرِعَتْ لهذه الأمَّة تخفيفاً عنها، فتأخذ مرةً بالعزيمة ومرة بالرخصة.

وقد روى مجاهد عن ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً قال: يجاء يوم القيامة بالمريض فيقول له الله تعالى: ما منعك أن تعبدني؟ فيقول: يا رب، ابتليتني ببلاءٍ شغلني عن عبادتك، فيجاء بأيوب في ضرِّه وبلائه ويقال له: أنت أكثر بلاءً أم هذا؟ فيقول: لا بل هذا، فيقول: إن هذا لم يمنعه ما كان فيه عن عبادتي لحظةً قطُّ.

فصل في ذكر وفاته

واختلفوا في سنِّه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عاش مئةً وستاً وأربعين سنة، قاله ابن عباس، وقال: عاش منها بعدما ذهب عنه البلاء سبعين سنة.

والثاني: ثلاثاً وسبعين سنة، قاله مجاهد. والثالث: ـ وهو الأشهر ـ أنه عاش ثلاثاً وتسعين سنة، ذكره الطبري في «تاريخه» وجدي في «أعمار الأعيان»(١).

قال جدي: وعاش لهذا السن جماعة، منهم أبو أيوب الأنصاري، ومحمود بن الربيع، وسليمان بن صُرَد، والهيثم بن عديٍّ، وأبو الحسن المدائني صاحب التاريخ، ومحمد بن بكَّار، وإدريس بن عبد الكريم، ويونس بن عبد الأعلى، وطِراد الزَّينَبي، وأبو القاسم ابن الحصين، وأبو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري، وأبو سعد الزُّوزَني وغيرهم(٢).

ودفن أيوب بالشام بالبَثَنِيَّة، وقبره ظاهر بها، وأوصى إلى أخيه حومل بن أموص.



(١) «تاريخ الطبري» ١/ ٣٢٤، و«أعمار الأعيان» ص ٨٢.

(٢) «أعمار الأعيان» ص ٨٢ـ٨٣.

فصلٌ
في ذِكر شُعَيب عليه السَّلام[(١)]

قال مقاتل: ذكر اللهُ شعيباً في تسعة مواضع.

وشعيب اسم عربي وليس بأعجمي، وقد ذكرنا هذا[(٢)].

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه شعيب بن عيفا بن نويب بن مدين بن إبراهيم عليه السلام. ذكره وهب ابن منبه وجدِّي في «التبصرة»[(٣)].

والثاني: شعيب بن نويب بن مدين بن برعويل بن عيفا بن مدين بن إبراهيم، ذكره أبو الحسين ابن المنادي[(٤)].

والثالث: شعيب بن بحرون بن نويب بن مدين، ذكره الثعلبي. وقال الشرقي بن القَطامي ـ وكان عارفاً بأنساب العرب ـ: اسم شعيب القديم يثرون بالعبرانية، وشعيب بالعربية[(٥)]. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[الأعراف: ٨٥] [هود: ٨٤] [العنكبوت: ٣٦] الآية.

واختلفوا في مدين على أقوال:

أحدها: أنه ابن إبراهيم لصلبه، قاله مقاتل.

والثاني: أنه مدين بن مديان بن إبراهيم عليه السلام، قاله أبو سليمان الدمشقي.

والثالث: أنه اسم ماء كان عليه قوم شعيب، قاله قتادة[(٦)].

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٣٢٥، وتفسيره ١٢/ ٥٥٤ و١٥/ ٤٤٣، «عرائس المجالس» ص ١٦٧، تفسير الثعلبي ٤/ ٢٦٠ و٥/ ١٨٥ و٧/ ١٧٨، «المنتظم» ١/ ٣٢٤، «التبصرة» ١/ ٢٠٤، «زاد المسير» ٣/ ٢٢٨ و٤/ ١٤٨ و٦/ ١٤١، والبداية والنهاية ١/ ٤٢٥

(٢) انظر قصة آدم عليه السلام.

(٣) «التبصرة» ١/ ٢٠٤.

(٤) انظر «المنتظم» ١/ ٣٢٤.

(٥) انظر «المنتظم» ١/ ٣٢٤.

(٦) انظر «التبصرة» ١/ ٢٠٤، و«زاد المسير» ٣/ ٢٢٨.

والرابع: أنه اسم بلدة معروفة تنسب إلى مدين بن إبراهيم، قال الشاعر:

رُهبانُ مَدينَ والذين عَهِدتُهُم يُمْسونَ من ألمِ الفِراقِ هُمُودَا[١]

والخامس: أن مدين اسم دارِ شعيب. قال الجوهري: اسم قرية شعيب[٢]. والأيكةُ خلفها.

والسادس: أن مدين اسم القبيلة، روي عن مقاتل.

قال: ومعنى الآية: أرسلنا شعيباً إلى وَلَد مدين، وهي القبيلة؛ وعامة المؤرخين على أن مدين ابن إبراهيم لصلبه، ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: أرسلناه إليهم.

وذكر ابن قتيبة في «المعارف» عن وهب: أن شعيباً وبلعم كانا من ولد رهطٍ آمنوا بإبراهيم يوم أُحرق بالنار وهاجروا إلى الشام، وتزوجوا بنات لوط، فكلُّ نبيّ كان قبل بني إسرائيل وبعد إبراهيم من ولد ذلك الرهط. وحكى أيضاً أن جدَّة شعيب بنت لوط. ولم تكن مدين قبيلة شعيب، ولكنها أمة بعث إليها[٣]. وعامة العلماءِ على خلاف قول ابن قتيبة.

وقال ابن عباس: كان شعيب يسمَّى خطيبَ الأنبياء لفصاحته وحسن مراجعته قومه. وقيل: كانت معجزته في خطبته. وقيل: لم يسم معجزته، وإنما قال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٨٤].

وقال الشَّرقي بن القَطامي: بُعِثَ إلى مدين وهو ابن عشرين سنة، وكانوا مع عبادتهم الأوثان يبخسون المكاييل والموازين، فنهاهم عن التطفيف وعبادة الأوثان وقال: يا قوم ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾[هود: ٨٤] أي: موسرين في خصب وعيش وسعة. وحذَّرهم غلاءَ السعر، وزوال النعمة، وحلول النقمة.

وقال قتادة: إنما كان يخاطبهم بلسان العرب، لأنه من العرب الأُوَل، من ولد

---

(١) هو كُثير عزة، انظر «ديوانه» ١٣٣.

(٢) «الصحاح» (مدن).

(٣) «المعارف» ص ٤١ـ٤٢.

المحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم.

وقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[هود: ٨٥] أي: أتموهما ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي: بالعدل. وقال ابن عباس: إنما قال لهم: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾[هود: ٨٥] الآية، لأنه لم يؤمر بالقتال.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأوثان، وكان كثير الصلاة والتلاوة ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ وكانوا يقصُّون جوانبَ الدنانير والدراهم لينقصوها ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[هود:٨٧] أي: السفيه، كما يقال للديغ سليم. وقيل: على وجه الاستهزاء.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ أي: خلافي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾[هود: ٨٩] فقالوا في الجواب: ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾[هود: ٩١] أي: ضعيف البصر. قال مجاهد: ثم عمي في آخر عمره، وقيل: إنه بعث وهو أعمى، وأنكر قوم هذا، وقالوا: ما بعث الله نبياً أعمى ولا به زمانةٌ، لما نذكر.

ثم قال: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾[الأعراف:٨٦] يقال: وعدته في الخير، وأوعدته في الشر. وحكى جدي في «التبصرة» عن سعيد بن جبير أنه قال: كان قد ذهب بصره. قال: وقال ابن المنادي: إن ثبت هذا فهو كان في آخر عمره، لأنه لا يُبْعَثُ نبيٌّ أعمى. قال ابن المنادي: وقد قال أبو رَوْق: لم يبعثِ الله نبياً أعمى ولا به زمانة. وهذا القولُ أليطُ بالقلوب من قول سعيد بن جبير[1].

واختلفوا في الصراط على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا يقعدون على الطريق يصدُّون من آمن به، قاله ابن عباس[2].

والثاني: أنهم كانوا عشَّارين، قاله مجاهد والسدي[3].

والثالث: كانوا يقطعون الطريق، قاله أبو رَوْق وابن زيد[4].

---

(١) «التبصرة» ١/ ٢٠٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٥٥٧.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٧، و«زاد المسير» ٣/ ٢٢٩.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٧، و«زاد المسير» ٣/ ٢٢٩.

و﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصرفون المؤمنين عن إيمانهم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[هود: ١٩] أي السبيل، والعِوج: الزيغ. ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾[الأعراف: ٨٦] يعني في العدد، وقيل: في الأموال، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾[هود: ٩١] أي: شتمناك، وقيل: قتلناك. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أتراعون رهطي ولا تراعون الله فيَّ ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾[هود: ٩٢] أي رميتم أمره وراء ظهوركم ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[هود: ٩٣] لكم العذاب، ولي وللمؤمنين الثواب.

ذكر عذابهم

قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾[هود: ٩٤] واختلفوا فيهم، قال ابن عباس: صاح بهم جبريل صيحةً فماتوا عن آخرهم و﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[هود: ٩٤].

وقال محمد بن كعب القُرَظي: عُذِّبَ أهلُ مدين بثلاثة أصناف من العذاب، صنف أخذتهم الرجفة، فخافوا أن تسقط عليهم ديارهم، فخرجوا منها، فأصابهم حرٌّ شديد، فبعث الله الظلة، فتنادوا هلموا إلى الظل، فدخلوا فيه، فصيح بهم صيحة واحدة، فماتوا كلهم. قال جدي رحمه الله في «التبصرة»: وهذا القول يدلُّ على أن أهل مدين هم أصحاب الظُّلَّةِ، وإليه ذهب جماعة من العلماء. وذهب مقاتل إلى أن أهل مدين لما هلكوا بُعِثَ شعيب إلى أصحاب الأيكة، فأهلكوا بالظلة[1]. وقال مجاهد: ومعنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾[الشعراء: ١٧٦] أنَّ المراد به: شعيب، لأنه من المرسلين. والأيك: الشجر الملتفُّ، الواحدة: أيكة، فيها لغتان، أيكة وَلَيْكَة. وقيل: الأيكة الغيضة، ولَيْكَة اسم القرية. وقيل: هما واحد، مثل مكة وبكة.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: وكان أبو جاد، وهواز، وحُطي، وكلمون، وسعفص، وقرشت، ملوك أهل مدين، وهم بنو الأمحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم. وكان أبو جاد ملك مكة وما والاها من تهامة، وكان هوَّز، وحطي،

(١) «التبصرة» ١/ ٢٠٦.

ملكي وجٍّ ونجد ـ والطائف هو وجٌّ ـ وكان سعفص وقرشت ملكي مدين، ثم خلفهم كلمون، وكان عذاب يوم الظلة في ملكه، فقالت حالفة ابنة كلمون ترثيه(١):

كلمونٌ هدَّ ركني ... هُلْكُهُ وَسْطَ المحلَّهْ
سيِّدُ القومِ أتاه الـ ... حَتفُ ناراً وَسْطَ ظُلَّهْ
كوَّنت ناراً فأضحت ... دارهم كالمضمحلَّهْ

ثم إنَّ شعيباً أقام في أهل الأيكة يدعوهم إلى الله فما ازدادوا إلا عتوًّا، فسلَّط الله عليهم الحرَّ.

وقال قتادة: أما أهل مدين فأخذتهم الصيحة والرجفة، وأما أصحاب الأيكة فسلَّط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم، فذلك عذاب يوم الظلة.

وقال مجاهد: حبس الله عنهم الريح سبعة أيام، وسلط عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى أخذت بأنفاسهم، فدخلوا الأسراب ليتبردوا فيها، فوجدوها أشدَّ حرّاً من الظاهر، فهربوا إلى البريَّة، فأظلتهم سحابة عظيمة، فوجدوا فيها بَرْدَ النسيم، فتنادوا تعالوا إلى الظلِّ والبرد، حتى إذا اجتمعوا تحتها أمطرت عليهم ناراً فاحترقوا.

فالحاصل أن شعيباً بُعث إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة، وإنما اختلفوا إلى أيهم بُعث أولاً.

وقال قتادة: كان في قوم شعيب رجل يقال له: عمرو بن جَلْهاء، فلما رأى العذاب قال(٢):

يا قوم إنَّ شعيباً مُرْسَلٌ فذَرُوا ... عنكم سُميراً وعمرانَ بن شدَّادِ

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٨، و«التبصرة» ١/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) إلى هنا تنتهي نسخة (ل) وجاء في آخرها: انتهى الجزء الأول يتلوه الثاني شعر عمرو بن جلهاء، تم بحمد الله وعونه، وكان الفراغ منه يوم الأحد مستهل شعبان المبارك، سبع عشر وسبعمائة، وكتبه العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن العلم الحكيمي غفر الله له ولوالديه ولصاحب الكتاب ولجميع المسلمين آمين آمين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. وسأعتمد فيما يأتي من هذا الجزء إلى قصة زكريا ويحيى: مطبوعة الدكتور إحسان عباس، ونسخة (ب) رغم اختصاراتها الكثيرة والتقديم والتأخير فيها الذي بدأ من هنا.

إنـي أرى غـيـمـةً يـا قـومُ قـد طـلـعـت تـدعـو بـصـوت عـلـى صـمَّـانـةِ الـوادي
وأنــه لــن تــروا فــيــهــا غــداةَ غــدٍ إلَّا الـرَّقِـيـم تُـمَـشِّـي بـيـن أنـجـادي

وسمير وعمران: كاهِنان، والرقيم: اسم كلب(١).

وقال ابن المسيب: لما انهزموا من الأسراب رُفِعَ لهم جبلٌ تحته أنهار وعيون، فاجتمعوا تحته، فقلب الله عليهم الجبل. وقال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هود: ٩٥] أي: لم يسكنوا بمغانيها، من قولهم غنيتُ بالمكان إذا أقمت به، والمغاني: المنازل. وقال السدِّي: ولما هلكوا رثاهم بعضهم فقال(٢):

ملوك بني حُطِّي وسَعفَص ذو النَّدى وهـوز أربـاب الـبـنـيَّـةِ والـحـجـر
هـمُـو مَـلَـكـوا مُـلْـكَ الـحـجـاز بـأوجـهٍ كـمثـلِ شُـعـاع الـشـمـسِ أو هـالـةِ الـبـدر
وهـم وَطَّـنـوا الـبـيـت الـحـرامَ ورتَّـبـوا أمـوراً وسـادوا بـالـمـكـارم والـفـخـر

ذكر وفاة شعيب وموضع قبره

واختلفوا فيه: فقال علماء السير: أقام مدةً بعد هلاك قومه، ووصل إليه موسى عليه السلام، وزوَّجه بابنته. قال جدي رحمه الله في «التبصرة»: ثم خرج إلى مكة فمات بها وعمره مئة وأربعون سنة، ودفن في المسجد الحرام، حيالَ الحجر الأسود(٣).

قلت: وعند طبرية بالساحل قرية يقال لها: حطين فيها قبر يقال: إنه قبر شعيب، وما ذكره جدي أصحُّ؛ وكان شعيب قد أوصى إلى موسى.

وقال جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان»: وتوفي بهذه السن: فروة ونفاثة، ومعاذ ابن حيان، ومرارة(٤).

وقال الشَّرقي بن قَطامي: إن الله بعث نبياً آخر بعد شعيب، يقال له: شعيب بن ذي مهدم بن حصورا، إلى بني حصورا، وهم أمَّةٌ عظيمة من ولد يافث بن نوح، وكانت

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٨.
(٢) القائل هو: المنتصر بن المنذر. إن صحَّ ذلك، فالأبيات نسبت إليه في «الروض المعطار» ص ٧١.
(٣) «التبصرة» ١١/ ٢٠٧.
(٤) «أعمار الأعيان» ص ٩٩ـ١٠٠.

منازلهم بالسماوة، بين الشام والعراق، وكانت عمائرَ متصلةً، ومياهاً جاريةً، وبساتين مثمرة، وقد ذكرها الزبير بن بكار فقال: حدُّ السماوة من أطراف الشام إلى الحجاز والعراق إلى قنَّسرين وخناصرة إلى بلاد سورية ودِمشق وهي اليوم مفاوز وقفار. وكانوا في عيش ونعمة، فبعث الله إليهم شعيب بن ذي مهدم، فقتلوه، فأوحى الله إلى بعض أنبياء بني إسرائيل أن يأمر بعض الملوك بغزوهم، وقال له: تغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم فغزاهم. ويقال: إنما غزاهم بخت نصر، ويقال: إنه صاح بهم صائح من السماء فماتوا، وهم الذين عنى الله تعالى بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾[الأنبياء: ١٢] في قول مقاتل.

ومن الحوادث التي كانت في أيام شعيب عليه السلام

منوجهر ـ بالجيم ـ وهو ابن أمان[١] بن إيرج بن أفريدون ـ الذي ذكرناه فيما تقدم ـ وبعث موسى وكان قد مضى في ملكه ستون سنة، وعاش في الملك ستين سنة أخرى، وكان عادلاً سمحاً جواداً محسناً. ويقال: هو أول من حفر الخنادق، ورتَّب آلات الحرب، وهو من أكابر ملوك الفرس، وكان مقيماً بالمشرق يغازي الترك، والحدُّ الفاصل بينه وبين الترك جيحون. ولما مضى من ملكه خمس وثلاثون سنة، أغارت الترك على بلاده، وقطعت جيحون، فجمع الموابذة، والأساورة، وعظماء المملكة، وأجلس موبذان عن يمينه، وهو عالم العلماء، ثم لبس التاج وثياب الملك، ثم قام خطيباً، وهو أول من خطب في الدنيا من الملوك[٢].

ذكر خطبته

قال علماء السير: قام قائماً على سريره فقاموا لقيامه، فقال: إنما قمتُ لأسمعكم فاقعدوا، فقعدوا، فحمد الله وأثنى عليه وقال بالفارسية كلاماً معناه: وإنما الناس ناس ما دفعوا العارَ عنهم والعدوَّ عن بلادهم، وقد نال العدوُّ من أطراف بلادكم، وليس ذلك إلا من ترككم جهادَهُمْ، وقلَّةِ مبالاتكم بهم، وإن الله إنما أعطانا هذا الملك

(١) في (ب) منوسهر الملك بن أمان وعند الطبري: منوشهر. انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٣٧٧.
(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٣٧٩، و«المنتظم» ١/ ٣٢٦ـ٣٢٧.

لنشكر فيزيدنا، أو نكفرَ فيعاقبنا، إنما الخلق للخالق، والشكرُ للمنعم، والتسليمُ للقادر، ولابدَّ من كون ما هو كائن، وإن التفكر نور، والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة، وقد ورد الأولُ، ولابدَّ للآخر من اللحاق به، وقد مضى قبلنا أصولٌ نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد ذهاب الأصول، وإنَّ الله أعطانا الملك، فله الحمد ونسأله الرشدَ واليقين والصدق، وإنما للمَلِك على أهل مملكته أن يطيعوه ويناصحوه، ويقاتلوا عدوَّه، وحقهم على الملِكِ إدرار أرزاقهم، وأن يرفقَ بهم، ويحسنَ إليهم، ولا يحملهم ما لا يطيقون، ولا يكلفهم ما هم عنه عاجزون. واعلموا أن الجند للمَلِك بمنزلة جناحي الطائر، فمتى نقص من الجناح ريشُهُ كان ذلك نقصاناً منه. وينبغي أن يكون الملِكُ جواداً صدوقاً، لا كذوباً ولا ظالماً، ولا حقوداً ولا حسوداً، ولا بخيلاً، وأن يملك نفسه عند الغضب، فإنه مسلَّط ويده مبسوطة، وأن يكون عفوّاً صفوحاً، ولأن يخطىء في العفو خيرٌ من أن يصيب في العقوبة. وينبغي للملك أن يتثبَّتَ في الأمر الذي فيه قتلُ النفسِ وإزهاقُ الروح، وإن رفع إليه عاملٌ ما فيه عقوبة، جمع ما بينه وبين المتظلِّم، فإن صحَّ عنده الحقُّ في جهةٍ مال إليها. ألا وإنَّ الملك ملكٌ إذا أطيع، فإذا خولف فهو مملوك. ألا وإنَّ العدوَّ قد طمع فيكم، فانهضوا إلى قتاله، وقد أَزَحْتُ العللَ بالأموال والسلاح، وأنا شريككم في الرأي إن شاء الله؛ وذكر كلاماً طويلاً.

ثم أمر بالطعام فمدَّت الموائد، وأفاض عليهم الإنعام، فدعوا له وشكروه، وكتبوا هذه الخطبة بماءِ الذهب، وأودعوها في خزائن الفرس، فما زالوا يتوارثونها. وعاش في الملك مئة وعشرين سنة، وسار في جيوشه إلى الترك، فدوَّخ بلادهم. وولي بعده أفراسياب، وقيل: ابن أفراسياب التركي، وسنذكره(١).

وفي زمان شعيب كان الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ويلقب بالرائش، وسنذكره في ملوك اليمن، إن شاء الله تعالى.



---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٣٨٠ـ٣٨١ـ٣٨٢ـ٣٨٣، و«المنتظم» ١/ ٣٢٧ـ٣٢٨ـ٣٢٩.

فصل(١)

في ذِكر مُوسى بن عِمْران علَيه السَّلام(٢)

قال مقاتل: ذكر الله موسى في مئة وثمانية عشر موضعاً. وذكر أبو منصور الجواليقي في «المعرب» فقال: وموسى اسم النبي ﷺ أعجمي معرَّب، وأصله بالعبريَّة موشا. وقال أبو العلاء المعري: ولم أعلمْ أنَّ في العرب من سمي موسى في الجاهلية، وإنما حدث في الإسلام لما نزل القرآن، وسمى المسلمون أبناءهم بأسماء الأنبياء على سبيل التبرك(٣).

وأما نسبه فهو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي، ابن يعقوب. وقيل: موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، واسم أمه يوخابذ. وكان بين موسى وإبراهيم ألف سنة.

وقال أهل التوراة: كان قبل موسى بن عمران نبيٌّ يقال له: موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، عليه السلام، وقد ذكرناه. وكان موسى راعياً.

ذكر صفته

قال وهب: وكان موسى [عليه السلام آدم] جَعداً طُوالاً، كأنه من رجال أزْد شَنوءة. وقد وصفه النبي ﷺ لما نذكر. وكان في أرنبة أنفه شامة، وكذا على طرف لسانه.

قال ابن قتيبة في «المعارف»: ولا يعرف أحد قبله ولا بعده، كانت على طرف لسانه شامة غيره، وهي العقدة التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧﴾[طه: ٢٧] قال: وكان في وجه أخيه هارون شامة، وكان أخاه لأبيه وأمه. وكان

---

(١) في (ب): الباب السادس عشر. وليس لدينا في هذا القسم ـ إلى قصة زكريا ـ نسخة غيرها، وهي مختصرة، وسياقها مخالف في مواضع كثيرة منه لما في مطبوعة إحسان عباس، لهذا اعتمدنا المطبوعة، وأشرنا إلى ما في النسخة (ب) من زيادات وخلاف.

(٢) انظر: «تاريخ الطبري» ١/ ٣٨٥، «عرائس المجالس» ص ١٦٨ـ١٦٩، «المنتظم» ١/ ٣٣١، «التبصرة» ١/ ٢١٨.

(٣) «المعرب» ص ٣٥٠.

هارون أسنَّ منه بثلاث سنين، وكانت مريم بنت عمران أختهما أسنَّ منهما، وكانت تحت كالب بن يوفنَّا بن فارض به يهوذا بن يعقوب، عليه السلام.

وقال ابن قتيبة: لم يكن بين آل يعقوب وأيوب نبيٌّ، حتى كان موسى[١].

وقال ابن عباس: مات موسى وهارون ولم يريا الشيب.

فصل في الفراعنة

اختلفوا في فرعون موسى على أقوال:

أحدها: أن اسمه الوليد بن الريان، قاله مقاتل.

والثاني: الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبي نمير بن الهلواش بن عمرو بن عملاق، وعملاق قبيلة، قاله قتادة.

والثالث: الوليد بن مصعب بن الريان.

والرابع: قابوس، ذكره في التوراة.

والخامس: مغيث، قاله ابن أبي نجيح.

والسادس: الوليد بن مصعب، قاله ابن أبي عون.

وقال قتادة: الفراعنة ثلاثة:

أولهم: سنان بن الأشل بن علوان بن العبيد بن عويج بن عمليق؛ وهو صاحب سارة، وكان في زمان الخليل عليه السلام بمصر.

والثاني: الريان بن الوليد بن ليث، وهو فرعون يوسف عليه السلام.

والثالث: فرعون موسى على الاختلاف في اسمه.

وقال وهب: فرعون موسى من القبط عاش أربع مئة سنة، وهو الرابع من الفراعنة، وكان أخبثهم، وذلك لأن فرعون يوسف لم يكن يؤذي بني إسرائيل، ويحسن إليهم ويكرمهم؛ وفرعون موسى عذبهم بأنواع العذاب، لما يذكر.

---

(١) «المعارف» ص ٤٣.

وقد قال قوم: إن فرعون يوسف هو فرعون موسى، وإنه عاش إلى زمان موسى عليه السلام، وهو وَهَم، بينهما زمان طويل.

وقال الجوهري: فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر، وكل عاتٍ متمرد فرعون، والعُتاةُ الفراعنة، وهو ذو فَرْعَنَةٍ، أي: دهاء ونكر[١].

وقال ابن الجواليقي: والفرعنة مشتقةٌ من فرعون[٢].

واختلفوا في صفته: قال وهب: كان قصيراً، ولحيته سبعة أشبار. وقيل: كان طوله قدر ذراع. وقيل: كان طُوالاً.

واختلفوا في أي مكان كان على أقوال:

أحدها: أنه مَعْلَثايا[٣] من بلد المَوصل، وفي هذا المكان قلعة تعرف بفرعون.

الثاني: أنه من بَلْخ، وكان هامان خبازاً ببَلْخ، وفرعون يومئذ فقير، قاله وهب.

والثالث: من بوشنج، قاله مقاتل.

والرابع: من أهل أصبهان، حكاه عبد الله بن المبارك.

فحكى يعمر بن بشر عن ابن المبارك، قال: كان عطاراً بأصبهان فأفلس وركبه دين، فخرج منها هارباً من الدَّين إلى الشام، فلم يستقمْ له حال، فأتى مصر، فرأى على باب المدينة وِقْرَ حملِ بطيخ، فسأل عن سعره، قيل له هذا بدرهم، فدخل المدينة فرأى وقرَ بطيخ، فسأل عنه، فقيل له: كلُّ بطيخة بدرهم، فقال: من هاهنا أقضي ديني، واشترى وقراً بدرهم، وأتى به باب المدينة، فنهبه البوابون حتى بقيت بطيخة واحدة، فباعها بدرهم، فقال: ما هذا؟ أما هاهنا أحدٌ ينظر؟ فقالوا: ملكنا مشغولٌ بلذته، وقد فوَّضَ الأمور إلى وزير له، ولا ينظر في شيء. فخرج فرعون إلى المقابر، فجعل لا يمكِّن أحداً من الدفن إلا بخمسة دراهم، وأقام على ذلك مدة لم يتعرض له أحد، فماتت بنت الملك فقال: هاتوا خمسة دراهم، فقالوا: ويحك، هذه بنت الملك، فقال:

---

(١) «الصحاح» (فرعن).

(٢) «المعرب» ص ٢٩٤.

(٣) في (ب) بدل المعكوفات: وكان من معلثايا، والمثبت من (ط).

هاتوا عشرة دراهم، فلم يزلْ يضاعفها عليهم حتى بلغ مئة درهم، فأُخبر الملك بحديثه فقال: ومن هذا؟ قالوا: عامل الموتى، فأرسل إليه الوزير فسأله عنه، فأنكر حاله، فأرسل إليه الملك وقال: من أنت؟ فأخبره بخبر البطيخ، وقال: ما صرتُ عاملَ الموتى إلا حتى يصلَ إليك خبري وتحضرني فأنصحك. استيقظْ لنفسك، واحفظ ملكك وإلا ذهب منك، فاستوزره وقتل الوزير، وفوَّض إليه الأمور، فسار في الناس سيرة حسنة، وكان عادلاً سخياً، يقضي بالحقِّ ولو على نفسه، فأحبه الناس. وتوفي الملك فولُّوه عليهم، فعاش زماناً طويلاً حتى مات منهم ثلاثة قرون وهو باقٍ، فبطر وتجبر وطغى وقال: أنا ربكم الأعلى[١].

وقال مجاهد: ولما خرج من خراسان تبعه هامان، لما كان بينهما من الصداقة فاستوزره.

والظاهر أن فرعون كان من القبط لما يذكر فيما بعد. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: كان سخياً عادلاً، فلذلك دام ملكه. وقيل: إن ابن عباس هو القائل: كان يقضي بالحق على نفسه.

فصل في مولد موسى عليه السلام وحاله مع فرعون إلى أن خرج من مصر

قال علماء السير، كوهب بن منبه والكلبي والسدي وغيرهم، قالوا: رأى فرعون في منامه كأن ناراً أقبلت من البيت المقدس فأحرقت بيوتَ مصر وقصرَ فرعون والقبط فلم يبق منهم أحد، فهاله ذلك، فجمع الكهنة والسحرة وأخبرهم بما رأى، فنظروا في علومهم فقالوا: يولد مولود في بني إسرائيل يكون هلاكك وهلاك قومك على يده. وذكر جدي رحمه الله في «التبصرة» وقال: كانت الكهنة قد أخبرت فرعون وقالت: يولد مولود في بني إسرائيل يكون هلاكك على يده[٢]. ولم يذكر المنام، وهو أصح، لأن موسى إنما ولد بمصر لا ببيت المقدس، فالنار التي أحرقت بيوتَ مصر إنما خرجت من مصر.

(١) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٣٣٢ـ٣٣٣.
(٢) «التبصرة» ١/ ٢١٨.

قالوا: فأمر فرعون بذبح كل مولود يولد في بني إسرائيل، ووكل الشُّرَط مع القوابل كلَّما وُلِدَ مولودٌ ذبحوه، وأسرع الموتُ في مشيخة بني إسرائيل، فقال رؤساء القبط لفرعون: قد أمرت بذبح الأبناء، وقد أسرع الموت في المشايخ، فإن دمت على هذا لم يبق لنا من يخدمنا. فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فولد هارون قبل موسى في السنة التي لم يذبح فيها، وولد موسى في ا لسنة التي يذبح فيها، بعد أن ذبح من بني إسرائيل سبعين ألفاً، وقيل: تسعين ألفاً. فلما ولد موسى دخل الطلب إلى بيت أمه، فألقته في التنور، فلما خرجوا قامت إلى التنور وهو يُسْجَر، فرأته سالماً، فألهمها الله أن صنعت تابوتاً من البرديِّ ـ وقيل: إنما صنعه رجل مؤمن من آل فرعون ـ فأوحى الله إلى يوخابذ، أمِّ موسى، أن اقذفيه في التابوت ثم اقذفيه في اليمِّ ـ يعني: في النيل ـ ففعلت ذلك بعد أن أرضعته.

فإن قيل: فلم أُمِرَتْ بإلقائه في الماء، قال أبو حنيفة ابن النُّوبي: ليختفي على الكهان أمره، لأن المولود إذا وقع في الماء خفي نجمه. وقيل أيضاً: قيل لأمِّه: اطرحيه في التلف لأنجيه بالتلف.

فسار الماء بالتابوت، وكانت قد زَفَّتَت[1] التابوت، ولفَّت موسى في القطن، فساقه القدر إلى نهرٍ يأخذ من النيل إلى دار فرعون، ووافق جلوسَ فرعون في ذلك الوقت على البركة، ومعه آسية بنت مزاحم، فدخل التابوتُ إلى البركة، فقال فرعون للخدم والجواري: أخرجوه، فأخرجوه، ففتح التابوت فرآه، فقال: عبراني، كيف أخطأه الذبح وأمرُ السنة؟ فقالت آسية: هذا أكبر من سنة، فدعه عسى أن يكون ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾[القصص: ٩] وكان لا يولد لفرعون إلا البنات، وأحبَّه فرعون حباً شديداً بحيث لم يصبر عنه لحظة. قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[طه: ٣٩]. قال قتادة: كان في عينيه ملاحة ما رآه أحدٌ إلا وأحبه.

فإن قيل: فأي مناسبة بين الماء والنار؟ ولم كان مبدأ موسى ومنتهاه معهما؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: لأن الماء مغرق، فكأن فيه إشارة إلى هلاك عدوِّه ونجاته. وأما النار فمن

(١) أي طَلته بالزّفت لئلا يتسرب إليه الماء، وعند الثعلبي: قَيَّرت، أي طلته بالقار.

عاداتها الإحراق، ولكن ظهرت معجزات موسى بأن حصل له المقصود بالتكليم منها.

والثاني: لأن طبع النار على تليين الأشياء، وطبع الماء على الترطيب، فأثَّر ذلك في العصا التي كانت في معجزاته.

والثالث: أن في النار والماء بقاءَ العالم، فكذلك كان في موسى حياة الدِّين.

وقال الضحاك: لما ألقته أمه في النار خافت، فلما ألقته في اليم ندمت وجزعت، فربط الله على قلبها، فقالت لأخته مريم: ﴿قُصِّيهِۖ﴾[القصص: ١١] أي: اتبعي آثاره، فدخلت دار فرعون فوجدته عند آسية، وقد جمعت له المراضع فلم يقبل ثدياً، فقالت مريم أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥۖ﴾ [طه: ٤٠] أي: من يرضعه ويضمه إليه؟ فقالت آسية: نعم، فأرسلت إلى أمه فجاءت فأعطته ثديها فقبله وشرب ونام، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾[طه: ٤٠] وفي مصحف أبيٍّ بن كعب: «فرددناك إلى أمك كي تقر عينها بلقائك». فلما تمَّ رَضاعُهُ رَدَّتْهُ إلى دار فرعون، فأخذه يوماً في حجره، فمدَّ يده للحيته، فقال: عليَّ بالذابح، فقالت آسية: إنما هو صبيٌّ لا عقل له، وأحضرت ياقوتاً وجمراً فأخذ جمرة فوضعها في فيه، فاحترق لسانه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧ـ٢٨].

فإن قيل: فأنّى اشتبه بالنار؟ ويوم التنور ألقي فيها فلم تحرق لسانه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه قال لفرعون يوماً: يا «بابا»، فعوقب لسانه ولم تعاقَبْ يده لأنها مَدَّتْ بلحية فرعون، ولهذا ظهرت المعجزة في اليد دون اللسان ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[طه: ٢٢].

فإن قيل: فـ «بابا» مخرجها من الشفتين، قلنا: لابدَّ للسان من فعل لأنه آلة النطق، فقد وجدت المشاركة.

والثاني: أنه لم يحترق في التنور ليدوم الأنس بينه وبين النار إلى ليلة التكليم.

والثالث: أنها لم تحترق يده ليجاهد بها فرعون، وذلك بحمل العصا. وهذا الذي ذكرناه في بداية موسى ذَكَرَه مَنْ سمينا في أول الفصل من العلماء.

وقد روى الوالبي عن ابن عباس بمعناه قال: ذبح فرعون في طلب موسى تسعين ألفاً من بني إسرائيل، قيل: وكانت القابلة التي وكلها بأمِّ موسى مصافيةً لها، فلما ولد موسى ووقع على الأرض لاح نورٌ بين عينيه، فهالها وهابته، فقالت لأمِّه: احفظي ولدك، فهذا هو المطلوب الذي أُخْبرنا بأنه عدوُّنا لأنها كانت قبطيَّة، وهجم عليها الشرط، والتنور يُسْجَر، فلفَّته في خرقةٍ، وألقته فيه، وغشي على أمه من الخوف، وخرج الشرط فقالت أمه لأخته ـ واسمها مريم، وقيل: كانت له أخت أخرى يقال لها كلثم ـ: أين الصبي؟ فقالت: لا أعلم، فسمعت بكاءَه من التنور، فألهمها الله أن تصنع له تابوتاً وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ والوحي هنا: هو الإلهام. قال الأصمعي: قلت لأعرابية: ما أفصحك، فقالت: أبعد قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ فصاحة؟ فجمع فيها بين أمرين ونهيين وخبرين. فاشترته من نجار، فقال لها: ما الذي تصنعين به؟ فقالت: أضع فيه ابناً لي أخاف عليه كيدَ فرعون، فمضى النجار ليغمز عليها فأخرسه الله، فجعل يشير بيده فلم يفهموا إشارَتَهُ، ثم آمن بعد ذلك بموسى. فألقته في اليمِّ، وكانت لفرعون ابنة برصاء قد أعيا الأطباءَ داؤها، وقالت الكهنة: لا تبرأ إلا من قبل إنسان يوجد في البحر عند شروق الشمس، في وقت كذا وكذا، فاتفق جلوسُ فرعون في تلك الساعة على جانب النيل، وعنده ابنته البرصاء وآسية، وإذا بالتابوت يضربه الموج وقد تعلَّق بالشجر، فابتدروه بالسفن فأخذوه، فعالجوه فلم يقدروا على فتحه، ودَنَتْ منه آسيةُ ففتحته، فلاحَ نورٌ عظيم من بين عينيه، وقد جعل الله رزقه في إبهامه وهو يمصُّ فيدرُّ لبناً، وأخذت ابنة فرعون من ريقه فلطخت به برصها، فبرئت من وقتها، فقَبَّلَتْهُ وضمَّته إلى صدرها وفرعون ينظر، فقال الغواة من قومه: إنَّا نظنّ أن هذا المولود هو الذي يزيل ملكك، وإنهم خافوا عليه منك فألقوه في البحر، فاقتله، فهمَّ بقتله فمنعته آسية وقالت: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] فوهبه لها، وقال: أما أنا فلا حاجة لي فيه. قال ابن عباس: لو قال فرعون مثل ما قالت آسية ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى﴾ [القصص: ٩] لهداه الله كما هداها، ولكن أحبَّ الله أن يجري فيه سابق علمه.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي: سالماً من كل شيء

إلا من ذكر موسى شفقةً عليه. وقال ابن عباس: جاءها إبليس فقال: كرهت أن يقتله فرعون فيكونَ لك أجره وثوابه، وتوليتِ أنت قتله فألقيته في اليم؟! فخافت. وقولها لأخته: ﴿قُصِّيهِۖ﴾ من القصص، وهو العلم بالخبر ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القصص: ١١] أي: بُعد، فجعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده .﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل مجيء أمِّه. وقال السُّدي: لما قالت أخته: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢] أخذوها وقالوا: قد عرفت هذا الغلام فدلِّينا على أهله، فقالت: ما عنيت بالنصح إلا للملك، فسكتوا عنها. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال الكلبي: الأشدُّ إلى ثلاث وثلاثين سنة ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أربعين سنة، وقد ذكرناه.

ذكر قتله للقبطي

قال علماء السير: ولما ترعرع ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ﴾ وهي مدينة فرعون، ويقال لها: مَنْف ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ وكانت وقت القائلة. وقال السُّدي: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ﴾ وهم القبط، وقيل: الذي من شيعته هو السامري، والذي من عدوِّه طباخ فرعون واسمه فلينون. وكان القبطي قد أخذ الإسرائيلي ليحمل الحطب إلى مطبخ فرعون، فقال له موسى: دعه، فقال: إنما أخذتُهُ ليحملَ الحطب إلى مطبخ أبيك، وكان موسى يسمى ابنَ فرعون، لا يركب ولا ينزل إلا معه، فقال: دَعْهُ، فقال الطباخ: لقد هممتُ أن أحمله على ظهرك ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ أي: مات، ولم يتعمد موسى قتله. والوكز بأطراف الأصابع ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ أي: فرغ من أمره، فندم موسى على قتله، فدفنه في الرمل وقال: لم أومر بذلك، فإنه ﴿مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾[القصص: ١٥] ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الأخبار من ناحية القبطي، أن يؤخذ به فيقتل ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ﴾ وقد لزمه قبطي آخر يريدُ أن يُسَخِّره، فاستغاث به الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى وقد ندم على قتل القبطي بالأمس، فقال للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾[القصص: ١٨] ومعناه: ما كفاني أن قتلتُ بالأمس نفساً بسببك حتى أقتلَ آخر، ثم مدَّ يده إلى الفرعوني وظنَّ الإسرائيلي أنه يريده، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي

﴿كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾[القصص: ١٩] فلما سمع الفرعوني مقالة الإسرائيلي، علم أن موسى قتل القبطيَّ، فأخبر فرعون، فأمر بقتل موسى، وعلم حربيل مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون في قتلك ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من هذه المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[القصص: ٢٠] ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ موسى ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الطلب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص: ٢١](١).

فصل في خروج موسى إلى مدين

وقد ذكرنا مدين، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: قصدها خارجاً عن مصر وسلطان فرعون ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[القصص: ٢٢] أي: قَصْدَ الطريق إلى مدين، وبينها وبين مصر عشر ليال(٢). قال وهب: ولم يكن معه زاد ولا درهم ولا دينار ولا حذاء، وكان يأكل ورقَ الشجر، ويمشي حافياً، حتى سقط نعل قدميه، حتى ورد ماء مدين ف ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[القصص: ٢٣] أي: جماعة، ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تمنعان أغنامهما أو مواشيهما عن الاختلاط بأغنام الناس. وقيل: تحبسان أغنامهما لضعفهما، فإذا شربت أغنام الناس سقيا، وأصل الذِّياد: الطرد. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: شأنكما، لا تسقيان مواشيكما مع مواشي الناس؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: لا نقدر أن نزاحم الناس، فإذا صدروا سقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

فإن قيل: فقولهما: «وأبونا شيخ كبير» زيادة على الجواب، قلنا: معناه: لا يقدرُ أن يسقيَ غنمنا فيريحنا.

وعامة العلماء على أنه شعيب الذي قدمنا ذكره، ذكره جدي في «التبصرة»(٣)، إلا الحسن البصري ومقاتل، فإن الحسن قال: يقول الناس إنه شعيب، وليس بشعيب،

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٤ـ١٧٥.
(٢) في (ط): عشرة أميال.
(٣) «التبصرة» ١/ ٢١٩.

ولكنه سيّدُ الماءِ يومئذ. وأما مقاتل فإنه قال: كان شعيب قد مات ودفن بين المقام وزمزم، وإنما هذا يثرون ابن أخي شعيب. قال: وقيل: اسمه يثربي.

فلما سمع موسى كلامهما رحمهما، فاقتلع صخرةً من على رأس بئر أخرى بقرب تلك البئر لا يطيق رفعها إلا جماعة من الرجال، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: إلى ظلِّ شجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] والخير: الطعام، وهو في القرآن على وجوه: أحدها: الطعام، وقال الفراء: الخير اسم لكلِّ ممدوح، والشرُّ اسم لكل مذموم.

وقال ابن عباس: لقد قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وإن بطنه قد لصق بظهره، وإنه لأحوجُ الناس إلى شِقِّ تمرةٍ، وإن خضرة البقل لتبين من باطن بطنه، وإنه لأكرمُ خلقِ الله وما أحد على وجه الأرض أعزُّ منه عند الله.

فلما رجعتا إلى أبيهما رأى الأغنام وهي حُفَّل، فقال: ما أعجلكما، قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي، فأتته ﴿تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ مستترة بكمِّ درعها، وقد سترت وجهها بيدها، فقالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[القصص: ٢٥] فتبعها. قال مطرف بن عبد الله: لو كان عند نبيِّ الله شيءٌ ما تبعها، ولكن حمله على ذلك الجهد.

وسئل سفيان بن عيينة فقيل له: الرجلُ يعمل العمل لله يؤذِّن أو يؤمُّ أو يعين أخاه، فيعطى الشيء فيقبله، قال: نعم، ألا ترى أنَّ موسى عليه السلام لم يعمل للعمالة، وإنه عمل لله تعالى فعرض له رزق من الله فقبله، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

وقال وهب: فمشى وهي بين يديه، فهبت الريح فعطفت ثوبها على ردفها، فقال لها: امشي خلفي فإننا لا ننظر إلى أعجاز النساء ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ يعني شعيباً ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص: ٢٥] يعني فرعونَ وقومَهُ، أي: لا سلطانَ له على أرضنا.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ ليرعى أغنامنا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦] قال لها: وما علمك بقوَّته وأمانته؟ قالت: قَلْعُهُ صخرةً لا

يقلعها إلا جماعة من الرجال، وأما أمانته فإنَّ الريح هبَّتْ بثوبي فقال لي: كوني خلفي. فحينئذ ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ الآية. قال وهب: واسم الكبرى صفورا، والصغرى عبورا. وقال جدي في «التبصرة»: صفورا وليا[١]. ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧] أن تكون أجيري ثماني سنين، وفي حديث أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تزوجَ الصُّغرى مِنهُما، وهي التي قَالت يا أَبتِ، استأجِرهُ»[٢].

قلت: وقد كان في شرعهم تزويج المرأة على رعي الغنم جائز، وكذا عندنا لأنه من باب القيام بمصالح الزوجة، وكذا لو تزوجها على زراعة أرضها، وفيه خلاف، ذكرناه في «شرح الجامع الصغير». وأصل المسألة: رجل تزوج امرأة على خدمة سنة والزوجُ حرٌّ، جاز النكاح ولا تكون الخدمة صداقاً، ولها مهر المثل عند أبي حنيفة، وقال محمد: لها فيه خدمة سنة، ولم يذكر في «الأصل» قول أبي يوسف، وقيل: هو مع محمد، وقيل: مع أبي حنيفة؛ وقال مالك والشافعي: لها خدمة سنة. وعن أحمد كالمذهبين. فالحاصل: أن محمداً يقول: استخدام الحرة زوجها حرام، فوجب الرجوع إلى القيمة كما لو تزوجها على عبدٍ فاستحق العبد. والشافعي يقول: لو تزوجها على رعي غنمها أو زراعة أرضها جاز كذا هذا. وأبو حنيفة يقول: استخدام المرأة زوجها إذلالٌ له وهوانٌ لأنه قوَّامٌ عليها، فصار كما لو سمَّى ما لا قيمة له، فإنه يجب مهر المثل. وأما في رعي الغنم وزراعة الأرض، ففي «الأصل» لا يصحُّ قياساً على الخدمة وعلى التسليم، فهو من باب القيام بمصالحها كما ذكرنا. وقد بسطنا القول في هذا في «شرح الجامع الصغير».

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] أي: في الصحبة ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] أي: العشر أو الثمان، فليس لك أن تطالبني بأكثر من ذلك فتتعدَّى عليَّ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: شهيد.

وقال وهب: ثم أمر شعيب ابنته أن تدفع إلى موسى عصا يدفع بها عنه وعن غنمه السباع، فدفعت إليه عصا، واختلفوا فيها:

---

(١) «التبصرة» ١/ ٢١٩.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٦٦. وابن عساكر في «تاريخه» ٦١/ ٢٩.

قال عكرمة: هي التي أنزلت مع آدم من الجنة، وكان طولها عشرة أذرع من آس الجنة، ولها شعبتان تَقِدانِ في الظلام نوراً، واسمها: عمليق، يتوارثها الأنبياء كابراً عن كابر، حتى وصلت إلى شعيب.

وقال ابن عباس: لما مات آدم أخذها جبريل فكانت في علم الله، حتى وصلت إلى الشيخ، فدفعها إلى موسى.

وقال قتادة: أمر الله مَلَكاً، فنزل في صورة شيخ، فأودعها عند شعيب. فلما دفعها إلى موسى ندم وقال لابنته: فرَّطنا في الوديعة. ثم قال لموسى: ردَّ عليَّ وديعةَ الرجل، فامتنع، فبعث الله إليهما ملكاً، فتحاكما إليه، فقال: ضعوها في الأرض، فأيكم أقلَّها فهي له، فوضعها على وجه الأرض، فذهب الشيخ ليقلها فلم يطق، ورفعها موسى فذهب بها، فقال الشيخ: إن لها لشأناً[١].

وقال مقاتل: كان بأرض مدين تنين في أرض مخصبة، ولا يتجاسر أحدٌ أن يدنو من تلك الأرض، فقال له شعيب: احذر من التنين، فجاء موسى يوماً بالغنم فرأى الخصب فأعجبه، فأرسل غنمه ترعى، ونام فجاء التنين، فقامت العصا تحاربه فقتلته، فانتبه موسى، وإذا بالتنين مقتول والعصا ملوَّثة بدمه، فجاء به إلى شعيب، فقال: ألم أقل لك إن لها شأناً[٢].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾[القصص: ٢٩] أي: أتمه وفرغ منه، والأجل: انتهاء الشيء. وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس، قال: سئل رسول الله ﷺ أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أبعدَهُما وأطيبَهما وأوفاهُما وأتمهُما»[٣].

واختلفوا ما الذي أنكحه منهما، قد ذكرنا عن النبي ﷺ أنه أنكحه الصغرى[٤]. وقيل: الكبرى.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٧ـ١٧٨.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٩ـ١٨٠.
(٣) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٠٧، وفيه حفص بن عمر العدني واه، وانظر «عرائس المجالس» ص ١٧٧.
(٤) انظر الصفحة السابقة.

قلت: وقد أخرج جدي رحمه الله في كتاب «الأحاديث الواهية» بمعنى هذا عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سئلت أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قلْ: خيرهما وأبرهما، وإن سئلت أي المرأتين تزوج موسى؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت فقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فقال لها: ما رأيت من قوته؟ قالت: أخذ حجراً ثقيلاً فألقاه عن البئر، قال: وما رأيتِ من أمانته؟ فقالت: قال لي: امشي من خلفي ولا تمشي أمامي»[1]. ثم قال جدي: هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، في إسناده عوبد بن أبي عمران، قال يحيى بن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث.

وأنبأنا جدي رحمه الله قال: حدثنا محمد بن ناصر بإسناده عن عُلَيّ بن رباح قال: سمعت عُتبة بن النُّدَّرِ يقول: كُنَّا عند رسولِ الله ﷺ، فقرأ ﴿طسٓ﴾ حتى بَلغ قِصَّة مُوسى عليه السلام، فقال: «إنَّ مُوسى آجَرَ نفسَه ثَمانِيَ سِنينَ أو عَشراً على عِفَّةِ فَرجِهِ وطَعَامِ بَطنِه». أخرجه ابن ماجة القزويني[2] عن عتبة، ولم يخرجه أحمد ولا البخاري ومسلم. وليس في الصحابة من اسمه عتبة بن النُّدَّر، بنون ودال مهملة غيره.

وقال مجاهد: أقام موسى بعد فراغ الأجل عشر سنين أخرى، فكمل عشرين سنة؛ وعامة العلماء على أنه لما قضى الأجل سار بأهله كما أخبر الله تعالى.

فصل فيما جرى لموسى بعد انفصاله من مدين وقصة النار والتكليم والرسالة ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ﴾[القصص: ٢٩] الآية. قال السُّديُ وغيره: لما طال مقام موسى عند الشيخ، اشتاق إلى والدته وأخيه، فاستأذن الشيخ في زيارتهما فأذن له، فسار بزوجته يطلب أرض مصر، وكان في أيام الشتاء، فحاد عن الطريق، فسار في البرية غير عارف بطرقها، وكانت امرأته حاملاً،

(١) لم نقف عليه في الأحاديث الواهية، وقد أخرجه البزار (٢٤٤٤) (زوائد)، والطبراني في الأوسط (٥٤٢٦)، والصغير (٨١٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره ٩/ ٢٩٦٦، والخطيب في تاريخه ٢/ ١٢٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٤).

فألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن الغربي في ليلة مظلمة شديدة البرد، فأخذ الطلقُ زوجته فجعل يكادح المقادح فلم تورِ نوراً، فقال لأهله أي لزوجته: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي: أقيموا ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾[القصص: ٢٩] أي: أبصرت. وقال مجاهد: إنما رأى نوراً ولكن وقع الإخبار عما كان في ظنه وما يطلبه ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ﴾ شعلة ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وقال مقاتل: إنما قال: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[طه: ١٠] لأنه كان قد ضلَّ الطريق، فعلم أن النار لا تخلو من موقد ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[القصص: ٢٩] أي: تستعيذون من البرد.

قال ابن عباس: أمر الله تعالى النيران في تلك الليلة أن تخمد فلا تظهر في الأرض نار.

وأنبأنا جدي رحمه الله في «التبصرة» قال: أنبأنا محمد بن أبي منصور بإسناده عن وهب بن منبِّه، وذكر السُّديُّ وقتادة ومجاهد بمعناه دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: خرج موسى في ليلة مثلجة شاتية فولد له ابنٌ في الطريق، فحاد عن الطريق، فأخذ يقدح فلم تورِ المقدحة ناراً، فبينما هو كذلك إذ لاحت له نار وكانت ليلة الجمعة، فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠] أي: شعلة، والقبس: ما اقتبس من عيدان ونحوه. فلما قرب من النار، قال وهب: فإذا هو بنار عظيمة تفور من فروع شجرة خضراء شديدة الخضرة، لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرُّماً، ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرةً وحسناً، فوقف ينظر لا يدري ما يصنع في أمرها، إلا أنه قد ظنَّ أنها شجرة تحترق، فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه. قال مجاهد: وسمع تسبيح الملائكة فخاف خوفاً عظيماً. قال وهب: فلما طال ذلك عليه أهوى إليها بضِغْثٍ في يده ليقتبس منها شيئاً، فمالت نحوه كأنها تريده، فاستأخر عنها ثم عاد، فلم يزل كذلك، فما كان بأسرع أو بأوشك من خمودها، فتعجَّب وقال: إن لهذه النار لشأناً. فوقف متحيراً، فإذا بخضرتها قد صارت نوراً، عموداً ما بين السماء والأرض، فاشتدَّ خوفه وكاد يخالَطُ في عقله من شدة الخوف. وقال مجاهد: صارت عموداً من نور له شعاع مثل شعاع الشمس تكلُّ دونه الأبصار. فعند ذلك خاف ووضع يده على عينيه ولصق بالأرض، فسمع حسّاً وشيئاً لم

يسمع السامعون مثله. فلما اشتدَّ كربه وكاد أن يذهب عقله ـ رجع الحديث إلى وهب بن منبه ـ فنودي من الشجرة يا موسى، فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه، فقال: لبيك، أسمعُ صوتك ولا أرى مكانك، فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك. فلما سمع موسى ذلك علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربّه تعالى، فأيقن به فقال: كذلك أنت يا إلهي، أكلامك أسمعُ أم رسولك؟ قال: بل أنا الذي أكلمك. وقال السُّدي: فذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانبه ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ أي: المقدسة ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وكانت من العُلّيق في قول السُّدي. وفي قول مجاهد: من العَوسج. وفي قول مقاتل: من الصنوبر، وقال ابن مسعود: كانت الشجرة مثمرة خضراء ترفُّ. وقال قتادة: ناداه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

قال مقاتل: عرض له الشيطان في ذلك الوقت فقال له: يا موسى، أتدري من يكلمك؟ قال: نعم، الله ربي، فقال: وإلهك يتكلم؟ إنما كلمك شيطان من جندي. قال له موسى عليه السلام: كذبت، قال: ولم؟ قال: لأني سمعت الكلام من الجهات الست، من فوق، ومن تحت، وعن يميني وشمالي، وورائي وأمامي، وسمعت الموجودات تعظِّم ربي، فعلمتُ أن أحداً لا يتجاسر أن يقول: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[القصص: ٣٠] إلا الله، فانصرف الملعون خاسئاً.

قال مجاهد: قوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «إني»: للتعريف، و«أنا»: للتشريف، و«الله» تعالى: للتوقيف.

وقد روي في هذا المعنى حديث أخرجه أبو أحمد بن عَدي عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لما كَلَّمَ اللهُ موسى، قال: من ذا العبري، أو العبراني، الذي يكلِّمني من الشجرة؟ فقال: أنا الله»[1]؛ قال جدي رحمه الله: إلا أنه حديث موضوع، فإن كلام الله لا يشبه كلام المخلوقين، والمتهم بوضعه حميد بن علي، وقيل: ابن عطاء، وقيل: ابن عمار. وفي هذا الحديث[2]: أنَّه كانَ على مُوسى جُبَّةُ صُوفٍ، وفي رجليه نعلان من

(١) أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣٩٩)، ولم أقف عليه عند ابن عدي.
(٢) وهو ما أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٢٧٢ في ترجمة حميد بن علي.

جِلدِ حِمارٍ غَيرِ مُذكًّى.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[مريم: ٥٢] أنه أُدنيَ حتى سمع صرير الأقلام في اللوح المحفوظ.

وقال الحسن البصري: ولما كلم الله موسى ضرب على قلبه صفائح النور، ولولا ذلك لما أطاق سماع كلام الله تعالى.

رجع الحديث إلى وهب: قال: فقال الله تعالى: ادن مني، فجمع موسى يديه في العصا، ثم تحامل حتى استقلَّ قائماً، وأرعدت فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه، ولم يبق منه عظم يحمل آخر، فهو بمنزلة الميت، إلَّا أنَّ روح الحياة يجري فيه، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب، حتى وقف بمنزلةٍ قريباً من الشجرة، فقال له الربُّ تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٧ـ١٨] أي: أعتمد إذا عييت. قال: وما تصنع بها؟ قال: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] قال مجاهد: ومعنى أتوكأ عليها: أي أعتمد إذا عييت من المشي، وأهش: أخبط بها الشجر ليتناثر الورق فتأكل منه الغنم. وقرأ عكرمة: أهس، بالسين المهملة، أي: أزجر بها الغنم، وهما لغتان، والمآرب: الحاجات.

وقال ابن عباس: كان له فيها ألف حاجة، منها أنه كان يحمل عليها زاده وسقاءه، وإذا خاف حدَّثته وآنسته، وإذا جاع أو عطش ضرب بها الأرض فيظهر الطعام والشراب، ويحارب العدوَّ، ويدفع عنه الوحوشَ والهوام، وإذا اشتهى ثمرةً غرزها في الأرض فصارت غصناً وأورقت وأثمرت، إلى غير ذلك.

وروى مجاهد أنها كانت من لوز، والصحيح أنها كانت من آس الجنة(١).

فإن قيل: فقد علم الله تعالى حال العصا فلمَ كان أول كلامه له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾؟ فالجواب: إن هذا على وجه المباسطة له، لأنه لمَّا رأى النار، وسمع تسبيح الملائكة، وشاهد ما حكيناه، خاف وصار كل عضو منه على حدة، فباسطه الله

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٨ـ١٧٩.

تعالى بذلك، ليثبِّت جنانه(١) فيصلح حينئذ لحمل الرسالة إلى فرعون.

رجع الحديث إلى وهب، قال: وكان لها شعبتان، ومحجن تحت الشعبتين ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾[طه: ١٩] فظن أنه يقول: ارفضها، فألقاها، ثم حانت منه نظرة فإذا هي أعظم ثعبان نظر إليه الناظرون يدبُّ كأنه يلتمس شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة مثل الخَلِفَة(٢) من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيقتلعها ويبتلعها، عيناه توقدان ناراً، وقد عاد المحجن عرفاً فيه شعر مثل النيازك، وعادت الشعبتان فماً مثل القليب الواسع، فيه أضراس وأنياب لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً، فذهب حتى أمعن في البريَّة، ثم ذكر ربه فوقف استحياءً منه، فنودي: يا موسى ارجع حيث كنت، فرجع وهو شديدُ الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾[طه: ٢١] وعلى موسى يومئذ مِدْرَعة صوف، قد خلَّها بخلال من عيدان، فأثنى طرف مدرعته على يده ليأخذها، فقال له مَلَكٌ: أرأيت يا موسى، لو أذن الله لما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا، ولكني ضعيف، ومن ضعفٍ خلقت، فكشف عن يده ووضعها في فم الحية حتى سمع حسَّ الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها.

فإن قيل: فلمَ خاف موسى من العصا ولم يخف إبراهيم من النار؟ فالجواب: إن تحويل العصا من فعل الله تعالى، وإيقاد النار من فعل الخلق، وقيل: خاف موسى أن تلك الحية التي أُخرج آدم من الجنة بسببها، أو من جنسها، فلهذا خاف، والسعيد مَنْ وُعِظَ بغيره. وقيل: لما أضافها إلى نفسه بقوله: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾ أراه أن من اتكل على غيره تعقبه الفرار.

وقال ابن عباس: ولما حصل في الوادي نودي: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] واختلفوا في معنى الأمر بإلقاء نعليه على أقوال:

أحدها: أنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ، قاله قتادة، وابن مسعود رواه مرفوعاً، ولا يصحّ، وقد ذكرناه في حديث العبريّ.

(١) في (ب): «جأشه».

(٢) هي الحامل من النوق.

والثاني: إنما أمره بإلقاءِ نعليه لتنال قدماه من بركة تلك الأرض المقدسة، لأنها قُدِّسَتْ بالكلام، قاله عكرمة.

والثالث: أنه علَّمه التواضع، ألا ترى أن من طاف بالبيت فإنه يخلع نعليه تواضعاً، قاله الحسن.

والرابع: أن المراد بالنعلين الزوجة، فكأنه يقول قد حضرت في هذه الحضرة، فلا تشغل قلبك من ناحيتها، ألا ترى أنَّ من رأى في منامه كأنه لبس نعلين فإنه يتزوج امرأة، قاله ابن نجيح.

واختلفوا في قوله: ﴿طوى﴾ قال الضحاك: هو اسم الوادي، وهو مستطيل عميق مثل الطويّ[1] في استدارته. وقال الحسن: طوى، أي: مطهر.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾[طه: ١٣] أي: اصطفيتك، إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[طه: ١٥] هذا خطاب للعرب بما يفهمونه.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى في موضع: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[طه: ٢٠] وفي مكان آخر: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾[النمل: ١٠] وهي الحية الصغيرة، وفي موضع آخر: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[الأعراف: ١٠٧ ، الشعراء: ٣٢] فكيف الجمع بين هذا؟ فالجواب: إن قوله كأنها جان عبارة عن ابتداء حالها، ثم صارت حية، وتورمت حتى صارت ثعباناً، والحية تجمع الكبير والصغير والذكر والأنثى.

فإن قيل: فما معنى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾[القصص: ٣١] فالجواب: أن الجناح أسفل الإبط، وقيل: هو الإبط، والرَّهْب: الفزع. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: برص ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢] سوى العصا، فأخرج يده من مِدْرَعته بيضاء لها شعاع كالشمس ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾[طه: ٢٣] أي: الآية الكبرى.

فإن قيل: ذكر هاهنا ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾[طه: ٢٢] وفي موضع آخر ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾[القصص: ٣١] قلنا: المعنى لا يختلف، لأن معنى الكلام: إذا هالَكَ ما رأيتَ من شعاع يدك، فأدخلها في جيبك، تعدْ إلى حالتها الأولى.

---

(١) الطوي: البئر.

وقال الربيع بن أنس: أمره الله أن يضع يده على صدره ليذهب عنه الرعب عند معاينة الحية، قال: والدليل عليه هذه الآية، لأن الرهب هو الخوف والفَرَق.

وقال مقاتل: الرهب الكمُّ بلغة حمير، فعلى هذا معناه، أدخلها في الكم.

ثم قال له الله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[طه: ٢٤] أي: علا وتكبَّر وكفر، فادعه إلى عبادتي، واعلم أني قد ربطتُ على قلبه، فقال: يا رب، كيف تأمرني بهذا وقد ربطتَ على قلبه؟ فقال له ملك: يا موسى انطلق، فإنَّا اثنا عشر ألف خازن من خُزَّان الرِّيح، لا ندري ما هذا ولا علمناه، فحينئذ قال موسى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه: ٢٥] أي: بالإيمان والنبوَّة، والشرح الكشف ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾[طه: ٢٦] سهِّله لأُبَلِّغ الرسالة إلى فرعون ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾[طه: ٢٧] قال ابن عباس: كان في لسانه رتَّة، وقيل: تمتمة، وقيل: هي الشامة التي ذكرناها، وقيل: مكان الجمرة التي أحرقت لسانه ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾﴾[طه: ٢٩] أي: معيناً وظهيراً، ثم بيَّن من هو فقال: ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ ﴿أَشْدُدْ[1] بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ أي: أقوي به ظهري ﴿وأُشْرِكْه[1] فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾[طه: ٣٠-٣٢] أي: في الرسالة.

قال ابن عباس: لما أمره الله بالرسالة قال: ﴿إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[القصص: ٣٣] ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ وأحسن بياناً ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤] أي: معيناً، فقال الله له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نقويك ونعينك، وكان هارون يومئذ بمصر ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: قوةً وحجَّةً وبرهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقال ابن عباس: لما قتل القبطيَّ كان له اثنتا عشرة سنة، وأقام بمدين عشرين سنة.

وقال وهب: لما قتل القبطيَّ كان له عشرون سنة، وأقام عند شعيب عشرين سنة، حتى تمَّ له أربعون سنة فصلح كليماً ونبياً، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾.

وقال مقاتل: وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ وهي اليد والعصا .﴿وَلَا تَنِيَا﴾[طه: ٤٢] تضعفا وتفترا وتقصرا ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي: عتا وتجبر ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[طه: ٤٣] أي: لا تعنفاه ولا تغلظا له. وقال عكرمة: معناه كنّياه

---

(١) أَشدُد، بفتح الهمزة، وأُشْرِكه بضمها، وهي قراءة ابن عامر ويحيى بن الحارث وأبو حيوة والحسن وعبد الله ابن أبي إسحاق. انظر السبعة ٤١٨، والتيسير ١٥١، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨.

فقولا: يا أبا الوليد، وقال السدي: ولينا له لا تَجْبَهاه بمكروه، بل عِدَاه على الإيمان مُلكاً واسعاً لا يُنْزع عنه إلا بالموت.

فإن قيل: فقد قال لمحمد ﷺ ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة: ٧٣ والتحريم: ٩] قلنا: لأن طبع سيدنا ونبينا محمد ﷺ اللين واللطف، وطبع موسى على الصلابة والقوة، فقال له: ارفق بفرعون ولا تُقَرِّعهُ بين الملأ، فإن الملوك يأنفون من التوبيخ بين الناس، ولهذا قالوا: لا ينبغي لأحد أن يقابل السلطان بما يكره، بل يكتب النصائح في ورقة.

وأمر الله هارون أن يخرج من مصر فيلتقي أخاه على رحله ففعل، وقيل غير هذا، لما يذكر.

فإن قيل: فقد علم الله منه أنه لا يؤمن، فما معنى قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه: ٤٤] فالجواب: إنما أراد الله تركيب الحجة عليه، لاحتمال أنه إذا رأى العذاب يقول: لا ذنب لي، فيقال له: قد أُنذرت قبل ذلك، فلا عذر لك.

رجع الحديث إلى وهب بن منبه: فقال له الله سبحانه وتعالى: يا موسى، إني قد أقمتك اليوم مقاماً لا ينبغي لبشر بعدك أن يقوم مقامك، أدنيتك وقرَّبتك حتى سمعتَ كلامي، وكنتَ بأقرب الأمكنة مني، فانطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي، وإن معك يدي وبصري، فأنت جند عظيم من جنودي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي، وأمِن مكري، وغرَّته الدنيا، حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي، وعُبد دوني، وزعم أنه لا يعرفني، وإني أقسم بعزتي، لولا العذر والحجة اللذان وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السماوات والأرض والجبال والبحار، فإن أمرتُ السماوات حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمَّرته، وإن أمرت البحار غرَّقَتْه، ولكن هان عليَّ وسقط من عيني، ووسعه حلمي، وحُق لي، أنا الغني لا غنيَّ غيري، فبلِّغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي، وذكِّره بأيامي[1]، وحذِّره نقمتي وبأسي، وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة.

ولا يرعك ما ألبَسْتُهُ من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي، ليس يطرف ولا ينطق ولا

(١) في (ب): «بآياتي».

يتنفس إلا بإذني، قل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربع مئة سنة، وفي كلها أنت مبارزه بالمعاصي وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، ولم تسقم ولم تهرم، ولم تفتقر ولم تُغْلَب، ولو شاء أن يسلبك ذلك فعل، ولكنه حليم ذو أناة، وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما محتسبان بجهاده، فإني لو شئت أن آتيه بجنودٍ لا قِبَلَ له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي أعجبته نفسه وجموعه، أن الفئة القليلة ـ ولا قليل معي ـ تغلب الفئة الكثيرة بإذني.

ولا تعجبكما زينته، ولا ما تمتع به، ولا تمدّان إلى ذلك أعينكما، فإنها زهرة الحياة الدنيا، وزينة المترفين، وإني لو شئت أن أزينكما بزينة هي أعظم من زينته، حتى يعلم أن مقدرته تعجز عن ذلك، لفعلت، ولكن أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيقُ إبلَه عن مراتع الهلكة ومبارك الغرَّة، وما ذاك لهوانهم عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي موفراً سالماً.

واعلم أنه لم يتزين العباد لي بزينة هي أبلغ من الزهد في الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم منها لباسٌ يُعْرَفون به من السكينة والخشوع ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩] أولئك أوليائي حقاً، فإذا لقيتهم فذللْ لهم قلبك ولسانك، واخفضْ لهم جناحك، واعلم أن من أهان لي ولياً أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة، وعرض نفسه للهلكة، وإني لأَسْرَعُ إلى نصرة أوليائي من الليث الحَرِب، أفيظن الذي يحاربني أنه يقوم لي، أو يظنُّ الذي يبارزني أنه يسبقني، أو يظنّ الذي يضادني أنه يعجزني أو يفوتني، كيف وأنا في الدنيا والآخرة، لا أَكِلُ نصرتهم إلى غيري[١].

قال مقاتل بن سليمان في «المبتدأ»: ولما عزم موسى على قصد فرعون، قال جبريل: يا إله العالمين، أترسله وهو عريان، وعند عدوّه من العُدَد والعَدَد ما قد علمت، فقال له الله تعالى: ادخلْ الجنة وانظرْ أعظم قلنسوةٍ فيها، فأَلْبِسْهُ إيّاها، وانظر أوطأ مركب فأركبه إياه، وانظر أصرم سيفٍ فأعطه إياه، واختر له أشجع جند، فدخل

(١) انظر «كتاب الزهد» ص ٨٢ـ٨٣، و«عرائس المجالس» ص ١٨٢.

الجنة وخرج وليس معه شيء، فقال الله تعالى: فأين ما ذكرت لك؟ قال: يا إلهي ما وجدت قلنسوةً أعظم من الهيبة، ولا مركباً أعظم من التوفيق، ولا سيفاً أقطع من الحجة، ولا جنداً أبلغ من النصرة، ولا لباساً أتمَّ من العافية، فقال الله تعالى: أعطه ذلك كله، فأعطاه إياه.

وقال مجاهد: لما وصل موسى إلى مصر طرق والدته ليلاً، فنزل عليها وهي لا تعرفه ولا يعرفها، وجاء هارون في بعض الليل، فرآه فسأل أمّه عنه، قالت: ضيف، فجلس إليه وتحادثا ساعة، فقال له: ما اسمك؟ قال: موسى، قال: وأنت؟ قال: هارون، فقاما وتعانقا وبكيا، وبكت العجوز، فقال له موسى: إن الله قد أرسلني إلى فرعون وأنت معي، فقال هارون: سمعاً وطاعة، ثم قاما ومضيا إلى فرعون، إلى مدينة مَنْف(١).

رجع الحديث إلى وهب، قال: فأقبل موسى وهارون إلى فرعون في مدينة، قد جعل حولها الأُسد، في غيضة قد غرسها، والأُسد فيها مع سُوَّاسها، إذا آسَدَتْها على أحد أكلته. وللمدينة أربعة أبواب في الغيضة، فأقبل موسى من الطريق الأعظم الذي يراه منه فرعون من مناظرة، فلما رأته الأُسد صاحت صياح الثعالب، فأنكر ذلك سُوَّاسها، وخافوا من فرعون، وأقبل موسى حتى انتهى إلى باب قبة فرعون، فقرعه بعصاه، وعليه جبة صوف وسراويل صوف، فلما رآه البواب عجب من جرأته، وقال: أتدري بابَ من تضرب؟ إنما تضرب بابَ سيدك، فقال: أنا وأنت وفرعون عبيد الله تعالى، فأخبر البواب الذي يليه حتى بلغ أدناهم، وكانوا سبعين حاجباً، كل حاجب تحت يده من الجنود ما شاء الله، حتى خلص الخبر إلى فرعون، فقال: أدخلوه عليَّ، فأدخلوه، فقال فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[الشعراء: ١٨] فقال له: يا فرعون آمنْ بربِّ العالمين، فقال: خذوه، فبادرهم موسى ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[الشعراء: ٣٢] فحملت على الناس فانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً - هذا لم يصحّ - قَتَلَ بعضهم بعضاً، وأدخل الثعبان أحد شدقيه تحت سرير فرعون والآخر فوقه فسلح فرعون في ثيابه، وقام فرعون منهزماً فدخل البيت، فقال لموسى:

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٨٤.

اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه، فقال له موسى: لم أومر بذلك، وإنما أُمرت بمناجزتك، فإن أنت لم تخرج إليَّ دخلت إليك، فأوحى الله إليه: اجعل بينك وبينه أجلاً، واجعل ذلك إليه، فقال فرعون: أجِّلني أربعين يوماً، ففعل، وكان فرعون لا يأتي الخلاء إلا في كلِّ أربعين يوماً مرة، فاختلف ذلك اليوم أربعين مرة، وخرج موسى فلما مرَّ بالأُسْدِ بَصبصت بأذنابها، وسارت مع موسى تشيّعه ولا تهيجه. انتهت رواية وهب التي رواها عبد الله بن أحمد في «كتاب الزهد» عن أبيه[1].

وقال مجاهد: لما وصلا إلى باب القصر قالا للبواب: ادخل عليه وقلْ له إنَّا رسول رب العالمين، فلما دخل عليه قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾[الشعراء: ١٩] فقال له: يا فرعون آمن بربِّ العالمين، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] قال: رب السماوات والأرض وموسى وهارون.

فإن قيل: فما هذا جوابه وقد كان ينبغي أن يذكر اسم الله وصفته. قلت: إنما عدل عن ذكر الاسم والصفة لأن فرعون سأله عن ماهية مَنْ لا ماهية له بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فأجابه بهذا الجواب، لأن فرعون لم يكن يعرف الاسم ولا الصفة.

وقال وهب والحسن: أوحى الله إلى هارون، فبشَّره برسالته ونبوة موسى، وأنه قد جعله وزيره ورسوله معه إلى فرعون، فإذا كان يوم الجمعة غرة ذي الحجة، فاخرجْ إلى جانب النيل قبل طلوع الشمس لتلقى أخاك، ففعل. ودخلا على فرعون، وجرى ما جرى.

وقال وهب: إن موسى لما دخل على فرعون قال له: آمن حتى أسأل الله أن يردَّ عليك شبابك، فأخبر هامانَ بذلك، فقال له: اصبغ بالسواد، فصبغ، وهو أول من فعل ذلك. ثم قال فرعون لموسى: قد رددتُ عليَّ شبابي، فقال له: ميعادك ثلاثة أيام، فلما انقضت الثلاث نَصَل خضابه، قال: فكل خضاب يَنْصُلُ بعد ثلاثة أيام.

قال علماء السير: لما دخل موسى على فرعون قال له: إن كنت جئت بآية فأت بها ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢، ٣٣] وأخرجها ولها شعاع مثل شعاع الشمس.

(١) «كتاب الزهد» ص ٨٣ـ٨٤، والتبصرة ١/ ٢١٩ـ٢٢٣.

وقال مقاتل: قال له فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾[طه: ٥١] يعني قوم نوح وعاد وثمود، الآية؟ وإنما سأله عنها لأنه إنْ كان رسولاً علم حالها، فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ لأن التوراة لم تكن أنزلت عليه بعد، لأنها إنما أنزلت عليه بعد غرق فرعون وخروجه من مصر، فردَّ العلم إلى الله تعالى ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[طه: ٥٢] فيحتاج إلى التذكرة.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: أجلاً وميقاتاً ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ أي: لا نتجاوزه ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾[طه: ٥٧، ٥٨] أي: مستوياً ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ واختلفوا فيه: قال ابن عباس: يوم الزينة يوم عاشوراء، كانوا يتزيَّنون فيه. وقال مقاتل: يوم عيدهم. وقال ابن المسيّب: يوم النيروز[1] ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾[طه: ٥٩] أي: ضحوة، ليكون أبلغ في الحجة، وأبعد من الزينة في الليل ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: ٦٠] أي: حيَلَه وسَحَرَتَه في ذلك اليوم لموعد موسى.

فصل في اجتماع السحرة

واختلفوا في عددهم، قال ابن عباس: كانوا سبعين ألفاً، ما بين ساحر وكاهن، ورؤساؤهم سبعون ورؤساء السبعين سبعة: ساتور وعاز وحطحط وشمعون ويوحنا ويثرون. وقيل: كانوا أربع مئة ألف، والأول أصح.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: تختلقوا ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يستأصلكم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[طه: ٦١] أي: كذب ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾[طه: ٦٢] أي: الحديث. وكان مع كل واحد منهم عصا وحبل ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ أي: أرض مصر ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾[طه: ٦٣] أي: يصرفا وجوهَ الناس إليهما. والطريقة: السنَّة ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ أي: اعزموا على إظهار سحركم ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أي: صفوفاً ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ

(١) تفسير الثعلبي ٦/ ٢٤٧، ٢٤٩، وعرائس المجالس ١٨٨، وزاد المسير ٥/ ٢٩٢، ٢٩٤-٢٩٥، وما سلف من تفسير للآيات منها وما سيرد كذلك، ولن أشير إليه.

ٱسْتَعْلَىٰ﴾[طه: ٦٤] أي: فاز وغلب ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥] ومعناه: إما أن تلقي عصاك، وإما أن نلقي نحن عصيّنا. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] أي: تمشي، وكانوا قد لطخوا عصيَّهم وحبالهم بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ارتهشت وتحركت، فظنَّ موسى أنها تريده، وامتلأ الوادي بالحيات كأمثال الجبال، يركب بعضها بعضاً ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[طه: ٦٧] أي: أضمر، فقيل له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨] أي: الغالب ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] أي: في أي مكان من الأرض، فألقاها، فابتلعت جميع ما في الوادي، حتى لم يبق فيه شيء، وأخذها موسى فإذا هي عصاه ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ﴾ العالمين، رب ﴿هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ﴾ فرعون: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: به ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ٧١] أي: أنا أو ربّ موسى ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: [التي] شاهدناها، والدرجات العلى ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ﴾ وهذا قسم ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾ أي: فاحكم بما أنتم صانع من القتل والقطع والصلب ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢] أي: ليس لك علينا في الآخرة سلطان ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[طه: ٧٣].

وقال مقاتل: إنما قالوا هذا لأن فرعون أمرهم أن يتعلموا السحر خوفاً من موسى، فقالوا: أرنا كيف ينام موسى، فأراهم، فإذا عصاه قائمة تحرسه، فقالوا: ليس هذا بساحر، فقال: لابدَّ أن تتعلموا، فأكرههم عليه.

وقال السدي: لما شاهدوا العصا رأوا أمراً فهالهم كما كان ما بين شعبتيها ثمانين ذراعاً.

وقال ابن عباس: جاؤوا أول النهار سحرة كفرة، وصاروا في آخره شهداء بررة.

وقد فرَّقوا بين الساحر والسحَّار، فالساحر من يكون سحره في وقت دون وقت، والسحَّار من يديم السحر.

وقال مجاهد: كانوا يتعلمون السحر بقرية من أرض مصر يقال لها: الفَرَما، كما يتعلم الصبيان الكتابة في الكُتّاب، وأن الذين يعلمونهم رجلان من أهل نِينَوى.

وقال الكلبي: لما قالت السحَرة لفرعون ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١] أي: جُعْلاً ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢] أي: عندي في المنزلة، وأول من يدخل وآخر من يخرج، قال: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: أفزعوهم ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف:١١٦] وهو ما ذكرنا ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ لما تلقفت العصا ما جاؤوا به ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف:١١٩] أي: ذليلين مقهورين ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] حيث تيقَّنوا أنه أمرٌ سماويٌّ وليس بسحر، فحينئذٍ قالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾[الشعراء: ٥٠] أي: لا ضرر.

واختلفوا في الذين آمنوا من السحرة: قال مجاهد: إنما آمن رؤساؤهم السبعة، وقال قوم: إنما آمن الكلُّ، وهو الأظهر، لأن الله ذكرهم بالألف واللام، وهما للاستغراق.

وقال مقاتل: ولما غُلِبَتِ السحرة قال الملأ ـ وهم الأشراف ـ لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[الأعراف:١٢٧] فلا يَعْبُدك ولا يَعْبُدُها. قال ابن عباس: كان لفرعون بقرةٌ يعبدها. وقال الحسن: كان مع ادِّعائه الربوبية يعبد تيساً، وقيل: صنماً.

فصل في تعذيبه لبني إسرائيل

قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ للخدمة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[الأعراف: ١٢٧] أي: غالبون. وبلغ موسى، فقال لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ يعني أرض مصر ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف:١٢٨] بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وقال مجاهد: لما آمنت السحرة اتبع موسى ست مئة ألف من بني إسرائيل، فجار عليهم فرعون، فشكوا إلى موسى فقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بقتل الأبناء، واستخدام النساء ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[الأعراف:١٢٩] بحَنَق فرعون علينا، وإعادة

القتل والاتعاب في الأعمال المشقة، لأن أهل القوة منهم كانوا ينحتون السواري من الجبال فقرحتْ أعناقهم، ودَبِرَت[١] ظهورُهم، وطائفة ينقلون الخشب، وآخرون يبنون، وقوم يطبخون الآجرَّ، وآخرون يعملون الحديد، ووضع على الضَّعَفَةِ الضرائب، يؤدُّون كلَّ يوم ضريبة، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته، غُلَّت يمينه إلى عنقه شهراً. وأما النساء فيغزلن الكتَّان وينسجنه، ويخدمن القبط. وموسى يقول لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾[الأعراف: ١٢٨] ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٩] قال مجاهد: فحقق الله ظن موسى فيهم.

فصل في الآيات التي أرسلت على قوم فرعون

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ الآية[الأعراف: ١٣٠].

قال ابن عباس: بالجدب والقحط سنة بعد سنة. يقال: أَسنتَ القوم: إذا أجدبوا.

وقال سعيد بن جبير: مَلَك فرعون أربع مئة سنة، ما جاع ولا حُمَّ ولا صُدِعَ، ولو ذاق شيئاً من ذلك لما ادّعى الربوبية.

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

واختلفوا في **الطوفان** على أقوال:

أحدها: أنه المطر أغرق كلَّ شيء لهم، قاله ابن عباس.

الثاني: أنه الموت الجارف، قال وهب: الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن، سلَّطه على أبكار آل فرعون والمواشي، فأفنى الكلَّ.

والثالث: الجُدَريُّ، وهم أول من عُذِّب به، وبقي بقاياه في الأرض إلى يوم القيامة.

قال أبو قلابة: وأما **الجراد**، فأكل كلَّ شيء لهم، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه الموت الجارف، قاله وهب.

واختلفوا في **القمَّل**: فقال ابن عباس: إنه السوس الذي يخرج من الحنطة، وقال السُّدي: صغار الجراد، وقال مجاهد: هو الدَّبى[٢] كان يأكل لحومهم وطعامهم،

(١) في (ب): وثرت، ودَبِرَت: أي ظهرت فيها الدَّبَرَة، وهي قُرحةٌ تخرج في ظهر الدابة والبعير. تاج العروس: (دبر).

(٢) الدَّبى: أصغر الجراد والنمل.

وقال ابن يزيد: هو البراغيث. وقال الجوهري: هو دويبة من جنس القِرْدان يركب البعير عند الهزال، وقيل: هو الحَلَم[1] بحاء مهملة.

وأما **الضفادِع** فواحدها ضفدع، أقبلت كقطع الليل المظلم، فملأت البيوت والأواني، وأكلت الأطعمة، وملأت الحِبابَ والجِرار.

وأما الدم فكان الإسرائيلي والقِبْطي يأتيان إلى جانب النيل فيشرب الإسرائيلي ماءً والقِبْطي دماً.

قال ابن عباس: دعا عليهم موسى فأصابهم ذلك، فكادوا أن يهلكوا بالطوفان، ملأ بيوت القِبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، ومن قعد منهم غرق، ولم يدخل منازل بني إسرائيل منه قطرة، فقالوا: يا موسى ادعُ لنا ربَّك أن يكشفَ عنا هذا المطر، فقد منعنا من الحرث والزرع، ونحن نرسل معك بني إسرائيل، فسأل ربَّه فرفع عنهم الطوفان، وكان قد عمَّهم من السبت إلى السبت، فلم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل جميع مالِهم، حتى مسامير الأبواب والحديد، فضجُّوا وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك، فدعا لهم، فرفع الله عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، فأمر الله موسى فخرج إلى قرية بظاهر مصر يقال لها: عَيْن شَمس، وعندها كثيب أعفر، فضربه بعصاه، فسال قملاً يلحس الزروع وغيرها، وكان يدخل بين جلد أحدهم وثوبه فيكاد يُهلكه، واختلط بطعامهم، ولصق بأجفان عيونهم وحواجبهم، فاستغاثوا: يا موسى ادع لنا ربَّك أن يكشفه عنا ونحن نرسل معك بني إسرائيل، فسأل الله فكشف عنهم، فعادوا إلى أخبث ما كانوا عليه، فدعا عليهم، فأرسل الله عليهم الضَّفادع فدخلت في أفواههم وثيابهم وقدور طعامهم وأوانيهم، فاستغاثوا وقالوا: نحن نتوب، فسأل الله أن يرفعها عنهم، فرفعها، فعادوا، فدعا عليهم، فأرسل الله عليهم الدم، فصار النيل دماً فاختلط بأطعمتهم وشرابهم، حتى إن المرأة من القبط كانت تقول للمرأة من بني إسرائيل: اسقيني فقد عطشت، فتصبُّ لها من الجرة ماءً، فتقول لها اجعليه في فيك ثم مُجِّيه في فيَّ فتفعل، فيصير دماً. وأقام بهم كلُّ نوع من هذا من

(١) «الصحاح» (قمل)، والحَلَم: القراد الضخم وهو ما يتعلق بالبعير فهو كالقمل للإنسان.

السبت إلى السبت، فأقاموا على هذا. وكان فرعون يصيبه من ذلك ما يصيب القبط، فقالوا: يا موسى، قد وضح لنا البرهان، فقد تبنا، فاسأل ربك فينا، فسأله، فرفع عنهم ذلك كله، فنقضوا العهود، وعادوا شرَّ ما كانوا عليه.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[الإسراء: ١٠١] وهذه خمس، فأين الباقيات؟ قلنا: العصا، واليد البيضاء، والبحر، والطمس على الأموال. وذكر عبد الوهاب بن النُّوبي وقال: كانت آياته عشرين آية، ذكر التسع التي ذكرنا وزاد: ولم يحترق في التنور، ولا غرق في البحر، ثم السنون، ثم المنّ والسلوى في التيه، وتظليل الغمام، وفلق البحر، وإحياء عاميل في قصة البقرة، وانفجار الماء له من الحجر، وتكليم الله له، والعمود الذي كان يَقِد بين يديه في التيه ليلاً.

وقال الزهري: دخلت على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال لي: يا ابنَ شهاب أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[الإسراء: ١٠١] قال: فقلت: الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضَّفَادع، والدم، ويده، والبحر، والطمسة، وعصاه، فقال: أحسنت، هكذا يكون العلم، ثم قال: يا غلام آتني بالخريطة، فأتى بخريطة مختومة ففكَّها ونثر ما فيها، فإذا دراهم ودنانير وتمر وجوز وعدس، فقال: كُلْ يا ابن شهاب، فأهويت إليه فإذا هو حجارة، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين، فقال: أصابه عبد العزيز بن مروان بمصر إذ كان والياً عليها، وهو مما طمس الله على أموالهم(١).

وقال إسحاق بن بشر: أخبرني المضارب بن عبد الله الشامي، قال: أخبرني من رأى بمصر نخلةً مصروعة، وإنها لحجر، ولقد رأيت ناساً قياماً وقعوداً في أعمالهم لو رأيتهم ما شككت فيهم قبل أن تدنو منهم أنهم ناس، وإنهم لحجارة، ولقد رأيت الرجلَ يحرثُ بين ثورين، وإنه وثوراه حجارة(٢).

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٩٧.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٩٨.

فصل في قصة آسية بنت مزاحم

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفضَلُ نساءِ أهلِها خديجةُ بنتُ خُوَيلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمَّدٍ، ومريمُ بنتُ عِمرَان، وآسيَةُ بنتُ مُزاحمٍ»(١).

وروى عكرمة عن ابن عباس، موقوفاً عليه قال: كانت آسيَةُ من بني إسرائيلَ، قد آمنتْ بموسى سرّاً من فرعون، فلما علم بذلك ضرب لها أوتاداً في يديها ورجليها، وأمر بأن تلقى على صدرها صخرة كأكبر ما يكون، قال: فإن رجعت عن دينها فخلُّوا سبيلها، فكشف الله عن بصرها، فرأت قصرها في الجنة، فقالت: اصنعوا ما بدا لكم، فقد رأيت قصري ومنزلي في الجنة، فذلك قولها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التحريم: ١١] فاستجاب الله دعاءها، وأراها قصورها ومنازلها في الجنة قبل أن تفارق الدنيا. وكانوا إذا تفرَّقوا عنها أطلقها الملائكة، فماتت على ذلك.

فصل في ماشطة ابنة فرعون

حدثنا غير واحد، عن عبد الرحمن بن محمد القزَّاز، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أُسْرِيَ بي مررتُ برائحة طيبة، فقلت: يا جبريل ما هذه الريح؟ قال: هذه ريح ماشطة ابنة فرعون، كانت تمشطها فوقع المشط من يدها فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا، بل ربي وربّ أَبيك الله، فأخبرت فرعون، فدعاها فقال: مَنْ ربك؟ فقالت: ربي وربّك الله الذي في السماء، فأمر ببقرة من نُحاس فأحميت، ودعا بها وبولدها، فقالت له: إن لي إليك لحاجة، قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي، فتدفنهما جميعاً. فقال: إن لك من الحق علينا ما تستوجبين به ذلك. وكان لها أولاد فجمعهم، ثم ألقى واحداً بعد واحد في البقرة وهي تغلي، حتى إذا كان آخر ولدها، وهو طفل رضيع، أنطقه الله تعالى: يا أماه اصبري، فإنك على الحق،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٦٨).

فألقاها مع أولادها»(١).

فصل في قصة مؤمن آل فرعون

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾[غافر: ٢٨-٣٣] الآيات.

واختلفوا في اسمه، قال ابن عباس: خربيل، أو خربال، أو خربيال. وقال مقاتل: سمعان، أو شمعان، أو شمعون، وقيل: حبيب. وقال مقاتل: خيرك، وقيل: حزقيل، وكان ابن عم فرعون، وقيل: من آله.

قال مجاهد: وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠] وجادل عن موسى فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وكان قد أوقع الله في قلبه الإسلام، وكتم إيمانه خوفاً من فرعون. وقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ استفهام إنكار ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يضركم ﴿وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾[غافر: ٢٨] من العذاب، والمراد بالبعض ها هنا الكلُّ(٢).

فصل في قصة فرعون مع النيل

روى وهب بن منبه، عن كعب الأحبار قال: أَمسَكَ النيل عن الجريان في بعض السنين، فقالت القِبط لفرعون: إن كنتَ ربّاً كما تزعمُ فأَجْرِهِ. فركب في جنوده، ثم انفرد عنهم ونزل عن فرسه، ولبس ثيابَ المساكين، وسجد وتضرع وقال: إلهي أنت تعلم أني أعلمُ أنك إله الخلق، لا إله سواك، ولكن كتبت عليَّ الشقاء، وطردتني عن بابك، ولا حيلة لي. فأجرى الله له النيل.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٨٢١)، وقوله: «فأمر ببقرة من نحاس»، قال الحافظ أبو موسى: الذي يقع لي في معناه أنه لا يريد شيئاً مصنوعاً على صورة البقرة، ولكنه ربما كانت قدراً كبيرة واسعة فسماها بقرة، مأخوذاً من التبقر: التوسع أو كان شيئاً يسع بقرة تامة بتوابلها فسميت بذلك «النهاية» ١/ ١٤٥.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٨٩، والمنتظم ١/ ٣٤٥، وتفسير الطبري ٢٠/ ٣١١.

فصل في بناء الصرح

روى عكرمة عن ابن عباس، قال: لما تضايقت بفرعون الحيل قال: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي: صرحاً عالياً ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي: طرقها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾[غافر: ٣٦-٣٧] فيما يقول أن له ربّاً غيري ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾[القصص: ٣٨] أي: اطبخ الآجرَّ- وفرعونُ أول من طبخ الآجرَّ وبنى به. وقيل: نمرود لما بنى الصرح ـ فجمع هامان العمال والفَعَلة حتى بلغوا خمسين ألفاً من البنَّائين، سوى الأتباع. ومن يعمل الجصَّ وينحت الخشب، فرفعوه ارتفاعاً عظيماً. قال مجاهد: لم يبلغ بنيانُ أحدٍ منذ خلق الله السماوات والأرض مثله.

ولما فرغ صعد عليه فرعون، فرمى بنشابة نحو السماء فعادت وهي ملطخة بالدم، فقال: قتلتُ إله موسى ـ وقد تقدم جواب مثل هذه الأشياء في صرح نمرود ـ فبعث الله جبريل عليه السلام، فضربه بجناحه، فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعةٌ منه على عسكر فرعون، قتلت منهم مئة ألف ووقعت قطعة منه في النيل فسدَّته، ووقعت الأخرى على العمال والبنَّائين فأهلكتهم(١).

فصل في غرق فرعون

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢] أي: يتبعكم فرعون وقومه. وقال مقاتل: لما وقع الإياس من إيمان فرعون، وأباد بني إسرائيل وأفناهم، شكا موسى إلى الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي: سِرْ بهم أَوَّلَ الليل من مصر، فأَمر موسى بني إسرائيل أن يستعيروا حلي القبط بعلَّةِ عرس لهم ففعلوا.

روى الثعلبي عن ابن جريج في هذه الآية قال: أوحى الله إلى موسى: أن اجمع بين كل أربعة من أهل بيت في بيت واحد، ثم اذبحوا أولاد الضأن، ثم اضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سآمر الملائكة فلا تدخل بيتاً على بابه دم، وآمرها فتقتل أبكارَ آل

(١) عرائس المجالس ١٩١.

فرعون، ثم اخبزوا فطيراً، فإنه أسوغ لكم، ثم أَسْرِ بعبادي حتى تنتهي إلى البحر، فقف هناك، حتى يأتيك أمري، ففعل.

فلما أصبحوا قال فرعون: هذا عمل موسى وقومه، أخذوا أموالنا، وقتلوا أبكارنا، ثم أرسل ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[الشعراء: ٥٣] فلما اجتمع الناس والسحرة، قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾[الشعراء: ٥٤] والشرذمة بقية القليل. قال ابن مسعود: وكانت هذه الشرذمة ست مئة ألف وسبعين ألفاً[١].

وقال الجوهري: الشرذمة الطائفة من الناس، والقطعة من الشيء[٢].

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الشعراء: ٥٥] أي: أعداء، لمخالفتهم ديننا، وقتلهم أبكارنا، وأخذهم أموالنا التي استعاروها، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منا «وإنا لجميع حادرون» [الشعراء: ٥٦] قال الفراء: يعني عظاماً من كثرة الأسلحة، ومنه قيل للعين العظيمة: حَدْرَة[٣]. ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾ [الشعراء: ٥٧] ﴿وَكُنُوزٍ﴾ قال مجاهد: سماها كنوزاً لأنها لم تنفق في سبيل الله وطاعته ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨] أي مجلس حسن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما وصفنا ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي: لحقوهم وقت إشراق الشمس.

وروى عكرمة عن ابن عباس، قال: خرج موسى في ست مئة ألف، وعشرين ألفاً، لا يَعُدُّون ابن العشرين لصغره، ولا ابن السبعين لكبره. وأمر الله موسى أن يأمر قومه أن يوقدوا المصابيح في بيوتهم إلى الصبح، وأخرج الله كل ولد زنا في القبط من بني إسرائيل إليهم، وأخرج كل ولد زنا في بني إسرائيل من القبط إلى القبط[٤]، كل واحد منهم إلى أبيه. ودعا موسى عليهم حين خرج، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨] فصارت دراهمهم ودنانيرهم وحبوبهم حجارة، حتى العدس والقمح والحمص والجوز وغير ذلك. ثم ألقى على القبط الموت، فاشتغلوا بدفن موتاهم عن

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٩٨.

(٢) «الصحاح»: (شرذم).

(٣) تفسير الثعلبي ٧/ ١٦٥، وقراءة حادرون بالدال شاذة، قرأ بها ابن أبي عمار ومحمد بن السميفع وسميط بن عجلان، انظر المحتسب ٢/ ١٢٨، وشواذ ابن خالويه ١٠٦.

(٤) كذا في (ب) و«الطبري» ١/ ٤١٤، وفي المطبوع «كل ولد رِبِّيّ».

طلب بني إسرائيل. وأُخبر فرعون بخروجهم آخر الليل فقال: لا يتبعهم أحد حتى يصيح الديك، فما صاح تلك الليلة ديك. ثم ضرب الله على بني إسرائيل الطريقَ في الليل، فلم يدروا كيف يذهبون، فقال موسى: ما منعنا إلا تابوت يوسف عليه السلام لندفنه في البيت المقدس عند آبائه الأنبياء، وما أُتينا إلا من قبله.

حدثنا أبو اليمن زيد بن الحسن بإسناده عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، قال: مرَّ رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه، فقال له: «تَعَاهَدْنَا» قال: فأتاه، فقال: «اسأل حاجتك» فقال: ناقة برحلها، وأجير يحلبها، فقال له رسول الله ﷺ: «أَعَجَزتَ أنْ تَكُونَ مِثلَ عَجُوزِ بني إسرائيلَ؟» فقال له أصحابه: يا رسول الله، وما عجوزُ بني إسرائيل؟ فقال: «إنَّ مُوسى لما أرادَ السَّيْر ببني إسرائيلَ ضلَّ عن الطَّريقِ، فقال لعُلَماء بني إسرائيلَ: ما هذا؟ قالوا: نحنُ نُخبرُك: إنَّ يوسُفَ عليه السلام لما حضَرهُ الموتُ أخَذَ مَواثيقَ بني إسرائيلَ أنْ لا يخرجُوا من مِصر حتى يُخرِجُوا عِظامَه معَهُم، فقالَ موسى: أيُّكُم يَدْرِي أينَ قبرُه؟ قالوا: ما يَعلَمُ ذلكَ إلا عجوزٌ من بني إسرائيلَ، فأرسَلَ إليها فجَاءَت، فسَأَلَها فقالت: واللهِ لا أخبرُك حتى تُعطِيني حُكْمِي، قالَ: وما حُكْمُك؟ قالت: تأخذُني مَعَك وأكُون رفيقَتَك في الجنَّة، قال: نعم. وفي رواية: «فقَامَ مُوسى مِن بين بني إسرائيلَ يقولُ: أنشُدُ الله مَن عَرفَ موضعَ قَبرِ يُوسُف، فلَم يسمع صوتَه أحدٌ إلا العجوز، وقالَت له: أريدُ مِنك أنْ تَحمِلَني مَعك، فحمَلَها، قالَت: وفي الآخرةِ لا تدخلْ غرفةً من غرف الجنة إلا وأنا مَعك، فقال: نعم. وسَأَل اللهَ موسى تأخيرَ طلوعِ الفَجرِ لهذا السبب، فأتَتْ إلى مُسْتَنْقَع ماءٍ، فقالَت: انضُبوا هذا الماء فنَضَبُوه، فقالت: احفرُوا ها هنا، فحفرُوا فبدَا تابوتٌ مِن مَرْمَرٍ مدْفُون بأرضِ النِّيل، كانوا يتبرَّكون به. فلما أقلُّوه بانَ لهم الطريقُ مثل ضوءِ النَّهار[1].

وقال ابن الكلبي: كانت هذه العجوز من ولد إسحاق، وقيل: من ولد يعقوب، عاشت أربع مئة سنة، وبها يضرب المثل فيقال: أكبر من عجوز بني إسرائيل، وسنذكرها في الأمثال.

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٢٣)، والثعلبي في عرائسه ١٩٩، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٧١، وابن الجوزي في المنتظم ١/ ٣٤٧، قال ابن كثير في تفسيره للآية (٥٢) من سورة الشعراء: هذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف والله أعلم.

وقال قتادة: كان يوسف مدفوناً عند مدينة مَنْف، وهناك مسجده، قال: ولما حمله موسى معه، دفنه خارجاً من المغارة التي فيها إبراهيم، وإنما لم يدفن معهم في المغارة لأنه تدنَّس بالدنيا وآباؤه لم يتدنسوا منها بشيء.

وقال عكرمة: كان هارون في المقدمة وموسى في الساقة. وخرج فرعون في طلبهم في ألف ألف من القبط، وسبع مئة ألف حصان، منها مئة ألف حصان دهم، وهامان على مقدمته في ست مئة ألف، ولم يكن في خيل فرعون أنثى.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي تقابلا بحيث يرى كلُّ فريق منهما صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[الشعراء: ٦١] هذا البحر بين أيدينا والعدوّ مِنْ خلفنا، فقال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٦٢] وكان يوشع بن نون بين يديه، وقيل: مؤمن من آل فرعون، فقال له: يا نبي الله أين أُمِرْتَ أن تنزل؟ فيقول: أمامك، فيقول: وهل أمامي إلا البحر؟ فيقول: والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ. فوصل موسى إلى بحر القُلْزُم ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾[الشعراء: ٦٣] وأوحى الله إلى البحر أن أطع موسى، فضربه فتوقف، فقال الله: كَنِّهِ، فقال: انفلقْ أبا خالد، فاضطرب البحر وانفلق وقام الماء كأمثال الجبال، وصار في البحر اثنا عشر طريقاً على عدد الأسباط، وكانوا اثني عشر سبطاً، كل سبط اثنا عشر ألفاً، وكلهم من ولد يعقوب.

وقال ابن عباس: صار بين كلِّ طريقين كالطود العظيم من الماء، فكانوا يمرُّون فيه فلا يدري هذا السبط ما حال السبطِ الآخر، فاستوحشوا وخافوا أن يكون قد غرق بنو أعمامهم، فأرسل الله على أرض البحرِ الشمسَ والريح فصارت يبساً، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ ليس فيه ماء ولا طين ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧] من البحر، وكان الماء في غاية الزيادة، وصار الماء مثل الشبابيك، فكان بعضهم يرى بعضاً ويأنس بحديث بعض.

وسئل ابن عباس عن مكان لم تطلع عليه الشمس إلا مرة واحدة، فقال: المكان الذي انفلق لبني إسرائيل[1].

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٠.

وقال مقاتل: ولما رأى فرعون أن البحر قد انفلق قال لقومه: خاف البحر فانفلق لأُدرِكَ عبيدي وأعدائي. ولما وصل فرعون وجنده إلى الساحل وجدوا موسى وقومه قد عبروا، فقال للقبط: قد سحر موسى البحر، فقالوا له: إن كنت إلهاً فاعبر خلفه، وكان على حصان أدهم، فهاب الحصانُ أن ينزل، فبعث الله تعالى جبريل على ماذيانة وَدِيق، يعني رَمَكَة[1]، فجاءت بين يدي الحصان، فشمها فتقدَّم، فدخل جبريل البحر وفرعون والقوم خلفه، وميكائيل خلفهم يحثهم ويقول: الحقوا أصحابكم، فلما تكامل أولهم وآخرهم، وهمَّ أولهم بالصعود، أمر الله البحر فانطبق عليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ۝٦٤﴾[الشعراء: ٦٤] أي: قرَّبناهم إلى الهلاك وقدَّمناهم إلى البحر ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٦٦﴾[الشعراء: ٦٥، ٦٦] يعني فرعون وقومه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: عظة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٦٧] قال مقاتل: لم يؤمن منهم غير حزقيل وآسيَة والعجوز التي دلَّت على تابوت يوسف عليه السلام[2].

ولما انطبق البحر عليهم نادى فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[يونس: ٩٠].

حدثنا عبد الرحمن بن أبي حامد الحربي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أدسُّ في فيه حمأة البحر مخافة أن يقول لا إله إلا الله فتدركه الرحمة. أخرجه أحمد فقال: حدثنا سليمان بن حرب بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قالَ فِرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[يونس: ٩٠]، قال جبريل: لو رَأيتَني وقد أَخَذتُ مِن حَالِ البَحرِ فدسَستُهُ في فِيه مَخَافةَ أنْ تَنالَه الرَّحْمَة»[3].

وقال مقاتل: فقال له جبريل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١].

وقال مقاتل: قال جبريل: ما أبغضت أحداً مثل ما أبغضت فرعون وإبليس، ذاك

(١) هي الفرس الأنثى المشتهية للفحل.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠١.
(٣) أحمد في «مسنده» (٢٨٢٠)، وإسناده ضعيف، والأصح وقفه. قاله الشيخ شعيب حفظه الله.

قال: ﴿وَمَا إِلَّا إِلَٰه﴾[النازعات: ٢٤]، وإبليس قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١٢] قال: ولما خرج بنو إسرائيل وأغرق الله فرعون، قال أناس: إن فرعون لم يغرق، فقذفه البحر على نجوة منه، وهي المكان المرتفع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[يونس: ٩٢] فلما ارتفع على النجوة قالوا: لم يكن إلهاً، ولو لم يرتفع لقالوا: إنه إله. قال الحسن: فمن هناك أن الغريق يقف على رأس الماء.

وذكر مقاتل في «المبتدأ» له وقال: كان جبريل قد وقف لفرعون بمصر في زيّ فقير ومعه رقعة، فاستغاث إليه فقال: ما الذي بك؟ فقال: اشتريت عبداً وخوَّلته، وكان صغيراً فربيته وأحسنتُ تربيته، وحكَّمتُهُ في رزقي ومالي، وهو الآن يأنف أن يعترف لي بالعبودية، وقد عصاني وتمرَّد عليَّ وجحد نعمتي، فقال فرعون: ولا يستحيي منك! فقال: لا، هو خبيث، فما حكمك فيه أيها الملك؟ فقال: تأخذ بيديه ورجليه وتلقيه في بحر القلْزُم، فقال: اكتبْ لي خطَّك بهذا، فكتب له على رأس الورقة، فلما كان يوم البحر جاءه جبريل في صورة ذاك الفقير ومعه القصة فقال له: خذ هذه القصة، فظنه بعضَ أصحابه، فقال: ليس هذا وقتَهُ، فقال له جبريل: بلى يا خبيث، أنسيتَ يوم كذا وكذا؟ ففهم المقصود. قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾[البقرة: ٥٠] الآية، وانقضت أيام فرعون.

وقال قتادة: ملك مصر من أول العالم إلى ولادة المسيح اثنان وثلاثون فرعوناً، وكلُّ مَن ملكها يسمى فرعون، كما أن قيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس. وقد ملكها جماعة من الروم واليونان والعمالقة وغيرهم، وسنذكرهم.(١)

فصل في تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر

قد ذكرنا أن يعقوب دخل إلى مصر وولده، وهم اثنان وسبعون إنساناً ما بين ذكر وأنثى، وخرجوا منها مع موسى وهم ست مئة ألف مقاتل سوى الهَرْمَى والزمنى، فكان المجموع من الذرية ألف ألف ومئتي ألف.

---

(١) وقع في المطبوع بعد هذا ما نصه: فإن قيل: فلم أرسله إلى فرعون بعصا قلنا: لأنه كان حماراً، لأنه جحد نعم الله عليه. اهـ. وهي زيادة وضعها الدكتور إحسان عباس بين معقوفين، وحقها أن تذكر أول قصة موسى عليه السلام.

وقال الكلبي: لما أهلك الله فرعون عاد موسى إلى مصر فأقام بها يسيراً ثم أوحى الله إليه: ارجعْ إلى مقرِّ الأنبياء وهو الشام، فإن مصر ليست بأرض الأنبياء، اذهب إلى أرض فلسطين فإنها ميراثكم من آبائكم وهي دار مُلْككم فهاجرَ إلى الشام.

وقال وهب: من هبوط آدم من الجنة إلى خروج بني إسرائيل من مصر ثلاثة آلاف سنة وثمان مئة وأربعون سنة. ومن مولد الخليل إلى خروج بني إسرائيل من مصر ألف وخمس مئة وخمسون سنةً. ومن وفاة يوسف إلى خروج بني إسرائيل من مصر أربع مئة سنة، وقيل: خمس مئة سنة.

فصل فيما جرى من الحوادث بعد خروج موسى ببني إسرائيل من مصر وقطعهم البحر

قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾[يونس: ٩٠ والأعراف: ١٣٨] الآية. روى عكرمة والكلبي عن ابن عباس قال: قطع بهم موسى البحر يوم عاشوراء فلهذا عظَّموه وصاموه، وكان ذلك يوم الجمعة ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ وهي التماثيل.

واختلفوا في القوم الذين كانوا يعبدون الأصنام وهي التماثيل على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا من لَخْمٍ وجذام من العرب، قاله قتادة.

والثاني: من الكنعانيين، قاله مقاتل.

والثالث: من العمالقة، قاله الحسن. فأمر موسى بقتلهم، فقال له قومه: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فغضب موسى وقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٨] أي: نعمة الله عليكم، وقد شاهدتم سلطانه في نجاتكم وإهلاك عدوّكم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مُهلَكٌ ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٩] أي: زائل مضمحل.

حدثنا عبد الله بن أحمد المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أبو السعادات نصر الله بن عبد الرحمن بن محمد القزاز بإسناده عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع النبي ﷺ قِبَل حنين، فمرَرنا بسدرةٍ خضراءَ عظيمةٍ يقال لها: ذات أنواط، كان الكفار يعبدونها ويعكفون عليها، فقلنا: يا رسول الله، اجعلْ لنا هذه،

فقال رسول الله ﷺ: «اللهُ أكبَرُ هَذا كَما قالَت بنو إسرائيلَ: ﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ والذي نَفْسِي بيَدِه لتَرْكبُنَّ سَنَنَ من كانَ قَبْلَكُم»(١).

وقد ذكرها الجوهري فقال: ذات أنواط بالنون اسم شجرة بعينها، قال: وفي الحديث أنه أبصر شجرة دَفْواءَ تسمى ذات أنواط. وكررها في المعتل أيضاً فقال: الدفواء بالمدِّ شجرة عظيمة، قال: وفي الحديث أنه أبصر شجرةً دفواء تسمى ذات أنواط، لأنه كان يناط السلاح بها وتعبد من دون الله(٢).

وقال الزهري: جاء بعض علماء اليهود إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فناظره في مسائل منها أنه قال له: أنتم ما دفنتم نبيَّكم حتى اختلفتم فيه، فقال له عليّ: ويحك نحن ما اختلفنا فيه وإنما اختلفنا عنه، ولكن أنتم ما جَفَّتْ أرجلكم من ماء البحر حتى قلتم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ فأُفْحِمَ(٣).

ومنها حديث الحَجَر

وقال مقاتل: لما خرجوا من البحر وقعوا في مفازة ليس فيها ماء فأوحى الله إلى موسى ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾[الأعراف: ١٦٠] وكان حجراً خفيفاً يُقلّه إنسان.

واختلفوا في صفته على أقوال:

أحدها: أنه كان مقدارَ ذراع في ذراع. والثاني: شبر في شبر. والثالث: أنه كان كبيراً إذا ضربه انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً.

وقال ابن عباس: وهو الذي أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾[البقرة: ٦٠] الآية.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ وقال في أخرى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ فما الفرق؟ قلنا: الانبجاس يكونُ أولاً ثم الانفجار بعده.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) «الصحاح»: (نوط) و(دفا).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٢.

فقال قوم: إنه كان يضربُ أيَّ حجر كان، والأصح أنه كان حجراً بعينه لأنه عرَّفه بالألف واللام، وقد نصَّ عليه ابن عباس وابن مسعود، أما ابن عباس فإنه قال: كان حجراً خفيفاً من الرخام، وقال ابن مسعود: كان من الكذَّان يضعه في مخلاته، وكان فيه اثنتا عشرة حفرة، وكان يسقي كل يوم ست مئة ألف إنسان وزيادة.

و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[البقرة: ٦٠ ، والأعراف: ١٦٠] أي: فلا يقتتلون ولا يتعدَّى أحدٌ على أحد. وقال بعضهم: هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه ففرَّ وقال: آدر، وسنذكره.

ومنها إنزال التوراة

قال ابن عباس: طلبوا من موسى كتاباً يضبط نادَّهم ويردُّ شاردهم، ويبيِّن لهم فيه الحلال والحرام، فسأل الله تعالى، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً ثم يتمُّها أربعين. واختلفوا فيه على أقوال: أحدها: أنها ذو القعدة وعشر من ذي الحجة. وقيل: ذو الحجة وعشر من المحرم، وهو الأصح، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[الأعراف: ١٤٢] وكان التكليم يوم عاشوراء، فقال لأخيه هارون: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾[الأعراف: ١٤٢] أي: كن خليفتي، وأصلح، أصلحهم على طاعة الله وعبادته ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٤٢] أي: العاصين.

ثم توجَّه نحو الميقات وقد صام ثلاثين يوماً، فوجد لفمه خلوفاً فأنكره وقال: كيف أناجي ربي وأنا كذا، فأخذ عود خرنوبٍ فتسوَّك به، وقيل: من لحاء الشجرة، فعاتبه الله تعالى وقال: أما علمت أن خُلوفَ فم الصائم عندي أطيبُ من ريح المسك؟ فقال: إلهي، ما قصدتُ إلا مناجاتك بفم لا رائحة له وما علمت. قال ابن عباس: قالت له الملائكة كنا نشمُّ منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك[1].

وقال جدِّي رحمه الله: قيل لموسى[2]: أيها الصائم عن أمرنا لِمَ أفطرتَ برأيك؟ فقال: وجدتُ لفمي خلوفاً وما قصدت بفعلي خلافاً، قيل له: أما علمتَ أن خلوفَ فم

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٢، و«تفسير البغوي» ص ٤٨٧.

(٢) في (ب): قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله: قيل لموسى.

الصائم عندنا أطيبُ من فأرة المسك. وقال وهب: ولما تسوَّك ذهب بعضُ الخلوف، فأمره الله أن يصوم عشرةَ أيام، ولو ذهب الكلُّ لأمره بصيام ثلاثين يوماً. والميقات: الميعاد.

وقال مقاتل: ولما أتى الميقات تطهر ولبس ثيابه، فأوحى الله إليه: يا ابن عمران، اغسلْ قلبك من حبِّ الدنيا، ولسانك من ذكرها. وقف على طورِ سَيْناءَ أربعين يوماً بلياليها فإني أريد أن أناجيك بغير تَرجُمان، ونادى منادٍ من بطنان العرش - أي من وسطه -: يا جبالَ الدنيا، إن الله يريد أن يكلِّم عليكِ عبده موسى بن عمران، فتطاولت الجبال كلها إلا طور سيناء فإنه تواضع واحتقر نفسه، فكلَّم موسى عليه.

وقال مجاهد: أول ما قال الله تعالى له: يا موسى، أتدري لِمَ اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي؟ قال: لا ياربِّ، قال: لأنك لما كنتَ ترعى الغنم لشعيب ندَّت سخلةٌ عن أمها فوقفتَ لها وأخذتها ومسحتَ برأسها وقلت: الحقي بأُمِّك.

وقال ابن عباس: قرَّبه الله وأدناه حتى سمعَ صرير الأقلام في اللوح المحفوظ، وأنزل عليه التوراة في عشرة ألواح من الزَّبرجَد، فيها ألف سورة، في كل سورة ألف آية، فيها أمر ونهي ووعد ووعيد وحلال وحرام. وفي الحديث: «أنَّ الله كَتَبَ التَّوراةَ بِيَدِه»[1] وهي خمسة أسفار. قال: وأنزل عليه بعد ذلك مئة صحيفة. قال: وكلَّمه خمس مئة ألف كلمة، كذا روي عن ابن عباس. وقال مجاهد: ألف كلمة.

وقال وهب: وكان في جملة كلامه له: يا موسى، إذا رأيت الفقير مقبلاً فقلْ: مرحباً بشعارِ الصالحين، وإذا رأيت الدنيا قد أقبلت فقلْ: ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبته. يا موسى، لن يتقرَّب إليَّ المتقرِّبون من أعمال البرِّ بمثل الرضى بقضائي، ولن تأتي بعمل أحبطَ لحسناتك من النظر إلى المحارم، وإياك أن تجود بدينك لدنياهم، أُغْلِقْ دونك أبواب رحمتي، يا موسى ادنُ من الفقراء وقرِّبْ مجالسهم منك، وإيَّاك والدنيا فإنك لن تلقاني بكبيرة أضرَّ عليك من حبِّ الدنيا والركون إليها. يا موسى، قلْ للمذنبين النادمين: أبشروا، وقلْ للمعجبين المتكبرين: اخسؤوا[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

(٢) انظر «المنتظم» ١/ ٣٤٢.

وقال وهب: ولما رجع موسى من التكليم غشَّى وجهه نور عظيم فتبرقع، ولو لم يتبرقع لمات من نظر إليه، ومنذ كلَّمه الله تعالى لم يأتِ النساءَ[١].

فإن[٢] قيل: فنور النظر أعظم من نور الكلام وقد رأى نبيُّنا ﷺ ربَّه ليلةَ المعراج، ولما عاد لم يتبرقع، قلنا: موسى كان محبّاً والمحبُّ مشهور، ونبيُّنا ﷺكان محبوباً والمحبوب مستور، ولأن نبيَّنا ﷺ كان رحمة للعالمين، والرحمةُ لا تكونُ مستورةً بل عامة للخلائق أجمعين.

ومنها تذكارهم بالنعم المذكورة

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾[البقرة: ٤٧] أراد نعمي قال ابن عباس: مِن فَلْقِ البحر، وإنجائهم من فرعون، وإهلاك عدوِّهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وظلَّل عليهم الغمام في التيه يقيهم حرَّ الشمس، وجعل عليهم عموداً يضيء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى.

وقال مقاتل: شكوا إلى موسى حرَّ الشمس فأنزل الله عليهم غماماً أبيضَ رقيقاً وليس بغمام المطر بل أرق وأبرد منه، فقالوا: هذا الظلُّ قد حصل، فأين الطعام؟ فأنزل الله المنَّ والسلوى[٣].

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه شيء كالصَّمغ يقع على الأشجار وطعمه كالشهد، قاله مجاهد.

والثاني: أنه الطَّرَنْجَبين، قاله الضحاك.

والثالث: أنه الخبز الرقاق، قاله وهب.

والرابع: أنه عسل كان يقع على الشجر من الليل، قاله السدي.

والخامس: شيء مثل الرُّبّ الغليظ، قاله عكرمة.

---

(١) انظر «المنتظم» ١/ ٣٤٢.

(٢) من هنا إلى سؤال موسى ربه الرؤية ليس في (ب).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٦.

والسادس: أنه الزنجبيل.

وقال الزجَّاج: هو جميع ما منَّ الله به من غير تعب ولا نَصَب.

والظاهر أنه ما يعرف من هذا المنِّ الأخضر الحلو، كان ينزل على الأشجار كلَّ ليلة مثل الثلج لكلِّ إنسان منهم صاع.

فقالوا: يا موسى، قد قتلنا بحلاوته نريد اللحم، فسأل الله فأنزل السلوى[1].

واختلفوا فيه أيضاً على أقوال:

أحدها: أنه طائر يشبه السُّمانَى، قاله ابن عباس.

والثاني: طيور حمر، قاله مقاتل.

والثالث: طير أكبر من العصفور يكون بالهند، قاله عكرمة.

والرابع: أنه العسل بلغة كِنانة، قاله المُؤرِّج، واحتج بقول الشاعر[2]:

وقاسَمَها بالله حقّاً لأنتمُ ألذُّ من السَّلوى إذا ما نَشُورُهَا

والأول أصح، وعليه عامَّة المفسرين.

وذكَّرهم الله بما فجَّر لهم من المياه من الحجر، وإنزال التوراة وفيها تبيانُ كلِّ شيء من نعم كثيرة.

فإن قيل: فكيف خاطب الحاضرين بقوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وعدَّد عليهم النعم، وإنما كان ذلك لأسلاف اليهود المخاطبين؟ قلنا: لأن هؤلاء نجوا بنجاة آبائهم وأجدادهم، ومفاخر الآباء مفاخر الأبناء.

وقال ابن عباس: كان يأخذ كلُّ واحد منهم ما يكفيه ليومه وليلته، فإذا كان يومُ الجمعة أخذ ما يكفيه يومين لأنه لم يكن ينزلُ عليهم يومَ السبت. وقيل لهم: لا تدَّخِروا فادَّخَروا ففسد وتغيَّر، فقطع الله ذلك عنهم، وهو قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: ما ضرونا ما عصونا ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[البقرة: ٥٧] فقطع الرزق عنهم[3].

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٦.

(٢) هو خالد بن زهير الهذلي، والبيت في شرح ديوان الهذليين ١/ ٢١٥، وقوله: ما نشُورُها: الشور أخذ العسل وجنيه.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٧.

وقال الثعلبي: حدثنا ابن حامد وابن شعيب قالا: حدثنا مكيٌّ بن عبدان بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بَنُو إسرائيلَ لم يَخْنَزْ[١] الطَّعامُ ولم يَخْبُثِ اللَّحمُ، ولولا حوَّاءُ لم تَخُن أُنثَى زَوجَها»[٢].

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قِيلَ لبنَي إسرائيلَ: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾[البقرة:٥٨] فبدلوا فدَخَلُوا البابَ يزحَفُونَ على أَستاهِهِم وقالوا: حبَّةٌ في شَعَرةٍ»[٣]. أخرجاه في الصحيحين.

وقال أحمد بإسناده عن أبي هريرة قال: قلنا: يا رسولَ اللهِ، أنتحدَّثُ عن بني إسرائيل؟ قال: «نعم، تَحدَّثُوا عن بني إسرائيلَ ولا حَرجَ، فإنَّكُم لا تَتحدَّثُون عنهم بِشَيءٍ إلا وقد كَانَ فِيهِم أعجبُ مِنهُ»[٤]. ومعنى لا حرج، أي: لا أُضَيِّقُ عليكم في الحديث عنهم.

فصل في سؤال موسى الرؤية

قرأت على شيخنا الإمام الموفق عبد الله بن أحمد المقدسي رحمه الله بدمشق في سنة أربع وست مئة بقاسَيون من كتابه المسمَّى بـ «التوابين» قال: حدثنا أحمد بن المبارك بن ثابت عن جده ثابت بن بندار بإسناده عن وهب بن منبِّه قال: لما سمع موسى كلام ربه استحلاه واشتاق إليه وطمع في رؤيته، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ فقال الله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[الأعراف:١٤٣] وليس لبشر أن يراني، ولا يراني فيها أحد إلا ويموت، ولا يطيق أحد أن يراني، فقال موسى: يا إلهي، لأن أنظر إليك وأموت، أحبُّ إليَّ من أن أعيش ولا أراك[٥].

وقال وهب: حدثنا جويبر عن ابن عباس قال: لما رأى الله تعالى حرص موسى على الرؤية قال له: اذهب إلى ذاك الحجر الذي في رأس الجبل ـ وهو جبل بمدين يقال له: طور سيناء أو طور دبير ـ فاقعد هناك، ففعل، وأمر الله الملائكة أن تمرَّ عليه،

(١) في (ط): يخثر، والمثبت من المصادر.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٧، والحديث في صحيح البخاري (٣٣٣٠) وصحيح مسلم (١٤٧٠).
(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٢٣٠) والبخاري (٣٤٠٣) ومسلم (٣٠١٥).
(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٠٩٢).
(٥) «التوابين» ص ٣٨ـ٣٩.

فنزلت ملائكة السبع سماوات، ولهم أصوات مرتفعة بالتسبيح والتهليل والتقديس على صور شتى، ذوو أجنحة منهم كالأسود والنمور والوحوش، وأُقبل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش على صورهم التي خلقهم الله عليها، وجاءت الصواعق والرعد والبرق والأهوال، ففزع موسى وكاد أن ينخلع فؤاده وجعل يبكي ويتضرَّع ويقول: يا ربِّ، ندمتُ على ما سألتُ، فهل أنت منجيَّ من مكاني؟ فناداه بعض الملائكة: يا ابن النساء الحيَّض، اصبر على ما سألت، فقليل من كثير ما رأيت، يا خاطىء، يا ابن الخاطىء، ما الذي جرَّأك على ما طلبت؟ وناداه إسرافيل: يا ابن عمران، والله لنحن رؤساء الملائكة منذ خلقنا الله لم نرفع رؤوسنا نحو العرش خوفاً وفرقاً، فما حملك أيها العبد الضعيف على الإقدام على ذلك؟ فقال موسى: أحببتُ أن أعرف من عظمة ربي ما عرفت. قال وهب: ثم أوحى الله إلى الجبل إني متجلٍّ لك، فارتعدت السماوات والأرض وجميع المخلوقات، ثم خرُّوا لله سجَّداً، ثم تجلَّى الله للجبل فـ ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾[الأعراف: ١٤٣] من نور ربِّ العزَّة، وانقلب الحجر الذي كان جالساً عليه فصار مثل القبة. ولولا ذلك لاحترق[١].

وقال ابن عباس: أظهر الله من نوره للجبل مثل رأس الإبرة فساخَ واندكَّ، وموسى ينظر إليه، حتى لصق بالأرض فذلك قوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: مستوياً بالأرض.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «وصَارَ الجبلُ لعظَمةِ اللهِ سِتَّةَ أجبُلٍ، وقَعَ ثَلاثةٌ مِنها بالمدينَةِ: أُحُد ووَرِقانُ ورَضوَى، ووقعَ بمكةَ ثلاثةٌ: ثورٌ وثَبِيرٌ وحِراءُ»[٢].

قلت: ذكر جدي رحمه الله في «الموضوعات» أحاديث من هذا الجنس، منها هذا الحديث، وقال: لا يصحُّ، في إسناده عبد العزيز بن عمران يروي المناكير[٣].

وحكى عكرمة عن ابن عباس قال: طارت منه قطعة إلى أصبهان فصارت كحلاً للعيون إلى يوم القيامة.

---

(١) «التوابين» ص ٣٩-٤١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٤.

(٣) «الموضوعات» ١/ ١٧٣.

وحكى الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن أبي الحسين الرازي أنه قال: الأطوار التي كُلِّم عليها موسى أربعة: طور سيناء، وهو بالقرب من بحر القُلْزُم، والطور الذي ببيت المقدس، والطور الذي بطبرية عند أكيال، والطور الذي بدمشق، وهو جبل كوكبا موضع الكنيسة الخربة، وكَوكَبا قبلي داريًّا[1]. قلت[2]: والأصحُّ أنما خوطب على جبل الطور الذي بقرب القُلْزُم.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ أي: غُشِيَ عليه، وقال قوم: مات. والأول أصحُّ، لأنه لو مات ما عاش أبداً ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ عادت روحه إليه و﴿قَالَ سُبۡحَـٰنَكَ﴾ ـ وهذا دليل على أنه لم يمت ـ أي: نزَّهتك ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف:١٤٣] أنك لا تُرَى في دار الدنيا، وأن من رآك مات.

وقد روى أبو أحمد بن عدي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما تجلى ربُّه للجَبلِ أشارَ بإِصبَعهِ فمرَّ نُورٌ جَعلهُ دَكًّا»[3] قال جدي هذا الحديث في «الموضوعات» ولا يصحُّ هذا عن رسول الله ﷺ، وهو من عمل ابن أبي العوجاء، وكان زنديقاً. وكذا حديث: «إنَّ اللهَ أخرجَ خِنصَرهُ فَضربَ بِهِ عَلى إبهامِهِ فَساخَ الجَبلُ»[4] من عمل ابن أبي العوجاء.

قلت: وقد أخرج هذا الحديث أحمد بن حنبل في «المسند» فقال: حدثنا أبو المثنى مُعاذ بن مُعاذ العنبري، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[الأعراف:١٤٣] قال: هَكذا ـ يعني أنه أخرج طرف الخنصر ـ قال أحمد: أراناه معاذ ـ قال: فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدرَهُ ضربةً شديدة وقال: من أنت يا حُميد، أو: وما أنت يا حُميد؟ يُحدِّثُني به أنسُ بن مالك عن النبي ﷺ فتقول: ما تريدُ إليه[5]!.

---

(١) «تاريخ دمشق» ٦١/ ١٥.

(٢) في (ب): قال المصنف رحمه الله.

(٣) ابن عدي في «الكامل» ١/ ٣٤٢. وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٥٨).

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٥٩).

(٥) أحمد في «مسنده» (١٢٢٦٠).

قلت: ولم يذكر أحمد بن حنبل أنه ضعيف(١)، ولا ابن أبي العوجاء، ويكره تصحيح الحديث بأن يحمل قوله(٢).

وروى الوالبي عن ابن عباس قال: لما قال موسى: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ كشف الله تعالى الحجاب عن الجبال، وأبرز له جبل قاف وقال له: انظر، فنظر فإذا مئة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً عليهم العباء محرمين ملبِّين، كل منهم يقول: ﴿أَرِنِي﴾.

وقال أبو حنيفة بن النُّوبي: رأى ثمانية عشر ألف عالم يقولون: ﴿أَرِنِي﴾.

فإن قيل: فكيف أقدم موسى على طلب الرؤية؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه لما سمع الكلام وطاب له طار قلبه شوقاً إلى المتكلم، ولما رأى التكليم يُبْدأ قبل السؤال قال لسانُ طَمَعِهِ: لا عَتْبَ عليَّ إذا سألت من ابتدأني بالتفضل.

والثاني: لأنَّ كلَّ جارحةٍ منه أحسَّتْ بحظها من الكلام، فطمعتْ عيناه في نصيبها وقال: هذه لذة الكلام فكيف لذة النظر؟

والثالث: لأن طبع المحبِّ الترقي من حال إلى حال أرفع منها، فلما حصل على الكلام طلب ما هو أعلى.

والرابع: لِيتميزَ على من تَقَدَّمه من الأنبياء فيجمع بين الكلام والنظر.

والخامس: لأنه لما ناجى الله تعالى وسوس إليه إبليس وقال: إن الذي يناجيك شيطان. ولهذا روي عن الفضيل بن عياض أنه قال: جاء إبليس وموسى يناجي ربه فوقف قريباً منه فقال له بعض الملائكة: يا ملعون، ما الذي ترجو منه في هذا الوقت؟ قال: ما رجوتُ من أبيه آدم، فقال: ﴿أَرِنِي﴾ ليزول الوسواس.

والسادس: أنه سكر من شراب الكلام، والسكران لا يفيق من خماره إلا بشربة ثانية كما قيل(٣):

تداويت من ليلى بليلى عن الهوى

قال: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾.

---

(١) ليس من شرط المسند أن يضعف أحمد الأحاديث فيه أو يصححها، فلعله لم يضعفه فيما نقل من أقواله، أو في كتابه العلل.

(٢) كذا وردت هذه الجملة في (ط)؟! وفيها سقط، وهي ليست في (ب).

(٣) القائل هو قيس بن الملوح، وتمام البيت: «كما يتداوى شارب الخمر بالخمر»، انظر ديوانه ص ١٦٠-١٦٣.

فإن قيل: فلمَ منعه الرؤية؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ خرج جواباً لموسى، لأنه سأل ما لم يكن في الدنيا فأخبره بالمستحيل.

والثاني: أنَّ الرؤية غاية الكرامة ومنتهى المنزلة إذ ليس بعدها منزلة فلو حصلت في الدنيا لموسى لم يبقَ لها في الجنة التي هي دار الكرامة معنى، فإذا كان يوم القيامة أكرم الله بها أكرمَ عبادِه، وهو محمد ﷺ، وقد قال ﷺ: «أنا أوَّلُ مَن يَطرقُ بَابَ الجنَّة»(١) و«الجنَّةُ محرَّمةٌ على الأنبِيَاءِ حتى أدخُلَها»(٢). فكأنه يقول: لن تراني قبل محمد فلا تطمع فيما ليس لك.

وقال عبد الله بن المبارك: لما كانت الدنيا فانية، والأبصار فانية، والحق سبحانه باق، لم يحسن أن ينظر الفاني في الفاني إلى الباقي، فإذا كان يوم القيامة، خلق الله لنا داراً باقية وأبصاراً باقية فننظر بالباقي إلى الباقي في الباقي.

وقال سهل بن عبد الله: قيل له: يا موسى، بالأمس تسألني نصف رغيف وتقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص: ٢٤] واليوم تسألني الرؤية؟ لن تراني.

وقال علي بن مهدي: لو كان سؤال موسى الرؤية مستحيلاً لما أقدم عليه مع علمه ومعرفته بالله فدل على الجواز.

وقال قوم: لما علَّق الرؤية باستقرار الجبل دل على الجواز، ولأن استقراره غير محال.

فإن قيل: فلم صار الجبل دكاً لما رآه، وقلوب المؤمنين تراه دائماً ولا تندك؟ قلنا: جعل الله الجبل نداً لموسى لأنه جماد، والقلوب بيوت الحقِّ سبحانه وتعالى، والساكن لا يخرب بيته.

فإن قيل: فقد أحاله على الجبل تعليقاً للرؤية بثبات الجبل ولم يثبت فموسى أولى. وجواب من أحيل على مليءٍ ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ وقد تعلق نُفاةُ الرؤية بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وقال: هي للأبد، ونحن نقول: هي للوقت دون الأبد، ألا ترى إلى قوله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٤٦٢) من حديث مكحول مرسلاً.

في حقِّ الكفار: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[البقرة: ٩٥] ثم حكى عنهم أنهم يتمنونه بقولهم: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[الزخرف: ٧٧] وقال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢] وقد يدخل الجنة من لا ينفق مما يحب.

وقال أهل المعاني: لما أراد موسى الذهاب إلى الميقات جعل بين ربه وقومه واسطةً بقوله لأخيه هارون: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾[الأعراف: ١٤٢] فلما سأل الرؤية جعل الله بينه وبينها واسطة وهو الجبل، فكأنه يقول: إن لم أصلح لخلافتك في قومك دون أخيك فكذا أنت لا تصلح لرؤيتي دون استقرار الجبل.

وقال سهل بن سعد الساعدي: أظهر الله نوراً بقدر الدرهم من سبعين ألف حجاب فصار الجبل دكاً.

وقال أبو بكر الورَّاق: فَعَذُبَ إذ ذاك كلُّ ماء، وأفاق كل مجنون، وبرأ كل مريض، وزال الشوك عن الأرض، واخضرت الدنيا، وخمدت نيران المجوس، وخرَّت الأصنام سجداً.

وقال سفيان: ساخ الجبل حتى وقع في البحر، فهو يذهب معه تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة.

ومعنى قوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[الأعراف: ١٤٣] من الانبساط على بساط القرب. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾[الأعراف: ١٤٤] أي: على من تقدمك من الأنبياء الذين أوحيت إليهم برسالاتي وبكلامي، لا على من يأتي بعدك وهو محمد ﷺ، فإنه شاركه في الكلام وزاد عليه بالنظر.

فصل في قول بني إسرائيل إنه آدَر

قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر بإسناده عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «كانت بَنُو إسرائيلَ تَغتَسِلَ عُراةً ينظُرُ بَعضُهم إلى بَعضٍ - أو إلى سوءَةِ بعض - وكانَ مُوسى يَغتَسِلُ وحدَهُ، فقالوا: والله ما يَمنعُه أن يغتَسِلَ معنا إلا أنه آدَرُ. قال: فذهبَ مرةً يغتسِلُ فوضَعَ ثَوبَه على حَجرٍ ففرَّ الحَجرُ بِثوبِهِ فَجَمحَ مُوسى في أَثرِهِ يَقولُ: ثوبي حجرُ، ثوبي حَجرُ، حتى نَظرتْ بنو إسرائيلَ إلى سَوءتِهِ، فقالوا: واللهِ ما بمُوسى من بَأسٍ،

فقامَ الحَجرُ حتى نَظروا إليه، فأَخذ ثوبَهُ وطفِقَ بالحَجرِ ضَرباً» وقال أبو هريرة: والله إن بالحجر ندباً ستة أو سبعة من ضرب موسى، فذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ﴾[الأحزاب: ٦٩] الآية. أخرجاه في الصحيحين(١).

وللبخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إنَّ مُوسَى كان حَيياً يَستتِرُ ألَّا يُرى مِن جِلدِه شَيء استحياءً مِن اللهِ، فآذَاهُ من آذَاهُ مِن بنِي إسرَائيلَ وقالوا: ما يَستتِرُ هذا الستر إلا من عَيبٍ بِجلدهِ، إما بَرصٌ وإما أُدرَةٌ وإما آفَةٌ. وإنَّ الله أرادَ أن يبرِّئَهُ مما قالوا، فَخلا مُوسَى يَوماً وحدَهُ ووضَعَ ثِيابَهُ على حَجرٍ، ثُم اغتَسلَ، فلمَّا فَرغَ أقبلَ إلى ثِيابِهِ ليأخُذَها، وإنَّ الحجرَ عَدا بِثوبِهِ فَأخذَ مُوسى عَصاهُ وطَلَبَ الحَجرَ، وجَعلَ يَقولُ: ثَوبي ثَوبي، وذكَرَهُ، حتى انتهى إلى ملأٍ من بَنِي إسرائيلَ فرأَوهُ عُرياناً أحسنَ ما خَلقَ اللهُ، وأَبرأَهُ مما يقُولُونَ فيه، فَطفِقَ ضَرباً للحَجرِ، فإنَّ فيه من أثَرِ ضَربِهِ ثلاثاً أو أربَعاً أو خَمساً»، ونزلت الآية(٢).

وقال الفراء: الآدر: العظيم الخصيتين، وجمح: أسرع إسراعاً لا يرده شيء.

وقال سعيد بن جبير: الحجر الذي وضع عليه ثوبه هو الذي يحمله معه في الأسفار ويضربه فتنفجر منه العيون.

وقال مقاتل: إنما نزلت هذه الآية في قصة هارون، وسنذكره هناك.

فإن قيل: فكشف العورة حرام في غير حقِّ الأنبياء، فكيف مشى موسى وعورته بادية؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن كشف العورة حرام في شرعنا أما في شرعهم فلا، والدليل أنهم كانوا يغتسلون عراة، وموسى يراهم ولا ينكر عليهم، ولو كان حراماً لأنكره، واستتار موسى إنما كان من باب الحياء لا أنه يجب عليه ذلك.

والثاني: أنه يحتمل أن موسى كان عليه مئزر رقيق فظهر ما تحته لما ابتلَّ بالماء فرأوا أنه أحسن الخلق فزال عنهم ما كان في أنفسهم.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨)، مسلم (٣٣٩).
(٢) صحيح البخاري (٣٤٠٤).

فصل في عبادة قومه العجل

قال علماء السِّير: كان السبب في عبادة قومه العجل أنه لما ذهب إلى الميقات وجاء جبريل على فرس يقال له: فرس الحياة، لا يصيب حافرَهُ شيءٌ إلا حيي، وكان جبريل قد أتى ليأخذ موسى إلى الميقات، فرآه السامريُّ، وكان صائغاً.

واختلفوا فيه: قال ابن عباس: كان من بني إسرائيل، ولم يزل مع موسى في مصر والشام.

وقال سعيد بن جبير: كان من أهل كِرمان. وقيل: من أهل باجَرْما، قريةٍ من قرى دَقُوقا بالعراق. والأول أشهر.

واختلفوا في اسمه: فقال ابن عباس: ظفر. وقال مقاتل: اسمه يوسف. وقال الحسن: منجار. وقيل: موسى بن ظفر. وكان منافقاً يظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر، وقال ابن عباس: كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها: سامرة، ولكنه نافق لما قطع موسى البحر، وهو كان من الذين قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

وقال وهب: فلما رأى السامري ذلك الفرس تحت جبريل قال: لهذا الفرس شأن، وأخذ قبضةً من ترابه الذي وطيء عليه. ولما ذهب موسى إلى الميقات قال السامري لبني إسرائيل: إن الحلي الذي أخذتموه من القبط على وجه العارية قد صار غنيمةً لا يحلُّ لكم، فاحفروا حفيرة وادفنوه فيها حتى يرجعَ موسى من الميقات فيرى رأيه فيها، ففعلوا، فأخذ السامريُّ تلك القبضةَ فألقاها مع الحلي في الحفيرة فخرج عجلاً من ذهب، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي: مجسداً لا روح فيه، وإنما كان لحماً ودماً ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[الأعراف: ١٤٨] أي: صوت مثل صوت البقرة. قال ابن عباس: خار خَوْرة واحدة، فزَفَنوا حوله ـ أي رقصوا ـ ولم يعدْ إلى مثلها. وقرأ عليٌّ عليه السلام: «له جؤار»، بالجيم والهمزة، وهو الصوت أيضاً.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: من بعد ذهاب موسى إلى الميقات. وقال مجاهد: خار العجل ومشى وهو مرصَّع بالجواهر التي أخذوها من القبط، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى، نسي فتركه هنا ثم خرج يطلبه.

وقال مقاتل: عبده منهم عشرة آلاف وهم الذين قالوا يا موسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف:١٣٨] فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ [البقرة:٥١] وكانوا قد عدُّوا اليوم والليلة يومين فلما مضت عشرون يوماً ولم يرجع افتتنوا. وقال مقاتل: إنما سمي عجلاً لأنهم تعجَّلوه قبل رجوع موسى.

قوله تعالى: ولما رأوا أنهم قد ﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾[الأعراف:١٤٩] ندموا على عبادته ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ أي: حزيناً لما فعلوه لأن الله أخبره بما صنعوا ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي بئس الفعل فعلتم ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾[الأعراف: ١٥٠] غضباً على قومه، وكان شديد الغضب، قال زيد بن أسلم: كان إذا غضب اشتعلت النار في قلنسوته. قال: وكانت التوراة خمسة أسفار، فرفع أربعة إلى السماء وبقي سفر واحد. وقيل: سُبْعٌ واحد[1].

وقال أحمد: حدثنا سُرَيْج بن النعمان بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخَبرُ كالمُعايَنةِ، إنَّ اللهَ أخبرَ مُوسى بما صَنعَ قومُه في العِجلِ فلم يُلْقِ الألواحَ، فلما عايَنَ ما صَنعَ قومُه ألقاها فانكَسرَت»[2].

وقال مجاهد: وصاغ موسى تابوتاً من ذهب وزنه ستمائة مثقال، ونزَّل فتات الألواح فيه ﴿وَأَخَذَ﴾ موسى ﴿بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾ هارون ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾[الأعراف: ١٥٠] وقيل: إنما أخذ بأذنيه فعبَّر بالرأس عنهما. وقيل: إنما أخذ بلحيته وكان هارون أحبَّ إلى بني إسرائيل من موسى، لأنه كان ألين وألطف وأكبر سناً.

وقوله تعالى: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾ أي: يا ابن أمَّاه، فاعتذر هارون، وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ بعقوبتك وأنا أسنُّ منك وكان قد

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢١٠-٢١٢.
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٤٧).

استخلفه ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٥٠] بعبادة العجل. فلما ظهر لموسى عذره ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾[الأعراف: ١٥١] الآية.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾[طه: ٨٥] أي: ابتليناهم واختبرناهم وكانوا ست مئة ألف، فافتتن منهم عشرة آلاف. وقيل: كلهم عبدوه إلا عشرة آلاف ثبتوا مع هارون، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي﴾ لأنهم كانوا الجمَّ الغفير. ولما عاتبهم موسى ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: ونحن نملك أمرنا ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: من حُليِّ [آل] فرعون، فجمعناها ودفعناها إلى السامريِّ، فألقاها في النار أو في الحفيرة لترجع فترى فيها رأيك، ففعل ما فعل.

وقال ابن عباس: كان هارون قد مرَّ على السامريِّ وهو يصوغ العجل، فقال: ما تصنع؟ فقال: ما يضرُّ ولا ينفع، فقال: اللهم ارزقه ما سأل، فكان كما قال هارون. فنهاهم هارون عن عبادته فقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[طه: ٩١] أي: مقيمين. فلما عاد موسى سمع الصياح والجلبة، وهم يرقصون حول العجل، فقال: ما هذا؟ فقيل له: صوت الفتنة، فقال: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ أي: أخطأوا، ألا تبعت أمري وقبلت وصيتي أو فارقتهم ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾[طه: ٩٢-٩٣] فراجعه بقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾.

فإن قيل: فهارون أخوه من أبيه وأمه، فلِمَ كرَّر قوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أراد استعطافه وترقيقه، قاله الكلبي.

والثاني: أنه قد قيل: إنه كان أخاه لأمه.

والثالث: فلأن الولد من الأم من جهة الحقيقة ومن الأب من جهة الحكم.

وإنما خصَّ اللحية والرأس بقوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ لأنهما عضوان يقصد بهما الإكرام من دون سائر الأعضاء ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إن أنكرت عليهم أن يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضاً ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[طه: ٩٤] أي: لم تراقب وصيتي حين قلت: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾(١).

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢١٢-٢١٣.

ثم أقبل موسى على السامريِّ وقال: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾؟ أي: ما شأنك وما الذي حملك على ما صنعت؟ فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: رأيت ما لم يروه ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ يعني: من تراب حافرِ فرس جبريل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: طرحتها في الحُلي ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾[طه: ٩٦] أي: زينت. فقال: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ما دمت حياً ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا تخالط أحداً. وأمر موسى بني إسرائيل أن يعتزلوه ولا يخالطوه. قال قتادة: فبقاياهم إلى اليوم يقولون: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ فلو مسَّهم أحد أخذته الحمى في الوقت.

فإن قيل: فهلّا قتله موسى؟ قلنا: ذكر مقاتل وقال: أوحى الله إليه لا تقتله فإنه سخيٌّ، وفي رواية: فإن قتلته كان ذلك كفَّارةً له ثم قال موسى: يا سامريُّ ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: بعذابك ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لن يخلفك الله إيَّاه ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ أي: معبودك بزعمك ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: مقيماً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾[طه: ٩٧] أي: نعفي آثاره. ثم برده موسى بالمبارد وألقاه في اليم. وقال مقاتل: ثم قال موسى: يا إلهي، من صاغ العجل؟ قال: السامري، قال: فمن جعل فيه الصوت حتى خار؟ قال الله: أنا. قال: فأنت فتنتَ قومي؟! قال: يا موسى، إني حكيم بيدي الضلال والهدى، ومصداقه قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾.

فصل في ذكر توبتهم من عبادة العجل

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله، قلت له: أخبركم أحمد بن المبارك بإسناده عن سعيد عن قتادة عن الحسن قال: سأل موسى ربه أن يتوب على قومه من عبادة العجل فقال: يا موسى، لا توبة لهم إلا أن يقتلوا أنفسهم، فأخبر موسى قومه وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾[البقرة: ٥٤] أي: خالقكم، فقالوا: نصبر لأمر الله، وندم القوم على ما صنعوا، فأخذ موسى عليهم المواثيق ليصبرُنَّ على القتل، فأصبحوا غدوةً بأفنيتهم، كلُّ سبطٍ على باب بيته، وأمر موسى الذين لم يعبدوا العجل أن يقتلوا مَنْ عبده، وقال موسى: لعنة الله على رجل حلَّ حَبْوَته، فقتلوهم[1].

---

(١) «التوابين» ص ٨٦ـ٨٧، والحبوة: أن يجمع المرء بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

وقال ابن عباس: جعل الله توبتهم القتل لأنهم ارتدُّوا عن الإسلام، والكفر يبيح الدم، فجلسوا بأفنية البيوت وأصلتوا الخناجر، فكان الرجل يرى ابنه أو أخاه أو قريبه أو جاره أو صديقه فيستحي منه فقالوا: يا موسى، لا نقدر أن نقتل آباءنا وأبناءنا بل وأهلنا وأصدقاءنا، فأرسل الله عليهم ظُلْمةً فكان لا يبصر بعضهم بعضاً، فانكشفت الظلمة عن سبعين ألف قتيل، فبكى موسى وهارون عليهم، فأوحى الله إليهما: قد جعلتُ القتلَ للمقتول شهادةً، وللقاتل توبةً وتكفيراً عن ذنوبه. قالوا: فما آية توبتنا؟ قال: على أن يقوم السلاح فلا يعمل، وترتفع الظلمة.

وقال مجاهد: قتلوا حتى خاضوا في الدماء، وصاح النساء والصبيان والشيوخ يا موسى: العفوَ العفوَ، فبكى موسى وتضرَّع، فأنزل الله التوبة، فقتلاهم شهداء وأحياؤهم مغفور لهم[1].

فصل في ذهاب السبعين إلى الطور يعتذرون من عبادة العجل

قال الله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾[الأعراف: ١٥٥] ومعناه: من قومه. فلما نزع حرف الصفة نَصَب.

واختلفوا في سبب اختيار موسى السبعين:

فقال السُّدي: أمر الله موسى أن يأتيه في أناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل فاختار موسى السبعين، فلما صعدوا الجبل قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: ٥٥] فإنك قد كلَّمته فأَرِناهُ، فأخذتهم الصاعقة فماتوا.

وقال ابن إسحاق: إنما اختارهم ليتوبوا إليه مما صنعوا.

وقال الكلبي: أمر موسى السبعين أن يتطهَّروا ويطهِّروا ثيابهم ويصوموا، ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربِّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه، فلما دنوا من ذلك المكان قالوا: يا موسى، اطلب لنا أن نسمع كلامَ ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشَّى الجبل كله، ودخل موسى حتى غاب فيه،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٩/ ٧٢. وانظر «تفسير البغوي» ص ٤٩٣.

وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلَّمه ربُّه وقع على جبهته نورٌ ساطع لا يستطيع أحدٌ من بني إسرائيل أن ينظر إليه، فضرب دونه الحجاب ودنا القوم فدخلوا في الغمام وسمعوه يكلِّم ربه وربه يكلمه، يأمره وينهاه. فلما فرغ من المناجاة وانكشف الغمام عن موسى أقبل إليهم، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: ٥٥] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣] وهي الرجفة فماتوا جميعاً، وأنكر قوم أنهم سمعوا كلام الله، وقالوا: إذ سمعوا كلام الله، فأيُّ ميزة لموسى عليهم.

وقال وهب: لم تكن الرجفة موتاً وإنما كانت غَشْيَةً، فخاف موسى عليهم ورقَّ لهم وقال: يا رب، ماذا أقول إذا رجعت إلى بني إسرائيل ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي عبدة العجل؟ فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم[1].

فإن قيل: فكيف قال موسى هذا وقد علم أن الله أعدل من أن يؤاخذ بجريرة الجاني غيره؟ قلنا: هذا استعطافٌ من موسى لله تعالى، وتقديره: لا تهلكنا، فكان دعاء، ونظيره قول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[المائدة: ١١٨].

فصل في قصة أريحا

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠].

قال ابن عباس: من كان له بيت وخادم وامرأة صالحة وبُلْغَة فهو ملك، وقد روي هذا المعنى مرفوعاً، فقال أبو إسحاق الثعلبي: حدثنا عبد الله بن حامد بن محمد بإسناده عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كانَ بنُو إسرائيلَ إذا كانَ لأحدِهم خَادِمٌ وامرأةٌ ودَابةٌ يُكْتَبُ مِلِكاً»[2].

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[المائدة: ٢١]. واختلفوا فيها:

قال ابن عباس: هي أرض فلسطين، والأردن، والطور وما حوله، والغَور وما والاه.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢١٤ـ٢١٥.

(٢) تفسير الثعلبي ٤/ ٤١.

وقال زيد بن ثابت: الشام كله مقدس ويدخل فيه دمشق.

وقال ابن عمر: حرم مكة والبيت المقدس. والأول أصح.

وقال مقاتل: وإنما قال ذلك موسى لما نزل على أريحا، ومعنى ﴿كَتَبَ﴾ أي: في اللوح المحفوظ. وكانت أريحا قرية الجبارين وهم العمالقة، وقيل: الكنعانيون، وأمر موسى بقتالهم وجهادهم، وكان موسى قد نقَّب على بني إسرائيل اثني عشر نقيباً بعدد الأسباط، ومن هنا نقَّب النبي ﷺ النقباء ليلةَ العقبة، ومن هؤلاء النقباء يوشع بن نون وكالب بن يوفنَّا، والنقيب: الكفيل عن قومه بالوفاء على ما أمروا به.

وقال ابن إسحاق: ولما دنا موسى من أريحا بعث النقباء يتحسسون الأخبار، فلقيهم عوج بن عناق، وقال الثعلبي: قال ابن عمر: كان طوله ثلاثة وعشرين ألف ذراع وثلاث مئة وثلاثين ذراعاً، وكان يعتجر بالسحاب ويشرب الماء منه، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه في عين الشمس ويأكله، وهو ابن بنت آدم[1] ـ وقد ذكرناه في الطوفان ـ وأن الماء كان لا يبلغ كَعْبَهُ. فالتقى بالاثني عشر نقيباً وعلى رأسه حزمة حطب فأخذهم وجعلهم في حجزته، وانطلق بهم إلى زوجته فقال: انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا، وطرحهم بين يديها، وقال: ألا أطحنهم برجلي؟ فقالت: لا بل خلِّ عنهم ليخبروا قومهم بما رأوا، فأرسلهم؛ فلما خرجوا قال بعضهم لبعض: إن أخبرتم القوم رجعوا عن نبيِّ الله وساروا، فأما كالب ويوشع فإنهما كتما، وأما الباقون فتحدثوا. ولما شاع الحديث جاؤوا إلى موسى وقالوا: يا ليتنا متنا بأرض مصر وبكوا وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾[المائدة: ٢٢] وهم الأقوياء، كان يدخل في كُمِّ أحدهم اثنان من بني إسرائيل، ويدخل في قشر الرمانة إذا نزع الحب منها خمسة رجال، ويحمل العنقود خمسة رجال من بني إسرائيل فقالوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فدعا عليهم موسى وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥] أي: العاصين. وكانت عجلةً من موسى فاستجاب له ربه وقال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٣.

أي: يتحيرون في القفار، فأقاموا أربعين سنة يتيهون في ستة فراسخ، يسيرون كل يوم جادِّين حتى إذا ملُّوا إذا هم في الموضع الذي رحلوا منه. ومات النقباء العشرة الذين أفشوا الخبر ولم يبقَ من النقباء إلا يوشع بن نون وكالب بن يوفنَّا، ومات الذين قالوا لن ندخلها، وكانوا ست مئة ألف، في أربعين سنة. وكان ينزل عليهم المن والسلوى. ولما ذهبت الأربعون سنة وهلكوا، نشأت ذرية أخرى منهم، ففتحوا أريحا على يد موسى، وقيل: على يد يوشع كما يذكر وهب. وموسى هو الذي قتل عوج بن عناق(١).

ذكر مقتل عوج بن عناق

حكى جدي في آخر «أعمار الأعيان» عن ابن إسحاق قال: عاش عوج بن عناق ثلاثة آلاف سنة وست مئة سنة ولم يعش أحدٌ هذا العمر(٢).

وقال أبو جعفر الطبري: عاش ألف سنة(٣). وهو وهم منه، لأن بين موسى وآدم ثلاثة آلاف سنة وزيادة.

وولد عوج بن عناق في دار آدم وهو ابن بنته عنَّاق. وقيل: اسم أبيه عناق صهر آدم. وقال الكلبي: جاء عوج إلى نوح أيام الطوفان وقال: احملني معك في السفينة، فقال: اذهب يا عدوَّ الله، فإن الله لم يأمرني بحملك، وطبَّقَ الأرضَ الماءُ وما جاوز كعبيه.

وقال وهب: كان عسكر موسى عدة فراسخ لأنهم كانوا ست مئة ألف، فقال عوج لأصحابه: أنا أكفيكم إياهم، فجاء فوقف عليهم وحذرهم، ثم جاء إلى جبل وقوَّر منه صخرة على قدر العسكر وحملها على رأسه ليقلبها على العسكر، فأرسل الله الهدهد وفي منقاره عود، فنقبها حتى تقوَّرت في عنقه فصرعته، وبلغ موسى فجاء ومعه عصاه وطولها عشرة أذرع، فنزا في الهواء عشرة أذرع أخرى حتى أصاب كعبه وهو مصروع فقتله، وأقبل جماعة من أصحابه فحزُّوا رأسه. وقال الثعلبي: ولما قتل وقع على نيل مصر فجَسَرهم سنة(٤).

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٤-٢٤٦.

(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٣٠.

(٣) جاء عند الطبري في «التاريخ» ١/ ٤٣١ أنه عاش ثلاثة آلاف سنة.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٤.

وقال نوف البكالي: كان طول سرير عوج ثمان مئة ذراع وعرضه أربع مئة ذراع. ولما ضربه موسى خرَّ على نيل مصر فجسره الناس سنةً يمرون على أضلاعه وصلبه.

قلت: والعجب من الثعلبي ومن نوف كيف يرويان مثل هذا الكلام الذي تنفِر منه العقول السليمة، والواقعة كانت بأريحا وأين نيل مصر؟ وعلى تقدير ما حكى الثعلبي عن ابن عمر أن طوله ثلاثة وعشرون ألف ذراع يكون طوله أقل من فرسخين، لأن الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع وبين أريحا ومصر مئة فرسخ وزيادة.

وروي عن بشر الحافي أنه قال: كان التجار في البحر يخافون منه فيعدُّون له كُرَّين من الدقيق فيخبزه مَلَّتَيْنِ فيأكلهما، فهذا كافرٌ يطعمه الله هذا في كلِّ يوم فكيف يُضيعُكَ وأنت تعبده وقوتُك رغيف أو رغيفان.

وقال وهب بن منبه: وكانت أمه عناق أول من بغى على وجه الأرض، وكانت كل إصبع من أصابعها ثلاثة أذرع في عرض ذراعين، وفي كل إصبع ظفران من حديد مثل المناجل، وكان مكان جلوسها مقدار جريب، ولما استمرت على البغي بعث الله سبحانه عليها أُسوداً وذئاباً فمزقتها[1].

فصل في نتق الجبل عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾. قال ابن عباس: لما أنزل الله عليهم التوراة أبَوْا أن يقبلوها لأن أحكامها ثقلت عليهم، فرفع الله عليهم جبلاً بمقدار عسكرهم، وكانوا ست مئة ألف، وقال لهم: إن لم تقبلوها وإلا ألقيتُ عليكم هذا الجبل. ومعنى الظلة: كل شيء أظلك ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: عليهم ﴿خُذُواْ﴾ تقديره: وقلنا لهم: خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾[الأعراف: ١٧١] أي: بجدٍّ واجتهاد.

وقال الحسن البصري: فسجد كلُّ واحد منهم على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل مخافةَ أن يسقط عليه، فلذلك ليس في الدنيا يهودي إلا ويسجد على حاجبه الأيسر ويقول: هذه السجدة التي رفع الله بها عنا العذاب.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٤.

فصل في التوراة واليهود

فأما التوراة: فقال الفراء: فأصلها من وَرَى الزند ـ بالفتح، ورُوِيَ بالكسر أيضاً ـ فسميت التوراة توراةً لأن الأحكام ظهرت منها.

وأما اليهود فأصله من التهود وهو الميل.

وقال الحسن: لما أنزل الله تعالى التوراة لم يبق على وجه الأرض حجرٌ ولا شجر ولا جبل إلا اهتز، فليس على وجه الأرض يهوديٌّ إلا ويهتزُّ عند قراءة التوراة، ويقولون: اهتزت السماوات والأرض.

وقال الجوهري: يقال: هاد وتهوَّد إذا صار يهودياً. قال: والهُوْدُ: اليهود، والتهويد: المشيُ الرُّوَيْد. والتَّهَوُّد: أن يصير الإنسان يهودياً، ومنه الحديث: «فأبواه يُهَوِّدانه وينصرانه»[1].

فصل في بناء ظَفَار

وقال ابن الكلبي: وفي زمان موسى بنيت مدينة ظَفَار باليمن، بناها رجل من حمير يقال له: شمر بن الأملوك[2] الحميري، وهو أول ملوك اليمن من العرب، ونفى العمالقة من اليمن.

وقال الجوهري: وظَفَارِ مثل قَطَامِ مدينة باليمن، وجزع ظَفَاري منسوب إليها، وفي المثل: من دخل ظَفَارِ حَمَّر[3].

وسألت شيخنا أبا اليمن الكندي رحمه الله عن هذا فقال: سببه أن بعض العرب دخل على ملك ظَفَار فوقف، فقال له الملك: ثِبْ ـ وهو بلغتهم: اقعد ـ فلم يفهم الرجل فوثب إلى فوق فوقع وتكسَّر، فقال الملك: من دخل ظفار حمَّر، أي تكلَّم بلغة حمير.

---

(١) «الصحاح» (هود). والحديث أخرجه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في تاريخ الطبري ١/ ٤٤٢: شمير بن الأملول، وفي المنتظم ١/ ٣٧١: شمير بن الأهلوك.

(٣) «الصحاح» (ظفر).

فصل وفي أيام موسى احترق ابنا هارون

وقال وهب بن منبه: كان يسرج في البيت المقدس كل ليلة ألف قنديل، يخرج من طور زيتا عينٌ من الزيت حتى تصبَّ في القناديل ولا يُمسُّ بالأيدي، وتنحدر من السماء نار بيضاء فتسرج القناديل، وكان المتولي لذلك ابنا هارون، فأوحى الله إليهما لا تسرجا بنار الدنيا، فأبطأت النار عنهما ليلةً فعمدا إلى نار من نيران الدنيا فأسرجا بها، فانحدرت النار من السماء فأحرقتهما، فجاء الصريخ إلى موسى بالخبر فقال: يا إلهي أحرقت ابنَيْ أخي، فقال الله تعالى: يا موسى، هكذا أفعل بأوليائي إذا عصوني، فكيف أفعل بأعدائي؟[1].

فصل في قصة البقرة

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾[البقرة: ٦٧] الآية. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: وُجد قتيل في بني إسرائيل اسمه عاميل، فلم يعرفوا مَنْ قتله.

واختلفوا في سبب قتله على قولين:

أحدهما: أنه كان رجلاً كثير المال لا يولد له ولد، وله ابنُ أخٍ فقيرٌ لا وارثَ له غيره، فطالت عليه حياته فقتله ليرثه، فلما قتله احتمله ليلاً فأتى به سبطاً آخر، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح فادَّعاه، فكادوا يقتتلون، فأتوا موسى فأمرهم بذبح البقرة، قاله عطاء وابن سيرين.

والثاني: أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له بنت وابن أخ لا مال له، فخطبها من أبيها فغضب أبوها ولم يزوِّجْهُ إياها، فقال: والله لأقتلن عمِّي، ولآخذنَّ ماله، ولأنكحنَّ ابنته، ولآكلنَّ ديته، فأتاه فقال: قد قدم تجارٌ في بعض الأسباط فانطلقْ معي فخذْ لي من تجاراتهم لعلِّي أصيبُ منها، فإنهم إذا رأوك معي أعطوني، فخرج معه، فلما بلغا ذلك السبط قتله ابن أخيه، ولما أصبح جاء يطلبُ عمَّه وقال: قتلتموه، ثم

(١) «المنتظم» ١/ ٣٧٢، وفضائل القدس ١١٣.

نادى: واعمَّاه، وطلب منهم ديته، ثم أتى موسى فأخبره وقال: يا نبيَّ الله، ما أَجِدُ أحداً يبيِّن لي قاتله سواك، فأمره بذبح البقرة، وذلك قبل أن تنزل القسَامة في التوراة، حكاه السدِّي عن أشياخه.

وقال ابن عباس: أوحى الله إليه أن يأمرهم بذبح البقرة فتنطَّعوا عليه فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾[البقرة: ٧٠] وما صفتها ـ وقد ذكرنا ذلك في «التفسير» ـ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ لا كبيرة ولا صغيرة ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين الفارض والبكر إلى أن قال: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي: شديدةُ الصُّفرةِ؛ وقال الحسن: أراد بصفراءَ سوداء، والعربُ تسمِّي الأَسودَ أَصفر، وقد أنكروا هذا على الحسن، وقالوا: هو غلط منه، لأن العرب لا تعرف هذا في نعوت البقر، وإنما هو في نعوت الإبل، وإليه أشار الأعشى[١]، وإنما العرب تقول: أصفر فاقع، وأخضر ناصع، وأبيض يَقَق، وأسود فاحم وحالك[٢]. وقال الجوهري: وربما سمت العرب الأسود أصفر[٣].

و﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾[البقرة: ٦٩] من حسنها وصفاء لونها. وروى الثعلبي عن علي عليه السلام أنه قال: من لبس نعلين أصفرين لا يزال مسروراً، وقرأ هذه الآية.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] ومعناه: أعاملة هي أم سائمة؟ وإنما لم يقل: تشابهت لأنه أراد جنس البقرِ تشابه علينا ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى وصفها[٤].

حدثنا أبو القاسم عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم يستثنوا ـ يعني أصحاب البقرة ـ

---

(١) بقوله:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هن صُفرٌ أولادُها كالزبيب

انظر ديوانه ص ٢٧.

(٢) انظر «زاد المسير» ١/ ٩٧ـ٩٨.

(٣) «الصحاح» (صفر).

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣٥.

لما اهتدوا إلى وصفها أبداً، ولو عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها أجزأهم، ولكن شدَّدوا فشدَّد الله عليهم»[(١)].

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ أي: غير مذلَّلة بالعمل ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ بالزراعة أي: تقلبها ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: بياض وسواد مختلف اللون ﴿قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالبيان التامّ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: لغلاء ثمنها فإنها بلغت مالاً عظيماً.

والثاني: مخافة الفضيحة أن يكون القاتل منهم.

والثالث: وما كادوا يفعلون باجتماع أوصافها.

وقال ابن عباس: طلبوها فلم يجدوها إلا عند الفتى البار بوالديه[(٢)]، وكانت له عجلة قد خلَّفها له أبواه في غيضة، وقصتها طويلة، وقد ذكرناها في «التفسير».

حاصلها: أنهم اشتروها منه بملء جلدها ذهباً، وقيل: بوزنها عشر مرات ذهباً ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ يعني: القتيلَ.

واختلفوا في البعض:

قال ابن عباس: بلسانها.

وقال مقاتل: بعجب ذنبها.

وقال مجاهد: بغضروفها، وهو أصل أذنها، والقولان الأولان أصح. أما اللسان فلأنه آلة الكلام، وأما عَجْب الذنب فجميع ما في الحيوان يبلى إلا هو فإنه يبنى منه الجسد كما تبنى السفينة على الخشبة الأولى.

فلما ضربوه قام حيّاً تشخب أوداجه فقال: فلان قتلني، ثم وقع ميتاً، فقتلوا قاتله.

فإن قيل: فقد قال ابن عباس: أقاموا في طلبها أربعين سنة حتى وجدوها قلنا:

(١) أخرجه الطبري (١١٧٤) و(١٢٣٥) و(١٢٤٥-١٢٤٦) وابن أبي حاتم (٦٩٨) موقوفاً على ابن عباس، وانظر عرائس المجالس ٢٣٥، وتفسير ابن كثير.

(٢) في (ب): «بأمه».

ضربوا قبره فأحياه الله.

فإن قيل: فقد كان الله قادراً على إحيائه من غير ضرب ببعضها، قلنا: فيه إظهار المعجزة دون الشعبذة، وإكراماً للبارّ بوالديه[١].

فصل في مغازيه

قال علماء السير: حارب موسى الكنعانيين واليونان والأمم الكافرة وأباد من كان بالشام منهم، وبعث بعثاً إلى الحجاز فقتلوا العمالقة، وكان ملكهم يقال له: الأَرْقَم، بحصن تيماء ويَثْرِب، وأسروا ابناً له شاباً لم يرَ الناس أحسن منه فلم تَطِبْ نفوسهم أن يقتلوه، وقالوا: نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه، فاستقبلهم الناس بوفاة موسى فمنعهم بنو إسرائيل أن يدخلوا الشام وقالوا: أمركم موسى أن لا تستبقوا كافراً وقد أبقيتم هذا، فعادت تلك الطائفة - وهم من بني إسرائيل - إلى الحجاز، وسكنوا خَيبر ويَثْرِب وتَيماء، واتخذوا يَثْرِب مزارع، فبنُو قريظة والنَّضِير منهم وكذا بنو الكاهن، والكاهن ابن هارون بن عمران، والكاهن: العالم.

فصل في اجتماع موسى بالخضر عليهما السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ الآيات.

اختلفوا في فتاه[٢]:

قال ابن عباس: هو يوشع بن نون، وإنما سمِّيَ فتاه لأنه كان يلازمه ويخدمه ويستفيد منه العلم.

وقال مقاتل: فتاه هو أخو يوشع بن نون.

وقال الكلبي: فتاه عبده. والأول أصح.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣٤_٢٣٥.

(٢) انظر في هذا وفيما سيرد: تفسير الطبري ١٥/٣٠٨، والثعلبي ٦/ ١٨٠، وعرائس المجالس ٢١٩، وزاد المسير ٥/ ١٦١.

ومعنى: «لا أبرح» قال مقاتل: أي: لا أزال أسير، و«مجمع البحرين»: ضفتاهما. واختلفوا في مجمع البحرين:

قال قتادة: البحر الرومي والشرقي، فالشرقي بحر فارس والرومي هو الغربي، وقال أبيُّ بن كعب: اجتمعوا بإفريقيَّة.

والثاني: بطَنْجَة، قاله محمد بن كعب القُرَظيُّ.

والثالث: أن المراد بالبحرين موسى والخضر، قاله مقاتل ورواه عن عليّ عليه السلام.

قال ابن عباس: وكان السبب في اجتماع موسى بالخضر أنه لما ظهر موسى وقومه على فرعون وقومه وأورثهم أرضهم وديارهم قام موسى فيهم خطيباً، فذكّرهم بنعم الله عليهم قال: وكلَّم الله نبيّكم[1] تكليماً واصطفاني لنفسه وألقى عليَّ محبة منه، فقال رجل: قد علمنا ما تقول، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك؟ فقال: لا، ولم يقل: فيما أعلم، قال مجاهد: فبعث الله إليه جبريل فقال: بلى لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك، وما يدريك أين أضع علمي؟ قال: يا رب وأين هو؟ قال: اطلبه على شاطىء البحر تجده هناك.

وقد اختلفت الروايات في القصة، فنبدأ بما ذكر في الصحيح فنقول:

قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد بإسناده عن ابن عباس أنه تمارى هو والحارث بن قيس بن حِصْن الفَزَارِيُّ في صاحب موسى عليه السلام فقال ابن عباس: هو الخضر، فمرّ بهما أُبيّ بن كَعْب فدعاه ابن عباس فقال له: يا أبا الطُّفيل هلمَّ إلينا فإني قد تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لُقِيِّه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يقول أو يذكر في شأنه؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما مُوسى في ملأ مِن بني إسرائيلَ إذْ جَاءَه رجلٌ فقال: هَلْ تَعلمُ أحَداً أعلمُ مِنك؟ قال مُوسى: لا، فأَوْحى الله إليه: بَلَى عَبْدُنا الخضِر، فسألَ مُوسى السَّبيلَ إلى لُقْياه فجَعَلَ الله له الحُوتَ آيةً»، وفي رواية: «وقيلَ له: إذا فَقَدْتَ الحوتَ فارْجِعْ فإنَّك

(١) في (ب): «موسى».

سَتَلْقَاه، فَسَار مُوسى ما شاءَ الله، ثم قال لفَتَاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فقالَ فتى مُوسى حين سَأَله الغَدَاءَ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] فقالَ مُوسى لفتاه: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أي: يقصان الأثر فوجدا خضراً، فكان من شأنهما ما قصَّ الله في كتابه. وفي رواية: فكان موسى يتبع الحوت في البحر(١).

وفي رواية سعيد بن جبير وهي أتمُّ الروايات، قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد بإسناده عن سعيد بن جُبير قال: قلتُ لابن عباس: سمعت نَوفاً البِكَاليَّ يزعم أنَّ موسى صاحبُ بني إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخَضِر وإنَّما هُوَ موسى آخر فقال: كَذَبَ عدو الله، سمعتُ أُبيَّ بن كعب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَامَ مُوسى خَطِيباً في بني إسرائيلَ فَسُئِلَ: أيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فقال: أنا، فَعَتِبَ الله عليه حيث لَمْ يَرُدَّ العلمَ إليه، فأَوْحَى الله إليه إنَّ لي عَبْداً مِنْ عِبَادِي بمَجْمَعِ البَحْرَيْن هُوَ أعلمُ منكَ، قال مُوسى: يا ربِّ، كَيْف لي به؟ فقيل له: احمل حوتاً في مِكْتَلٍ فحيثُ تَفْقِد الحوتَ فهو ثَمَّ. قال: فانطلق هوَ وفتاهُ يُوشَع يمشيان، وقد حَمَلَ الحوتَ في المِكْتَل حتى أتيا الصخرةَ، فَرَقَدَ موسى وفتاهُ، فاضطرب الحوتُ في المِكْتَل حتى خرج منه فسَقَطَ في البَحْرِ، فأمسك الله عنه جِرْيَة الماءِ حتى كان مثل الطَّاق، فكان للحوت سرباً أي: طريقاً، ولفتاه عجباً، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ونسي صاحبُ الحوت أن يخبر موسى، فلمَّا أصبح موسى قال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[الكهف: ٦٢] ولم يجد موسى مشاقَّ النَّصَبِ حتى جاوز المكان الذي أُمِرَ به، فقال فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ إلى قوله ﴿عَجَبًا﴾[الكهف: ٦٣]. قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أي: يقصَّان الأثر حتى أتيا الصخرةَ ـ أو انتهيا إليها ـ فإذا برجلٍ مسجًّى بثوبٍ ـ أو مسجًّى عليه ثوبُه ـ فسلَّم عليه مُوسى، فقال الخَضِر: أَنَّى بأرضِكَ السلام، فقال: أنا موسى، قال: مُوسى بني إسرائيلَ؟ قال: نعم، قالَ: إنَّك على علمٍ مِنْ عِلْم الله علمكَهُ لا أعلمه، وأنا على عِلْمٍ من عِلْمِ الله علَّمَنيه لا تَعلَمُه. فقال له موسى: ﴿هَلْ

(١) صحيح البخاري (٧٤)، وصحيح مسلم (١٧٤).

أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[الكهف: ٦٧-٦٩] قال له الخَضِر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف: ٧٠] قال: نعم، فانطلقا يمشيانِ على ساحل البحر فمرَّت بهما سفينةٌ فكلَّماهم أن يَحمِلُوهما فعرفوا الخضر، فحَمَلُوهما بغير نَوْلٍ، فعمد الخَضِر إلى لوحٍ من ألواحِ السَّفينةِ فنزَعه، فقال له موسى: قومٌ حَمَلُونا بغير نَوْلٍ عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾[الكهف: ٧١] ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]. ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾[الكهف: ٧٣] الآية. ثم خَرَجا من السَّفينةِ فبَيْنَما هما يَمشيانِ على السَّاحِلِ إذا غلامٌ يلعبُ مع الصبيانِ، فأخَذَ الخَضِر برأسِه فاقْتَلَعه بيده، فقال له: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف: ٧٤-٧٥] قال: هذه أشد من الأولى ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ قال الخَضِر بيده فأقامه [الكهف: ٧٦-٧٧] فقالَ له موسى: قومٌ أتيناهم فلم يُضَيِّفونَا ولم يُطْعِمُونَا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[الكهف: ٧٨] قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يُقَصَّ علينا من أَخبارِهما». قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً». وجاء عُصْفور حتى وقع على حرف السفينة ثُمَّ نَقَر في البحر، فقال له الخضر: ما علمي وعلمَك وعلم الخلائق من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العُصْفُور مِنَ البحر.

قال سعيد بن جبير: وكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم مَلِك يأخذ كلَّ سفينةٍ صالحة غصباً». وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً»[1].

وفي رواية: «فاضطَرَبَ الحوتُ في الماءِ فجَعَلَ لا يَلْتَئم عليه حتى صَار مثلَ الكُوَّة،

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠).

فقالَ فتاه: ألا أَلحقُ نبيَّ اللهِ فأخبرَه، فنسي. فلما تجاوَزا قال لفتاه: آتنا، وذكروه فيه؛ فرأى خضِراً مُستلقِياً على حُلاوة القَفَا فقال: السَّلامُ عليكَ، فكشفَ الثوبَ عَن وَجْهه وقال: وعليكَ السَّلامُ، مَن أنتَ؟ فقالَ: موسى، فقال: ما جاءَ بك؟ فقال: جئتُ لِتعلِّمني مما عُلِّمت رُشداً، فقال: شيءٌ أمرتُ به أنْ أفعَلَه إذا رأيتَهُ لم تصبرْ». ثم قال رسول الله ﷺ عند هذا المكان: «رحمةُ اللهِ علينا وعلى آل مُوسى لولا أنَّه عَجِل لَرَأى العَجَبَ، ولكنَّه أَخَذَتْهُ ذَمَامةٌ من صاحبه». وكان ﷺ إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه. ثم قال: «فانطَلَقا حتى أتيَا أهلَ قريةٍ لئام، فَطَافا المجالسَ فاستَطْعَما أهلَها، إلى قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ﴾[الكهف:٧٨]. قال: فأخذ بثوبه ثم تلا إلى قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ إلى آخر الآية، وقال: فإذا جاء يُسَخِّرها وجدها منخرقةً فيتجاوز إلى غيرها فأصلَحُوها بخشبةٍ. وأمَّا الغُلام فطُبعَ كافراً يومَ طُبع وكانَ أبوَاه قد عَطَفا عليه فلو أنَّه أدركَهما أرهَقَهما طُغْياناً وكُفراً»[1].

وفي رواية: «وفي أصل الشَّجَرةِ عينٌ يقالُ لها: الحياة لا يصيبُ من مائها شيءٌ إلا حيِيَ، فأصَابَ الحوتَ مِن تلك العينِ فتَحَرَّك وانسلَّ من المِكْتَل، فدَخَلَ البحرَ»[2].

وفي رواية: قيل له: خُذْ حوتاً مَيْتاً حتى يُنْفَخَ فيه الرُّوح، فدخلَ الحوتُ البَحْر فأمسك الله عنه جِرْيَةِ الماء، ووجَدَ الخَضِر على طِنْفِسة خَضْراء على كَبِدِ البحر، وفيه: فقال الخَضِر لموسى: أما يَكْفيك أنَّ التَّوراة بيدِك وأنَّ الوحي يأتيك»[3].

وفي رواية: إنَّ لكَ علماً لا ينبغي لي أنْ أعْلَمَهُ، وإنَّ لي عِلْماً لا يَنْبغي لكَ أن تَعْلَمه» وفيه: «فأضجعَ الغلامَ فَذَبَحَهُ بالسِّكِّينِ» وفيه: «فخَشينا ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أنْ يَحْمِلهُمَا حُبُّهُ على أنْ يُتَابعاه فأُبْدِلا مَكَانه جارية»[4]. هذا قدر ما أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» وعند البخاري غير مسند.

ويزعمون أن الملك: هُدَدُ بن بُدَد، واسم الغلام المقتول: جَيسُور[5]، وكانت

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٨٠) (١٧٢).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٧).

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٦).

(٤) صحيح البخاري (٤٧٢٦).

(٥) صحيح البخاري (٤٧٢٦).

الأولى نسياناً، والثانية سهواً، والثالثة عمداً(١).

تفسير غريب الحديث: «هلمَّ» أي: أقبل، قال الجوهري: هلمَّ يا رجل بمعنى تعال(٢).

و«نوف»: رجل من أهل الشام. وبَكالة ـ بفتح الباء ـ قبيلة من حِمْيَر، و«كَذَب»: أي: أخطأ، والعرب تضع الكذبَ موضع الخطأ، و«المِكْتَلُ»: الزِّنبيل، و«الطَّاقُ»: عقد البناء، و«السَّرَب»: الطريقُ، و«المُسَجَّى»: المُغَطَّى، و«حُلاوة القَفَا»: ما أَدْبَر منه، و«الذَّمَامةُ»: الحَياءُ، وقيل: القَبَاحةُ، وهي تكون في الخُلُق، والدَّمامة في الخِلْقَة.

وقال علماء السِّير: لما سأل موسى عليه السلام ربَّهُ أنْ يُرِيَه الخَضِر عليه السَّلام قال له: ائت جانب البحر فإنكَ تجدُ على شطّه حوتاً، فخذه وادفعه إلى فتاك، ثم الزم شطَّ البحر، فإذا نسيت الحوت وذهب منك فهناك تجد العبدَ الصالحَ.

وفي رواية ابن عباس: فإذا عاش الحوت وجدْتَه.

قال: فتزوَّد خبزاً وسمكة مالحة، وقال: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ أي: لا أزال أسير حتى أَجِدَه ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾[الكهف: ٦٠] أي: مدة ثمانين سنة وهو الحُقُب.

فلما وصل إلى الصخرة التي عند مَجْمَع البَحرين وعندها عينُ الحياة أصاب الحوت روح الماء وبرده فاضطربَ وخرجَ من المِكْتَل فدخلَ البحرَ، فذلك قوله تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾[الكهف: ٦١] وإنما قال: نسيَا والحوتُ كان مع يُوشَع لأن الفعل يجوز أن يضافَ إلى اثنين وهو لواحد كقوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾[الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من أحدهما وهو المالح دون العذب.

فجاع موسى فقال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾[الكهف: ٦٢] فقال: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾[الكهف: ٦٣]. قال وهب: الصخرة دون نهر الزيت بالمغرب ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ أنْ أذكره لأنه كان مع الفتى فأخبر عن نفسه فرجعَا إلى الصخرة فوجدَا الخَضِر

(١) البخاري (٢٧٢٨) وفيه: والثانية شرطاً.
(٢) «الصحاح»: (هلم).

عندها، والخضر لقب له، وسنذكر اسمه بعد هذا، ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] لأنه هو السبب.

وقال مقاتل: وجد الخَضِر نائماً على وجه الماء على طِنْفِسةٍ خَضْرَاءَ، وهو المراد بما ذكر في الحديث على وجه الماء، أي: وسطه، فسلَّم موسى عليه فقال: وعليك السلام يا نبيَّ بني إسرائيل، فقال موسى: ومن أخبرك بي؟ فقال: الذي دلَّك عليَّ، ومن قال الخضر كان نبياً يقول أوحي إليه ذلك.

فإن قيل: فلمَّا ذهب إلى الميقات أقام أربعين ليلةً لم يأكل، ويجوعُ نصفَ يوم فيقول آتنا غداءنا؟ فالجواب: إنَّ في ذهابه إلى الميقات كان وعدُ الانتظار يشغله عن الطعام والشراب، وفي سفر الخَضِر معلماً فكان سفر تأديب فجاع.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةً﴾[الكهف: ٦٥] أي: نعمة ﴿مِّنۡ لَّدُنَّآ﴾ أي: من علم الغيب ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدًا﴾ أي: صواباً، وهذا تحريض على طلب العلم والتواضع ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴿٦٧﴾﴾ أي: لن تطيق لأني أعلم علم الغيب وأنت لا تعلمه، فتنكر ظاهر ما ترى ولا تعلم الباطن، وهذا معنى قوله: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾.

فإن قيل: فَمَا صَبَرَ؟ قلنا: ظاهر الشرع أوجب له الإنكار عليه، وقد قيَّد الله صبره بالمشيئة، فلما ركبا في السفينة قال أهلها: هؤلاء لصوص أخرجوهم، فقال صاحبها: ما هم بلصوص ولكني أرى وجوه الأنبياء، فأخذ الخَضِر فأساً فقطع لوحاً منها، وكانوا في اللُّجَّة، فحشا موسى موضع اللوح بثوبه وقال: ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا﴾ أي: منكراً ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴿٧٢﴾﴾.

وقال ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً»[(١)] ولهذا قال: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ حتى رأى غلاماً فقتله، قال مجاهد: كان اسم الغلام خشن بُود[(٢)] واسم أبيه ملاس وأمه رحمى[(٣)]، ولم يبلغ الحلم، قالوا: ومع هذا فكان يقطع الطريق ويفسد في

(١) صحيح البخاري (٢٧٢٨).
(٢) في «عرائس المجالس» ص ٢٢٨: حسنود.
(٣) في «عرائس المجالس» ص ٢٢٨: رحمة.

الأرض، فقال له موسى: «أقتلت نفساً زاكية» ـ بألف[١] ـ وهي التي لم تذنب قط. ومن قرأ ﴿زَكِيَّةً﴾ أراد التي أذنبت ثم تابت، وقيل هما لغتان.

فإن قيل: ففي الحديث الذي رويتم أنَّ الغلام الذي قتله الخَضِر طبع كافراً فكيف قال زاكية؟ قلنا: الزاكية في البدن، أي: سالمة مِنَ العيوب، والزَّكيَّةُ في الدين، ذكره المبرِّد. وقال الحسن: إنما شقَّ ذلك على موسى لأن الخضر أضجعَ الغلام وذبحه. ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قتل نفس ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي: منكراً، والنُّكْرُ أشدُّ من قوله إمراً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ قال ابن عباس: هي أَنْطَاكِيَة، وقال ابن سيرين: الأُبُلَّة، وقيل: باجَرْوان من أعمال واسِط.

قلت: والعجب من هذا، والواقعة كانت بالمغرِب بإفريقِيَّة، وقيل: بطنْجَة، وقيل: عند نهر الزيت وهو أقصى المغرب، فما الذي أتى بها إلى أَنْطاكِيَة والأُبُلَّة؟ وهو من أقصى الدنيا وأبعد الأرض عن السماء، فيحتمل أنها قرية من قرى المغرب.

﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي: يقروهم، لأنهم كانوا أهل قرية لئاماً ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾ أي: في القرية ﴿جِدَارًا﴾ أي: حائطاً، قال وهب: كان طوله في السماء مائة ذراع ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يسقط وينهدم، ومنه انقضاض الكواكب وهو سقوطها وزوالها عن أماكنها. وقال ابن جبير: مسح الجدار بيده فاستقام فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وقيل: ضيافة يعني على إقامته وإصلاحه ﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي: سوف أخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ ثم شرع يشرح له فصلاً فصلاً:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ قال وهب: كانت لعشرة إخوة، خمسة زَمْنَى وخمسة يعملون في البحر ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ووراء بمعنى أمام كقوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وقيل: معنى وراءهم خلفهم، رجعوا عليه في طريقهم، وقيل: معناه يأخذ كل سفينة صالحة غصباً.

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو، انظر النشر ٢/ ٣١٣.

واسم الملك جلندى في قول ابن عباس، وكان كافراً. وقال محمد بن إسحاق: كان اسمه منولة بن جلندا اردى[(١)] وقيل: اسمه: هُدد بن بُدَد، وقال مقاتل: كان من ثَقِيف، وهو جدُّ الحجاج بن يوسف الثقفي.

فإن قيل: فقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ يدلُّ على أن المسكين من له شيء ولا يزول عنه اسم المسكنة إذا كانت به حاجة، ويجوز له أخذ الزكاة، وقد قال أبو حنيفة: المسكين من لا شيء له أصلاً، وقال ابن عباس: كانت السفينة تساوي ألف دينار.

والجواب: إن أبا حنيفة يحتجُّ بقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦] وهو الذي لزق بالتراب من فقره. وقال عيسى بن عمر: قلتُ لأعرابي: أفقير أنت أم مسكين؟ فقال: لا والله بل مسكين. وأما أصحاب السفينة فقد روى عطاء عن ابن عباس أنهم كانوا أُجَراءَ، ولم تكن ملكاً لهم. وأما قوله بأن الزكاة تصرف إلى المساكين فنحن نقول به ولا خلاف في ذلك، وإنما الخلاف في الوصية إذا قال: ثلث مالي للمساكين، هل يدخل الفقراء في ذلك أم لا؟ عند أبي حنيفة لا يدخلون وتكون للمساكين، وعند الشافعي يدخلون لما عرف.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ يغشاهما، وقيل: يكلِّفهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ قال سعيد بن جبير: خشينا أنْ يَحمِلَهما حبُّه على أنْ يدخلا في دينه ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ صلاحاً وإسلاماً وإيماناً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: قرابة. وقال الكلبي: أبدلهما الله جارية فتزوجها نبيٌّ من الأنبياء، فولدت له نبياً، فهدى الله على يديه أمَّةً من الأمم. وروى الثعلبي عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: أبدلهما الله جارية فولدت سبعين نبيّاً[(٢)].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ واسمهما أصرَم وَصُرَيْم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ واختلفوا فيه على أقوال:

---

(١) في «عرائس المجالس» ص ٢٣٠: منواه بن جلندى الأردني.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣٠.

أحدها: كانت فيه صحفٌ فيها علم، حكاه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثاني: أنه لوح من ذهب فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبتُ لمَنْ يُوقِن بالقَدَر كيف يَحزن، وعجبتُ لمَنْ يُوقِن بالموتِ كيف يفرح، وعجبتُ لمَنْ يُوقِن بالرِّزقِ كيف يتعب، وعجبتُ لمَنْ يُوقِنُ بالحسابِ كيف يَغْفَل، وعجبتُ لمَنْ يَعرِفُ الدنيا وتقلُّبها بأهْلِها كيف يَطْمَئِنُّ إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله. قاله ابن عباس والحسن وجعفر بن محمد، وروي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ[(١)].

والثالث: أنه مال. قال أبو إسحاق بإسناده عن مكحول عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾: «كان ذَهَباً وفضَّةً»[(٢)]، وبه قال عكرمة.

والرابع: أنه كان مكتوباً على اللوح الذي من ذهب: أنا الله لا إله إلّا أنا، أنا وحدي لا شريك لي، خلقتُ الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه، والويل لمن خلقته للشرّ وأجريته على يديه، قاله مقاتل.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ واسمه كاشح؛ وقال: معنى صلاحه أنه كان بينه وبين الأب الذي حفظ بصلاحه سبعة آباء.

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن محمد بن المنكدر قال: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدويرات التي حول مَسْرَبته، فلا يزالون في حفظ الله وستره.

وكان سعيد بن المسيّب إذا رأى ابنه يقول: يا بنيّ لأزيدنَّ صلاتي من أجلك رجاءَ أن أُحْفَظَ فيك، ويتلو هذه الآية[(٣)].

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: قوتهما، وهو ثماني عشرة سنة ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ أي: يخرجاه من تحت الجدار ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ بل بأمر الله وإلهامه وتوفيقه إياي، وإطلاعي على العلم.

---

(١) انظر عرائس المجالس ٢٣٠، وتفسير الثعلبي ٦/ ١٨٨، وزاد المسير ٥/ ١٨١، والتبصرة ١/ ٢٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٥٢).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣١.

قلت[(١)]: والعجب لموسى كيف ينكر على الخَضِر وقد جرى له من جنس ما أنكر، قال له: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ونسي ما لقيه في اليمِّ، وأنكر عليه قتل الغلام ونسي قتله القبطيَّ، وأنكر عليه إقامة الجدار بغير أجر ونسي يوم ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

فصل

فإن قيل: فكم كانت أسفار موسى؟ فالجواب سبعة أسفار: سفر السَّلب، وسفر الهَرب، وسفر الطَّلَب، وسفر السبَبَ، وسفر النَّصَب، وسفر الحَرْب، وسفر الطرب، فوجد في سفر السَّلب الأم، وفي سفر الهرب شُعَيْباً والعصا، وفي سفر الطَّلَب النبوَّة، وفي سفر السَّبَب النَّجاة، وفي سفر النَّصب الخَضِر، وفي سفر الحرب المنَّ والسلوى، وفي سفر الطَّرب القربَ والمناجاةَ.

وقد أشار جدي رحمه الله إلى بعض هذا في «المنتخب» فقال: سافر موسى سبعة أسفار: سفر التلف ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾[القصص: ٧] وسفر الهَرَب ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]، وسفر الطلب ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ [القصص: ٢٩]، وسفر السَبَب ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [الدخان: ٢٣] وسفر التعب ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، وسفر الطَّرب ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وسفر العَجَب ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[المائدة: ٢٦]. فوجد في كل سفرة فائدة. ففي سفر التلف وجد الأم، وفي سفر الهرب وجد العصا والصهر، وفي سفر الطلب وجد النبوَّة والتَّكليم، وفي سفر السبب وجد الراحة من العدوِّ وغرق فرعون، وفي سفر التعب وجد الخضر، وفي سفر الطرب أخذ التوراة، وفي سفر العجب أكرم بالمن والسلوى والغمام.

فإن قيل: فكم الألفاظ التي قوبل بها موسى عليه السلام من لفظة «لن»؟ قلنا: خمسة: أمر قومه بالإيمان فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾[البقرة: ٥٥]، ووقعوا في التيه فقالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾[البقرة: ٦١]، ونُدِبُوا إلى الجهاد فقالوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾[المائدة: ٢٤]، قال: أرِني قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[الأعراف: ١٤٣]، أقبل إلى الخضر للتعليم فقابله بلفظة ﴿إِنَّكَ لَن﴾[الكهف: ٦٧].

(١) في (ب): قال المصنف.

فصل في وفاة هارون عليه السَّلام

واختلفوا فيها على أقوال:

أحدها: أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السَّلام: إنِّي متوفٍّ هارون فأتِ به جبل كذا وكذا، فخرج به نحو ذلك الجبل، فإذا ببيت مبنيٍّ وحوله شجرٌ لم يُرَ في الدنيا مثله، وفي البيت سريرٌ وعليه فرشٌ وريحٌ طيبةٌ، فأعجب هارون وقال: يا أخي أُحبُّ أن أنام على هذا السرير، فقال موسى: نَمْ، فقال: أخاف من صاحب البيت أنْ يراني نائماً على سريره فيصعب عليه، فقال له موسى: نم ولا تخفْ فأنا أكفيك أمره، فقال له هارون: نم معي، فناما على السرير فمات هارون وارتفع البيت والسرير والشجر، ورجَع موسى إلى بني إسرائيل، فقالوا: وأين هارون؟ قال: مات. قالوا: بل أنت قتلته حَسَداً له على حبِّ الرئاسة، حيث نحبُّه ونميل إليه وكونه أرفقَ بنا منك، فقال لهم: وَيْحَكُم أترَوْن أنِّي أقتل أخي، فسأل موسى ربَّه فأنزل الله السرير وهارون نائمٌ عليه، فرأوه بين السماء والأرض فصدَّقوه. قاله السُّدي[١].

والثاني: أنَّ هارون مات في التِّيه قبل موسى عليه السلام بثلاث سنين فدفنه موسى، فاتهمه بنو إسرائيل، فأوحى الله إلى موسى انطلق بهم نحو قبره، فانطلق بهم ونادى موسى: يا هارون أنا قتلتك؟ فخرج من قبره ينفض رأسه ويقول: لا والله أنا متُّ موتتي التي كتب الله عليَّ قال: فعدْ إلى مضجعك، فعاد. رواه عمرو بن ميمون عن ابن عباس[٢].

والثالث: أن هارون صعد مع موسى على الجبل فتوفاه الله، وعاد موسى باكياً فقالوا: أنت قتلته، كان أليَنَ لنا منك، فسأل الله تعالى، فجاءت به الملائكة يحملونه، فشاهدوه ميتاً على أيدي الملائكة. رواه ابن عباس عن عليٍّ عليه السلام، قال فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾[الأحزاب: ٦٩].

واختلفوا في موضع قبره:

قال عكرمة: لم يطلع عليه أحد إلا الرَّخَم، فصار أصمّ، وإنَّه في التيه.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٩، وتاريخ الطبري ١/ ٤٣٢، والمنتظم ١/ ٣٧٢.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٩.

وقال كعب الأحبار: هو في مغارة جبل السراة بمكان يقال له: مرات، مما يلي الطور، موضع في مغارة يسمع منها في الليل دويٌّ عظيم يفزع من سمعه، وقيل: هو مدفون في طور يقال له: طور هارون من بلاد الشَّوْبَك.

وقال جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان»: مات هارون وله مئة وعشرون سنة(١).

وكذا هو في «التوراة»، وقال الحسن البصري: عاش مئة وثماني عشرة سنة، وكان أسنَّ من موسى بثلاث سنين فلما استكملها موسى مات. وقال مقاتل: ذكر الله هارون عليه السلام في أحد عشر موضعاً من القرآن.

فصل في وفاة موسى عليه السلام

قال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر بن همَّام، عن أبي هريرة قال: جَاء مَلَكُ الموتِ إلى موسى فقال له: أجبْ ربَّكَ، فَلَطَمَ عينَ مَلَك الموْتِ فَقَلَعها، فرجع الملك إلى الله فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريدُ الموتَ وقدْ فَقَأَ عَيْني، فردّ الله عليه عَيْنَه وقال: ارجع إلى عَبْدي وقُلْ له: إنْ كُنْتَ تُريدُ الحياةَ فَضَعْ يَدَكَ على مَتْنِ ثَوْر فما توارى بيَدِكَ مِنْ شَعْرِه فإنَّكَ تَعِيشُ بكلِّ شَعْرةٍ سَنَةً، فَعَادَ إليه فَأَخْبَرَه، فَقَال: ثُمَّ مَهْ، قال: تموتُ فقال: فالآنَ مِن قَريب. قال: يا ربِّ أَدْنِني مِنَ الأَرْضِ المقدَّسَة رَمْيَةَ حَجر. قال رسول الله ﷺ: «لو أني عِنْدَهُ لأَرَيْتُكُم قَبْرهُ إلى جنبِ الطَّريق عِنْدَ الكَثيبِ الأَحْمَر». متفق عليه(٢).

وقال الحاكم أبو عبد الله: هذا الحديث موقوف على أبي هريرة لأنه قال في أوله: جاء ملك الموت، والمسند منه قوله عليه السلام: لو كنت هناك لأريتكم قبره، وكذا قال الحميدي في «الجمع بين الصحيحين»(٣)، وقد روي في غير الصحيح أن الحديث كله من كلام رسول الله ﷺ(٤).

---

(١) «أعمار الأعيان» ص ٩٥.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٦٤٦) والبخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).

(٣) «الجمع بين الصحيحين» (٢٣٥٦).

(٤) أخرج الحديث مرفوعاً كله مسلم (٢٣٧٢) (١٥٨).

فإن قيل: فكيف قلع عين ملك الموت؟ فالجواب: أنه أتاه في صورة البشر، فخفي عنه أنه ملك الموت كما خفي عن رسول الله ﷺ جبريل أول ما جاءه في صورة دِحْيَة الكَلْبيّ، وكما جاءه في صورة أعرابي يسأله عن الإيمان، ثم عرفه بعد ذلك. فالعين المقلوعة هي العين البشرية دون الملكية، فلما عاد إليه وقد ردَّ الله عليه عينه استسلم لأمر الله.

قال عبد الله بن أحمد بإسناده عن أنس قال: لما مات موسى بن عمران جالت الملائكة في السماوات بعضها في بعض، واضعي أيديهم على خدودهم ينادون: مات موسى كليم الرحمن، والرحمن حيّ لا يموت أبداً[(١)].

قلت: وهذا الذي ذكرته في وفاة موسى من «الصحيح»، ومن كتاب «الزهد» لأحمد ابن حنبل.

أما قول أرباب السِّير فقد اختلف فيه: فروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان موسى يكره الموت، فأراد الله أن يحبِّبه إليه ويبغِّض إليه الحياة، فنبَّأ يُوشَع بن نون، فكان يوشَع يغدو على موسى ويروح فيقول له موسى: يا نبيَّ الله ماذا عهد إليك ربُّك؟ فيقول له يُوشَع: يا نبيَّ الله ألم أصْحَبْكَ كذا وكذا سنة، فهل سألتك يوماً عن ما عهد الله إليك حتى تكون أنت الذي يبتدىء؟ قال: فكره موسى الحياةَ وأحبَّ الموت[(٢)].

قلت: وهذه رواية ضعيفة فإن موسى هو الذي استخلف يُوشَع بن نون على بني إسرائيل.

وانقطع موسى في عريش يأكل خبز الشعير ويشرب في نقير، وإنما تمنى موسى الموتَ لما رأى يُوشَع قد قام مقامه فأحسن إلى بني إسرائيل، فتمنَّى الموتَ لأنَّ قلبه طاب لما رآه كذلك.

(١) «كتاب الزهد» ص ٩٤. ولفظه: لما مات موسى بن عمران عليه السلام جالت الملائكة في السموات يقولون: مات موسى فأي نفس لا تموت.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٩، وتاريخ الطبري ١/ ٤٣٣، والمنتظم ١/ ٣٧٤.

وعلى هذا يحمل قول محمد بن كعب القُرَظيّ: إنَّ موسى لما رأى الجماعة عند يُوشَع أَحبَّ الموت، لا على وجه الحسد.

وأما قول موسى ليوشع: ماذا عهد إليك ربك؟ فإنه أراد أن يختبره هل بلغ منزلة يعقل فيها عن الله ويكون أهلاً لإيداع السرِّ فيه أم لا. فلما رآه قد بلغ إلى تلك الدرجة تمنَّى الموت.

وروى السُّدي عن أشياخه قال: بينما موسى وفتاه يوشع يمشيان إذ هبت ريح سوداء، فظنَّ يوشع أنها الساعة، فالتزم موسى وقال: يا نبي الله هذه الساعة، فانسلَّ موسى من تحت القميص فذهب، فلما جاء يُوشَع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا: قتلتَ نبيَّ الله، فقال: والله ما قَتَلْتُه ولكنه انسلَّ مني، فكذَّبوه وأرادوا قتله، وقالوا: أنت قتلته، فأوحى الله إليه لا تخفْ، فلما كان في تلك الليلة لم يبق ممن اتهم يوشع بقتل موسى إلا وأُتيَ في منامه فقيل له: إنَّ موسى رُفعَ ولم يقتله يُوشَع، فتركوه[1].

وذكر وهب بن منبه عن أشياخه قالوا: لما استخلف موسى يُوشَع بن نون جمع أهله، وعهد إليه بمرأى من الناس، وطاب قلبه باستخلافه لنهضته وأمانته ـ فإنه لم يكن في بني إسرائيل من يصلح للأمر سواه ـ وانفرد موسى في عريش يستظل به ويجمع السنبل فيأكل منه، وعليه جبَّة من صوف، فخرج يوماً من عريشه فمرَّ بقوم يحفرون قبراً وكانوا ملائكة فعرفهم، واطلع فيه فأعجبه، ورأى فيه من الرَّوْح والخضرة والنضارة والبهجة ما حيَّره، فقال لهم: يا ملائكة الله لمن هذا القبر؟ فقالوا: لعبدٍ كريم على الله، فقال: إنَّ هذا العبد من ربه بمنزلة، ما رأيتُ مضجعاً كاليوم، فقالوا: يا صفيَّ الله أتحبُّ أن تكون ذلك العبد؟ قال: ودِدْتُ ذلك، قالوا: فانزلْ فاضطجعْ فيه وتوجّه إلى ربِّك، ففعل، فقالوا: تنفَّس، فتنفَّس فمات، وسوَّت الملائكة عليه التراب[2]. قال وهْب: وصلى عليه جبريل وميكائيل.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٠.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٠، وتاريخ الطبري ١/ ٤٣٣ـ٤٣٤.

قال جدي رحمه الله في «المنتظم»: وفي هذا بعد، وحديث أبي هريرة يدلّ على غير هذا[١].

قلت[٢]: وليس في حديث أبي هريرة أن ذلك الملك قبضه، وإنما فيه: الآن من قريب؛ ويحتمل أن هذه الواقعة كانت عقيب حديث أبي هريرة بيسير، على أن حديث أبي هريرة موقوف عليه وليس بمرفوع على ما بيَّنَّاه.

وروي عن ابن عباس أنه قال: كان لموسى ثلاث بنات، فلما احتضر دعاهنَّ وقال لهن: أوصيكن بوصية فاعملن بها، كأنّي ببني إسرائيل وقد عرضوا عليكن الدنيا، فاحذرن منها شيئاً وعليكن بِلَقْطِ السُّنبل فافركنه واجعلنه زادكنَّ إلى الجنة[٣].

واختلفوا في موضع قبره على أقوال:

أحدها: أنه بأرض التيه هو وهارون، ولم يدخل الأرض المقدسة إلا رميةَ حجر، رواه الضحاك عن ابن عباس.

وقال وهب: لا يُعرف قبره، ورسول الله ﷺ أبهم ذلك بقوله: «إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر» ولو أراد بيانه لبيَّنَ صريحاً.

وأما الحديث الذي فيه ذِكْر الأرض البريصاء فقالوا: لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس: لو علمت اليهود قبر موسى وهارون لاتخذوهما إلهين من دون الله.

وقال ابن إسحاق: لم يطّلع أحدٌ على قبر موسى وهارون إلا الرَّخَمَةُ، فنزع الله عقلها لئلا تدلَّ عليه، ومعنى عقلها إلهامها.

والقول الثاني: أنه بباب لُدّ بالبيت المقدس، قال مجاهد: لما انتهت الأربعون سنة التي تاهوا فيها خرج موسى ببني إسرائيل من التِّيه وفتح أَرِيْحَا، وأتى البيت المقدس وقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾[البقرة: ٥٨] وقد ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه» وقال: هذا هو الصحيح.

(١) «المنتظم» ١/ ٣٧٥.

(٢) في (ب): قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في المنتظم . . . قال المصنف رحمه الله.

(٣) تاريخ دمشق ٦١/ ١٧٥.

قلت: وكيف يكون هذا هو الصحيح وقد قال ابن عباس ووهب وعامة العلماء: إنه بأرض التيه. وذكره جدي في «التبصرة»[١]، وقال نبينا ﷺ: «إنَّ مُوسى قَال: أدْنِني مِن الأرضِ المقَدَّسةِ رمية حَجرٍ»[٢].

وقال ابن عباس ووهب: ما فتح أَرِيْحَا موسى، وإنما فتحها يُوشَع بنُ نون وهو الذي حُبِسَتْ عليه الشمس، لما نذكر.

وأما قوله: إن المراد بالقرية البيت المقدس، فقد قال ابن عباس: هي أَرِيْحَا قريةُ الجبَّارين، وكان فيها قوم من بقية عَاد يقال لهم: العَمَالِقَة ورأسهم عوج بن عناق، وقيل: هي بَلْقَاءُ، وقال ابن كيسان: الشَّام، وقال الضحاك: الرَّملَة والأُردُنُّ وفلَسطين وتَدمر، ولم يقل: إنها بيت المقدس إلا مجاهد وقد خولف.

وقال مقاتل: إيليَاءُ، قال: وكان للقرية سبعة أبواب.

والثالث: أن قبر موسى بين عَالِيَة وعويلة، وهما مَحَلَّتان عند مَسْجِد القَدم، ويقال: إنَّ عَالِيَة وعويلة عند كَنِيْسَة توما، ويقال: إنَّ قبره رؤي في المنام فيها، والأصحُّ أنه في تيه بني إسرائيل.

وحكي عن الحسن أنه قال: مات موسى في سبعة أيام من آذار ودفن في الوادي بأرض مُآب فصار قولاً رابعاً. ومآب ما بين بُصرى والبَلْقَاء.

والخامس: أن قبر موسى بدمشق، ذكره الحافظ أيضاً عن كعب الأحبار[٣].

وروى الحافظ أيضاً حديثاً عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بموسى وهو قائم يصلي في قبره بين عالية وعويلة»[٤] وقال الحافظ على أثره: قال الحاكم أبو أحمد: هذا حديث غريب من حديث سعيد عن يونس عن أنس، لا أعلم أنه حَدَّث به غير الحسن بن يحيى الخشني عن سعيد، ثم قال الحافظ: وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه مرَّ على موسى ليلة الإسراء وهو يصلي في قبره من غير ذكر عَالِيَة وعويلة.

---

(١) انظر تاريخ الطبري ١/ ٤٣٦، وتفسيره (١٠٠٣)، والتبصرة ١/ ٢٢٤، والمنتظم ١/ ٣٧٦.
(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٢٣) عن أبي هريرة.
(٣) «تاريخ دمشق» ٢/ ٤١١ (مخطوط).
(٤) «تاريخ دمشق» ٦١/ ١٨٢.

قلت: والحديث الذي أشار إليه أخرجه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَررْتُ ليلةَ أُسريَ بي على مُوسى عند الكَثيبِ الأحمرِ وهو قَائمٌ يُصلِّي في قبرِهِ»[١].

وقد ذكرنا أن موسى مات وهو ابن مئة وعشرين سنة.

وقال وهب: عاش موسى عليه السَّلام في ملك أفريدون عشرين سنة وفي ملك منوشهر مئة سنة.

وقال ابن عباس: بين إبراهيم وموسى عليهما السلام سبع مئة سنة.

فصل في فضل موسى عليه السلام

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: استبَّ رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، قال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، في قَسَمٍ أقسم به، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده فلطم اليهوديَّ، فمضى اليهوديُّ إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمرِ المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيِّروني على مُوسى، فإنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ فأَكُونُ أوَّلَ مَنْ يُفيقُ، فإذا موسى باطِشٌ بِجانِبِ العَرْشِ، فلا أَدْري أَكَانَ فيمَنْ صُعِقَ فأفاقَ أو كانَ فيمن استَثْنَى اللهُ». مُتَّفَقٌ عليه[٢].

وقال أحمد بإسناده، وقد أخرجه الحميدي، وفيه: فقال النبي ﷺ للأنصاري: «لِمَ لطمتَ وجْهَ اليهوديِّ؟» فقال: يا رسول الله، فَضَّل موسى عليك وعلى البشر، فَغَضِبَ رَسُولُ الله ﷺ وقال: «لا تُفضِّلُوا بَينَ أَنْبياءِ الله فإنَّهُ يُنْفَخُ في الصُّور فَيُصْعَقُ مَن في السَّمَاواتِ والأرض إلا مَنْ شَاءَ الله، ثُمَّ يُنْفَخُ فيهِ أُخْرَى فأَكُونُ أول مَن بُعِث، فإذا موسى آخذٌ بالعَرْشِ، فلا أدْري أَحُوسِبَ بصَعْقةِ الطُّورِ أم بُعِثَ قَبْلي»[٣]. وللبخاري: «إنِّي لأوَّلُ مَنْ رَفَع رأسهُ بَعْدَ النَّفْخَةِ فإذا موسى مُتَعلِّقٌ بالعَرْشِ» وذكره[٤].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٧٥) عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٨٦)، والبخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (١١٣٦٥)، والبخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣)، وانظر «الجمع بين الصحيحين» (١٧٥٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨١٣).

قال أبو سليمان الخطَّابي: «الصَّعْقُ»: الموتُ، والأصح أنه مثل الغشي، وقوله ﷺ: «لا تخيّروا» منسوخٌ بقوله: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»(١).

و«الباطشُ»: الآخذ، وإنما يأخذ موسى بساق العرش قبل الناس لأنه في صورة غريم يطلب الدين من غير مماطل ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ ومعنى الحديث: أنه صُعقَ مرةً فلا يحتاج إلى أخرى.

وفي مسلم عن أنس عن النبيِّ ﷺ قال: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي على مُوسى عليه السَّلام قائماً يُصَلِّي في قَبْرِهِ»(٢).

وأخرج مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَ عَلَيَّ الأنبياءُ فإذا موسى ضَرْبٌ من الرِّجَالِ كأَنَّهُ مِنْ رجالِ شَنوءَةَ، وذكَر عيسى ابنَ مريمَ»(٣).

والضَّرب: الخفيف اللحم، ورجال شَنُوءة كانوا طِوالاً، ويقال: أزد شَنُوءَة، وقد تقدم هذا وأخرجه أحمد(٤).

وأما إسناد مسلم، فقال مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله، وذكره، وفيه: «ورَأَيتُ إبراهيمَ وأقربُ مَن رأيت به شبهاً صاحِبُكم، ورأيتُ عيسى وإذا أقربُ مَن رأيتُ به شَبَهاً عروةُ بن مسعودٍ»(٥).

فإن قيل: فهل تعرفون في المُحَدِّثين من اسمه موسى بن عمران؟ فالجواب: جماعة، منهم: موسى بن عمران أبو عِمْران السُّلَمي، حدَّث بدمشق عن أبيه وروى عنه جمح بن القاسم، ومنهم موسى بن عمران بن موسى بن هلال، سمع مَكْحُولاً البيروتي وأبا الحسن بن جَوْصا، وأباه وغيرهم، وكانت وفاته بسَلَمَاس في سنة ثمانين وثلاث مئة(٦).



(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٩٨٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٧٥).
(٣) أخرجه مسلم (١٦٧)، وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة (٣٣٩٤).
(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٦٢٩).
(٥) أخرجه مسلم (١٦٧).
(٦) تاريخ دمشق ١٧/ ٣٩٤ (مخطوط).

فصل في قصَّة بلعَام
الذي ما نجا من بحر الفتن بل عام، وما حلَّ به من الانتقام[1]

قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾[الأعراف: ١٧٥]. واختلفوا فيمن نزلت على أقوال:

أحدها: في بلعام، قاله ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسُّدي، واختلفوا فيه على أقوال، فقال ابن عباس: هو بلعام بن باعوراء من بني إسرائيل، وقال مجاهد: بلعام بن باعور كان نبياً، وقال مقاتل: بلعام بن باعوراء بن ناب بن لوط عليه السلام، وكان من مدينة الجبَّارين الكنعانيين، وقال موسى بن طلحة: كان من البَلْقَاء، وملكها يقال له: بالق[2].

والثاني: أنها نزلت في أميَّة بن أبي الصلت، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الزمان، فطمع أن يكون هو، وسنذكره في نبَّوة نبيِّنا ﷺ، قاله عبد الله ابن عمرو بن العاص وابن المسيَّب وأبو روق وزيد بن أسلم.

والثالث: أنها نزلت في البسوس، فروى عكرمة عن ابن عباس قال: كان رجل من بني إسرائيل كانت له امرأة دميمة، وله منها أولاد، وكان للرجل ثلاث دعوات مستجابات، فقالت المرأة: اجعل لي منها دعوة، قال: وما هي؟ قالت: تجعلني أجملَ امرأة في بني إسرائيل، ففعل، فرغبت عنه، فغضب ودعا عليها فصارت كلبةً نبَّاحة، فذهبت فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: لا صبر لنا على هذا، فإن الناس يعيِّروننا ويقولون: أمكم كلبةٌ نبَّاحة، فدعا لها فرجعت إلى حالها الأول، فنفذ فيها ثلاث دعوات.

واختلفوا في البسوس:

---

(١) جاء في (ب): الباب السابع عشر في قصة بلعام، والمثبت من (ط)، وانظر في هذه القصة: تفسير الطبري ١٣/ ٢٥٢ فما بعدها، وتاريخه ١/ ٤٣٩، «عرائس المجالس» ص ٢٣٩، تفسير الثعلبي ٤/ ٣٠٤، تاريخ دمشق ٣/ ٤٢٦ (مخطوط)، «التبصرة» ١/ ٢٦٢، «المنتظم» ١/ ٣٥٥، «زاد المسير» ٣/ ٢٨٦، «تفسير البغوي» ٢/ ٢١٣، «الكامل» ١/ ٢٠٠، تفسير ابن كثير.

(٢) انظر «زاد المسير» ٣/ ٢٨٧.

فقال كعب: هو اسم الرجل، وقيل: اسم امرأة، وليست هذه البسوس التي أهاجت الحرب بين بكر وتغلب بن وائل، وسنذكرها فيما بعد.

والخامس: أنها عامة في كلِّ مَن انسلخ عن الحق من بعد ما أعطيه من اليهود والنصارى والمسلمين، قاله الرَّبيع بن أنس.

والسادس: أنها نزلت في المنافقين، قاله عكرمة.

والسابع: في قريش، أتتهم آيات الله على لسان رسوله فانسلخوا منها، قاله عبادة بن الصامت.

والثامن: في منافقي أهل الكتاب كانوا يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم ولكن انسلخوا منه، قاله الحسن وابن كيسان.

والتاسع: في الرهبان الذين آتاهم الله الإنجيل فانسلخوا من أحكامه يرضون النصارى بذلك فغيَّروا وبدّلوا، قاله مقاتل.

والعاشر: أنه ضُرِبَ مثلاً لمن أعرض عن الهدى بعد أن عرض عليه، قاله مقاتل.

والمشهور: أنها نزلت في بلعام، وقيل: إنه كان يسكن قرية من قرى الشام يقال لها: بالعة.

فصل في ذكر قصته

ذكر علماء السير كابن عباس ووهب والسُّدي وابن إسحاق وغيرهم: أنه كان قد أوتي الاسم الأعظم، وكان يسكن بالبلقاء، فلما نزل موسى عليه السلام على أَرِيحا لحرب الكَنعانيين أتى قومُ بلعام إليه وقالوا: هذا رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وقد جاء ليخرجنا من أرضنا ويُحلَّها بني إسرائيل، ونحن بنو عَمِّكَ، وأنت رَجُلٌ مجابُ الدعوة فادعُ عليه أن يردَّه الله عنَّا، فقال لهم: ويحكم، نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! إن فعلتُ ذلك ذهبتْ دنياي وآخرتي. فبكوا وتضرَّعوا إليه فقال: حتى أؤامرَ ربي، وكان لا يدعو حتى يرى ما يؤمر به في المنام، فتآمر في الدعاء عليهم فقيل له في المنام: لا تدعُ عليهم، فقال لقومه: قد أُمرتُ أن لا أدعو عليهم، فأهدوا له هدايا كثيرة ورشوة فافتتن، ووعدهم أن يدعو عليهم.

وقال مقاتل: نصب له ملك البَلْقَاءِ خشبةً، وأراد صلبه لامتناعه من الدعاء عليهم، فركب أتاناً وخرج متوجهاً إلى جَبَل يُطْلِعُهُ على عسكر موسى، فوقف على جبل حسبان المطلِّ على الغور وعسكر موسى قريبٌ من أَرِيْحَا، فما سار على الأتان غير بعيد حتى ربضت به، فنزل عنها وضربها حتى إذا أَذْلَقَها الضرب قامت، فركبها فلم تسر غير بعيد حتى ربضت، فنزل عنها وأخذ يضربها، فقالت له: وَيْحك إلى أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي[١] يردونني؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم يرتدع حتى وقف عليهم ودعا عليهم، فجعل لا يدعو عليهم بشيء من الشر إلا انصرف إلى قومه، ولا يدعو لقومه بشيءٍ من الخير إلا صرفه الله إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: وَيْحَك ما هذا؟ فقال: شيءٌ لا أملكه، إلا أنه قد دعا عليهم أن لا يدخلوا المدينة فوقعوا في التيه[٢].

وخرجت من صدره حمامةٌ بيضاء وهي الإيمان والمعرفة.

وقال موسى: يا إلهي قد سمعتَ دعاءَه علينا فاسمع دعاءَنا عليه: اللهم انزع منه الاسم الأعظم، فنزع منه في الحال، واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لقومه: ذَهَبَتْ منِّي الدنيا والآخرة، ولم يبقَ إلا المكر والحيلة، وسأحتال لكم، زيِّنوا النساءَ وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر ليبعنها فيه، وأمروهن أن لا يمنعن من أرادهنَّ فإنه إن زنى رجل منهم كُفيتم أمرهم، ففعلوا ذلك، فمرَّت امرأة من الكنعانيين يقال لها: كشى بنت صور برَجُلٍ من زعماء بني إسرائيل يقال له: زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يَعْقُوب فأعجبته، فقام وأخذ بيدها، ثم جاء حتى وقف على موسى عليه السلام وقال: إني لأظنك ستقول هذه حرام عليك، فقال: أجل والله إنها لحرامٌ عليكَ فلا تقربها، فقال: والله لا نطيعك في هذا، ثم دخل بها قبَّته فزنى بها، فأرسل الله عليهم الطَّاعونَ في الوقت، فمات منهم في ساعةٍ واحدة سبعون ألفاً، وكان فنحاص بن العيزار صاحب أمر موسى غائباً، فجاءه وكان شديد القوى فرأى الطاعون يجوسُ في بني إسرائيل، فقال: ما هذا؟ فأُخبر الخبر، فأخذ حربته وكانت من حديد

(١) في (ب): الملائكة والنار أمامي.
(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٥٨، وعرائس المجالس ٢٤٠. وأذلَقها: بلغ منها الجهد.

كلها، ثم دخل القبة على زمري وهو مضاجع المرأة فانتظمهما بحربته، وخرج بهما رافعاً حربته إلى السماء، قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى جنبه ـ وكان بكر العيزار ـ وجعل يقول: اللهم من يعصيك كذا نفعل به، فهلك من بني إسرائيل من ساعة زنى بالمرأة إلى ساعة فعل فنحاص ما فعل سبعون ألفاً كما ذكرنا، وقيل: تسعون ألفاً، فمن هناك يعطي بنو إسرائيل ولدَ فنحاصَ من كلِّ ذبيحة يذبحونها القِبَّةَ والذِّراع واللحي، باعتماده الحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى جنبه، والشطرَ من أموالهم وأنفسهم في النكاح.

وقال الجوهري: القِبَّة بالكسر ذاتُ الأطباق، وهي الحِفْثُ، وقال في حرف الثاء الفَحِث ـ بكسر الحاء ـ لغةٌ في حَفِث الكَرِش، وهو القِبَّةُ ذات الأطباق، ذكرها في موضعين(١).

واختلفوا في الآيات:

قال ابن عباس والسُّدي: هي الاسم الأعظم.

وقال ابن يزيد: كان لا يسأل الله شيئاً إلا آتاه الله.

وروي عن ابن عباس أنه قال: أوتي كتاباً من كتب الله.

وقال مقاتل: الآيات حجج الله وفهمُ الأدلة.

وقال مجاهد: هو نبي في بني إسرائيل يقال له: بلعم بن باعور أو باعر، أوتي النبوَّة فرشاه قومه على أن يسكت عنهم، فسكَتَ وتركهم على ما هم عليه.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج كما تنسلخ الحيَّةُ من جلدها ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي: أدركه ولَحِقَهُ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الأعراف: ١٧٥] الضالين ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أي: فضلناه وشرفناه وعصمناه ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ركن إليها وسكن ورضي بالدنيا من الآخرة، وهذا مَثَل ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: انقاد له. وحكى الثعلبي عن يمان بن رئاب قال: ﴿هَوَىٰهُ﴾ أي: امرأته لأنها حملته على الخيانة وطلب الدنيا ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾

(١) «الصحاح»: (قبب) و(حفث) و(فحث).

[الأعراف: ١٧٦] قال مجاهد: منقطع الفؤاد لا يزال يلهث حملت عليه أم لا. وقيل: إنْ وعظته أو لم تعظه سواء عليه. وقال ابن عباس: معناه: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن ترك لم يهتد إلى الخير. وقال ابن قتيبة: كل شيء من الحيوانات إنما يلهث من عطش أو إعياء إلا الكلب فإنه يلهث على كلِّ حال، فضربه الله مثلاً لمن كذَّب بآياته وهو من لم ينتفع بعلمه. فقال: إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال(١). وقال مقاتل: زجر في منامه فلم ينزجر، وخاطبته الأتان فلم ينتبه، وهذا رجل لم ينفعه علمه بل ضرَّه وكان وبالاً عليه.

وقال منصور بن زاذان: نبئتُ أن بعض من يُلقى في النار يتأذَّى أهلُ النار بنتن رائحته، فيقولون له: ويلك ما كفانا ما نحن فيه من الشر حتى ابتلينا بنتن ريحك، ما كنت تعمل في الدنيا؟ فيقول: كنت عالماً فلم أنتفع بعلمي.

وقال السُّدي: ثم إن موسى صعد إلى البلقاء وحارب قوم بلعام، وقتل ملكهم بالق وأسر بلعام فقتله شرَّ قتلة، وهذا ما انتهى إلينا، والله أعلم.

فَصلٌ في ذِكر قارون وَسَلْبِه كل مَكنون وَمَخزُون(٢)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[القصص: ٧٦] الآية. واختلفوا في نسبه إلى موسى على أقوال:

أحدها: أنه كان ابن عمه لأن موسى: ابن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، وقارون هو ابن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال ابن جريج والنخعي.

والثاني: ابن خالته رواه عطاء عن ابن عباس.

والثالث: كان عمَّ موسى عليه السلام، قاله محمد بن إسحاق(٣).

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٩٧ ـ ٩٨، وانظر «تأويل مشكل القرآن» ص ٢٨٦.

(٢) جاء في (ب): الباب الثامن عشر في ذكر قارون، وانظر في قصته: «تاريخ الطبري» ١/ ٤٤٣، «تفسير الطبري» ٢٠/ ١٠٥، «عرائس المجالس» ص ٢١٥، «التبصرة» ١/ ٢٥١، «المنتظم» ١/ ٣٦٥، «زاد المسير» ٦/ ٢٣٩، «البداية والنهاية» ١/ ٣٠٩، «الكامل» ١/ ٢٠٤.

(٣) انظر «التبصرة» ١/ ٢٥١.

وقال قتادة: كان قارون يسمَّى المنوَّر لحسنه، وإنما نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي[١].

قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ واختلفوا في معنى هذا البغي على أقوال:

أحدها: أنه بغى عليهم بالكبر، قاله قتادة.

والثاني: أنه زاد في ثيابه شبراً، قاله عطاء الخراساني.

والثالث: أنه بغى بالنفاق والكفر، قاله الضحاك.

والرابع: أنه كان يخدم فرعون ويتعدى على بني إسرائيل ويظلمهم، حكاه الماوردي[٢].

والخامس: أنه جعل لبغيٍّ جعلاً لتقذفَ موسى عليه السلام ويتعدى على بني إسرائيل، قاله ابن عباس[٣]. وسنذكره.

وفي مفاتيحه قولان:

أحدهما: أنها مفاتيح الخزائن التي تفتح بها الأبواب، وكانت مفاتيحه وِقْرَ ستِّين بغلاً، وكانت من جلود، كلُّ مفتاح مثل الإصبع، قاله مقاتل.

وقيل: كل مفتاح تفتح به عدة خزائن، ووزن كل مفتاح درهمان، قاله مجاهد وقتادة ومقاتل.

والثاني: أن المراد بالمفاتيح الخزائن نفسها، وحكاه جدي في «التبصرة» عن السُّدي وأبي صالح والضحاك، قال: وقال الزجاج: وهذا أشبه، وإليه ذهب ابن قتيبة[٤]. وكانت مفاتيح خزائنه تحمل على أربعين جملاً[٥].

قلت: والأول أشبه، لأن أموال قارون كانت عظيمة تزيد على ما ذكره، فإن أربعين

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٤٤٤، وانظر «المنتظم» ١/ ٣٦٦.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٥.

(٣) انظر «التبصرة» ١/ ٢٥١_٢٥٢.

(٤) انظر «تفسير غريب القرآن» ص ٣٣٥.

(٥) «التبصرة» ١/ ٢٥٢.

بغلاً بالنسبة إلى أمواله يسيرة.

﴿لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ﴾ أي: بنقلهم، وهذا دليل على ما ذكرنا لأنه صريح فيه، وإذا كانت المفاتيح تنوء بنقل العصبة ـ وهم أربعون رجلاً في قول ابن عباس، وقد ذكرناهم في قصة يوسف ـ فما ظنك بالخزائن.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾[القصص: ٧٦] يعني المؤمنين من آمن بموسى، ومعنى لا تفرح: لا تبطر ولا تمرح ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ وهي الجنة، بالإنفاق في طاعة الله ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تعملَ فيها للآخرة ﴿وَأَحْسِن﴾ بإعطاء فضل مالك ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بأن زادك على قدر حاجتك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾[القصص: ٧٧] بأن تعمل بالمعاصي.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ يعني المال، وفيه أقوال:

أحدها: أن قومه لما وعظوه قال: إنما أوتيته على خير وصلاح عَلِمَهُ الله مني، ولولا ذلك لما أعطاني إيَّاه، قاله مجاهد.

والثاني: بفضل علمي، قاله الفراء.

والثالث: بالمكاسب والتجارات، حكاه الماوردي(١).

والرابع: برضا الله عني، قاله ابن زيد.

والخامس: بصنعة الكيمياء، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وحكى جدي في «التبصرة» عن الزجاج أنه قال: وهذا لا أصل له لأن الكيمياء باطلٌ لا حقيقة له(٢).

فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للأموال. ومعناه: لو كان الله إنما يعطي الأموال لمن يرضى عنه لم يهلك أرباب الأموال الكثيرة ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[القصص: ٧٨] بل يدخلون النار بلا حساب، قاله قتادة. فما زاده ذلك الوعظ إلا عتوَّاً.

قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾[القصص: ٧٩] اختلفوا في الذي خرج فيه على

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨.

(٢) «التبصرة» ١/ ٢٥٣.

أقوال:

أحدها: في ثيابٍ حمر وصفر، قاله الحسن.

والثاني: في ثياب معصفرة، قاله عكرمة.

والثالث: على بغلةٍ شهباء عليها سرج أحمر من أرجوان، ومعه أربعة آلاف مقاتل وثلاث مئة وصيفة عليهنَّ الحليُّ والحلل والزينة، على بغال شهب، قاله وهب. والأرجوان: صبغ أحمر. وقال مقاتل: كان معه سبع مئة جارية عليهن الحلي والحلل المصبَّغة بالأرجوان.

والرابع: أنه خرج في تسعة آلاف مقاتل، ومعه أمواله وذخائره وجواهره، فكاد أن يفتن بني إسرائيل.

ذكر سبب هلاكه

قوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يعني: الكلمة التي قالها المؤمنون، وهي: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]، فأما الذي بطر وبغى فهلك.

وقال ابن عباس: لما أنزلت آية الزكاة في التوراة جاء قارون إلى موسى فصالحه على كل ألف دينار دينار، وعلى كل ألف درهم درهم، وعلى كل ألف شاة شاة، وعلى هذا الأسلوب، فحسب ذلك فوجده مالاً عظيماً، فجمع بني إسرائيل وقال لهم: إن موسى يأمركم بكل شيء فتطيعونه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا فمرنا بما شئت، فقال: آمركم أن تعطوا فلانةَ ـ لبغيٍّ كانت في بني إسرائيل ـ مئةَ دينار لتقذفه ففعلوا؛ وجاء قارون إلى موسى فقال: إن قومك قد اجتمعوا لتأمرهم وتنهاهم، فخرج فقام فيهم خطيباً وقال: يا بني إسرائيل، من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مئة، فإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت، فصاح به قارون وقال: وإن كنت أنت؟ قال: نعم، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرتَ بفلانة، فقال: عليَّ بها، فجاءت، فقال لها موسى: أنا من فعلت هذا الذي يقول هؤلاء؟ فقالت: لا والله يا نبيَّ الله، كذبوا، وإنما جعلوا لي جُعلاً حتى أقذفَكَ بنفسي، فسجد موسى عليه السلام يبكي ويتضرع، فأوحى الله إليه مُرِ الأرض

بما شئت، فقال: يا أرضُ خذيه، وكان قارون على سريره فأخذته حتى غيَّبَتْ سريره، فقال: يا أرض خذيه، فلم يزل يقولُ كذلك حتى غاب معظمه وبقي منه اليسير، قيل: قدماه، فجعل يناشد موسى بالرحم فما رُحِمَ، وجعل يقول: يا أرض خذيه، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى، ما أَفَظَّكَ!! فوعزَّتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته.

قال سمرة بن جندب، وقد رفعه إلى النبي ﷺ: «فهو يخسف به كلَّ يوم قدر قامة فما يبلغ الأرض السفلى إلى يوم القيامة»(١)، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ الآية. وقال ابن عباس: ثم قال موسى: يا أرض خذيهم وأشار إلى الذين قذفوه فأخذتهم(٢).

ولما خسف به قال بعض الجهال: إنما قصد موسى أخذ داره، وكانت داره عظيمة، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، فسأل الله فخسف بداره بعد ثلاثة أيام.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[القصص: ٨١] وقيل: أراد بداره منزله ومقامه، وإلا فمن أين كان لهم في التيه دور؟ والعرب تسمي المنزل داراً.

قلت: ويحتمل(٣) أن الواقعة كانت بمصر.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ قد ندموا على تمنيهم ويقولون: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[القصص: ٨٢]. قال الجوهري: وذلك لأن القوم ندموا فقالوا «وي» متندمين على ما سلف منهم(٤) ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ وذلك بالبغي والبطر والأشر والفساد والعمل بالمعاصي ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣].



(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٣٠٢٠.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٤٤٧. وانظر «التبصرة» ١/ ٢٥٣.

(٣) في (ب): قال المصنف رحمه الله: ويحتمل.

(٤) لم نجده في «الصحاح» وقد أورده البغوي في «تفسيره» ص ٩٩٣. وابن الجوزي في «زاد المسير» ٦/ ٢٤٧ ونسباه إلى الخليل دون الجوهري.

فَصلٌ في قصَّة يُوشع[١] بن نُون بن أفراثيم بن يوسُف

وقد ذكرنا أن موسى استخلفه[٢]، فلما توفي موسى قام يوشع بأحكام التوراة على منهاج موسى عليه السلام، وقسَّم الشام بين بني إسرائيل، وفتح البلاد وأباد الكنعانيين.

وقال أبو القاسم في «تاريخ دمشق»: يوشع أحد الرجلين اللذين أنعم الله عليهما. قال: وفتح إحدى وثمانين مدينة، وقتل من ملوك كنعان نيفاً وثلاثين ملكاً[٣].

قلت: ومن أين بالشام ثمانون مدينة؟! وإنما فتح أَرِيْحا وقتل من كان بها وبأَيْلة، لما نذكر.

وقال ابن إسحاق: لما مات موسى عليه السلام جمع يوشع بني إسرائيل ونزل على أَرِيْحا وقاتلها قتالاً شديداً أسبوعاً كاملاً إلى آخر نهار الجمعة، فخاف يوشع أن تغرب الشمس ويدخل السبت، وكانوا قد أشرفوا على أخذها، فدعا يوشع وقال: اللهم احبس لنا الشمسَ، فوقفت دون الغروب قيد رمح حتى فتح البلد، وقتل الجبارين وجمع الغنائم وقرَّبوها، فلم تنزل النار ولم تأكل منها شيئاً[٤].

قال الإمام أحمد ﵁: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن هَمَّام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «غَزَا نبيٌّ من الأنبياءِ فقال لقومِهِ: لا يتبعني رجلٌ مَلَكَ بُضعَ امرأةٍ[وهو يريد أن يبني بها ولما يبن]، ولا من بَنى بيتاً ولم يَرفع سقفَهُ، ولا من اشتَرى غَنَماً أو خَلِفاتٍ وهو ينتظِرُ أولادَها، فَغَزا فَدَنا من القَريةِ صَلاةَ العَصرِ، أو قَريباً من ذلك، فقال للشَّمسِ: أنتِ مأمُورةٌ، وأنا مأمُورٌ، اللهم احبِسها عليَّ شيئاً، فحُبِست حتى فَتَح اللهُ عليهم، فَجَمع الغنائِمَ، فجاءت النَّارُ فلم تأكُلها، فقال: فيكم الغُلُولُ، فليُبايعنِي من كلِ قبيلةٍ رجلٌ، فَلزِقت يدُ رجلٍ بِيدِهِ فقال: فيكم الغُلُولُ، فليُبايعني قَبِيلتُكَ فلزِقت يدُ رجلينِ أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغُلُولُ، فَجاؤوا برأسٍ مثلُ رأسِ البَقرةِ من ذَهبٍ،

(١) في (ب): الباب التاسع عشر في قصة يوشع عليه السلام.

(٢) انظر فصل في وفاة موسى عليه السلام.

(٣) «تاريخ دمشق» ٢٤/ ٤٤٠.

(٤) انظر «المنتظم» ١/ ٣٧٧.

فوضَعَهُ تحت النَّارِ فأكَلَتهُ، فلم تَحِل الغنائمُ لأحدٍ قبلَنا، ذلك بأنَّ الله رأى ضَعفَنا وعَجزَنا فَطيَّبها لنا». متفق عليه[١]. والذي رُدَّتْ له الشمس يوشع بن نون بإجماع العلماء، وكانت النار إذا نزلت فأكلت القربان علم أنه مقبول.

وقال ابن الكلبي: ولما فتح يوشع أَرِيْحا سار إلى البَلقاء فقتل بالقاً ملكها - وقد ذكرنا أن موسى قتله، وكان بالق من العمالقة - وفرَّق العمالقةَ من الشام ثم سار إلى أَيْلة وبها ملك العمالقة السَّميدَع بن هوبر فقتله، وفي ذلك يقول عمرو بن سعد[٢] الحميري:

ألم تَرَ أنَّ العملقيَّ ابن هَوْبَر ... بأيلةَ أَمسى لحمُهُ قد تمزَّعا
تداعت عليه من يهودَ جحافلٌ ... ثمانون ألفاً حاسرين ودرَّعا

وقال ابن الكلبي: ومن بقي من العمالقة وأفلت من يوشع ساروا إلى المغرب، فتفرقوا وصعدوا الجبال، فهم البربر بقيَّة الكنعانيين، وإنما سموا بالبربر لأن ملكهم قال لهم: ما أكثر بربرتكم أي حديثكم بلغتكم[٣]. وذكرهم الجوهري فقال: وبربر جيل من الناس، ذكرهم بغير ألف ولام، قال: والجمع البرابرة[٤].

وروى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: أوحى الله إلى يوشع إني مهلكٌ من قومك مئة ألف، ستين ألفاً من خيارهم وأربعين ألفاً من شرارهم. قال: يا رب، فما بالُ الأخيار أكثر هلاكاً؟ قال: كانوا يجالسون الأشرار ولم يغضبوا قطُّ يوماً لغضبي[٥].

ذكر وفاة يوشع

قال ابن إسحاق: ولما احتضر يوشع استخلف كالب بن يوفنا وأوصى إليه، ودفن

---

(١) من قوله: قال الإمام أحمد . . . إلى هنا من (ب) وليس في (ط)، وأخرج الحديث: أحمد (٨٢٣٨) وما بين معكوفين منه، والبخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).

(٢) في «ب» سعيد، وفي (ط): مسعود، والمثبت من مروج الذهب ١/ ٩٨.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٤٢، و«المنتظم» ١/ ٣٧٨.

(٤) «الصحاح»: (برر).

(٥) «العقوبات» لابن أبي الدنيا (١٣)، وانظر «المنتظم» ١/ ٣٧٨.

يوشع في جبال الشراة، وقيل: بجبل يقال له: جبل كنعان، وقيل: أفرائيم.

واختلفوا في سنِّه: ذكر جدي في «أعمار الأعيان» أنه عاش مئة وعشر سنين، وكذا الحسن بن عرفة[١]. وقال أبو جعفر الطبري: عاش مئة وستاً وعشرين سنة. وقيل: مئة وعشرين سنة مثل موسى عليه السلام، وكانت مدة بقائه بعد موسى عليه السلام سبعاً وعشرين سنة[٢]، في زمان منوشهر عشرين سنة، وفي زمان أفراسياب سبع سنين.

من كان في أيامه من الملوك

قال الكلبي: كان منوشهر قد هلك في آخر أيام يوشع وملك أفراسياب، وكان أكثر مقامه ببابل، فأكثر الفساد في الأرض، وأفسد مملكة فارس، ورَدَم القني والآبار وغوَّر المياه والأنهار، فيبست الأشجار، فوثب عليه رجل من ولد منوشهر يقال له: زو، وقيل: زومن، فطرده عن مملكة فارس، فعاد إلى الترك وأصلح زو ما أفسده أفراسياب، ووضع عن الرعية الخراج سبع سنين، فعمرت البلاد وكثرت الخيرات، واستخرج من الفرات نهراً سماه الزاب بالسواد بأرض الكوفة، وبنى على جانبه مدينة وهي التي تسمى بالعتيقة، وكان عندها وقعات المسلمين مع الفرس. وهو أول من اتخذت له الألوان في الأطعمة. ولما جلس على سريره وضع التاج على رأسه وقال: نحن مجتهدون في عمارة ما أخربه أفراسياب؛ ثم مات فكان ملكه ثلاث سنين، وقيل: ثلاثين سنة، وقام بعده ولده كي قباذ، وكان متكبراً شبيهاً بفرعون، وكان نازلاً عند جيحون، وجرت بينه وبين الترك حروب كثيرة، ومنعهم أن يتطرقوا لبلاد فارس؛ قالوا: وعاش مئة سنة[٣].



(١) «أعمار الأعيان» ص ٩٣.

(٢) «تاريخ الطبري» ١/ ٤٤٢.

(٣) انظر «المنتظم» ١/ ٣٧٩ـ٣٨٠، وتاريخ الطبري ١/ ٤٥٣.

فَصلٌ في قِصَّةِ كالب بن يوفنَّا

قال علماء السير: ولم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً. وهو كالب بن يوفنَّا بن بارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام، وهو أحد الرجلين اللذين أنعم الله عليهما قال فيهم الله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ [المائدة: ٢٣] وكانت بنو إسرائيل منقادة له، فأقام فيهم على منهاج يوشع أربعين سنة، ومات واستخلف عليهم ابنه. قال كعب: واسمه يوسافاس بن كالب. وكان نظير يوسف عليه السلام في الحسن، فافتتن به الرجال والنساء، وكدن النساء أن يغلبنه على نفسه، فسأل الله أن يغيِّر حسنه ويشوِّه وجهه خوفاً من الفتنة، فاستجاب دعواه، فعظم في عين بني إسرائيل، وشرَّفوه وأقرُّوا له بالفضل، فأقام فيهم أربعين سنة على منهاج أبيه[١].

وقيل: إنما ملك بعد كالب فنحاص بن العازر بن هارون ثلاثين سنة، وهو الذي أخذ مصاحف موسى عليه السلام فجعلها في خابية من نحاس، ورصَّصها وسدَّ رأسها، وأتى بها صخرة بيت المقدس، فانشقَّت له وبلعت الخابية. ثم دبَّر أمر بني إسرائيل جماعةٌ حتى قام حزقيل.



(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٢ـ٢٥٣.

فصلٌ في قصَّة حِزقيل بن بوزي[١]

واختلفوا فيه على أقوال:

فقال قوم: هو ابن العجوز، وكانت أمُّه قد عقمت، فسألت الله ولداً فوهبه لها.

وقال زيد بن أسلم: هو الكفل.

وقال الحسن: ذو الكفل لأنه تكفل سبعين نبياً لليهود عزموا على قتلهم، فأطلقهم حِزقيل وقال: قتلي وحدي أهون من قتل سبعين، وحماه الله من اليهود.

وقال السُّدي: ولما عظمت الأحداث في بني إسرائيل بعد ابن كالب بن يوفنَّا ووقع الاختلاف بين بني إسرائيل، ودعا كل سبط إلى أن يكون هو الإمام، بعث الله حِزقيل، قال: وفي زمانه جرت قصةُ الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

واختلفوا في كيفية ذلك:

فقال وهب: كانوا من بني إسرائيل أصابهم بلاء وشدة فقالوا: يا ليتنا متنا واسترحنا مما نحن فيه، فأوحى الله إلى حِزقيل: إنَّ قومك ضجُّوا من البلاء، وزعموا أن في الموت راحة، وأيُّ راحة في الموت؟ أتظنون أني لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت؟ فانطلقْ إلى جبانة كذا وكذا فإن فيها أربعة آلاف، فقم فيهم فنادهم، وكانت عظامهم قد تفرقت وشعورهم قد تمزقت وأكلت السباع والطيور لحومهم، فوقف حزقيل على الجبانة ونادى: أيتها العظام، إنَّ الله يأمرك أن تعودي إلى أجسادك، فقاموا وكبروا تكبيرة واحدة[٢].

وقال السدي: مرَّ حِزقيل على قرية من بلد واسط يقال لها: دَاوَرْدان وقد وقع بها الطاعون، فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة، فهلك أكثر من بقي في القرية، وسلم الذين خرجوا، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لسلمنا كما سلموا، ولئن وقع الطاعون ببابنا لنخرجنَّ

---

(١) انظر لهذه القصة: «تاريخ الطبري» ١/ ٤٥٧، و«تفسير الطبري» ٢/ ٥٨٧، و«عرائس المجالس» ص ٢٥٣، و«المنتظم» ١/ ٣٨٠، و«البداية والنهاية» ٢/ ٢، و«الكامل» ١/ ٢١٠.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٤٥٧ـ٤٥٨.

إلى أرض لا وباءَ بها، فوقع الطاعون من قابل، فخرج عامة أهلها فنزلوا بمكان أَفْيَح ـ أي: واسع ـ فلما حلُّوا بها واعتقدوا النجاةَ من الطاعون ناداهم مَلَكٌ من أعلى الوادي وآخر من أسفله: موتوا جميعاً فماتوا، فمرَّ بهم حزقيل فأحياهم(١).

وقال الضحاك ومقاتل: أمر بعض الملوك من بني إسرائيل بني إسرائيل بالجهاد، فخرجوا وعسكروا، ثم جبنوا وكرهوا الموت، فاعتلُّوا عليه وقالوا: الأرض التي نأتيها وبِئة، فأمهلْ حتى يرتفعَ الوبأ منها، فأرسل الله عليهم الموت، فقال ذلك الملك: اللهمَّ ربَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، قد ترى معصيتهم لي، فأرهم آيةً في نفوسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك، فقال لهم الله: موتوا، عقوبةً لهم، فماتوا جميعاً ودوابهم وأروحوا ونتنوا، فخرج الناس إليهم فعجزوا عن دفنهم، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع وتركوهم فيها فأقاموا مدة طويلة، وقيل: سبعة أيام أو ثمانية.

واختلفوا في عددهم على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا ثلاثة آلاف، قاله عطاء الخراساني.

والثاني: أربعة آلاف، قاله ابن عباس.

والثالث: ثمانية آلاف أو سبعة آلاف، قاله مقاتل.

والرابع: ثمانية آلاف، قاله الكلبي.

والخامس: ثلاثين ألفاً، قاله الحسن.

والسادس: أربعين ألفاً، قاله السدي.

والسابع: سبعين ألفاً، قاله عطاء.

والثامن: تسعين ألفاً، روي عن ابن عباس.

والأصحُّ أنهم كانوا زيادة على عشرة آلاف ولم يكونوا أقل منها لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾[البقرة: ٢٤٣] وما دون العشرة لا يقال لهم ألوف، وإنما يقال ثلاثة

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢/ ٥٨٧.

آلاف فصاعداً إلى عشرة آلاف، أما الألوف فجمعٌ كثير، وجمع القليل آلاف مثل يوم وأيام ووقت وأوقات، وقال ابن زيد: معنى «ألوف» أي: مؤتلفون، والآية مطلقة، وهذا يدل على ما ذكرناه[١].

قال مقاتل ووهب والسُّدي: فمرَّ بهم حِزقيل، وغيرهم يقول: شمعون، والأول أصحٌّ، فوقف ينظر إلى عظامهم ويتفكَّر فيهم ويتعجب. فأوحى الله إليه: يا حزقيل، أتريد أن أريك آية؟ فقال: نعم ـ وفي رواية أن حِزقيل سأل ذلك فقال: يا ربِّ، لو أحييتَ هؤلاء فعمروا بلادك وعبدوك ـ فقال الله تعالى: نادهم، فناداهم: أيتها العظام البالية، إنَّ الله يأمركِ أن تكتسي اللحم فاكتست، ثم نادى: أيتها الأرواح، إنَّ الله يأمرك أن تعودي إلى أجسادك، فقاموا جميعاً وعليهم الثياب التي ماتوا فيها[٢]. قال: فعاشوا دهراً وسَحْنةُ الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد دسماً مثل الكفن، حتى ماتوا لآجالهم التي كتب الله لهم، وإنَّ رائحتهم لتوجد اليوم في ذلك السبط من اليهود.

فإن قيل: فكيف أثبت لهؤلاء موتتين في الدنيا والله يقول: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[الدخان: ٥٦]؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن موتتهم كانت عقوبةً لا بفناء أعمارهم، فصار كقوله: ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[الزمر: ٤٢]. والدليل على أنه كان عقوبة ما حكاه هلال بن ساقة قال: كانت أمة من بني إسرائيل إذا وقع الطاعون فيهم خرج أولياؤهم وقام فقراؤهم، وصاروا عظاماً تبرق، وكنسهم أهل البيوت عن بيوتهم وطرقهم[٣]. وهذا يدل على طول المدَّة لا أنَّهم أقاموا سبعة أيام أو ثمانية.

والجواب الثاني: أن إحياءهم كان آية من آيات حِزقيل، وآيات الأنبياء نوادر ولا يقاس عليها، فيكون تقدير قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[الدخان: ٥٦] التي ليست من آيات الأنبياء وإظهار معجزاته.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٣ـ٢٥٤.
(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٤٥٨. وانظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٤.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢/ ٥٨٩.

وقال ابن عباس: وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ قال: ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تعلم على وجه التعجب، كما يقول: ألم تَرَ إلى ما صنع فلان؟!

ابن الأنباري: وفي الآية دليلان:

أحدهما: على منكري البعث، فإن الله أحيا هؤلاء في الدنيا.

قلت: والعجب من هذا القول، لأن منكري البعث لو آمنوا بالقرآن لما أنكروه، وإنما يدفعون بالدلائل العقلية.

والثاني: أن فيها احتجاجاً على اليهود؛ إذ أخبرهم نبينا ﷺ بشيءٍ لم يشاهدوه.

وقال السُّدي: مضى حِزقيل إلى بابل فقتله اليهود وإن قبره ببابل.

ثم كثرت الأحداث فبعث الله إلياس، لما نذكر.

وعاش حِزقيل مئة سنة، وأقام فيها نبياً ثلاثين سنة.



فَصلٌ في قصَّة الخَضِر عليه السَّلام[١]

الترتيب أن نذكر الخضر في ترجمة ذي القرنين، لأنه كان ابن خالته، أو في ترجمة موسى لما جرى له معه، وإنما أفردنا له باباً على حدة لأن سيرته تقتضي ذلك.

واختلف العلماء في اسمه ونسبه على أقوال:

أحدها: أنه اليَسَع بن مَلَكان بن فالِغ بن عابِر بن شالِح بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام، قاله مجاهد.

والثاني: بليا بن مَلَكان بن يقطن[٢] بن فالِغ بن عابِر بن شالخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح، قاله مقاتل. وكذا ذكر ابن قتيبة في «المعارف»، إلا أنه قال: بليا بن مَلَكان بن فالِغ أو ابن مَلَكا[٣].

والثالث: خضرون بن عاميل بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. قاله كعب. وكذا هو في «التوراة».

والرابع: إرميا بن خلقيا، من سبط هارون بن عمران، قاله ابن إسحاق. وأنكره أبو جعفر الطبري وقال: إرميا كان في زمان بخت نصَّر، وبين بخت نصَّر وموسى زمن طويل.

قال الطبري: والخضر هو الرابع من ولد إبراهيم لصلبه[٤].

قلت: وابن جرير الطبري أولى من أن يُنكَرَ عليه، وأين الخضر وآدم؟ وقد قال في «تاريخه» ما هو أعظم من هذا، قال: هو الذي دفن آدم حين أنزل من السفينة، وأن نوحاً دعا له أن يطيل الله عمره إلى يوم القيامة. وهذا قولٌ لم يُوافقه عليه أحد.

قال مجاهد: وهو من ولد يافث بن نوح، كما أنه كان وزير ذي القرنين ويسير في مقدماته.

---

(١) في (ب): الباب العشرون في قصة الخضر عليه السلام.

(٢) في (ط): مقطن، والمثبت من (ب).

(٣) «المعارف» ص ٤٢.

(٤) لم أقف على كلام الطبري في تاريخه، ونقله المصنف بواسطة جده من المنتظم ١/ ٣٥٧ـ٣٥٨.

وقال مقاتل: وقد قيل: إنه ولدُ رجل من أهل بابل ممن آمن بالخليل عليه السلام وهاجر معه. وقيل: اسمه عاميل بن مَلَكان.

واختلفوا لم سمي الخضر؟

قال بعضهم: هو أحد أساميه.

وقال عكرمة: وسمي الخضر لأنه كان إذا صلى على أرض اخْضَرَّ ما حوله.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما سُمِّيَ الخَضِرُ خَضِراً لأنَّه جَلَسَ على فَروَةٍ بَيضَاءَ فإذا هي تهتزُّ خَضرَاءَ». انفرد بإخراجه البخاري[١].

قال الجوهري: والفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة[٢].

وقال الزجاج: الفروة الأرض اليابسة.

وهل كان نبياً؟ فيه قولان: روى مجاهد عن ابن عباس أنه كان نبياً. والثاني: أنه كان عبداً صالحاً قاله عليٌّ، وعليه عامَّة العلماء.

وقيل: إنما سمي الخضر لحسنه وإشراق وجهه. وقد ذكرنا قصته مع موسى عليه السلام.

فصل في اختلاف العلماء في حياته وموته

ذهب جماعة من أهل النقل إلى أنه توفي.

ومذهب مشايخ الطريقة والحقيقة وأرباب المجاهدات والمكاشفات أنه حي يرزق ويشاهد في الفلوات، وأنهم يرونه ويشاهدونه، كعمر بن عبد العزيز، وإبراهيم بن أدهم، وبِشر الحافي، ومعروف الكرخي، وسَري السقطي، والجُنيد، والخوَّاص، وغيرهم. وقد ذكر ذلك عامة العلماء في «الحلية» و«الرسالة» و«مناقب الأبرار» وغير ذلك، وحوشوا من الكذب، لأنهم القدوة ولنا بهم أسوة، وما كان الله ليجمعهم على ضلالة.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨١١٣)، والبخاري (٣٤٠٢).

(٢) «الصحاح» (فرا).

واحتجَّ الفريق الأول بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾[الأنبياء: ٣٤] وبما روى أحمد بإسناده عن ابن عمر قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ العشاء في آخر حياته، فلما سلم بهم قال: «أرأيتُم لَيلَتكُم هذه، فإنَّ على رأسِ مئةِ سنةٍ منها لا يَبقَى ممن هُو على ظَهرِ الأرضِ أَحدٌ». قال ابن عمر: فذهل الناس من مقالته. متفق عليه[1].

وبما أخرج مسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما مِن نَفسٍ منفُوسةٍ تبلُغُ مئةَ سنةٍ وهي حيةٌ يومئذٍ»[2].

قالوا: ولأن الخضر لو كان حياً لأتى إلى النبي ﷺ.

ووجه قول الفريق الثاني: ما ذكرناه من إجماع أرباب الحقائق وهو لا يتصوَّر تواطؤهم على الكذب، وكفى بإجماعهم حجة. ومن أنكر حياة الخضر لم يكن له ذوق بإشارات القوم، لأن مثل هذا إنما يعرفه الباحث من جنسه، وسنذكر اجتماعَ من سمَّينا به في سير القوم في كتابنا عند تراجمهم.

وأما ما احتجوا به من قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ فما ادَّعوا أنه مخلَّد، وإنما يبقى إلى انقضاء الدنيا، فإذا نفخ في الصور مات لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[الأنبياء: ٣٥] وأما ما حدَّث ابن عمر وجابر فمتروك، والظاهر أنَّ جماعةً عاشوا أكثر من مئة سنة منهم: سلمان الفارسي، فإنه عاش ثلاث مئة سنة وقد شاهد رسول الله ﷺ، وحكيم بن حزام مئة وعشرين وغيرهما. وإنما أشار ﷺ إلى ذلك الزمان لا إلى ما تقدم وهو الأليق به، على أنه قد عاش بعد ذلك الزمان خلق كثير أكثر من مئة سنة.

وقولهم لو كان حياً لأتى إلى رسول الله ﷺ، فيحتمل أنه تركه إجلالاً أو عذراً وطلب من الله الإذن في ذلك. وقد كان في زمان رسول الله ﷺ جماعة ممن آمن به منعهم الأعذار عن لقائه كأبي مسلم الخولاني وأُويس القَرَنيُّ وغيرهما، ويحتمل أنه اجتمع به ولم ينقل.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥٦١٧)، والبخاري (١١٦)، ومسلم (٢٥٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٣٨).

وقد جمع جدي رحمه الله كتاباً في هذا الفن وذكر فيه العجائب[١].

وقد روي في حياته أخبار وآثار:

أما الأخبار: فذكر جدي رحمه الله في «الموضوعات» جملة منها: أنه جاء إلى مسجد رسول الله ﷺ، وأن رسول الله ﷺ سمع كلامه ولم يلقه[٢].

ومنها حديث اجتماع الخضر وإلياس في كلِّ عام بالموسم[٣]. ومنها اجتماع الخضر بالملائكة[٤] وعليٍّ عليه السلام[٥]، وبعمر بن عبد العزيز[٦]،ونحو ذلك، ثم ضعفها جدي وقال عِقيب تضعيفها: وإن جماعة من المتزهدين يقولون: رأيناه وكلَّمناه، فواعجباً ألهم فيه علامة يعرفونه بها؟ وهل يجوز لعاقل أن يلقى شخصاً فيقول له إنَّه الخضر فيصدِّقه[٧]؟.

قلت: إجماعاً على أنه شاب حسن الوجه، طيب الرائحة، ظاهر الكرامات، يدلُّ على صحة ما قالوا، فإنهم مجمعون على ذلك لا يختلفون فيه، فإذا قال: أنا الخضر وظهرت هذه العلامات وجب تصديقه.

وقال عطاء: كتب نجدة الحروري إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان وعن الخمس لمن هو، وعن الصبي متى ينقطع عنه اليتم، وعن النساء هل يُخرج بهن أو يحضرن القتال؟ وعن العبد هل له في المغنم نصيب؟

فكتب إليه: أما الصبيان فإن كنت الخضر تعرف المسلم من الكافر فاقتلهم، وأما الخمس: فكنا نقول إنه لنا، فزعم قوم أنه ليس لنا، وأما النساء: فقد كان رسول الله

---

(١) وسماه: عجالة المنتظر في شرح حال الخضر، وقد ردَّ في المنتظم ١/ ٣٦١ على من قال بوجوده وحياته إلى زمانه.

(٢) «الموضوعات» (٤٠١_٤٠٢) من حديث أنس.

(٣) «الموضوعات» (٤٠٣_٤٠٤) من حديث ابن عباس.

(٤) «الموضوعات» (٤٠٥) من حديث علي بن أبي طالب.

(٥) «الموضوعات» (٤٠٦).

(٦) «الموضوعات» (٤٠٧).

(٧) «الموضوعات» ١/ ٣١٤_٣١٥.

ﷺ يُخرِجُ معه النساء فيداوين المرضى ويقمن على الجرحى ولا يحضرن القتال، وأما الصبيان فينقطع عنهم اليتم بالاحتلام، وأما العبد فليس له في المغنم نصيب ولكنهم قد كان يرضخ لهم.

فقول ابن عباس: إن كنت الخضر تعرف الكافر من المسلم فاقتلهم، يدل على أنه موجود، ولو كان معدوماً لم يقل ذلك(١).

وأما الآثار: فذكر مقاتل في كتاب «المبتدأ» له: أن إلياس والخضر شربا من عين الحياة فلا يموتان إلى يوم القيامة، قال: فالخضر يدور البحار يهدي من يضلُّ فيها، وإلياس يدور الجبال يهدي من أضله الغول، هذا دأبهما في النهار، فأما في الليل فإنهما يجتمعان عند سدِّ يأجوج ومأجوج يحفظانه، ومأكلهما من الجنة.

وقال مجاهد: الخضر باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وذكر أبو إسحاق الثعلبي في «تفسيره» عن عبد العزيز بن أبي رواد: أن الخضر وإلياس يصومان شهر رمضان في البيت المقدس، ويوافيان الموسم في كل عام.

وروي عن إبراهيم التيمي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: كل ما يحكى عن الخضر حق، وهو عالم أهل الأرض، ورأس الأبدال، وهو من جنود الله تعالى.

وقد ذكر أبو القاسم في «تاريخ دمشق» فيه آثاراً أبلغ من أن تحصى، بلغ بها إلى الأمد الأقصى(٢).



(١) من قوله: وقال عطاء . . . إلى هنا زيادة من (ب) ليست في (ط).
(٢) انظر تفسير الثعلبي ٨/ ١٦٧، وعرائس المجالس ٢٦٢، و«تاريخ دمشق» ١٦/ ٣٩٩.

فَصلٌ في ذِكر إليَاس عَلَيهِ السَّلام[(١)]

قال مقاتل: ذكر الله إلياس في موضعين: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات: ١٢٣].

قال الجوهري: إلياس اسم أعجمي، وقد سمت العرب به إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان[(٢)].

واختلفوا في اسمه ونسبه على أقوال:

أحدها: أنه إلياس بن ياسين بن العيزار بن هارون. وقيل: إلياس بن العازر بن هارون بن عمران، قاله ابن عباس، وحكاه أبو جعفر الطبري[(٣)].

والثاني: إلياس بن تسبي[(٤)] بن الفنحاص بن العيزار بن هارون، قاله ابن إسحاق.

والثالث: إلياس بن نسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون، قاله مقاتل.

وحكى الثعلبي عن ابن مسعود ﷺ أن إلياس هو إدريس كما أن يعقوب هو إسرائيل، قال عكرمة: وكذا هو في مصحف ابن مسعود: «وإن إدريس لمن المرسلين»[(٥)].

والأصحُّ أنه من بني إسرائيل كما حكى علماء السير، وأن إلياس وإدريس بينهما دهر طويل. قال الثعلبي: وإلى قول ابن مسعود ذهب عكرمة، وقد تفرد بهذا القول.

---

(١) في (ب): الباب الحادي والعشرون في ذكر إلياس عليه السلام، وانظر في قصته: «تاريخ الطبري» ١/ ٤٦١، «عرائس المجالس» ص ٢٥٥، تاريخ دمشق ٣/ ٨١ (مخطوط)، «المنتظم» ١/ ٣٨٢، «الكامل» ١/ ٢١٢، «البداية والنهاية» ٢/ ٢٧٢.

(٢) «الصحاح»: (ألس).

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٦١.

(٤) في (ط)، وعرائس المجالس ٢٥٥: يسي، وليس في (ب)، وفي تاريخ الطبري ١/ ٤٦١، والمنتظم ١/ ٣٨٢، وتفسير الثعلبي ٨/ ١٥٨: ياسين، والمثبت من تفسير الطبري ٨/ ٣٨٣ (هجر)، والبداية ٢/ ٢٧٢.

(٥) في (ب): وإن إدريس بن إدريس، وفي (ط): وإن إدريس بن إدراس، والمثبت من تفسير الثعلبي ٨/ ١٥٨، و«تفسير البغوي» ص ١٠٩٥، وغيرهما من التفاسير، وانظر الشواذ لابن خالويه ١٢٨، والبحر المحيط.

ذكر قصته

حكى علماء السير كابن إسحاق والسُّدي والكلبي عن ابن عباس وغيره قالوا: لما قبض حِزقيل عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وظهر فيهم الفساد، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم إلياس نبيّاً ورسولاً[١]. وكانت الأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى يبعثون بتجديد التوراة وإحياء ما أماتوا منها.

وقال ابن إسحاق: بعث الله بين موسى وعيسى ألف نبي من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، ولم يكن بينهم فترة، والكلُّ يدعون إلى أحكام التوراة[٢]. ولهذا قال عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] ولم يقل: «كلَّ الذي»؛ وبنو إسرائيل يومئذٍ متفرِّقون في الشام، وكان يوشع قد قسم الشام بينهم، فأنزل سبطاً منهم بأرض بعلبك ونواحيها، وإلياس منهم، وكان لهم ملك يقال له: بك، وله صنم يقال له: بعل، طوله عشرون ذراعاً، وله أربعة أوجه في عيونها اليواقيت، وكان الصنم من ذهب مرصَّعاً بالدرِّ والجواهر فنسب إليه، فقيل: بعل بك.

وقال الجوهري: وبعل اسم صنم كان لقوم إلياس عليه السلام، قال: وبعل بك اسم بلد، والقول فيه كالقول في سام أبرص، وقد ذكرناه في باب الصاد[٣]. قلت: ذكر في باب الصاد وقال: وسام أبرص وهو من كبار الوزغ، وهو معرفة إلا أنه تعريف جنس، وهما اسمان جعلا اسماً واحداً[٤].

وقال ابن عباس: وكان إلياس ابن عم اليسع، وقيل: عمه، وقال العلماء بأخبار العالم: كان اسم الملك أخب، وكان جباراً يعبد الصنم ويحجه الناس من الأقطار. فلما بعث الله إلياس إليهم كذَّبوه إلّا ما كان من الملك أَخب فإنه آمن به وصدَّقه وجعله وزيراً، فكان يرشده ويسدِّده، وكان لأَخب الملك امرأة يقال لها: أرزيل[٥]، فكان إذا

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٤٦١.

(٢) انظر «المنتظم» ١/ ٣٨٣.

(٣) «الصحاح»: (بعل).

(٤) انظر «الصحاح»: (برص).

(٥) في (ب): أرزنيل، وفي الطبري ١/ ٤٦١: أحاب . . . أزبل، وفي عرائس المجالس: أخاب . . . أربيل.

غاب استخلفها على الرعية، وكانت جبارة قاتلة للأنبياء تبرز في المواكب مثل الرجال، وتجلس في مجلس الحكم تقضي بين الناس، وكان لها كاتب مؤمن يكتم إيمانه قد خلَّص من يدها ثلاث مئة نبيٍّ من بني إسرائيل تريد قتلهم، سوى من قتلت ممن يكثر عددهم. وكانت في نفسها غير مُحْصَنة، ولم يكن على وجه الأرض امرأة أفحش منها، وهي مع ذلك قد تزوَّجت بسبعة ملوك من بني إسرائيل وقتلتهم بالاغتيال، وكانت معمرة فيقال: إنها ولدت سبعين ولداً، قال: وكان لأخب الملك جارٌ صالح من بني إسرائيل يقال له: مرزكي وكانت له جُنَينة يعيشُ منها، وكانت إلى جانب قصر الملك، وكان أخب وامرأته يشرفان عليها ويتنزهان فيها، وكانت المرأة تحسد مرزكي لأجل تلك الجنينة، والملك يراعيه ويحسن إليه ولا يؤذيه، وكانت تحتال في قتل مرزكي لتأخذ الجنينة والملك ينهاها عن ذلك. فاتفق أنَّ الملك خرج في غزاةٍ وطالت غيبته، فاغتنمت امرأته ذلك فأقامت المرأة شهود زور أنَّ مرزكي صاحب الجنينة سبَّ الملك، وكان من حكمهم أن من سبَّ الملك قُتل، فأحضرت مرزكي وقالت: بلغني أنك شتمتَ الملك، قال: لا والله وإنه لمن أحب الناس إليَّ، فأحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور، فقتلته وأخذت الجنينة غصباً. فلما قَدِمَ الملك أخبرته فقال: ما أصبتِ ولا وُفقت ولا أرانا نفلح بعده، ولا حملك على هذا إلا سَفَهُك وسوءُ رأيك، وقد جاورنا رجلٌ صالح وتحرَّم بنا منذ زمان طويل، فأحسنَّا جواره، فختمتِ أمره بأسوأ الجوار، فقالت: أنا غضبت لك وحكمت بحكمك، فقال لها: أَوَما كان يسعه حلمك عنه وتحفظين له جواره؟ قالت: قد كان ذلك. فغضب الله لعبده الصالح وأوحى إلى إلياس أن أخبر أخب وامرأته أنَّ الله قد غضب لوليِّه حين قتلته ظلماً، وآلى على نفسه إن لم يتوبا من صنيعهما ويردَّا الجنينة على ورثة مرزكي أن يهلكهما في الجنينة ويدعهما[1] جيفتين مُلْقاتين فيها حتى تتعرى عظامهما من لحومهما، ولا يمتعان بها إلا قليلاً.

وبلغ الملك فغضب غضباً شديداً وقال لإلياس: والله ما أرى ما تدعو إليه إلا باطلاً، وما أرى فلاناً وفلاناً ـ ملوكاً سماهم قد عبدوا الأوثان ـ إلا على مثل ما نحن

(١) في (ب): ويجعلهما.

عليه، يأكلون ويشربون ويتمتعون، ما نقص من دنياهم ولا من أمرهم الذي تزعم أنه باطل شيء.

وهمَّ الملك بقتل إلياس، فخرج عنه فلحق بشواهق الجبال فدخل مغارة وتحصن بها وعاد أخب إلى عبادة بعل، وأقام إلياس سبع سنين في شواهق الجبال يأكل من نبات الأرض وثمار الأشجار، وقد وضع عليه الملك العيونَ واجتهد في طلبه، والله يستره عنهم. فلما تمَّ له سبع سنين أَذِنَ الله في إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم، فأمرض الله ابناً لأخب[1]، وكان أحبَّ ولده إليه وأعزهم عليه وأشبههم به، فأُدْنِفَ حتى يئس منه، فدعا صنمه بعلاً، وكان[2] له أربع مئة سادن، وكان الشيطان يدخل في جوف الصنم فيتكلم، وكان السدنة يصغون إليه، فيوسوس لهم بشرائع من الضلال، فيعلمونها الناس ويسمُّونهم الأنبياء. فلما اشتدَّ مرض ابن الملك طلب الملك من السدنة أن يشفعوا إلى الصنم في ابنه، فدعوه فلم يجبهم ومنع اللهُ الشيطانَ الدخولَ فيه، وأكثروا الدعاء والصنم لا يجيبهم، فقالوا له: إن إلهك غضبان عليك، قال: ولم؟ قالوا: لأنك ما قتلتَ عدوَّه إلياس، لأنه كافر به يعبد غيره. فقال: لو قدرت عليه لقتلته. قالوا: فإنَّ بالشام آلهة أخرى غير إلهك فاطلب منها الدعاء لولدك. فأرسل الأربعمائة إلى الشام إلى أصنام أخر يسألونها الدعاء لولده، فانطلقوا حتى إذا كانوا بحيال الجبال التي فيها إلياس فأوحى الله إليه: انزل إليهم ولا تخفْ فإني سأصرف شرَّهم عنك، وألقي في قلوبهم الرعب. فنزل إليهم وقال: إنَّ الله أرسلني إليكم وإلى مَن وراءكم فاسمعوا أيها القوم رسالةَ ربكم فإني ناصح لكم لتبلغوا صاحبكم، فارجعوا إليه وقولوا له: إنَّ الله يقول: يا أخب، ألم تعلم أني أنا الله الذي لا إله إلا أنا، إله بني إسرائيل وإله السماوات والأرض، أليس من جهلك أن تطلب الشفاء لابنك من غيري؟ إني حلفتُ بعزَّتي وباسمي لأغيظنَّك في ابنك ولأميتنَّه من فوره هذا، حتى تعلم أنَّ أحداً لا يملك شيئاً دوني. فلما قال لهم هذا، رجعوا إلى الملك وقد امتلؤوا رعباً وقالوا: نزل علينا إلياس من الجبل، وهو رجل نحيف طوال قد قشف وتمعَّط شعره، وعليه جبَّة صوف

(١) في (ب): ابنا الملك.

(٢) في (ب): فلم يجب سدنته وكانوا أربعمائة.

من شعر وعباءة قد خلَّها في صدره بخلال، فاستوقفنا فلما صار معنا قُذِفَتْ له في قلوبنا الهيبة والرعب، وخرست ألسنتنا، ونحن في عدد كبير، وقال كذا وكذا، فلم نقدر على مراجعته، فقال الملك: لا يُنْتَفعُ بالحياة مادام إلياس حيّاً.

فعهد الملك إلى خمسين رجلاً من أهل القوَّة والنجدة والبأس وقال لهم: احتالوا عليه وأظهروا أنكم آمنتم به واغتالوه. فارتقوا الجبل وتفرَّقوا ينادون: يا نبيَّ الله، ابرزْ لنا، وامننْ علينا، فإنَّا قد آمنَّا بك وصدَّقناك، وكل من عندنا والملك وزوجته، وأنت آمنٌ على نفسك فانزل واحكم فينا برأيك وأقم بين أظهرنا، نتقاد لما أمرتنا وننتهي عما نهيتنا، وليس يسعك أن تتخلَّف عنا مع إيماننا بك وطاعتنا لك. وكان ذلك مكراً منهم وخديعة.

فلما سمع إلياس ذلك وقع في قلبه كلامهم وخاف إن لم يجبهم أن يعاتبه الله تعالى، فهمَّ بالبروز إليهم ثم رجع إلى نفسه وقال: لو سألت الله أن يطلعني على ما في بواطنهم فقال: اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذنْ لي بالبروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فارمهم بنار تحرقهم، فما أتمَّ كلامه حتى أرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم.

وبلغ الملك فلم يرتدع حتى أقام فئةً أخرى مثل أولئك، فصعدوا الجبل وتفرَّقوا ينادون: يا نبيَّ الله، إنَّا لسنا مثل أولئك، فإنهم كانوا منافقين كذابين، وقد كفاك الله أمرهم. فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم كما فعل بأولئك.

وبلغ الملك فأراد أن يخرج إلى الجبل بنفسه فمنعه من ذلك مرض ابنه، فأرسل الكاتب المؤمن الذي يكتب لامرأته إلى إلياس، فإنه كان يأنس به، وبعث من ورائه فتيةً وأمرهم بإمساك إلياس إذا برز إلى الكاتب، ثم أظهر الملك إلى الكاتب أنه قد آمن بإلياس وتاب واتَّعظ بحريق الفتية ومَرَضِ ابنه، وقال: قل له إنا قد آمنا بك وخلعنا أصنامنا حتى تنزل إلينا وتحرقها أنت وتعود إلى حالك الأول. وكان ذلك مكراً من الملك، فانطلق الكاتب إلى الجبل ثم ناداه يا إلياس، فعرف صوته وأوحى الله إليه: ابرز إلى أخيك الصالح وجدِّد العهد، فبرز إليه وسلَّم عليه وتصافحا وتعانقا وتباكيا فقال له: ما الخبر؟ فقال: قد أرسلني الجبَّار الطاغي وقصَّ عليه ما قال، ثم قال له: إني لخائف أن أرجعَ إليه ولستَ معي أن يقتلني فأمرني بما شئتَ، فإن أمرت انقطعتُ

إليك فكنت معك، وإن شئت أن ترسلني إليه بما تحب فافعل، وإن شئت دعوت ربك أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً. فأوحى الله إليه إنَّ كلَّ شيءٍ جاءك منهم مكر وخديعة، وإن لم يأتِ بك إليه اتهمه فقتله، فقال: يا إلهي، فما أصنع؟ قال: انطلق معه فإن انطلاقك معه عذره وبراءته، وإني سأشغل أخب عنكما بابنه، وأضاعف عليه البلاء حتى لا يكون له همٌّ غيره، ثم أُميته على أشرِّ حال، فإذا مات فارجع عنه.

فانطلق معه حتى قدموا على أخب، وشدَّد الله على ابنه الوجع فاشتغل به عن إلياس، ورجع إلياس إلى مكانه سالماً. ولما مات ابن أخب فدفنه ثم انتبه لإلياس وقال للكاتب: وأين إلياس؟ قال: قد أتيتك به فشغلك عنه وجع ابنك، وما أدري ما الذي فعل، وقد كنت أظنُّ أنك أوثقته، فانصرف الملك عن ذكر إلياس، واشتغل بالحزن على ابنه.

وأقام إلياس بالجبال ثم ملَّ المقام بها، واشتاق إلى العمران فنزل من الجبل، وجاء إلى امرأة من بني إسرائيل، وهي أم يونس بن متى، واستخفى عندها ستة أشهر، ويونس يومئذٍ مولود يرضع ـ قلت: وهذا وهم، بين إلياس ويونس زمان طويل ـ

فكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتواسيه ولا تدخر عنه شيئاً، فسئم إلياس ضيقَ البيوت بعد سعة الجبال فعاد إلى الجبل إلى مكانه، وجزعت أم يونس لفراقه، ثم لم تلبثْ حتى فطمت ابنها يونس فمات، فاشتدَّ حزنها وعظمت مصيبتها، فخرجت في طلب إلياس، فلم تزل حتى وقفت عليه، فقالت له: إني قد فجعتُ بعدك بموت ولدي وليس لي غيره فارحمني، واسأل ربَّك أن يحيي ولدي ويجبرَ مصيبتي، فإني قد تركته مسجًّىً ولم أدفنه، وقد أخفيتُ مكانه. قال: فقام ومشى معها إلى منزلها وسأل الله فأحيا يونس لها، وعاد إلى مكانه، وضاق صدره، وطال عليه عصيان قومه، فأوحى الله إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهود: يا إلياس، ما هذا الجزعُ والحزن الذي أنت فيه؟ ألستَ أميني على وحيي، وحجتي في أرضي، وصفوتي من خلقي؟ فاسألني أعطك، فقال: إلهي، تميتني وتلحقني بآبائي، فإني قد مللتُ بني إسرائيل وملُّوني وأبغضتهم فيك وأبغضوني، فأوحى الله إليه: ما هذا اليوم الذي أُخلي ـ أو أُعري ـ منك الأرض وأهلها، وإنما قوامها وصلاحها بك وأشباهك وإن كنتم قليلاً، ولكن اسألني

أعطك، فقال: إن لم تمتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل، قال: وما ذاك؟ قال: تمكنني من خزائن السماء سبع سنين، فلا يمطرون إلا بدعوتي وشفاعتي، فإنهم لا يذلُّهم سوى ذلك، فقال الله: أنا أرحمُ بخلقي وإن كانوا ظالمين، قال: فست سنين، فقال له مثل ذلك، إلى أن قال: فثلاث سنين، فأمسك المطر عنهم ثلاث سنين حتى هلكت الماشية والدواب والهوام ويبس الشجر، وكان ينقل إلى إلياس طائر سخَّره الله له طعامه وشرابه.

وقال ابن عباس: لما أصابهم القحط مرَّ إلياس بامرأة عجوز فقال لها: هل عندك من طعام؟ قالت: شيء من دقيق وزيت، فدعا لها بالبركة حتى ملأ جرابها دقيقاً وخوابيها زيتاً، فجاء الناس إليها وقالوا: من أين لك هذا؟ وكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في بيت علموا أن إلياس قد اجتاز بهم، فلقي منهم أهل البيت شراً لأن الطير كانت تأتيه بالخبز وكان معدوماً، فقالت: مرَّ بي رجل من حاله كذا وكذا، ووصفته فعرفوه، وقالوا: ذلك إلياس، فطلبوه فوجدوه، فهرب منهم. ثم آوى ليلة إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها زوج يقال له: اليسع بن أخطوب، به ضرٌّ وفاقة فآوته وأخفت أمره، فدعا له فعوفيَ من الضُرِّ الذي كان به، فآمن بإلياس وصدقه ولزمه، وكان إلياس قد كبر وأسنَّ، وكان اليسع غلاماً شابّاً. ثم أوحى الله إليه: يا إلياس، إنك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعصِ اللهَ من البهائم والطير والدواب والهوام والشجر بحبس المطر عن بني إسرائيل.

فيزعمون أن إلياس قال: يا ربِّ، دعني أنا الذي أدعو لهم وآتيهم بالفرج لعلهم يرجعون عما هم عليه من عبادة غيرك، قال: نعم. فجاء إلياس إلى بني إسرائيل فقال لهم: إنكم قد جهدتم ومتم جوعاً، وهلكت البهائم والوحوش والأشجار بخطاياكم، وأنتم على باطل، فإن أحببتم أن تعلموا ذلك فأخرجوا أصنامكم هذه، فإن استجابت لكم فهو كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على غرور، ودعوت الله ففرَّج عنكم ما أنتم فيه من البلاء، قالوا: أنصفت، فخرجوا بأوثانهم ودعوها فلم تستجب لهم، فقالوا لإلياس: فادع الله لنا، فدعا لهم إلياس ومعه اليسع فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبَّقت الآفاق، وجاء الغيث،

فعاشت بلادهم، فنقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم. فلما رأى إلياس ذلك سأل الله أن يريحه منهم، فأوحى الله إليه: إذا كان يوم كذا وكذا فاخرج إلى موضع كذا وكذا، فما جاءك من شيء فاركبه. فخرج إلياس ومعه اليسع بن أخطوب إلى المكان الذي عيَّن له، وإذا بفرسٍ من نار قد أقبل حتى وقف بين يديه، فوثب إلياس عليه فانطلق به الفرس، فناداه اليسع: يا إلياس، ما تأمرني؟ فألقى إليه كساءَهُ من الجوِّ الأعلى، وكان ذلك علامةَ استخلافه على بني إسرائيل، فكان ذلك آخرَ العهد به.

ثم إنَّ الله قطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش فكان إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً، وسلَّط الله على أخب وامرأته وقومه عدواً لهم، فقصدهم من حيث لا يشعرون فرهقهم، فقتل أخب وامرأته في جنينة مرزكي، وبقيا حتى بليت لحومهما ورمَّت عظامهما، وبقيا ملقيين في الجنينة. ونبَّأ اللهُ اليسع وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحى الله إليه فآمنوا به وكانوا ينتهون إلى أمره، وحكمُهُ فيهم نافذٌ إلى حين فارقهم اليسع. هذا ما ذكره أبو إسحاق الثعلبي، واختصرت البعض[١].

وذكر أبو القاسم في «تاريخ دمشق»: أن إلياس اختفى من الكفار في المغارة التي بجبل قاسيون في دمشق عشر سنين حتى هلك الملك ووليهم غيره، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم[٢].

قلت[٣]: وبجبل لبنان مكان يقال له: قب إلياس، يقال: إن إلياس كان يأوي إليه مدة أربع سنين أو سبع سنين.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن زيد مولى عون الطفاوي[٤] عن رجل من أهل عسقلان كان يمشي بالأردُنِّ عند نصف النهار فرأى رجلاً فقال: يا عبد الله، من أنت؟ قال: فلم يكلمني، فقلت: يا عبد الله، مَن أنت؟ قال: أنا إلياس، قال: فوقعت عليَّ رعدة فقلت: ادعُ الله يذهب عني ما أجد حتى أفهم حديثك وأعقل عنك، فدعا لي

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٥ ـ ٢٦٢.
(٢) «تاريخ دمشق» ٣/ ٨١.
(٣) في (ب): وقال ابن عساكر . . . قال المصنف رحمه الله.
(٤) في تاريخ دمشق ٣/ ٨٦، والمنتظم ١/ ٣٦٢: داود بن يحيى مولى عون الطفاوي.

بثمان دعوات: يا برُّ يا رحيم، يا حنان يا منان، يا حي يا قيُّوم، ودعوتين بالسُّريانية لم أفهمهما. قال: فرفع الله عني ما كنت أجد، ووضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديَيَّ، وقلت له: أيوحى إليك اليوم؟ قال: منذ بعث الله محمداً ﷺ فإنه ليس يوحى إليَّ. قال: فقلت: كم من الأنبياء اليوم أحياء؟ قال: أربعة، اثنان في الأرض واثنان في السماء، في السماء عيسى وإدريس، وفي الأرض: إلياس والخضر. قلت: فكم الأبدال؟ قال: ستون رجلاً، خمسون منها من لدن عريش مصر إلى شاطىء الفرات، ورجلان بالمصيصة، ورجل بعسقلان، وسبعة في سائر البلدان، كلما ذهب الله بواحد جاء بآخر، بهم يدفع الله عن الناس وبهم يمطرون. قلت: فالخضر أين يكون؟ قال: في جزائر البحر، قلت: فهل تلقاه؟ قال: نعم، بالموسم يأخذ من شعري وآخذ من شعره، قال: وذاك حين كان بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال. قال: قلت: فما تقول في مروان؟ قال: ما تصنع به، رجل جبّارٌ عاتٍ على الله، القاتل والمقتول والشاهد والمشهود في النار. قال: فقلت: إني قد حضرت ـ أو قد شهدت ـ ولم أطعنْ برمح ولم أرم بسهم ولم أضرب بسيف، وأنا أستغفر الله من ذلك المقام وإني لا أعود إلى مثله أبداً. قال: أحسنت هكذا فكن أبداً. قال: فإني وإيَّاه قاعدان إذ وضع بين يديه رغيفان أشدُّ بياضاً من الثلج، فقال: كل، فأكلنا رغيفاً وبعض آخر ثم رفع، وما رأيت أحداً وضعه ولا أحداً رفعه، قال: وله ناقة ترعى في وادي الأردُنِّ، فرفع رأسه ودعاها فجاءت وبركت بين يديه، فركبها فقلت: الصحبة، قال: لا تقدر على صحبتي، قلت: لا زوجة لي ولا عيال، قال: تزوَّج وإياك والنساء الأربع: الناشز والمختلعة والملاعنة والمبارية، وتزوَّج ما بدا لك من النساء. قلت: فإني أحبُّ لقاءك. فقال: إذا رأيتني فقد رأيتني، ثم قال: إني أريد أن أعتكف في البيت المقدَّس شهر رمضان، وحالت بيني وبينه شجرة فوالله ما أدري كيف ذهب[1].

فإن قيل: ففي هذه الحكاية عن رجل مجهول، قلنا: لا يضرُّ فإن عادة المحدثين أن يذكروا في الأخبار النبوية رجلاً ولا يسمونه كما فعل الحميدي في آخر «الجمع بين

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٢ـ٢٦٣، وتفسيره ٨/ ١٦٧.

الصحيحين» فإنه روى عن رجل مجهول[١]، فكيف في الحكايات؟

وقد وقعت ألفاظ من غير طريق الثعلبي أن الدعوتين اللتين لم يسمهما الراوي: يا هيا شراهيا، قالوا: وهي بلغة أهل البحرين يا حيُّ يا قيُّوم. وقيل: فيهما الاسم الأعظم.

وقد وقع في حديث بمعنى هذا في الأبدال: ورجل بأنطاكية وسبعة في سائر الأمصار، فإذا أراد الله هلاك العالم أماتهم جميعاً.

وقال مقاتل: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون ﴿بَعْلًا﴾ وقد ذكرنا أنه الصنم، ولذلك سميت مدينتهم بعلبك.

وروى سعيد بن جبير [عن ابن عباس قال: سمعت أعرابياً يقول] لآخر: مَنْ بَعْلُ هذه الناقة؟ يعني من صاحبها؛ وقال الفراء: هي لغة هذيل[٢].

ومعنى ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[الصافات: ١٢٥] أي: فلا تعبدونه ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[الصافات: ١٢٦].

وأخرج جدي حديثاً في «الموضوعات» عن أنس أن النبي ﷺ خَرجَ في غَزاةٍ فَسمِعَ إنساناً يقول: اللهم اجعلني من أُمةِ مُحمدٍ ﷺ. وأنَّ النبي ﷺ قال له: «يا أنسُ انظر ما هذا الصَّوتُ»، وأن أنساً رأى رجلاً طُولُه ثلاث مئة ذراع، وأنَّه إلياس، وأنه اجتمع بالنبي ﷺ، ونزل عليهما من السَّماءِ سُفرَةٌ فيها كَمَأَةٌ ورُمانٌ وكَرَفسٌ، وجاءت سحابةٌ فاحتملته إلى الشام؛ وفيه أن النبي ﷺ قال لأنس: «إنَّ إلياس يأكلُ في كل أربَعينَ يوماً أكلة، وفي كل حولٍ شَربة من مَاءِ زَمزَم». ثم قال جدي رحمه الله: هذا حديث لا يصحُّ وهو باطل، وفي إسناده يزيد بن يزيد الموصلي وأبو إسحاق الجرشي عن الأوزاعي عن أنس، ويزيد والجرشي لا يعرفان[٣]، والله تعالى أعلم. انتهت ترجمة إلياس.

---

(١) الجمع بين الصحيحين (٣١٤٠) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، وانظر من أجل الجهالة وأحوالها الشذا الفياح ١/ ٢٤٦ فما بعدها.

(٢) تفسير الثعلبي ٨/ ١٦٨، وما بين معكوفين منه.

(٣) «الموضوعات» (٤٠٨).

فَصلٌ في ذِكر اليَسَع بن أخطوب وَمَا لَقِيَ[١]

قال مقاتل: ذكر الله اليَسَع في موضعين؛ وقيل: هو اليَسَع بن أخطوب ولي عهد إلياس. ويقال: اليسع بن عدي بن سويلح بن أفراثيم بن يوسف عليه السلام.

واختلفوا هل كان نبيًّا أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أنه كان نبياً كما ذكره الله في موضعين ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ﴾[الأنعام: ٨٦، ص: ٤٨].

والثاني: كان عبداً صالحاً ويقال له: ذو الكفل. وقيل: هما اثنان اليسع الذي نبَّأه الله في زمان إلياس ويقال له: ذو الكفل، وذو الكفل آخر يقال له: اليسع أيضاً رجل من بني إسرائيل. واليسع اسم أعجمي.

قال وهب: وأقام اليسع زماناً على منهاج إلياس في الدعاء إلى الله، ومات وكثرت الأحداث في بني إسرائيل والفساد، وكان عندهم التابوت يتوارثونه فيه السكينة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون. فلما مات اليسع غزاهم عدوٌّ، وكان لبني إسرائيل ملك يقال له: إيلاف[٢]، فأخذ منهم العدوُّ التابوت وسبى النساء وقتلهم بسبب فسادهم وأحداثهم، ومات إيلاف كمداً. فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله إشموئيل واستنقذ منهم التابوت وعاد إليهم الملك والنبوَّة بعد أربع مئة وستين سنة من وفاة يوشع إلى إشموئيل. وكان يليهم الأنبياء تارة، وتارة الرؤساء، وتارة الملوك، وتارة القضاة.

وقال السُّدي: قام فيهم بعد اليسع شمعون وكان من أفاضل بني إسرائيل ثم مات، واستخلف عليهم عيلوق[٣] وكان ابن ستين سنة، فأقام فيهم أربعين سنة يقيم الحق حتى بلغ مئة سنة، وكان عفيفاً إلا أنه كان له ابنان فاسقان يأكلان الرشوة، وبلغه فقال لهما: مهلاً يا بني، ولم يقل غير ذلك، فقال الله تعالى: لم يكن من غضبك حين انتُهكت محارمي إلا أن قلت: مهلاً يا بني، فسقط عن سريره فانقطع نخاعه فمات، وقتل ابناه، وقيل: كان عيلوق نبياً فنقل الله النبوَّة منه إلى إشموئيل.

---

(١) في (ب): الباب الثاني والعشرون في ذكر إليسع، وانظر لهذه القصة: «تاريخ الطبري» ١/ ٤٦٤، و«عرائس المجالس» ص ٢٦١، و«المنتظم» ١/ ٣٨٥، و«الكامل» ١/ ٢١٤، و«البداية والنهاية» ٢/ ٢٨٥، ومختصر تاريخ دمشق ٢٨/ ٣٦.

(٢) في (ط): إيلاق، والمثبت من (ب)، والمصادر.

(٣) في «ب»: عنادق، وفي عرائس المجالس ٢٦٥: عيلي.

فَصلٌ في قِصَّة إشموئيل وطالُوت والتابُوت وجالُوت[١]

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢٤٦].

اختلفوا في هذا النبي على أقوال: أحدها: أنه إشموئيل.

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه إشموئيل بن بالي بن علقمة بن يَرخام بن أليهو بن صوف بن علقمة بن ماحث[٢] بن عموصا بن عازراء[٣] بن هارون بن عمران، قاله وهب.

والثاني: أن إشموئيل بالعربية: إسمعيل بن بالي، قاله مقاتل.

والثالث: إشموئيل بن هَلْقاثا، قاله مجاهد، ولم ينسبه أكثر من ذلك[٤]، قال: واسم أمه حنة.

وقال ابن قتيبة: لم يكن بينه وبين يوشع نبي[٥]. وقد وهم لما ذكرنا ما بينهم من الأنبياء، مثل إلياس واليسع وغيرهما.

والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ أن القائل يوشع بن نون، قاله قتادة[٦].

والثالث: شمعون بن علقمة من ولد لاوي بن يعقوب.

والأصحُّ أنه إشموئيل وعليه عامة أرباب السِّير، وشمعون لم يكن نبياً، وإنما هو ابن عجوز اسمها صفية، سألت الله أن يرزقها ولداً على الكبر فرزقها فقالت: سمع الله دعائي. والسين تقلب شيناً بالعبرانية.

---

(١) في (ب): الباب الثالث والعشرون في قصة أشمويل . . . وانظر لهذه القصة: تفسير الطبري ٥/ ٢٩١، وتاريخه ١/ ٤٦٧، و«عرائس المجالس» ص ٢٦٥، وتفسير الثعلبي ٢/ ٢٠٨، و«زاد المسير» ١/ ٢٩٣، و«تفسير البغوي» ١/ ٢٢٦، و«الكامل» ١/ ٢١٧، و«البداية والنهاية» ٢/ ٢٨٩.

(٢) في (ط): باحث.

(٣) في «ب»: عازر.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٧.

(٥) انظر «المعارف» ص ٤٤.

(٦) انظر «زاد المسير» ١/ ٢٩٢.

ذكر قصته

قال علماء السِّير كابن إسحاق والكلبي ووهب والسدي وغيرهم، قالوا: ولما قبض حِزقيل عظمت الأحداث في بني إسرائيل فظهر لهم عدوٌّ من العمالقة يقال له: ليبشاثا، وهم قوم جالوت، وكانت منازلهم على ساحل البحر الرومي[١] بين مصر وفلسطين. فقصدوا بني إسرائيل فقتلوهم وسبَوهم وأجلَوهم عن ديارهم، وضربوا على من بقي منهم الجزية، وأسروا من أبناء ملوكهم أربع مئة وأربعين غلاماً، وأخذوا منهم التوراة ولقوا منهم بلاءً وشدة، ولم يكن لهم نبيٌّ يدبر أمرهم، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبياً يقاتلون معه العمالقة، وكان سبط النبوَّة قد هلك فلم يبق منهم إلا امرأة حبلى فحبسوها في بيتٍ مخافةَ أن تلد جاريةً فتبدلها بغلام لما رأوا من رغبة بني إسرائيل في ولدها، فجعلت المرأة تسأل الله أن يرزقها غلاماً فرزقها إشموئيل، ومعناه: «سمع الله دعاءها». فلما كبر الغلام أسلمته أمه في بيت المقدس يتعلم التوراة، وكفله شيخ من علمائهم وتبناه، فلما بلغ الغلام وأراد الله أن يبعثه نبياً، أتاه جبريل وهو نائم إلى جانب الشيخ فناداه بلغة الشيخ: يا إشموئيل، فقام الغلام فزعاً فقال: يا أبتاه دعوتني؟ فكره أن يقول: لا، فقال: يا بني، ارجع فنم فرجع، فناداه جبريل ثانياً وثالثاً فقال الشيخ في الرابعة: إن دعوتك فلا تجبني، فظهر له جبريل بالرسالة وقال: اذهب إلى القوم، فذهب إليهم وقال: إنَّ الله قد أرسلني إليكم، فكذبوه وقالوا: استعجلت النبوة ولم يُؤْذَنْ لك، فإن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتلْ في سبيل الله فيكون ذلك أمارة نبوَّتك. وكان قِوامُ أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءَهم، وكان الملك هو الذي يسيِّرُ الجموع، والنبي يقيم له أمره ويسدِّدُه، وتأتيه الأخبار من ربِّه تعالى[٢].

وقال وهب: أقام فيهم إشموئيل أربعين سنة يتهيؤون لقتال جالوت وعرف ذلك، فلما قالوا: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ

(١) في «ب»: بحر القلزم.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٦.

ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾[البقرة: ٢٤٦] وهذا استفهام شك، ومعناه: لعلكم لا تقاتلون مع ذلك الملك فلا تفعلون ما قلتم ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] وهذا قول من بقي منهم ﴿وَأَبْنَآئِنَا﴾ أي: وأبعدنا عن أبنائنا ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فرض الجهاد ﴿تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة: ٢٤٦] وهم الذين عبروا النهر. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

قال ابن الجواليقي: وطالوت اسم أعجمي، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾[البقرة: ٢٤٩] قال: فترك صرفه دليل على أنه أعجمي، إذ لو كان فَعَلُوتا من الطُّول كالرَّغَبوت والرَّهَبوت والتَّربوت لصُرف، وإن كان قد روي في بعض الآثار أنه كان أطول من كان في ذلك الوقت(١).

قلت: وطالوت ليس باسم بل صفة لأنه طال الخلق بصفته وصورته وقوَّته.

وقد اختلفوا في اسمه على قولين: أحدهما: شاول أو شاؤول بن قيس بن أبيال بن ضِرار بن بحرت بن أَفِيْح بن إيشا بن بنيامين بن يعقوب.

واختلفوا في مهنته على أقوال:

أحدها: أنه كان يدبغ الجلود. قاله وهب.

والثاني: كان يرعى الحمير، قاله السُّدي.

والثالث: كان يستقي الماء على حمار له من النيل، قاله مقاتل.

والرابع: خَربَنده(٢)، قاله مجاهد.

وقال وهب: ضلَّت حُمُرٌ لأبيه فخرج مع الغلام يطلبها، فمرَّ على بيت إشموئيل فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبي لعلَّه يدعو لنا فترجع الحُمُر إلينا. وكان قوم إشموئيل لما طلبوا منه ملكاً أُتِيَ بعصا وقَرْن فيه دُهْنُ القدس وقيل له: الملكُ الذي تطلبونه طوله على طول هذه العصا، فإذا دخل عليك وَنَشَّ الدهنُ في هذا القرن فادهَن به رأسه فهو ملك بني إسرائيل وَمَلِّكْهُ عليهم. فقاسَهم كلَّهم بالعصا فلم يكونوا مثلها،

(١) «المعرب» ص ٢٧٥ـ٢٧٦، والتربوت: الذلول من الإبل.

(٢) خربنده: حارس الحمار، مؤجر الحمار. انظر «المعجم الذهبي» ص ٢٣٥.

وكان على طولها، ونشَّ الدهن في القرن، فدهنَ به رأسه فلم ينزل على جبينه منه شيء فقال: أنت ملك بني إسرائيل، قال: أما علمتَ أن بيتي أدنى البيوت؟ فقال: بلى، ولكنَّ الله أمرني بذلك، قال: فأريد أمارة أخرى، قال: ترجع إلى أبيك وقد عادت الحمير. فرجع وقد رجعت.

ثم إن إشموئيل جمع بني إسرائيل وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾[البقرة:٢٤٧] أي: على الجيوش ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:٢٤٧] أي: كيف يكون هذا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ ولم نُذْكَر؟ وإنما أنكروا هذا لأنه كان في بني إسرائيل سبطان: سبط نبوَّة، وسبط ملك، فسبط النبوة: سبط لاوي بن يعقوب ومنه موسى وهارون عليهما السلام، وسبط المملكة: وهو سبط يهوذا ابن يعقوب ومنه كان داود وسليمان، ولم يكن طالوت لا من سبط النبوَّة ولا من سبط المملكة، وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب، وهم من أحقر الأسباط وأقلّهم، كانوا ينكحون النساء على قوارع الطريق نهاراً، فغضب الله عليهم فنزع منهم النبوَّة والملك ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾[البقرة:٢٤٧]بل هو دباغٌ لا قدْرَ له ولا قيمة ولا أصل. فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ بالحرب ﴿وَٱلْجِسْمِۖ﴾ بالطول والقوة. وكان يفوق الناس برأسه، وكان أعلم بني إسرائيل في زمانه، وأنه أوحى الله إليه حين آتاه الملك ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فلا تنكروا ملكه مع كونه من غير أهل المملكة، فإن الملك ليس بالوراثة وإنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٤٧] بنسبه حين بعثه عليكم. ثم قالوا: فما آية ملكه؟ قال ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(١).

والتابوت بالتاء عربي. وفي حديث البخاري عن زيد بن ثابت: لما أمره أبو بكر رضي الله عنه أن يجمع القرآن واختلفوا في التابوت، فقال زيد بن ثابت: اكتبوه بالهاء تابوه، وقال عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصي: اكتبوه بالتاء: تابوت، فرفع اختلافهم إلى عثمان رضي الله عنه فقال: اكتبوه بالتّاء، فإنها لغة قريش فكتبوه(٢).

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٨ـ٢٦٩.

(٢) هو ضمن حديث طويل أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٥٠٦). وأخرجه البخاري (٤٩٨٦) مطولاً لكن دون موضع الشاهد.

حديث التابوت

قال وهب: أنزل الله على آدم عليه السلام تابوتاً فيه صورة الأنبياء، أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ، وفيه بيوت بعددهم وهي مختلفة الألوان، فبيت محمد ﷺ من ياقوتة حمراء. وكان التابوت نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين من عود الشِّمشَار الذي تتخذ منه الأمشاط، وكان مذهَّباً. ومات آدم عليه السلام فورثه شيث، وتوارثه بنو آدم صاغراً عن كابر إلى إسماعيل بن إبراهيم، فورثه قيدار لأنه كان أكبر ولده، فنازعه ولد إسحاق فيه وقالوا: قد صُرِفَتِ النبوّة عنكم يا بني إسماعيل إلينا، ولم يبق لكم غير هذا النور الواحد يعنون به نور محمد ﷺ، ولا يظهر إلى آخر الزمان، فادفع إلينا التابوت يكون عندنا، فامتنع عليهم قيدار وقال: هذا وصية أبي لا أعطيه أحداً من العالمين، فذهب ذات يوم يعالجه ليفتحه وكان مقفلاً فلم يقدر على فتحه، فناداه منادٍ من السماء: يا قَيدار، ليس لك على فتحه سبيل، إنه وصية نبي ولا يفتحه إلا نبي، فادفعه إلى ابن عمك يعقوب إسرائيل الله. فحمل قَيدار التابوت على عنقه إلى الشام يريد يعقوب في أرض كنعان، فلما قرب منه صَرَّ التابوتُ صَرَةً سمعها يعقوب، فقال لبنيه: أقسم بالله لقد جاء قَيدار بالتابوت فقوموا إليه، فقاموا جميعاً ويعقوب معهم. وكان قَيدار قد جاء من مكّة لأنه كان يسكنها، فلما التقيا قال له يعقوب: أُبَشِّرُكَ، قال: بماذا؟ قال: ولدت لك البارحة الغاضرة غلاماً، قال: وما علمك وهي بالحرم وأنت بالشام؟ فقال: رأيت أبوابَ السماء قد فتحت، والملائكة قد نزلت، ونور محمد ﷺ قد أشرق. فسلَّم إليه التابوتَ وعاد إلى مكة، فوجد امرأته قد ولدت غلاماً فسمَّاه: حملاً، وفيه نور محمد ﷺ.

وأقام التابوت عند أولاد يعقوب يتوارثونه إلى أيام موسى، فأخذه فجعل فيه فتات ألواح التوراة ومتاعاً من متاعه وعصاه ونعليه وعمامة هارون ولوحين من التوراة، وكانا من الياقوت الأحمر، فكانوا يتوارثونه إلى أن غلبت عليه العمالقة، وبعث الله إشموئيل فقال لهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي: بالتابوت ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1].

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٩ـ٢٧٠.

واختلفوا في السكينة على أقوال:

أحدها: أنها ريح خَجُوج هفَّافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان، قاله عليٌّ عليه السلام.

والثاني: أن رأسها رأسُ هرة ميِّتة، وذنبها ذنب هرَّة، كانت إذا صرخت في التابوت أيقنوا بالنصر، وكان يسمع منها صوت الهر، قاله مقاتل.

والثالث: أنها ريحٌ رأسها رأس هرة ولها جناحان، قاله مجاهد.

والرابع: أنها طَسْت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء، قاله ابن عباس.

والخامس: كان فيه روح من الله يتكلم ويصوِّت، قاله وهب.

والسادس: أن المراد بالسكينة: السكون والطمأنينة، ففي أي مكان كان التابوت اطمأنُّوا إليه وسكنوا، قاله أهل المعاني[1].

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[البقرة: ٢٤٨] أي: عند رجوعه إليهم.

وقال السُّدي: كانوا إذا اختلفوا في شيء تكلَّم التابوت وحكم بينهم، وإذا حضر القتال قدَّموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوِّهم. فلما عصوا وأفسدوا نزعه الله منهم.

قال: وسبب نزع التابوت منهم أنه كان للشيخ ـ واسمه عيلي ـ الذي ربى إشموئيل ابنان أحدثا في القربان شيئاً لم يكن فيه. كان للقربان كَلَّابان يسوطانه على النار، فأحدثا كلاليب وتعرَّضا للنساء، فغضب الله على بني إسرائيل وسلَّط عليهم العمالقة فأخذوا التابوت، فأُخبر عيلي فشهق شهقةً ومات، وَمَرِجَ أمر بني إسرائيل حتى بعث الله طالوت ملِكاً، وهذا قول السُّدي.

أما وهب، فإنه قال: إنما أُخذ التابوت قبل هذه بمدة طويلة[2]، وقد ذكرناه.

ذكر ردِّ التابوت إلى بني إسرائيل

قال علماء السير: ولما أراد الله أن يردَّ التابوت على بني إسرائيل كانت العمالقة قد

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٠.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٦٩-٤٧٠.

دفنته في قرية من قرى الساحل بين غَزَّةَ والأطرُون يقال لها: أزدود، وكانوا قد جعلوه تحت صنم لهم، فأصبحوا يوماً والصنم تحته، فأخذوا الصنم وسمَّروه على التابوت، فأصبحوا والصنم تحته والأصنام كلها منكسة الرؤوس، فأخرجوه من بيت الأصنام وحملوه إلى قرية أخرى. فأخذ أهلَ القرية وجَعٌ في حلوقهم فمات أكثرهم؛ فقالت لهم جويرية من بني إسرائيل كانت عندهم من بنات الأنبياء: لا تزالون ترون ما تكرهون مادام هذا التابوت فيكم، فأخرجوه عنكم. قالوا: كذبتِ، قالت: آيةُ ذلك أن تضعوا التابوت على عَجَلة وتعلقوها على بقرتين لهما أولاد، وتحبسوا أولادهما، فإنهما تنطلقان بالتابوت إلى أرض بني إسرائيل ثم تعودان إلى أولادهما، ففعلوا ذلك، فخرجت البقرتان به ووكل الله بهما أربعة أملاك يسوقونهما، وأقبلتا حتى وضعتاه في أرض بني إسرائيل وعادتا إلى أولادهما.

وقيل: أقبلت الملائكة تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه، حتى وضعته في دار طالوت، فأقروا له بالملك راضين بعد أن كانوا ساخطين[1].

وروى عطاء عن ابن عباس قال: التابوت وما فيه في بحيرة طبرية لا تقوم الساعة حتى يظهر[2].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾[البقرة: ٢٤٩] أي: شخص، وأصل الفصل: القطع كقوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤] واختلفوا في عددهم على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا ثمانين ألفاً، قاله مقاتل.

والثاني: تسعين ألفاً، قاله مجاهد.

والثالث: ست مئة ألف، لم يتخلَّف عنه إلا الكبير لكبره والصغير لصغره وصاحبُ العذر لعذره، قاله الربيع بن أنس.

وكان خروجهم من بيت المقدس، والتابوت بين أيديهم، فلما رآهم طالوت قال:

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٠ـ٤٧١، و«عرائس المجالس» ص ٢٧٠ـ٢٧١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧١.

لا حاجة لي فيما أرى، لا يخرج معي رجل بنى بناءً لم يفرغ منه، ولا صاحب تجارة وهو مشغولٌ بها، ولا مديون، ولا من تزوَّج امرأة ولم يدخل بها، ولا أبتغي إلا الشابَّ النشيط الفارغ. فاجتمع معه مما شرط ثمانون ألفاً، وكان الحرُّ شديداً، وكانوا في قلّةٍ من المياه، فسألوا طالوتَ أن يسأل لهم ربَّه أن يجري لهم نهراً، فقال طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾[البقرة:٢٤٩] أي: مختبركم ليبلو طاعتكم، وهو أعلم[١].

واختلفوا فيه:

فقال ابن عباس: هو الأُردُنُّ نفسه. وقال الربيع: نهر بين الأُردُنِّ وفلسطين عذب ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني وطاعتي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: يشرب منه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ عبَّر عن الشرب بالطعم ـ ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة:٢٤٩] وقرأه ابن مسعود: «إلا قليلٌ» بالرفع على الاستئناف[٢].

واختلفوا في القليل الذين لم يشربوا على قولين:

أحدهما: أنهم كانوا أربعة آلاف، قاله السُّدي.

والثاني: ثلاث مئة وبضعة عشر، وهو الأصح[٣]. والدليل عليه حديث البراء بن عازب قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر: «أنتمُ اليومَ على عِدَّة أصحابِ طَالوتَ حينَ عَبرُوا النَّهرَ، وما جَازَ معَهُ إلا مُؤمِنٌ»[٤]. قال البراء: وكنا يومئذٍ ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً.

وقال ابن عباس: من اغترف غُرفة قويَ قلبُهُ وصحَّ إيمانه، وعبر النهر سالماً، وكفته تلك الغُرفَة لنفسه ودوابِّه؛ والذين خالفوا وشربوا من النهر أكثرَ من غُرفة اسودَّت وجوههم، وغلبهم العطش ولم يَرْوَوْا، وبقوا على شطِّ النهر، وجبُنوا عن لقاء العدوِّ،

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧١ـ٢٧٢.

(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٨، والبحر المحيط ٢/ ٢٧٨ وزاد نسبته إلى أبيّ والأعمش.

(٣) انظر «تفسير البغوي» ص ١٥٢.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٩٥٧) عن البراء موقوفاً عليه.

ولم يشهدوا الفتح.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾[البقرة: ٢٥٠] الآية. ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[البقرة: ٢٥١] لما نذكر.

وقال وهب وغيره: وكان ممن جاوز النهر إيشا بن عويد أبو داود، ومعه ثلاثة عشر ابناً له، داود أصغرهم، فقال له داود: يا أبت، ما أرمي بقذَّافتي شيئاً إلا صرعته فقال: ابشر يا بني، فإن الله قد جعل رزقك في قذافتك. وقال له يوماً آخر: يا أبت، إني وجدتُ الأسدَ رابضاً بين الجبال فركبته وأخذت بأذنيه فلم يهج بي، فقال: أبشرْ يا بنيَّ، فإن هذا خير يريده الله بك. ثم أتاه يوماً آخر فقال: يا أبت، إني لأمشي بين الجبال وأُسبِّح فما يبقى جبلٌ إلّا ويسبِّح معي، فقال: أَبشرْ يا بنيَّ، فإن هذا خير أعطاك الله إياه[(١)].

وقال الكلبي: أرسل جالوت إلى طالوت: ابرز أنتَ إليَّ أو أَبْرِزْ لي مَن يقاتلني، فإن قتلني فلكم ملكي، وإن قتلته فلي ملككم. فشقَّ ذلك على طالوت ونادى في عسكره: من قتل جالوتَ زوَّجْتُهُ ابنتي وناصَفْتُهُ ملكي، فهاب الناسُ جالوتَ لشدَّته، ولم يكن في زمانه أقوى منه ولا أشجع، يهزمُ الجيوشَ وحده، وكانت له بَيْضَةٌ فيها ثلاث مئة منٍّ من حديد. فشكا طالوت إلى إشموئيل وسأله أن يسأل الله، فسأله، فأوحى إليه: يقتله ولدٌ من أولاد إيشا، فدعا إشموئيل إيشا فقال: اعرضْ عليَّ أولادك، فأخرجَ له اثني عشر ولداً أمثال السواري، فجعل يعرضهم واحداً واحداً، فأوحى الله إليه: ليس في هؤلاء من يقتله، وإنما يقتله داود، فطلبه إشموئيل منه، فقال: ليس لي ولد اسمه داود، وإنما قال ذلك: لحقارته ودمامته وقصره، فأوحى الله إليه: كَذَبَ، له ولدٌ اسمه داود. فقال له: إنَّ الله يكذِّبك، فقال: صدق الله، لي ابنٌ صغير اسمه داود استحييت أن يراه الناس لحقارته، قال: فأين هو؟ قال: في الغنم يرعاها. وكان داود رجلاً قصيراً مصفارّاً مسقاماً أزرق أمغر أو آرط لا شعر عليه. فأخبره طالوت فخرج مع الناس في طلبه، فوجد الوادي قد مدَّ بينه بين الزريبة ـ وهي الحظيرة التي تروح إليها الغنم ـ نهرٌ عظيم، وإذا بداود يحملُ شاتين شاتين ويجوز بهما الوادي ولا يخوض الماء، فقال: هذا هو بغير شكٍّ.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٢. «عرائس المجالس» ص ٢٧٢ـ٢٧٣.

وكان الله قد بعث إلى إشموئيل تنُّوراً من حديد وقرناً فيه دهن وقال: من ملأ هذا التنور، ونشَّ على رأسه هذا الدهن، ولم يسلْ على وجهه فهو يقتل جالوت، فعرض ذلك على أولاد إيشا فلم يرَ شيئاً، فلما رآه طالوت وضع القرن على رأسه ففاض وأدخله التنور فملأه، فقال له طالوت: هل لك أن تقتل جالوت وأزوِّجك ابنتي وأقاسمك ملكي ـ أو: وأجري خاتمك في ملكي ـ قال: نعم. فأخذه ورجع به إلى العسكر فمرَّ داود على حجر فناداه: يا داود، احملني فإني الحجر الذي قتل بي موسى ملك كذا وكذا، فحمله، فناداه آخر: يا داود احملني فأنا الذي قتل بي هارون ملك كذا وكذا، فحمله، ومرَّ بآخر فناداه: احملني فإني حجرك الذي تقتل بيَ جالوت، وقد خبأني الله لك؛ فحمل الجميع في مخلاته؛ ودعا جالوت للبراز فقال طالوت لداود: خذ فرساً ودرعاً ورمحاً ففعل، وبرز لجالوت ثم رجع عنه، فقال الناس: جبن الغلام، فقال له طالوت: ما الذي بك؟ فقال: دعني أقاتل كما أريد، فقال: افعل، فنزع الدرع فأخذ مخلاته فتقلَّدها والحجارة فيها، وأخذ مقلاعه بيده، وجاء ماشياً فلما نظر إليه جالوت ألقى الله في قلبه الرعب وقال: أنت تبرز إلي بمقلاع وحجر كما تقاتل الكلب، وأنا قاتل الملوك وهازم الجيوش؟! قال داود: أنت شرٌّ من الكلب. ثم قال: بسم الله إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ثم أخرج الأحجار، فصارت حجراً واحداً، وتركها في مقلاعه ورمى بها، فسخَّر الله الريح فحملت الحجر، فأصاب طرف أنف البيضة فخالط دماغ جالوت وخرج من قفاه، وقتل من خلفه ثلاثين رجلاً وانهزم القوم وجرَّ داودُ جالوتَ برجله حتى ألقاه بين يدي طالوت فكبَّر الناس وفرحوا[١].

واختلفوا في مكان الوقعة: فقال قوم: بفلسطين من نواحي الرملة، وقيل: في الرملة عند عين الجالوت، وقيل: على بَيسان. وذكر أبو القاسم في «تاريخ دمشق» أنه قتله بمرج الصفَّر عند قصر أم حكيم[٢]. والأصح أنه قتله بأرض القدس والساحل.

فإن قيل: فكيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وبين قوله في حقِّ نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٢ـ٤٧٣. و«عرائس المجالس» ص ٢٧٣ـ٢٧٤.
(٢) «تاريخ دمشق» ١٧/ ٨٠.

[الأنفال: ١٧]؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن داود لم يكن معروفاً في ذلك الزمان ولم يكن مذكوراً، وكان قد شرط له طالوت أن يزوِّجه ابنته ويقاسمه ملكه، فأضيف القتل إليه ليجب الوفاء بشرطه، ونبينا ﷺ كان مشهوراً معروفاً لم يشترط لأحد شيئاً.

والثاني: أن العلماء قد اختلفوا في زمن النبي ﷺ، قال مجاهد: كان ذلك يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ حصاةً فضرب بها وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» فانهزموا[1]. وقيل: كان ذلك يوم خيبر، رمى بسهم فوقع في جبين كنانة بن أبي الحقيق على فرسه فقتله. وقيل: كان ذلك في يوم حنين فعجب المسلمون من ذلك فأراد الله أن يصرف عن رسوله العين، لئلا يعجبوا، فأضافه إلى نفسه.

ورجع طالوت بمن معه إلى البيت المقدس، وذكر الناس داود بخير وأثنوا عليه. وجاء داود إلى طالوت وقال: أنجزْ لي ما وعدتني، فقال: أتريد بنتَ الملك بغير صداق؟ قال: ما شرطت عليَّ صداقاً، وليس لي شيء، فقال: لا أكَلِّفك ما لا تطيق، إنَّ بجبالنا أعداءً لنا وأنت رجلٌ جريء، اقتل منهم مئة رجل وهم غُلْفٌ وأتني بغلفهم حتى أزوجك، فذهب داود ففعل ذلك، فزوَّجه ابنته وأجرى خاتمه في ملكه[2].

ومال الناس إلى داود فحسده طالوت وأراد قتله وعمل الحيلة فيه. قال وهب: فجاء رجل يقال له: ذو العينين إلى بنت طالوت وأخبرها فقالت لداود: إنك الليلة مقتول، قال: ومن يقتلني؟ قالت: أبي، فقال: وهل أذنبتُ ذنباً؟ قالت: لا، عليك أن تغيب الليلة، فقال: لا، إن أراد أبوك ذلك لا أقدر على الخروج، ولكن ايتيني بزِقٍّ من خمر، فأتته به فوضعه على سريره موضع منامه وغطاه ودخل تحت السرير. وجاء طالوت نصف الليل فضربه بالسيف فسال الخمر، فلما وجد ريح الشراب قال: رحم الله داود ما أكثَر شُرْبَهُ للخمر. فلما أصبح علم أنه لم يصنعْ شيئاً فقال: إن رجلاً طلبت منه ما طلبت لخليق أن لا يدعني حتى يدركَ ثأره مني، فاحترس وأغلق أبوابه، فأتاه داود ليلةً وهو نائم، فأعمى الله الحرس عنه، فدخل عليه فوضع عند رأسه سهماً وعن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٦٧٣.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٤ـ٢٧٥.

يمينه سهماً وعن يساره سهماً وعند رجليه آخر وذهب، فاستيقظ طالوت ورأى السهام فقال: يرحم الله داود، هو خيرٌ مني، ظفر بي فعفا عني، وأردت هلاكه وما عفوت عنه. ثم أتاه ليلة أخرى، فقطع شعرات من لحيته وبعض ثوبه، فلما رأى طالوت ذلك قال: هذا قاتلي، فطلبه أشدَّ الطلب، فخرج داود إلى الجبال فأقام مع المتعبدين(١).

وطعن العلماء على طالوت(٢) فأغرى بقتلهم، فجعل كلما نهاه أحد منهم قتله حتى أفناهم. وأتي بامرأة من بيت النبوَّة تعرف الاسم الأعظم ـ وكانت أم إشموئيل وقيل: كانت أم اليَسَع وقد عمَّرت ـ فأمر جبَّاره بقتلها فرحمها الجبار وقال: لعلَّنا نحتاج إلى عالم فتركها(٣).

ثم إن الله أوقع في قلب طالوت الندم والتوبة على ما فعل، فأقبل على البكاء والنحيب حتى رحمه الناس. وكان يخرج إلى المقابر كلَّ يوم يبكي ويندب نفسه ويقول: أنشد الله من عرف لي توبةً إلا دلَّني عليها، فناداه منادٍ من القبور: يا طالوت، أما كفاك أن قتلتنا حتى تؤذينا أمواتاً، فازداد بكاؤه، فرحمه الجبار الذي أمره بقتل العجوز وقال له: إنما مثلك كمثل رجل نزل قريةً عشاء وصاح ديك فتطيَّر منه. فقال: لا تتركوا في القرية ديكاً إلا ذبحتموه، ونام وقال لأصحابه: إذا صاح الديك فأذنوني حتى أدلج فقالوا: وهل تركتَ ديكاً يُسْمَعُ له صوت. وكذا أنت أيها الملك، وهل تركت في الأرض عالماً يفتيك إلا قتلته؟ فازداد بكاؤه، فقال له الجبار: أرأيتَ إن دللتك على عالم أتقتله؟ قال: لا. فأخبره بقصة العجوز التي تعرف اسم الله الأعظم فسألها فقالت: والله ما أعرف له من توبة إلا أن يأتي إلى قبر إشموئيل ـ وقيل: كانت أُمَّ إشموئيل ـ فيناديه لعلَّه أن يدلَّه، ففعل، فجاءت العجوز ومعها طالوت، فبكت وتضرعت عند قبر إشموئيل، ودعت بالاسم الأعظم، فقام إشموئيل ـ وقيل: كانت أمَّ اليَسَع وكانت قد عمرت ـ ينفض التراب عن رأسه، فلما نظر إليهم قال: أقامت الساعة؟ قالوا: لا، ولكن هذا طالوت، قد جاء يسأل هل له من توبة؟ فقال إشموئيل ـ وهو الأصحُّ ـ:

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٣. و«عرائس المجالس» ص ٢٧٥ـ٢٧٦.
(٢) في «ب»: داود.
(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٦.

ويحك يا طالوت، ما أحدثت بعدي؟ فقال: لم أدعْ شيئاً من الشرِّ إلا فعلته، وقد جئت أطلبُ التوبة، قال: فكم لك من الولد؟ قال: عشرة، قال: ما أعلم لك توبةً إلا أن تتخلى عن ملكك، وتخرج أنت وولدك في سبيل الله، فتقدِّم واحداً بعد واحد بين يديك فيُقتلون عنْ آخرهم، ثم تقاتل أنت فتُقتل. وعاد إشموئيل إلى القبر فانضمَّ عليه، فرجع طالوت أحزن ما كان، فبكى حتى سقطت أشفار عينيه خوفاً أن لا يطاوعه ولده، فدخلوا عليه وسألوه عن حاله فأخبرهم فقالوا: وإنك مقتول؟ قال: نعم، قالوا: فلا حاجةَ لنا في الحياة بعدك. ثم خرج بهم فقدمهم واحداً واحداً بين يديه حتى قتلوا جميعاً، ثم تقدم فقاتل حتى قتل، وجاء قاتله إلى داود وقال: قد قتلت عدوَّك. فقال: ما أنت بالذي يحيا بعده فقتله. وأتى بنو إسرائيل إلى داود فسلَّموا إليه خزائن طالوت وملَّكوه عليهم[١].

وأقام طالوت في الملك أربعين سنة، وقيل: عشرين سنة، وقيل: إنه مات كمداً ولم يقتل، والأول أصح. انتهت ترجمة طالوت.



(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٤ـ٤٧٥. و«عرائس المجالس» ص ٢٧٦ـ٢٧٧.

ذِكر قِصَّة دَاوُد عَلَيهِ السَّلَام[1]

قد ذكرنا أنه اسم أعجمي. وقال الجوهري: لا يهمز[2]. وقال ابن عباس: هو بالعبرانية القصير العمر.

وقال وهب: هو داود بن إيشا بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمي بن نادب بن آرام بن حَصْرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام.

وقال ابن عباس: كان داود قصيراً أزرق.

وقال الثعلبي: حدثنا الحسين بن محمد الدينوري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الزرقة يُمْنٌ وكان داود النبي أزرق»[3].

وقال مقاتل: ذكر الله داود عليه السلام في اثني عشر موضعاً.

فصل في سيرته عليه السلام

روى الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[البقرة: ٢٥١] أن المراد بالحكمة: النبوّة ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ يعني: علمه صنعة الدروع، والتقديرَ في السَّرْدِ ونحوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾[سبأ: ١٠] الآية. قال مقاتل: هو النبوّة ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: سبِّحي ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ قال وهب: كان يمر بالجبال فتسبِّح وتجاوبه وكذا الطير. وقال قتادة: يسبِّحن، أي: يصلِّين معه إذا صلى ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[سبأ: ١٠] قال ابن عباس: كان الحديد في يده كالشمع ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾[سبأ: ١١] أي: دروعاً طوالاً كوامل ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾[سبأ: ١١] أن اعمل

(١) في (ب): الباب الرابع والعشرون في قصة داود عليه السلام، وانظر لهذه القصة «تاريخ اليعقوبي» ١/ ٥١، و«تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٦، و«البدء والتاريخ» ٣/ ١٠٠، و«عرائس المجالس» ص ٢٧٧، و«التبصرة» ١/ ٢٧٤، و«الكامل» ١/ ٢٢٣، و«البداية والنهاية» ٢/ ٩.

(٢) «الصحاح»: (دود).

(٣) أخرجه الثعلبي في «عرائس المجالس» ص ٢٧٧-٢٧٨، وابن الجوزي في الموضوعات (٣٣٥) وقال عقبه: هذا حديث لا يصح.

الحِلَق على قدر المسامير، لا تكون واسعة فتعلق المسامير ولا ضيقة فتكسرها المسامير الغلاظ.

وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾[الأنبياء: ٨٠] قال وهب: اللبوس عند العرب السلاح كله، درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً.

وقال قتادة: أول من صنع الدروع داود، وكانت صفائح، فهو أول من سردها، وعلَّمه الله منطق الطير.

وقال وهب: كان سبب عمله الدروع أنه كان يخرج متنكراً، فإذا وجد جماعة لا يعرفونه دنا منهم، وسألهم عن سيرة داود، فيثنون عليه ويدعون له، فبينما هو في بعض الأيام على عادته يسأل عن نفسه بعث الله إليه ملكاً في صورة آدمي فقال: نِعْمَ الرجل هو داود لولا أنه يأخذُ من بيت المال، فضاق صدرُ داود، وسأل الله أن يغنيه، فألان له الحديد، فكان في يده مثل الخيوط، وكان يبيع الدرع بأربعة آلاف درهم يأكل منها ويتصدق ويطعم عياله(١).

وأعطاه من طيب النغمة ما لم يُعْطَ غيره، فكان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى تُؤْخذ بأعناقها وإنها لمُصيخَة. قال ابن عباس: وما صُنعت الصُّنوج والمزامير إلا على صوته وكذا كل لحن مطرب. وكان إذا قرأ أظلَّتْهُ الطيور ووقفَ الماءُ الجاري وسكنت الرياح(٢).

وقال مجاهد: كان الله قد أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة ورأسها عند صومعته، ولونها لون النار، وهي مرصعة بالجواهر وقضبان اللؤلؤ، فلا يحدث في الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ما حدث ولا يمسُّها ذو عاهة إلا برىء(٣)، وسنذكرها.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٨.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٩.

ذكر ما أنزل عليه

روى أبو صالح عن ابن عباس قال: أنزل الله الزبور على داود مئة وخمسين سورة بالعبرانية، في خمسين منها ما يلقونه من بُخْتَ نصَّر، وفي خمسين ما يلقونه من الروم، وفي خمسين مواعظ وحكم. ولم يكن فيه حلال ولا حرام ولا حدود ولا أحكام.

وقال وهب: ومن الزبور: يا عبدي الشكور، إني وهبتك الزبور، وأتقنت لك فيه الأمور، وهو من الوحي المحفوظ المستور، فاعبدني في الأيام والليالي والشهور.

وقال الجوهري: والزبور: كتاب داود عليه السلام[(١)].

واختلفوا في فصل الخطاب الذي أوتيه على قولين:

أحدهما: أنه «أما بعد» وهو أول من قالها في قول ابن عباس.

والثاني: أنه البيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر، قاله الضحاك.

ذكر عبادته وصيامه وورعه وقيامه

قال وهب: وكان داود كثير التلاوة والعبادة، غزير الدمعة، يصوم يوماً ويفطر يوماً.

قال أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «يا عبدَ اللهِ، صُم يَوماً وأفطِر يَوماً فهو أعدَلُ الصِّيامِ، وهو صومُ أخِي داود» قَالَ: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، فإني أطيقُ أكثرَ من ذلك أو أفضلَ، فقال: «لا أفضلَ من ذَلِكَ»، انفرد بإخراجه البخاري[(٢)].

وقال البخاري بإسناده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أحبُّ الصِّيامِ إلى اللهِ صومُ داودَ، وكَانَ يَصوُمُ يَوماً ويُفطِرُ يَوماً، وأحبُّ صَلاةٍ إلى اللهِ صلاةُ داودَ، كانَ ينامُ نِصفَ الليلِ ويَقومُ ثُلثَهُ ويَنامُ سُدُسَهُ»[(٣)].

---

(١) «الصحاح»: (زبر).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٩١٤)، والبخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩)، وانظر «الجمع بين الصحيحين» (٢٩٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

وفي أفراد البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خَفَّفَ اللهُ على دَاودَ القُرآنَ، فَكَانَ يَأمُرُ بِإسرَاجِ دَوابِّه فتُسرَج فيقرأه قبل أن تُسرَجَ، ولا يأكلُ إلا مِن عَملِ يَدِهِ»[(١)]. والمراد بالقرآن: الزبور، لأنه مجموع.

وللبخاري أيضاً عن المقدام بن مَعْدِي كَرِب عن رسول الله ﷺ قال: «ما أصلح[(٢)] أحد طعاماً قط خيراً له من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

وقال وهب: لما استُخلِفَ داود على بني إسرائيل عبدَ الله عبادة لم يعبدها عابدٌ، وتلا الزبور بصوتٍ لم يُعْطَهُ أحدٌ قبله، فقال إبليس لعفاريته: نفِّروا الناس عن داود، فنفَّروهم فلم يقدروا على شيء، فلم يمض ساعةٌ من ليل أو نهار إلا وفيها صائم أو قائم من آل داود، فذلك قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[سبأ: ١٣]. قال وهب: كان يقرأ الزبور ويبكي، وبيده قفة خوص يسفُّها ويبيعها ويتقوَّت منها.

وقال مجاهد: قام ليلةً لم ينم إلى الصباح فأعجبته نفسه، فنادته ضفدع من الماء: يا داود، أعجبتك نفسك الليلة؟ وعزَّة ربي إن لي ثلاث ليال ما أطبقت فمي من التسبيح لله تعالى.

وقال مقاتل: سَبَّح ليلةً فأجابته الجبال، فلما كان في جوف الليل دخلته وحشةٌ، فأوحى الله إلى الجبال أن آنسيه، فاصطكت بالتسبيح والتقديس والتهليل، فقال داود: إلهي، كيف تسمع صوتي مع هذه الأصوات؟ فأرسل الله إليه ملكاً، فأخذ بيده ففرج له البحر، وانتهى به إلى قراره، ثم ضرب بيده قرار البحر المظلم المحيط، فانفجرت له الأرض حتى ظهر له الحوت، فتنحَّى له الحوت عن الصخرة التي هو عليها فضربها بيده، فانشقَّت فخرجت منها دودة تسبِّح، فأوحى الله إلى داود: إني أسمعُ تسبيحَ هذه الدودة في هذا المكان.

وقال في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[سبأ: ١٠] أي: سبِّحي إذا سبَّح، ورجِّعي إذا رجَّع. قال ابن عباس: فصدى الجبال اليوم من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٧).

(٢) في «صحيح البخاري» (٢٠٧٢): ما أكل.

وقال مجاهد: بنى داود بيتاً للعبادة بأُورِي شَلِم، وهو موضع محراب داود بالبيت المقدَّس.

وذكر أبو نعيم الحافظ بإسناده عن وهب بن منبِّه قال: أوحى الله إلى داود: هل تدري من الذي أغفر له ذنوبه من عبادي؟ قال: مَن هو يا ربِّ؟ قال: الذي إذا ذكر ذنوبه ارتعدت فرائصه، فذلك الذي آمر ملائكتي أن تصلي عليه[١]. فقال داود: يا ربِّ أين أجدك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي أو مخافتي[٢].

وقال السُّدي وحكاه الثعلبي عن ابن عباس، قال: كان السبب في عِظَمِ داود في أعين بني إسرائيل أن رجلاً استعدى على عظيم من عظمائهم إلى داود وقال: هذا غصبني بقرتي، فسأله داود فأنكر، وسأل الآخر البيِّنة فلم تكن لديه بيِّنة، فأوحى الله إليه أن اقتل المنكر، وكان ذلك في المنام، فقال: هذا منام ولست أعجل، فأري في منامه ذلك ثانياً وثالثاً: اقتله وإلا نزلت العقوبة، فأحضر داود الرجل وقال له: إنَّ الله أمرني بقتلك، فقال: كيف، بمنام؟ قال: لا بل بوحي صادق، فقال: لا تفعل، فقال: والله لأُنفِذَنَّ أَمرَ الله فيك، فلما تيقَّن أنه قاتله قال: لا تعجل حتى أخبرك، والله ما اغتصبت له بقرةً ولكنني اغتلتُ أباه فقتلته، فقتله داود، فازدادت هيبته في عيون بني إسرائيل[٣].

وقال ابن عباس: ما كنتُ أعلمُ ما الإشراق في قصة داود إلا من أم هانىء فإنها قالت: هي صلاة الضحى. وكان ابن عباس يصلي الضحى[٤].

واختلفوا في فصل الخطاب على أقوال؛ قد ذكرنا قولين، قال ابن عباس: هو تبيان الكلام. وقال ابن مسعود: هو علم الحكم بالقضاء. وقال كعب: الشهود والأيمان[٥].

---

(١) «الحلية» ٤/ ٣٢. وانظر «صفة الصفوة» ٢/ ٢٩٣.

(٢) «الحلية» ٤/ ٤١. وانظر «صفة الصفوة» ٢/ ٢٩١.

(٣) في (ط): فقال كيف قال بمنام، والمثبت من (ب)، وانظر عَرائس المجالس ٢٨٠-٢٨١، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٥٣.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٤، والحاكم ٤/ ٥٣، والثعلبي في تفسيره ٨/ ١٨٣، وهذا السياق في المطبوع والمخطوط مضطرب.

(٥) ورد هذان القولان في «ب» قبل ذكر عبادته وصيامه، وانظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٩.

فصل في محنة داود عليه السلام

واختلفوا في سبب امتحان الله داود على أقوال:

أحدها: أنه جلس يوماً يقرأ في الكتب، فوجد فيها مآثر آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فتمنى منازلهم وقال: يا رب، ذهب آبائي بكل خير، وإني أسمع الناس يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلني رابعاً، فقال: لستَ هناك، إنهم صبروا على بلائي ورضوا بقضائي، فإنَّ إبراهيم ابتلي بنمرود، وبالنار وغيرها فصبر، وإن إسحاق ويعقوب جادا لي بنفسيهما، وإن يعقوب ابتلي بفراق محبوبه وأعزِّ الخلق عليه فقام ثمانين سنة ولم ييأس من رَوْحي طرفة عين، فقال: يا رب، فأعطني الذي أعطيتهم وابتلني[1] بما شئت، فأوحى الله إليه: إني مبتليك في وقتِ كذا فاحترس. وكان يحرس محرابه ثلاثة وثلاثون ألفاً من أولاد الأنبياء. فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾[ص: ٢٠]، وهذا قول الحسن والضحاك والسُّدي وغيرهم[2].

والثاني: أنه حدَّث نفسه أنه يقطع يوماً بغير مقارفة ذنب.

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أحمد بن المبارك بإسناده عن يحيى بن كثير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كان داودُ قد قَسَم الدَّهرَ أربعةَ أقسامٍ، يوم لبني إسرائيلَ يُدارِسُهم العلمَ ويُدارِسونه، ويوم للنساءِ، ويوم للمحرابِ ويوم للقضاءِ، فبينما هو معَ بني إسرائيل يُدارِسهم العلمَ قال بعضهم: لا يأتي على ابن آدم يومٌ لا يصيبُ فيه ذنباً، فقال داود في نفسه: اليوم الذي أخلو فيه للمحراب تتنحَّى عني الخطيئةُ، فأوحى الله إليه: يا داودُ، خذ حِذرَك حتى ترى بلاءَكَ»[3].

والثالث: لأنه قال يوماً لبني إسرائيل: والله لأعدلنَّ فيكم، ولم يستثن، قاله مقاتل.

والرابع: أنه كان كثير العبادة، فأعجبته نفسه، فجاء جبريل فقال: يا داود، أما علمتَ بأن العُجْبَ يأكلُ العمل كما تأكل النار الحطب، فإن عجبت ثانياً وكلتك إلى

(١) من هنا يبدأ خرم في «ب» إلى ذكر توبته.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨١ـ٢٨٢.

(٣) «التوابين» (١٠).

نفسك، فقال: يا رب، أخطأت، ما أعود، قاله أبو بكر الوراق(١).

والخامس: أنه كان يدعو على العصاة ويقول: لا تغفر خطأ الخاطئين. فابتلاه، فلما وقع في الذنب أوحى الله إليه أتحب أن أغفر لك؟ قاله مقاتل بن حيان. وكان يقول بعدُ: إلهي، ارحم العُصَاةَ وارحم داود معهم.

والسادس: كان إذا دخل المحراب لبس أفخر الثياب وتزيَّن بأحسن الزينة فلما ابتلاه الله صار يلبس خَلَق الثياب ويدخل منكسراً، فأوحى الله إلى داود: يا داود، هكذا فكن، كنت تدخل عليَّ دخول الملوك على عبيدهم، والآن تدخل عليَّ دخول العبيد على ملوكهم، أما علمتَ أن خزائني مملوءة من العبادات، فعليك بالذل والانكسار، قاله سهل بن عبد الله التُّستَري.

قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] قال علماء السير: فلما كان اليوم الذي وعده الله أن يبتليَه فيه دخل محرابه وأغلق أبوابه وأقام الحرس الذي ذكرناهم يحرسونه فأحدقوا بالمحراب، وقال: لا يدخلنَّ عليَّ أحد، وشرع في قراءة الزبور والصلاة، وكان في محرابه كوَّة، فرفع رأسه من سجوده وإذا في الكوَّة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، فدخلت من الكوة ووقعت بين يديه، فمدَّ إليها يده فطارت من الكوَّة، فاطلع ينظر أين وقعت وإذا بامرأة تغتسل في بستان إلى جانب بركة، فحار في حسنها، وقال الكلبي: إنما تمثل له الشيطان في تلك الحمامة، وقال مقاتل: حانت منها التفاتة فرأت داود فتجلَّلت بشعرها فغطَّت به بدنها فازداد بها إعجاباً(٢).

وذكر الشيخ الموفَّق رحمه الله في «التوابين» عن قتادة عن الحسن: أنه وقع بين يديه طائر جسده من ذهب وجناحاه من ديباج مكلَّل بالدُّرِّ ومنقاره من زبرجد وقوائمه من

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٢، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٣٠٩ (هجر)، وفي تفسيره: وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات، منها ما هو مكذوب لامحالة، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه.

فيروزج وكان له ابن صغير فقال: والله لو اتخذتُ هذا لابني، وذكر بمعناه[١].

واختلفوا في اسمها:

فقال الضحاك: تشايع بنت حنانا[٢]. وقال السُّدي: شايع بنت شايع.

فأرسل داود إلى منزلها فسأل عنها، فقيل: هي زوجة أُوريا فقال: وأين زوجها؟ قيل: في الغزاة مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود، وكان قد بعثه غازياً إلى البلقاء. فيزعمون أن داود كتب إليه قدِّمْ أُوريا بالتابوت ومن تقدَّم به لا يحلُّ له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد، فبعث به ففتح له، فكتب أيوب إلى داود يعرفه، فكتب إليه: قدِّمه ثانياً وثالثاً، فقدَّمه فقتل. فلما انقضت عدَّتها تزوجها داود. وقال ابن الكلبي: فهي أم ابنه سليمان عليه السلام[٣].

ذكر دخول الملكين عليه

قال وهب: فلما دخل بها لم يلبث أن دخل عليه الملكان في يوم عبادته فجاءةً، فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب، فما شعر بهما إلا وهما جالسان بين يديه. قال مقاتل: فذلك قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾ [ص: ٢٢] لأنهما هجما عليه في محرابه بغير إذنه، وأقام الحرس ولم يكن يومَ الحكومة ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ﴾ وفي معناه قولان:

أحدهما: نحن خصمان.

والثاني: كخصمين أو مثل خصمين، فسقطت الكاف ومثل، وقام الخصمان مقامهما ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ أي: لا تَجُر ولا تخف ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: وسط الطريق، ثم بيَّنا له المراد فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ [ص: ٢٣] وقيل: إن داود قال لهما تكلَّما.

فإن قيل: فكيف أوجب الأخوَّة بين الملائكة ولا مناسبة بينهم لأنهم لا ينسلون؟

---

(١) «التوابين»: (١١).

(٢) في تفسير الثعلبي ٨/ ١٨٦، وعرائس المجالس ٢٨٢: تشايع بنت شايع امرأة أوريا بن حنان.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٢. و«التوابين» ص ٤٣.

فالجواب: إنه على وجه التمثيل لا على وجه التحقيق، لكونهما على طريقة واحدة وجنس واحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠] وقد كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول لجبريل: «يا أخي» فيخاطبه بالأخوَّة.

وقد روي عن الحسن البصري أنه قال: لم يكونا ملكين وإنما كانا أخوين من بني إسرائيل تسوَّرا المحراب. وليس هذا القول بشيء، لأنه كان يحرس محرابه ثلاثة وثلاثون ألفاً، فكيف يتسوَّر عليه رجلان من بني آدم ولا يُعْلَمُون؟ ولأن عامة العلماء على أنهما كانا ملكين.

وقد ذكر أبو حنيفة النُّوبي زيادة على ما ذكر الحسن فقال: اختصما إلى داود فحكم بينهما، وانتبه داود على زلَّته ولم يشعر بذنبه، وهذا حسن.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ واختلفوا في معنى النعاج:

فعامَّة العلماء على أنه كنَّى بالنعاج عن النساء، والعرب تفعل ذلك كثيراً، تورِّي عن النساء بالظباء والبقر والنعاج.

وقال الحسين بن الفضل: لم يكن هناك نعاج ولا بغي، وإنما هذا تعريض للتنبيه والتفهيم لداود. والأول أصحُّ، لأنه من المعاريض.

وقال مجاهد: إنما ذكر هذا العدد لأنه عدد نساء داود. فقال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾[ص: ٢٤].

فإن قيل: كيف جاز لداود أن يحكم ولم يسمع كلام الخصم الآخر؟ فالجواب: أن أحدهما لما ادَّعى على الآخر اعترف له صاحبه، فعند اعترافه قضى عليه، فحذف الاعتراف اكتفاء بفهم السامع ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أي: أيقن وعلم ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: ابتليناه.

وفي سبب تغيُّره ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الملكين أفصحا له بذلك، قاله السدي.

والثاني: أنهما عرجا وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه، فعلم أنهما عَنَياه بذلك، قاله وهب.

والثالث: أنهما نظرا إليه وضحكا أو نظر أحدهما إلى الآخر وضحك ثم عرجا،

فعلم أنَّ الله ابتلاه بذلك، قاله مقاتل[١]. والوجه الأول أظهر، قاله السُّدي.

قال داود للخصم الآخر: ما تقول أنت؟ قال: نعم أريد أن آخذها منه فأُكمِلَ بها نعاجي، قال: وهو كاره؟ قال: نعم، قال: إذن لا ندعك، وإن رُمتَ هذا ضربنا منك هذا وهذه، وأشار إلى أنفه وجبهته. فقال: أنت يا داود أحقُّ أن يُضربَ منك هذا وهذه، حيث لك تسع وتسعون امرأة وليس لأوريا إلا واحدة، فلم تزل تُعَرِّضُهُ للقتل حتى قُتل، فتزوجتَ امرأته. وعرجا فنظر داود فلم ير أحداً فعرف ما وقع فيه[٢].

ذكر ما جرى بعد صعود الملكين

قال ابن عباس في قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾ أي: ابتليناه بما جرى في حق المرأة ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾. قال مقاتل: أي ساجداً، عبَّر بالركوع عن السجود لأنهما بمعنى الانحناء. وقال وهب: غشي عليه فأقام ثلاثاً في غشيته ثم أفاق.

وذكر جدي رحمه الله في «التبصرة» أَنه بقي في سجوده أَربعين ليلة لا يرفع رأسه إلا في وقت صلاة مكتوبة أو حاجة لابدَّ منها، ولا يأكل ولا يشرب، فأكلت الأرض من جبهته، ونبت العشب من دموعه، وهو يقول في سجوده: ربِّ زلَّ داود زلةً أبعد مما بين المشرق والمغرب[٣].

وقال وهب: اتخذ سبع حشايا من شعر وحشاهن رماداً، ثم بكى حتى بلَّها من دموعه، ولم يشرب شراباً إلا ممزوجاً بدموع عينيه، وما رفع رأسه إلى السماء بعد الخطيئة ثلاثين سنة إلى أن مات حياءً من ربه.

ذكر الشيخ الموفق رحمه الله في «التوابين» عن قتادة عن الحسن القصة، قال فيها: إنه لما ضحك الملكُ قال له داود: تظلم وتضحك؟ ما أحوجك إلى قَدُوم يرضُّ منك هذه وهذا ـ يعني جبهته وفاه ـ فقال الملك: أنت أحوج إلى ذلك، وتحوَّلا في صورتهما وعرجا وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه. وعلم داود فسجد أربعين

(١) انظر «التبصرة» ١/ ٢٧٧.
(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٢٧٧.
(٣) «التبصرة» ١/ ٢٧٧.

يوماً[١]. وذكر بمعنى ما ذكرنا.

قال: وكان يقول في سجوده:

سبحان خالق النور الحائل بين القلوب.

إلهي، خلَّيتَ بيني وبين عدوِّي إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي.

سبحان خالق النور الحائل بين القلوب.

إلهي، لم أتعظ بما وَعظتُ به غيري. إلهي، أمرتني أن أكون لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج الرحيم فنسيت عهدك.

سبحان خالق النور.

بأيِّ عين أنظر إليك يوم القيامة وإنما ينظر الظالمون من طرفٍ خفيٍّ.

سبحان خالق النور.

إلهي، الويل لداود من الذنب العظيم الذي أصابه.

سبحان خالق النور.

إلهي، الويل لداود إذا كُشفَ عنه الغطاء فيقال: هذا داود الخاطىء.

سبحان خالق النور.

إلهي، أنت المغيث وأنا المستغيث، فمن يدعو المستغيثُ إلا المغيثَ.

سبحان خالق النور.

إلهي، فررت بذنوبي واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تُخزِني يوم الدين[٢].

وفي غير رواية الشيخ الموفق عن وهب: إلهي، فررتُ بذنوبي واعترفتُ بخطيئتي، وزلَّ داود زلة أبعد مما بين المشرق والمغرب، فإن لم تغفر له صار حديثاً بين الخلق.

سبحان خالق النور.

---

(١) «التوابين» (١٢).

(٢) انظر «التوابين» (١٢).

إلهي، تبكي الثكلى على ولدها إذا فقدته، وأنا أبكي على خطيئتي.

سبحان خالق النور.

إلهي، الويل لداود مما جنى إذا كُشفَ عنه الغطاء.

سبحان خالق النور.

الويل لداود إذا نُصبت الموازين واقتصَّ للمظلومين من الظالمين. الويل له إذا سحب على وجهه مع الخاطئين. إلهي، يُغسلُ الثوب فيذهب درنه والخطيئة لازمة لداود.

سبحان خالق النور... في مناجاة كثيرة.

فإن قيل: فلم خصَّ النور بالذكر دون غيره؟ فالجواب: لأنه لما وقع في ظلمة الذنب وعدم نور الهداية توسَّلَ بالنور إلى النور يستضيء به في ظلمات ذنبه.

ولما علم نبينا ﷺ أن فقدان نور الطاعة كان سبباً لوقوع داود في الزلة كان يكثر من ذكر النور فيقول: «اللهمَّ اجعَل في قَلبي نُوراً، وفي سَمعي نُوراً، وفي بَصَري نُوراً»[(١)] الحديث.

وكذا لما دخل عليه وفد عبد القيس، وفيهم غلام أمرد، قال له رسول الله ﷺ: «قم واقعد خلفي» فقيل له في ذلك، فقال: «وهل كانت فتنة داود إلا من النظر»[(٢)]؟. هذا وقد كان ﷺ ينظر من ورائه كما ينظر من بين يديه[(٣)]، لكن هذا قدر ما أوجبه الاحتياط عليه، والسعيد من وُعِظ بغيره.

فإن قيل: فإذا كان نبينا ﷺ ينظر من خلفه كما ينظر من بين يديه فأي فائدة في قوله: «كن خلفي»؟ قلنا: نظره من بين يديه نظر طبع، وهو مشوب بما يشتهي الإنسان ويريده، ونظره من خلفه نظر معجز، وهو مقرون بالتأييد.

قلت: وهذا الذي ذكرناه في أقاويل السلف في سبب امتحان الله داود. وقد أنكر من يقول بتنزيه الأنبياء هذا واحتجوا بما روى الحارث الأعور عن عليٍّ عليه السلام أنه قال: من حدَّث بحديث داود معتقداً صحَّته، جلدته حَدَّين لعظم ما ارتكب، وجليل ما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٦) ومسلم (٧٦٣) من حديث ابن عباس.

(٢) حديث موضوع، انظر الكلام عليه في سلسلة الأحاديث الضعيفة ١/ ٤٨٣.

(٣) انظر «البخاري» (٤١٩)، و«مسلم» (٩٨٥).

احتقب من الإثم، وَرَمْي من قد رفع الله محلَّه وجعله رحمة للعالمين وحجة للمهتدين[١].

قالوا: وإنما كان ذنب داود أنه تمنى أن تكون له امرأة أوريا حلالاً، وحدَّث نفسه بذلك، واتفق أنه غزا أوريا من غير قصد داود، فلما بلغه قتله لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده إذ هلك، ثم تزوَّج امرأته، فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله[٢].

وقال بعضهم: كان ذنب داود أنَّ أوريا كان خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها، فلما غاب في غزاته خطبها داود فتزوجته، فاغتمَّ أوريا غمّاً شديداً، فعاتبه الله على ذلك، حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأول وعنده تسع[٣] وتسعون امرأة[٤].

وقد أشار جدي رحمه الله في «تفسيره» وفي «المنتظم» إلى هذا وقال: ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء[٥]. وأقرب ما في القصة أن أوريا خطب تلك المرأة ثم خطبها داود فتزوجها فعتب الله عليه حيث لم يدعها لخاطبها.

قلت[٦]: وفصل الخطاب في هذا الباب أن الذي فعله داود عليه السلام لم يكن كبيرةً يعاقب عليها بل صغيرة. غاية ما في الباب أنه نظر إلى المرأة غير متعمد، وكذا أمره لأوريا بالقتال، والأنبياء غير معصومين من الصغائر، وإنما ذنوبهم وإن صغرت فهي عظيمة عند الله، ألا ترى أن آدم لم يسامح في لقمة حتى نوديَ إلى يوم القيامة ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾. وأما رواية الحارث الأعور عن عليٍّ عليه السلام فالحارث كذَّاب باتفاق المحدثين، ولو ثبت كان معناه أنه ارتكب كبيرة.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٤.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٤.

(٣) هنا ينتهي الخرم في (ب) المشار إليه في محنة داود.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٤.

(٥) «زاد المسير» ٧/ ١١٦ـ١١٧، والتبصرة ١/ ٢٧٥، ولم نقف عليه في «المنتظم».

(٦) في (ب): قال المصنف رحمه الله.

ذكر توبته عليه السلام

قال علماء السير: ولما أقام على تلك الحالة أربعين يوماً جاءه النداء: يا داود، أجائع فتُطعَم، أو عطشان فتُسقَى، أو مظلوم فتُنصَر، ولم يجبه في خطيئته بشيء، فصاح صيحةً هاج ما حوله ثم قال: يا رب، الذنب الذي أصبتُه. فنودي ارفع رأسك فقد غُفِرَ لك، فلم يرفعه حياء حتى جاء جبريل فرفعه(١).

وروى قتادة عن الحسن والثعلبي عن كعب الأحبار ووهب بن منبه قالوا: لما قال الله تعالى لداود: ارفع رأسك فقد غفرت لك قال: يا رب، وكيف وأنت لا تظلم أحداً؟ قال: اذهب إلى قبر أوريا فنادِهِ وأنا أُسْمِعُهُ نداءك فتحلَّلْ منه، فانطلق داود حتى أتى قبره وقد لبس المسوحَ فناداه يا أوريا، فقال: لبيك من هذا الذي قطع عليَّ لذتي وأيقظني من رقدتي؟ قال: أنا داود، قال: نبيُّ الله؟ قال: نعم. قال: وما الذي جاء بك؟ قال: أسألك أن تجعلني في حِلٍّ مما كان مني إليك، قال: ما هو؟ قال: عرَّضتك للقتل؟ قال: عرَّضتني للخير، أنت في حلٍّ من دمي. فأوحى الله إليه: يا داود، ألم تعلم أني حَكَمٌ عدل لا أقضي بالتغرير، هلا أخبرته بأنك تزوجت بزوجته؟ فرجع فناداه فقال: من أنت؟ فقال: داود، قال: أوليس قد جعلتك في حل من دمي؟ قال: بلى ولكن إنما بعثتك للغزاة لمكان امرأتك مني وإني قد تزوجتها، فسكت ولم يجبه، فناداه مراراً ولم يجبه، فقام داود وحثا التراب على رأسه، ونادى بالويل والثبور، ثم بكى بكاء شديداً، فناداه منادٍ من السماء: يا داود، قد رحمنا بكاءَك وتضرعك وقد غفرنا لك ذنبك. فقال: يا رب، وكيف لي بأوريا؟ فقال الله تعالى: أعطيه يوم القيامة ما لم تر عيناه ولم تسمع أذناه، فيقول: يا ربِّ، من أين لي هذا ولم يبلغه عملي؟ فأقول: هذا عوضٌ من أجل عبدي داود وأستوهبك منه فيهبك لي. فقال: يا رب الآن علمتُ أنك قد غفرت لي(٢). قال الحسن فذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾[ص: ٢٥] يعني الذنب ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ بعد المغفرة ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي قربة ومنزلة ﴿وحسن مآب﴾[ص: ٢٥]

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٨٣. و«عرائس المجالس» ص ٢٨٦.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٦_٢٨٧. و«التوابين» ص ٤٦.

أي: مرجع.

وقال الثعلبي بإسناده عن وهب بن منبه قال: إن داود لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا ترقأ له دمعة ليلاً ولا نهاراً، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة، قسم الدهر أربعة أقسام ـ أو أربعة أيام ـ فيوم للقضاء بين بني إسرائيل، ويوم لنسائه، ويوم يَسِيحُ في الفيافي والجبال والسواحل، ويوم يخلو في دار له فيها أربعة آلاف محراب فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه ويساعدونه على ذلك.

فإذا كان يوم سياحته يخرج إلى الفيافي فيرفع صوته بالمزامير ويبكي فتبكي معه الجبال والحجارة والشجر والرمال والطير والوحش حتى تسيل من دموعهم الأنهار، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته بالمزامير فيبكي وتبكي معه الجبال والحجارة والدواب والسباع وحيتان البحر وطيور السماء، فإذا أمسى رجع.

فإذا كان يوم نَوْحه على نفسه نادى مناديه: إن اليوم يوم نَوْح داود على نفسه، فليحضر من يساعده. قال: ويدخل الدار التي فيها المحاريب فتبسط له ثلاث فرش من حصير مسوح حشوها ليف، فيجلس عليها، ويجيء الرهبان أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وبأيديهم العصي فيجلسون في تلك المحاريب، ثم يرفع داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه، ويرفع الرهبان أصواتهم فلايزال يبكي حتى تغرق الفرش من دموعه ويقع داود مثل الفرخ يضطرب، فيجيء ابنه سليمان فيحمله، فيأخذ داود بيده أو بكفيه من دموعه فيمسح بها وجهه ويقول: يا رب، اغفر لي ما ترى، فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدنيا لعدله(١).

وفي رواية الوالبي عن ابن عباس قال: كان داود إذا جلس للنياحة على نفسه ينوح فتموت طائفة من الرهبان، ثم ينوح فتموت طائفة من الوحوش، ثم ينوح فتموت طائفة من الطيور والدواب، ثم ينوح فتموت طائفة من الناس، فيقول له ابنه سليمان: يا أبت، قتلت الخلائقَ، فيقع مغشياً عليه وينادي مناديه: ألا مَنْ كان له مع داود أخ أو قريب أو ولد فليأتِ بنعش يحمله عليه، فتأتي الناس بالنعوش، تأتي المرأة فتحمل

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٧ـ٢٨٨.

ولدها، والأخ فيحمل أخاه، ثم يُحمَلُ داود فيلقى في بيت مظلم على الرماد، فإذا غربت الشمس جاءَ سليمان فيقول: يا أبت، أفطر الصائمون أما آن لك أن تفطر؟ فيؤتى بقرص من شعير وقدح من ماء فلا يشربه حتى يُفيضَه من دموعِهِ.

وقد ذكر جدي رحمه الله في «التبصرة» بمعناه وأسنده عن يحيى بن أبي كثير قال: بلغنا أنه إذا كان يوم نَوْح داود، مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب، فإذا كان قبل ذلك بيوم أُخرِجَ له منبرٌ إلى البرية، ونادى في الجبال والغياض والصوامع ونحوها فتأتي الهوام والوحوش والرهبان والعذارى، فيصعد المنبر ويقف سليمان على رأسه، ويأخذ في الثناء على ربه فتموت طائفة من الناس، ثم يأخذ في ذكر الموت فتموت طائفة، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت طائفة من الناس، ثم يحمل على سريره إلى بيت عبادته ويقول: أين فلان وأين فلان؟ فيقول سليمان: ماتوا، فينادي: أغضبان أنت على داود إله داود؟ أم كيف قصرت به أن يموت خوفاً منك(١).

وروى الثعلبي عن جعفر بن محمد قال: سمعت ثابتاً يقول: ما شرب داود شراباً بعد المغفرة إلا ونصفه ممزوج بدمع عينيه.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن عثمان بن أبي العاتكة قال: كان من دعاء داود: إلهي، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت عليَّ الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك عادت إليَّ روحي. إلهي، أتيتُ أطباء عبادك ليداووا لي خطيئتي فكلهم دلُّوني عليك(٢).

وروى الثعلبي أيضاً عن الأوزاعي قال: بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال: «خَدَّ الدَّمعُ في وَجهِ داودَ خديدَ الماءِ في الأرض».

وروى الثعلبي أيضاً عن الحسن بن عبد الله القرشي قال: لما أصاب داود الخطيئةَ فرغ إلى العبادة، فأتى راهباً في قُلَّةِ جبل، فناداه بصوت عال فلم يجبه، فلما أكثر عليه قال الراهب: من الذي يناديني؟ قال: أنا داود نبيُّ الله، قال: صاحب القصور الحصينة والخيل المسوَّمة والنساء والشهوات؟ لئن نلت الجنة بهذا لأنت أنت. قال داود: فمن

---

(١) «التبصرة» ١/ ٢٧٨.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨.

أنت؟ قال: راهب راغب مترقب، قال: فمن أنيسك ومن جليسك؟ قال: اصعد تره. قال: فصعد الجبل حتى صار في قلته، وإذا بميت مسجًّىً بين يدي الراهب، فقال: من هذا؟ فقال: هذا ملك قصَّته مكتوبةٌ في لوح من نحاس عند رأسه، قال: فقرأ داود عليه السلام الكتاب فإذا فيه: أنا فلان بن فلان ملك الأملاك عشت ألف عام، وبنيتُ ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، وأحصنت ألف امرأة، وافتضضت ألف عذراء، فبينما أنا في ملكي أتاني ملك الموت فأخرجني مما أنا فيه، فالتراب فراشي، والديدان جيراني، فخرَّ داود مغشيّاً عليه.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ النَّاسُ يعُودُون داودَ ويظنُّونَ أنَّه مريضٌ، وما به مَرضٌ إلا الحَياءُ والخَوفُ مِنَ اللهِ».

قال: وقال وهب: لما تاب الله على داود كان يبدأ إذا دعا للخاطئين ويستغفر لهم قبل نفسه.

وقال الثعلبي بإسناده عن قتادة عن الحسن قال: كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين ويقول: تعالوا إلى داود الخاطىء، ولا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه. وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعته ولا يزال يبكي عليه حتى يبتلَّ بدموعه ويذرُّ عليه الملح والرماد ويقول: هذا طعام المذنبين الخاطئين، ثم يأكل[(١)].

قال الحسن: وكان داود قبل الخطيئة يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف الليل فلما كان من خطيئته ما كان، صام الدهر كله وقام الليل كله[(٢)].

قال إسحاق بن بشر بإسناده عن وهب بن منبه: إن داود لما تاب الله عليه قال: يا رب، غفرت لي؟ قال: نعم، قال: فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فأستغفر منها لي وللخاطئين؟ قال: فوسم الله خطيئته في كفه اليمنى، فما رفع بها طعاماً ولا شراباً إلا بكى إذا رآها، وما قام خطيباً في الناس إلا بسط راحته فاستقبل بها الناس ليروا خطيئته[(٣)].

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨.
(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨-٢٨٩.

وروى الثعلبي أيضاً عن عبد الرحمن الهذلي قال: ما رفع رأسه إلى السماء بعد خطيئته حتى مات.

وقال الثعلبي: كان إذا قرأ الزبور بعد الخطيئة لا يقف له الماء ولا تصغي إليه البهائم والوحش والطير كما كانت قبلها، ونقصت نغمته فكان يقول: بحَّ صوتي. فقال: يا إلهي، ما هذا؟ فأوحى الله إليه يا داود، خطيئتك هي التي غيَّرت صوتك وحالك، قال: يا رب، أليس قد غفرتَها لي؟ قال: بلى، ولكن ارتفعت الحالة التي كانت بيني وبينك من الودِّ والقربة فلا تدركها أبداً[١]. وفي رواية: أما الذنب فقد غفرته، وأما الودُّ فلا يعود.

وحدثنا جدي رحمه الله بإسناده عن مجاهد قال: كانت خطيئته في كفِّه مكتوبة، فسجد حتى نبت من البقل ما وارى أذنيه أو رأسه، ثم نادى: يا ربِّ، قرح الجبين وجمدت العين وداود لم يرجع إليه في ذنبه شيء، فنودي: أجائع فتطعم، أم عار فتكسى، أم مظلوم فَيُنْتَصَرُ لك؟ فلما رأى أنه لم يرجع إليه في ذنبه شيء نحب نحبة فهاج ما ثَمَّ[٢]. وفي رواية: فأحرق ما حوله بنفسه.

وقال أهل السير: كان له جاريتان قد أعدهما، فكان إذا جاءه الخوف سقط واضطرب، فقعدتا على صدره ورجليه مخافة أن تتفرَّق أعضاؤه.

فإن قيل: فما فائدة التوبة مع هذا البكاء والقلق والخوف، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن فائدتها غفران الذنب ومسامحة أوريا وتهذيب داود.

والثاني: أن الندم توبة لهذه الأمَّة خصَّها الله به، ولهذا إن الذين عبدوا العجل ندموا فلم ينفعهم الندم حتى أمرهم الله بأن يقتل بعضهم بعضاً.

والثالث: أن بكاءَه وتناجيه المرَّ وقلقه بعد التوبة إنما كان أسفاً على ما فاته من المودة والمواد الإلهية، ألا ترى أن خطيئته أَثَّرَتْ في صوته وفي كون الماء لم يقف عند

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٨.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «التبصرة» ١/ ٢٧٧ـ٢٧٨.

قراءته الزبور، ولأن الوحش لم تعد تصغي إليه كما كانت، ولما شكا إلى الله أوحى إليه: خطيئتك أسقطت منزلتك عندنا وعند الخلق، ورفعت الحالة التي كانت بيننا، فكان بكاؤه على تلك الحالة.

فإن قيل: فلم أَخَّرَ توبته ثلاثين سنة أو أربعين على ما قيل؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أراد تعظيم الذنب في عينه وأعين الناس بإغلاق باب التوبة أربعين سنة.

والثاني: أنه كان يحب أن يسمع أنينه وبكاءه، وفي بعض الكتب: أنين المذنبين أحبُّ إلينا من صياح الصديقين أو وَجَلِ المسبحين.

والثالث: خصمه كان ميّتاً فعظَّم الذنبَ ليزجر العباد عن أذى الخصوم.

وقال مقاتل: نظر يوماً إلى حمامة تغرِّد على غصن فبكى، قال: يا حمامة، قدكنتُ قبل الخطيئة أفهم ما تقولين أما اليوم فلا، فما زالت الحمامة تضرب بجناحيها ومنقارها الأرض حتى خرج الدمُ من حلقها وماتت.

وقال مقاتل: كان داود يستغفر للخاطئين، فقال الله تعالى: بالأمس تقول: لا أستغفر لهم، قال: يا ربِّ، فبأي الأدعية أتقرب إليك؟ فقال: ادعني بياحبيبَ البكائين.

وقال أبو سليمان الداراني: ما عمل داود عليه السلام عملاً كان أنفعَ له من خطيئته، مازال منها خائفاً هارباً حتى لحق بربه. قالوا: وهذا معنى قولهم: «رُبَّ ذنبٍ أدخلَ صاحبه الجنة».

وذكر مقاتل بن سليمان في «المبتدأ» له عن وهب بن منبه أنه قال: إذا دخل الجنةَ أهلُها وُضِعَ لداود منبرٌ في النور من نور، في أعلى درجة في الجنة، ويقول الله: يا داود، قم احمدني في الجنة بصوتك الرخيم كما كنت تفعل في دار الدنيا، فيقوم فيحمد الله تعالى بمحامد يقول: الحمد لله الذي لا يقدر قدرَهُ المتفكرون، والحمد لله الذي لا يُحصي نِعمَه العادُّون، والحمد لله الذي لا يبلُغ مدحَه المادحون، والحمد لله الذي لا يؤدِّي حقَّه المجتهدون. فإذا رفع داود صوته استفرغ نعيم أهل الجنة، قال: وعن يمين المنبر قباب من اللؤلؤ، فيقول داود: يا ربِّ، من يسكنُ هذه القباب؟ فيقول الله تعالى: من يتواضع لعظمتي، ويقضي زمانه بذكري، ويكف نفسه عن الشهوات لأجلي، يطعم

الجائع، ويكسو العاري، ويؤوي الغريب، ويجبر المكسور، ويرحم المصاب، فذلك الذي يضيء نوره في الناس كالشمس، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، أكلؤه بقوَّتي وأحفظه بمنتي[١]، وأوكل به ملائكتي.

فصل في السجدة

وسجدة «صٓ» سجدةُ تلاوةٍ، وبه قال الحسن والثوري ومالك وأبو حنيفة.

وقال الشافعي: هي سجدة شكر. وعن أحمد كالمذهبين.

وثمرة الخلاف: لو تلاها في الصلاة وغيرها سجدها عندنا، وعندهم لا يسجد، واحتجوا بما روى النسائي عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في«صٓ» وقال: «سَجَدَها دَاودُ توبةً ونَسجُدُها شُكراً»[٢].

وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال: قرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر سورة «صٓ» فنزل وسجد، فسجد الناس معه، فلما كان في الجمعة الثانية قرأها فتشزَّن الناس للسجود، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما هِيَ تَوبةُ نَبيٍّ ولَكن رأيتكم تشزَّنتم للسجود فسجدت»[٣]. ومعنى تشزَّن أي: تهيَّأ وانتصب.

وأما قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا﴾[ص: ٢٤] أي: ساجداً.

وأما سجود النبي ﷺ فحجة لنا، وقوله: «ونحن نسجدها شكراً» لا يدلُّ على أنها لا تجب، لأنها سبب وجوب الإنعام على داود ولنا به أسوة. وقوله ﷺ: «رأيتكم تشزنتم فسجدت» يدل على الوجوب إذ لو لم تكن واجبةً لما سجد.

فصل في طاعون وقع في زمان داود

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أحمد بن المبارك بإسناده

---

(١) في «ب»: بمشيئتي.

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٩).

(٣) أبو داود (١٤١٠).

عن وهب بن منبه قال: لما تاب الله على داود، حَسُنَ حالُ بني إسرائيل، وفشت فيهم العافية، وكثروا حتى ملؤوا الشام، وضاقت بهم فلسطين وما حولها، فعجب داود من كثرتهم، وأمر بعدِّهم فلم يقدروا على ذلك، فأوحى الله إليه: ألم تعلم أني وعدتُ أباك إبراهيم يوم أمرته بذبح ولده إسحاق فأطاعني أن أنمي ذريته حتى يكونوا عددَ نجوم السماء وأكثر، ولا يحصيهم العدد، فلما علمتَ أني منجزٌ له ما وعدته ذهبتَ تختبرني، أو ظننت أني مخلف وعدي؟ وإني أقسمت بعزتي لأبتلينهم بثلاثة تُقِلُّ عددهم، فخيِّرهُمْ بين أن أبتليهم بالقحط ثلاث سنين، وبين أن أسلِّط عليهم العدوَّ شهرين، وبين أن أسلط عليهم الطاعون ثلاثة أيام، فجمعهم داود وخيَّرهم فقالوا: أنت نبيُّنا فاختر لنا، فقال: أما الجوعُ فبلاءٌ فاضح ولا صبر لأحدٍ عليه، وأما العدوُّ فإن اخترتموه فلا بقيَّة لكم، والموت أعز، فخرج بنو إسرائيل إلى موضع البيت المقدَّس يسألون الله كَشْفَ الطاعون عنهم، فاتخذ داود ذلك الموضع مسجداً[١].

وقال ابن الكلبي: كان ذلك لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، وتوفي قبل أن يتم بناؤه، فأوصى بذلك إلى سليمان، لما نذكر.

وفي رواية عن وهب: فأمرهم أن يتجهَّزوا، فاغتسلوا وتحنَّطوا ولبسوا الأكفان، وبرزوا إلى موضع بيت المقدس بالذراري والأهلين، وضجُّوا إلى الله تعالى ضجَّةً واحدة، وارتفع داود على صخرة بيت المقدس، ولم يكن هناك مسجد، يدعو ويتضرَّع، فأرسل الله عليهم الطاعون يوماً وليلة تَحِلَّة القسم، فمات منهم خلق كثير، ثم كشفه الله عنهم، فقال لهم داود: هذا صعيد مبارك ابنوا فيه مسجداً لله تعالى، فبنوا لما نذكر.

وقد أخرج أحمد في «المسند» بمعناه فقال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي بإسناده عن صهيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى همس شيئاً لا أفهمه ولا يخبرنا به ثم قال: «أوَظننتم بي»؟ قلنا: أجل، فقال: «إني ذكرتُ نبياً من الأنبياء أُعطِيَ جُنُوداً من قَومِهِ فقالَ: من يكافىءُ هؤلاء، أو من يقوم لهؤلاء، أو غَيرَها من الكلامِ، فأوحى اللهُ إليه اخترَ لِقومِكَ إحدى ثلاث: إمَّا الجوعُ، وإما العدوُّ وإما الموتُ، فاستشار قومه في ذلك، فقالوا: أنتَ نبِيُّ اللهِ فاختَر لنا فالكلُّ إليك، فَقامَ إلى صَلاتِهِ وقال: إلهي، أمَّا عَدوٌّ من غَيرِهم فلا، وأمَّا

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٨٤-٤٨٥، وعرائس المجالس ٣٠٩.

الجوعُ فلا، ، ولكِن الموت، فماتَ منهم سبعُونَ ألفاً، فهَمسِي الذي ترون أني أقول: اللهمَّ بِكَ أُقاتِلُ، وبِكَ أُصَاوِلُ، ولا حَولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ»[1].

فصل في حوادث قضى بها داود فاستدرك عليه سليمان

منها قصة الزرع والغنم

حدثنا أبو عبد الله محمد بن البناء الصوفي البغدادي بإسناده إلى أبي الفضل ابن خيرون وأبي طاهر الباقلاوي قالا بإسنادهما عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾[الأنبياء: ٧٨] أي: رعت ليلاً بغير راع، قال: تقدَّم رجلان إلى داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا سلط غنمه على حرثي فلم تُبْقِ منه شيئاً، فقال داود: اذهب فلك رقابُ الغنم، فقضى داود بذلك، فمرَّ صاحب الغنم على سليمان وهو صغيرٌ ابن إحدى عشرة سنة فقصَّ عليه القصة، فدخل عليه وقال: يا أبت، إنَّ القضاء غير ما قضيت به، قال: وكيف؟ قال: أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بها طول العام فيأخذ أولادها وأصوافها وألبانها، وتدفع الأرض إلى صاحب الغنم فينتفع بها طول العام، فإذا انقضى الحول دفعت ـ أو رددت ـ إلى هذا غنمه وإلى هذا أرضه، فقال داود: أصبتَ الحكم والقضاءَ. قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[2].

وقال قتادة: لم يكن بين ثمن الحرث وثمن الغنم تفاوت فلهذا قضى به داود.

وقال ابن مسعود وشريح: إنه كان كرماً قد نبتت عناقيده[3].

وقال الفراء: النَّفْشُ أن ترعى الغنم ليلاً والحمل نهاراً والكل بغير راع.

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧٨] أي: لا يخفى علينا من أمرهم.

فإن قيل: فهما اثنان، فلم جمع بقوله: «لحكمهم»؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: ما ذكرنا أن الاثنين جمع، وبه قال أبو يوسف.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٩٣٧)، وجاء بعدها في (ب): فصل في وفاة داود عليه السلام.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٤٨٦ ـ٤٨٧. وانظر «عرائس المجالس» ص ٢٩١.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٩١.

والثاني: أن الإشارة إلى داود وسليمان والخصوم. والأول أصحُّ، لأن الخصوم لا حكم لهم ولا قضاء. ودلَّت الآية على أن كل مجتهد مصيب، والحق عند الله واحد، وفيه خلاف عند المعتزلة.

وقد اختلف الفقهاء في هذه المسألة: فعند أبي حنيفة لا ضمانَ على صاحب الغنم سواء كان ليلاً أو نهاراً إذا لم يرسلها، لأنه لا يوجد منه سبب الضمان.

وقال الشافعي وأحمد: يجب الضمان على صاحبها. واحتجَّا بما روى الزهري قال: دخلت ناقة للبراء بن عازب حائطاً لبعض الأنصار فأفسدته، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقضى على البراء بما أفسدته الناقة وتلا هذه الآية، وقال: «وعلى أصحَابِ الماشِيَةِ حِفظُ ماشِيتِهم بالليل، وعلى أصحابِ الحَوائِطِ حِفظُ حوائِطِهم بالنَّهارِ وحِفظُ زَرعِهِم»[١]. والجواب من وجوه:

أحدها: أنه أرسلها ويجب الضمان بالاتفاق.

والثاني: أنه منقطع لأن الزهري لم يلق البراءَ بن عازب.

والثالث: لأنه يخالف الأصول، أو يُحمل [على] أنه خاص في هذه الواقعة.

ومنها قصة الصبي

وقال أحمد: حدَّثنا يونس بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خَرجت امرأتَان ومعهُما صبيَّان، فَعَدا الذِّئبُ على أحدِهما، فأخَذَتا تَختصِمَان في الباقي فاحتكَمَتا إلى دَاودَ، فقضى به للكُبرَى، فمرتا على سُلَيمانَ فقالَ: كيفَ أمرُكُمَا؟ فَقصَّتا عليه القِصَّةَ فقالَ: الحكمُ غَيرُ هذا، ايتُوني بِسكينٍ أشقُّهُ بينهُمَا، فَقالت الصُّغرى: أتشقهُ؟ قال: نعم، قَالت: لا تفعَل، قد وهبتُ حَظِّي مِنهُ لها». وفي رواية: إنَّ داود حكم بأن يبقى الولد عند كل واحدة سنة. وفي رواية: أنه هو ابنها فقال لها: هو ابنك، فقضى به للصغرى. متَّفق عليه. قال أبو هريرة: والله إنْ سمعتُ السكين إلا يومئذٍ، ما كنا نقول إلا المدية[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٨٢٨٠)، والبخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠).

وقال الزهري: كلاهما حكم بالاجتهاد وإنما لسليمان فطنة.

وقال ابن سيرين: كان قضاؤهما بطريق الاجتهاد، ولم يكن نصّاً، لأنه لو كان نصّاً لم يختلفا فيه.

وقال الحسن البصري: لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا، ولكن الله أثنى على سليمان لصوابه وعلى داود لاجتهاده[١].

ومنها: ما رواه مجاهد قال: شهد أربعة على امرأة بالزنى فرجمها داود، وبلغ سليمان، وكان ابن سبع سنين، فقال: عليَّ بالشهود، فجيء بهم فسألهم سليمان متفرقين فاختلفت أقوالهم، وبلغ داود فأمر بقتلهم.

فصل في وفاة داود عليه السلام

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ في داودَ غيرةٌ شدِيدَةٌ، وكَانَ إذا خَرَجَ مِن دَارِه أَغلَقَ الأبوابَ، فلم يدخُل على أهلِهِ أحدٌ حتى يَرجِعَ، فَخَرجَ ذاتَ يَوم وقد أَغلَقَ الأبوابَ، فأقبَلت امرأتُه تَطَّلعُ في الدَّارِ، فإذا رجلٌ قائم وسَطَ الدَّارِ، فقالت لمن معها في الدَّارِ: من أين دَخلَ هذا الرجلُ والأبوابُ مُغلقةٌ؟ واللهِ لَتُفتَضَحَنَّ مع دَاودَ. وجاء دَاودُ فوجَدَ الرَّجلَ قائماً فقالَ: من أنت؟ قال: من لا يَهابُ الملوكَ ولا يمتنِعُ منه الحُجَّابُ، قال: فأنتَ إذن مَلَكُ الموتِ، قال: نعم، قال: مرحَباً بأمرِ اللهِ، فزمَّلَ مكانَهُ حتى قبضَهُ، فقال سُليمانُ للطَّيرِ: أظلِّي على دَاودَ، فأظَلَّتْ عليه حتى أظلمَت الدُّنيا، فقال لها سليمان: اقبِضِي جَناحَاً جَناحَاً» ـ قال أبو هريرة: يُرينا رسول الله ﷺ كيف فعلت الطير، وقبضَ رسولُ اللهِ ﷺ يده ـ وغَلَبَتْ عليه يومئذ المَضْرَحِيَّة[٢].

فقال الفراء: هي النسور الحمر.

وقال الجوهري: المَضْرَحيُّ، بالضاد المعجمة والحاء المهملة، الصقر الطويل الجناح[٣].

---

(١) انظر «زاد المسير» ٥/ ٣٧٢. والآية المقصودة: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٤٣٢). وفيه المصرحية بالصاد المهملة، وشرح عليه السندي فقال: اسم فاعل من التصريح غلبت عليه صفة التصريح والإيضاح في البيان حتى يوضح المرام بالكلام ويستعين عليه بالإشارة باليد. اهـ. والله أعلم.

(٣) «الصحاح»: (ضرح).

وقال ابن المسيب: توفي داود عليه السلام يوم السبت فعكفت عليه الطيور تظلِّله، وكان داود يُسْبِت.

وقال مجاهد: مات يوم الأربعاء، والأول أشهر.

وقال أبو السكن الهجري: وقيل: مات إبراهيم الخليل وداود عليهما السلام فجأة، وكذا الصالحون، وهو تخفيف على المؤمن وتشديد على الكافر.

وقال وهب: دفن بالكنيسة المعروفة بالجسمانية شرقي بيت المقدس في الوادي.

وقال ابن عباس: شيَّع جنازته أربعون ألف راهب.

وفي «التوراة»: كان ملكه على فلسطين والأردن ونواحيها، وكان في عسكره ستون ألف مقاتل.

واختلفوا في سنِّه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عاش سبعاً وسبعين سنة، ملك منها أربعين سنة، وكذا هو في «التوراة».

والثاني: مئة وأربعين سنة، حكاه أبو إسحاق الثعلبي[١].

والثالث: مئة سنة، وهو الأصح على ما نطق به الحديث الذي ذكرناه في وفاة آدم، وأنه وهب لداود أربعين سنة، وأنه رجع فيها، فأتمَّ الله لداود المئة[٢]. وكذا قال جدي في «أعمار الأعيان»: إنه عاش مئة سنة. قال: وكذا عبد المنعم بن إدريس وسُويد بن سعيد وأحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي[٣].



(١) في «عرائس المجالس» ص ٢٩٤: مئة سنة.
(٢) انظر توبة آدم.
(٣) «أعمار الأعيان» ص ٩١.

فَصْلٌ في لقمَان الحَكيم[(١)]

وإنما ذكرته هنا لأنه كان في زمان داود.

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: لقمان بن عبقر بن مَرْيَد بن صادق بن النبوت، من أهل أَيلة، ولد على عشر سنين خلت من أيام داود، قاله وهب بن منبه.

والثاني: هو لقمَان بن باعور بن لبان من ولد آزر أبي إبراهيم الخليل عليه السلام.

والثالث: لقمان بن عنفاء قاله مقاتل.

وقال ابن قتيبة: واسم أمه: ثارات[(٢)] بالثاء المنقوطة بثلاث.

وقيل: كان ابن أخت أيوب عليه السلام.

وقيل: ابن خالته[(٣)].

وحكى الثعلبي عن ابن المسيب: أنه كان عبداً أسود عظيم الشفتين، مشقق القدمين، من سودان مصر، ذا مشافر، وكان يُلقَّى الحكمة[(٤)].

وقال الربيع: كان عبداً نوبيّاً اشتراه رجل من بني إسرائيل بثلاثين ديناراً ونصف دينار، والرجل يقال له: القين بن جبير. وروي: أنه كان عبداً لقصَّاب.

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله من كتاب «التوابين» قال: حدثنا المبارك بن علي الصيرفي بإسناده عن جبير[(٥)] أبي جعفر قال: كان لقمان الحكيم الحبشي عبداً لرجل جاء به إلى السوق ليبيعه، فكان كلما جاء إنسان يشتريه يقول له لقمان: ما تصنع بي؟ يقول: كذا وكذا، فيقول: حاجتي إليك ألَّا تشتريني، حتى جاء

---

(١) انظر قصته في: تفسير الثعلبي ٧/ ٣١٢، و«عرائس المجالس» ص ٣٥٠ـ٣٥٤، و«تفسير البغوي» ص ١٠١١، و«زاد المسير» ٦/ ٣١٧ـ٣١٨، و«الدر المنثور» ٥/ ١٦٠ـ١٦٥.

(٢) في «المعارف» ص٥٥: واسم أبيه ثاران.

(٣) في (ط): خاله.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١.

(٥) في «التوابين» ص ١١٠: حسن، وليس في (ب)، والمثبت من (ط).

رجل فقال: ما تصنع بي؟ قال: أصيِّرك بواباً على باب داري، قال: فاشترني، فاشتراه وجاء به إلى باب داره، فأقعده على الباب، وكان للرجل ثلاث بنات بغايا يبغين في القرية، فأراد مولاه الخروج إلى ضيعة له فقال: يا بني، إني قد أدخلتُ إليهنَّ طعامهن وشرابهن وما يحتجن إليه فأغلِقِ الباب واجلسْ من ورائه لا تفتحه حتى أعود، وغاب سيِّدُه فأَغلق الباب عليهن، وكان يقعد طول النهار على الباب فينادينَه: افتح الباب، فلم يفتح، فنادينه ثانياً وثالثاً فلم يفتح فشججنه مُوضِحَةً، فغسل الدم عن وجهه فعُدْنَ فشججنَه فلم يفتح، وقدِمَ سيِّده فلم يخبره بشيء، فعاد سيده فغاب، ففعلْنَ به كما فعلن في الأول، وقدم سيده فلم يخبره بشيء. ثم غاب سيده ثالثاً وفعلْنَ به كما فعلْنَ في المرة الثانية، وقَدِمَ مولاه فلم يخبره بشيء، فقالت الكبرى: ما بال هذا العبد الحبشي أولى بطاعة الله عز وجل مني، والله لأتوبن. قال: فتابت. فقالت الوسطى: ما بال هذا العبد الحبشي وأختي أولى بالتوبة مني، فتابت. وقالت الصغرى كذلك وتابت. فقالت غواة القرية: ما بال هذا العبد الحبشي وبنات فلان أولى بطاعة الله منا. فتاب الرجال والنساء وصاروا زهاداً عباداً[١].

وقال الواقدي: كان لقمان قاضياً في بني إسرائيل يسكن ببلد أَيلَة ومَديَن، ولم يزل زاهداً في العالم يسكن فيافي الأرض.

وعامة المؤرخين على أنه كان في زمان داود إلا ابن المنادي، فإنه قال: كان على عهد زكريا ويحيى، وكان يسكن الرَّملة، وقام ما بين الرملة وبيت المقدس حتى مات، وهو وَهمٌ منه، والأول أصح.

واختلفوا هل كان نبياً أم عبداً صالحاً؟ على قولين:

أحدهما: أنه كان نبياً، قاله ابن المسيب. وحكاه الثعلبي عن عكرمة، ثم قال الثعلبي: تفرَّد عكرمة بهذا[٢].

وعامة العلماء على أنه كان عبداً صالحاً أطاع الله فآتاه الله الحكمة.

---

(١) «التوابين» ص ١١٠ـ١١١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١.

وقال سلمان الفارسي: اختار طاعة الله على غيرها فآتاه الحكمة وخزن عنه النبوَّة.

وقال الحسن البصري: كان خياطاً وليس بلقمان صاحب النسور ابن عاد، بينهما زمان طويل.

وروى الثعلبي عن ابن عمر عن النبي ﷺ ولم يسنده قال: حقّاً أقولُ لم يكنْ لقمانُ نبيّاً، ولكن كان عبداً صَمْصَاماً[١] كَثيرَ التفكُّرِ، حَسَنَ اليَقِينِ، أحبَّ الله فأحبَّه، فمنَّ الله عليه بالحكمة. كان نائماً نصف النهار إذ جاءه نداء: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت وقال: إن خيَّرني ربي قبلتُ العافية ولم أقبل البلاء، فإن عزم عليَّ فسمعاً وطاعة، فإني أعلمُ إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني، فقالت الملائكة ـ بصوت لا يراهم ـ: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأن الحاكِمَ بأشد المنازل وأدركها وأكدرها، يغشاه الظُّلمُ من كل مكان، فإن يعدل فبالحريِّ أن ينجوَ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً خيرٌ من أن يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولا تصيبه الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فأعطي الحكمة، فانتبه يتكلم بها، ثم نودي داود بعده فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان فهوى في الخطيئة غير مرة، كلُّ ذلك يعفو الله عنه. وكان لقمان يؤازره بحكمته. وقال له داود: طوبى لك يا لقمان، أُعطيتَ الحكمة وصُرِفَت عنك البلوى، وأُعطي داود الخلافة وابتلي بالبلية والفتنة[٢].

وقال الثعلبي بإسناده إلى خالد الربعي قال: كان لقمان نجاراً[٣].

وروى الأوزاعي عن عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء أسود إلى ابن المسيَّب يسأله فقال له سعيد: لا تحزنْ من أجل أنك أسود، فإنه كان من خيار الناس ثلاثةٌ من السودان، بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولقمان الحكيم[٤].

(١) في «عرائس المجالس» ص ٣٥١: عصمه الله تعالى والصَّمْصام: المُصمِّمُ. اللسان: (صمم).

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١. وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١٧/ ٨٥.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٢.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١، وتفسير الثعلبي ٧/ ٣١٢ فما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[لقمان: ١٢].

قال ابن عباس: المراد بالحكمة هاهنا: العقل والفهم والإصابة في القول[(١)].

وقال وهب: قرأت في حكمة لقمان عشرة آلاف باب لم تسمع الناس كلاماً أحسن منه، ثم رأيت الناس قد أدخلوه في كلامهم واستعانوا به في خطبهم.

واختلفوا في أول ما ظهر من حكمته على أقوال:

أحدها: ما حكينا عنه أنه قال لما قيل له: هل لك أن تكون خليفة؟ وقد ذكرناه عن النبي ﷺ.

والثاني: أنه كان يختلف إلى داود يقتبس منه، فاختلف إليه سنة لم ينطق بلفظة، وداود ينسج درعاً، وحكمة لقمان تمنعه من السؤال، فلما تمت الدرع قام داود عليه السلام فلبسها ـ أو صبَّها على نفسه ـ وقال: نِعم درع الحرب هذه، قال لقمان لما رأى ذلك: الصمتُ حِكَمٌ وقليلٌ فاعِلُه. فقال داود: انظروا إلى رجل أوتي الحكمة ووقي الفتنة. قاله مقاتل.

والثالث: أنَّ سيده أمره أن يذبح شاةً ويأتيه بأطيب مضغة فيها وأخبث، فجاءه باللسان والقلب، فقال: ما هذا؟ فقال: ليس في الحيوان أطيب منهما إذا طابتا ولا أخبث منهما إذا خبثتا. قاله ابن أبي نجيح[(٢)].

والرابع: أن مولاه الذي اشتراه بثلاثين ديناراً وكان يخاطر على النرد، وعلى بابه نهر جار، فلعب يوماً مع رجل على أنه إن قُمر شرب ماء النهر كله أو يفتدي نفسه بما يريد صاحبه، فقمر، فقال له القامر: إما أن تشرب ماء النهر وإلا فقأتُ عينك أو أخذت جميع مالك، فقال: أمهلني الليلة. وأمسى كئيباً قلقاً، وجاء لقمان حاملاً حزمة حطب على ظهره فوضعها، فرأى سيِّدَهُ حزيناً فسأله عن حاله، فأعرض عنه ازدراء به، فأعاد عليه القول فلم يلتفت إليه، فقال: أخبرني لعلَّ الله أن يجعل لك على يدي فرجاً، فأخبره فقال: لا تغتم إذا جاءك وقال: اشرب ما في النهر فقل له: أشربُ ما بين

(١) انظر «الدر المنثور» ٥/ ١٦١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢١/ ٦٧ـ٦٨ عن خالد الربعي. وانظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٢.

الضفتين أو المد، فإن قال: ما بين الضفتين فقل له: فاحبس عنِّي المدَّ، وإن قال: اشرب المدَّ فقل: فاحبس عني ما بين الضفتين فإنه لا يقدر على ذلك. وجاء القامر فأجابه بجواب لقمان، فذهب الرجل خائباً، فأعتقه مولاه، قاله مكحول الشامي والربيع بن أنس.

وقد أخرج هذه الحكاية جدي رحمه الله في «كتاب الأذكياء» بإسناده إلى مكحول قال: كان لقمان عبداً نوبياً أسود كان قد أعطاه الله الحكمة، وكان الرجل من بني إسرائيل اشتراه بثلاثين مثقالاً ونَش، يعني نصف مثقال، وذكره بمعناه[١].

والخامس: أنَّ سيده دخل الخلاء فأطال الجلوس فيه، فناداه لقمان: إن طول الجلوس على الخلاء يورث البواسير ويرقي الأبخرة إلى الرأس ويفسد الكبد، فاجلس هويناً وقم هويناً. فخرج مولاه وكتب على باب الحُشِّ تلك الكلمات. وقال: هذه حكمة لقمان. قاله أبو روق.

والسادس: رواه الضحاك عن ابن عباس قال: وأقام لقمان سنة لا ينطق، فاجتمع إليه أولاد الأنبياء والحكماء وقالوا له: تكلم. فقال: لا خير في الكلام إلا بذكر الله، ولا بالسكوت إلا بالفكر في المعاد.

وقال زيد بن أسلم: قيل للقمان: ألستَ عبداً حبشياً فمن أين لك هذه الحكمة؟ فقال: لصدق هذا الحديث، وترك ما لا يعنيني. قال: وكان يسلف بأمانة الله ولا يأخذ رهناً ولا كفيلاً، فكثر ماله ونما حاله.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده إلى عبد الله بن دينار قال: قَدِمَ لقمانُ من سفر، فتلقَّاه مولى له فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال: ملكتُ أمري. قال: فما فعلتْ أمي؟ قال: ماتت. قال: ذهب همي. قال: ما فعلت ابنتي؟ قال: ماتت. قال: سُترت عورتي. قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت، قال: جُدِّدَ فِراشي. قال: ما فعل أخي. قال: مات. قال: انقطع ظهري[٢].

---

(١) «الأذكياء» ص ٢٧ـ٢٨.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٢، وتفسير الثعلبي ٧/ ٣١٧ـ٣١٨، وتاريخ دمشق ٢٨/ ٣٧ـ٣٨، والزهد لأحمد (٥٥٨).

ذكر جدي هذا الأثر في كتاب «التبصرة» في آخرها بغير إسناد.

وقال عبد الله بن دينار: قال رجل للقمان: ما أقبح وجهك!! فقال: عبت النقاش أو النقش[١]؟

فصل في مواعظ لقمان لولده واسمه أنعم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾[لقمان: ١٣] الآية. عامة العلماء على الوقف في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣] ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾[لقمان: ١٦] قال ابن عباس: هي الصخرة التي تحت الأرضين السبع[٢].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾[لقمان: ١٨] أصل التصعير: الميل. قال ابن عباس: لا تنكر على الناس، وإذا أنكروا عليك مِلتَ عنهم. وقيل: لا تتذلل لغير الله ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾[لقمان: ١٨] أي: خيلاء ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أي: أقبح ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[لقمان: ١٩] لأن أوله زفير وآخره شهيق.

وقال سفيان الثوري: كل شيء يسبِّح لله إلا الحمار فإنه ينهق بغير فائدة.

وقال وهب: قال لقمان لابنه: يا بني، إن الدنيا بحر عميق وقد هلك فيه عالم كثير، فإن استطعت أن تجعل سفينتك فيه الإيمان بالله وشراعك فيه التوكُّل وزادك التقوى، وإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك[٣]، وإذا سكتَّ فاسكت في تفكُّر، وإذا تكلَّمت فتكلم بحكمة، ولا يكنِ الديكُ أحسن حالاً منك، فإنه لا ينام الليل كلَّه بل يخفق بجناحيه ويصرخ إلى الله بالتسبيح.

حدثنا عبد العزيز بن محمود البزاز بإسناده عن ابن المسيب قال: قال لقمان لابنه: يا بنيَّ، لا ينزلنَّ بكَ أمرٌ رضيتَهُ أو كرهتَهُ إلا جعلتَ في ضميركَ أنَّ ذلك خيرٌ لك، قال: يا أبتِ أمَّا هذه فلا أقدر عليها حتى أعلمَ ما قلتَ إنه كما قلتَ، قال: يا بنيَّ، فإنَّ

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٣.

(٢) انظر «تفسير البغوي» ص ١٠١٣.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٣.

الله قد بعث نبيّاً فهلمَّ بنا نأته فعنده بيانُ ما قلتُ لكَ، فخرجا على حمارَيهما وتزوَّدا ما يصلحهما، ثم سارا أياماً، فلَقيتهما مفازةٌ فسارا فيها إلى أنْ تعالى النهارُ واشتدَّ الحرُّ ونفدَ الماءُ والزادُ، واستبطآ حمارَيهما فنزلا وجعلا يشدَّان على سُوقهما، فنظر لقمانُ إلى سوادٍ أمامه ودخانٍ فقال في نفسه: الدُّخانُ عمران والسواد شجر، فوطىء ابن لقمان على عظم ناتىء في الطَّريق فدخل في باطن قدَمه وظهر من أعلاه، فخرَّ صريعاً مغشيّاً عليه، فقعد لقمان ووضع رأس ابنه في حجره، واستخرج العظم بأسنانه، وشقَّ عمامته فشدَّ بها رجلهُ، ثم نظر إلى وجه ابنه فذَرفت عيناه وقَطَرت قطرةٌ من دمعه على خدِّ الغلام فانتبه لها، فرأى أباه يبكي فقال: يا أبتِ أنتَ تقولُ هذا خير لي، وكيف يكون كذلك وقد نفد الطعام والشراب ـ أو الماء ـ ونحن في هذه المفازَة، وقد دخل هذا العظمُ في قَدَمي، فإنْ أقمنا متنا جميعاً، وإنْ ذهبتَ وتركتَني ذهبتَ بهمٍّ وغمٍّ، فقال لقمانُ: أمَّا بكائي فرقَّةُ الوالد، وودتُ أني أفديكَ بجميع مالي من الدنيا، وأمَّا قولك كيف يكون هذا خيراً لي فلعلَّ ما صرف عنك أعظم مما بليتَ به.

ثم نظر لقمانُ أمامه فلم يرَ الدخانَ ولا السوادَ، وإذا شخصٌ قد أقبل على فرس أَبْلَقَ عليه ثيابٌ بيضٌ وعمامةٌ بيضاءُ يمسحُ الهواء مسحاً، فلمَّا قَرُبَ منهما توارى عنهما وصاح: أنت لقمان؟ قال: نعم، قال: الحكيم؟ قال: كذا يقال. ثم قال لقمان: يا عبد الله من أنت؟ أسمعُ كلامكَ ولا أرى وجهكَ، قال: أنا جبريل لا يراني إلا مَلك مقرَّب أو نبيٌّ مرسل ولولا ذلك لرأيْتَني، ما قال لك ابنك هذا السفيه؟ قال لقمان في نفسه: إن كنتَ جبريل فأنت أعلم بما قال مني، فقال جبريل: ما لي بشيءٍ من أمركما علمٌ، ولكنَّ ربِّي أمرني أن أخسِفَ بهذه المدينة وما يليها، فأُخبرت أنكما تُريدانها، فدعوتُ الله أن يَحبسكما عنها بما شاءَ، فحبسكما بما ابتليَ به ابنكَ، ولولا ذلك لَخُسف بكما مع من خسف.

ثم مسح جبريل على قَدَم الغلام فاستوى جالساً أو قائماً، ومسح يده على الإناء الذي فيه الطعام والشراب فامتلأ طعاماً وشراباً أو ماءً، ثم ركبا حمارَيهما فإذا هما في الدار التي خرجا منها.

وقال ابن عباس: مازال لقمان يعظ ابنه ويقول: يا بُنَيَّ، يا بُنَيَّ، حتى انفطرت مرارته وانصدع قلبه فمات.

وحكى الخطيب عن محمد بن إسحاق قال: قال لقمان لابنه: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، فإن أنصفك عند غضبه، وإلا فاحذره.

ذكر وفاة لقمان عليه السلام

واختلفوا في موضع قبره: فقال الواقدي والسُّدي: بأَيْلَة، وقال قتادة: بالرَّمْلَةِ ما بين مسجدها وسوقها، وهناك قبر سبعين نبياً ماتوا بعد لقمان جوعاً في يوم واحد، أخرجهم بنو إسرائيل من القدس فألجؤوهم إلى الرَّمْلَة ثم أحاطوا بهم، فتلك قبورهم هناك.



فَصْلٌ في ذكر سُليمَان عَلَيهِ السَّلام
وَمَا جَرى في أيَّامهِ مِن عجَائب وَقصَّة سَبَأ وبِلقيس مَلكَة مَأرِب[١]

قال علماء السِّير: سليمان اسم عبراني، وقد تكلمت به العرب في الجاهلية، وقال وهب: اسم سليمان عند الفُرس جم، وكنيته أبو الربيع.

وقال مقاتل: ذكر الله سليمان في خمسة عشر موضعاً.

قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية [ص:٣٨]، قال مقاتل: كان لداود تسعة عشر ولداً لم يكن فيهم مثل سليمان، وكان أعظمَ ملكاً من داود وأفطن منه، وكان داود أشدَّ تعبُّداً، وعامة العلماء على أنه كان نبيّاً، وقال أهل الكتابين: لم يكن نبيّاً [بل مَلِكاً]، والنبوَّة كانت في أبيه داود.

واختلفوا في مبلغ سنِّه بعد وفاة أبيه داود على قولين:

أحدهما: اثنتا عشرة سنة، قاله الضحاك. والثاني: ثلاث عشرة سنة، قاله وهب.

قال: وكان لداود ولد يقال له: شَالوم، كان أكبر ولده، خرج على أبيه وأراد قتله، فصرف الله عنه المُلك إلى سليمان.

وقال ابن عباس: بعثه الله إلى بني إسرائيل وسأل الله أن يؤتيه مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأجاب الله سؤاله، فكانت تعكف عليه الطير وتقوم في خدمته والإنسُ والجنُّ، وسخَّر الله له الرِّيحَ وغير ذلك.

وقال مجاهد: كان أبيض جسيماً يلبس البياض ويشاوره أبوه في قضاياه.

وقال محمد بن كعب القُرظي، وحكاه جدي في «التبصرة» قال: كان عسكره مئة فرسخ، خمسةٌ وعشرون للإنس، ومثلها للجن، ومثلها للطير، ومثلها للوحش قال: وكان له ألف بيت من القوارير، فيها ثلاث مئة امرأة وسبع مئة سُرِّيَّة يحملها الجن على

---

(١) في (ب): الباب الخامس والعشرون في ذكر سليمان عليه السلام، وانظر قصته في «تاريخ اليعقوبي» ١/ ٥٧، و«تاريخ الطبري» ١/ ٤٨٦ وتفسيره ١٨/ ٢٤ و٢٠/ ٨٠، و«البدء والتأريخ» ٣/ ١٠٣، و«عرائس المجالس» ص ٢٩٤، وتفسير الثعلبي ٧/ ١٩٣ و٨/ ٢٠٣، وتفسير الماوردي ٤/ ١٩٧ و٥/ ٩١، وتاريخ دمشق ٧/ ٥٦٤ (مخطوط)، و«التبصرة» ١/ ٢٨٧، و«الكامل» ١/ ٢٢٩، و«البداية والنهاية» ٢/ ١٨.

الخشب، ثم ترفعها فتنقلها الريح وتسير بها بين السماء والأرض، وكذا بعسكره، تقلّه على البساط[(١)].

وروى ابن جبير عن ابن عباس قال: كان يُوضع لسليمان ست مئة كرسي ويجيء أشراف الناس فيجلسون عليها مما يليه، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي الإنس، ثم يدعو الطير فتظلهم، ثم يدعو الرِّيحَ فتحملهم فتسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر، يركب من تَدْمُر فيَقِيل بإصْطَخْر، ويَروح من إصْطَخْر فيبيتُ بقلعة خُراسان في المباني المعروفة بقلعة سليمان.

وقال الحسن: كان يروح من البيت المقدس فيبيت بكَابُل، والطباخون وأرباب الصنائع يعملون أشغالهم على بساطه ولا تتغير عليهم حال. وكان مسير الرياح شهراً في رَوحته وشهراً في غَدوته كما قال الله تعالى.

وقال وهب: وُجد على حجر مكتوب بالمسند بناحية دجلة: نحن نزلنا في غَدوتنا من فِلسطين إلى إصْطَخْرَ، ومنه نقفل إلى خُراسانَ.

وحكى الثعلبي: أنه كان مكتوباً على الحجر إنما كتبه بعض الإنس أو الجن ثم نزلناه وما بنيناه ومبنياً وجَدناه، غَدَونا إصْطَخْر فقلناه.

وقال مجاهد: كان سليمان يغدو من دِمشق فيقيل بإصْطَخْرَ، ويروح بإصْطَخْرَ فيقيل بكابُل، وبين إصْطَخْر وكابُل مسيرة شهر. قلت: وهذا وهم، بينهما مسيرة شهرين وثلاثة.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: سار سليمان من الشَّام إلى خُراسان فصلى العصر بمَرْوَ، ومضى نحو المشرق فخاض بلاد الهِند والسِّند والصِّين في ثلاثة أيام، ثم عاد إلى الشَّام على ظهر الرِّيح. قال: ولما عقر الخيل سخَّر الله له الرِّيح.

قال وهب: بلغ سليمان أن في البحر مارداً عاتياً فأرسل الله إليه، فجيء به إلى بابه، فأخذ المارد عوداً قدر ذراع فرمى به إلى بين يدي سليمان، فقال سليمان: تدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: يقول: لا تغترَّ بملكك واصنع ما شئت، فإنك تصير إلى مثل

---

(١) «التبصرة» ١/ ٢٨٨.

هذا من الأرض. قال: وكان الله قد أذن للرِّيح مهما سمعت من كلام الإنس والجن تحمله إليه، وهذا شيء لم يُعطَهُ سواه.

وروى في «التبصرة» عن سيَّار عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال: خرج نبيُّ الله سليمان، والجنُّ والإنس عن يمينه ويساره، فأمر الريحَ فحملتهم حتى سمعوا زَجَلَ الملائكة في السماوات بالتقديس، ثم أمرها فخفضتهم حتى مسَّتْ أقدامهم البحر، فسمعوا صوتاً من السماء يقول: لو كان في قلب صاحبكم ـ من الكبر مثقال ذرَّةٍ لخسفتُ به أبعدَ مما رفعته[1].

وقال الحسن: كان يحرسه ست مئة ألف، ويوضع له أربعة آلاف كرسي يجلس عليها الأشراف، وملكَ الأرضَ كما ملكها ذو القرنَين، وهو أحد المؤمنين اللذَين ملكاها، وقد ذكرناه.

وقال في «التبصرة»: كان يطعم كلَّ يوم مئة ألف فإن أقل أطعم ستين ألفاً، وكان يذبح كل يوم مئة ألف شاة وثلاثين ألف بقرة، ويطعم الناس النقي الحُوَّارى، ويأكل هو الشعير، ويطعم أهله الخُشكَار[2].

قال الحسن البصري: كان يحمل القصعة الواحدة ألف رجل ولا يأكل معهم، ويدخل منزله فيأكل الخلَّ والزَّيت بخبز الشعير، فأثنى عليه الله بقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[ص: ١٧] أي: رجَّاع. فإن قيل: مع هذا التقلل والزهد يقول: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾[ص: ٣٥]، أكانت المملكة ضيِّقةً حتى يحجر على من بعده؟ والجواب من وجوه:

أحدها: أنه لما قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي﴾ فلما أجاب الله دعاءه بما وهبه من المُلك استدلَّ به على الغفران، فتيقَّن أن الله قد غفر له.

والثاني: أنه لم يكن في مُلك غيره الريح ولا تسخير الشياطين ولا الطير، فسأل الله ذلك ليكمل حاله، قاله مقاتل.

---

(١) «التبصرة» ١/ ٢٨٨.

(٢) «التبصرة» ١/ ٢٨٨، الحوارى: الدقيق الأبيض، والخُشكار: الخبز الذي لم يُنْخَل طحينه.

والثالث: أنه أراد [أن] يعلم أنه مستجابُ الدعوة أم لا، فسأل ذلك كما سأل إبراهيم إحياء الموتى وإن كان موقناً بالإحياء.

والرابع: أنه لما مات داود أوحى الله إلى سليمان سلني حاجتك، فقال: أسألك أن تجعل قلبي يخشاك ويحبك كما كان قلب أبي داود، فقال الله لسليمان: أرسلت إليك أسألك حاجتك فكان هذا جوابك؟ لأعطينَّك مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدك في الدنيا ولا حساب عليك في الآخرة، قاله أبو عبيد القاسم بن سلَّام.

والخامس: أنه خُيِّر بين العلم والملك والمال، فاختار العلم فأعطاه الكل.

قلت: وهذه جوابات إقناعية، وبعضها لا يطابق السؤال، فإنه قد روى ابن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[النمل: ٤٠] إنه آصَفُ، كان يعرف الاسم الأعظم، فقيل له كيف يعرفه آصَف، وهو كاتب سليمان، ولا يعرفه سليمان؟ قال: كان يعرفه، فلما قال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[ص: ٣٥] أنساه الله إياه.

وقال عبد الوهاب ابن النُّوبي في «الأسْولة»: إنَّ النَّملة التي وقف عليها سليمان واسمها منذرة قالت له: ماذا سألت ربك؟ قال: مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، فقالت: تفوح من سؤالك رائحة الحسد وما كان يضرُّكَ لو أعطاه الله لغيرك؟ وهل الكل إلا زائل؟

قلت: وقد تكرَّم عليه نبيُّنا ﷺ ولم يزاحمه في هذا المعنى، فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ عِفْريتاً من الجِنِّ تفلَّتَ عليَّ البَارحَةَ لِيَقْطَعَ صَلاَتي، فَأَمْكَنَني اللهُ منهُ، فأَخَذْتُه وأردتُ أنْ أَربطه بساريَة من سَوَاري المسجدِ حتَّى تُصْبِحُوا وتَنْظُروا إليه كلُّكم، فَذَكَرتُ دَعْوةَ أخي سُليمان ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾ فَرَددتُه خَاسئاً»، أخرجاه في «الصحيحين»[(١)].

وقد أخرجه مسلم بمعناه عن أبي الدرداء، وفيه: «لولا دعوةُ أَخِينا سُليمان لأصبحَ مُوثقاً تَلعَب به وِلْدَانُ أهلِ المدينةِ»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٩٦٩)، و«البخاري» (٤١٦)، و«مسلم» (٥٤١).

(٢) صحيح «مسلم» (٥٤٢).

قال مقاتل: لما سخَّر الله لسليمان الشياطين وكَّل بهم ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاغ منهم عن أمر سليمان ضربه فأحرقه، فذلك قوله: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ [سبأ: ١٢] أي: يميل ويعدل عن طاعته.

فصل في عمارته بيت المقدس

حدثنا جدي رحمه الله قال: أنبأنا أبو المعمر المبارك بن أحمد الأنصاري بإسناده عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إنَّ مَكَّةَ بَلَدٌ عَظَّمهُ اللهُ وعَظَّمَ حُرْمَتَه، وحَفَّها بالملائكة قبل أن يَخْلُق شيئاً من الأرض كُلِّها بألف عام، وَوَصَلها بالمدينةِ، ووَصَل المدينةَ ببيتِ المَقْدِس، ثم خَلَق الأرضَ بعدُ بألفِ عامٍ خَلْقاً واحداً».

وقال الوليد بن حماد بإسناده عن أبي عَمْرو الشَّيباني قال: قال عليٌّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: كانت الأرض ماءً فبعث الله ريحاً فمسحت الأرض مسحاً، فظهرت على الأرض زبدة، فقسمها أربع قطع، خلق من قطعة مكة، ومن الثانية المدينة، ومن الثالثة بيت المقدس، ومن الرابعة الكوفة.

ذكر هذا الحديث والأثر جدي رحمه الله في كتاب «فضائل بيت المقدس»، ثم روى عن كَعْب الأحبار أنه قال: بنى سليمان بن داود بيت المقدس على أساس قديم كما بنى إبراهيم الكعبة على أساس قديم.

ثم قال جدي: وسكن الجبَّارون الأرضَ المقدسة فسلَّطَ الله عَليهم يُوشَع، ثم سلَّط الكفار على البيت المقدس فصيَّروه مزبلة.

ثم روى جدي بإسناده إلى ابن المسيب قال: أمر الله تعالى داود أن يبني بَيْت المقدس فقال: يا رب وأين أبنيه؟ قال: حيث ترى الملك شاهراً سيفه، قال: فرآه في ذلك المكان، فأسَّس داود قواعده ورفع حائطه، فلما ارتفع انهدم، فقال داود: يا رب أمرتني أن أبني لك بيتاً فلما ارتفع هدمته، فقال: يا داود إنما جعلتك خليفتي في أرضي، لِمَ أخذته من صاحبه بغير ثمن؟ إنما يبنيه رجل من ولَدِك. فلمَّا قام سليمان: ساوَم صاحب الأرض عليها، فقال له: هي بقنطار، فقال سليمان قد استوجبته، فقال له صاحب الأرض: هي خير أو ذاك؟ فقال: بل هي خير، قال: فإنه قد بدا لي، قال:

أوَلَيسَ قد أوجبتها؟ قال: بلى، ولكن البيِّعين بالخيار ما لم يفترقا. قال ابن المبارك: فهذا أصل الخيار. قال: فلم يزل يرادُّه حتى استوجبها منه بِسَبعة قناطير، فبناه سليمان حتى فرغ منه، وتَغلَّقت أبوابه فعالجها سليمان أن يفتحها فلم تنفتح، حتى قال في دعائه: بصلواتِ أبي داود إلا انفتحت الأبواب، فتفتحت، ففرَّغ له سليمان عشرةَ آلافٍ من قُرَّاء بني إسرائيل، خمسة آلاف بالليل وخمسة آلاف بالنهار، لا تأتي ساعة من ليل ولا نهار إلا والله عز وجل يُعبد فيه.

قال جَدي رحمه الله عن الوليد عن أبي عمرو الشيباني: أوحى الله إلى داود إنك لن تتم بناء بيت المقدس، فقال: أي يا رب، ولم؟ قال: لأنك غمستَ يدك في الدماء أو الدم. قال: يا ربِّ، ألم يكن ذلك في طاعتك؟ قال: بلى، وإن كان.

وروى جدي أيضاً عن كعب الأحبار قال: لما ولي سليمان أَمَره الله ببناء بيت المقدس، فبناه، فلما دخله خرَّ ساجداً شكراً لله تعالى، فقال: يا رب، من دخله من خائف فأمِّنه، أو من داع فأجبه، أو مستغفراً فاغفر له. فذبح أربعة آلاف بقرة وسبعة آلاف شاة، وصنع طعاماً ودعا بني إسرائيل إليه. وفي رواية: إن الله أوحى إلى داود: ابنِ لي بيتاً، فبنى لنفسه بيتاً قبل ذلك، ثم بناه فسقط[1].

وروي: أن داود أراد أن يأخذ بيت رجل فيُدْخله فيه، قال سعيد بإسناده عن أُبَي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: أَوحَى الله إلى داودَ: أن ابنِ لي بَيتاً أُذكَرُ فيه، فخَطَّ له مِن هذِه الخطة ـ خطةِ بيت المقدِسِ ـ فإذا تربيعُها يزويه بيتُ رجلٍ من بني إسرائيلَ، فسأَله داودُ أن يبيعَه إيَّاه فأبى، فحدَّث نفسه داودُ أن يأخذَه منه، فأوحَى الله إليه: يا داودُ، أمرتُك أن تَبنِي لي بَيتاً أُذكَر فيه، فأرَدْتَ أن تُدخل في بيتي الغَصْب، وإنَّ عقوبتَك أن لا تبنِيه. قال: يا رب، يبنيه من وَلَدِي؟ قال: نعم»[2]. وسنذكر الحديث في ترجمة العباس في سنة اثنتين وثلاثين.

وروى جدي أيضاً عن أبي عبد الملك الجَزَري قال: لما خلا من مُلكِ سليمان مدةً

---

(١) ما سلف كله في فضائل بيت المقدس المطبوع باسم: فضائل القدس ٧٢ـ٧٦..

(٢) أخرجه ابن سعد في طبقاته ٤/ ١٩.

شرع في بناء بيت المقدس، فكان عدد من يعمل في بنائه ألف رجل عليهم قطع الخشب، في كل شهر عشرة آلاف وكان عِدَّةُ الذين يعملون في الحجارة عشرة آلاف، وعدة الذين يقومون عليهم ثلاث مئة أمين، وأولج فيه التابوت وصلى ودعا، فأوحى الله إليه قد غفرت لمن أتى هذا البيت لا يعنيه إلا الصلاة فيه[١].

وروى أيضاً عن عطاء الخُراساني قال: لما فرغ سليمان من بنائه أنبت الله له شجرتين عند باب الرحمة، إحداهما تنبت الذهب والأخرى تنبت الفضة، فكان في كل يوم ينزع من كل واحدة مئتي رطل ذهباً وفضة، ففرش المسجد بلاطة من ذهب وبلاطة من فضة. فلما جاء بُخْتُ نَصَّر خربه، واحتمل منه ثمانين[٢] عجلة ذهباً وفضة فطرحه برُومِيَةَ.

قال جدي رحمه الله[٣]: بناه سليمان لأربع سنين خَلَت من مُلكه في سبع سنين، ومن هبوط آدم عليه السلام إلى ابتداء سليمان ببناء بيت المقدس أربعة آلاف وأربع مئة وست وسبعون سنة[٤].

وفي غير رواية جدي: ومن خروج موسى ببني إسرائيل من مصر إلى بناء بيت المقدس ست مئة وست وثلاثون سنة.

وروى أيضاً جدي عن وهب بن منبه عن كعب قال: أوحى الله إلى سليمان: أن ابنِ بيتَ المقدس، فجمع حكماءَ الإنس وعفاريت الجن وعظماء الشياطين، ثم فرق الشياطين فجعل منهم فريقاً يبنون، وفريقاً يُقَطِّعون الصخور والعُمُدَ من معادن الرخام، وفريقاً يغوصون في البحر يستخرجون منه الدُّرَّ والمرجان، الدُّرة مثل بيضة النَّعام والدجاجة، وأخذ في بناء المسجد فلم يثبت البناء، وكان عليه حَيْر بناه داود عليه السلام، فأمر بهدمه، ثم حفر الأرض حتى بلغ الماء، فقال: أسِّسوا عليه، فألقوا فيه الحجارة، فكان الماء يلفظها، فاستشار في ذلك فأشاروا عليه أن يتخذ قِلالاً من

(١) «فضائل القدس» ص ٧٧.

(٢) في (ب): «ثلاثين»، والمثبت موافق لما في «فضائل القدس» ص٧٨.

(٣) في (ب): قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله.

(٤) «فضائل القدس» ص ٧٨.

نحاس ثم يَملأها حجارة، ثم يكتب عليها ما على خاتمه من [ذِكْرِ] التوحيد، ثم يلقيها في الماء فيكون أساس البناء عليها ففعل فثبت، فبنى المسجد بناء لا يوصف وزيَّنه بالذهب والفضة والدر والياقوت وألوان الجواهر في سمائه وأرضه وأبوابه وجدره[١].

وروى جدي أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص في تفسير قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[الحديد: ١٣] قال: هو سور بيت المقدس الشَّرقي[٢].

هذه صورة ما ذكره جَدي رحمه الله من عِمَارة بيت المَقْدس وبداية أمره.

قلت: وقد روى أبو ذرٍّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بَينَه وبَينَ الكَعبةِ أربَعونَ سَنةً»[٣]، وقد ذكرناه، ودَثَر فجدّده الضحاك وعمل فيه العجائب، فلما خرج موسى من مصر وقصد الجبَّارين أخربوه قبل أن ينزل بهم يُوشَع بن نون، ثم شرع في بنائه داود وتَمَّمَهُ سليمان.

وقد رويت هذه الألفاظ مرفوعةً وهي قوله لدَاوُد: إنَّك غمست يدك في الدم وبنيت لك بيتاً قبل أن تبني لي بيتاً.

فقال جدي في «الموضوعات»: أنبأنا أبو منصور بن خَيْرُون، عن الجوهري، عن الدارقطني، عن أبي حاتم البُستي، عن قتيبة، عن محمد بن أيوب بإسناده عن رافع بن عُمير[٤] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قالَ الله لداود: ابنِ لي بيتاً في الأرض، فبنى داود لنفسه بيتاً قبل البيت الذي أمره الله به، فأوحى الله إليه: يا داود بنيتَ بيتك قبل بيتي، فقال: يا رب هكذا قلت فيما قضيت مَنْ مَلَك استأثر، ثم أخذ في بناء المسجد فسقط، فشكا إلى الله تعالى فقال الله: لن تصلح أن تبني لي بيتاً. قال: ولم؟ قال: لِمَا جرى على يديك من الدماء قال: يا رب أوَلم يكن ذاك في هواك ومحبتك، قال: بلي ولكنهم عبادي وإمائي أرحمهم، فشقَّ ذلك على داود، فأوحى الله إليه: لا

---

(١) «فضائل القدس» ص ٧٩، والحير: الحظيرة أو البستان، أو المكان المنبسط المطمئن المرتفع الجوانب.

(٢) «فضائل القدس» ص ٨٠، ومن هنا إلى: فيما كان بالبيت المقدس من العجائب، ليس في (ب).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

(٤) في (ط): عن نافع عن ابن عمر، والمثبت من الموضوعات (٤١٠).

تحزن، فإني سأقضي ببنائه على يدي ابنك سليمان».

ثم قال جدي رحمه الله: هذا حديث موضوع، مُحالٌ يتنزّه الأنبياء عن مثله، ويقبح أن يقال: أبيح له قتل قوم، أو أُمر بذلك، ثم أبعد به عن الرضا عنه. قال ابنُ حبّان: محمد بن أيوب يروي الموضوعات، لا يحلُّ الاحتجاج به، وإنما يروى مثل هذا عن أبي عمرو الشيباني.

وقوله أيضاً: يا داود إنَّك أخذته بغير ثمن. لا يجوز مثله على آحاد الناس، فكيف على الأنبياء لأنه يكون غصباً، وهو محال في حقهم.

وقد روى الحسن البصري في مراسيله: أن داود لما شرع في بناء البيت المقدس جاء رجل صالح في زي فقير ليختبرهم فقال: إنَّ لي في هذه البقعة حصةً، وأنتم قد عزمتم على بنائها لله مسجداً، ولا أرضى أنْ تأخذوا أرضي بغير ثمن، فقال داود: أرضوه، قالوا: نعطيه مئة شاة فأبى، فقالوا: مئة بقرة، فأبى، فقالوا: مئة ناقة، فأبى، فلم يزالوا كذلك حتى ملؤوا أرضه ذهباً وفضة فقال: لا حاجة لي فيها، وإنما أردت أختبركم في طاعة ربكم. ثم مات داود ولم يتمه فأتمه سليمان.

وروى جدي بإسناده إلى كعب في «فضائل بيت المقدس»: عن رجاء بن حَيْوة عن أبيه قال: قَدِم كعب إيلْياءَ فرشا من بعض أحبار اليهود[١] بضعةَ عشر ديناراً على أن دلَّه على الصخرة التي قام عليها سليمان حين فرغ من بناء المسجد، وهي مما يلي ناحية باب الأسباط، قام سليمان عليها ودعا بثلاث دعَواتٍ، فأراه الله تعجيل الإجابة في دعوتين، وأرجو أن يستجيب الله له في الآخرة. قال: اللهم هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي فأعطاه الله ذلك، ثم قال: ربّ هب لي حكماً يوافق حكمك، فأعطاه الله ذلك، ثم قال: اللهم لا يأت هذا المسجد أحدٌ يريدُ الصلاةَ فيه إلا أخرجته من خطيئته كيوم ولدته أمه.

قلت: وقد أخرج أحمد في «المسند» حديثاً فيه طرف يتعلق بهذا فقال: حدثنا

(١) كذا في (ط)، وفي فضائل القدس ١٤٣: فرشى من أحبار يهود، وفي تاريخ دمشق ٦٨/ ٣٥٢ (مجمع اللغة): فرشا ـ يعني ـ حبراً من أحبار اليهود.

معاوية بن عمرو بإسناده عن عبد الله الدَّيْلَمي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو في حائطٍ له بالطَّائفِ يقال له: الوَهْطُ، وهو مُخاصِرٌ فتًى من قريش يُزَنُّ بشُرْبِ الخَمر، فقلت له: بلغني عنك حديثٌ: أنَّه مَن شَرِبَ الخَمرَ لم يَقْبَل اللهُ لَهُ تَوْبَةً أَرْبَعين صَبَاحاً، وأنَّ الشَّقي مَن شَقِيَ في بَطْن أُمِّهِ، وأنَّ مَنْ أتى بَيْتَ المَقْدِس لا يَنْهَزُهُ إلا الصلاةُ فيه خَرَجَ مِن خَطِيئَتِهِ كيومَ وَلَدَته أُمُّه، فلَمَّا سَمِعَ الفتى بذِكرِ الخَمر اجتَذَبَ يَدَهُ مِن يَدِهِ ثُمَّ انطلقَ، فقال عبد الله بن عَمْرو: سَمِعْتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: «مَن شَرِبَ مِنَ الخمر شَرْبَةً لَمْ يَقْبل الله لَهُ تَوْبة أربعينَ صَباحاً، فإنْ تابَ تابَ الله عليه، فإنْ عَادَ لم تُقبلْ لَه صلاةٌ أربَعينَ صَباحاً، فإن تابَ تابَ الله عليه، فإن عَاد - قال: فلا أدري في الثالثة أو الرابعة - قال: فإن عَادَ كانَ حقّاً على الله أنْ يَسقيهُ مِنْ الصَّديد المُخْتَلِط يوم القيامةِ»[1].

قال: وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ خَلَق الخَلْقَ - أو خَلْقَهُ - من، أو في، ظُلْمَة، ثم أَلْقى عليهم مِن نُوره يَوْمئذ، فَمَن أصابه مِن نورِه اهتدَى، ومَن أَخطأَه ضَلَّ»، فلذلك أقولُ: جفَّ القلم على علم الله.

وسَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ سُليمان بنَ دَاوُد سأل الله ثلاثاً فأَعطَاه اثنَتَينِ، ونحن نَرْجو أن تكونَ لنا[2] الثالثة، سأله حُكْماً يصادف حُكْمه فأعطاه إياه، وسأله مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ مِن بَعده فأَعطَاه إيَّاه، وسأله أَيُّما رَجُل خرجَ من بيتِهِ لا يريدُ إلا الصَّلاةَ في هذا المسجدِ خَرَجَ مِن خَطِيئَتِهِ كيومَ وَلَدَتْه أُمُّه، فنَحنُ نَرجُو أن يكونَ اللهُ قد أعطَاهُ إيَّاهُ»[3].

وقال مقاتل: كانت الشَّياطين تأتيه باليواقيتِ من البحار فيحتاج إلى ثَقْبها، ولم يكن لهم خبرة بها، فسأل الشياطين عن ذلك فقالت: ما يعرف هذا إلا صخرٌ الجني، وإنَّه في جزيرة من جزائر البحر المظلم، ولا طاعة عليه لأحد. فطبع بخاتمه وبعثه مع العفاريت فجاؤوا به، فسأله سليمان عليه السلام عن ثقب اللؤلؤ فقال: لا يثقبها إلا

(١) في «المسند»: من ردغة الخبال يوم القيامة.

(٢) في «المسند»: له.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٦٤٤)، وقوله يُزَنُّ: يتهم.

حجر السامور، ولا أعرف معدنه ولا أعرف في الطيور أشدَّ من العُقَاب، فاجعل فراخَهُ في صندوق من حجارة، ثم اترك العُقَاب معهم ليلة، ثم أخرجه واترك فراخه في الصندوق فإنه سيأتي بالسامور، ففعل، فجاء العُقَاب بالسامور فثقب به الصندوق، فأخذه فثقبوا به اللآلىء، فهو إلى اليوم على ذلك.

فصل يتعلق ببيت المقدس

ذكر جدي رحمه الله في «فضائل بيت المقدس» عن قتادة أنَّه في قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾: أنه جبل عليه بيت المقدس[1].

وقد جاء في الحديث: أن الوادي الشرقي من القدس وادي جهنم. أنبأنا عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد المقدسي قال: حدثنا أبو السَّعَادات نصر الله بن عبد الرحمن القزَّاز بإسناده عن عثمان الرسلي عن أبي قال: قام عُبادة بن الصَّامِت[2] على سور بَيْت المقدس الشرقي فبكى، فقال له بعض الحاضرين: ما يُبكيك؟ قال: من هاهنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم.

فصل فيما كان بالبيت المقدس من العجائب

أنبأنا جدي رحمه الله قال: حدثنا المبارك بن أحمد بإسناده عن أبي مالك بن ثعلبة ابن أبي مالك القُرَظي قال: سمعتُ إبراهيم بن طَلحة بن عبيد الله يُحدِّث عن أبيه عن جدِّه يرفعه قال: «إنَّ ذا القَرنينِ كانَ مِن حِمْيَر، وإنَّه قَصَدَ البيتَ المقدسَ فَرَأى فيه مِنَ العَجَائبِ التي صَنَعها الضحَّاكُ بنُ قيسٍ في الزَّمانِ الأول».

إحدى تلك العجائبِ: أنَّه صَنَع ناراً عظيمةَ اللَّهب، فمن لم يُطِع تلك الليلة أحرقته.

---

(١) «فضائل القدس» ص ٧٠.

(٢) كذا جاء الإسناد في (ط)، وفي (ب): وقال أبو سودة، وأخرجه ابن حبان (٧٤٦٤)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٢٩، والثعلبي في تفسيره ٩/ ٢٣٨، والحاكم في المستدرك ٤/ ٦٠٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢١/ ١٩٤ـ١٩٥، وابن الجوزي في فضائل بيت المقدس ١٢٠ـ١٢١ (المطبوع باسم فضائل القدس) من طريق أبي نصر التمار، عن سعيد بن عبد العزيز، عن زياد بن أبي سودة: أن عبادة بن الصامت . . . قال البوصيري في إتحاف الخيرة (٧٨٢٥): منقطع، زياد لم يسمع من عبادة.

والثانية: من رمى بيت المقدس بنشابة رجعت النشابةُ عليه.

والثالثة: وضع كلباً من خشب على باب البلد، فمن كان عنده شيء من السِّحْر واجتاز بالكلب نبح عليه، فإذا نبح عليه نسي ما عنده من السحر.

والرابعة: وضع باباً، فمن دخله وكان ظالماً ضغطه ذلك الباب حتى يعترف بظلمه.

والخامسة: وضع عصاً في محراب بيت المقدس، فلا يقدر أن يمسَّها إلا مَنْ كان من ولد الأنبياء، فإن كان من غيرهم أحْرَقَتْ يَدَهُ.

والسادسة: أنهم كانوا يَحْبِسون أولاد الملوك في المحراب، فمن كان من أهل المملكة فإذا أصبح أصابوا يده مطليَّة بالدُّهن[1]، وذكر حديث السلسلة التي كانت لسليمان وسنذكرها.

قال ابن سيرين: صنع سليمان قبةً في المسجد وطلاها بالخُضْرة، وصقل حائطها، فكان إذا دخلها الرجل الصالح استبان خياله في الحائط أبيض، وإذا دخلها الفاسق استبان ظله أسود.

فصل في فِطْنَة سليمان

حدثنا غير واحد عن أبي البَرَكات الحافظ المعروف بابن الأنماطي بإسناده عن محمد بن كَعب القُرَظيِّ قال: جاء رجل إلى سليمان فقال: يا نبيَّ الله، إنَّ جيراني يسرقون إوَزِّي، فنادى: الصلاة جامعة، ثم خطبهم وقال في خطبته: وأحدكم يسرقُ إوزَّ أخيه ثم يدخلُ المسجدَ والريشُ على رأسه، فمسحَ رجل منهم يده على رأسه، فقال سليمان: خذوه، فإنَّه صاحبكم[2].

وقال أبو نعيم الأصفهاني: حدثنا سليمان بن أحمد بإسناده عن مَكْحُول عن أبي هريرة قال: بينما سليمان بن داودَ عليه السلام في موكبه إذ مرَّ بامرأة تصيح بابنها: يا لادين، فوقف سليمان فقال: إن دين الله الظاهر، وأرسل إلى المرأة فسألها عن ذلك

---

(١) «فضائل القدس» ص ٨١ـ٨٢.

(٢) أخرجه الدينوري في المجالسة (٣١٠٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٨٠، وهو في الأذكياء لابن الجوزي ٢٧.

فقالت: إنَّ زوجها سافر ومعه شريكٌ له ثم قدم، فزعم أن زوجها مات، وأَوصى إلى شريك له إنْ ولد له غلام يسمِّيه: لادين، فسأل سليمان عن الشريك وطلبه، فحضر بين يديه وقال له: ما هذا؟ وهدده فاعترف بأنه قتل أبا الغلام، فقتله سليمان[1].

فصل في تعليمه منطق الطَّير

روى أبو صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾[النمل: ١٦] كما نفهم لغة بني آدم. وقال مقاتل: كان سليمان جالساً فمرَّ به طائر يرفرف ويصيح، فقال سليمان لجلسائه: هل تدرون ما يقول هذا الطائر؟ قالوا: الله أعلم وأنت يا نبيَّ الله، قال: إنه يقول: السلام عليك أيُّها الملِكُ المسلَّط على بني إسرائيل، أعطاك الله الكرامة وأظهرك على عدوِّك، إني لمنطلق إلى فراخي وأعودُ إلى خدمتك. قال سليمان: وإنَّه سَيَرْجع إلينا. قال: ومضى الطائر ثُمَّ عاد فوقف على سليمان، ثم قال لسليمان: أيها الملك إن أَذنتَ لي أن أكتسب لفراخي حتى يشبُّوا ثم آتيك فافعل بي ما شئتَ، فأخبرهم سليمان بما قال وأَذِنَ لهُ.

وقال فرقد السبخي: مرَّ سليمان على بلبل وهو على شجرة يحرك رأسه ويترنم ويميل ذنبه فقال: هل تدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: أكلت اليوم تمرة فعلى الدنيا العفاء. وقد ذكر الثعلبي «في تفسيره» العَجَائبَ من هذا الجنس، والله أعلم[2].

فصل في ممرّه على وادي النمل وغيره

قال الله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

قال مقاتل: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا.

قال مجاهد: كان قد جعل الله على كل صنف منهم وَزَعةً يحبسون أُولاهم على

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٣٠١)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٧٦، وهو في الأذكياء ٢٦-٢٧.
(٢) تفسير الثعلبي ٧/ ١٩٣ فما بعدها، وانظر «عرائس المجالس» ص ٢٩٦-٢٩٧.

أخراهم حتى يقف كلُّ صنف منهم عند حدِّه ولا يتقدم في السَّيْر كما يفعل الملوك. وأصل الوَزْعِ: الكفُّ والمَنْعُ.

وقال وهب: مرَّ سليمان على وادي النَّمل، واختلفوا فيه، قال قوم: هو بالطَّائِف، وقال قوم آخرون: بالمغرب، وقيل: بالساحل، وقيل: بالمشرق.

فخرجت نَملة عرجاء اسمها منذرة، فجعلت تمشي وتَتَكَاوَس[1]، فلما رأتِ البساط وما عليه من الجيوش ذُهلت ونادت، فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل: ١٨] الآية، فألقت الريحُ قولها في سمع سليمان ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النمل: ١٩] ووقف ببساطه. قال الضَّحَّاك: اسمها طاخية، وقال مقاتل: حرمى. ثم أحضرها بين يديه وقال لها: حذَّرتِ إخوانكِ ظلمنا والأنبياءُ لا يظلمون، قالت: معاذ الله. قال: فكيف قلت: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾[النمل: ١٨] فأجابت بجوابين:

أحدهما: قالت: أما سمعتَ قولي: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[النمل: ١٨].

والثاني: أنها قالت: ما أردت حطم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب، خفت أن يتمنَّين ما أُعطيتَ فيَشتغِلْنَ عن ذكر الله ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾[2].

قال جدي رحمه الله: إنَّما تبسم ضاحكاً من فصاحتها، لأنها جمعتْ في الآية الفصاحة كلَّها وذلك لأن قولها: ﴿يا﴾: نادت، ﴿أيها﴾: نبَّهت، ﴿النمل﴾: عيَّنتْ، ﴿ادخلوا﴾: أمرت، ﴿مساكنكم﴾: نصَّت، ﴿لا يَحطِمَنَّكم﴾: حذَّرت، ﴿سليمان﴾: خصَّت، ﴿وجنوده﴾: عَمَّت، ﴿وهم لا يشعرون﴾: عَذَرتْ[3].

قال مقاتل: قال لها سليمان: عِظيني، فقالت: لِمَ سُمِّي أبوك داود وأنت سليمان؟ قال: لا أدري. قالت: لأنه داوى جرحه بمراهم التوبة فوداه ربه، وأنت سليم، آن لك أن تلحق بأبيك[4].

---

(١) الكوس: المشي على رجل واحدة، ومن ذوات الأربع على ثلاث قوائم.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٩٨ـ٢٩٩، وتفسير الثعلبي ٧/ ١٩٤ وما بعدها وعنه وعن زاد المسير ينقل تفسير الآيات.

(٣) «زاد المسير» ٦/ ١٦٢.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٩٩.

وقد ذكرنا أنها قالت له: إني لأجد رائحة الحسد من قولك: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥].

قال وهب: كانت النملة بقدر الذئب[١].

وفي حديث ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً: نهى رسولُ الله ﷺ عن قَتْلِ الهُدْهُد والصُّرَد والنَّحْلَة والنَّمْلَة[٢].

قال وهب: احتاج سليمان إلى حِنطَةٍ فبعث إلى وادي النَّمل فاقترض منهم، فقالت النملة: إلى غداةِ غدٍ، فلما أصبحوا إذا الوادي بأسره حِنطة، فلما أخصبت الأرض بعث إليهم سليمان أضعاف ذلك، فأخذوا مثلما أقرضوا وردُّوا الباقي، فأرسل إليهم سليمان يَعْتِبهُم على ذلك، فقالت النَّملة: إنَّا معاشر النَّمل لا نأكل الربا.

وحدثنا عبد الله بن أبي المَجْد الحربي وجدي رحمة الله عليهما قالا: حدثنا هبة الله ابن الحسين بإسناده عن أبي الصديق النَّاجي قال: خرج سليمان يَسْتَسقي، فمرَّ بنَمْلَة وقد استلقت ورفعت قَوائمَها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنَّا خلقٌ من خَلْقِكَ ليس لنا غنًى عن سؤالك، فإمّا أن تَسقِيَنَا وإمَّا أنْ تُهلِكَنَا، فقال سليمان: ارجعوا فقد سُقيتم بدعوة غيركم، قال: فَسُقُوا[٣].

وقال عبد الله بن أحمد بإسناده عن وهب بن منبه قال: ركب سليمان يوماً على الريح فمرَّ بحرَّاثٍ فنظر إليه فقال: لقد أوتي ابن داودَ ملكاً عَظِيماً، فحملت الرِّيح كلامه فألْقَتْه في أذن سليمان، فنزل من البساط ووقف على الحرَّاث فقال: قد سمعتُ ما قلتَ وإنَّما مشيتُ إليك لئلا تتمنَّى ما لا تقدر عليه، لتَسبيحةٌ واحدة يقبلها الله خيرٌ مما أُوتي آل داود، فقال الحرَّاث: أَذهبَ الله همَّكَ كما أذهبتَ هَمِّي[٤].

وفي رواية: أنَّ الحرَّاث لمَّا قال ذلك ناداه مَلَكٌ مِنَ السماء: لَتَسبيحةٌ واحدةٌ خيرٌ

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٩٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠٦٦) مرفوعاً.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠١٠١) و(٣٥٤١٤) (طبعة عوامة)، وأحمد في الزهد ١١٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٠٣)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٠١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٨٦.

(٤) «الزهد» ص ٥١، و«عرائس المجالس» ص ٢٩٥ـ٢٩٦.

مما أوتي ابن داود، قال: ولِمَ؟ قال: لأن التَّسبيحَة تبقى ومُلْك ابن داود يَفنى.

وفي رواية: أنَّ الحرَّاث لما رأى البساط قال: لو أن ابن داود عندي كلَّمته بثلاث كلماتٍ، فأوحى الله إليه انزل إليه، فنزل سليمان وقال: ما الكلمات؟ قال:

أما الأولى، فإني قلتُ: والله ما سليمان في لذةٍ التذَّ بها أمسِ وأنا في تعبٍ تعبته أمس إلا سواءً، فلا هو واجد لَذَّة أمس ولا أنا وجدْتُ تعبَ أمس.

والثانية: قلتُ: سليمان يموت وأنا أموت.

والثالثة: قلتُ: سليمان سأل وأُعْطِيَ وأنا لا أسأل(١)، فخرَّ سُلَيْمان يبكي ويقول: إلهي لولا أنك جَواد لا تبخل لسألتك أنْ تَنْزِعَ عنِّي ما أعطيتَني.

قال كعب: مرَّ سليمان في طريقه إلى اليَمَن على يَثْرِب فقال: هذه مُهاجَرُ نبيٍّ يُبعثُ في آخر الزمان، فطوبى لمن رآه وآمن به. قال: ثم مرَّ على البيت فرأى حوله أصناماً تُعبدُ من دون الله فجاوزهُ لم ينزل عنده، فبكى البيتُ، فأوحى الله إلى البيت: سأملؤك وجوهاً سجداً، وأُنزل فيك قرآناً، وأبعثُ منك نبياً في آخر الزمان هو أحبُّ أنبيائي إليَّ، وأُسْكِنُ حَولك عُمَّاراً من أمَّته يعبدونني ويمجِّدونني ويطهِّرونك من الأصنام، وأفترضُ زيارتك عليهم، يَزِفُّون إليك زَفيف النسور إلى أوكارها، ويحنُّون إليك حنينَ النوق إلى أولادها، وسيعود إليك سليمانُ ويَقضي واجبَ حقِّكَ. فلمَّا عاد نزل به وكسر الأصنام وطاف به وذبح الذبائح وقضى نُسُكَه(٢).

فصل في عرض الخيل على سليمان

وهل عقرها قبل وقوع المحنة أو بعدها؟ فيه قولان.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ [ص: ٣١] العشيّ: ما بعد الزَّوال، لأن النهار قسمان غداة وعشي، فالغداة من طُلُوع الفجر إلى وقت الزَّوال، والعشيُّ ما بعد الزَّوال إلى غروب الشمس.

(١) في (ب): «سليمان يسأل غداً وأنا لا أسأل».

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٩٨.

والصافنات: الخيل التي تقوم على ثلاث قوائم وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل. قاله مجاهد وابن زيد، واختاره الزَّجاج واحتجَّ بقول الشاعر:

أَلِفَ الصُّفُونَ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلى الثَّلاثِ كَسِيْرا[١]

قال الفرَّاء: إنَّها القائمة، سواء أكانت على ثلاث قوائم أو على أربع، ومنه قول النبي ﷺ: «مَنْ أَحبَّ أنْ يَقُومَ لَهُ الرِّجَالُ صفوناً فليتبوَّأ مقعدَهُ مِنَ النَّار»[٢].

وأما الجياد: فهي السِّراعُ في الجَرْي.

وفي سبب عرضها عليه أقوال:

أحدها: أنه أراد جهاد عدوٍّ له، قاله علي عليه السلام.

والثاني: أنها أُخرجت له من البحر، قاله الحَسَن ووهب.

وقال وهب: قيل لسليمان: إنَّ خيلاً بَلْقَاء لها أَجنحةٌ تطير بها وإنَّها تردُ ماءَ كذا في جزيرة كذا وكذا، فأمر الشياطين بإحضارها فأخذوا سلاسل ولجماً وجاؤوا إلى العين التي تشرب منها، فسكبوا فيها الخمر، فجاءت فشربت، فوضعوا اللُّجُمَ في رؤوسها والسلاسل في أعناقها وجاؤوا بها إليه فاستعرضها[٣].

والثالث: أنه ورثها عن أبيه فعُرضت عليه، قاله ابن السَّائب.

والرابع: أنه غزا أهل دمشق فأصابها منهم، فجلس يعرضها، قاله مقاتل.

واختلفوا في عددها على أقوال:

(١) البيت في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٣٠، وتفسير الماوردي ٥/ ٩٢، وزاد المسير ٧/ ١٢٧، والتبصرة ١/ ٢٨٩، وتفسير القرطبي ١٨/ ١٩١، وأساس البلاغة، واللسان، وتاج العروس (صفن) دون نسبة.

(٢) أورده بهذا اللفظ الخطابي في غريب الحديث ١/ ٣٩٧، والثعلبي في تفسيره ٨/ ٢٠٠، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٩١، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٩١، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٢٧، والتبصرة ١/ ٢٨٩، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ١٤٢: لم أجده هكذا.

وأخرج أحمد في مسنده (١٦٨٣٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٧)، وأبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥) من حديث معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرّه أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار».

(٣) انظر «تاريخ دمشق» ٢٢/ ٢٤٠.

أحدها: أنها كانت ألف فرسٍ، قاله ابنُ السَّائب الكلبي.

والثاني: أربعين، قاله كعب، وقال: ظلمها بعقرها، فسلبه الله ملكه أربعين يوماً.

والثالث: أربعة عشر، قال كعب: فعاقبه الله بزوال ملكه أربعة عشر يوماً.

والرابع: كانت عشرين، قاله مقاتل وإبراهيم التيمي.

وحكى جدي في «التبصرة» قولين: أحدهما عن وهب: أنها كانت ثلاثة عشر ألفاً.

والثاني: عشرين ألفاً. عن سعيد بن [جبير و] مسروق[(١)].

والقولان بعيدان. ويحتمل أن الكاتب أراد أن يقول ثلاثة عشر أو عشرين فزاد ألفاً.

قال ابن عباس: صلى سليمان الظُّهر وقعد على كرسيِّه وهي تُعرَض عليه حتى فاتته صلاة العصر فاغتمَّ لذلك قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[ص: ٣٣] فعرقبها وقربها إلى الله، قال مقاتل: وبقي منها مئة فرس، فجميع ما في أيدي الناس من الخيل من تلك المئة.

قال محمد بن السائب الكلبي: ورد عليه قوم من الأزد أصهاره فقالوا: يا نبيَّ الله إن أرضنا شاسعة فزوِّدْنا زاداً يبلِّغنا، فأعطاهم فرساً من تلك الخيل وقال: إذا نزلتم منزلاً فاحملوا عليه غلاماً واحتطبوا، فإنكم لا تورون ناراً ـ أو ناركم ـ حتى يأتيكم بصيد، ففعلوا ذلك، فكان الغلام لا تقع عينه على شيء من الصيد فيفلت، فما زالوا كذلك حتى وصلوا إلى بلادهم فسمَّوه: زاد الراكب، فأصلُ فحولِ العرب من نتاجه[(٢)] قال: وكان فحل مالك بن عامر الذي يقال له: أعوج منها، ويقال: إنه كان لعمرو بن نهيك، وفيه يقول لبيد[(٣)]:

مَعاقِلُنَا التي نأوي إليها ... بَناتُ الأَعْوَجِيَّةِ والسُّيوفُ

ومنها: الغَضْبَان فرسٌ كان لهارون الرَّشيد، وسنذكره.

قال مقاتل: مازالت الخيل تُعرض عليه حتى فاتته صلاة العصر وكان مَهيباً، فلم

(١) «التبصرة» ١/ ٢٨٩، وما بين معكوفين منه.

(٢) انظر «أنساب الخيل» ص ١٣ـ١٤، والعقد ١/ ١٥٧.

(٣) البيت في ديوانه: ص ٣٥١.

يتجاسر أحدٌ أنْ يذكِّره، فلما غابت ذكَر فقال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: الخيل ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾[ص: ٣٢] يعني الصلاة.

واختلفوا في معنى قوله ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ على قولين:

أحدهما: أنه أشار إلى الخيل، في قولِ عامَّة المفسرين.

والثاني: إلى الشمس، كأنه قال: يا ملائكة الله رُدُّوا الشمسَ عليَّ، أي: أمسكوها، وكانت قد غابت.

فإن قيل: فقد وقفت الشمس ليُوشَع بن نُون، وكان سليمان أعظمَ منه مُلكاً، فالجواب من وجوه:

أحدها: يوشع إنما سأل وقوفَ الشمس ليجاهد في سبيل الله، وسليمان كان مشغولاً بالزينة والنظر إلى الخيل لا لأجل الجهاد، وخاف يُوشَع دخول السبت، أما سليمان فلا.

والثاني: أنَّ فتح أَرِيْحا كان معجزةً، لأنه شرع فيه وأتمَّه يُوشَع، وموسى أفضل منه، فكان وقوف الشمس من معجزات موسى.

والثالث: أنها بعد الغروب لا يمكن عودها لاختلاف الأفلاك، أما وقوفها فممكنٌ لأنها تسير قليلاً قليلاً.

وفي المراد(١) بالمسح قولان:

أحدهما: أنه ضَرَبها بالسيف، رواه أُبيُّ بن كعب عن رسول الله ﷺ(٢).

والثاني: أنه كوى سوقها وأعناقها وحبسها في سبيل الله. حكاه الثعلبيُّ(٣).

والعلماء على الأول.

فإن قيل: فكيف جاز له ذلك، وعقوبة مَن لم يذنب على وجه التَّشفِّي من فعل

---

(١) من قوله: ومنها الغضبان... إلى هنا ليس في (ب).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٩٩٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٠٠: فيه سعيد بن بشير وثقه شعبة وغيره وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات.

(٣) انظر تفسير الثعلبي ٨/ ٢٠١، و«عرائس المجالس» ص ٣٠٥.

الجَبَابِرة لا من فعل الأنبياء؟

فالجواب: أنه نبيٌّ معصوم، فلم يكن يفعل إلا ما أجيز له فعله، وجائز أن يُباحَ له ما يمنع منه في شرعنا، على أنه إذا ذبحها كانت قرباناً، فما وقع منه تفريط، ألا ترى أنَّ الله سخَّر له الرِّيح مكانها، ولو كان ذلك الفعلُ حراماً لما فعله، لأنَّ الأنبياء لا يفعلون الحرام[١].

وقد قال علي عليه السلام: كان عقر الخيل بعد الوقوع في المحنة، ولما بلغه قول كعب: إنَّه عقر أربعين فرساً فَسَلَبَه اللهُ الملك أربعين يوماً فقال: كذبَ كعبٌ، إنَّما كان عقر الخيل بعد المحنة ولا عَرْقَبها إلا لمَّا فاتته الصلاةُ، وأنبياء الله لا يَظلمون ولا يأمرون بالظلم.

قال ابن عباس: كان عقر الخيل قبل المحنة، وهو الظاهر، لأن المحنة كانت في آخر عمره، لما يذكر.

قال: وقد قال أبو حنيفة: يُكره أكل لحوم الخيل لما فيه من تقليل آلة الجهاد، قال ﷺ: «الخَيْل مَعْقُودٌ في نَوَاصِيها الخَيْر والنَّيْلُ إلى يَومِ القيَامَةِ»[٢]. وهذا دَليل على أنَّها مكرمة وفي الذبح إهانتها. وعند الباقين من الفقهاء: لا يكره لأنَّها من المباحات كالإبل والبقر والغنم، والفرق لأبي حنيفة ظاهر لما عرف من مسائل الخلاف.

فصل في قصة الهدهد وبلقيس[٣]

قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]. وقال الجوهري: الهدهد طائر معروف، والهداهد مثله، وهداد حي من اليمن[٤].

(١) انظر «زاد المسير» ٧/ ١٣٢.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٧٩١)، من حديث جابر وأصله في «البخاري» (٣٦٤٣)، و«مسلم» (١٨٧٢) من حديث ابن عمر بلفظ «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

(٣) من قوله: حكاه الثعلبي . . . إلى هنا ليس في (ب).

(٤) «الصحاح»: (هدد).

قال علماء السِّير: إنما تفقد الهدهد من دون سائر الطيور لوجهين:

أحدهما: لأنه كان يدلُّه على الماء، قاله ابن عباس رضي الله عنه.

والثاني: لأن سليمان كان إذا سافر جلس على كرسيه، وتوضع الكراسي عن يمينه وشماله، وتقوم الجنُّ في خدمته، وتظله الطير، ولكلٍّ جنس مقام، وكان موقف الهدهد على رأسه يُظلُّه من الشمس(١).

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان هذا بعد فراغه من بناء البيت المقدس، فإنه عزم على دخول الحجاز واليَمَن، فسار في جنوده على عادته والبساطُ يُقِلُّه، فأتى حرم مَكَّة فنزل به، وأقام أياماً يطوف بالبيت ويسعى ويَعتمر، ويذبح كلَّ يوم خمسة آلاف ناقة وعشرة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة.

وقال مجاهد: قال سليمان لأصحابه: هذا مكان شريف يخرج منه نبيٌّ كريم اسمه محمد، وفي «التوراة»: أحمد، يُعْطى النَّصر على مَن ناوَأه، وتبلغُ هَيبَتُه مسيرةَ شهر، القريب والبعيد عنده في الحقِّ سواء، لا تأخذه في الله لومةُ لائم، يدين بدين الحنيفية، يخرج بعد ألف عام، ثم كسر الأصنام وقضى نُسُكَه. وقيل: إنَّه قال: وإنَّ اسمه لفي زبر الأنبياء: منيب، ثم دخل إلى اليمن.

وكان كثير الغزو لا يَسمع بملك في أطراف الأرض إلا غزاه وأَذلَّه، فسار من مكة يؤمُّ سُهَيلاً حتى أتى موضع صَنْعَاء، ولم تكن بُنِيَتْ بعد، وإنما أتى مكانها وقت الزوال، وكان قد خرج من مكة وقتَ الفجر، وذلك بمقدار سير شهر للراكب المجدِّ، فرأى أرضاً خضراء فأعجبته، فنزل بها ليتغدّى ويصلي الظُّهر، فطلب الماءَ فلم يجد، فسأل الشياطين فقالوا: لا يَعلمُ مكانَ الماء إلا الهدهد، فطلبه فلم يجده.

قال ابن عباس: كان الهدهد يدُلُّه على الماء، وهو يراه من تحت الأرض كما يراه الإنسان في كأسه، ينقر الأرض فيعرف مكان الماء ويستخرجه الشياطين، ولما سمع نافع بن الأزرق هذا من ابن عباس قال: كيف يبصر الماءَ من تحت الأرض ولا يبصر الفخَّ حتى يجيء فيقع فيه فيأخذ بعنقه؟! فقال له ابن عباس: وَيحَك إذا جاء القَدَر حال

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣١٣.

دونَ البصر(١).

وقال جدي رحمه الله: كان الهدهد ينظر إلى الماء في باطن الأرض كما ينظره في الزجاج، غير أن القدر إذا نصبَ فَخَّ شخصٍ بُدِّل عَذْبُ نظرِهِ بالأُجاج.

قال ابن عباس: لما نزل سليمان بأرض صَنْعَاء قال الهدهد: إنَّ سليمان قد اشتغل بنزوله عني، فارتفع نحو السماء فنظر الدنيا يميناً وشمالاً، فرأى بستان بِلْقيس، فمال إلى الخضرة فنزل به، وإذا بهدهدٍ في البستان، وكان هدهدَ بلْقيس، واسمه: عفير، واسم هدهد سليمان: يعفور. فقال له عفير: من أين أقبلت؟ فقال: من الشام مع صاحبي سليمان بن داود. قال: ومَن سليمان؟ قال: مِلِكُ الإنس والجن والطير والوحش والرِّيح، فَمَن أنتَ؟ فقال: أنا صاحبُ بلْقيس، مَلِكة عظيمة. فقال له يعفور: أقول لك نبي الله ابن نبي الله داود آتاه الله ملكاً عظيماً، وأنت تقول امرأة، فقال: هي وإن كانت امرأة فإن تحت يدها اثني عشر ألف قائد ـ أو قَيْل ـ تحت يد كل قائد مئة ألف مقاتل. كذا ذكر الثعلبي(٢).

وحكى الثعلبي عن ابن عباس أنه قال: كان معها مئة ألف قَيْل مع كل قَيْل مئة ألف، وقد ذكره جدي في «التبصرة» وفيه بُعْدٌ(٣).

وقال قتادة: كانت تحت يدها اثنا عشر ألف قَيْل، تحت يَد كل قَيْل اثنا عشر ألفاً ـ والقَيْل بلغة حمير دون الملك ـ فهل أنك منطلق معي حتى تنظر إلى مُلكها؟ فقال: أخاف أن يتفقدني سليمان وقتَ الصلاة إذا احتاج إلى الماء، فقال عفير: إنَّ صاحبك يسرُّهُ أن يأتيه خبر هذه المرأة، أو الملكة. فانطلقَ به فأراه قصرها ومُلْكها، وما رجع إلى سليمان إلى وقت العصر.

قال مقاتل: وأمَّا سليمان فلما تفقَّده ولم يره قال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾[النمل: ٢٠] ومعناه ما للهدهد لا أراه، فَطُلِبَ فلم يوجد، وقيل: إنما طلبه

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣١٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣١٣.

(٣) لم نقف عليه في التبصرة، وذكره في زاد المسير ١٠٤٥ (طبعة ابن حزم)، وانظر تفسير الثعلبي ٧/ ٢٠٠، ٢٠٥.

لأنه أخلَّ بالخدمة وترك النوبة في مقامه، وقيل: لأجل الماء، وقد رجح بعضهم أنه إنما تفقده لكونه أخلَّ بالخدمة لا لأنه كان يدله على الماء، قالوا: لأنَّ سليمانَ في عظمته ومملكته أجلُّ من أن يحتاج إلى هدهد يدله على الماء. وليس هذا القول، بشيء لأنَّ عامة العلماء وابن عباس على أنه كان يدلُّه على الماء. والمعنى فيه: أنَّ الله جعله دليلاً على الماء إظهاراً للكمال والقدرة وتعجيزاً لسليمان مع عِظم مملكته، فأحوجه إلى طير حقير يدلُّه على الماء الذي به بقاءُ الأَرواح، ليعلم أنَّ الكمالَ لله، ولئلا يعجب بنفسه.

وقوله: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ قيل: معناه بل كان. ثم توعده فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: لأنتفنَّ ريشه، قاله ابن عباس والجمهور.

والثاني: لألقينَّه في الشمس ممعوطاً، قاله زيد بن أسلم.

والثالث: لأَجعلنه في قفص، قاله عكرمة.

والرابع: لأحبسنَّه مع غير أبناء جنسه، قاله قتادة.

والخامس: لأُفرقنَّ بينه وبين أحبابه، قاله الحسن.

والسادس: لأمنعنَّه من خدمتي[1].

ثم قال: ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ جعل الذبح آخر العذاب ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[النمل: ٢١] أي: بحجة واضحة. وقال ابن عباس: كل سلطان في القرآن، فالمراد به الحجة[2].

قال مقاتل: ولما غضب سليمان على الهدهدِ دعا بعرفاء الطُّيور وهما النسر والعُقاب، وقيل: إنما دعا بالعُقاب، وهو ملك الطير، فقال: عليَّ الساعةَ بالهدهد، فارتفع العُقاب إلى عنان السماء فنظر يميناً وشمالاً فرأى الأرض كالقصعة، ونظر نحو اليمين وإذا بالهدهد قد أقبل، فانقضَّ عليه العُقاب، فعلم أنه يريده بسوء، فقال له:

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣١٤، والممعوط: المنتوف الريش.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣١٤.

بالذي أَقْدَرَكَ عليَّ إلّا ما رحمتني، فقال: وَيحك إنَّ نبيَّ الله قد آلى أنْ يُعَذِّبك عذاباً شديداً فقال: وما استثنى؟ قال: بلى، قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وجاء فوقف بين يدي سليمان خاشعاً ذليلاً فتواعده بالعذاب، فقال له: اذكر وقوفك بين يدي الله أذلَّ من وقوفي بين يديك، فانتفض سليمان من خَشية الله تعالى ثم قال له: أين كنت؟ قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[النمل: ٢٢]. قال ابن عباس. ومعنى ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[النمل: ٢٢] أنه غاب عنه من الظهر إلى العصر، قال مقاتل: ومعنى ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي علمتُ بما لم تعلم مع عظيم سُلْطانك وحقارتي.

فإن قيل: فمن أين للهدهد هذا الإقدام على مثل سليمان؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه لما قيل له إنَّ سليمان قد توعَّدك قال: أما قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ فتهديد مَلِك، والحلمُ أحسن. وأما قوله: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ فقول من لم ينظر في العواقب ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ سؤال لازم يقتضي الجواب وهو على ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾. فقيل له: كيف تجاسر الهدهد على هذا؟ فقال: وهو الثاني: إنّ الهدهد كان مُحِقّاً والمحقُّ ما يخاف.

والثالث: إنه قول مستقبل والمستقبل لا يلتفت إليه.

والرابع: أنه شغله بحديث يحتاج إلى فكرة ورويَّة، وفي تلك المدة يسكن الغضب، ألا ترى إلى قوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾.

والخامس: أنه شغله بذكر الزوجة ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾[النمل: ٢٣] فكأنه يقول: إنْ لم تكن بك رغبة في تزويجها فارغب في مالها بطريق الاستيلاء، ومهما حصل لك من القسمين فهو فدائي من القتل.

والسادس: اشتغلْ عن قتل عاجز بين يديك بذكر عجزك عن قادر يقتدر عليك.

والسابع: أنا مؤمن وقومُها وهي كفار، فاشتغل بقتلهم عن قتلي .﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[النمل: ٢٤] فاشتغلْ بقتل من يسجد لغير الله عن قتل من يسجد لله.

والثامن: أنَّ الأنبياء إنما بُعثوا بالعدل، ومن العدل أن تكون العقوبة على قدر

الذنب، فلم جعلتَ غايةَ الحدود وهو القتل في مقابلة ساعة؟

والتاسع: إن فاتكَ الماء فما فاتك المال والملك.

والعاشر: أن لابدَّ للخادم من ساعة يستريح فيها ويتشاغل بمصالح نفسه عن مخدومه.

والحادي عشر: أنا وإن غبتُ عنك ساعةً فإنما كنت في خدمتك ومصالحك، وقد أقام القرآن عذري ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

والثاني عشر: لَمَ قدمتَ العقوبةَ قبل إتيان الحجة ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ﴾ هلَّا قلت: إن لم يأت بحجَّةٍ عذَّبته.

والثالث عشر: إنما ينبغي أن يُهَدَّدَ بالقتل المماثل في المرتبة.

والرابع عشر: ليس العجب من تهدُّدِكَ لي مع القدرة، وإنما العجب من مناظرتي وأنا عاجزٌ عن ردِّ القتل.

والخامس عشر: إنني قد عَرَّفتكَ حالةً ما فهمها غيري، فإذا قتلتني لم تجدْ من يدُلُّكَ على مثلها، فيفوتك ما هو أعظم من قتلي.

والسادس عشر: إنَّك ادَّعيتَ أن الله قد آتاك ملكاً لم يُؤْتِه أحداً من قبلك، أفترضى أن تكون قدرتك على قتل طُوَيْرٍ حقير أَقبلَ مِن عند مَن أُوتيتْ من كلِّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيم؟

والسابع عشر: أنَّ مِن عادة الملوك إذا أرسلوا رسولاً في مهمٍّ أحسنوا إليه، أفيحسنُ بك وقد أتيتك بخبر لو اجتمع عليه رسل الدنيا وطيورها لما قدروا على الإتيان بمثله، أنْ تكون جائزتي القتل.

والثامن عشر: إنَّك إذا قتلتني على ذنبٍ حقير، نَفَر عنك أربابُ الدولة، فدع قتلي حفظاً لدوام مُلكك.

والتاسع عشر: إنني من بعض رعاياك وأنت مسؤولٌ عنِّي فكيف تقتلني، فجزاء سيئة سيئة مثلها.

والعشرون: إنك إنما عزَّ عليك غيبتي لفوات الماء، وكم قد فاتني حظِّي منك وما

طالبتك به.

والحادي والعشرون مثله: إنك إنما عزَّ عليك غيبتي لفوات الماء وكم قد فاتني حظي منك وما طالبتك، وإنَّ العفوَ أحسنُ مِنَ العقوبة فأين تأثير ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[الزمر: ١٨].

والثاني والعشرون: هلَّا تذكرتَ ذنبكَ الذي أوجب أَخذَ الخاتم منك، واشتغلت به عن يسير ذَنبي؟

والثالث والعشرون: أنَّك تدَّعي الفِطنة، وأنا قد أتيتك بحجةِ ذكيٍّ ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ عامة القُرَّاء على عدم صرف «سَبَأ»، وهو اختيار أبي عبيد والحسن وأبي عمرو وابن كثير، جعلوه اسماً للقبيلة، وصرفه آخرون جعلوه اسماً لرجل معروف(١).

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن سَبَأ أَرَجلٌ هو أو امرأة أم أرض أم جبل أم واد؟ فقال النبي ﷺ: «بَلْ رَجُلٌ وَلَد عشرةً، سكن اليَمَنَ منهم ستة، والشامَ أربعة، فأما اليمانيون فَمَذْحِج وكِنْدَة والأَزْدُ والأَشْعَرِيُّون وحِمْيَر وأَنْمَار، وأمَّا الشاميون فلَخْم وجُذَام وعَامِلَة وغَسَّان»(٢).

وقال الزبير بن بَكار: هو سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، قلت: وهذا يدل على صرفه.

﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[النمل: ٢٢] أي: لا شك فيه.

قوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ واختلفوا في اسمها واسم أبيها:

فقال ابن عباس: هي بلْقِيس بنت ذي شرح بن الحارث بن صيفي(٣) بن سَبَأ بن

---

(١) انظر النكت والعيون ٤/ ٢٠٣، وتفسير الثعلبي ٧/ ٢٠١، وزاد المسير ٦/ ١٦٤-١٦٥، والنشر لابن الجزري ٢/ ٣٣٧.

(٢) أحمد في «مسنده» (٢٨٩٨).

(٣) «تاريخ الطبري» ١/ ٤٨٩ والمصادر السالفة قبل حاشيتين.

يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، ويلقب أبوها بالهدهاد.

وقال عكرمة: بِلْقِيس بنت شراحيل بن ذي جَدَن.

وقال قتادة: بلْقِيس لقب لها، واسمها: بلقمة بنت ذي شرح، وقيل: بنت الشيصبان، وقيل: اسمها ليلى.

وحكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن الحسن أنَّ سَبَأ مدينة باليمَن، وبِلْقِيس من حِمْيَر بنت شرحبيل، قال: وقال الحسن البصري أيضاً: أنَّ ملكة سبأ اسمها ليلى.

وحكى أبو القاسم أيضاً في «تاريخه» أنَّ ذا القرنين مَلَكَ الأرض كلَّها إلا بلاد بِلْقِيس، وكان ذو القرنين إذا أراد أنْ يحارب أهل مدينة لبس ثيابَ المساكين، ودخل المدينة فكشف عورتها قبل أنْ يقاتل أهلها. فأخبرت بلْقيس بذلك، فبعثت مَنْ صوَّر صورته في زيّ المساكين ثُمَّ جعلت تطعم المساكين في كلِّ يوم، فإذا أكلوا اعترضتهم واحداً واحداً إلى أنْ جاء ذو القَرنين فعرفته، فقالت: والله لا أفارقك إلا أن تكتب لي كتابَ أمانٍ على مُلكي، وإلا قتلتكَ. فكتبَ لها[(١)].

قلت: والعجب مِن أبي القاسم كيف يحكي مثل هذا، وذو القرنين كان في زمان الخليل عليه السلام، وأين زمان الخليل من زمان سليمان، بينهما ألوف سنين.

ثم ذكر أبو القاسم أنَّ بلْقِيس لم يَطُل عمرها وأنها ملكت سبع سنين، وهذا تناقض ظاهر.

وحكى المسعودي من هذا الجنس فقال: إن أبا بلْقِيس خرج يوماً يتصيد فرأى حيتين بيضاء وسوداء، فأمر بقتلهما فانتفضتا، فخرج رجل وامرأة وإذا بالمرأة ابنة الرجل فرآها جميلة، فزوَّجه أبوها إياها، فولدت بلْقيس[(٢)].

قال أبو القاسم في «تاريخ دمشق»: سئل الحسن البصري عن قول النبي ﷺ: «أحد أبوي بلقيس كان جنيّاً»، فأنكر ذلك وقال: إن المرأة من الجِنِّ لا تلد من الإنس[(٣)]، كأنه ضعَّف الحديث.

---

(١) انظر «تاريخ دمشق» ٦٩/ ٦٨.

(٢) «مروج الذهب» ٣/ ١٥٢.

(٣) «تاريخ دمشق» ٦٩/ ٦٧.

وذكر قتادة: أنَّ أحد أبويها كان جِنِّياً وأنَّ مؤخر قدميها مثل حافر الدَّابة، وكانت تسكن بمَأْرِب.

وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ ما ذكره الحسن، ولا يصحُّ، وإنما هو موقوف على أبي هريرة.

وقال ابن الكلبي: كان أبوها من عظماء الملوك، وُلِد له أربعون مَلِكاً، وكان يملك اليمن كلَّها ويقول: ليس من ملوك الأطراف من يكافيني، فتزوج امرأة من الجن يقال لها: ريحانة بنت السكن، فَوَلَدت له بلقمة، وهي بِلْقِيس، ولم يكن له ولد غيرها. ولما مات أبوها طمعت بِلْقِيس في المُلْك فأطاعها بعض قومها وعصى عليها البعض، وملَّكوا عليهم رجلاً وافترقوا فرقتين كلُّ فريقٍ استولى على طرف من الأرض، فمدَّ ذلك الرجل يده إلى أموال الرَّعية وحرمهم، وكان يفجر بالنِّساء فكرهوه، وأرسلت إليه بِلْقِيس ترغبُ فيه فتزوجها، فلما زُفَّتْ إليه سقته الخمرَ حتى سكر وذبحته، ونصبت رأسه على باب قصرها، فعَظُمتْ في أعين الناس وأطاعوها، وعلموا أنها تزوَّجته حيلةً لتريحهم منه، فقالوا: أنتِ أحقُّ بالملك مِن غيرك، فقالت: إنما قتلته حميَّةً على نسائكم وغيرةً عليكم، فدعوا لها[(١)].

وقال جدي رحمه الله في «تاريخه» وفي «التبصرة»: إنَّ أباها مَلَك سنةً ثم احْتُضِر، فاستخلفها وعهد إليها، ودعا أَشرافَ قومه وأخبرهم بذلك، لما عَرَف مِن رأيها وحُسن تدبيرها، فقال له بعضهم: أتدعُ أشرافَ قومك وأفاضِلَهم وتستخلفُ امرأة؟ فذكر لهم حُسن سيرتها وما جَرَّبَهُ من تدبيرها ومعرفتها بسياسة المُلْك، فقالوا: رضينا، وكانت تسكن أرض سَبَأ وهي مَأْرِب[(٢)].

وقال الجوهري: مَأرِب موضع[(٣)]. وبعضهم يقول: مَأْرِب اسم قصر بِلْقِيس، وأنشد لأبي الطَّمَحَان[(٤)]:

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣١٥.
(٢) «التبصرة» ١/ ٣٠٤، ولم نقف على الخبر في «المنتظم».
(٣) «الصحاح»: (أرب).
(٤) البيت في كتاب «الحيوان» ٦/ ١٥٤ للجاحظ، ومروج الذهب ٣/ ٣٧٤.

أَلَـمْ تَـرَ مَـأْرِبَـاً مـا كَـان أَحْـصَـنَـهُ[١] ومـا حَـوَالَـيْـه مِـن سُـورٍ وبُـنْـيَـانِ

وقال المسعودي في «تاريخه»: مَأْرِب اسم المَلِك الذي كان يملكهم. وهو وهم منه، والأول أصح[٢].

قال وهب: كان يحرسها الرِّجال ويخدمها بنات الأشراف، وكان معها في قصرها ألف امرأة، وكانت تأخذ الجارية وهي صغيرة، فإذا بَلَغت حدَّثتها حديثَ الرجال، فإذا رأتها قد تغيَّر لونها ونَكَست رأسها علمتْ أنها تريد الرجال فسرَّحتها إلى أهلها، وإنْ رأتها مستمعةً لحديثها غير متغيرة اللون، عرفت أنها لا تريد الرجال فأسكنتها معها وجعلتها من خاصَّتها.

قال المصنف رحمه الله: وقول من قال: إن أباها أقام سنة في الملك، بعيدٌ، لأن له سيرةً مذكورة وغزواتٍ، وأقام مدة، ذكره الكلبي.

وقال مقاتل: كان لها ثلاث مئة وستون رجلاً من عقلاء الناس تشاورهم في أمرها.

قال مجاهد: أقامت في مُلكها سبع سنين، ولم يعلم بها سليمان.

قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كل ما يحتاج إليه الملوك من العَدَد والعُدَد وغير ذلك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[النمل: ٢٣] أي: سرير ضخم من الذهب مُرَصَّعٌ بالدُّر والجَوْهر، وله أربع قوائم، الواحدة من الياقوت الأحمر، والثانية من الياقوت الأصفر، والثالثة من زمرد، والرابعة من زبرجد.

قال الكلبي: وكان له سبعة أبيات على كل بيت باب مقفل، وقال الحسن وابن عباس: كان طوله ثلاثين ذراعاً وارتفاعه كذلك وعرضه كذلك، وقال مقاتل: كان طوله ثمانين ذراعاً وهو مكلل بالجوهر.

قوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: يعبدونها، ثم قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾[النمل: ٢٥].

وحكى الثعلبي عن يزيد ومحمد بن إسحاق أن من قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[النمل: ٢٦] من قول الهدهد وكلامه.

---

(١) في (ط): أحسنه، والمثبت من المصدرين.

(٢) لم يجزم بهذا القول المسعودي ٣/ ٣٧٣، وإنما ذكره أحد قولين.

قال مقاتل: لما سمع سليمان هذا الكلام استعظمه فقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[النمل: ٢٧] يعني بما أخبرت، وإنما قال هذا لأنه استعظم أن يكون في الأرض لغيره سلطان، وخصوصاً امرأة لها مملكة تتسع لما ذكر عنها من الجيوش والعظمة.

ثم إنَّ الهدهد دلَّهم على الماء وكانوا قد عَطشوا فحفروا الرَّكايا وشربوا، ثم كتب سليمان كتاباً، واختلفوا في الذي كان فيه: فقال مقاتل: كان فيه: من عبد الله سليمان ابن داود إلى بِلْقِيس بنت الهدهاد والسلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليَّ وأتوني مُسلمين، وبه قال مجاهد.

وقال الحسن: كتب إليها كتاباً كما أخبر الله عنه ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠ـ٣١] لم يزد على هذا.

قال ابن جريج: كان سليمان أبْلغ الناس في الكتابة وأقلهم إملاءً، قال: وكذا الأنبياء يكتبون جملاً ولا يطيلون.

فإن قيل: فلمَ قدَّم اسمه على اسم ربِّه؟ قلنا: لأنَّ القوم كانوا يعبدون الشمس من دون الله، ولا يعرفون الله، فخاف أنْ يبدو منهم ما لا يليقُ عند قراءة اسم الله، فقدَّم اسمه لهذا المعنى.

قال مقاتل: ولما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه، وقال للهدهد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[النمل: ٢٨] أي: يردُّون من الجواب، فأخذ الكتاب وقصد بلقيس وهي بمَأْرِب.

قال الجوهري: مأرب موضع(١).

وقال مقاتل: هي أرضٌ طيبةُ الهواء، لذيذة الماء، بينها وبين صَنْعاء ثلاثة أيام.

فوافاها في قصرها وهي نائمة، وأغلقت الأبواب، وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها، وهذه كانت عادتها، فجاءها الهدهد وهي مستلقية على قفاها فألقى الكتاب في نحرها.

---

(١) «الصحاح»: (أرب).

قال قتادة: حمله في منقاره وجاء إلى كُوَّةٍ مقابلة الشمس تقع فيها عند طلوعها فتسجد لها، فسدَّ الكوَّة بجناحه، فارتفعت الشمس ولم تعلم، فقامت تنظر، فرمى بالكتاب إليها.

وقال مقاتل: حمله في منقاره وجاءها وهي جالسة وحولها الجيوش والأقيال، فرفرف ساعةً وهم ينظرون إليه، فرفعت رأسها، فرمى به في حجرها، والأول أشهر(١).

ولما رمى به أخذته، وكانت كاتبةً قارئة عربيةً من قوم يَعْرُب، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، لأن ملك سليمان كان في خاتمه، وعرفت أنَّ الذي أرسل الكتاب أعظم منها، وفهمت من قرائن الأحوال أنَّ مَنْ جنده الطيرُ لا يُحارَبُ. وقرأت الكتاب، وتأخر الهدهد غير بعيد، فجلست على سريرها، واستدعت الأشراف والأَقْيَال وأهل المشورة، وقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾[النمل: ٢٩].

واختلفوا في معنى كرمه على أقوال:

أحدها: أنه الحَسَن، كقوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨].

والثاني: شريف، قاله ابن عباس.

والثالث: لأن اسم الله كان في الخاتم الذي طبع به، قاله مقاتل.

والرابع: لأنه كان مختوماً، قاله مجاهد(٢).

وهو الأصحّ لأن كرم الكتاب ختمه، وقد رواه ابن زيد عن ابن عباس مرفوعاً(٣)، ولما كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك قيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً غير مختوم، فاتخذ الختم(٤).

ثم قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[النمل: ٣٢] ﴿قاطعةً﴾ أي: قاضية وفاصلة أمراً. ﴿حتى تشهدون﴾ أي: تحضرون ﴿قَالُوٓاْ﴾ مجيبين

---

(١) انظر «زاد المسير» ٦/ ١٦٧ـ١٦٨.

(٢) انظر «زاد المسير» ٦/ ١٦٨.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٨٧٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٩٩: فيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك.

(٤) أخرجه «البخاري» (٦٥)، و«مسلم» (٢٠٩٢) (٥٦ـ٥٧)، وأبو داود (٤٢١٤)، والترمذي (٢٧١٨).

لها ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ في الحرب ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[النمل: ٣٣] فقالت حين عرضوا عليها الحرب: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي: أخربوها إذا فتحوها عنوة ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي: أهانوا أشرافها لتستقيم لهم الأمور فصدَّق الله قولها، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[النمل: ٣٤] فالأول حكاه عن بلقيس والثاني عن الله تعالى.

أنشدنا عبد الوهاب بن علي بن علي الصوفي لغيره[١]:

إنَّ الملُوكَ بَلاءٌ حَيثُما حَلّوا ... فلا يَكُنْ لكَ في أَكْنافِهِم ظِلُّ
ماذا تُؤمِّلُ مِن قَومٍ إذا غَضِبُوا ... جَاروا عَلَيك وإنْ أرضَيْتَهم مَلُّوا
وإنْ مَدَحتَهُم خَالوك تَخدَعُهُمْ ... واستَثقلُوكَ كَمَا يُستثقَلُ الكَلُّ
فاستَغنِ باللهِ عَن أبوابِهم كَرَماً ... إنَّ الوُقوفَ على أَبوابِهِم ذُلُّ

ثم قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾[النمل: ٣٥] أُصَانع بها عن نفسي وملكي وأختبره، فإن كان نبياً لم يقبلها ولم يرضها، ولم يُرْضِه إلا إنْ اتّبعنا دينه، وإن كان ملكاً أخذها وانصرف[٢].

واختلفوا في الهدية:

فذكر جدي رحمه الله في «التبصرة» قال: بعثتْ له ثلاث لبناتٍ من ذهب في كلِّ لبنةٍ مئةُ رطل، وياقوتة حمراء طولها شبرٌ غير مثقوبة، وثلاثين وصيفة، وثلاثين وصيفاً وألبستهم لباساً واحداً، فلا يُعْرَفُ الذكر من الأنثى[٣].

قال ابن عباس والحسن ومجاهد: بعثت إليه بخمس مئة لبنة من ذهب، وخمس مئة لبنة من فضة، في كل لبنة مئة رطل، وخمس مئة وصيف، وخمسمائة وصيفة ألبست الغِلْمان ثيابَ الجواري وجعلت في أعناقهم أطواقَ الذهب، وفي أيديهم أساور الذهب، وفي آذانهم أقراطاً من ذهب، وحملتهم على خمس مئة رَمَكَة، وألبست

---

(١) الأبيات في «عرائس المجالس» منسوبة لوالد الجنيد ص ٣١٧، وفي تفسير الثعلبي ٧/ ٢٠٦، وشعب الإيمان (٩٤٣٤) لوالد أبي القاسم الحبيبي، وفي العقد ٣/ ٢٠٠ دون نسبة، وفي جمهرة الأمثال ١/ ٣٠١ لأبي العتاهية.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٣١٧.

(٣) «التبصرة» ١/ ٣٠٥.

الجواري ثياب الغلمان وحملتهن على خمس مئة بِرْذَون، وألبستهن الدِّيباج، وجميع السروج مرصعة بالجواهر واليواقيت، وعمدت إلى حُقٍّ فتركت فيه درةً يتيمة حمراء غير مثقوبة طولها شبرٌ، وخرزة جَزْع[1] فيها ثقبٌ معوج لا يكاد يبين، وقالت للجواري: كلِّمْنَهُ بكلام فيه غلظ يشبه كلام الرجال، وقالت للغلمان: كلموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلامَ النساء، ودعتْ رجلاً من أشراف قومها يقال له: المنذر بن عمرو، وضمَّت إليه رجالاً من ذوي العقول، وكتبت معه كتاباً فيه: من الملكة بلْقِيس إلى الملك سليمان، أما بعد، فإن كنتَ نبيّاً فميِّز بينَ الوصفاء، وأخبرني بما في الحُقِّ قبل فتحه، واثقبِ الدرةَ ثقباً مستوياً، وأدخل خيطاً في الجزعة، واختم على طرفي الخيط بخاتمك. وقد بعثت لك كذا وكذا.

وسبق الهدهد فأخبر سليمان بما جرى وبما بعثت، فأمر الشياطين بأن يضربوا لبناً من ذهب، ولبناً من فضة، في كل لبنةٍ ألفُ رَطل، وأمرهم أن يفرشوها من موضعه إلى تسعة فراسخ ميداناً واحداً، وقيل: ثمانية أميال، وأنْ يجعلوا حائطاً في الميدان من الجانبين ذهباً مرصعاً باليواقيت، وأنْ يرفعوه عالياً مشرفاً، ففعلوا، ثم أتى بدواب مِنَ البحر والبَر مختلفة الألوان لها أجنحة وأعراف ونواصي، فربطها من الجانبين، وألقى علوفها في معالف الذهب والفضة، ثم أقام الجنَّ عن يمين الميدان ويساره، ومن ورائهم الشياطين، ثم قعد على سريره ووضع حوله أربعة آلاف كرسي من ذهب وفضة، وأمر الإنس والجنَّ والوحش والطير أن يقوموا في مراتبهم، فقاموا على فراسخ عن يمينه وشماله. وكانت قالت للرسول: انظر إذا دخلتَ عليه، فإن نظر إليك نظر غضبان فهو مَلِك، فلا يهولنَّكَ نظره، فأنا أعزُّ منه، وإن رأيتَهُ متواضعاً لطيفاً فهو نبيٌّ مرسل.

قال وهب: ولما دنا القومُ من الميدان وشاهدوا مُلْك سليمان عليه السلام ونظروا إلى لبن الذهب والحيطان والدوابِّ والجن والشياطين والطير والوحش تقاصرت هِمَمُهم، وكان قد أخلى في الميدان موضع اللبن للذي معهم، وهمُّوا أن يردُّوا ما معهم إليها فخافوا منها. ثم أمر سليمان بإدخالهم عليه فدخلوا، وكلّما مرُّوا على كُرْدُوس من

(١) الجَزْع: الخرز اليماني فيه سواد وبياض.

الجن والشياطين خافوا، حتى وقفوا بين يدي سليمان، فنظر إليهم نظراً حسناً بوجهٍ طَلْق، ثم ناولوه الكتاب فقرأه وقال: أين الحُقُّ؟ فَأُتي به فحرَّكه، وجاء الوحي فأخبره بما فيه، وقال: فيه دُرَّة يتيمة غير مثقوبة، وجزعة مثقوبة معوجَّة الثقب. فقال الرَّسول: صدقت، وأمر الأَرَضَة وقيل الذرَّة فدخلت في الجَزْعة وخرجت من الجانب الآخر، فقالت: اسأل الله أن يجعلَ رزقي الفاكهة. وثقب الدرة بالسامور، وختم على طَرَفَي الخيط بخاتمه، وأمر بإحضار الغِلْمان والجواري، قال مقاتل: وأمر بإحضار آنية الماء وميَّز بينهم بالوضوء للصلاة فكان الغلام يبدأ من كفه إلى مرفقه، والجارية من مرفقها إلى كفها، وقال جدي في «التبصرة»: وهذا قول سعيد بن جبير. قال: وقال قتادة: بدأ الغلمان بغسل ظاهر السواعد قبل بطونها، والجواري على العكس(1).

قلت: والعجب من حكاية مثل هذا، وقد اتفقوا على أن القوم كانوا يعبدون الشمس، وأخبرهم الله على لسان الهدهد بذلك، فمن أين كانوا يعرفون الوضوء؟ وإنما ميَّز بينهم بالوحي جبريل، جاءه فأخبره بهم كما أخبره بما في الحُقِّ.

ثم رد الهدية وقال للرسول: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[النمل: ٣٦] ومعناه أنتم أرباب مفاخرة ومكاثرة بالدنيا، وليس ذلك من حاجتي، لأن الله أكرمني بالنبوَّة والملك. ثم قال للمنذر بن عمرو: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقة ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من المملكة ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[النمل: ٣٧] أي: محتقرون.

قال: فلما عادوا بالهدية إليها قالت: والله لقد علمتُ أنه ليس بمَلِك وأنه نَبيٌّ، وأخبرها المنذر بما شاهد، فكتبت إلى سليمان عليه السلام: إني قادمة عليك بملوكِ قومي لأنظر ما تدعو إليه، ثم أمرت بعرشها فَجُعِلَ في بيت، وأقفلتْ عليه، ثم في بيت آخر كذلك إلى سبعة بيوت، ووكلت به حرساً يحفظونه، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قَيْل، تحت يد كل قَيل ألوف عظيمة. وكان سليمان مهيباً لا يُبْتَدأ بشيء حتى يكونَ هو الذي يَسألُ، فرأى يوماً رَهَجاً قريباً منه، فسأل عنه فقالوا: بِلْقيس قد

(1) «التبصرة» ١/ ٣٠٦، والحكاية بطولها في عرائس المجالس ٣١٧-٣١٩.

قدمت، وهي نازلة قريباً منك قدر فرسخ، فقال سليمان لمن حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[1][النمل: ٣٨].

فإن قيل: ما مراده بإحضار عرشها قبل مجيئها؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أراد أخذه لما وصفه له الهدهد، لأنها متى قدمت عليه مُسْلمة حَرُمَ عليه أخذ مالها، قاله مجاهد.

قلت: وهذا ليس بشيء لوجهين، أحدهما: لأنه كان زاهداً في الدنيا نبياً ورسولاً، وما عرشها بالنسبة إلى مُلكه حتى يحتالَ على أَخْذِ مالها قبل إسلامها؟ والثاني: أن الغنائم كانت مُحَرَّمَةً عليهم، وإنما أبيحت لهذه الأمة.

والثاني: أنه أراد أن يختبر عقلها، فينظر هل تعرفه أم لا، قاله ابن زيد.

والثالث: أراد أن يريها قدرة الله وسلطانه وأنه صاحب معجزات، فتنقاد إليه من غير عنف، قاله مقاتل. وهذان القولان جيدان.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ والعفريت المارد القويُّ، قال وهب: كان اسم العفريت كودي، وقيل: ذكوان. ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: مجلسك هذا ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[النمل: ٣٩] على ما فيه من الجواهر. فقال سليمان: أريد أسرعَ من هذا ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو آصفُ بن برخيا، وكان صدِّيقاً يعرف الاسم الأعظم، وكان يقفُ على رأس سليمان بالسيف ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل: ٤٠] ومعناه إذا مددت عينيك إلى أقصى منظرك، فمدَّ سليمان عينيه، ودعا آصف، فكان من دعائه: يا حيُّ يا قيُّوم يا ذا الجلال والإكرام. فبعث الله ملائكة فَخَدَّت الأرضَ بالسرير خدّاً حتى صار بين يدي سليمان قبل أن يرجع إليه طرفه[2].

فإن قيل: فآصفُ من أتباع سليمان يعرف الاسم الأعظم وسليمان لا يعرفه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ ابن عباس قال: الذي عنده علم من الكتاب هو جبريل عليه السلام.

---

(١) انظر «زاد المسير» ٦/ ١٧٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢١ـ٣٢٢.

والثاني: أنه مَلكٌ عظيم أيَّد الله به سليمان، قاله عكرمة.

فعلى هذين القولين سقط السؤال.

والثالث: إنما قصد سليمان أنَّ بعض أتباعه يتولى إحضارَ عرشها، لأن سليمان لا يباشره، وقد كان الاسم الأعظم في خاتمه.

والرابع: أراد أن ينوِّهَ باسم آصف ويرفع منزلته، لا أنه عاجز عن ذلك. وقد ذكرنا أن سليمان كان يعرف الاسم الأعظم قبل قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾.

فلما حصل السرير بين يدي سليمان قال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾[النمل: ٤١] أي: اجعلوا أعلاه أسفله وأسفله أعلاه، لننظر هل تهتدي إلى عرشها فتعرفه أم تكون من الجاهلين الذين لا يعرفون ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ شبَّهته به ولم تقرَّ ولم تنكر، وهذا دليل على قوة ذهنها وغزارة عقلها، لم تقطع بأنه هو إما لتغيره وإما لبُعد المسافة، وقد خلفته تحت سبعة أقفال.

قال الحسين بن الفضل البجلي: شبَّهُوا عليها فشبهت عليهم وأجابتهم على حسب سؤالهم، ولو قالوا لها: هذا عرشك، قالت: نعم. قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي: قبل مجيء هذه المرأة ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]، وإنما أراد سليمان عليه السلام أن يختبر عقلها بتنكيره، وأن يريها قدرة الله تعالى وسلطانه، وأنه صاحب معجزات.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[النمل: ٤٣] وهي الشمس، منعتها عن عبادة الله. ثم أمر سليمان بعمل الصرح، وهو كل قصر عال، والجمع صروح، وأصله البناء العالي[١].

قال وهب: قيل لسليمان إنَّ رِجليها رجلا حمار، وعلى ساقها شعر كثير، فاختبر عقلها بعرشها وما أمكنه أن يختبر رجليها، فأمر ببناء الصرح، فبنته الشياطين من الزجاج كأنه الماء بياضاً، وألقوا فيه السمك ودوابَّ البحر، ووضع سليمان سريره في صدره، فلما وصلت إليه ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ واللُّجة: معظم الماء، فنظر سليمان إلى ساقها[٢]، فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً،

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٢.

(٢) في (ب): إليها.

إلا أنها كانت شَعْراء الساقين، فصرف وجهه عنها وقال: ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ أي مملَّس من زجاج وليس ببحر(١).

فإن قيل: فكيف جاز لسليمان النظر إلى الساقين والوجه، وإنما يباح النظر إلى الوجه لا غير، وكيف جاز أن يحتال بهذه الحيلة، والأنبياءُ معصومون من مثل هذا، وقد يمكنه أن يختبرها بأن يبعث إليها امرأة تنظرها؟

فالجواب: إنَّ النظر إلى ساقها قد كان مباحاً عندهم كالنظر إلى الوجه عندنا، ولا نظنُّ بسليمان أن يفعل ما لا يحلُّ له، وقد كان لسليمان سبع مئة امرأة، ومثل هذا لا يباح لنا.

ثم دعاها سليمان إلى الإسلام فأسلمت وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[النمل: ٤٤] وأسلم قومها. ثم عزم على تزويجها فأمر الشياطين، فاتخذوا الحمَّام والنُّورَة وطلوا بها ساقيها فصارا كالفضَّة. قال ابن عباس: وسليمان أَوَّل من صُنعَ له الحمَّام والنُّورَة(٢)، وقد رواه أبو موسى مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «أَوَّل مَن دَخَل الحَمَّام وصُنِعَت له النُّورة سُلَيمان»(٣) إلا أنه حديث ضعيف، ضعَّفه البخاري وغيره، وقال البيهقي: تفرَّد به إسماعيل الأودي، لا يتابع عليه.

فلما دخل بها سليمان أحبها حباً شديداً وأمر الشياطين فبنوا لها باليَمَن حصوناً لم يُبْنَ في الدنيا مثلها، وهي غُمْدَان وسَلْحِين وبَيْنُون، وأبقاها على مُلكها، وكان يزورها في كلِّ شهر مرة، يقيم عندها سبعاً، يبكر من الشَّام إلى اليَمَن ومن اليَمَن إلى الشَّام(٤).

وقال أبو القاسم في «تاريخ دمشق»: وأمهرها بعلبك ويقال: إنه نقلها إلى تَدْمر(٥)، وسنذكره.

وقال محمد بن إسحاق عن وهب عن بعض أهل العلم: لم يتزوجها سليمان، وإنما زوَّجها رجلاً مِنْ قومها يقال له: ذو تُبَّع، ملك هَمَدَان، وأمر زوبعةَ أميرَ الجن أن يقيم

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٢.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٣.
(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٧٨).
(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٣.
(٥) «تاريخ دمشق» ٦٩/ ٧٠.

معها باليَمَن، ويبني ما شاءت من الحصون ففعل[١]، والأول أصح، وقد ذكره جدي في «التبصرة»: فقال: لما عُمِلَ له الصرح من الزجاج ورأته وعلمت أنَّ مُلْك سليمان مِن أمر الله تعالى فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾[النمل: ٤٤] بما سبق من الكفر، ثم تزوجها سليمان وردَّها إلى مُلكها، وكان يزورها في كلّ شهر مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام، وبقي مُلْكها إلى أن توفي سليمان عليه السلام فزال بموته[٢].

فصل في قصة قوم سبأ[٣]

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ والمراد بسبأ القبيلة التي هي من أولاد سبأ. وقال علماء السِّير: كانت بِلْقيس مالكة أمرهم، وكانوا يقتتلون على الماء الذي يجري من الجبال إلى واديهم، فكانت تنهاهم فلا ينتهون، فاعتزلتهم بعيدةً عنهم في قصرٍ لها، فلما كثر الشرُّ بينهم أتوا إليها وقالوا: ترجعين إلى مُلككِ فأَبَتْ، فقالوا: ارجعي وإلا قتلناك، فقالت: إنكم لا تطيعوني فقالوا: بلى، نطيعك. فرجعت إليهم، وكان السيلُ يأتي إلى واديهم من مسيرة خمسة أيام، فبنت ما بين الجبلين مُسَنَّاةً، وحبست الماء خلف السدِّ، وبنت من دونه بركةً عظيمة جعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدد أنهارهم، فإذا جاء المطر اجتمع إليها ماءُ بلاد الشِّحْرِ وأودية اليَمن وسيولها فتقسِّمُهُ بينهم بالسويَّة، حتى أسلمت مع سليمان وكان من أمرها معه ما كان.

قال كعب الأحبار: كان السَّد فرسخاً في فرسخ، بناه لُقمان بن عاد الأكبر صاحب النسور.

ويحتمل أنَّ لُقمان بناه ودثر فجددته بِلْقيس.

وقال مقاتل: كان في البركة ثلاثون ثقباً.

وقال مجاهد: إنما بنوا السد لئلَّا يذهب بأموالهم فيغرقها.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٣.

(٢) «التبصرة» ١/ ٣٠٧.

(٣) انظر القصة في تفسير الطبري ١٦/ ٢٤٤ (هجر)، ومروج الذهب ٣/ ٣٦٥، وتفسير الثعلبي ٨/ ٨٢، وتفسير الماوردي ٤/ ٤٤٣، و«التبصرة» ١/ ٣١٥، و«زاد المسير» ٦/ ٤٤٢، و«تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٩٥، و«الدر المنثور» ٥/ ٢٣١، و«البداية والنهاية» ٣/ ١٠٧.

وكانوا يفتحون من أبواب السدِّ ما يريدون، فيأخذون من الماء ما يحتاجون إليه طولَ السنة، فأخصبت أرضهم، وكثرت أموالهم وفواكههم، حتى أن كانت المرأة لتمرُّ بين الجنَّتين والمكتلُ على رأسها فيمتلىء من الثمر، وما مسَّت شيئاً بيدها، ولم يكن في بلادهم حيّة ولا عقرب ولا بعوضة ولا ذباب ولا بُرغوث.

قال ابن عباس في تفسير الآية: إنها القدرة والعلامة. ثم فسَّرها فقال: جنَّتان عن يمين واديهم وشماله ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: وقلنا لهم كلوا ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ على ما أنعم عليكم، تمَّ الكلام. ثم ابتدأ فقال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: هذه بلدة طيبة الهواء ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[سبأ: ١٥] للخطايا.

وقال ابن عباس: كان الرجل الغريب يأتي وفي ثيابه القَمْل، فإذا نظر إلى أرضهم مات القَمْل. وكان الراكب يسير من أول البساتين إلى آخرها فلا تقع عليه شمس. قال: فطَغَوْا وبَغَوْا وكفروا بأنعم الله، وذلك قوله: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ أي: عن الحق، وكان الله قد بعث إليهم ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم، وقالوا: ما نعرف لربكم علينا نعمة.

وقال مقاتل: معنى الآية: فأرسلنا إليهم الرسل يدعونهم إلى الله فأعرضوا عنهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾[سبأ: ١٦] واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أن العَرِم: السدُّ بلغة حِمْيَر، فهو اسم للمسنَّاة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثاني: أنه اسم للسَّيل الذي لا يطاق، وأصله من العَرَامة، وهي التمرُّد والعصيان، قاله مجاهد وابن الأعرابي.

والثالث: أنه اسم للوادي، قاله مقاتل وقتادة والضحاك، ورواه عطية عن ابن عباس.

والرابع: أنه اسم الجرذ الذي نَقَبَ السدَّ. حكاه الزجاج.

والقول الأول أشهر، واختاره الفرَّاء وابن قتيبة وعامة المفسرين، وذكره الجوهري فقال: العَرِمُ: المسنَّاةُ[1].

(١) «الصحاح»: (عَرَم).

وفي قصَّة إرسال هذا السيل عليهم قولان:

أحدهما: أن الله بعث عليهم جُرذاً يسمى: الخُلْد، وهو فأرة عمياء، فثقبه من أسفله، فأغرق جنانهم وأخرب أرضهم. رواه عطية العوفي عن ابن عباس.

قال وهب: كانوا يجدون في كهانتهم أنَّ فأرة تخربُ سَدَّهم فلم يتركوا فُرْجةً بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة، فلما آن أوان غرقهم جاءت فأرة حمراء إلى هرة فشاورتها حتى استأخرت عنها الهرة، فدخلت في الفرجة التي كانت عندها، فثقبت السِّكْرَ وهم لا يعلمون.

وقال السُّدي: كان للدابة التي ثقبت السدَّ مخاليب من حديد.

قال محمد بن إسحاق: كان لقوم سَبَأ كاهن يقال له: عِمْران بن عامر، وقيل: عمرو ابن عامر، فرأى في كهانته أنهم سَيُمَزَّقون كُلَّ مُمَزَّق، فأخبرهم بذلك، قال: مَن كان ذا همٍّ بعيد، وجَمَلٍ شديد، ومَزَاد جديد، فَليلحق بقصر عُمَانَ المشيد، فلحق وادعة بن عمرو، ثم قال: مَن كان منكم يريد الراسيات في الوحل المُطْعِمات في المَحل فَلْيَلْحَق بيَثرِب ذات النَّخل، فلحقت الأَوْس والخَزْرَج، ثم قال: مَن كان مِنكم يريد خمراً وخميراً، وذهباً وحريراً، ومُلكاً وتأميراً فليلحق بمَعَان وبُصْرَى، فلحقت غسَّان وبنو جفنة بالشَّام فملكوه، ثم قال: مَن كان منكم يريد الأموال، ويعتزُّ بالرجال، وتُشَدَّ إليه الرحال فعليه بكوثى، فلحقت الأَزْد بموضع الكُوفَة.

وقال الزُّبير بن بَكَّار: إنَّما لحقت بالشَّام غسان، والأَزْدُ بعُمَان، وخُزَاعة بتِهامة.

وقال ابن الكلبي: إنَّ الملك هو عمرو بن عامر، وكان مَلكَ سَبَأ في ذلك الزَّمان. وكان عمران بن عامر أخاه فأخبره بما ذكرنا. قال: وكان للمَلِك كاهنة يقال لها: طريفة، من أهل حِمْير، فقال لها الملك: ما تقولين فيما قال عمران؟ قالت: صدق، ولقد رأيت غيماً أبرق، أرعد طويلاً ثم أصعق، فما وقع على شيء إلا احترق، وما بعد هذا إلا الغَرَق. ثم قالت لعمرو: اذهب إلى السدِّ فإنْ رأيت جُرذاً يُكثر بيديه فيه الحَفر، ويقلب برجليه من العَرِم الصخر، فاعلم أن النَّفر سَفْر، وأنَّه قد وقع الأمر. فأتى إلى السدِّ فإذا بجُرذ يقلب بيديه صخرةً ما يقلبها خمسون رجلاً فعاد إلى طريفةَ وقال: متى ترين هلاكَ السدِّ؟ فقالت: إنما يهلك غِيلة بعد سبعين ليلة فانظر الغيلة. فأمر عمرو

أصغر أولاده أن يأتيَ إليه وهو في مجلسه والملأ حوله والأَقْيال فيفتئت عليه، وأمره أولاده أن لا يهيجوه وجلس مجلس الملك، واجتمع الناس إليه، وجاء ولده فكلمه بأقبح الكلام، فقال: يا قوم أكون مَلِكَكُم وسيدَكم ويُسمعني هذا السفيهُ ما أسمعني، وأنتم سكوتٌ لا تنتصرون لي؟! ثم حلف أن لا يساكنهم، وباع أمواله وانتزح عنهم، فبعد سبعين ليلة خرب السدُّ.

قلت: هذه رواية ابن الكلبي، وقد ذكر عبد الملك بن هشام في «السيرة» طرفاً منها، وقد تقدّم إسناده إلى عبد الملك في خطبة الكتاب، فقال: لما رأى عمرو بن عامر الجرذَ ينقب السدَّ علم أنه لا بقاء للسدِّ على ذلك، فأمر أصغر أولاده أن يقوم بين الملأ فيلطمه ويفتئت عليه، ففعل، فباع أمواله، فقال الأشراف: اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا أمواله. وانتقل عمرو عنهم وفعل كذلك بنو أسد وقالوا: لا نقيم في بلاد خرج منها عمرو بن عامر، فنزلوا بلاد عَكٍّ، وتفرقوا في البلدان، فنزل آل جَفنة بن عمرو الشام، ونزلت الأوس والخزرج يَثرِب، ونزلت خُزَاعة مَرّاً، والأَزْد السراة، وهما أزدان: أَزْد السراة وأَزْد عُمَان[١].

وقال السُّدي: إنما سميت خُزَاعة لانخزاعها وانقطاعها في ذلك الموضع.

قال الجوهري: وخُزَاعة حي من الأَزْدِ سموا بذلك لأن الأزد لما خرجت من مَكَّة لتتفرق في البلاد تخلَّفت عنهم خُزَاعة[٢].

وفي رواية ابن إسحاق أنَّ عمران بن عامر قال في كهانته: ومن كان منكم ذا حاجةٍ وفقر، فليلحق ببطن مَرّ، فلحقتْ به خُزَاعة وقال: من أراد منكم الخمر والخمير، والذهب والحرير، والأمر والتأمير، فليلحق ببُصرى وحَفِير، يعني أرض الشام، وحَفِير قرية من قرى دمشق في جبل صيْدَنَايا قريبة منها. وقال: من أراد منكم الثياب الرِّقاق، والخيل العِتاق، والكنوز والأوراق فليلحق بالعِراق، فلحق بها الأَزد مع مالك بن فهم الأَزْدِي.

(١) «السيرة» ١/ ١٣.
(٢) «الصحاح»: (خزع).

قال وهب: وسار عمرو بن عامر إلى وادي السَّرَاة بأهله وماله وولده فأقام به وبمَكَّة، والسَّراة جبل الأَزْد.

والقول الثاني في سبب هلاك السدِّ حكاه جدي في «التبصرة»[(١)] عن مجاهد أنه قال: أرسل الله عليهم ماء أحمر فنسف السدَّ وهدمه وحفر الوادي. وعامة العلماء على القول الأول.

وحكى الضحاك عن ابن عباس: أنَّ عمرو بن عامر سيدهم رأى في منامه كأنه انبثق الردم وسال الوادي، فأصبح حزيناً، فانطلق نحو الردم فرأى جُرذاً يحفره بمخاليب من حديد وأنياب من حديد، فجمع أهله وبنيه وقال: هل رأيتم ما رأيت؟ قالوا: نعم، قال: هذا أمرٌ سَمَاويّ قد اضمحلت فيه الحِيَل. ثم قال: هاؤم هرة، فأُتي بها فأرسلها نحو الجُرذ، فلما رأته الهرة ولَّت هاربة، فقال: تحقَّقَ الآن ما قلتُ لكم، احتالوا لأنفسكم. فدعا أصغر بنيه، وذكر بمعنى ما تقدم.

قال ابن عباس: لما نقب الجُرذ السدَّ فاض الماء عليهم فأخرب جناتهم، ودفن بيوتهم في الرمل، ومزَّقهم كل ممزق، كما قال الله تعالى، حتى صاروا مثلاً عند العرب، فضربوا بهم الأمثال.

وقال الجوهري: وقولهم «ذهبوا أيدي سَبَأ»، وأيادي سَبَأ، أي: متفرقين، قال: وهما اسمان جُعلا اسماً واحداً، مثل مَعدي كَرِب[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ وهو الأراك ﴿وَأَثْلٍ﴾ وهو الطرفاء، والأُكُلُ: الثَّمَرُ، وقيل: الخَمْط شجر العضاه. قال مقاتل: معناه: وبدلناهم بجنتيهم اللتين كانتا تطعمان الفواكه جنتين بهذه الصفة ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[سبأ:١٦] والسِّدْر: شجر النَّبق، ومعنى «قليل» أنَّ الخَمْط والأثل كان في جنتيهم أكثر من السِّدْر لأن السِّدْر تؤكل ثمرته ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: ذلك التبديل جزيناهم بكفرهم ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[سبأ:١٧] قال طاوس: الكافر يجازى ولا يُغْفَر له، والمؤمن لا يناقَشُ الحساب.

---

(١) «التبصرة» ١/ ٣١٧.

(٢) «الصحاح»: (يدي).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى﴾ وهي قرى الشام ﴿ظَٰهِرَةً﴾ أي: متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها.

قال الحسن: هي قرى بين الشام واليَمن، قال مجاهد: هي السَّرَوَات.

قال وهب: قرى صَنْعاء، والأول أصحُّ، لأن القرى التي بارك الله فيها في الأرض المقدسة.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾[سبأ: ١٨] فيه قولان:

أحدهما: أنهم كانوا يَغْدُون فيقيلون في قرية، ويروحون فيبيتون في قرية، قاله الحسن وقتادة.

والثاني: أنه جعل ما بين القرية والقرية مقداراً واحداً من منزل إلى منزل، فلا ينزلون إلا في قرية عامرة يسيرون فيها ليالي وأياماً، أي: وقلنا لهم سيروا في أي وقت شئتم ليلاً أو نهاراً آمنين من مخاوف السفر والعدوِّ والجوع والعطش، لا تحتاجون إلى حمل زاد ولا ماء، فبطروا وعتوا وملُّوا النِّعم كما ملَّ بنو إسرائيل المنَّ والسلوى.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ فيه قولان:

أحدهما: لو كانت جناناً أبعد مما هي كانت أجدر أن نشتهيها، قاله مجاهد.

والثاني: أن معناه: اجعل بيننا وبين الشام فَلَوات ومَفاوز وبراري نركب فيها الرواحل ونحمل فيها الزاد والماء، فاستجاب الله لهم سريعاً، قاله ابن عباس.

﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي والبطر ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: مواعظ وعبراً يتمثل بهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[سبأ: ١٩].

وذكر الهيثم بن عدي: أن بعض القحطانيين افتخر على ولد نزار عند أبي العباس السفَّاح، وخالد بن صفوان بن الأهتم حاضر، ولم يجبه، فقال له السفَّاح: أيذكر هذا مناقب قومه وأنت ساكت؟ لقد غمرتكم قحطان بشرفها، فقال خالد: يا أمير المؤمنين ما سكوتي إلا احتقاراً به وبقومه، قال: ولِمَ؟ قال: ماذا أقولُ لقوم هم بين دَابغ جِلد، وسَائِس قرد، ونَاسِج بُرْد، وراكب عَرْد[1]، غرَّقتهم فأْرة، ومَلَكَتْهُم امرأة، ودلَّ عليهم هدهد.

---

(١) العَرْد: الحمار، والخبر في مروج الذهب ٣/ ٣٧٢-٣٧٣.

فصل في محنة سليمان عليه السلام وذهاب خاتمه وعوده إليه

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية، أي: ابتليناه بسلب ملكه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ أي: سريره ﴿جَسَدًا﴾.

واختلفوا فيه، قال ابن عباس: الجسد هو شيطان يقال له: صَخر، ولم يكن ممن سُخِّر لسليمان.

وقال وهب: هو صَخر بن عمير بن عمرو بن شرحبيل، ويقال: هو الذي دلَّ سليمان على حجر السامور وكان في جزيرة منيعة، فما كان له عليه سلطان.

وقال السدي: هو شيطان اسمه مهدي، وقيل: حفق أو حفيق.

وذكر الثعلبي: أنَّ الجسد إنما كان آصف بن برخيا[1].

وذكر أبو حنيفة ابن النُّوبي: أنَّ الجسد نفس سليمان، ألقاه مريضاً لا حراك به ولا رُوح فيه. والظاهر أنه صخر الجني.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾[ص: ٣٤] أي: رجع عن ذنبه، وقيل: في مُلكه.

واختلفوا في سبب ابتلائه على أقوال:

أحدها: بسبب امرأة، قرأتُ على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله بإسناده إلى ابن عباس قال: كان سليمان رجُلاً غزّاءً يغزو في البحر والبرِّ، فسمع بمَلِك في جزيرة من جزائر البحر، فركب الرِّيح ومعه جنوده من الجن والإنس حتى نزل تلك الجزيرة، فقتل مَلِكها وسبى مَن فيها، وأصاب جَارية لم يُرَ مثلها حُسناً وجمالاً، وكانت ابنة ذاك الملك، واسمها: جرادة، فاصطفاها لنفسه، وكان يجدُ بها ما لا يجد بأحدٍ من نسائه، وكان يؤثرها عليهنَّ، فدخل عليها يوماً فقالت: إني أذكر أبي ومُلكه وما أصابه فيحزنني ذلك، فإن رأيتَ أن تأمر بعض الشياطين أن يصوِّروا لي صورةَ أبي في داري، فأراه بكرةً وعشياً، رجوت أن يذهب عني حُزني ويُسَلِّي عني بعض ما أجد في نفسي. فأمر سليمان صخراً المارد فمثَّل لها أباها في هيئته لا تنكر منه شيئاً إلا أنه لا روحَ فيه،

---

(١) «عرائس المجالس» ص ٣٢٧.

فعمدت إليه فزيَّنَتْهُ وألبسته مثل لباسه، وإذا خرج سليمان من داره غَدَتْ عليه كلَّ يوم مع جواريها فسجدت له وتسجد جواريها، وسليمان لا علم له بشيء من ذلك، حتى أتى لذلك أربعون يوماً، وبلغ آصف بن برخيا، وكان صدِّيقاً، فقال لسليمان: يا نبيَّ الله، قد أحببت أن أقومَ مقاماً أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأثني عليهم بما أعلم فيهم، فجمع سليمان الناس، وقام آصف فأثنى على كل نبيّ بما فيه، حتى انتهى إلى سليمان، وذكر ما أعطاه الله في حداثةِ سنِّه وصغره، ثم سكت، فامتلأ سليمان غيظاً واستدعاه وقال له: ذكرتَ أنبياء الله وأثنيت عليهم بما كان في زمانهم، فلما ذكرتني جعلت تثني عليَّ بخير في صغري، وسكتَّ عما كان في كبري، فما الذي أحدثتُ في كبري؟ فقال: أحدثتَ أنَّ غيرَ الله يُعْبَدُ في دارك منذ أربعين يوماً في هوى امرأة، قال: في داري؟ قال: نعم، قال: إنّا لله وإنا إليه راجعون؛ عرفتُ أنَّك ما قلتَ هذا إلا لشيء بلغك، ثم رجع إلى داره فكسر الصنم وعاقب المرأة وولائدها، ثم دعا بثياب الطهر وهي ثياب لا يغزلها وينسجها إلا الأبكار، ولا يمسها امرأة رأت الدم فلبسها، ثم خرج إلى فلاةٍ من الأرض ففرش فيها الرماد، وجلس عليه يتمعَّك فيه متضرعاً باكياً تائباً، وكان يبكي ويقول: يا رب ما هذا بلاؤُك عند آل داود أن يعبدوا غيرك وأن يقروا في دارهم وأهلهم عبادة غيرك. فلم يزل كذلك حتى أمسى، ثم رجع، وكانت له جارية سمّاها الأمينة، وكان إذا أتى الخلاء أو أراد إتيان امرأة وضع خاتمه عندها، وكان لا يمسُّه إلا وهو طاهر، وكان الله قد جعل مُلْكَهُ في خاتمه(١).

عن الشيخ الموفق، قال وهب: فجاء يوماً يريد الوضوءَ فدفع الخاتمَ إليها، وجاء صخر المارد فدخل المتوضَّأ، وسبق سليمان، فدخل سليمان لحاجته وخرج صخر على صورة سليمان ينفضُ لحيته من الوضوء، لا تنكر المرأةُ من سليمان شيئاً، فقال: خاتمي يا أمينة، فناولته إياه لا تحسبُ إلَّا أنَّه سليمان، فجعله في يده وجلس فجلس على كرسيِّ سليمان، وعكفتْ عليه الطيرُ والإنس والجنُّ، وخرج سليمان عليه السلام فقال: خاتمي يا أمينة، فقالت: ومن أنت؟ فقال: أنا سليمان، وقد تغيَّر حاله وذهب عنه بهاؤه، فقالت: كذبتَ إنَّ سليمان أخذ خاتمه، وهو جالسٌ على سريره في مُلكه.

(١) كتاب «التوابين» ص٤٦.

فعرف سليمان عليه السلام أنَّ خطيئته قد أدركته[١].

عن الموفق، قال الحسن: فخرج هارباً مخافةً على نفسه، ومضى على وجهه بغير حذاء ولا قَلَنْسُوة في قميصٍ وإزار، فمرَّ ببابٍ شارع على الطريق قد جهده الجوع والحرُّ والعطش فقرعه، فخرجت امرأة فقالت: ما حاجتكَ؟ فقال: ضيافةُ ساعةٍ، قد تَرَيْنَ ما قد أصابني من الحرِّ والرمضاء، فقالت المرأة: زوجي غائبٌ وليس يَسعني أن أُدْخِلَ رجلاً غريباً عليَّ، ادخل البستانَ فإن فيه ماء وثمراً، فأَصِبْ من ثماره وتبرَّدْ فيه، فإذا جاء زوجي استأذنتُهُ في ضيافتك، فإنْ أَذِن لي فذاك، وإنْ أبى أصبتَ رزق الله ومضيت. فدخل البستان فاغتسل ووضع رأسه ونام، فآذاه الذباب، فجاءت حيَّةٌ سوداء فأخذت ريحانةً من البستان بفيها وجعلت تروِّحُ عليه. وجاء زوجُ المرأة فقصَّتْ عليه القصة، فدخل البستان فرأى الحيةَ تروِّحُ عليه، فدعا امرأته وقال لها: تعالي فانظري إلى العجب، فنظرتْ ثم مشيا إليه فأيقظاه، ثم قالا له: يا فتى هذا منزلنا لا يسعنا شيءٌ يعجزك، وهذه ابنتي قد زوجتكها، وكانت من أجمل نساء زمانها، فتزوجها وأقام عندهم ثلاثاً، ثم قال: لا يسعني إلا طلبُ المعيشة لي ولأهلي، فانطلق إلى الصيادين فقال لهم: هل لكم في رجل يكون معكم يعينكم وترضخون له بشيء من صيدكم، وكُلٌّ يأتيه الله برزقه، فقالوا: قد انقطع عنا الصيد، وليس عندنا فضل نعطيك، فمضى إلى غيرهم، فقال لهم مثل هذه المقالة، فقالوا: نعم وكرامة، نواسيك بما عندنا، فأقام عندهم يختلف كلَّ ليلةٍ إلى أهله بما أصاب من الصيد حتى أنكر الناس قضاءَ الخبيث وفعاله. فلما رأى الخبيثُ أنَّ الناس قد فطنوا له انطلق بالخاتم فألقاه في البحر، قال الحسن: أمسك الخاتم أربعين يوماً[٢].

وروي: أنه قعد على كرسيِّ سليمان، فاجتمع له الإنس والجن والشياطين وكلُّ شيءٍ كان يملكه سليمان، إلا أنه لم يُسَلَّطْ على نسائه، قال: وخرج سليمانُ يسأل الناسَ ويتضيفهم، ويقوم على باب الرجل والمرأة ويقول: أطعموني فإني سليمان بن داود، فيطردونه ويقولون له: ما يكفيك ما أنت فيه حتى تكذب على سليمان، وهذا

(١) كتاب «التوابين» ص ٤٨.

(٢) كتاب «التوابين» ص ٥٠.

سليمان على ملكه. حتى أصابه الجهد، واشتدَّ عليه البلاءُ، فلما تمَّ عليه أربعون يوماً، قال آصف بن برخيا: يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من خلافِ حكم ابن داود ما رأيتُ؟ قالوا: نعم، فعمد الشيطان عند ذلك فألقى الخاتم في البحر، فاستقبله جِرِّيٌّ فابتلع الخاتم، فصار في جوفه مثل الحريق من نور الخاتم، فاستقبل جريةَ الماء فوقع في شباك الصيادين الذين كان سليمان معهم. فلما أمسوا اقتسموا السمك وأسقطوا الجريَّ وجعلوه لسليمان، فذهب به إلى أهله وأمرهم أن يصنعوه ونام، فلما شقُّوا بطنه أضاء البيتُ من نور الخاتم، فدعت المرأة سليمان وأرته الخاتم فتختم به وخرَّ ساجداً لله، وحمد الله وأثنَى عليه فقال: ربِّ أتمَّ نعمتك عليَّ واغفر لي ما سلف، وهبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[١].

قال: وروي عن عكرمة أنَّ سليمان لما أصاب الملك أمر فحمل أهل ذلك البيت فوضعهم وسط المملكة، ولم يكن سليمان نال تلك المرأة حتى ردَّ الله عليه ملكه[٢]. هذه صورة ما ذكره الموفق في «التوابين».

وقوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾ يدل على أنه أعطيَ الملك الذي ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ بعد وقوعه في المحنة كما قال علي عليه السلام.

وروي عن وهب بن منبه أنه ذكر هذه القصة، وقال فيها: اسم المرأة التي أخذها سليمان من الجزيرة جرادة فأسلمت، وفي قلبها من قتل أبيها ما فيه، وأنه بعدما كسر الصنم وعاقب المرأة وولائدها، دعا بثياب الطهرة، وهي ثيابٌ لا يغزلها إلا الأبكار ولا تمسُّها امرأة رأت الدم، فلبسها وخرج إلى الفلاة فجلس على الرماد، كذا ذكره[٣].

قال ابن عباس: أمينته التي كان يدع الخاتم عندها أم ولده. فأتاها الشيطان صاحب السحر، واسمه صخر، فأخذ الخاتم منها، وفيه، فقال آصف: يا بني إسرائيل أَمْهِلوني حتى أسأل نساءَ سليمان هل يأتيهنَّ، فدخل عليهن فسألهن فقلن: ما يدعُ امرأة منا في

(١) كتاب «التوابين» ص ٥٠.
(٢) كتاب «التوابين» ص ٥١.
(٣) انظر «زاد المسير» ٧/ ١٣٣.

دمها ولا يغتسل من جنابة، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إن هذا لهو البلاءُ المبين. والأصحُّ أنه لم يطأ نساءَ سليمان، قال مجاهد والحسن البصري: لم يثبت ذلك لأن الشيطان خلق من نار، فلو جامع امرأة لأحرقها. فلما مضت أربعون ليلة ـ وقيل: خمسون ـ اجتمع علماء بني إسرائيل، ونشروا التوراة، وبكوا وتضرعوا إلى الله تعالى، فلما رأى الشيطان ذلك طار من مجلس سليمان، ثم قذف بالخاتم في البحر فابتلعته سمكة.

فإن قيل: فكيف أقدم الشيطان على حمل الخاتم وفيه أسماء الله تعالى؟ فالجواب: إن الله أقدره عليه عقوبةً لسليمان، فغيَّر أوصافه وألقى عليه شبَه سليمان إلى المدة المذكورة.

والسبب الثاني: في امتحان الله سليمان ما رواه الوالِبي عن ابن عباس قال: كان بين قوم وبين أهل امرأةٍ لسليمان حكومة، فقضى سليمان عليه السلام للقوم على أهل المرأة، إلا أنه ودَّ بقلبه لو كان الحقُّ لأهلها، فعوقب إذ لم يكن هواه فيهم واحداً.

والثالث: أن هذه الزوجة كانت آثر النساء عنده فقالت له: إن بين أخي وبين قوم خصومة، وإني أحب أن تقضي له فقال: نعم، ولم يفعل، فابتلي لأجل ما قال: نعم، قاله السُّدي. والأصحّ القول الأول، وعامة العلماء عليه.

وقال جدي في «التبصرة»: وفي كيفية ذهاب الخاتم قولان، أحدهما: أنه كان جالساً على شاطىء البحر فوقع منه، قاله عليّ عليه السلام. والثاني: أنَّ شيطاناً أخذه[1].

ثم في كيفية أخذه هو أقوال: أحدها: أنه وضعه تحت فراشه ودخل الحمام، فأخذه الشيطان فألقاه في البحر، قاله ابن المسيّب. والثاني: أنه أخذه منه. والثالث: أنه أخذه من الأمينة، وهو الأصحّ، ذكره سعيد بن جبير ووهب وغيرهما.

واختلفوا في رجوع الخاتم إليه على أقوال:

أحدها: ما ذكرنا عن ابن عباس وروينا.

والثاني: أنَّ الحوت بلع الخاتم فأخذه بعض الصيَّادين ودفعه إلى سليمان وآخر

(١) «التبصرة» ١/ ٢٩١.

معه، وكان سليمان قد عمل معه ذلك اليوم، فأخذ سليمان الحوتين فباع أحدهما بأرغفةٍ، ونقر بطن الآخر ليشويه فظهر الخاتم، فلبسه، فردَّ الله عليه ملكه.

والثالث: ذكره الضحاك عن ابن عباس، روى: أن بعض نساء سليمان كان يضع الخاتم عندها، فجاء الشيطان في صورته فأخذه منها، وهرب سليمان إلى الصيَّادين يستطعم، فضربه بعضهم بمسحاةٍ فشجَّه، فجعل يغسل الدم على البحر، فلام الصيادون من ضَرَبه وقالوا: بئس ما فعلت، عَمَدْتَ إلى رجل فقير مجهود ففعلت هذا، ثم ألقوا عليه حوتاً وكان جائعاً فشقَّ بطنه، فإذا بالخاتم، فلبسه فردَّ الله عليه مُلْكه، وقام الذي ضربه يعتذر إليه، فعذره وقال: هذا أمرٌ لا بدَّ منه(١).

وذكر الثعلبي: أن سليمان لما افتتن سقط الخاتم من يده، فأعاده مراراً وهو يسقط، فقال له آصف: إنك مفتون، وإن الخاتم لا يثبت في يدك حتى ينقضي زمان البلاء، ففِرَّ إلى الله تعالى تائباً، وأنا أقومُ مقامَكَ، وأسيرُ بسيرتك؛ فهرب سليمان، ولبس آصف الخاتم، وأقام يسير بسيرة سليمان إلى أن يعود(٢).

قلت: وليس هذا القول بشيء، وعامة العلماء على الأول.

وقال ابن المسيَّب: احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام، فأوحى الله تعالى إليه يا ابن داود، احتجبت عن عبادي ثلاثة أيام لم تنظرْ في أمورهم، ولم تنصفِ المظلومين من الظالمين، وعزَّتي لأسْلُبَنَّك مُلكك، قال: فكان سليمان بعدها لا يحتجب عن الناس ليلاً ولا نهاراً.

وذكر مقاتل أن سليمان تزوّج امرأةً من غير بني إسرائيل، فعاقبه الله تعالى، وكل هذه الأقوال فيها نظر، والأصحُّ القولُ الأول.

وقال جدي في «التبصرة»: لما لبس الخاتم ردَّ الله عليه ملكه وبهاءه، وأظلَّتْهُ الطير، فأقبل لا يستقبله إنسيٌّ ولا جنيّ ولا طائر ولا حجر ولا شجر إلا وسجد له، حتى انتهى إلى منزله، ثم أرسل إلى الشيطان فجيء به، فجعله في صندوق من حديد وقفل وختم

---

(١) انظر الخبر في «عرائس المجالس» ص ٣٢٦.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٧.

عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقي في البحر فهو فيه إلى يوم القيامة.

فتأملوا إخواني هذا السلطان العظيم كيف تَزلْزَل بالزَّلل، واختلَّت أموره إذ دخل عليه الخلل، فخطؤه أوجب خروجه من المملكة، وكاد أنْ يوقعه كما أوقعت لقمةٌ آدم في مهلكة، وعليكم بالتقوى فهي سبب السلامة، ومن أخطأ أخطأته الكرامة(١).

قلت: وما ذنب الشيطان؟ أليس الله تعالى سلَّطه عليه عقوبةً لما فعل؟

فإن قيل: فلمَ جُعِل مُلكه في خاتمه؟ فالجواب من وجهين، أحدهما: ليريه هوان ما أعطاه من الدنيا في جنب ما لم يعطه؛ لقد رفض الخاتم في جنب سائر الأشياء. والثاني: أن الخاتم كان حجراً من أحجار الجنة، حكَمَ هذا الحكم الباهر، فكيف بما فيها من اللآلىء والجواهر؟

قلت: وقد ورد في الخاتم حديث ذكره جدي في «الموضوعات» عن جابر، قال رسول الله ﷺ: «كان نقش خاتم سليمان: لا إله إلا الله محمد رسول الله»، قال جَدِّي: هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ(٢).

فصل في قول سليمان: لأطوفن الليلة على مئة امرأة

قال البخاري: حدثنا أبو اليَمان بإسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «قال سُليمان، لأَطُوفَنَّ اللَّيلةَ على مئة امرأةٍ أو تسعين، كُلُّهنَّ يَأتِينَ بفارسٍ يُقاتِلُ في سَبِيل الله، فقالَ لهُ صاحِبُه أو حاجبُهُ: قل إن شَاء الله، فلمْ يَقُلها، فَطاف عَلَيهنَّ كلهن جميعاً فلمْ تَحمِل مِنهنَّ إلا امرأةٌ، جَاءت بشقٍّ وَلَدٍ. والذي نَفْسي بيَدِه لَو قالها لَجَاهَدوا في سَبيل الله فُرسَاناً أجمَعين»(٣)، أخرجاه في «الصحيحين».

وفي «الصحيح»: فقال له صاحبه ـ قال ابن عيينة: يعني المَلَك ـ قل: إن شاء الله، فنسي(٤).

---

(١) «التبصرة» ١/ ٢٩١ـ٢٩٢.

(٢) «الموضوعات» ١/ ٣٢٤ حديث رقم (٤١١).

(٣) «البخاري» (٢٨١٩)، و«مسلم» (١٦٥٤).

(٤) في (ط): فقال له الملك قل إن شاء الله فنسي، قال ابن عيينة: يعني الملك، وليس في (ب)، والمثبت من «صحيح البخاري» (٦٧٢٠).

قلتُ: وهذه الرواية أليقُ بسليمان أنْ يكونَ على وجه العِنَاد للهِ تعالى، لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ والنسيانُ لا ينفك عنه أحد. وقد روي أن هذا القولَ أحدُ أسباب فتنة سليمان.

فصل في قصة جرت لصديق سليمان مع مَلك الموت

روى وهب بن منبه عن الضحاك عن ابن عباس قال: كان لدَاود صديقٌ من بني إسرائيل يُدني مجلسه ويشاوره في أموره، فلمَّا مات دَاود وقام سُلَيْمان أنزله منزلته عند أبيه، وكان مَلَك الموت يدخل على سليمان ويستقضي حوائجه، فدخل عليه يوماً وعنده صديق أبيه، فلما خرج مَلكُ الموت قال له الرجل: أسألك بالله أن تأمر الرِّيح أنْ تحملني إلى أقصى جَزيرَةٍ بالهِند فتطرحني هناك، قال سليمان: ولمَ؟ قال: لأنَّ الرجل الذي دخل عليك لَحَظَني لحظةً لم أتمالكْ عندها، فأمر سليمان الرِّيح فحملته إلى الهِند، وحزن سليمان لفقده، فدخل عليه مَلَك الموت فقال: مالي أراك حزيناً؟ فقال: لأجل فَقدي لصديق أبي. فقال مَلَك الموت: الساعةَ قبضتُ روحه بأقصى جَزيرةٍ[1] بالهِند، أمرني الله بذلك، فبكى سليمان عليه السلام وقال: يا لله العجب.

حديث الطائر مع سليمان

روى محمد بن إسحاق عن كعب قال: مرَّ سليمان على طائر يرفرف على فراخه ويزقُّهم[2] ويعلمهم الطيران، فقال: ليت سليمانَ حبس جيشه حتى أُدخلَ فراخي إلى العش، فوقف له سليمان حين سمعه، فلما أدخل فراخه العش وخرج من العش أخذ الماءَ بمنقاره وجعل يرش الطريق بين يدي سليمان شكراً لما صنع.

وذكر أبو المعالي بسند له في كتاب «لوامع أنوار القلوب» قال: راود خطّافٌ خطافةً فامتنعت عليه، فقال: لو شئتِ أن أقلب القبَّة على سليمان لفعلتُ، وبلغ سليمانَ فأحضره وقال: قلت كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: ما حملك عليه؟ قال: يا نبيَّ الله، العشاقُ لا يؤاخَذون بما يبدو منهم، قال: صدقت.

(١) في (ب) و(ط): مدبرة، والمثبت من «العاقبة في ذكر الموت» لعبد الحق الإشبيلي ١/ ٤١.
(٢) يَزُقُّهم: أي يطعمهم.

فصل في معجزاته

قال علماء السِّير: معجزاته كثيرة منها تَسخير الشياطين له، قال ابن عباس: بنوا له مُدناً كثيرة منها تَدْمُر وبَعْلَبَك، وفيها يقول النَّابغة:

إلا سُلَيمانُ إذْ قال المَليكُ لَهُ ... قُمْ في البَريَّةِ فاحْدُدْها عن الفَنَدِ
وخيِّسِ الجنَّ إني قَدْ أَمَرْتهمُ ... يَبْنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ[(١)]

وقال الجوهري: الصُّفَّاح ـ بالضم والتشديد ـ: الحجر العريض[(٢)]. وقيل: الرخام الأبيض والأصفر. وقال السُّدي: لا يختلفون أنه بنى تَدْمُر، وفي بَعْلَبَك خلاف، وبنى قلعة سليمان بخُراسان والأُبُلَّة، والسُّوس، وإِصْطَخْر.

وقال الثعلبي: وُجدَت في صخرة منقورة بأرض كَسْكَر هذه الأبيات:

ونَحْنُ ولا حَوْلٌ سوى حَوْل رَبِّنا ... نَروحُ إلى الأوطانِ من أَرض تَدْمُرِ
إذا نَحْنُ رُحْنَا كان رَيْثُ رَوَاحِنَا ... مَسيرةَ شَهْرٍ والغدوُّ لآخَرِ
أُناسٌ شَرَوا لله طَوْعاً نفوسَهُم ... بنَصْر ابنِ داود النَّبيِّ المطهَّرِ
لَهُم في مَعَالي الدِّين فَضْلٌ ورَأفةٌ ... وإنْ نُسِبُوا يوماً فهمْ خيرُ مَعْشَرِ
متى يَرْكَبُوا الرِّيحَ المطيعةَ أَسْرَعتْ ... مبادرةً من شَهْرِها لَمْ تُقَصِّرِ
يُظِلُّهُم طيرٌ صُفُوفاً عَلَيْهِمُ ... متى رَفْرَفَتْ مِنْ فَوْقِهم لم تَفَتَّرِ[(٣)]

وأمر زوبعة فبنى باليمَن حِصن سَلْحِين وصِرْوَاح ومِرْوَاح وبَيْنُوْن وهند وهُنَيْدة ومبلوم.

ولما مات سليمان صاح صائحٌ من السماء بعد سنة في الليل: يا معاشر الجنّ والشياطين مات نبيُّ الله سليمان فارفعوا أيديكم، فعمدت الشياطين إلى حجر وكتبوا عليه بالمسند أسماء الحصون التي بنوها وتفرقوا.

وقال جدي رحمه الله في «التبصرة»: وكانت الشياطين تغوص في البحار

---

(١) البيتان في ديوانه: ص ٣٣، و«الفند» الخطأ في الرأي والقول، و«خيس»: ذلل.
(٢) «الصحاح»: (صفح).
(٣) «عرائس المجالس» ص ٣٠٥.

فيستخرجون له الدُّرَّ واللآلىء، ويعملون له الجِفَان والقصاع، يجتمع على القصعة ألف رجل، ويأكل من كل قِدر ألف رجل، ولا تنزل من مكانها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ يعني الغوص ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَـٰفِظِينَ﴾[الأنبياء: ٨٢] حتى لا يخرجوا عن أمره(١).

ومنها: الريح، وقد ذكرناها.

فإنْ قيل: فقد قال في موضع: ﴿عَاصِفَةٗ﴾[الأنبياء: ٨١] وفي موضع: ﴿رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾[ص: ٣٦] فالجواب: إنَّ الرخاء مأخوذة من الرخاوة، وأصاب بمعنى قصد، وأما عاصفة فلأنها كانت تلينُ إذا أراد، وتشتدّ إذا أراد. وقوله: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾[الأنبياء: ٨١] يعني: أرض الشام، لأنها كانت منزله.

ومنها: فهم كلام الطير والنمل، وقد أشرنا إلى طرف منه.

ومنها: بساطه، وكان مئة فرسخ، وهو من نسج الجنة، قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن وهب بن منبه عن كَعب قال: إنَّ سليمان عليه السلام كان إذا ركب حمل أهله وحَشَمه وخدمه وكُتَّابَه وتلك الصفوف بعضها فوق بعض على قدر درجاتهم، وقد اتخذ مطابخ ومخابز يحمل فيها تنانير الحديد، وقدوراً عظاماً تَسَع القدرُ عشر جزائر، واتخذ ميادين الدوابِّ أمامه، فيطبخ الطباخون، ويخبز الخبازون، وتجري الدواب بين السماء والأرض، والريحُ تهوي بهم. وتمام هذا الأثر: أنه مرَّ بمَكَّة ولم ينزلْ حتى عاد من اليَمَن، وأنه بشَّر بنبيِّنا ﷺ وقد ذكرناه(٢).

ومنها: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾[سبأ: ١٢] قال ابن عباس: يعني أسلنا له عين القطر أي: عين النحاس، ثلاثة أيام كما يسيل الماء، وكانت بأرض اليَمَن، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله لسليمان من الأرض(٣).

قال ابن عباس: المراد بالمحاريب: المساجد، والتماثيل: القصور والخاتم

---

(١) «التبصرة» ١/ ٢٩٠.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٢٩٨.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٠٥.

والكرسي وغير ذلك.

وقال مجاهد: هذا في بيت المقدس، عملوا له المحاريب من النحاس والصُّفر والشَّبَه والزجاج والرخام، والتماثيل صور الملائكة والأنبياء والصالحين، حتى إذا رآهم الناس مصوَّرين ازدادت عبادتهم.

وجِفان وهي القصاع، وقد ذكرنا أنه كان يجتمع على الجفنة الواحدة ألف رجل، والقدور الرَّاسِيات: الثابتات في أماكنها لا تنزل، ومنه قيل للجبال: رواسي.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[سبأ: ١٣] أي وقلنا: اعملوا بطاعة الله شكراً له على نعمه.

قال ثابت البناني: كان داود عليه السلام قد جزَّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة منها إلا وإنسانٌ من آل داود قائم يصلي أو يقرأ.

وقال مجاهد: كان سليمان عليه السلام قد تخلى عن الدنيا وانقطع إلى العبادة، وسببه أنَّ النَّملة قالت له: إنما سميتَ سليمان لأنك سليم الصدر، وقد آن لك أن تلحق بأبيك، فسلَّم المُلْك إلى آصف ودخل المحراب، فتعبَّد حتى مات.

فصل في وفاة سليمان عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ الآية.

أنبأنا غير واحد عن إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي بإسناده عن ابن عباس قال: كان سليمان يقيم بالبيت المقدَّس الشهر والشهرين والسنة والسنتين، يدخل بيوت العبادة فيتعبَّد فيها، وكان يصبحُ كلَّ يوم وقد أنبت الله في القدس شجرةً فيسألها ما اسمكِ؟ فتقول: اسمي كذا وكذا، وأَصْلُحُ لكذا وكذا. فبينما هو ذات يوم قائمٌ يصلي في المسجد، رأى شجرةً قد نبتت بين يديه فقال: ما أنت؟ قالت: الخرُّوبة، قال: ولأيِّ شيءٍ نبتِّ؟ قالت: لخراب بيت المقدس ـ أو لخرابِ هذا المسجد ـ وذهاب هذا الملك. فقال: ما كان الله سبحانه ليخرِّبه وأنا حيٌّ، فقلعها وغرسها في حائط المسجد، ثم أخذ منها غُصْناً يتوكأ عليه، وهو مِنْسَأَتهُ، ثم قال: اللهم غُمَّ عن الجنِّ موتي حتى تعلم الإنس أن الجنَّ لا يعلمون الغيب. وكانت الجنُّ تقول للإنس: نحن نعلم الغيب، ثم دخل المحراب وقام يصلي متكئاً على عصاه فمات، وقال ابن زيد: قال سليمان

لملك الموت: إذا أُمِرْتَ بي فأَعلمني، فأتاه فقال: قد أُمِرتُ بك، وقد بقيت لك سُوَيْعة، فدعا الشياطين وقال: ابنوا لي صرحاً من قوارير ليس له بابٌ، ففعلوا، وقام يصلي، ودخل عليه ملكُ الموت فقبضه وهو متكيء على عصاه[١].

وفي رواية أخرى: أنَّ سليمان قال ذات يوم لأصحابه: قد آتاني الله من المُلْك ما ترون، وما مرَّ عليَّ يومٌ بحيث صفا لي من الضَّرر، وقد أحببتُ أن يكون لي يومٌ واحد يصفو إلى الليل ولا أغتمَّ فيه، وليكن ذلك اليوم غداً. فلما كان من الغد دخل قصراً له، وأمر بإغلاق أبوابه، ومنع الناس من الدخول عليه ورَفْعِ الأخبار إليه، لئلا يسمع من ذلك ما يسوؤه. ثم أخذ عصاه بيده وصعد فوق قصره واتكأ على عصاه ينظر في ملكه، إذ نظر إلى شابٍّ حسن الوجه عليه ثيابٌ بيضٌ قد خرج عليه من جانب القصر، فسلَّم عليه فقال سليمان: من أين دخلتَ وقد منعنا الناس من الدخول؟ فقال: أنا الذي لا يحجبني حاجبٌ، ولا يردُّني بوَّاب، ولا أهابُ الملوك، ولا أقبل الرِّشا، وما كنت لأدْخلَ هذا القصر بغير إذن، وما دخلت إلا بإذن ربي. قال: فأنت حينئذٍ مَلَكُ الموت، قال: نعم جئت لقبض روحك، فقال: هذا يومٌ أردتُ أن يصفو لي من الكَدَر ولا أسمعُ فيه ما يغمني، فقال له ملك الموت: ذاك اليوم الذي تشير إليه لم يخلق في دار الدنيا، فارض بقضاء ربك فإنه لا مردَّ له، فقال له: فامض لما أُمرتَ به، فقبضه وهو متكيء على عصاه. وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه ومصلَّاه أينما كان، وكان للمحراب كوىً بين يديه ومن خلفه، وما كان شيطان ينظر إليه وهو في محرابه إلا احترق، فدخل شيطانٌ من جانب وخرج من جانب ولم يحترق، فنظر إلى سليمان وقد خرَّ ميِّتاً فأخبر الناس، ففتحوا الباب وأخرجوه، ووجدوا الأَرَضَةَ قد أكلت مِنْسأته ـ وهي العصا ـ ولم يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأَرَضَة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلة، فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانت الجن تعمل بين يديه بعد موته حولاً كاملاً، فأيقن الناس أن الجنَّ كانوا يكذبونهم لأنهم لو عَلِموا بموته ما عَمِلوا[٢]. ثم قالت الشياطين للأَرَضَة: لو كنتِ تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٨.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٩.

تشربين الشراب لأتيناك بأطيب الشراب، ولكنا سننقل إليكِ الماءَ، فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت[١]. ويقال لها: القادح، وهي دويبة تأكل العيدان.

وقال الجوهري: الأَرَضَة بالتحريك دويبة تأكل الخشب[٢].

واختلفوا في مبلغ سنِّه:

فقال الثعلبي: عاش ثلاثاً وخمسين سنة، ومدَّةُ مملكته أربعون سنة، وملك يَوْمَ مَلَكَ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من مُلْكه[١]. ولم يذكر الثعلبي غير هذا.

وقال مقاتل: عاش اثنتين وخمسين سنة لأنه ملك وهو ابن اثنتي عشرة سنة.

وقيل: إنه عاش سبع مئة سنة، وإنه كان في زمان أفريدون. وهذا القول ليس بشيء.

ولم يذكر جدي في «أعمار الأعيان» مبلغ سنِّه.

واختلفوا في موضع قبره على قولين:

أحدهما: قبره بالبيت المقدس عند الجسمانية[٣]، هو وأبوه في قبر واحد.

والثاني: على ساحل بحيرة طَبَرِيَّة.

وقال ابن عباس: لما مات سليمان أَخرجتِ الشياطينُ من تحت كرسيه أوراقاً فيها سحر وطِلَّسْمات، وهي على لسان آصف بن برخيا: هذا ما علَّم آصف سليمان، وكان صخر قد دفنها ـ وقيل: غيره ـ تحت كرسيِّ سليمان، ولما أخرجوها قالوا للناس: إنما مَلَكَكُم سليمان بهذا فتعلموه، فأما صلحاء بني إسرائيل فقالوا: معاذ الله أنْ يكون هذا من عِلْم سليمان، وإنْ كان هذا علمه فقد هلك، وقالت السَّفِلَة: بلى كان هذا عِلْمه، وأقبلوا على تعلُّمه ورفضوا كتبَ أنبيائهم، وفشت الملامةُ لسليمان، فلم يزل ذلك حالهم حتى بعث الله رسوله، فأنزل الله تعالى عُذْرَ سليمان على لسانه، وأظهر براءته مما رأى فقال: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢] يعني اليهود،

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٣٠.

(٢) «الصحاح»: (أرض).

(٣) أي عند كنيسة الجسمانية كما تقدم في الصفحة ١٨٠، وانظر «الروض المعطار» ١/ ١٢٣.

ومعنى ﴿تتلو﴾ تَلَتْ، وقرأ الحسن: «الشياطون» بالواو في جميع القرآن[1]، وهو لحنٌ فاحش عند أهل الأدب. الأصمعي قال: سمعت أعرابياً يقول: بستان فلان حوله بساتون. ومعنى ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ أي: في ملكه.

وقال السُّدي: كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعدَ للسمع ثم يأتون الكهنةَ فيخبرونهم، ويخلطون ما سمعوا بالكذب والزور، في كل كلمة سبعون كذبة فيما يكون في الأرض من موتٍ أو غيره، ففشا في بني إسرائيل أنَّ الجنَّ تعلمُ الغيب، فجمع سليمان تلك الكتبَ وجعلها في صندوق ودفنها تحت مصلاه أو كرسيِّه، وقال: لا أسمعُ أحداً يقول إن الشياطين تعلم الغيب إلا قتلته. فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين يعرفون حال الكتب وَدَفْنَهُ إياها تمثَّلَ الشيطان في صورة إنسان، وأتى نفراً من بني إسرائيل، قال: هل أدلكم على كنزٍ لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، فذهب معهم إلى كرسيِّ سليمان وقال: احفروا ها هنا، فحفروا وأخرجوها، فقال: إنَّ سليمان كان يضبط الجنَّ والإنس والطير بهذا. ولما أراهم المكان من بعيد قالوا: ادنُ، قال: لا أقدر، وما كان شيطانٌ يدنو من الكرسيِّ إلا احترق، وطار في الهواء. ولما ظهرت الكتب فشا في الناس أنَّ سليمان كان ساحراً، فلذلك أكثرُ ما يوجد السحر في اليهود. فأنزل الله براءة سليمان.

وفي الآية دليل على أنَّ الساحر كافر لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[البقرة: ١٠٢].

فصل في وفاة بلْقيس

حكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» وقال: بلغني أنَّ بلْقيس ملكت اليَمَن تسع سنين، وكانت خليفةً عليها من قِبَل سليمان أربع سنين، قال: وقال همام بن منبه: قدمتُ مكة فجلستُ إلى عبد الله بن الزبير وعنده جماعة من قريش فقال رجل: ممن أنت؟ قلت: من اليَمَن، قال: ما فعلتْ عجوزكم؟ قلتُ: أيُّ عجوز؟ قال: بلْقيس، قلت: أَسْلَمَت مع سليمان لله رب العالمين، وأما عجوزكم فحمَّالة الحطب في جيدها

---

(١) «مختصر في شواذ القراءات» ص ٨.

حبلٌ من مسد[١].

قال أبو القاسم: وروي عن الأَوْزَاعي أنه قال: كُسِرَ برجٌ من أبراج تَدْمُر فأصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مدرجة، كأن أعكانها طيُّ الطَّوَامير المدرجة، عليها عمامة طولها ثمانون ذراعاً، مكتوب على طرفها: بسم الله الرحمن الرحيم، أنا بِلْقيس مَلِكَة سَبأ، زوجة سليمان بن دَاود، مَلَكْت الدنيا كافرةً ومؤمنة، ملكت شيئاً لم يملكه أحدٌ قَبْلي، ولا يملكه أحدٌ بَعْدي، ثم صار مصيري إلى الموت فأَقْصِرُوْا يا طُلابَ الدنيا[٢].

واختلفوا فيها على أقوال: فقال السُّدي: توفيت قَبْل سليمان بشهر، وقيل: إنها توفيت باليَمَن.



قال: فإن قيل: فهل تعرفون في رواة الحديث من اسمه سليمان بن داود؟

فالجواب: جماعة ذكرهم أبو القاسم في «تاريخ دمشق» والخطيب في «تاريخ بغداد» فنذكر أعيانهم، فمنهم:

سليمان بن داود بن أبي حَفْص، وكنيته أبو الرَّبيع الخُتَّليُّ[٣]، سمع بالشام أبا الحسن بن أبي الحديد وغيره، وروى عن حَفْص بن عمر الربعي وغيره.

ومما روى عن الرَّبعي[٤] قال: خرجنا إلى المدائن لنسمع من شُعيب بن حرب الواسطي فقال: أحدِّثكم قبل أن تسمعوا بحديثين في الورع، أما أحدهما فرأيته بعيني قال: خرجتُ حاجّاً فركبتُ في سفينة فإذا رجلان كأنهما ارتكضا في رحم واحد، يعظِّم كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، وإذا في السفينة قمح، فأخذ أحدهما قمحةً فوضعها في فيه، فنظر إليه صاحبه وقال: ما هذا؟ قال: سهوتُ، قال: لا أصاحب من يسهو عن الله، قدِّم السَّفينةَ يا ملاح وإلا رميتُ روحي في البحر، فقلت له: من أجل قمحةٍ تلقي روحك في البحر؟ فقال: هيه استصغرتَ الذنبَ ولم تنظر مَن عُصي، ولم يقدِّم الملاحُ

(١) «تاريخ دمشق» ٦٩/ ٧٧.

(٢) تاريخ دمشق ٦٩/ ٧٨، والطوامير: جمع طامور، وهو الصحيفة.

(٣) كذا في (ط)، وليس في (ب)، والصواب: الجِيلي كما في تاريخ دمشق ٧/ ٦٠٣ (مصورة دار البشير)، ومختصره لابن منظور، وابن بدران ٦/ ٢٧٣.

(٤) كذا في (ط)، وفي تاريخ دمشق ومختصريه: المربّعي، وهو الصواب إن شاء الله.

السفينةَ فزجَّ نفسه في البحر وغاب عنا. فقال صاحبه: والله إني صحبته منذ ثلاثين سنة ما رأى مني زلَّةً غيرها. قال: وسرنا أياماً وأنا أخدمه حتى أتينا مَكَّةَ، فبينما نحن في الطواف وإذا برجلٍ، فقلت لرفيقه: هذا صاحبك، فجاء فسلَّم عليه فقال له: أُبْ إلى الله بالتوبةِ من ذنبك، ففعل فقلت: الصحبة فقال: قد نَهَى رسولُ الله ﷺ عَن صُحْبة الثلاثة، لِئلا يتناجى اثنان دونَ الثَّالِث[1]، ثم افترقا، فإن يكن أحد من الأبدال فهما ذانك الفتيان.

وأما الذي حدثني سفيان الثوري فقال: بلغني أنَّ المسيح عليه السلام مرَّ بمقبرة، فنادى: يا أهل القبور أخبرونا عن حالكم، فقام رجل منهم ينفض التراب عن رأسه ويقول: يا روحَ الله ما الذي تريد منا؟ فإني لواقفٌ في الحساب منذ سبعين سنة، قال: وما كنت تعمل؟ قال: حمَّالاً أحملُ الحطب فبعتُ يوماً حزمةً من رجل، وأخذتُ منها شظيَّةً فتخلَّلتُ بها ورميتها في الطريق، فعاتبني الله وقال: استهنتَ بأمري وقد علمتَ أني مطَّلعٌ عليك أسمع وأرى، قال: فشاب مُقَدَّمُ رأسِ المسيح من هول ما سمع منه وقال سفيان: هؤلاء أصحاب الشظايا، فما بالكم بأصحاب الجذوع؟!

قلتُ: وقد ذكره الخطيب[2] وقال: كان أحول، وحدَّث عنه عباس الدوري ومسلم بن حجاج وأبو زرعة الرازي وعبد الله بن أحمد بن حنبل وغيرهم، وكان ثقةً، ومات بمدينة أبي جعفر ببغداد، أول يوم من رمضان سنة إحدى وثلاثين ومئتين.

ومنهم: سليمان بن داود بن خالد بن عباد، من ساكني جَرود من إقليم مَعْلُولَا من عمل دِمَشق[3].

ومنهم: سليمان بن داود بن عبد الله أبو أيوب، من أهل نَيْسَابُور[4]، وذكره الحاكم أبو عبد الله في «تاريخه»، ومات في سنة عشرين وثلاث مئة بنَيْسَابُور، وسافر إلى الشام

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٥٦٤)، والنهي فيه عن التناجي فقط وليس عن الصُّحبَة، بل ورد الحضُّ على صُحبة الثلاثة في قوله ﷺ: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة رَكْبٌ» أخرجه أبوداود (٢٦٠٧)، والترمذي (١٦٧٤).

(٢) وَهِمَ المصنف رحمه الله في هذا، فالذي ترجم له الخطيب ١٠/ ٤٩ نسبته «الخُتَّلي» وتوفي سنة ٢٣١هـ، أما المقصود فهو «الجيلي»، وتوفي نحو سنة ٤٦٩هـ.

(٣) «تاريخ دمشق» ٢٢/ ٣٠٢.

(٤) «تاريخ دمشق» ٦٤/ ٣٥٤.

والحِجَاز والعِراق، وسمع بدمشق أبا زُرْعة الدمشقي وروى عنه في «تاريخه» وأسمعه، وروى عنه جماعة منهم أبو زكريا يحيى بن محمد العنبري، وعاد إلى نَيْسَابُور فتوفي بها، كما ذكرنا.

ومنهم: سليمان بن دَاود بن عبيد الله بن مروان بن الحكم بن أبي العاص(١)، كان يسكن دَيْر البُخْت من أعمال دمشق، وكان أعورَ، وهو الذي تزوج فاطمةَ بنت عبد الله ابن مروان زوجة عمر بن عبد العزيز بعد عمر، فولدت له هشام بن سليمان، وسليمان هذا هو الذي يقال له الخلف الأعور. وقيل: إنما خلف عليها داود بن بِشْر بن مروان، وسنذكره فيما بعد.

ومنهم: سليمان بن داود الخَوْلاني الدَّارَانِيّ(٢) أخو عُثْمان بن دَاود، روى عن: الزُّهْري وعمر بن عبد العزيز وأبي قِلابة الجرمي وغيرهم، وروى عنه: الوَضِينُ بن عطاء وغيره، وكان حاجباً لعمر بن عبد العزيز ثقةً مأموناً. وقال البيهقي: قد أثنى على سليمان بن داود هذا أبو زُرْعة الرَّازي وأبو حاتم وعثمان بن سعيد الدَّارميُّ وجماعة مِن الحفَّاظ، وتكلموا فيه بسبب الحديث الذي رواه: أن النبي ﷺ كتب كتاب الصدقات(٣)، فمنهم من يقول: أرسله، ومنهم من يقول: وقفه، وعلى كل حال فهو مأمون ثقة.

ومنهم: سليمان بن داود، دِمَشقيٌّ، حدَّث عن أبي معاوية شيبان بن عبد الرحمن النَّحْوي، وروى عنه محمد بن موسى القطَّان(٤).

ومنهم: سليمان بن داود، دِمَشقي أيضاً، حدَّثَ عن أبي سهل أحمد بن محمد بن عمر اليماني، وروى عنه عبد الله بن محمد بن يوسف(٥).

وأما الذين ذكرهم الخطيب:

---

(١) «تاريخ دمشق» ٢٢/ ٣٠٣.
(٢) «تاريخ دمشق» ٢٢/ ٣١٢.
(٣) حديث الصدقات حديث طويل أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٥٥٩)، والحاكم في مستدركه (١٤٤٧).
(٤) «تاريخ دمشق» ٢٢/ ٣١٥.
(٥) «تاريخ دمشق» ٢٢/ ٣١٥.

فمنهم: سليمان بن دَاود أبو داود الطَيَالِسي[١]، وقد ذكر.

ومنهم: سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عبَّاس، ذكرناه أيضاً[٢].

ومنهم: سليمان بن داود، أبو الرَّبيع الزَّهْراني[٣] ذكرناه أيضاً.

ومنهم: سليمان بن داود بن بشر الشاذكوني[٤] ذكرناه أيضاً. انتهت ترجمتهم، والله أعلم.



(١) «تاريخ بغداد» ٩/ ٢٤.

(٢) «تاريخ بغداد» ٩/ ٣١.

(٣) «تاريخ بغداد» ٩/ ٣٨، وتهذيب الكمال ٣/ ٢٧٧.

(٤) «تاريخ بغداد» ٩/ ٤٠.

فصل

في ذكر جماعة مَلَكوا بعد سليمان عليه السلام[١]

قال علماء السِّير: ولما مات سليمان مَلَك بعده ولده رجيعم بجيم[٢]، وفيه خلاف، فأقام بعد أبيه سبع عشرة سنة.

واختلفوا فيمن مَلَك بعده: فقال وهب: ابنه أبيًّا بن رُحُبْعم ثلاث سنين[٣] ومات بعده.

وقال كعب: إنما مَلَك بعد رُحُبْعُم رجل من بني إسرائيل يقال له نورغم[٤]، فاتخذ عجلاً من ذهب وعبده فأهلكه الله، ثم مَلَك بعده أَبيًّا بن رُحُبْعُم ومات، فملك بعده رجل يقال له آحاذ[٥]، فأقام أربعين سنة، وفي أيام آحاذ انقطع ملك قوم سَبَأ، وآخرهم الصباح، ملك تسعة عشر شهراً وأياماً، وقال وهب: إنما مَلَك بعد أَبيًّا بن رُحُبْعُم ولده أُسَا بن أَبيًّا أربعين سنة، وكان رجلاً صالحاً.

فصل في ظهور السامرة

واختلفوا فيهم: فقال وهب: ظهروا في أيام أَبيًّا بن رُحُبْعُم، وقيل: في أيام أُسَا، وأنكروا نبوَّة داود وسليمان، وأقاموا رؤساء من سِبْط هارون بن عمران، وسكنوا نَابُلُسَ، وعظموا الجبل الذي يليها من ناحية القِبلة، وسموه الطُّور، واتخذوا بوقاتٍ من فِضَّة ينفخون فيها في أوقات صلواتهم، وهم الذين يقولون: لا مساس، ويزعمون أنَّ نَابُلُس مدينة يَعقوب، وهم صِنفان متباينان: أحدهما يقال له: كوشان، والآخر: دوشان، والصنفان يخالفان اليهود، وبيدهم توراة غير التي بيد اليهود، ودوشان يقولون بقِدَم العالم.

(١) انظر «تاريخ اليعقوبي» ١/ ٦١، و«تاريخ الطبري» ١/ ٥١٧، ومروج الذهب ١/ ١١٢.
(٢) كذا في (ط): بجيم، وليس في (ب)، وفي الطبري: رُحُبْعُم، وسترد كذلك قريباً، وفي مروج الذهب: ارخبعم.
(٣) في (ط): ثلث سنة، وليس في (ب)، والمثبت من الطبري ومروج الذهب.
(٤) في تاريخ الطبري ١/ ٥١٧، ومروج الذهب ١/ ١١٣: يو ربعم.
(٥) في مروج الذهب: احاب.

فصل
في قصة أسا بن أبيّا بن رُحُبْعُم بن سليمان مع صاحب الهند[1]

وكان أعرج من عرق النَّسا، ولم يكن نبيّاً، وإنما كان عبداً صالحاً على ما قيل، فطمع فيه الملوك لزمانته.

قال علماء السِّير: ولما قام أسا كان في بني إسرائيل من يعبدُ الأصنام، فنادى مناديه ألا إنَّ الكفر قد مات، وعاش في بني إسرائيل الإيمان، ومن عبد صنماً قتلته، وكسر الأصنام، وقتل جماعةً منهم فهربوا إلى الهِنْد، وبها ملكٌ يقال له: أزرج[2]، وكان جباراً عاتياً، فدخلوا عليه ووصفوا له بلاد الشام وما في البيت المقدس من الأموال والجواهر، وقالوا: أنت أحقُّ بها فقال: حتى أبعث إلى تلك البلاد من يكشفها لي، وبعث جواسيس في زي التجار ومعهم الأمتعة الفاخرة والجواهر الثمينة، وأمرهم أن يعلموا عِلْمَ شأنِ تلك الأرض وأحوال بني إسرائيل، فقدموا الشام وأظهروا تلك الأمتعة وكشفوا البلاد وعلموا علمها، وقالوا للناس: ما بال الملك لا يشتري منا متاعاً ومعنا الطرائف واليواقيت التي لم ير مثلها؟ فقالوا: إن عنده من الجواهر والأمتعة والخزائن التي سار بها موسى من مصر، وما جمع ملك داود وسليمان ويُوشَع ومَن بعدَهم، قالوا: فبم يقاتل إنْ دهمه عدوٌّ، وعدته للقتال قليلة؟ قالوا: له صديق لو استعان به على أن يزيلَ الجبالَ لأزالها، وله جنود لا تُحْصَى. ثم أرسلوا إلى أسا: قد جئنا من بلاد بعيدة ومعنا هدية ونريد أن تقبلها منا، فأحضرهم وما معهم وقال: لا حاجةَ لي فيه، إنما أطلب ما يبقى وهذا يفنى، ثم أحسن إليهم وعادوا إلى الهِنْد، فأخبروا أزرج بالخبر، وقالوا: إنَّ بلاده في غاية الحسن والنزهة وكثرة الأموال، وخصوصاً المسجد الذي لهم، فإن فيه من الجواهر والأموال ما لم يوجد في غيره، وقالوا: له صديق عظيم لو سأله أنْ يزيل الجبال لأزالها، فقال: جنودي أعظم من جنود صديقه، ثم جمع العساكر وكانت ألف ألف فاختار منهم مئة ألف يكونون حوله، وسار في مئة ألف ألف مركب، وزيَّنها بالقباب والفِيَلة والعُدَّة والخزائن ما لم يشاهد

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٥١٧، وعرائس المجالس ٣٣٠، و«المنتظم» ١/ ٣٨٩، و«الكامل» ١/ ٢٥١.

(٢) في تاريخ الطبري والمنتظم: زرح، وفي عرائس المجالس: روح.

مثله، وقصد القُلْزُم، وبلغ أُسَا فقال: اللهم اكفنا شرَّه وافعل به كما فعلتَ بفرعون، فأوحى الله إليه ـ أو رأى في منامه ـ الوعد بالنصر، فعرَّفَ بني إسرائيل، ولما قرب ملك الهِنْد وبلغ بني إسرائيل عظم جيوشه خافوا وقالوا: لا طاقةَ لنا بالقوم، ونحن خارجون إليه لعلهم يرحموننا، فقال أُسَا: تباً لكم، ما هذا برأي، أنُلقي بأيدينا إلى الكفار؟! ولكن أنا أرغب إلى صديقي، ورمى بثياب الملك ولبس المسوحَ وافترش الرماد، ثم دعا آباءه ونصرهم، ونام في مصلاه، فأتاه آت في منامه فقال له: يا أُسَا، الصديق لا يتخلى عن صديقه، أتذكُرني في الرخاء وأسلمك في الشدائد، قد كفيتك أمر عدوِّك، وأنا الذي لا يهون مَن أكرمته، ولا يضعف مَن قوَّيته، فانتبه فرحاً وأخبرهم بما رأى، فصدَّقه المؤمنون وكذَّبه المنافقون. ثم جمع العلماءَ والعبَّاد والرهبان، وخرج ببني إسرائيل، وقد نشر العلماءُ أناجيلهم، وقصد القُلْزُم لئلا يطمع الهنديُّ، فلما وصل إلى البحر وقف على رأسه ينظر إلى المراكب، فلمَّا نظر الهندي إليهم استحقرهم وقال للجواسيس: غررتموني وأقدمتموني من بلادي إلى هذه الشِّرْذمة، وأيُّ قدرٍ لهم؟ ثم صعدوا من المراكب ورشقوا بني إسرائيل رشقةً واحدة، فبعث الله الملائكة فردَّت عليهم النشاب، ووقع في كلٍّ من رمى بنشابة نشابتُهُ التي رمى بها، وظهر من أفواه الملائكة شررُ النار، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، فغرقوا، وانهزم الهندي في مركب يقول: لا طاقة لنا اليوم بصديق أُسَا، ثم ضرب مَلَكٌ مركبه فأغرقه، وغنم بنو إسرائيل عساكره وأمواله وذخائره، وأخذوا ما لم يغنمه غيرهم وانطلقوا، وعظم أُسَا في أعين الملوك.

وذكر هارون بن المأمون: أنَّ صاحب الحَضْر كان يقال له: لنقر[1]، وكان يسكن الثرثار، بريَّةَ سنجار، وكان الحَضْر أعظمَ الحصون، وبلغه خبر بيت المقدس، وكان يعبد الزهرة، فجمع العساكر وخرج ومعه بُخْت نَصَّر، وكان كَاتِبَه، ونذر لنقر إن أظفره الله ببيت المقدس أن يذبح ابنه للزهرة، فنزل على بيت المقدس، فبعث الله عليه وعلى جيشه ريحاً فأهلكتهم، وأفلت كاتبه بُخْت نَصَّر إلى الحضر، وبلغ ابنه أنه نذر ذبحه، وكان كذلك. فغضب بُخْت نَصَّر وقام إلى ابنه فذبحه، ومَلَك بُخْت نَصَّر بعده. قال هارون: وكان ذلك أول أمر بُخْت نَصَّر. قلت: وليس كما ذكر فإن بُخْت نَصَّر ظهر بعد

---

(١) في المعارف ٤٦: لُيَقَر، وفي نسختين ذكرهما المحقق: لنقز، والمثبت من (ط)، وليس في (ب).

ذلك، لما نذكر.

قال: ثم سار ملك الهِند إلى الشام بعد هلاك لنقر فأهلكه الله، ثم أقام أُسَا أربعين سنة ومات.

قال: فملك بعده ولده يَهُو شَافاط خمساً وعشرين سنة ومات، وكان عادلاً صالحاً ولم يكن له ولد.

قال: فنظروا فلم يبقَ مِن بيت المُلْك إلا امرأة يقال لها: غزليا بنت عمرم[١] فملّكوها، وكانت جبَّارة عاتية، فشرعت في قتل أولاد الملوك من بني إسرائيل، فأقامت سبع سنين، ووثب عليها رجل من أولاد الملوك يقال له يواش، فقتلها وملك بعدها أربعين سنة ثم مات.

قال: وملك بعده ابنه أَمَصْيَا بن يُوَاش، فأقام تسعاً وعشرين سنة، وكان فاسقاً فقتله أصحابه.

قال: وملك بعده ولده اسمه لعوزيا، وكان صالحاً، فأقام خمسين سنة، ويقال: إن اسمه عوزيا، ثم مات، وملك بعده ولده حزقيا عشر سنين، ثم اختلف بنو إسرائيل وتداولتهم الأيام حتى بعث الله شَعيا، وبين وفاة سليمان ومبعث شَعيا نحو من ثلاث مئة سنة، وقيل: مئتان وستون سنة.



(١) في «الطبري» ١/ ٥٣١: عتليا ويقال غزليا ابنة عمرم أم أخزايا.

فَصل في قِصَّة شَعْيَا بن أمصيَا وَخَراب بَيت المَقدِس(١)

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾[الإسراء: ٤] والمراد بالكتاب: التوراة، والفساد: قتل الأنبياء مثل شَعْيَا بن أَمَصْيا ويحيى بن زكريًا، والمقتول في الفساد الأول: شَعْيَا، وفي الثاني: زكريًا، وقال مقاتل: كان بين الفَسَادَين مئتا سنة وعشر سنين.

قال علماء السِّير: كان بنو إسرائيل فيهم الأحداث والخطايا، وكان الله تعالى متجاوزاً عنهم، منعطفاً عليهم، محسناً إليهم.

وقال أبو إسحاق الثعلبي ـ وقد اختصرته ـ: كان أول ما نزل ببني إسرائيل بسبب ذنوبهم أنَّ ملكاً منهم يدعى صديقة، وكان الله إذا ملك عليهم بعث نبياً يسدِّده ويرشده، فبعث الله شَعْيَا بن أَمَصْيا، وكان ذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى(٢).

وقال جدي في «فضائل بيت المقدس»: وقال ابن إسحاق: وشَعْيَا هو الذي بشَّر بعيسى ومحمد ﷺ، فقال مخاطباً لبيت المقدس: أبشري أُوْرِيْ شَلِم، الآن يأتيك راكبُ الحمار يعني عيسى، ومِن بعدِه راكب البعير، يعني محمداً ﷺ(٣).

فملك صديقة بني إسرائيل مدةً وشَعْيَا معه، وعظمت الأحداث في بني إسرائيل فبعث الله سَنْحاريب ملك بابل في ست مئة ألف راية، فنزل على القدس، وكان الملك مريضاً في ساقه قرحة، فقال شَعْيَا لصديقة: قد نزل بنا هذا الملك وخافه الناس، فقال له الملك: هل أتاك من الوحي فيما حدث؟ قال: لا، فبينما هم كذلك جاء الوحي بأنَّ صديقة قد انتهى ملكه، وأنه سيخلِّف من يشاء ويوصي وصيَّته، فلما أخبر شَعْيَا صديقة قام إلى المحراب فبكى ساعةً ودعا وتضرَّع وقال: إلهي، قد علمتَ سرِّي وعلانيتي وفعلي في بني إسرائيل ـ وكان عبداً صالحاً ـ فرحمه الله وأوحى إلى شعيا أَخْبِر صديقةَ

---

(١) انظر قصته في «تاريخ الطبري» ١/ ٥٣٢، وتفسيره ١٤/ ٤٥٩، و«البدء والتأريخ» ٣/ ١١٣، و«عرائس المجالس» ص ٣٢٩، وتفسير الثعلبي ٦/ ٧١، و«المنتظم» ١/ ٣٩٧، و«الكامل» ١/ ٢٥٥، والبداية والنهاية ٢/ ٣٥٧.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٥٣١.

(٣) «فضائل القدس» ص ١٠٠.

أنَّ الله قد رحمه وأخَّر أجله خمس عشرة سنة، وأنه قد أنجاه من عدوِّه سَنْحاريب وجنودِه. فأخبر شَعْيَا فذهب عنه الوجع وفرح وسجد شكراً لله تعالى. وأصبح عسكر سَنْحاريب موتى إلا سَنْحاريب وخمسة نفر من كتَّابه، أحدهم بُخْتَ نَصَّر. وخرج صديقة في بني إسرائيل فرأى القوم موتى فغنم أموالهم، وطلب سَنْحاريب، فوجده في مغارة ومعه كتَّابه فجعلهم في الجوامع. وقال صديقة لسَنْحاريب: كيف رأيتَ فعلَ الله بكم؟ فقال سَنْحاريب: قد أتاني خبركم، ونصر ربكم لكم قبل أنْ أخرج من بلادي فلم أطع مرشداً، ولم يُلْقني في الشقاوة إلا قلة عقلي. ثم أمر بهم فطيفَ بهم حول بيت المقدس سبعين يوماً يَطْعَمُ كلُّ واحد منهم في كلِّ يوم قرصين من شعير، فقال سَنْحاريب: القتلُ أهونُ علينا من هذا. فأوحى الله إليه: يا شَعْيَا أطلقوا سَنْحاريب ومن معه مكرَّمين لينذروا من وراءهم، فأرسلهم، فلما قدموا بابل قال له كهنته: قد نهيناك ولم تطعنا، وهي أمَّة لا يستطيعها أحدٌ مِن ربهم، وأقام سَنْحاريب سبع سنين ومات واستُخلف بُخْتَ نَصَّر، وكان ابن ابنه على ما كان عليه، فسار في المُلْك والناس سيرةَ جدِّه، فأقام خمس عشرة سنة.

وذكر هارون بن المأمون أنَّ سَنْحاريب كان يسكن نِينَوَى، فسار إلى بني إسرائيل ومعه ملك أَذْرَبِيجَان، واسمه: سَلما عاسر، ومعناه بالعربية: سلمان[1] الأعسر، فلما نزلا على القدس اختلفا ووقعت الحرب بينهما، حتى تفانوا وغَنِمَهم بنو إسرائيل.

وتوفي صديقةُ فمَرِجَ أمر بني إسرائيل، وتنافسوا في المُلْك، وقتل بعضهم بعضاً، ونبيُّهم شَعْيَا بينهم لا يقبلون منه، فقال الله تعالى: قم فيهم خطيباً لأوحيَ على لسانك، فقام فأنطقه الله، فقال مختصراً: يا سماء اسمعي ويا أرض أنصتي، فإن الله يريد أن يقضي شأن بني إسرائيل، ربَّاهم بنعمته واصطنعهم لنفسه، وخصَّهم بكرامته، وفضَّلهم على عباده، وكانوا كالغنم الضائعة التي لا راعي لها، فآوى شاردتها، وجمع ضالتها، وجبر كسيرها، وأسمن مهزولها، فبَطِرت وتناطحت كباشها، فقتل بعضهم بعضاً حتى لم يبقَ منهم عظمٌ صحيح، فويل لهذه الأمة الخاطئة. وإني ضاربٌ لهم مثلاً: قلْ لهم:

(١) في (ب): سليمان، والمثبت من (ط)، والمعارف ٤٦.

كيف ترون في أرض كانت خراباً زماناً، مواتاً لا عمران بعدها، وكان لها ربٌّ حكيم قوي، أقبل عليها بالعمارة وأحاط عليها جداراً، وشيَّد فيها قصراً، وأنبط فيها نهراً، وغرس فيها ألوان الثمار والأشجار، واستحفظها ذا رأي وهمة قوياً أميناً، فلما أطلعت جاء طلعُها خَرُّوباً، فقالوا: بئست الأرض هذه، نريد أن نهدم جدارها، ونخرب قصرها، وندفن نهرها حتى تعود مواتاً كما كانت، فقال الله تعالى: إنَّ الجدار ذمتي، والقصر شريعتي، والنهر كتابي، والقيِّم نبيِّي، وأنتم الغراس، والخروب أعمالكم الخبيثة، وإني قد قضيت عليكم قضاءكم على أنفسكم تتقرَّبون إليَّ بذبح البقر والغنم التي لا تنالني لحومُها، ولم تتقرَّبوا إليَّ بالتقوى والكفِّ عن ذبح النفوس المحرَّمة. تشيِّدون المساجد وتنجِّسون القلوب، وأي حاجة لي إلى تشييد البيوت ولستُ أسكنها، وأي حاجة إلى تزويق المساجد ولست أدخلها، إنما أمرت برفعها لأُذْكَرَ فيها، وتكون مَعْلماً لمن أراد الصلاة فيها، وذكر الثعلبي كلاماً طويلاً، وقال: فلما فرغ شَعْيَا من خطبته كذبوه وطلبوه ليقتلوه، فهرب منهم، فصادف شجرة فانفرجت له فدخل فيها فانضمت عليه، فأخذ بثوبه الشيطان وبقي هدبة منه، فعرفها بنو إسرائيل فوضعوا المنشار في وسط الشجرة حتى قطعوها وقطعوه في وسطها نصفين(١).

قال الثعلبي: فاستخلف الله على بني إسرائيل رجلاً منهم يقال له: ناشئة بن أموص، وبعث لهم الخَضِر نبياً، واسم الخضر: إرميا بن حلقيا، وكان من سبط هارون بن عمران، وإنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فاهتزت خضراء(٢).

قلتُ: وقد وهم الثعلبي، لما ذكرنا أنَّ الخَضِر لم يكن نبياً، وكان وزير ذي القَرْنَيْن وابن خالته، وهو صاحب موسى، وقد ذكرناه.

وقال في «المعرَّب»: إرمياء ـ بكسر الهمزة والمد ـ اسم النبيِّ عليه السلام، أعجمي معرَّب(٣).

---

(١) «عرائس المجالس» ص ٣٣٥.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٣٣٥، وتفسير الثعلبي ٦/ ٧٥، وأخرج أحمد (٨١١٣)، والبخاري (٣٤٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي خضراً أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تحته تهتز خضراء».

(٣) «المعرّب» ص ٦٩.

واختلفوا فيه:

فقال وهب: هو إرميا الأكبر.

وقال السُّدي: هو الأصغر.

واختلفوا في زمانه:

فقال وهب: كان في زمان بُخْتَ نَصَّر. وقال ابن إسحاق: في زمان الإسكندر الثاني. وقيل: في أيام كيقابوس وكيخسرو، والأول أصح.

وقال وهب: كان إرميا غلاماً من أبناء الملوك، وكان زاهداً، ولم يكن لأبيه سواه، وكان أبوه يعرض عليه النكاح وهو يأباه مخافة أن يشتغل عن العبادة، فألحَّ عليه أبوه وزوَّجه في أهل بيت من عظماء المملكة، فلما دخل بالمرأة قال: يا هذه إني أُسِرُّ إليك سراً فإن سترته عليَّ ستر الله عليك في الدنيا والآخرة، وإنْ أفشيته فَضَحَكِ الله في الدنيا والآخرة، قالت: وما هو؟ قال: إني لا أريدُ النساء، فأقامت معه سنة، فأنكر أبوه ذلك وسأله فقال: ما طال العهد بعد، وسأل المرأة فقالت كذلك، ففرَّق بينهما وزوَّجه أخرى، فاستكتمها أمره، وأقام سنة، فسأله أبوه فقال مثل ذلك، وسأل المرأة فقالت المرأة: وهل تلدُ المرأة من غير زوج؟! فغضب عليه أبوه فخاف منه فهرب[١].

وقتل بنو إسرائيل شَعْيَا وطغوا وتجبَّروا، فبعث الله إرميا نبيّاً وكان من أولاد الملوك تزهد، فلما بعثه الله نبياً، قال الله تعالى: إني منتقم من بني إسرائيل ومهلكهم. فحثا على رأسه الرماد وقال: إلهي وددتُ أن أمي لم تلدني حيث جعلتني آخر أنبياء بني إسرائيل، وجعلتَ خرابَ البيت المقدس على يديَّ. ثم قال: يا رب ومن تُسلِّط عليهم؟ فقال: عَبَدَة النيرانِ والأوثان، لا يخافون عقابي، ولا يرجون ثوابي، قم على صخرة بيت المقدس واسمع ما أقول.

وقد روى القصة جماعة منهم وهب والسُّدي والكَلبي ومقاتل وابن إسحاق وغيرهم، قال وهب: ولما بعث الله إرميا كان مع الملك ناشِيَة يسدِّده ويرشده، فأقام مدة، وفشت الأحداث[٢] فيهم، ونسوا ما فَعَلَ الله معهم في قصة سَنْحاريب، فأوحى

(١) انظر «المنتظم» ١/ ٤٠١-٤٠٢.

(٢) في (ط): الأحوال، والمثبت من المصادر.

الله إلى إرميا: قم فيهم وذكِّرهم بأيامي، وعرِّفهم أحداثهم، فقال: إلهي إني ضعيف فقوِّني، وعاجز فبلِّغني، ومخطىء فسدِّدني، وذليل إن لم تعزَّني، وضليل إن لم تبصِّرني، فقال له: قف على صخرة بيت المقدس(١).

ذكر الخطبة مختصرة(٢)

قال علماء السِّير ممن سميناه، دخل حديث بعضهم في حديث بعض: فوقف إرميا على الصخرة وأوحى الله إليه: يا إرميا من قبل أن أصوِّرك قدَّستك، ومن قبل أن أخرجكَ من بطن أمِّك صوَّرتك، لأمر عظيم بعثتك، قل لبني إسرائيل: إنَّ الله ذكركم بصلاح آبائكم، فلذلك استبقاكم. كيف وجد من أطاعني غبَّ طاعتي؟ وكيف وجد من عصاني غبّ معصيتي؟ هل عصاني أحدٌ فسعد بمعصيتي، وهل أطاعني أحدٌ فشقي بطاعتي، إن هؤلاء العصاة رتعوا في مراتع الهلكة، وتركوا الأمر الذي به أكرمت آباءهم، وابتغوا الكرامة من غيري. أما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادي خَوَلاً يحكمون فيهم بغير حكمي، ويقضون بينهم بغير كتابي، حتى دانوا لهم بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي، فهم يطيعونهم في معصيتي، وأما أمراؤهم فبطروا نعمتي، وأمنوا مكري، وغرَّتهم الدنيا حتى نبذوا كتابي، ونسوا عهدي. وأمَّا قرَّاؤهم فيدرسون كتابي ولا يعملون بما فيه، وينقادون للملوك يتابعوهم على البِدَع التي يَبْتدعون في ديني، وكلُّ ذلك وأنا أمطر عليهم السماء، وأُنبتُ لهم الأرض فألبسهم العافية، وأظهرهم على عدوِّهم، ولا يزدادون إلا طغياناً، فحتى متى وإلى متى؟ أإيَّاي يخادعون أم عليَّ يتجبَّرون؟ فوعزتي لأتيحن لهم فتنة يتحيَّر فيها الحليم، ويضلُّ فيها رأي كلِّ ذي رأي، ولأسلطنَّ عليهم جبَّاراً عاتياً قاسياً ألبسه الهيبة، وأنزع من صدره الرأفة والرحمة، يتبعه عدد النسور مثل سواد الليل المظلم، معهم عساكر مثل قطع السحاب، كأنَّ خفق راياته أجنحة النسور، وصهيل فرسانه كأصوات العقبان، يعيدون العمران خراباً، والأنس وحشة، يجولون في الدِّيار بأصوات زئير الأسود، تقشعر منهم الجلود، وعزتي

---

(١) انظر عرائس المجالس ٣٣٥، و«المنتظم» ١/ ٤٠٢.

(٢) انظر الخطبة في «تاريخ الطبري» ١/ ٥٤٨ـ٥٤٩، وتفسيره ٥/ ٤٤٧، و١٤/ ٤٩٠ (هجر)، وعرائس المجالس ٣٣٥، و«المنتظم» ١/ ٤٠٣، و«الكتاب المقدس» سفر إرميا الإصحاح الأول.

لأعطلن مدارسهم من كتبي، ولأُخْلِيَنَّ مجالسهم، ولأُوحِشَنَّ مساجدهم من عُمَّارها الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيري، ويتعبدون فيها لكسب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير العمل، ولأبدلن مُلوكهم بالعزِّ ذلاً، وبالأُنس خوفاً، وبالغنى فقراً، وبالشبع جوعاً، وبالعافية ألوان البلاء، وبلبس الحرير مدارع العباء، وبالأرايح الطيبة جيف القتلى، وبتيجان الذهب أطواق الحديد، وبالقصور الواسعة أنواع الخراب، ولأُبْدِلَنَّ نساءهم من الخدور بالسَّحب على الوجوه، ولآمرن السماء فتكون طبقاً من حديد، ولآمرن الأرض فتكون صفحة من نحاس، وذكر كلاماً كثيراً طويلاً.

فلما سمع إرميا هذا قال: سبحانك يا ربَّنا إنَّك مُهلك هذه القرية، وهي مساكن أنبيائك، ومَهبط وحيك، وإنك لمتلف هذه الأمة، وهم ولد خليلك، وأمّة موسى نجيِّك، وقوم داود صفيِّك، يا رب فأي القرى يأمن مكرك بعد أُوْرِيْ شَلِم، وأي العباد يأمنون سطوتك بعد أولاد أنبيائك؟

فأوحى الله إليه: يا إرميا، إنما أكرمت أولئك بحفظهم لطاعتي ولو عصوني لأنزلتهم منازل العاصين، ولو أن قومك حفظوا حرمتي وراعوا عبادي، الأرملة واليتيم والمسكين وابن السبيل، لكنت الراحم لهم، ولكنهم يتجاهرون بالمعاصي في الأسواق، وبيوت العبادات، ورؤوس الجبال، وتحت ظلال الأشجار، حتى عجَّتِ السماء إليَّ، واستغاثت الأرضُ والجبال والطير والوحش منهم.

فأبلَغَهم إرميا رسالة ربهم فكذَّبوه وعذَّبوه وقالوا: عظَّمت الفِرْيَةَ على الله، تزعم أنه مخربٌ مسجده، ومعطلٌ بيوتَ عبادته وقراءةَ كتابه، فمن يعبده بعد ذلك؟ ثم قيَّدوه وحبسوه، وهذا قول وهب.

وأما ابن إسحاق فقال: أوحى الله إلى إرميا إني مهلك بني إسرائيل بولد يافث وهم ببَابِل، فبكى ومزَّق ثيابه وحثا الرماد على رأسه، فأوحى الله إليه: أشقَّ ذلك عليك؟ فقال: يا إلهي، وكيف لا يشق عليَّ إهلاك قومي؟ فقال الله تعالى: وعزَّتي لا أُهْلِكهُم حتى يكون الأمر من قِبَلِك فطابت نفسه، وأخبرَ المَلِك ناشئة فاستبشر، وأقام بعد هذا ثلاث سنين، فازداد طغيانهم، فبعث الله إلى إرميا مَلَكاً في صورة آدمي فقال: يا نبيَّ الله جئت أستفتيك في أهلي، أحسنتُ إليهم ولم يزدهم إحساني إلا إساءَةً فَأفتني فيهم،

فقال: أحسِنْ إليهم، وجاءه ثانياً وثالثاً وهو يقول كذلك، فجاءه في الرابعة وقال: يا نبيَّ الله قد ازداد طغيانهم، فسألتك بالله إلا دعوتَ عليهم بالهلاك. فقال إرميا: إلهي إن كانوا على حقٍّ وصوابٍ فأَبقهم، وإن كانوا على عملٍ لا ترضاه فأهلكهم. فلما خرجت الكلمة من فيه أرسل الله صاعقةً على بيت المقدس من السماء، فأحرقت مكان القُربان، وخسفت بسبعة أبواب من المسجد. فلما رأى إرميا ذلك صاح وشقَّ ثيابه وقال: يا رب أين ميعادك؟ فنودي وهل أصابهم العذاب إلا بفتياك ودعائك عليهم؟! فعلم أن ذلك السائل كان ملكاً أرسله الله إلى إرميا. فخرج إرميا من ساعته فخالط الوحشَ، وقيل: غير ذلك.

ونزل بُخْتَ نَصَّر على القدس، وقال وهب: نزل بُخْتَ نَصَّر الشام، وكان قد أتى من بابِل، فنزل على دمشق، فصالحه أهلها فأقام، وبعث بعض قوَّاده إلى البيت المقدَّس فصالحه ناشئة المَلِك مِن ولد دَاود على مالٍ ورهائن، فقال له بنو إسرائيل: داهنت علينا فقتلوه، وبلغ بُخْتَ نَصَّر فسار إليهم وفتح بيت المقدس عنوة، وهدم المسجد وأخرب بيوت العبادات، وأحرق التوراة، ورمى على الصخرة الجيف حتى عفَّى آثارها، وأحرق البيوت، وحمل معه من الجواهر والأموال ثمانين عَجَلَة، وهدم الحصون، وأسر سبعين ألف غلام من أولاد الأنبياء، وسار إلى بَابِل.

واختلفوا في إرميا على أقوال:

أحدها: أنه صار مع الوحش، ذكره الثعلبي.

والثاني: أنه كان محبوساً، فأطلقه بُخْتَ نَصَّر وقال: بئس القوم قوم عَصَوْا رسولَ ربهم.

والثالث: أنه مضى إلى مصر.

والرابع: أنه مضى مع بُخْتَ نَصَّر إلى بابِل(١).

قال ابن إسحاق: أمر بُخْتَ نَصَّر جنوده بأن يملأ كلُّ واحد ترسه تراباً ثم يقذفه في القدس، ففعلوا، واختار من أولاد الأنبياء سبعين ألفاً، وقيل: مئة ألف، فقال له

(١) تفسير الثعلبي ٦/ ٧٥، وانظر «المنتظم» ١/ ٤٠٧.

الملوك الذين معه: اقسم بيننا هذه الغِلْمَةَ، فقسمهم بينهم، فأصاب كلُّ واحد منهم أربعة غلمة، وكان من أولئك الغِلْمَان دانيال الأصغر، وسبعة آلاف من ولد داود، وأحد عشر ألفاً من وَلد يُوسف بن يعقوب وأخيه بَنْيامِين، وثمانية آلاف من سبط يساخر ابن يَعْقُوب، وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون بن يعقوب ونفتالي بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي ابني يعقوب. ومن بقي من بني إسرائيل جعلهم بُخْتَ نَصَّر ثلاث فرق: فثلثاً قتلهم، وثلثاً أجلاهم، وثلثاً أقرهم بالشام(١).

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنهم في المرة الأولى أفسدوا وعصوا وسفكوا الدم، فبعث الله عليهم جَالوت وجنوده، فقتلوا وسبوا وأخذوا التابوت، على ما ذكرناه، قاله ابن عباس.

أنبأنا غير واحد عن عبد الوهاب بن المبارك الحافظ بإسناده عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: عقوبة أولى المرتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ هم جالوت وجنوده ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾[الإسراء: ٥] وضربوا عليهم الخراج والذلَّ، فسألوا أن يبعث لهم مَلِكاً يقاتلون معه في سبيل الله، فبعث الله طالوت ملكاً. فلما أفسدوا بعث الله عليهم في المرة الأخيرة بُخْتَ نَصَّر.

قال الجوهري: الجَوْسُ مصدر قولك: جاسوا، خلالَ الديار، أي: تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها(٢). وقال مقاتل: جاسوا بمعنى: داسوا وأخربوا.

والثاني: أنَّ الذي بعث في المرة الأولى بُخْتَ نَصَّر، قاله سعيد بن المسيَّب، واختاره الفرَّاء والزجَّاج، وفي الثانية جَالُوت.

والثالث: أنَّ الذي بعثَ في الأولى العَمَالقة وكانوا كفاراً، وفي الثانية بُخْتَ نَصَّر.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٣٧.
(٢) «الصحاح» (جَوَس).

والرابع: في المرة الأولى سَنحاريب، وفي الأخرى بُخْتَ نَصَّر، قاله سعيد بن جبير.

والخامس: في المرة الأولى قوم من أهل فارس، قاله مجاهد؛ والثانية قال ابن زيد: سلَّط الله عليهم سابور ذا الأكتاف من الفرس.

والسادس: أنَّ المرة الأولى قَتْل شعيا والثانية يحيى بن زكريا، قاله مقاتل.

والسابع: أنَّ في الأولى بُخْتَ نَصَّر، وفي الثانية أنطانوس الرومي.

وقال مقاتل في قوله: ﴿أُوْلِي بَأْسٍ﴾ أي: ذوي عدد وقوَّة في القتال ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي: طافوها ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء:٥] لابدَّ من كونه ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء:٦] في آخر المرتين، ثم قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٨] عند قتل شعيا أو يحيى سلَّط الله عليهم بُخْتَ نَصَّر ثم الروم فقتلوا وسبوا.

وقال ابن عباس: بعث الله في المرة الأخيرة بُخْتَ نَصَّر ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾[الإسراء:٧] والتَّبَار الهلاك، ثم قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾[الإسراء:٨] فرحمهم بعد انتقامه منهم، فأعاد عمارة بيت المقدس بعد مئة سنة، ثم بعث الله محمداً ﷺ فتركهم في عذاب الجزية.



فصل في بُخْتَ نَصَّر البابلي

قلت: ذكر أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» بإسناده إلى إسماعيل بن موسى - وكان أديباً قد قرأ الكتب - قال: بلغني أن بُخْتَ نَصَّر دخل الشام في ست مئة ألف، راكباً على أسَد أحمر، متعمِّماً بثُعْبان، متقلداً سيفاً طوله عشرة أشبار في عرض شبر، نَصْلُهُ أخضر مُرَصَّعٌ بالجواهر واليواقيت الحمر، منقوش عليه أبيات منها:

وأَنــت إنْ لــم تَــرْجُ أو تــتَّــقِ ... كـالـميـت مـحـمـولاً عـلـى نَـعْـشِـهِ
وكــم نَــجَــا مِــن يَــدِ أعــدائــه ... ومــيِّــتٍ مــات عــلــى فــرشــهِ
مَــن يـفـتـح الـقُـفْـلَ بـمـفـتـاحـه ... يــنــجُ مِــنَ الــتُّــهْــمَــة فــي فَــشِّــهِ
ونــابــشُ الــمــوتــى لــه ســاعــةٌ ... تــأخــذه أنــبــش مِــنْ نَــبْــشــه[1]

وحكى سعيد بن جبير قال: قرأ رجل في المصحف: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فبكى وقال: يا ربِّ، أرني هذا الرجل الذي جعلت هلاك بني إسرائيل وخراب القدس على يده، فرأى في المنام قائلاً يقول: إنَّ ذاك مسكين بأرض بَابِل يقال له: بُخْتَ نَصَّر، فأخذ مالاً للتجارة وسار إلى بَابِل، وطاف على المساكين، وسأل عن بُخْتَ نَصَّر فقالوا: هو مريضٌ على قارعة الطريق، فمضى إليه وأخذه إلى منزله وكساه وأعطاه نفقة ومرَّضه حتى برىء، وعزم الإسرائيلي على العَوْد إلى الشام، فبكى بُخْتَ نَصَّر، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: قد فعلتَ معي ما فعلتَ، وليس لي ما أجازيك به؟ فقال الرجل: بلى، شيء يسير إنْ ملكتَ فأعطني إيَّاه، فقال: أتسخر بي؟ فقال: لا والله، وجعل الرجل يسأله وبُخْتَ نَصَّر يمتنع، فبكى الرجل وقال: لقد علمتُ أنَّه ما يمنعك أن تعطيني ما سألتُ إلا أنَّ الله يريد أن ينفِّذ ما قد قضى به وكَتَبه على بني إسرائيل. ثم قفل الإسرائيلي راجعاً، وكان مَلِكُ بابِل يقال له: صيحون، فأرسل سرية إلى الشام مع رجل من أصحابه في مئة ألف، وخرج بُخْتَ نَصَّر معهم في مطبخه، ليس له همٌّ إلا أن يأكل من المطبخ، فلم يقدم الرجل على أهل الشام وعاد إلى بَابِل. فقال صيحون: أريد رجلاً أعرف من هذا، فقيل له: ها هنا رجل يقال له: بُخْتَ نَصَّر، قد

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٥/ ١٥٨-١٥٩.

عرف الشام وخبره، فأرسله في سرية في أربعة آلاف، ومرض الملك فقالوا: استخلف، فقال: حتى يقدم أصحابكم من الشام، فقدم بُخْتَ نَصَّر بالغنائم فقسمها بين الناس فقالوا: هذا أحق بالملك، فملَّكوه(١).

وقال السُّدي: رأى رجلٌ من بني إسرائيل في منامه أنَّ خراب بيت المقدس على يدي غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل يدعى بُخْتَ نَصَّر، وكانوا يصدقون فتصدق رؤياهم، فسار الرجل إلى بابِل فسأل عنه فقيل: هو غلامٌ يحتطب، وإذا به قد أقبل وعلى رأسه حزمة حَطَب، فألقاها وباعها وجاء بثمنها إلى أمه، فجاء الرجل فنزل على أمه وأعطاهم دراهم ونفقة وكسوةً. وعزم الرجل على العَوْد إلى الشام فقال لبُخْتَ نَصَّر: لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: تكتب لي كتاباً إنْ مَلَكتَ يوماً من الدَّهر، فقال: أتسخر بي؟ قال: لا والله، فما زالَ حتى كتب له كتابَ أمان. فقال: اجعل لي آيةً تعرفني بها إذا جئتُ إليك والناس حولك، قال: ارفع هذا الكتاب على قصبة، وقد عرفته، فيقال: إنه وفى له(٢).

واختلفوا في بُخْتَ نَصَّر، فقال ابن الجواليقي في «المعرَّب» عن الأصمعي قال: بُخْتَ نَصَّر هو الذي أخرب بيت المقدس، ولا يقال بالتخفيف. وقال غير الأصمعي: هو بخت ناصر، وقيل: بُوخَت نَصَّر فأعرب قال: وَبُوخَتُ ابنٌ ونَصَّرُ اسم صنم، فكأنه وُجد عند الصنم ولم يُعْرَف له أب يُنْسب إليه، فقيل: ابن الصنم(٣).

وقيل: كان ولد زنى لا يعرف له نسب، ويقال: بخت نصر بن جوذر البابلي.

وقيل: كان أبوه وجده من بقايا جيش نُمْرُود. وقيل: كان ابن ابن سَنحاريب، وقد ذكرناه.

وقال مجاهد: هو بخت نرسي بالفارسية، وكان كاتباً لسَنْحاريب. وقيل: كان والياً لهراسف أو لهراسب، ولّاه ما بين الأَهْوَاز والروم، فسار إلى دمشق فصالح الملك ناشِيَة على مالٍ.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٣٧، و«تاريخ الطبري» ١/ ٥٤٥.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٣٨.

(٣) «المعرب» ص ١٢٨ـ١٢٩.

قال وهب: ولما قدم بُخْتَ نَصَّر إلى بَابِل بالغنائم كان فيهم دانيال، وكان أكرم الناس على بُخْتَ نَصَّر، فحسدته المجوس ووشوا به إلى بُخْتَ نَصَّر وقالوا: إنه وأصحابه لا يأكلون ذبيحتك ولا يعبدون إلهك، فدعاهم فسألهم، فقالوا: نعم لنا إله نعبده، فخدَّ لهم أخاديد وألقاهم فيها، ونزَّل معهم سبعاً ضارياً شرهاً فلم يضرَّهم.

قال وهب: وكان بُخْتَ نَصَّر قد رأى رؤيا فعبَّرها له دانيال، رأى أنه صار صنماً رأسه من ذهب، وصدره من فضة، وبطنه من نحاس، وفخذاه من حديد، وساقاه من حجر فخار، ثم رأى حجراً وقع من السماء عليه فدقَّه، ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأى شجرة أصلها في الأرض وفرعها في السماء، وعليها طيورٌ عظيمة، وتحتها دواب كثيرة، ثم رأى عليها رجلاً بيده فأس، وسمع منادياً ينادي: اضرب أصلها لتتفرَّق الطير من فروعها، والدوابُّ من تحتها، واترك أصلها قائماً، فسأل دانيال عن تعبيرها فقال: أما الصنم فأنت ورأسك من ذهب لأنك أفضل الملوك، وأما الصدر فابنك يملك بعدك، وأما البطن الذي من نحاس فالملك الذي يملك بعده، وأما الفخذان من الحديد فيتفرق المُلْك فرقتين في فارس وتكونان أشد المُلْك، وأما الفخار فآخر ملوكهم، وأما الحجر الذي ربا حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبيٌّ يبعثه الله في آخر الزمان يفرّق مُلكهم ويملأ بشرعه ما بين الخافقين، فأما الشجرة فأنت، وقطعها ذهاب مُلْكك، ثم يردُّك الله طائراً نسراً، وهو مَلِكُ الطَّير، ثم يردُّك الله ثوراً مَلِك الدَّواب، ثم يردُّك الله أسداً مع السباع والوحوش، فيكون مسخك سبع سنين[١]، ومع هذا فيكون قلبك قلب إنسان حتى تعلم أن الله له مُلْك السماوات والأرض[٢].

قال وهب: فمسخ الله بُخْتَ نَصَّر نَسْراً في الطَّير، وثوراً في الدَّواب، وأسداً في السِّباع، سبع سنين، كما قال دانيال، ثم ردَّ الله عليه مُلْكه فآمن ودعا الناس إلى عبادة الله، فقيل لوهب: أكان مؤمناً؟ فقال: قد اختلف الناس فيه، فقالت طائفة من أهل الكتاب: كان مؤمناً، وقالت طائفة أخرى: لم يكن مؤمناً، أحرق بيت المقدس، وقتل

(١) في (ب): بعد سبع سنين.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٠.

أولاد الأنبياء، وفعل ما فعل، فغضب الله عليه فلم تُقْبَل توبته[١].

قال الفضيل بن عياض: لما سلط الله بُخْتَ نَصَّر على بني إسرائيل كان فيهم ثلاثون ألفاً عملهم مثل عمل الأنبياء فقتلهم.

قال ابن عباس: ما شبَّهتُ إيمانَ بُخْتَ نَصَّر إلا بإيمان سَحرة فِرعون.

ويقال: إنه كان إذا مُسِخَ في جنس الذكور اشتهى الإناث واغتلم، فحوَّله الله تعالى أنثى، فإذا اشتهى الذكور حوَّله الله ذكراً، فكان لا يصل إلى شهوته من الجماع ولا يُوصَل إليه.

وقال وهب: لما ردّه الله إلى صُورته دعا إلى توحيد الله وقال: كل إله سوى الله باطل. وكل هذه روايات وهب.

وقد روى كعب الأحبار قصة بُخْتَ نَصَّر على وجه آخر فقال: إنَّ بُخْتَ نَصَّر رأى رؤيا فهالته، فدعا كهنته وقال لهم: رأيت رؤيا، قالوا: وما هي؟ قال: أنسيتها فأخبروني بتأويلها، قالوا: لا نعلم، قال: قد أجلتكم ثلاثاً فإن أخبرتموني بها وإلا قتلتكم، وبلغ ذلك دانيال، وكان محبوساً مع بني إسرائيل، فقال للسجَّان: عرِّف المَلِك أنني أعرف تأويلها، فقال السجَّان: لعلَّ غمَّ الحبس حملك على هذا، وإني أخاف عليك سطوة المَلِك، فقال: لا تخف فإن لي رباً يخبرني بما أريد، فأخبر السجَّان بُخْتَ نَصَّر بما قال، فأحضره، وقال: ما رأيتُ؟ فقال: رأيتَ صنماً عظيماً رجلاه في الأرض، ورأسه في السماء، أعلاه من ذهب، وأوسطه من فضة، وأسفله من نحاس، وساقاه من حديد، ورجلاه من فخار؛ فبينما أنت تنظر إليه قد أعجبك حسنه إذ قذفه الله بحجرٍ من السماء، فوقع على قبَّة رأسه فطحنه، فاختلط الفضة والنحاس والحديد والفخار حتى خيِّل إليك لو أنه اجتمع الإنس والجنّ على أن يميزوا بعضَه من بعض لما قدروا، وربا الحجر الذي قُذِف به حتى ملأ الدنيا كلَّها، فقال بُخْتَ نَصَّر: صدقتَ، فما تأويلها؟ فقال: أما الصنم فأمم مختلفة في أول الزمان وآخره وأوسطه، وأما الذهب فهذا الزمان وهذه الأمة التي أنتَ مَلِكُها، وأما الفضَّة فابنك من

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤١.

بعدك، وأما النحاس فالروم، والحديد فارس، والفخار أمَّتان يملكهما امرأتان: إحداهما بمَشرق المغرب، والأخرى في غربي الشام، وأما الحجر الذي قُذِفَ به الصَّنم فدين يقذف الله به هذه الأمة في آخر الزمان، فيظهر عليها، ويبعث الله نبيّاً من العَرَب فيدوخ الأديانَ كلَّها كما فعل الحجر بالصنم. فقال له بُخْتَ نَصَّر: ما أعلم لأحدٍ عندي يداً مثل يَدِك، فاختر إحدى ثلاث: إما أنْ أردَّك إلى بلادك وأعمِّر لك كل شيء أخربته، وإما أن تقيم عندي فأواسيك، وإما أنْ أكتب لك كتابَ أمان تأمن به حيثما سَلَكْتَ. فقال دانيال: أما قولك إنك تردُّني إلى بلادي وتعمر لي كل شيء أخربته فإنها أرضٌ كَتَبَ الله عليها الخراب إلى أجل معلومٍ، فلستَ تقدر أنْ تعمر ما أخربه الله حتى يبلغ الكتابُ أجله، وينقضي البلاء الذي كتبه الله على أهلها. وأما قولك أن تكتب لي كتابَ أمان فلا ينبغي لي أنْ أطلب أمانَ مخلوقٍ مع أمان الله. وأما مواساتك فهي أرفق بي حتى يقضيَ الله فينا قضاءَه.

فجمع بُخْتَ نَصَّر ولده وكهنته وحشمه وقال: هذا رجل حكيم قد فَرَّجَ الله كَرْبي الذي عجزتم عنه به، وقد ولَّيْتُهُ أمركم، فارفقوا به، واعرفوا قَدْره، وخذوا برأيه، ومتى جاءكم رسولان: رسولٌ من عندي والآخر مِن دانِيال فقدِّموا رسوله على رسولي، وحاجته على حاجتي. ونزل منه دانيال أفضل المنازل، وجعل يدبِّر مُلْكَه، فحسده علماء أهل بابِل وقالوا لبُخْتَ نَصَّر: لقد ذلَّ مُلْكُك وخضع عند الناس منذ ولَّيْتَ هذا العبد الإسرائيلي علينا، فقال: أتنقمون أني ولَّيتُ عليكم أحكمَ النَّاسِ[1]؟!

ولما مات بُخْتَ نَصَّر حبسوه في جُبٍّ مع سبعين، فأخرجه الله، لما نذكر.

وقال السدي: لما رجع بُخْتَ نَصَّر إلى صورته بعد المسخ وردَّ الله عليه مُلْكه، كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عنده، فحسده المجوس ثانياً وقالوا: إنَّ دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه إلا أن يبول، وكان ذلك عاراً عندهم، فصنع بُخْتَ نَصَّر طعاماً، فأكلوا وشربوا، وقال بُخْتَ نَصَّر للبوَّاب: انظر أول خارج ليبولَ فاضربه بالطَّبَرْزِين[2]،

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٥٥٤_٥٥٥، والكتاب المقدس (سفر دانيال الإصحاح الثاني).

(٢) الطَّبَرْزين: فارسي معرّب، وهو فأس السرج، لأن فرسان العجم تحمله معها يقاتلون به، وقد تكلمت به العرب. انظر «المعرَّب» ص ٢٧٦.

وإنْ قال: أنا بُخْتَ نَصَّر، فقل: كذبت، فحبس الله عن دانِيال البول، وكان أول مَن قام ليبول بُخْتَ نَصَّر، وكان ليلاً، فخرج فلما رآه البوَّاب شدَّ عليه ليضربه فقال: أنا بُخْتَ نَصَّر، فقال: كذبت وضربه بالطَّبَرْزِين فقتله(١).

وذكر محمد بن إسحاق في هلاك بُخْتَ نَصَّر وجهاً آخر عن الحسن البصري قال: لما أراد الله هلاك بُخْتَ نَصَّر قال لمن في يده من بني إسرائيل: أرأيتم هذا البيت الذي أخربتُ؟ بيت من هو؟ والناس الذين قتلتُ، مَنْ هُم؟ قالوا: بيتُ الله ومسجده، وأولاد الأنبياء، عصوا فسلطك الله عليهم بذنوبهم، وإنَّ ربَّهم هو الله ربُّ السماوات والأرض، قال: فأخبروني ما الذي يطلع بي إلى السماء العليا، لعلِّي أقتل إلاهها وأتخذها مُلْكاً فإني قد فرغتُ من الأرض وكان قد مَلَكها فقالوا: لا يقدر على ذلك إلا الله، فقال: لَتفعلُنَّ أو لأقتلنَّكم جميعاً، فبكَوا وتضرعوا إلى الله فأرسل الله عليه بعوضة فدخلت في منخره حتى عضَّت دماغه، فلما أيقن بالهلاك قال لخواصه: إذا متُّ فشقوا رأسي وانظروا ما الذي قتلني، فلما مات شقوا رأسه، وإذا بالبعوضة عاضَّة على دماغه، فعلموا قدرة الله وسلطانه وضعف عباده وعجزهم، ونجّى الله من بقي من بني إسرائيل منه وردّهم إلى الشام(٢).

قلت: وقد روى حذيفة عن النبي ﷺ أنه ذكر بُخْتَ نَصَّر فقال: «مَلَّكهُ الله سبع مئة سنة، وأَنه حَاصَر بيت المقدس وفتحه، وقتل على دَم يَحْيَى بن زَكَرِيَّا سَبْعين أَلفاً»(٣). وذكر حديثاً طويلاً. وبنى جماعة من العلماء على هذا وقالوا: إنّ بُخْتَ نَصَّر كان في زمان يحيى، وأنه إنما غزا بني إسرائيل بسبب قَتْلهم ليحيى.

وكذا حكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» فإنه قال: كان أمر بُخْتَ نَصَّر قبل عيسى، وقيل بعدما رُفع، وكان من حديثه أن دانيال الأكبر قرأ في التوراة يوماً فأتى على هذه الآية: فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً فقال: يا ربِّ مَن هذا الذي جعلت

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٤/ ٤٥٨، وأورده ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٨) فقال: وروى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته، وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزِّي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب.

خراب البيت المقدس وهلاك بني إسرائيل على يديه؟ فقيل له في المنام: يتيمٌ بأرض بَابِل، يقال له: بُخْتَ نَصَّر، فقير، فتجهَّز دانيال بمال عظيم، وقَدِمَ بَابِل فقسمه بين المساكين، وسأل عن بُخْتَ نَصَّر حتى ظفر به على الطريق وقد فُرِشَ له الرماد لذَرَبٍ[١] كان به، فداواه حتى برىء، وأعطاه عشرين ألف درهم، وأخبرهم أن سَيمْلِك بلادهم ويغزوهم، وطلب منه كتابَ أمان له ولأهله، فكتب لهم. وعاد دانيال إلى الشام، وفرّق بُخْتَ نصر الدراهم في أصحابه، ولزم باب المَلِك سنحاريب، وعظمت الأحداث في بني إسرائيل، وقتلوا الأنبياء، وسجنوا إرميا، فأرسل الله عليهم بُخْتَ نصر، فسار إليهم في ست مئة ألف، فأخرج إرميا من السجن، وقتل على دم زكريا سبعين ألفاً، ولم يقتل شيخاً ولا كهلاً ولا وليداً، وإنما قتل أبناء الحرب وقادة الجيوش حتى استكمل العدة، وأخرج دانيال كتابَ أمان بُخْتَ نصر فأمضاه، وخرج بهم معه وكانوا خمسة أنفس شباباً لم يبلغوا الحلم غير دانيال بن حزقيل الأصغر[٢].

ويقال: إنَّ بُخْتَ نصر مزَّق كتاب الأمان وألقى دانيال في جُبٍّ بفلاةٍ بين جبلين إلى أن أخرجه بعضُ أنبياء بني إسرائيل، وكذا ذكر جماعة: أن الذي قتل سبعين ألفاً على دم يحيى بن زكريَّا هو بُخْتَ نصر.

قلت: وليس كما ذكروا، أما حديث حذيفة فلا يثبت عن رسول الله ﷺ، والتاريخ يكشف هذا، فإن عند أهل السِّير والعلماء بأخبار العالم من أهل الكتابين والمسلمين أنَّ بُخْتُ نَصَّر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شَعيا في عهد إرميا، وهي الوقعة الأولى التي أخبر الله عنها بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا﴾ الآية [الإسراء: ٥]، وأنهم بُخْتَ نَصَّر وجنوده، قالوا: ومن زمان إرميا وبُخْتَ نَصَّر إلى أنْ قُتِل يحيى بن زكريا أربع مئة سنة وإحدى وستون سنة. وقد أشار إلى هذا أبو إسحاق وقال: من خراب بُخْتَ نَصَّر لبيت المقدس إلى حين عمرانه في أيام كيرس بن أحشويرش من قبل بَهمن بن اسفنديار بن يشتاسف تسعون سنة، ومن ذلك إلى ظهور الإسكندر على القدس وحيازته إلى مملكته إحدى وستون سنة[٣].

---

(١) الذرب: فساد في المعدة.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٥/ ١٥٧ـ١٥٨.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٤.

قال وهب: الذي أخذ بثأر يحيى ملك بابل، يقال له: خردوش بعد بُخْتَ نَصَّر بأربع مئة ونيف وستين سنة، وسنذكره فيما بعد، ولم يقم لبني إسرائيل بعد خردوش راية.

وذكر الحافظ في «تاريخ دمشق» عن ابن المبارك قال: رئي لقمان الحكيم يعدو خلف بُخْتَ نَصَّر فراسخ، فقيل له: يا وليَّ الله، تعدو خلف هذا الكافر؟ قال: لعلِّي أسأله في مؤمن فيجيبني.

قلت: وأين لقمان الحكيم من بُخْتَ نَصَّر بينهما قبل خراب بيت المقدس أربعة آلاف سنة وتسع مئة وثماني عشرة سنة.

قال علماء السِّير: ولما عاد بنو إسرائيل إلى الشام كثروا وأثروا، فبطروا وعَتَوْا، وعادوا إلى شرِّ ما كانوا عليه، وكثرت فيهم الأحداث فسلَّط الله عليهم مَلِك الروم واسمه ططوس بن اسبانوس فأخرب بلادهم وسباهم وعفى آثارهم، حتى إن المرأة كانت لتبعث بخِرَق حيضها فتلقيها على الصخرة[١].

وملك بُخْتَ نَصَّر خمساً وأربعين سنة، منها تسع عشرة قبل خراب البيت المقدَّس، وستاً وعشرين بعده.

وحكى الهيثم بن عَدي: أنَّ بُخْتَ نَصَّر لما عاد إلى بَابِل بالسبايا بنى حبساً أعلى النَّجف، وجمع فيه بني إسرائيل، ووكل بهم من يحفظهم، وكانت العرب قد قصدته لتحاربه ورئيسهم معدُّ بن عدنان، فصالح العرب، ونقل بني إسرائيل إلى جانب الفرات موضع الأَنْبار اليوم فأنزلهم هناك، فبنوا المدينة، فقال الناس: أَنبار بني إسرائيل.

قال الجوهري: وأنبار اسم بلد، واصله من نَبَرْتُ الشيء أي رفعته، ومنه المِنْبَر[٢].

وقال ابن إسحاق: كانت الحِيرة منزل بُخْتَ نَصَّر، فلمَّا مات انتقل إلى الأَنْبَار.

ومات عدنان في آخر أيام بُخْتَ نَصَّر، فجاء ولده معدُّ من أرض بَابِل إلى مَكَّة، فطرد من كان بها من جُرْهُم، وتزوَّج معانة بنت جوسم فولدت له نزاراً، وولد لنزار مُضَر وإياد وربيعة وأَنمار. وتفرقت اليهود فنزل بعضهم الحجاز ويَثْرِب ووادي القرى وغيرها، والله أعلم بالصواب.

---

(١) انظر تفسير الثعلبي ٦/ ٨٣.

(٢) «الصحاح» (نبر).

فصل في عمارة بيت المقدس وقصة العزير[(١)]

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[البقرة: ٢٥٩].

واختلفوا في هذا المارِّ على أقوال:

أحدها: أنه إرْمِيَا، قال جدي في «فضائل القدس»: روى عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه وزاد غيره قال: أقام إرْمِيا بعد خراب البيت بأرض مصر مدة، فأوحى الله إليه: أن الْحَقْ بأرض إيلياء، فإن هذه ليست لك بأرض، فقام فركب حماره وأخذ معه سلةً من عنب وسقاءً جديداً فيه ماء وخرج[(٢)].

وفي رواية: فأوحى الله إليه: يا إرميا الْحَقْ بأرض الشام، فإن هذه الأرض ليست للأنبياء بمقام، وإني عامر بيت المقدس، فخرج على حمار ومعه سلة فيها عنب وتين وسقاء من عصير. فلما بدا له شخصُ بيت المقدس وما حوله من القرى نظر إلى خرابٍ لا يوصف، فقال: أَنَّى يُحيي هذه الله بعد موتها، ونزل عن حماره وربطه، وألقى الله عليه السُّباتَ ونزع روحه، فنام مئة عام، فلما انقضت سبعون منها أرسل الله مَلَكاً إلى مَلِكٍ من ملوك فارس عظيم. واختلفوا في اسمه فقال وهب: كوشك[(٣)]، وقال أبو جعفر الطبري: بشتاسِب[(٤)]، وقال مجاهد: كورش، فقال له المَلَك: إن اللهَ يأمُرُكَ أن تَنْفِرَ بقومك فتعمر بيت المقدس حتى يعود أعمرَ ما كان، فانتدب الملك ألف قَهرَمان[(٥)]، مع كلِّ قهْرَمان ثلاثة آلاف عامل، فشرع في عمارته، فتمَّ في ثلاثين سنة. وجمع كوشك من كان إليه في البلاد من بني إسرائيل، فكثروا وعادوا أحسن ما كانوا. ولما مضى من منام إرْمِيا سبعون سنة دبَّت الروح في عينيه، فجعل ينظر إليهم وهم يبنون

(١) من هنا بدأت نسخة كوبريللي، والتي رمزنا لها بـ(ك) وعليها الاعتماد، وانظر قصته في «عرائس المجالس» ص ٣٤٥، و«المنتظم» ١/ ٤١١، و«البداية والنهاية» ٢/ ٣٨٠، و«تفسير الطبري» ٥/ ٤٣٨، والنكت والعيون ١/ ٣٣١، وتفسير الثعلبي ٢/ ٢٤٢، وزاد المسير ١/ ٣٠٨، و«تفسير ابن كثير» ١/ ٤١٠.

(٢) «فضائل القدس» ص ١٠٧.

(٣) في (ك): نوشك، وفي «تفسير الطبري» ٤/ ٥٩٤، و«عرائس المجالس»: يوشك.

(٤) «تاريخ الطبري» ١/ ٥٤٠.

(٥) القَهْرَمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.

فلما انقضت المئة سنة أحياه الله، فقام ينظر إلى عظام حماره وهي بيض تبرق، فسمع صوتاً من السماء: أيتها العظام المتمزقة إنَّ الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمعت واكتست لحماً وجلداً، وقام الحمار ينهق، ونودي من السماء: يا إرْمِيا، كم لبثت؟ قال: يوماً أو بعضَ يوم، وكان قد مات وقت الضحى وعاش قبل مغيب الشمس، فالتفت فرأى بقية الشمس، فقال: أو بعض يوم، فكان يظن أنها قد غربت، فلهذا قال: يوماً، فلما رآها لم تغرب قال كذلك، فقيل: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِأْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[البقرة: ٢٥٩] أي: لم يتغيَّر، فلم يحمض العِنَب والتين ولم يتغيَّر العصير. وقال الجوهري: التسنُّهُ: التَّكَرُّجُ الذي يقع على الطعام والشراب والخبز[١] .﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾[البقرة: ٢٥٩] كيف تمزَّقت أوصاله فأعادها الله.

فإن قيل: فلم بلي الحمار ولم يتغيَّر الشراب والطعام، ولم يحمض العصير، قلنا: لو تغيَّر الطعام لتلاشى وانعدم ولم يبق له أثر، وأما الحمار فاستدلَّ بإحيائه على إحياء بيت المقدس وعوده إلى ما كان عليه.

فإن قيل: فهلا قال: وانظر إلى نفسك، ولم يقل: إلى حمارك، قلنا: معناه: انظر إلى حمارك الذي ربطته واقفاً على هيئته.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾[البقرة: ٢٥٩] أي: عبرة ودلالة على البعث. قال ابن عباس: مات وهو ابن أربعين سنة، وقال أبو جعفر الطبري: إنَّ إرْمِيا لبث في نومه إلى أن هلك بُخْتَ نَصَّر، وكان قد عاش ثلاث مئة سنة - يعني بُخْتَ نَصَّر - وبعث الله عليه بعوضةً فقتلته، وهلك المَلِك الذي كان قبله وهو لُهراسب، وقام ولده بشتاسب، فبلغه خراب البيت المقدس، فجمع بني إسرائيل وملَّك عليهم رجلاً من آل داود عليه السلام وأمره بعمارة بيت المقدس أحسن ما كان، فعمره، وردَّ الله روح إرميا إليه.

وقال وهب: عُمِّرَ إرميا، وهو الذي يُرى في الفلوات، ويقال إنه الخضر[٢].

والثاني: أنَّ الذي مرَّ على بيت المقدس العُزَير عليه السلام، وعليه الأكثرون، وهو

---

(١) «الصحاح» (سنه)، وتكرج: فسد.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٥٤٤، و«تفسير الطبري» ٤/ ٥٩٣.

قول عليٍّ عليه السلام وقتادة وعكرمة والضحَّاك والسُّدي في آخرين، وحكاه جدي في «فضائل القدس» عن ابن عباس[(١)].

وروى ناجية بن كعب عن عليٍّ عليه السلام قال: لما فعل بُخْتَ نَصَّر ببيت المقدس ما فعل، وقَدِمَ بالسبي إلى بَابِل، كان فيهم عُزَير، وكان من علماء بني إسرائيل، فلما عاد بقاياهم إلى الشام عاد عُزَير معهم فمرَّ على بيت المقدس وهو شابٌّ راكب على حمار، فأماته الله مئة عام.

وقال وهب وابن عباس: لما أحياه الله أتى منزله فأنكر المنازل، وهناك عجوز عمياء مقعدة قد أتت عليها مئة وعشرون سنة، وكانت تعرفه قبل ذلك، فقال لها عُزَير: هذا منزل عُزَير؟ فبكت وقالت: نعم ما سمعنا أحداً يذكر عُزَيراً منذ مئة سنة، وقد نسيته الناس، فقال: أنا عُزَير أماتني الله مئة عام ثم بعثني، فقالت: كان عُزَير مستجاب الدعوة فادعُ لي حتى يردَّ الله عليَّ بصري، فدعا لها ومسحَ على عينيها وجسدها فأبصرت وقامت تمشي، فكأنما نشطت من عقال، ونادت في بني إسرائيل: إن الله قد أحيا عُزَيراً، وهناك ابنٌ لعزير قد أتت عليه مئة وعشرون سنة، وبنوه شيوخ، فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه، فكشف ثوبه فلاحت، فتعانقا وبكيا[(٢)].

وذكر الثعلبي أنهم كذَّبوه، فقرأ لهم التوراة على ظهر قلبه، وكانت التوراة قد فُقِدت، فقال بعضهم: حدثني أبي عن جدي أنَّ التوراة دفنت يوم سُبينا في خابية في كرم فلان، فنبشوا الكرم وأخرجوها وعارضوها بما أملى عُزَير فما اختلفا في حرف واحد، فحينئذٍ قالوا: عُزَير ابن الله[(٣)].

والثالث: أنَّ الذي مرَّ على القرية لا إرْمِيا ولا عُزَير بل رجل كافر بالبعث، قاله مجاهد، والأول أصح.

واختلفوا في القرية: عامة العلماء أنها بيت المقدس، وقيل: قرية العنب غربي بيت

(١) «فضائل القدس» ص ١٠٥.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٧.
(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٩.

المقدس على فرسخين، قاله مقاتل.

وقال الرَّبيع: هي دَاوَرْدان التي خرج منها الألوف، وقيل: دير هِزقِل[١]، والأول أصح.

والخاوية: الساقطة بعضها على بعض، والعروش: السقوف، ومعنى ﴿أَنَّىٰ﴾ أي: كيف ومتى، وليس المراد به الشكُّ بل التعجُّب ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ استفهام عن مبلغ العدد، وعامة القراء على إظهار لبثت لأنه أظهر[٢].

فإن قيل: فقد كان عُزَير نبياً فلمَ لم يُذْكَر في القرآن باسمه، فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ الله ذكر قصص جماعة في القرآن من الأنبياء، ولمْ يذكر أساميهم كشَعيا ويوشَع وإرْمِيا ونبيِّ أصحاب الرسِّ وعُزَير في آخرين لحكمة رآها.

والثاني: لأنّ عزيراً قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ﴾ وفيه نوع شك وإن كان تعجُّباً.

والثالث: لأنه سأل ربه عن القَدَر فأوحى الله إليه: سألتني عن غامض علمي فعاقبتك بأن لا أذكر اسمك مع الأنبياء، قاله داود بن أبي هِند.

فإن قيل: وما الذي سأل ربه؟ قلنا: روى الضحاك عن ابن عباس قال: قال عُزَير: يا رب، لو شئتَ أن تطاع لأُطعتَ، ولو شئتَ أن لا تُعصى لما عُصِيتَ، وأنت تحبُّ أن تطاع، ومع ذلك فأنت تُعْصَى. فأوحى الله إليه: أنا لا أُسْأَلُ عما أفعل وهم يُسألون. فقال: يا إلهي، خلقت الشر وقدَّرته فلمَ تعاقبُ عليه؟ فأوحى الله إليه: أعرضْ عن هذا، فلم يَنْزجِر، فقال الله: يا عُزَير، أتريدُ أنْ تسألَني عن أصل علمي؟ لأمحوَنَّ اسمك من ديوان النبوَّة.

وقال ابن عباس: لم يَكن في أولاد الأنبياء مثل عُزَير، ولا أَحْكَم للتوراة منه، فعوقب لما سأَل عن القَدَر.

---

(١) في (ك) و(ب): هرقل، والمثبت من (ط) وهو الصواب، قال ياقوت: بكسر أوله وزاي معجمة ساكنة وقاف مكسورة، وأصله حزقيل، ثم نقله إلى هزقل.

(٢) وهو إظهار التاء وعدم إدغامها في الثاء، وبالإظهار قرأ ابن كثير ونافع وعاصم، وبالإدغام قرأ أبو عمر وابن عامر وحمزة والكسائي، فقالوا: «لبثُّ». انظر «الحجة للقراء السبعة» ٢/ ٣٦٧، و«تفسير القرطبي» ٣/ ٢٩١.

قلت: وذكر الحافظ في «تاريخ دمشق» وقال: جاء في الأثر أنَّ قبر عُزَير بدمشق.

قال: وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أَدْري أَكَان عُزَيرٌ نبياً أمْ لا».

قال: وقال أنس: جاء عُزَير إلى باب موسى بن عِمران بعدما محي اسمه من ديوان النبوَّة فحجب، فرجع وهو يقول مئة موتة أهونُ من ذلِّ ساعة[1].

قلت: إن كان جاء إلى باب موسى في النَّوم فيمكن، أما في اليقظة فبينهما أكثر من ألف سنة، فلله درُّ التاريخ.

وقال يحيى بن أبي كَثِير: دبَّر عُزَير أمرَ بني إسرائيل بعدما عاش أربعين سنة، فكمُل له ثمانون ومئة سنة، ثم مات.

وقال الهيثم بن عدي: وفي أيام عُزَير كان يَزْدَجِرْد بن بَهرام الملقب بالأثيم، وهو الذي بنى الخَوَرْنَق[2] والسَّدِير[3]، وقيل: إنما كان في أيام إرِمْيَا.

وقال ابن الكلبي: وفي أيام عُزَير كان يَزْدَجِرْد بن بَهرام، وزال مُلْك الفرس عن الشام وصار إلى الروم، وكان مَلَك مُلْك فارس بشتاسب وقيل: أشتاسب بن لهراسب، وكان لما قتل شعيا، قد آل أمر الشام والقدس إليه.

قال جدي في «فضائل القدس»؛ وكان بُخْت نَصَّر عامله على ذلك كله[4]. وفي أيام عُزَير ظهر زَرادِشت المجوسي لما نذكر.

وحكى جدِّي في «فضائل بيت المقدس» عن وهب، قال: كان عُزَير من السبايا التي سباها بُخْت نَصَّر من القدس، فرجع إلى الشام، وبكى على فقد التوراة فنبِّيء، وكان بُخْت نَصَّر قد أحرق التوراة فتلاها عُزَير من حفظه فافتتنوا به، وقالوا: هو ابن الله، ثم

---

(١) «تاريخ دمشق» ٤٠/ ٣١٧، ٣٣٧. قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٣٨٤ بعد إيراد هذه الأقوال: وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر.

(٢) الخَوَرْنَقُ: هو قصرٌ في الحيرة أمر ببنائه النعمان بن امرىء القيس وهو فارسي، ومعناه موضع الأكل والشرب. انظر «معجم البلدان» ٢/ ٤٠١، و«المعرب» ص ١٧٤.

(٣) السَّدير: قصرٌ، وهو معرَّب، وأصله بالفارسية سِهْ دله، أي فيه قباب مُدَاخَلةٌ. انظر «الصحاح» (سَدَر)، و«المعرَّب» ص ٢٣٥، و«معجم البلدان» ٣/ ٢٠١.

(٤) «فضائل القدس» ص ١٠١.

دفعها إلى تلميذ له اسمه ميخائيل، فبدَّلها وزاد فيها ونقص منها، والدليلُ عليه أن فيها أحاديث أسفار موسى وموته وما جرى له، وليس هذا من كلام الله تعالى.

وقال جدي في «فضائل بيت المقدس»، أنبأنا أبو المعمر المبارك بن أحمد الأنصاري بإسناده عن حُذيفة بن اليَمان عن النبي ﷺ قال: «غَزَا طاطري بن اسمانوس بني إسرائيل فَسَباهم وسَبَى حُليَّ بيتِ المقدس وأحرقَهُ بالنَّارِ، وحمَّل منه في البحر ألفاً وتسع مئة سفينة حُليّاً، وأورده رُوْمِيةَ». قال حذيفة: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَيُخرِجَنَّ المهدِيُّ ذلك حتى يؤدِّيه إلى بيت المقدس».

وقال جدي رحمه الله أيضاً: أنبأنا محمد بن ناصر بإسناده عن سعيد بن عبد العزيز قال: أخربت أهل رُومِيَة بيت المقدس واتخذته مَزْبَلة، حتى كانت المرأة لتبعث بخرقٍ من دمها حتى تلقى في المسجد، فلما قرأ قيصر كتاب رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام قرأه على بَطارقة الرُّوم ببيت المقدس ثم قال لهم: ويلكم ما ترون وقد أَخربتم هذا البيت - أو هذا المسجد - واتخذتموه مزبلة؟ توبوا مما صنعتم وإلا قتلتم عليه كما قتل[(١)] بنو إسرائيل على دم يَحْيَى بن زَكَريا، فأخذوا في كَنْسِه وهو يومئذٍ مَزْبلة، وقد حاذت مِحْراب داود، فما كنسوا إلا الثلث، حتى قدم المسلمون، وحضر عمر بن الخطاب ﷺ فَتْحَهُ، وولِيَ كَنْسَهُ بنفسه وبمن معه من المسلمين[(٢)].



(١) في (ك) و(ب): اقتتلت، والمثبت من (ط)، وانظر قصة يحيى الآتية ومقتله.

(٢) «فضائل القدس» ص ١٠٦، ١٠٧-١٠٨، ١٠٩. وأخرج حديث حذيفة الطبري في تفسيره ١٥/ ٤٥٧-٤٥٨ (دار هجر)، قال ابن كثير: وهو حديث موضوع لا محالة. وسلف قريباً.

فصل في ذكر دانيال الأصغر[1]

قد ذكرنا أنه كان محبوساً في جُبٍّ بأرض بابِل ومعه أسدان، وقيل: أَسد ولبؤة. وقال ابن الكلبي: كان محبوساً بفلاة من الأرض، وعلى رأس الجُبِّ صخرة، فأوحى الله إلى بعض أنبياء بني إسرائيل: انطلق فاستخرجْ دانيالَ من الجُبِّ فقال: يا ربِّ، ومن يدلُّني عليه؟ قال: أتانك، فركب أتانه وجاء إلى موضع الجُبِّ فوقفت فقال: يا صاحبَ الجُبِّ، فقال دانيال: قد أسمعت فما تريد؟ فقال: إن الله أمرني أنْ أُخرِجَكَ، فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى مَن ذكَره، والحمد لله الذي لا يَكِلُ من توكَّلَ عليه إلى غيره، والحمد لله الذي يجازي بالإحسان إحساناً وبالإساءة غفراناً. فرفع الصخرة واستخرجه، وقام الأسد واللبؤة يمشيان معه، فعزم عليهما دانيال فرجعا إلى الغَيْضَة.

وقال ابن الكلبي: فنقش دانيال على خاتمه أسداً ولبؤة، فكان كل وقت ينظر إليهما لئلا ينسى نعم الله عليه ويشكره على إحسانه إليه. ثم إن دانيال عاد إلى القدس فأقام مدة فعصوا وأفسدوا وعادوا إلى شرٍّ مما كانوا عليه، فسلط الله عليهم أنطياخوس الرومي، ففعل بهم كما فعل بُخْت نَصَّر، وهي آخر مرة في قوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾[الإسراء: ٤]. قاله وهب بن منبه. قال: وعاد دانيال إلى العراق فمات بالسُّوس، ولما فتحها أبو موسى الأشعري في سنة سبع عشرة من الهجرة في زمان عمر رضي الله عنه على يد أبي سَبْرَة بن أبي رُهْم، دخل أبو موسى إلى قبره فإذا ركبته تحاذي رأس أبي موسى وأنفه ذراع وكانوا يستسقون به فيسقون، وكتب أبو موسى إلى عمر يخبره به، فكتب إليه بمواراته ودفنه، ووجدوا في إصبعه خاتماً من فضة عليه صورة الأسد واللبؤة.

قال وهب: وهذا دانيال الأصغر، فأما الأكبر فكان بين نوح وإبراهيم وهو الذي حفر دجلة والفرات وقد ذكرناه.



(١) انظر عرائس المجالس ٣٤٠، والمنتظم ١/ ٤١٧، والبداية والنهاية ١/ ٣٧٥.

فَصلٌ في ذِكر يُونس عَليه السَّلام[1]

وقال مقاتل: ذكره الله في أربعة مواضع، وهو اسم أعجمي، وأبوه متَّى في قول مجاهد، ومتَّى من ولد بنيامين بن يعقوب، وقال مقاتل: متَّى اسم أمه، ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه غير يونس وعيسى بن مريم عليهما السلام، قال: وهو من ولد بنيامين بن يعقوب، وفيه ثلاث لغات: ضم النون وفتحها وكسرها والهمز في اللغات الثلاث، وضم النون أجود.

وذكر أبو حنيفة ابن النُّوبي: أن أم يونس كانت من ولد هارون عليه السلام، ومات أبوه وهي حامل، فوضعته ولم يكن لها لبن، فأتت إلى الرِّعاء فسألتهم اللبن فمنعوها إياه، فلما منعوها وضعته في غار، فقيَّض الله له شاة تأتيه كل يوم فيرضع منها، فأقام على ذلك أربع سنين، وفطن له الرعاة، فآمن به سبعون نبياً، ثم أكرمه الله بالنبوة.

واختلفوا في زمان كونه على قولين: أحدهما: بعد شعيا، والثاني: بعد سليمان. والأول أشهر.

وكان يونس رجلاً صالحاً من عبَّاد بني إسرائيل وأنبيائهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[الصافات: ١٣٩].

وقد أثنى عليه نبيُّنا ﷺ، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «لا يَنْبَغي لأحَدٍ أنْ يكونَ خيراً من يُونُسَ بن متَّى»[2]. ونسبه إلى أبيه متفق عليه، وفي المتفق عليه عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَنْبَغي لعبدٍ أنْ يقول: أنا خَيرٌ مِن يُونُسَ بن متَّى» ونسبه إلى أبيه[3].

---

(١) في (ب): الباب التاسع والعشرون في ذكر يونس عليه السلام، وانظر قصته في «تاريخ الطبري» ٢/ ١١، وتفسيره ١٥/ ٢٠٥، و«البدء والتأريخ» ٣/ ١١٠، و«عرائس المجالس» ص ٤١٠، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٥١ و٦/ ٣٠١، والماوردي ٢/ ١٨٤، و«المنتظم» ١/ ٣٩٥، و«التبصرة» ١/ ٣٢٦، وزاد المسير ٤/ ٦٥ و٧/ ٨٦، و«الكامل» ١/ ٣٠٦، و«البداية والنهاية» ٢/ ١٦.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤١٩٦)، و«البخاري» (٤٨٠٤).

(٣) أخرجه «البخاري» (٣٣٩٥)، و«مسلم» (٢٣٧٧).

وكذا في المتفق عليه عن أبي هريرة: «ومَن قال غيرَ ذلك فقد كَذَب»[١].

وأخرجه أحمد بن حنبل في «المسند» عن عبد الله بن جعفر، وفيه: «ما ينبغي لنبي» وذكره[٢].

وهذا دليل على تواضع رسول الله ﷺ لأن يونس كان قليل الصبر. وقيل: إن هذا الحديث منسوخ بقوله عليه السلام: «أنا سيِّدُ ولدِ آدَمَ»[٣].

ذكر قصته

قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ الآيات [الأنبياء: ٨٧].

اختلف أرباب السير في قصة يونس:

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أحمد بن المبارك بإسناده، عن قتادة، عن الحسن: أن يونس عليه السلام كان مع نبي من الأنبياء، فأوحى الله إليه أن ابعث يونس إلى [أهل] نِينَوى يُحذِّرهم عقوبتي، قال: فمضى يونس عليه السلام على كُرهٍ منه، وكان رجلاً صالحاً حديداً شديد الغضب، فأتاهم فحذرهم وأنذرهم، فكذَّبوه وردوا عليه نصيحته، ورموه بالحجارة، وأخرجوه، فانصرف عنهم، فقال له نبي من بني إسرائيل: ارجع إلى قومك. فرجع إليهم فرموه بالحجارة، فقال له النبي: ارجع إليهم فرجع، فكذَّبوه، فواعدهم العذاب، فكذَّبوه وكفروا بالله وجحدوا كتابه، فدعا عليهم عند ذلك فقال: يا ربِّ، إن قومي أبَوْا إلا الكفر، فأَنْزِلْ عليهم نِقمتك. فأوحى الله إليه: إني أُنزلُ بقومك العذاب. فخرج عليهم يونس وأوعدهم العذاب بعد ثلاثة أيام. فأخرج أهله وانطلق، فصعد الجبل ينظر إلى أهل نِينَوى ويترقب العذاب، فجاءهم العذاب، وعاينوه، فتابوا إلى الله، فكشف عنهم العذاب. فلما رأى ذلك جاءه إبليس فقال له: يا يونس، إنك إن رجعت إلى قومك اتهموك وكذبوك، فذهب مغاضباً لقومه، فانطلق، حتى أتى شاطىء دِجلة فركب سفينة، فلما توسَّطت

---

(١) أخرجه «البخاري» (٤٦٠٤)، و«مسلم» (٢٣٧٦).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٥٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٤٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الماءَ أوحى الله إليها أن اركدي فركدت؛ والسفنُ تمرُّ يميناً وشمالاً، فقالوا: ما بال سفينتكم؟ قالوا: لا ندري، قال يونس: أنا أدري، إنَّ فيها عبداً أبق من ربه، فلا تسير حتى تلقوه في الماء، قالوا: ومن هو؟ قال: أنا، وعرفوه، قالوا: أمَّا أنت فليس نلقيك؛ والله ما نرجو النجاةَ إلَّا بك. قال: فاقترعُوا، فمن وقعت عليه القرعة فألقوه في الماء، فاقترعوا، فقرعهم يونس عليه السلام، فأَبَوْا أن يلقوه، وأقرع القومَ ثانياً وثالثاً، فقرعهم يونس، فقال: يا قوم، اطرحوني في الماء وانجوا، فقام القوم فاحتملوه شبه المشفقين عليه، فقال: ايتوا بي صَدْرَ السفينة، ففعلوا، وإذا بالحوت فاتح فاه، فقال: ردُّوني إلى مؤخَّر السفينة، ففعلوا، واستقبله الحوت فاتحاً فاه، فلما رأى جوفه وهوله قال: يا قوم، ردُّوني إلى وسط السفينة، فردُّوه، فاستقبله الحوت، فقال: ردُّوني إلى الجانب الآخر، فاستقبله الحوت فاتحاً فاه ليأخذه، فقال: ألقوني وانجوا؛ فلا منجى من الله إلا إليه. فطرحوه، فالتقمه الحوت قبل أن يبلغ الماء، وانطلق به الحوت إلى مسكنه من البحر، ثم انطلق به إلى قرار الأرض، فطاف به أربعين يوماً، فسمع يونس تسبيح الحصى والحيتان، فجعل يسبِّح ويهلِّل ويقدِّس، وكان يقول في دعائه: إلهي وسيدي ومولاي، في السماء مسكنك، وفي الأرض قدرتك وعجائبك، سيدي، من الجبال أهبطتني، وفي البلاد سيَّرتني، وفي الظلمات الثلاث حبستني. إلهي، سجنتني بسجن لم يسكن به أحد قبلي. إلهي، عاقبتني بعقوبة لم يُعاقب بها أحد قبلي. فلما تم له أربعين يوماً وأصابه الغمُّ ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧].

قال: فسمعَتْ الملائكة بكاءه، وعرفوا صوته، فبكت الملائكة وبكت السماوات والأرض والحيتان لبكائه، فقال الجبَّار: يا ملائكتي، ما لي أراكم تبكون؟ قالوا: ربَّنا، صوتٌ حزين ضعيف نعرفه في مكان غريب، قال: ذاك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، فقالوا: يا ربَّنا، العبد الصالح الذي كان يصعدُ له في كلِّ يومٍ وليلة العمل الصالح الكثير؟ وقال ابن عباس: قال الله تعالى: نعم. قال: فشفعت له الملائكة والسماوات والأرض، فبعث الله جبريل عليه السلام، فقال: انطلق إلى الحوت الذي حبستُ يونسَ في بطنه، فقل له: إنَّ لي في عبدي حاجةً،

فانطلقْ به إلى الموضع الذي بلعته فيه، فاقْذِفْه فيه. فانطلق جبريل عليه السلام إلى الحوت فأخبره، فانطلق الحوت بيونس عليه السلام وهو يقول: يا ربِّ، استأنستُ في البحر بتسبيح عبدك يونس، واستأنَستْ به دوابُّ البحر، وكنتُ أزكى شيء به، وجعلتُ بطني له مصلىً يقدسك فيه، فقُدِّسْتُ به وما حولي من البحار، أفتخرجه عني بعد أُنسٍ كان لي به؟ فقال الله تعالى: إني أَقَلْتُ عثرته ورَحِمْتُه، فأَلقِه. قال: فجاء به إلى حيث ابتلعه ببلد على شاطىء دِجلة، فدنا جبريل من الحوت، وقرَّب فاه من فِي الحوت، وقال: السلام عليك يا يونس، ربُّ العزةِ يُقرئك السلام، فقال يونس: مرحباً بصوت كنتُ خشيتُ أن لا أسمعه أبداً. فقذفه الحوت مثل الفرخ الممعوط[1] الذي ليس عليه ريش، فاحتضنه جبريل. قال الحسن: فأنبت الله عليه شجرة من يقطين؛ وهي الدُّبَّاء فكان لها ظلٌّ واسع يستظل به، وأُمِرَتْ أن ترضعه أغصانَها، فكان يرضع منها كما يرضع الصبي.

وقال الحسن: بعث الله إليه وَعْلَةً من وُعُلِ الجبل يدرُّ ضرعها لبناً، فجاءت إليه وهو مثل الفرخ، فجعلت ثديها في فيه وهو يمصُّه مصَّ الصبيِّ، فإذا شبع انصرفت، فكانت تختلف إليه حتى اشتدَّ ونبت شعره خلقاً جديداً، ورجع إلى حاله قبل أن يقع في بطن الحوت، فمرَّتْ به مارَّةٌ فكَسَوهُ كساء. فبينما هو ذات يوم نائم إذ أوحى الله إلى الشمس أن احرقي شجرة يونس، فأحرقتها، فأصابت الشمس جلده فأحرقته، فقال: يا ربِّ، نجيتني من الظلمات، ورزقتني ظلَّ شجرة كنت أستظل بها، فأحرقتَها، أفتحرقني يا ربِّ؟ وبكى، فأتاه جبريل، فقال له: يا يونس، إن الله يقول لك: أنت زرعتها أم أنا؟ أنت أنبتَّها أم أنا؟ فقال: بل الله، قال: فبكاؤك لماذا؟ فكيف دعوت على مئة ألف أو يزيدون أردت هلاكهم؟ وقال ابن عباس: قال له جبريل: أتبكي على شجرة أنبتها الله تعالى لك، ولا تبكي على مئة ألف أو يزيدون أردتَ هلاكهم في غداة واحدة؟ فعند ذلك عرف يونس ذنبه، فاستغفر ربه، فغفر له.

وعن الزُّهري: لما قوي يونس كان يخرج من الشجرة يميناً وشمالاً، فأتى على رجل

---

(١) الممعوط: من قَلَّ شعره.

يصنع الجِرار، فقال له يونس: يا عبد الله، ما تصنع؟ قال: الجِرار، فأبيعها أطلب فيها فضلَ الله. فأوحى الله إلى يونس: قل له يكسر جراره، فقال له يونس ذلك، قال: فغضب، وقال: إنك رجل سوء تأمرني بالفساد؛ تأمرني أن أكسر شيئاً عملته وصنعته ورجوتُ خيره. فأوحى الله إليه: يا يونس، ألا ترى إلى هذا الجرَّار كيف غضب لمَّا أمرته بكسر ما صنع، وأنت تأمرني بهلاك قومك؟! فما الذي يشقُّ عليك أن يَصلح من قومك مئة ألف أو يزيدون؟ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣] يعني من المصلِّين من قبل أن تنزل البليَّة ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٤].

قال ابن عباس: من كان ذاكراً لله في الرخاء ذكره الله في الشدَّة واستجاب له، ومن يغفل عن الله في الرخاء وذكره في الشدة لم يستجب له.

قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأنبياء: ٨٧]، فقال الله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنبياء: ٨٨]، يقول الله تعالى: كذلك نفعل بالصالحين إذا وقعوا في الخطيئة ثم تابوا إليَّ قبلتُ توبتهم. روى ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «دعا أخي يونس بهذه الدعوات في الظلمات، فأنجاه الله بها؛ فلا يدعو بها مؤمن مكروبٌ إلا كشف الله ذلك عنه، إنَّ بها عدة من الله لا خلف لها».

هذه صورة ما ذكره الشيخ الموفق في «التوابين»(١).

وروى مجاهد عن ابن عباس، قال: كان يونس وقومه يسكنون أرض فلسطين، فغزاهم ملك، فسبى منهم تسعة أسباط ونصف سبط، فأوحى الله إلى شعيا بن أمصيا أن سرْ إلى حزقيا الملك، وقل له حتى يبعثَ نبياً قويّاً أميناً، فإني أُلقي في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال له الملك: من ترى؟ وكان قد بقي في مملكته خمسة أولاد من أولاد الأنبياء، فقال: يونس، فإنه قوي أمين. فدعاه الملك، فأمره بالخروج،

---

(١) «التوابين» (١٥).

فقال له يونس: هل أمرك الله أن تخرجني؟ قال: لا قال: فهل سَماني لك؟ قال: لا، قال: فإنَّ ها هنا أنبياء أقوياء أمناء، فألحوا عليه، فخرج مغاضباً للمَلِك حزقيا والنبي شَعْيا وقومه، فأتى بحر الروم فإذا سفينةٌ مشحونةٌ فركبها، فوقفت أو تكفَّأَتْ حتى كادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: ها هنا ها هنا عبد عاصٍ أو آبق، ومِنْ رَسْمِنَا أن نقترع في مثل هذا، فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر ومضينا، ولأن يغرقَ واحدٌ خير من أن تغرق السفينة ومن فيها. ثم اقترعوا ثلاثاً وفي كلِّ مرة تقعُ القرعةُ على يونس، فقال يونس: أنا ذلك الآبق العاصي. وألقى نفسه في البحر فالتقمه حوت، وجاء حوت آخر فالتهم الحوت الأول. فأوحى الله إلى الحوت: لا تؤذِ منه شعرةً، فإني جعلت بطنك له مسجداً وسجناً، ولم أجعله طعاماً لك(١).

وقد رواه العَوفي عن ابن عباس.

وقال مقاتل: التقمه الحوت بدِجلَة ثم نزل به إلى الأبُلَّة، ودخل به إلى البحر، فلم يُبقِ بحراً حتى طاف به.

وقال وهب: كان يونس رجلاً فيه حدة وضيق خلق، فلما حملت عليه أثقال النبوَّة تفسَّخ تحتها تفسُّخ الرُّبَع تحت الحِملِ الثقيل ـ يعني بالربع: الفصيل ـ فلهذا أخرجه الله من أُولي العزم من الرسل بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥].

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾[القلم: ٤٨] أي: لا تتلقَّ أمره كما تلقَّاه(٢).

وقال السُّدي ومقاتل: كان يونس قبل النبوة من عُبَّاد بني إسرائيل في جبل يفرُّ بدينه من شاهق إلى شاهق، فبعثه الله إلى أهل نِينَوَى من أرض الموصِل، وهو ابن أربعين سنة، وكانوا يعبدون الأصنام، فضاق بالرسالة ذرعاً ودعا إلى الله وشكا، فأوحى الله إليه: بلِّغهم الرسالة فإن لم يستجيبوا لك عذَّبتهم، وإن لم تبلِّغهم أصابك ما يصيبهم من العذاب، وقد أجلتهم أربعين يوماً، فقام فأنذَرهم وكان صوته بالقراءة مثل صوت داود

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١٢ـ٤١٣، و«تفسير البغوي» ٢/ ٣٦٩.

(٢) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢.

عليه السلام، وأخبرهم بالأجل فقالوا: إذا رأينا أسباب العذاب آمنَّا. فلما مضى من الأجل خمسة وثلاثون يوماً غامت السماء غيماً أسود فاسودَّت سطوحاتهم، فأيقنوا بالعذاب، فأوحى الله إليه: أخبرهم بأن العذاب مصبِّحَهم بعد ثلاث، فأخبرهم فقالوا: لم نجرِّب عليه كذباً قط، فانظروا فإن بات فيكم الليلة فليس بشيء، وإن لم يبتْ وإلا صبَّحكم العذاب كما قال. فلما كان في جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم، فلما أصبحوا تغشَّاهم العذاب كما يُغَشِّي الثَّوبُ(١)، وصار على رؤوسهم قدر ميل، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، وطلبوا نبيَّهم يونس فلم يجدوه، فقذف الله في قلوبهم التوبة، فخرجوا إلى الصعيد بأهاليهم وصبيانهم ومواشيهم، ولبسوا المُسوحَ وأظهروا الإيمان وأخلصوا النيَّة في التوبة، وفرَّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدَّواب، فَحَنَّ بعضها إلى بعض، وعَلت الأصوات واختلطوا وعجُّوا إلى الله تعالى وبكوا وتضرعوا، وقالوا: آمنا بما جاء به يونس.

وقال ابن مسعود: ترادُّوا المظالم فيما بينهم، حتى إن الرجل كان يأتي إلى أساس داره فيقلع الحجر الذي غصبه ويرده إلى صاحبه وصاحوا: يا حيُّ حين لا حيٌّ، يا محيي الموتى، لا إله إلا أنت، فكشف الله عنهم العذاب(٢).

قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ الآية [يونس:٩٨]، ومعناه: فهلا، وكذا هو في مصحف ابن مسعود وأُبيٍّ.

وقال الربيع: معناه: لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتَّعناهم إلى حين، وهو وقت انقضاء آجالهم.

وقال مجاهد: إنما نفعهم إيمانهم في وقت اليأس لأن آجالهم بقيت منهم بقية فنجوا بما بقي من آجالهم، فأما إيمان من قد انقضى أجله فغير نافع عند حضور الأجل. وهذا الكلام في غاية الجودة.

وقال ابن عباس: غشيهم العذاب كما يغشى التُّرب(٣) القبر إذا دخل صاحبه فيه.

---

(١) في (ط): التراب القبر، والمثبت من (ب، ك).

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١١ـ٤١٢، و«المنتظم» ١/ ٣٩٥ـ٣٩٦.

(٣) في (ك): الثوب، وليس في (ب)، والمثبت من (ط).

وقال: وكان العذاب على رؤوسهم قدر ثلثي ميل[١].

وثار عليهم دخان أسود، فعاينوا الموت، ثم كشفه الله عنهم. فإن قيل: فلم كشف الله العذاب عن قوم يونس دون غيرهم من الأمم ولم يقبل توبة فرعون؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: لأن الله علمَ منهم صدقَ النيَّات. ألا ترى إلى فرعون لما عاين الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[يونس: ٩٠] فلم يخلص النيَّة وقد باشره العذاب، وهؤلاء لم يباشرهم، ذكره الزجاج.

والثاني: لأنَّ الله تعالى خصَّ قوم يونس بذلك لما أقنطهم يونس من رحمة الله تعالى وكما قال: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾[يونس: ٩٨]، ذكره ابن الأنباري[٢].

والثالث: لأنَّ القوم افترقوا ثلاث فرق: الشيوخ، والشباب، والصبيان والنساء، فجاء العذاب فوقف على رؤوس الشيوخ فقالوا: اللهم إنك أمرتنا أن نعتق أرقاءنا، ونحن أرقاؤك فأعتقنا. فانتقل إلى رؤوس الشباب فقالوا: اللهم إنك أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا فاعفُ عنا. فانتقل إلى رؤوس الصبيان والنساء فقالوا: اللهم إنك قد علمتَ ضعفنا وعجزنا فأنت أولى من رحمنا. وتضرَّع الأطفال فرحمهم الله تعالى.

والرابع: أنه بقيت من آجالهم بقية كما قال مجاهد، وهو الأصحُّ، فإنَّ من انقضى أجله لم ينفعه إيمانه. والدليل عليه ما رواه أبو حنيفة ابن النُّوبي في كتاب «الأسولة» قال: قال بعض الأنبياء: إلهي، لم رفعت العذاب عن قوم يونس وأهلكت قومي؟ فقال الله تعالى: لأن آجال قومك فنيت، وقوم يونس لم تفن آجالهم.

وأنبأنا شيخنا الموفق رحمه الله بإسناده الماضي في أول الفصل إلى إسحاق بن بشر قال: حدثنا جُوَيبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما أيس يونس من إيمان قومه دعا ربَّه عليهم فقال: اللهم أنزل عليهم نقمتك. وخرج ومعه ابنان صغيران، فصعد

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١١.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٣٢٩، وزاد المسير ٤/ ٦٦.

جبلاً ينظر إلى أهل نِينَوَى ويترقب العذاب، وبعث الله تعالى جبريل فقال: انطلق إلى مالكٍ خازن النار فقل له يُخرج من سَموم جهنم بمقدار مثقال شعيرة. ففعل جبريل ما أمره ربه. قال ابن عباس: فخرجوا إلى موضع يقال له: تل الرماد وتل التوبة، وإنما سُمي به لأنهم وضعوا الرماد على رؤوسهم والشوك تحت أرجلهم. فلما رفعوا أصواتهم بالبكاء قالت الملائكة: يا رب، رحمتك وسعتْ كلَّ شيء، فهؤلاء الأكابر من ولد آدم تعذبهم، فما بال الأصاغر والبهائم؟ فقال الله تعالى جلت عظمته وقدرته قد رحمتهم، وأمر جبريل عليه السلام أن يكشف عنهم العذاب[١].

وروى الموفَّق أيضاً بإسناده إلى أبي الجَلْد: أنَّ العذاب لما هبط على قوم يونس فجعل يحوم على رؤوسهم مثل قطع الليل المظلم، مشى ذوو العقول منهم إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا ما ترى، فعلِّمنا دعواتٍ ندعو بها عسى أن يرفع الله عنا العذاب، قال: قولوا: يا حيُّ حين لا حي[٢]. وقد ذكرناه.

وروى الموفق عن الحسن: أنَّ يونس بعدما أنجاه الله من بطن الحوت مَرَّ في برية براعٍ من رعاة قومه، فقال له يونس: ممن أنت؟ فقال: من قوم يونس بن متى، قال: فما فعل يونس؟ قال: لا أدري إلا أنه كان من خيار الناس وأصدق الناس، أخبَرَنا عن العذاب فجاءنا كما قال، فتُبنا إلى الله فرحمنا، ونحن نطلبه فلا نجده ولا نسمع له ذكراً، قال يونس: فهل عندك من لبن؟ قال: لا، والذي أكرم يونس ما مطرت السماء ولا أعشبت الأرض منذ فارقنا يونس. قال: ألا أراكم تحلفون بإله يونس؟ قال: لا نحلف بغير إله يونس، من حلف بغير إله يونس في مدينتنا نُزِعَ لسانه من قفاه. فقال له يونس: متى استحدثتم هذا؟ قال: منذ كشف الله عنا العذاب. قال يونس: ايتني بنعجةٍ، فأتاه بنعجة مسلوبة[٣] فمسح على بطنها وقال: دُرِّي لي بإذن الله، فدرَّت فاحتلبها يونس، فشرب يونس وسقى الراعي، فقال الراعي: إن كان يونس حيّاً فأنت هو. قال: أنا هو، فأتِ قومك فأقرئهم مني السلام. قال: فإن الملك قال: من أتاني به أو ذكر أنه

(١) انظر «التوابين» ٣٢ـ٣٣.
(٢) انظر «التوابين» ٣٣.
(٣) في (ب): هزيلة.

رأى يونس وجاء على ذلك ببرهان خلعتُ له مُلكي وجعلته مكاني ولحقتُ بيونس. ولا أقدرُ أن أبلغه ذلك إلا بحجَّة، فإني أخاف أن يقول الملك: إنما قلت هذا طمعاً في ملكي، وليس أحد يكذب كذبة إلا قتلوه. فقال يونس: تشهد لك الشاة وهذه الصخرة التي كان مستنداً إليها. وقال يونس: تشهدا له. فانطلق إليهم الراعي فأخبرهم فكذبوه، فقال: الشاة تشهد لي والصخرة، فشهدتا له فصدقوه وقالوا: أنت خيرنا وسيدنا حيث رأيت يونس، وملَّكوه عليهم فدبّر أمرهم أربعين سنة وقيل: سبعين سنة، وكان آخر العهد بيونس عليه السلام[١].

وفي رواية: أن الغلام أتى الملك فأخبره فأمر بقتله فقال: إنَّ لي بيِّنة فأَرسلوا معي فأَرسَلوا معه فشهدت له الشاة والصخرة. قال ابن مسعود: فقال له الملك: أنت أحقُّ بهذا الملك مني. وقام وأخذه بيده وأقعده موضعه، فأقام لهم الغلام أمرهم سبعين سنة[٢].

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾[الأنبياء: ٨٧] والمغاضبة إنما تكون بين اثنين، لأنها مفاعلة كالمناظرة والمجادلة والمقاتلة، والله تعالى لا مفاعلة بينه وبين عباده؟ والجواب من وجوه:

أحدها: ما قاله الضحاك: أنه ذهب مغاضباً لقومه. وهي رواية العوفي عن ابن عباس[٣]. وهو ما ذكرنا أنَّ الله أمر شَعْيا أن يأمر حِزقيا أن يبعث نبياً ليخلص بني إسرائيل، وأنَّ يونس خرج على كرهٍ منه، وأنه ألقى نفسه في بحر الروم.

والثاني: أنه إنما ذهب مغاضباً لربِّه حين كُشِفَ عنهم العذاب بعدما أوعدهم به، لأنه كَرِه أن يكون بين قوم قد جرَّبوا عليه الخلف فيما وعدهم به، واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذي رفع الله به عنهم العذاب والهلاك، فخرج مغاضباً لربه وقال: والله لا أرجع إليهم كذَّاباً أبداً. وفي بعض الأخبار: أنهم كانوا يقتلون من جرَّبوا عليه الكذب، فلما لم يأتهم العذاب في الموعد الذي وعدهم خشي أن يقتلوه، قاله وهب[٤].

(١) انظر «التوابين» ٣٣.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١٤.
(٣) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥١، و«زاد المسير» ٥/ ٣٨١.
(٤) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥١.

والثالث: ذكره الحسن وقال: إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالمسير إلى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه، فسأل الله أن ينظره ليتأهب للشخوص إليهم، فقيل له: الأمرُ أسرعُ من ذلك، فلم يُنظر، حتى سأل أن يُنظرَ حتى يأخذ نعليه فيلبسهما، فقيل له نحو القول الأول، وكان رجلاً في خلقه ضيق، فقال: أعجلني ربي أن آخذ نعليَّ فخرج مغاضباً[١].

وأما قولهم: إن المفاعلة إنما تكون بين اثنين، فقد تكون من واحد، فإن العرب تقول: طارقت النعل، وعاقبت اللص، وشارفت الأمر.

ومعنى قوله: ﴿مُغَاضِبًا﴾ أي: غضبان.

وقال مقاتل: إنما غضب لأنه وعد قومه العذابَ في يوم بعينه، فلما فات الأجل[٢] ولم يعذبوا أَنِف أن يعود إليهم، فمضى إلى السفينة كالعبد الآبق.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ الآية [الأنبياء: ٨٧]؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ معناه: فظن أن لن نقضيَ عليه العقوبة. قاله مجاهد في آخرين[٣]. وقد قرأ عمر بن عبد العزيز: «فظنَّ أن لن نُقَدِّر عليه» بتشديد الدال[٤].

والثاني: أنَّ معناه: لن نضيِّقَ عليه الحبس من قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[الطلاق: ٧] أي: ضُيِّقَ، رواه العوفي عن ابن عباس.

وقيل: إنَّ معناه: فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه. قاله الحسن البصري: قلت: ما نقل الحسن البصري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ معناه: فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه، هذا كلام فاسد لا نظن مثله في آحاد المؤمنين، فكيف بيونس عليه السلام، ومثل هذا لا يقوله الحسن رحمه الله، والله أعلم.

(١) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢.
(٢) في(ك): بعينه فلم يأت الأجل، والمثبت من (ب) و(ط).
(٣) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢، و«زاد المسير» ٥/ ٣٨٢.
(٤) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢.

والمراد بالظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة [بطن] الحوت الذي بلعه، وظلمة بطن الحوت [الذي ابتلع الحوتَ الأول][1]، وظلمة الذَّنبِ.

ومعنى ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] حين أغضبتك.

وأنبأنا أبو القاسم بن مسلم الصفار الموصلي بإسناده عن أبي هريرة ﷺ عَن رسول الله ﷺ قال: «لمَّا نَزَلَ يُونسُ إلى قرارِ البحرِ سَمِعَ تَسبيحَ الملائكةِ والحِيتانِ فسبَّحَ هو في بطن الحوتِ، فسمعَتِ الملائكةُ تسبيحَه فقالت: يا ربَّنا، نسمعُ صوتاً ضعيفاً بأرضٍ غريبةٍ، فقال الله: ذاكَ عَبْدِي يُونسَ عصاني فحبستُه في بطنِ الحوتِ، قالوا: العبدُ الصالِحُ؟! قال: نَعَم، فشفعُوا له فشفَّعَهم الله فيهِ»[2].

فإن قيل: فلم عاقبه بحوت؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن عقوبة الله تعالى لا تشبه عقوبات خلقه فيُظهِر قدرته بما يعجز عنه البشر.

والثاني: لأن الله تعالى له سجون كثيرة وقد كان آيسَ قومَهُ من رحمة الله وقال: لا يغفر الله لكم أبداً.

والثالث: أنه لما ظنَّ أن لن نقدر عليه حبسناه في أضيق السجون.

وقال مقاتل: واسم الحوت زالوخا.

قال السُّدي: رأى في البحر ملكاً قائماً على كرسي من قرار البحر إلى رأس الماء فقال: يا رب، من هذا؟ قال: ملك البحر. وقد وكله الله به، وبين يديه رجل وهو يبصق في وجهه ويقول: ويحك، أما استحييت تقول: أنا ربكم الأعلى؟ فقال: من هذا؟ قال: فرعون. قال: ورأى رجلاً يُخسف به كل يوم فقال: من هذا؟ قال: قارون.

وذكر أبو حنيفة بن النُّوبي: أنه صار بطن الحوت كالقوارير حتى رأى عجائب البحر كلَّها، وسمع أنين قارون، وسمع قارون تسبيح الملائكة، فقال قارون للملك الموكل به: ما هذا التسبيح؟ قال: تسبيح يونس. فناداه: يا يونس، ما فعل ابن عمي موسى؟ قال: مات. قال: واويلاه. ثم قال: وأخوه هارون؟ قال: مات. فقال: واانقطاع ظهراه.

---

(١) ما بين حاصرتين من «تفسير الثعلبي» ٩/ ١٦٠، والبداية والنهاية ٢/ ٢١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٦٢٨ من حديث أنس ﷺ مرفوعاً، وانظر «عرائس المجالس» ص ٤١٣، و«تفسير ابن كثير» ٣/ ١٩٢.

فقال له يونس: ألا تتوب إلى الله تعالى؟ فقال: توبتي إلى موسى. فأوحى الله إلى يونس قد خفَّفت عذابه بحزنه على قرابته. وفي رواية فقال: وما فعلت أختهما كلثم؟ قال: ماتت. قال: وانَقْصَ قرابتاه. قال: ورأى هامان وغيره.

فإن قيل: فكم لبث في بطن الحوت؟ قلنا: فيه أقوال:

أحدها: أربعون يوماً، قاله أنس وغيره.

والثاني: سبعة أيام، قاله سعيد بن جبير.

والثالث: ثلاثة أيام، قاله مجاهد.

والرابع: عشرون يوماً، قاله الضحاك.

والخامس: بعض يوم، التقمه وقت الضحى وقذفه قبل الغروب، قاله الشعبي[(١)]. والأول أصحُّ.

﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ وهو المكان الذي لا يُتوارى فيه بشجر ولا غيره ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[الصافات: ١٤٥] أي: مريض.

﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾[الصافات: ١٤٧] واختلفوا في «أو» على أقوال:

أحدها: أنها بمعنى «بل»، قاله ابن عباس والفراء.

والثاني: أنها بمعنى الواو، أي: ويزيدون[(٢)].

والثالث: أنها بمعنى الشك في عددهم، لأنهم قد اختلفوا في الزيادة، فروى أُبي ابن كعب عن رسول الله ﷺ: «كانوا عشرين ألفاً»[(٣)]. وقال ابن عباس: ثلاثون ألفاً. وقال ابن جبير: سبعون ألفاً[(٤)].

فإن قيل: فما معنى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾[الصافات: ١٤٠] الآيات؟

---

(١) انظر «التبصرة» ١/ ٣٢٨.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٣٢٨، و«زاد المسير» ٧/ ٨٩.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٢٩).

(٤) انظر «التبصرة» ١/ ٣٢٨-٣٢٩.

فالجواب: أنَّ معنى: أبقَ، أي: هرب، والفلك: السفينة، والمشحون: المملوء، وساهم، أي: قارع، وهي إلقاء السهام على وجه القرعة، والمدحض: المغلوب، والتَقَمَه: ابتلعه، والمليم: المذنب الذي يُلام على ما أتى به، والمسبِّحين: المصلِّين العابدين.

وقال الحسن: لم يكن له صلاة في بطن الحوت، وإنما قدَّم عملاً صالحاً، ولولا ذلك العمل ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾[الصافات: ١٤٤] أي: صار بطن الحوت له قبراً[١].

قال ابن عباس: إنما كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت، قال: ودليله أنَّ الله ذكر قصَّة يونس في سورة الصافات ثم عقبها بقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾[٢].

قلت: والأصح أنَّ قصة الحوت كانت بعدما أرسله إلى قومه، لأن الله قد ذكره في سورة يونس وهي مقدمة على الصافات، وأيضاً فإن الواو للجمع وعليه عامة المفسرين.

وقوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[الأنبياء: ٨٨] إذا استغاثوا بنا ودعونا.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٖ﴾ [الصافات: ١٤٦]؟ قلنا: قد اختلفوا في اليقطين:

قال ابن مسعود: وهو القَرْع. وقال ابن عباس: هو كل نبت يمتدُّ وينبسط على وجه الأرض ولا يبقى على الشتاء، وليس له ساق، نحو: القَرْع، والقِثَّاء والبِطِّيخ، ونحوه.

وقيل: إنما خص اليَقطِين لأنه لا تقربُه الذباب.

وقال مقاتل: ثم عاد يونس إلى الشام، فتوفي بأرض فلسطين.

ويقال: إن قبره بقرية مشهورة يقال لها: حَلحُول من أعمال[٣] الخليل عليه السلام. ورأيت في بعض التاريخ أن قبره بالكوفة، وفيه بُعد، والله أعلم[٤].

---

(١) انظر «تفسير البغوي» ص ١١٠١، و«زاد المسير» ٧/ ٨٦-٨٧.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١١.

(٣) في (ك): أرض، والمثبت من (ب) و(ط).

(٤) اعتمد الدكتور إحسان عباس فيما بعد هذه الأخبار في نشرته للكتاب على نسخة (ب)، وهي مختصرة جداً، وقد اعتمدنا هنا على نسخة كوبريللي والخزائنية التي رمزنا لها بـ (خ).

فصلٌ في قِصَّة زكريَّا وَيَحيى عَلَيهمَا السَّلام[١]

ذكر أبو منصور الجواليقي في «المعرب» عن ابن دريد أنه قال: زكريا اسم أعجمي[٢].

واختلفوا في نسبه: فقال الثعلبي: هو زكريا بن أدن[٣] بن مسلم بن صدوق بن نحشان[٤] بن داود بن سليمان بن صديقة بن برخيا بن ناحور بن شلوم بن يهعاياط[٥] بن أُسا بن أبيا، أو أسا بن رُحُبْعم بن سليمان بن داود عليه السلام[٦].

وقيل: زكريا بن أدن بن يوحنا بن رحيا من ولد سليمان عليه السلام.

وفي الصحيح: أنه كان نجاراً. قال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون بإسناده عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «كان زكريا نجاراً». انفرد بإخراجه مسلم[٧].

وقال وهب: وكان زكريا قد تزوج أشياع بنت فاقود أخت حنَّة أم مريم. وقال السُّدِّي: أشيع هي بنت عمران أخت مريم. وهو وهم منه، والأول أصح، ذكره الثعلبي وغيره.

وقال مقاتل: وحنة هي التي قال الله في حقها: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[آل عمران: ٣٥].

---

(١) في (ب): الباب الثامن والعشرون في قصة زكريا .... ومن هنا تبدأ النسخة الخزائنية والتي رمزنا لها بـ «خ»، وانظر لهذه القصة «تاريخ الطبري» ١/ ٥٨٥ و«البدء والتأريخ» ٣/ ١١٦، و«عرائس المجالس» ص ٣٧٣، و«التبصرة» ١/ ٣٣٩، و«المنتظم» ٢/ ٥-٦-٧، و«الكامل» ١/ ٢٩٨، و«المختصر في أخبار البشر» ١/ ٣٤، و«البداية والنهاية» ٢/ ٣٩٣.

(٢) «المعرب» ص ٢١٩.

(٣) في (خ): أردن، وفي تفسير الثعلبي ٤/ ١٦٧: أذن، والمثبت من (ك) و(ب)، وانظر البداية والنهاية ٢/ ٣٩٤.

(٤) كذا في النسخ، وفي عرائس المجالس ٣٧٤: يحسان، وفي تاريخ دمشق ٦/ ٤٢٦: محيمان، وانظر البداية والنهاية ٢/ ٣٩٥.

(٥) في (خ): بهاياط، والمثبت من (ب) و(ك)، وفي الطبري ١/ ٥٨٦: يهشافاط، وفي عرائس المجالس ٣٧٤: ثهفاساط، وفي البداية ٢/ ٣٩٥، وتاريخ دمشق ٦/ ٤٢٦: بهفانيا.

(٦) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤.

(٧) أخرجه أحمد (٧٩٤٧)، ومسلم (٢٣٧٩).

وعمران: هو ابن ماثان، وليس بعمران أبي موسى. وقال ابن عباس: بينهما ألف وثمان مئة سنة، وكان بنو ماثان ملوك بني إسرائيل وأحبارهم[١].

ويقال: ماثان من ولد داود.

وقال مقاتل: ذكر الله عمران في ثمانية مواضع.

وقال ابن إسحاق: هو من ولد رُحُبْعُم بن سليمان عليه السلام.

وقال وهب: وكانت حنة قد نذرت حملها لله محرراً، أي: خالصاً، لخدمة بيت المقدس، وكان المحرر لا يفارق الكنيسة حتى يحتلم، ثم يُخيَّر، فإن أحبَّ المقام أقام، وإن أراد الخروج بعد التحرير لم يكن له ذلك، ولم يكن يُحرَّر إلا الغلمان دون الجواري، لما يصيبهن من الحيض والبلاء والأذى، فحرَّرت أم مريم ما في بطنها. هذا قول وهب[٢].

وقال الكلبي: كانت حنَّة قد أسنَّت ويئست من الولد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان، فبينا هي يوماً في ظلِّ شجرةٍ رأت طائراً يزقُّ فرخاً له، فتحركت نفسها للولد، وسألت الله ذلك، وقالت: هو لبيت المقدس. ولم تعلم بما في بطنها، فقال لها زوجها: ما تصنعين إن كان الحمل أنثى؟ يعني: أنها لا تصلح للتحرير. ومات عمران وهي حاملٌ بمريم، فلما وضعتها انكسر قلبها واعتذرت إلى الله تعالى بقولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ يعني النذيرة ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي في خدمة الكنيسة، فإن قيل: فقد علم الله أنها أنثى. قلنا: إنما قالت ذلك من باب الاعتذار، ولأن الأنثى لا تصلح للخدمة.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[آل عمران: ٣٦] وهي بلغتهم: الجارية[٣] العابدة[٤].

وقد شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية، فقال أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمير بإسناده عن عبد الله بن جعفر عن علي عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيرُ

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤، و«تفسير البغوي» ص ٢٠١.
(٣) في (ك) و(خ): الخادمة.
(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤_٣٧٥، و«تفسير البغوي» ص ٢٠١.

نِسائها مَريمُ بِنتُ عِمرانَ، وخَديجَةُ بنتُ خُويلدٍ»[(١)] متفق عليه.

وقال أحمد بإسناده عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن مَولُودٍ يُولَدُ إلا والشَّيطَانُ يَمسُّهُ حين يُولَدُ، فَيستَهِلُّ صَارخاً مِن مسِّ الشَّيطَان إيَّاهُ إلا مَريَمَ وابنَها» ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ متفق عليه[(٢)].

وفي المتفق عليه: «كُلُّ ابنِ آدمَ يَطعُنُ الشَّيطَانُ في جنبيهِ حِينَ يُولدُ غير عيسى بنِ مَريمَ، ذهب يَطعُنُ فيه فَطعَنَ في الحِجَابِ»[(٣)] أي: في المشيمة، والاستهلالُ: رفع الصوت.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[آل عمران:٣٧] أي: رضيها للتحرير وأنبتها نباتاً حسناً، فكانت تشبُّ في كل يوم كما يشب غيرها في شهر، وفي شهر كما يشب غيرها في سنة.

وقال وهب: ولما وضعتها لفَّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد، فوضعتها بين يدي الأحبار أبناء هارون، وهُم يومئذٍ يَلُونَ أمر بيت المقدس كحَجَبة بني شيبة للكعبة. وقالت: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها، لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها، عندي خالتها. فقالوا: لا نفعل، ولكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه. فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين إلى نهر الأردن قريباً من أريحا، فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة والزبور في الماء، وقال الزجاج: هي قداح عليها علامات يعرفون بها القرعة، وإن قيل لها أقلام لأنها تُقلم وتُبرى[(٤)]. فأرن قلم زكريا، أي: صار له رنين، ووقف، فجرت أقلامهم مع الجرية وعال قلم زكريا الجرية، أي: ارتفع عليها. فقرعهم زكريا وكفلها، والكفالة: الضم، واسترضع لها زكريا، وقيل: إنما ضمها إلى خالتها أم يحيى. فلما بلغت مبالغ النساء بنى لها

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٤٠)، والبخاري (٣٤٣٢)، ومسلم (٢٤٣٠).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٧٠٨)، والبخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٨٦)، ومسلم (٢٣٦٦) عن أبي هريرة.

(٤) انظر «معاني القرآن» ١/ ٤١٠-٤١١.

محراباً في المسجد، وجعل بابه في مكان لا يرقى إليها إلا بسلم مثل باب الكعبة. وما كان يصعد إليها سواه، ومعه المفتاح، وكانت إذا حاضت أخرجها من المسجد إلى منزله، تكون مع خالتها، فإذا طهرت ردَّها إلى المسجد.

وقال ابن إسحاق: وإنما أدخلها المسجد من أجل نذر أمها. قال: وإنما اقترعوا عليها بعدما بلغت[1].

وأصاب الناس سنة، فعجز زكريا عنها، فشكا إلى بني إسرائيل، فجعلوا يتدافعونها بالقرعة، فخرج السهم على يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن عمها، وكان فقيراً، يأتيها باليسير، فرأت في وجهه شدة المؤونة عليه، فقالت: يا يوسف، أحسن الظنَّ بالله، فإنه سيرزقنا. فكان الله يثمِّرُ ما يأتي به. وهذه رواية ابن إسحاق. وعامة العلماء على أنَّ زكريا كفلها، ولم تزل عنده يأتيها بطعامها وشرابها، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب على باب المحراب، وهو الغرفة، فإذا عاد وجد عندها رزقاً. قال ابن عباس: فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء من ثمار الجنة، فيقول: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ فتقول: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾[آل عمران:٣٧]. وقال ابن عباس: تكلمت وهي صغيرة[2].

فإن قيل: فمريم بنت عمران يأتيها رزقها رغداً، وفاطمة بنت محمد ﷺ تطحن حتى يؤثر الطحن في ذراعها؟ فالجواب: أن مريم كانت مفتقرة إلى وجود آية تستدل بها على براءتها من وجود ولد من غير أب كما في الفاكهة في غير أوانها، أما فاطمة فمنزهة عن مثل هذا، فلا تحتاج إلى آية تدل على براءة ساحتها.

قال ابن إسحاق: ولما رأى زكريا هذا تحركت نفسه إلى طلب ولد، وكان قد كبِرَ وأسنَّ وانقرض أهله، فقال: الذي هو قادر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير أوانها من غير سبب، قادر على أن يرزقني الولد بأن يصلح لي زوجتي كذلك. فذلك قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ﴾ الآية [آل عمران:٣٨] ﴿قَالَ رَبِّ﴾ معناه: يا ربي، ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾[مريم:٤] أي: انتشر فيه الشيب كما ينتشر شعاع

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٥ـ٣٧٦، و«تفسير البغوي» ص ٢٠١ـ٢٠٢.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٦، و«تفسير البغوي» ص ٢٠٢ـ٢٠٣، و«زاد المسير» ١/ ٣٧٩ـ٣٨٠.

النار في الحطب.

قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ وهم: بنو العم والعصبة، خاف أن يتولوا صحائف علومه ونبوته.

وقيل: إنما سأل الولد، ليساعده على عبادة ربه، فإنه كان فرداً فطلب الولد.

وذكر السُّدِّي: أنه خاف أن يتولوا ماله على وجه الميراث. وهو وهم منه، فإن الأنبياء لا يخلفون ديناراً ولا درهماً بالحديث[١]، فسأل الولد لئلا ينقطع ذكره، ولا يموت العلم.

وإنما قال: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾[مريم: ٥] ولم يقل: عاقرة، لأنه أجرى الكلام مجرى حائض وطالق، والعاقر من النساء والرجال مَن لا يولد له. قال ابن عباس: وكان ابن عشرين ومئة سنة، وامرأته بنت ثماني وتسعين سنة[٢].

فإن قيل: وأين زكريا من يعقوب بينهما دهر طويل؟ قلنا: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن جميع بني إسرائيل من نساء يعقوب.

والثاني: أن المراد به: يعقوب بن ماثان، وهو أخو زكريا، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال لما قرأ هذه الآية: «يرحم الله زكريا، وما كان عليه من ورثة»[٣].

قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾[مريم: ٧] فإن قيل: ففي مريم هذه الآية، وفي آل عمران [الآية: ٣٩]: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ فقد حصل المقصود بالبشارة الأولى، فما الفائدة في الثانية؟ قلنا: هو تأكيد للبشارة، وليعلم أن الله قد أجاب سؤاله فيفرح.

وقال ابن عباس: دخل عليه المذبح شاب من أحسن الشباب، فخاف منه فقال له: لا تخف أنا جبريل وبشره.

---

(١) وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «إن العلماء هم ورثة الأنبياء، لم يورثوا ديناراً ولا درهماً» أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٧١٥).

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٣٤٠.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٦٤/ ١٧٢ عن قتادة مرسلاً.

و«يحيى» لا ينصرف للمعرفة. وقال ابن عباس: أحيا الله به عَقْر أبويه بين شيخ وعجوز. وقال الزجاج: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان والتقوى والنبوة والحكمة. وقال مقاتل: بالعصمة، فلم يهمَّ بالمعصية. قال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن أحدٍ يَلقَى الله يَومَ القِيامَةِ إلا وقَد همَّ بمعصيَةٍ أو عَمِلَها إلا يَحيى بنَ زكَرِيَّا، فَإنَّه لم يهمَّ ولم يَعملها»[1].

وقال عمر بن عبد الله المقدسي: كان اسم سارة يسارة، فأوحى الله إلى الخليل عليه السلام إني مخرج منكما عبداً لا يموت بمعصيتي اسمه حيٌّ، فتهب له سارة من اسمها حرفاً، فوهبت له الياء من أول اسمها، فصار يحيى وصارت يسارة سارة[2].

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ إن الله لم يُسمِّ أحداً قبله بهذا الاسم تشريفاً له، ولم يكل تسميته إلى أبيه وأمه. وقيل: لم يجعل له مثلاً وشبهاً.

وقال مقاتل في قوله: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ٣٩] قال: هي عيسى، قال له: كن فكان[3].

واختلفوا في معنى: «الحصور»:

فقال قوم: هو الذي لا يأتي النساء، لأنه ما كان له آلة.

قلت: وهذا ذم لا مدح، لأن الفضيلة أن لا يأتي النساء مع القدرة إلا أن يكون عِنِّيناً، وقد حكى الماوردي: أن الحصور: هو الذي يمنع نفسه عن شهواتها مع القدرة[4]. وهذا وجه حسن بخلاف الأول.

وقيل: هو الحليم.

وأصل «السيد» من ساد يسود إذا رأس وعلا، وهو اسم جامع للخصال المحمودة،

---

(١) (٢) أحمد في «مسنده» (٢٢٩٤).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٧.

(٤) انظر «زاد المسير» ١/ ٣٨٣.

(٥) انظر «زاد المسير» ١/ ٣٨٤.

وقد ذكرنا في «التفسير» تمام الآيات.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه سأل آية أي: علامة على وجود الولد، فقيل له ذلك. والرمز بالشفتين والحاجبين والعينين، واعتقل لسانه.

والثاني: ذلك عقوبة له بعد ما شافهته الملائكة بالبشارة.

وقال قوم: لم يعتقل لسانه، وليس بشيء، لأن الله يقول: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾[مريم: ١١]. قال ابن عباس: كتب إليهم في كتاب. وقال مجاهد: أومأ برأسه. وقال مجاهد أيضاً: ولد يحيى قبل عيسى بستة أشهر، وكان ابن خالته. ويحيى أول من آمن بعيسى عليه السلام.

وقال ابن وهب: كانت أم يحيى حاملاً به فاستقبلتها مريم وهي حامل بعيسى فقالت لها أم يحيى: أنت أم عيسى، أنت حامل، قالت: ولِم؟ قالت: لأني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك[١].

قلت: لا ينبغي السجود إلا لله تعالى.

وقال السُّدي: ولد يحيى عليه السلام في أيام أردشير بن بابك. وقيل: في أيام سابور بن أردشير، والله أعلم.

ذكر مقتل زكريا عليه السلام

ذكر وهب وغيره: أن مريم لما حملت بعيسى عليهما السلام اتهمت اليهودُ زكريا بها، فلما استبان حملها، طاف إبليس مجالس بني إسرائيل فقذف زكريا بمريم، وقال: ما كان يدخل عليها إلا هو، وهو الذي أحبلها، فطلبوه، فهرب، فأتى وادياً كثير الأشجار، فأتاه إبليس في صورة راعٍ فقال له: قد جاءك القوم، فادع ربَّك أن يفتح لك شجرة، فادخل فيها. ففعل. وجاء القوم، وقد بقي هدب ثوبه، وقيل: بل أخذ به إبليس. فقال لهم إبليس: ها هنا دخل، فركَّبوا عليه المنشار، وشقُّوه نصفين كما فعلوا بشعيا،

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٨.

فأوحى الله إليه: لئن قلت آه محوتك من ديوان النبوَّة، هلا التجأت إلينا وقد وكلناك إليها، فقطعوه وهو ساكت. وأمر الله الملائكة فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه بفَلَسْطِيَّة، وهي التي تسمَّى اليوم سَبْسَطية بأرض نابلس.

وذكر ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: أن زكريا مات على فراشه ولم ينشر، والذي نشر إنما هو شعيا وقد ذكرناه. والأول أصحُّ.

وعامَّة المؤرخين على أن زكريا نشر قبل مقتل يحيى، إلا هارون بن المأمون فإنه قال: قُتِلَ يحيى وزكريا في الحياة، فهرب إلى بستان، فنادته شجرة: يا نبي الله، إلى هاهنا، وانفرجت له، فتبعوه فشقوه. والأول أصح، وقد نص عليه السدِّي والكلبي وابن إسحاق وقالوا: قتل زكريا وليحيى سبع سنين، وما نُبِىء إلا بعد قتل أبيه[(١)].

فصل يتعلق بيحيى عليه السلام

ذكر هارون بن المأمون في تاريخه: أنَّ يحيى عليه السلام لما ولد رفع إلى السماء، فكان على باب الجنة حتى فُطِمَ، ثم أنزل إلى أبيه، فكان البيت يضيء بنوره، وكان حسن الصورة، قصيراً، قليل الشعر، مقرون الحاجبين.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] وفي سنه يومئذٍ قولان:

أحدهما: ثلاث سنين، قاله قتادة. والثاني: سبع سنين، قاله ابن عباس[(٢)].

فإن قيل: فما بعث الله نبياً إلا بعد الأربعين، فكيف نُبِّىء يحيى وهو صغير؟

فالجواب: أنَّ الله يختص برحمته من يشاء، وكان ذلك من خصائصه، وهذا هو الجواب عن عيسى عليه السلام.

وقوله: ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ واجتهاد ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الفهم.

وقال ابن عباس: كان الصبيان يقولون له: هلم لنلعب، فيقول: ما خلقنا للَّعِب، وإنما خلقنا للْعَبِّ، يعني: النقل[(٣)].

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨٣، و«البداية والنهاية» ٢/ ٥٢.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٣٤١.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٩.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾[مريم: ١٣] أي: ورحمة، وقال ابن عباس: ما أدري ما الحنان، إلا أن يرحم الله عباده ويتعطف عليهم.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾[مريم: ١٥] أي: سلام له.

وروى قتادة عن الحسن قال: التقى عيسى ويحيى، فقال له عيسى: استغفر لي فأنت خير مني. فقال له يحيى: وأنت كذلك. فقال عيسى: أنت سَلَّمَ الله عليك، وأنا سلمت على نفسي[١]. يشير إلى قوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾[مريم: ٣٣]، وقيل ليحيى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾.

وقيل: كان بينهما ثلاث سنين، يحيى قبله. وهو وهم، بل كان في زمانه.

وقال ابن عباس: كان طعام يحيى قلوب الشجر والعشب، ويخالط الوحش، ويلبس الشعر والوبر، ولا يأنس ببني آدم، ولم يكن له بيت، ولا عبد، ولا أمة، وما ضحك قط إلا متبسماً.

وذكر أبو نعيم في «الحلية» عن وهيب بن الورد قال: كان يحيى في وجهه خطان أسودان من البكاء، فكان أبوه إذا رآه يبكي يقول: يا إلهي، إنما سألت الولد لتقرَّ به عيني، وما أراني إلا وقعت في العناء. فيقول له يحيى: يا أبة، أنت أخبرتني عن جبريل أنه قال: إن بين الجنة والنار عقبة لا يقطعها إلا بكاء العين[٢]. وفي رواية: فيبكي زكريا معه.

وقال وهب بن منبه: بكى يحيى حتى بدت أضراس فيه فقالت أمه: يا بني، لو صنعتُ لك لِبْداً. فقال: اصنعي ما بدا لك. فصنعت له لِبْداً، فكان إذا قام إلى الصلاة يبكي حتى يبل اللِّبْد، فتقف أمه فتعصر اللِّبْد، فإذا رأى دموعه على ذراعيها رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم، هذه دموعي وهذه أمي وإنا عبيدك وأنت أرحم الراحمين[٣].

وقال السُّدي: كان زكريا إذا تكلم على الناس نظر يميناً وشمالاً، فإن رأى يحيى لم

(١) انظر «زاد المسير» ٥/ ٢١٥.

(٢) «حلية الأولياء» ٨/ ١٤٩.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨٠.

يذكر جنة ولا ناراً[١].

وقال ابن المسيب: كان يحيى عليه السلام يضرب لبني إسرائيل الأمثال:

مثل في التوحيد، قال: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، ومثله: كرجل اشترى عبيداً من خالص ماله وأسكنهم داراً له ودفع إليهم مالاً ليتجروا به ويأخذ كل واحد منهم ما يكفيه ويؤدي إليه فضل الربح، فدفعوه إلى عدوٍّ سيدهم.

مثلٌ في الصلاة والمصلي، قال: مثله كرجل استأذن على ملك فأذن له فدخل عليه، فأقبل الملك عليه بوجهه وجعل الرجل يلتفت يميناً وشمالاً، فأعرض عنه الملك ولم يقض له حاجة.

مثلٌ في الصيام، قال: مثله كرجل لبس جبة للقتال وأخذ سلاحه وخرج إلى عدوّه فلم يصل إليه العدو ولم يعمل فيه السلاح.

مثلٌ في الذكر، مثله: كقوم لهم حصن ولهم عدو، فإذا أقبل عدوُّهم دخلوا حصنهم فلم يقدر عليهم، فكذا الشيطان لا يقدر على ذاكر لله تعالى[٢].

قلت: وقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل في «المسند» حديثاً بمعناه فقال: حدثنا عفَّان بإسناده عن الحارث الأشعري أن نبيَّ الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ أمرَ يَحيى بنَ زكَرِيَّا بِخمسِ كَلِمات، أن يَعملَ بهِنَّ، ويأمُرَ بَنِي إسرائيلَ أن يعمَلُوا بِهِنَّ، فكادَ يُبطِىء، فَقالَ له عيسى بنُ مريمَ: إنَّك قد أُمِرتَ بِخَمسِ كَلِمات أن تَعملَ بِهِنَّ وتأمُرَ بَنِي إسرائيلَ أن يعملُوا بِهِنَّ، فإمَّا أن تُبلغَهُنَّ، وإمَّا أن أُبلِّغَهُنَّ. فقال: يا أخي، إنِّي أَخشَى إن سَبقتَنِي أن أُعذَّبَ أو يُخسفَ بي. قال: فَجمعَ يَحيى بنُ زكريا بَنِي إسرائيلَ في بَيتِ المقدِس، حتى امتلأَ المسجدُ، فَقُعِدَ على الشُّرَفِ، فَحمدَ الله، وأثنى عليه، ثُمَّ قالَ: إنَّ الله أَمَرَني بِخمسِ كَلماتٍ أن أعمَلَ بِهِنَّ وآمُرَكُم أن تَعملُوا بِهِنَّ.

وأَوَّلُهُنَّ: أن تعبُدُوا الله ولا تُشرِكُوا بِهِ شَيئاً، فإنَّ مَثَلَ ذلِك مَثَلُ رجلٍ اشتَرى عبداً من خالصِ مالِهِ بوَرِقٍ أو ذَهبٍ، فَجَعلَ يَعملُ ويُؤدِّي غَلَّتهُ إلى غَيرِ سيِّدِه، فأيكم يَسرُّه أن

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨٠.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٩.

يكُونَ عَبدُه كَذلِك، وإنَّ الله خَلَقكُم، ورزَقكُم، فاعبُدُوه، ولا تُشرِكُوا به شَيئاً.

وآمُرُكُم بالصَّلاةِ، فإنَّ الله يَنصِبُ وجهَهُ لِعبدِهِ ما لم يَلتَفِت، فإذا صَلَّيتُم فلا تَلتَفِتُوا.

وآمُرُكُم بالصِّيامِ، ومَثَلُ ذَلِكَ كرجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِن مِسكٍ في عِصَابةٍ، كُلُّهُم يَجِدُ رِيحَ المِسكِ، وإنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِندَ الله أَطيَبُ من رِيحِ المِسكِ.

وآمُرُكُم بالصَّدقَةِ، فإنَّ مَثَلَ ذلِكَ كَمَثلِ رَجُلٍ أسرَهُ العَدُوُّ، فَشدُّوا يَدَيهِ إلى عُنُقِهِ[(١)] وقدَّمُوهُ لِيَضرِبُوا عُنُقَهُ، فَقالَ لَهُم: هَل لكُم أن أَفتَدِيَ نَفسِي مِنكُم؟ فَجَعلَ يَفتَدِي نَفسَهُ مِنهُم بالقَلِيلِ والكَثِير حَتَّى فَكَّ نَفسَهُ.

وآمُرُكُم بِذِكرِ اللهِ تعالى كَثِيراً، وإنَّ مَثلَ ذَلِكَ كَمَثلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعاً في أثرِهِ، فأتَى حصناً حَصيناً، فَتَحصَّنَ فيه، وإنَّ العَبدَ أحصَنُ ما يكُونُ مِن الشَّيطانِ إذا كَانَ في ذِكرِ الله.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنَا آمُرُكُم بِخَمسٍ اللهُ أَمَرني بِهِنَّ: الجَماعَة، والسَّمع، والطَّاعَة، والهِجرَة، والجِهاد في سَبيلِ الله، فإنَّهُ مَن خَرجَ مِن الجَماعَةِ قِيْدَ[(٢)] شِبرٍ فقد خَلَعَ رِبقَةَ الإسلامِ مِن عُنُقِهِ إلا أن يَرجِعَ، ومَن دَعَا بِدَعوى جَاهِلِيَّةٍ، فَهُو مِن جُثَا جَهنَّمَ» قالوا: يا رسول الله، وإنْ صَامَ وصَلَّى؟ قَالَ: «وإن صَامَ وصَلَّى وزَعَمَ أنَّه مُسلِمٌ، فادعُوا المسلِمين بأسمائِهم بَل بِما سمَّاهُم الله تعالى المسلمين المُؤمنين عِبَادَ اللهِ»[(٣)].

و«جُثَا» بجيم: من قوله تعالى: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[مريم: ٧٢]. وهذا الحارث بن الحارث أبو مالك الأشعري أخرج له أحمد في «المسند» هذا الحديث ولم يخرج له غيره. وقد ذكرنا وقائع يحيى مع الشيطان في صدر الكتاب.



(١) في (ك) و(خ): عنده والمثبت من (ب).
(٢) في (ك) و(خ): قدر والمثبت من (ب).
(٣) «مسند أحمد» (١٧١٧٠).

ذكر مقتل يحيى عليه السلام

واختلفوا فيه:

قال وهب: بعث عيسى عليه السلام يحيى عليه السلام في نفرٍ من الحواريين يعلِّمون الناس الأحكام، وكان فيما نَهوهم عنه نكاح الأخت، وابنة الأخت، وكان لملكهم ابنة أخ يُعجبُ بها، فأراد نكاحها، فمنعه يحيى عليه السلام، فسكر يوماً، وقال لها: اسألي حاجتك. وكان لها كل يوم حاجة مقضية. فقالت أمها: اسأليه رأس يحيى في طشت. فامتنع، فألحت عليه، وغاب عقله، فراودها فامتنعت، فأمر بذبحه، فذبح وجيء برأسه في طشت، والرأس يتكلم، ويقول: لا يحل لك نكاحها. فلما أصبحوا إذا الدم يغلي، فألقوا عليه التراب وهو يغلي حتى بلغ سور المدينة، فغزاهم ملك، فأقام مدة يحاصر بيت المقدس، فلم يقدر عليهم، فعزم على الرجوع، فخرجت إليه عجوز من بني إسرائيل، فقالت: أتحب أن تفتح المدينة؟ اقسم عسكرك أربعة أرباع[1] في كل ناحية ربعاً، وارفع يديك إلى السماء وقل: إنا سنفتحك بالله وبدم يحيى بن زكريا. فإذا فتحتها فاقتل على دمه حتى يَسكُن، فإن حيطان البلد تتساقط. ففعل، ففتح الله البلد ودخل[2]، فجاءت بهم العجوز فأرتهم موضع الدم وهو يفور، فقتل عليه سبعين ألفاً حتى رقأ، فقالت له: ارفع يديك، فإنَّ الله إذا قُتِلَ نبيٌّ لم يرض حتى يقتُلَ من قتله ومن رضي بقتله[3].

وقال السُّدي: واسم الملك الذي أخذ بثأر يحيى: خردوس. وقيل: بخت نصر، وهو وهم.

وقال الربيع بن أنس: كان للملك ابنة، فرأت يحيى فأحبته، فأرسلت إليه تراوده عن نفسه، فأبى، فراودته مراراً وهو يمتنع، فخافت أن يشيع ذلك عنها، فقالت لها أمها: إذا سألك أبوك حاجة، فقولي: رأس يحيى. فقالت له: تذبح يحيى. وندمت، و جعلت

---

(١) في (ب) و(خ): أقسام.

(٢) في (ب): ودخلوا.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨١ـ٣٨٢، و«الكامل» ١/ ٣٠٢.

المرأة تقول: ويل لها ويل لها. حتى ماتت[١].

واختلفوا في اسمها: فقيل: أزبيل. وقيل: ربه. وقيل: هيردونا. وكانت بغيًّا. قال وهب: قتلت في يوم واحد سبعين نبياً آخرهم يحيى عليه السلام وهي مكتوبة في «التوراة»: قتَّالة الأنبياء. ولها منبر في النار تعذَّب عليه ليسمع صراخها أهل النار.

وقال جدي في «التبصرة»: فهي أول من يدخل جهنم. وحكى ما ذكرناه[٢].

وقال الهيثم: اسم الملك الذي أمر بذبح يحيى عليه السلام: هردوش.

واختلفوا في أيِّ مكانٍ ذُبح يحيى:

فعامَّةُ المؤرخين على أنه ذُبحَ بالقدس بصهيون.

وقال مقاتل: على صخرة بيت المقدس في هوى زانية[٣].

وقال وهب: كان قائماً يصلي، فذُبح، فأخرب الله بيت المقدس، وسلَّط على بني إسرائيل الجبابرة، فأخربوا الشام كله. وقال قتادة: ذُبح يحيى بدمشق[٤]. وقيل: في موضع المسجد الصغير عند باب جيرون[٥]. وقال ابن سمعان: وكان ذلك قبل رفع عيسى عليه السلام بسنة ونصف ثم رفع بعد ذلك. قال: وكان الدم يفور، فصعد الملك إلى درج جيرون عند الكنيسة، وجعل يجيء بعشرة عشرة، فيضرب رقابهم حتى قتل عليها سبعين ألفاً، فجاء بعضُ أنبياء بني إسرائيل، فقال: أيها الدم، أفنيت الناس. فسكن[٦].

وكان الحسن يقول: من هوان الدنيا على الله أن يحيى قتلتهُ زانية[٧].

---

(١) انظر «التبصرة» ١/ ٣٤٢.

(٢) «التبصرة» ١/ ٣٤٢.

(٣) انظر «البداية والنهاية» ٢/ ٥٥.

(٤) انظر «تاريخ دمشق» ٢/ ٢٤١.

(٥) انظر «تاريخ دمشق» ٢/ ٣٠٤.

(٦) انظر «البداية والنهاية» ٢/ ٥٥.

(٧) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٧٤) من طريق الهزلي، عن الحسن، عن أبي بن كعب مرفوعاً، قال البيهقي: هذا إسناد ضعيف، وروي عن ابن عباس موقوفاً عليه.

ولما حُوصِر عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال ذلك(١).

واختلفوا في موضع رأس يحيى عليه السلام على أقوال:

أحدها: أنه دفن مع جسده بالقدس.

والثاني: أنه حُمل إلى عند أبيه فدفن بفلسطيَّة.

والثالث: بجامع دمشق.

فروي عن زيد بن واقد وكان الوليد قد وكَّله على عمارة جامع دمشق قال: وجدنا مغارة فعرَّفنا الوليد، فجاء في الليل وبين يديه الشمع، فنزلها فإذا هي كنيسة ثلاثة أذرع في مثلها، وإذا فيها صندوق، ففتحناه، وإذا بِسفْطٍ فيه رأسٌ مكتوب عليه: هذا رأس يحيى بن زكريا، والبشرة والشعر بحاله لم يتغيَّر، فردَّه الوليد إلى مكانه، وقال: اجعلوا عليه عموداً مسفطاً. قال زيد بن واقد: فهو العمود المسفط(٢).

الرابع: من ركن القُبَّة الشرقي. وقال ابن مسعود: كانت بنو إسرائيل قتلة الأنبياء؛ قتلوا في أول يوم من الأيام ثلاث مئةِ نبيٍ، وقامت سوق بقلهم في آخر النهار(٣). وقال ابن عباس: ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لقد كان بين موسى وعيسى خلق من الأنبياء لا يحصون، وما صُدِّق نبيٌّ ما صُدِّقْتُ؛ إنَّ من الأنبياء من لم يتْبعْهُ من أُمَّته إلَّا الرجل والرجلان»(٤).



---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٣/ ٥٥٥.

(٢) انظر «تاريخ دمشق» ٢/ ٢٤١.

(٣) في (خ) و(ك): الزمان، والمثبت من (ب).

(٤) أخرج شطره الثاني - من قوله ﷺ: «وما صدق نبي ...» - مسلم (١٩٦) (٣٣٢)، وابن حبان (٦٢٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فصل في قصة مريم وعيسى عليهما السلام(١)

قال مقاتل: ذكرهُ الله في ستةٍ وعشرين موضعاً، قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾[مريم: ١٦]. ومريمُ: اسم أعجمي، ومعناه بالعبرية: خادمة الكنيسة، وقيل: خادمة الله، ويقال: لأنها مرَّت في الطاعة مرور الحوت في اليم.

ومن فضائلها: أنَّ الله سمَّاها في القرآن في قصةٍ واحدة في سبع مواضع، ولم يذكر في القرآن غيرها، وخاطبها كما يخاطب الأنبياء، فقال: ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾. وقال لها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ بواسطة جبريل؛ أي: اختارَكِ ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من مَسيس الرجال والفواحش، وقيل: إنها ما كانت تحيض و ﴿نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أراد نساء زمانها. ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي: أطيلي عبادته، ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[آل عمران: ٤٣](٢).

فإن قيل: فلِمَ قدَّم السجود على الركوع، وهو مُؤَخَّر عنه في الحكم؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن الواو للجمع دون الترتيب؛ قاله أهل اللغة.

والثاني: أنَّ فيه تقديماً وتأخيراً، ومعناه: اركعي واسجدي؛ ذكرهُ ابن الأنباري، ونظيرهُ قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران: ٥٥].

والثالث: أن السجود كان مقدماً على الركوع في شرعهم؛ ذكرهُ أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: جبريل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾ وهو عيسى، وقيل: قوله: كن منه ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، وقد سمَّاهُ الله روحاً وكلمة.

---

(١) في (ب): الباب التاسع والعشرون في قصة مريم وعيسى عليهما السلام، وانظر في هذه القصة: «تاريخ الطبري» ١/ ٥٨٥، و«البدء والتاريخ» ٣/ ١١٨، ١٢٠، و«عرائس المجالس» ٣٨٤، وتاريخ دمشق ٥٧/ ٦٥، و(تراجم النساء) ٣٤٢، والتبصرة ١/ ٣٥٢، و«المنتظم» ٢/ ١٦، و«الكامل في التاريخ» ١/ ٣٠٧، و«المختصر في أخبار البشر» ١/ ٣٤، و«البداية والنهاية» ٢/ ٤١٦.

(٢) انظر في تفسير الآيات هذه والآتية: تفسير الطبري ٥/ ٣٩٣، والماوردي ١/ ٣٩٢، والثعلبي ٧/ ٦٧، وزاد المسير ١/ ٣٨٧.

فأما المسيح فقد اختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أن أصله مشيحاً، بالشين المعجمة، فعرَّبتهُ العرب، فقالت: مسيحاً؛ كما قالوا في موشى: موسى، قاله الزجَّاج.

والثاني: لأنه ممسوح، فَعِيل بمعنى مفعول، أي: مُسح من الأقذار؛ قاله ابن عباس.

والثالث: لم يكن لقدمه أَخمص، والأخمص ما يتجافى عن الأرض من باطن القدم.

والرابع: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، قاله أبو سليمان الدمشقي.

والخامس: لأنه ما مَسَحَ بيده على ذي عاهة إلا برىء، ولا على أعمى إلا أبصر، رُوي عن ابن عباس.

والسادس: أنه كان لا يقيم في مكان بل يمسح الأرض بالسياحة، ذكرهُ ثعلب.

والسابع: أنه الصديق بالعبرانية، قاله مجاهد.

والثامن: أنه القاتل، فيقتل الدجَّال.

فإن قيل: فلفظة المسيح مشتركة، فالدجَّال يقال له: المسيح، قلنا: قد فرَّق نبيُّنا ﷺ بينهما، فروى أحمد بن حنبل بإسناده عن نافع، عن ابن عمر أنه قال: لا واللهِ ما قال النبي ﷺ لعيسى أحمر، ولكن قال: «بينا أنا نائمٌ ـ أو قائمٌ ـ أطوفُ بالبيتِ فإذا رجلٌ آدَمُ، سَبْطٌ، يُهادَى بين رجلَيْن، يَنْطِفُ رأسُه ـ أو يُهراق ـ ماءً، فقلت: مَن هذا؟ قالوا: ابنُ مريَمَ. فذهبتُ ألتفِتُ، فإذا رجلٌ أحمرُ جسيمٌ، جَعْدُ الرَّأسِ، أعورُ عينه اليُمنى، كأنَّ عينَهُ عِنبَةٌ طافية، قلتُ: مَن هذا؟ قالوا: الدَّجال، وأقرب الناسِ شبهاً به ابن قَطَنٍ»، قال الزهري: هو رجل من خزاعة هلك في الجاهلية. أخرجاه في «الصحيحين»[(١)].

ولمسلم: عن جابر رفعه، قال ﷺ: «ورأيتُ عيسى فإذا هو يُشبهُ عُروةَ بن مسعودٍ»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٣١٢)، والبخاري (٧١٢٨)، ومسلم (١٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٧).

وأما عيسى: فقال الجَوْهَري: هو اسم عِبْرَاني أو سُرياني[1]، وقال أبو حنيفة ابن النُّوبي: قد اختلفوا في عيسى، فقال قوم: لا اشتقاق له، وقال آخرون: هو الأبيض، ومنه العِيس، وهي البِيضُ.

فإن قيل: فَلِم بدأ بلقبه ولم يبدأ باسمه في قوله: ﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؟ فالجواب: ما ذكره ابن الأنباري، فإنه قال: المسيح أشهر، وعيسى يقع على عددٍ كثيرٍ بخلاف المسيح، فقدَّمهُ لشهرته، ثم قال: ألا ترى أنَّ ألقاب الخلفاء أشهرُ من أسمائهم.

وقال الزجَّاج: كانوا يسمُّون بعيسى ولا يعرفون المسيح، فلما سمعوا بقوا متحيِّرين.

فإن قيل: فَلِمَ نسبهُ إلى أُمه بقوله: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؟ قلنا: لينفي عنه ما ادَّعت النصارى من النبوَّة حيث أضافوه إلى الله تعالى.

و«الوجيه»: الذي له جاهٌ ومنزلةٌ رفيعةٌ ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥] عند الله في الدنيا والآخرة.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ أي: طفلاً قبل أوانِ الكلام، والمهدُ مأخوذٌ من التمهيد وهو التوطئة.

وقال ابن عباس: تكلم في المهد ساعةً ليُبرِّىء أُمَّه مما قُذفت به، ولم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ مرتبة النطق.

وحكى الثعلبي عن مجاهد، قال: قالت مريم: كنت إذا خلوتُ أنا وعيسى حدثته ويحدثني، فإذا شغلني عنه إنسان سبَّح في بطني وأنا أستمع.

﴿وَكَهْلًا﴾[آل عمران: ٤٦]. قال الفرَّاء: الكهل عند العرب من جاوز الثلاثين لاجتماع قوته وشبابه، من قولهم: اكتهل النبات. أي: استوى.

وقال ابن فارس: الكهل من وخَطَهُ الشيب، والعرب تمدح بالكهولة لأنها الحالة الوسطى في احتناك السن، واستحكام الرأي، وغزارة العقل والتجربة.

---

(١) «الصحاح»: (عيسى).

وقال ابن عباس: أرسلَهُ الله وهو ابن ثلاثين سنة، فأَقام في الرسالة ثلاثين شهراً، ثم رفعهُ إليه. وقال وهب: أقام في الرسالة ثلاثَ سنين، ثم رُفع.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾[مريم: ١٦]؟ فالجواب[1]: ما حكاهُ علماء السِّير ممن سمينا، قالوا: معنى ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾ انفردت وتنحَّت، وكانت قد خرجت عن أهلها، ومعنى ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي: مما يلي الشرق، لأنه كان في الشتاء، وكان أقصر يومٍ في السنة، قال الحسن: فلهذا اتخذت النصارى الشرق قِبلةً.

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ أي: ضربت ستراً يمنع من ينظر إليها، وكانت إذا حاضت خرجت من المسجد، فتغتسل ثم تعود إليه.

وقد اختلفوا في سنِّها يومئذٍ على أقوال:

أحدها: أنه كان لها خمس عشرة سنة، قاله ابن عباس.

والثاني: اثنتا عشرة سنة، قاله وهب.

والثالث: ثلاثَ عشرة سنة، قاله مجاهد.

والرابع: عشر سنين. والأول أصحُّ.

قال مقاتل: بينما هي تغتسل، إذ عرض لها جبريل في صورة غلامٍ أَمرد وضيء الوجه، جَعْد، قَطَط، حين خطَّ[2] شاربه، وهي تمتشط؛ وإنما جاءها في صورة البشر لتثبت ولا تخاف، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾[مريم: ١٧].

واختلفوا في معنى قوله تعالى: ﴿رُوحَنَا﴾ على قولين: أحدهما: أنَّ الروح جبريل. والثاني: عيسى.

قال أُبيُّ بن كعب: كان روح عيسى من الأرواح التي أخذ الله عليها الميثاق في زمن

---

(١) انظر تفسير الثعلبي ٦/ ٢٠٩، وعرائس المجالس ٣٨٤، والنكت والعيون للماوردي ٣/ ١٤، وزاد المسير ٥/ ٢١٦.

(٢) في (ب): طرَّ، وهما بمعنى.

آدم، فأرسله الله إليها في صورة البشر فدخل في فيها، والأوَّل أصحُّ لدلالة الكلام عليه، فإن جبريل هو الذي خاطبها.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أي: حفظت ومنعت ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أضاف الروح إليه على معنى التشريف لمريم وعيسى، وإنما قال: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً﴾[الأنبياء: ٩١]، ولم يقل آيتين، لأنَّ معناه: وجعلنا شأنهما وأمرهما آيةً.

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨] واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: إن كنتَ مطيعاً مؤمناً، قاله عليٌّ عليه السلام، وقد فسرهُ فقال: إن كنتَ تتقي الله فإنك تنتهي عني بتعوذي منك.

والثاني: أنه كان رجل في بني إسرائيل، زاهد عالم عابد ورع، يقال له تقي، فقالت: وإن كنت في الصلاح مثل تقي فإني أعوذ بالله منك.

والثالث: أن التقي اسم رجلٍ فاجر، كان يتعرَّض للجواري، فيعوذون منه.

فقال لها جبريل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ فلا تخافي، إنما أرسلني ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[مريم: ١٩] أي: صالحاً، طاهراً من العيوب. وإنما أضاف الهِبَة إليه لأنه هو السبب، فأضافها إلى نفسه: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ أي: كيف يكون لي ولد ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ أي: لم يقْربني زوج ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾[مريم: ٢٠﴾ أي: فاجرةً. ﴿قَالَ﴾ جبريل: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٢١] أي: يسير أن أهَبَ لك غلاماً من غير أب ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالةً على قدرتنا، وعبرةً للناس ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ لمن تَبِعَهُ وآمن به، ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾[مريم: ٢١] أي: محكوماً به، مفروغاً منه، كُتِبَ في اللوح المحفوظ.

قال ابن عباس: فنفَخَ جبريل في جيب درعها، فمرَّت حاملاً في الوقت، فلما تيقنت بحملها انتبذت به، أي: انفردت ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾[مريم: ٢٢] أي: بعيداً من أهلها من وراء الجبل. وقال مجاهد: قيل ليوسف النجار، وكان ابنَ عمها: إنَّ مريم قد حبلت، والآن تُقتل، فأخذها وهرب بها، فأراد قتلها، فناداه جبريل: لا تفعل، فإنه روح الله وكلمته، فتَرَكَهَا.

واختلفوا في مدة حملها على أقوال:

أحدها: ساعة واحدة، حملت به ثم وضعته في الحال؛ قاله ابن عباس.

والثاني: ثلاث ساعات، حملت به في ساعة، وصُوِّرَ في ساعة، ثم وضعته في ساعة حين زالت الشمس؛ قاله مقاتل.

والثالث: تسع ساعات، قاله الربيع بن أنس.

والرابع: ستة أشهر؛ أدنى مدة الحمل؛ قاله مجاهد، وذكرهُ الماوردي[(١)].

والخامس: سبعة أشهر؛ قاله أبو جعفر الطبري وعكرمة.

والسادس: ثمانية أَشهر؛ قاله الزجَّاج[(٢)]، وكان ذلك آيةً لعيسى عليه السلام، لأنه لا يعيش مولود لثمانية أشهر.

والسابع: تسعة أشهر؛ الحمل المعتاد، قاله أبو جعفر الطبري والحسن وابن جبير[(٣)].

والثامن: يوماً واحداً.

والوجه الأول أصحُّ، لوجوه:

أحدها: أن الآية دليل عليه، وهي قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ [مريم: ٢٢-٢٣]، وكل هذا على الفور.

والثاني: لأنه أبلغُ في المعجزة.

والثالث: لأنَّ ابن عباس نصَّ عليه.

وقال ابن إسحاق: مشت ستة أميال فراراً من قومها، مخافة أن يُعيِّروها بولادتها من غير زوج.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي: فأخذها، وهو وجع الولادة والطلق، وقرأ ابن مسعود:

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٦٢ ونسبه إلى أبي القاسم الصيمري.

(٢) انظر «معاني القرآن وإعرابه» ٣/ ٣٢٤.

(٣) لم نقف على كلام الطبري في الموضوعين.

«فآواها»[١] ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، وكانت يابسة في الصحراء، لم يكن لها سَعَفٌ ولا خُوصٌ[٢]، وكانت ببيت لحم على ثلاثة أميال من القدس، وكان يوماً بارداً ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ الأمر أو اليوم، قالته حياء من الناس، واختلفوا في معناه:

قال الحسن: قبل نزول هذه الحادثة العظيمة، وهي وجود ولد من غير أب.

وقال مجاهد: قالته شفقة على الخلق، ومعناه: يا ليتني مِتّ قبل أن يخرج مني ولد يُعبَدُ من دون الله، فيدخلُ النارَ بسببه خلقٌ كثير.

وقيل: معناه: يا ليتني مِتُّ قبل أن يجيء من يشغلني عن الله.

وقيل: إنما مضَّها وجع الولادة فقالت ذلك.

وقيل: لما كنتُ في محرابي كان يأتيني رزقي من غير تعبٍ، والآن فقد صرت محتاجةً إلى السبب، يا ليتني مِتُّ قبل هذا.

وقيل: نفاس وعدو وخوف ووجع، يا ليتني مِتُّ قبل هذا، قالهما مقاتل.

﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[مريم: ٢٣] أي: لم أكن شيئاً.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ ومعناه: ناداها عيسى لما خرج من بطنها: لا تحزني. وقيل: جبريل، ومعناه: ناداها من تحت النَّشز، لأنها كانت على نَشْزٍ عالٍ، وقيل: على جبلٍ.

واختلفوا في أي مكان ولد على قولين:

أحدهما: ببيت لحم يوم الأربعاء رابع عشرين كانون الأول.

والثاني: بالناصرة[٣] قرية من أعمال اللَّجُّون عند صَفُّورِيَة.

والأول أصحُّ، لأن في حديث المعراج عن النبي ﷺ أنه قال: «قال لي جبريل ليلة المعراج: انزل ها هنا، فصلِّ ركعتين ببيت لحم، فإن عيسى وُلد ها هنا»[٤].

---

(١) تفسير الثعلبي ٦/ ٢١٠، والماوردي ٣/ ١٥.

(٢) السَعَفُ: أغصان النخلة، الواحدة: سَعَفَة. والخُوصُ: ورق النخل، الواحدة خوصة.

(٣) في (ب): الناصرية، وفي (خ): البصرة، والمثبت من (ك).

(٤) أورده ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ١٥-١٦، من حديث شداد بن أوس، وقال: منكر، وروي من حديث أبي هريرة، أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ١/ ١٩٧، وقال: موضوع. وانظر «لسان الميزان» ٢/ ٥٠-٥١.

فإن قيل: فالنصارى يسمونه إيشوع[١] الناصري، لأنه ظهر منها، قلنا: سكنها مدَّة فأضيف إليها.

وذكر ابن حوقل في «عجائب الدنيا وصفتها» أن عيسى وُلد بمصر، بكورة أَهْناس، ولم تزل نخلة مريم قائمةً في أَهْناس إلى آخر أيام بني أمية[٢]. وليس هذا بشيء. والأول أصحُّ.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[مريم: ٢٤] وهو النهر الصغير في قول عامة العلماء، وقال الحسن: المراد به عيسى عليه السلام، لأنه كان سريّاً، أي: عالياً رفيعاً. والأول أصحُّ لوجهين:

أحدهما: لأنها كانت حزينة، لأنها لم يكن عندها طعام ولا شراب، فنوديت: قد أطلعنا لك الرُّطَب من النَّخْلة، وأجرينا لك النهر.

والثاني: لأن الله تعالى جعل آيتها في النهر، فكان طوع أمرها، إن أمرته جرى، وإن أمرته وقف.

وقال ابن عباس: ضرب جبريل بجناحه الأرض، فجرى النهر من عَيْنٍ عذبةٍ باردة، وأورقت النخلة بعد يبسها وأرطبت.

وقال مقاتل: لما سقط عيسى على الأرض ضرب برجله، فنبع الماء، وأطلعت النخلة، وأحدقت بها الملائكة.

وقيل: كان يوسف النجار معها، فأوقد لها ناراً، وأطعمها سبع جوزات.

وقال وهب: لما وضعته خرَّت الأصنام سجَّداً، فأخبرت الشياطين إبليس، فبثَّهم في الدنيا وخرج، فجاء إلى المكان الذي فيه عيسى، والملائكة قد حفَّت به، فلم يتجاسر أنْ يدنوَ منه، فرجع إلى أعوانه، وقال لهم: وُلِدَ مولود عظيم معه نور، لم أقدر على الدنوِّ منه، ومن عِظَم أمره أن الله كتم عني حاله، ولم تضع أنثى إلا وأنا حاضرها. ثم مشى في الناس، فأشاع الفاحشة.

(١) في (خ) و(ك): إيشوى.

(٢) «صورة الأرض» ص ١٤١.

وقيل لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي: حركيها، والمعنى فيه من وجوه:
أحدها: أنه أخبرها أن بعض الأشياء لابدَّ له من سبب.

قال الشاعر: [من الطويل]

عليك بتقوى الله في كلِّ حالةٍ ولا تَرَ أنَّ الحَزْمَ في تركِكَ الطَّلبْ
فإنَّ الذي أحيا لمريمَ جِذْعها وقال لها هزِّيه تَسَّاقَطِ الرُّطَبْ
فلو شاء أَحْنَى الجِذْعَ من غير هزِّه إليها، ولكن كلُّ شيءٍ له سببْ[١]

والثاني: أراد أن يكون في يدها معجزة، كما جعل معجزات بعض الأنبياء في أيديهم.

والثالث: لأنها علَّقت قلبها بولدها فعُوقِبَتْ بالهزِّ.

والرابع: أنها قالت: لا تعجبوا من ولد بغير أب، فهذه النَّخْلة اليابسة من غير تلقيح ولا فحل، قد تساقط منها الرُّطَب، أعجبُ.

وقيل: هزِّي إليك شجرة التوحيد والتمكين تَسَّاقَط عليك رُطَبُ الرِّضى والأُنس والصدق واليقين.

فإن قيل: فلم أجرى النهر بغير سعيها، ولم يعطِها الرُّطَبَ إلا بالهزِّ؟ قلنا: أراد أن يريها أنه يفعل بسبب وبغير سبب.

﴿رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾[مريم: ٢٥] أي: غضّاً.

وقال الربيع بن خثيم: ما للنفساء مثل الرطب، أو خير من الرطب، وقرأ هذه الآية.
وكان رسول الله ﷺ إذا وُلد مولود حنَّكه بالتمر[٢].

﴿فَكُلِي﴾ من الرطب ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ بولادة عيسى ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾[مريم: ٢٦] أي: صمتاً، أي: سكوتاً، وإنما أُمرت بالسكوت لأنها لم يكن لها حجة عند الناس، وسِنُّها يومئذ على الخلاف الذي قدمنا.

---

(١) الأبيات عدا البيت الأول في «المستطرف» ١/ ٢٩٤، وثمار القلوب ١/ ٣٠٧، ورواية البيت الأخير:
فلو شاء أن تجنيه من غير هَزِّهِ جنتهُ ولكن كل شيءٍ له سبب

(٢) ورد في تحنيك رسول الله ﷺ المولود بالتمر أحاديث عدَّة، منها: ما أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٧٩٥) عن أنس ﷺ. وما أخرجه البخاري (٥٤٦٧)، ومسلم (٢١٤٥) عن أبي موسى ﷺ.

وقال ابن عباس: إنما أمرها بالصمت لأنها لم يكن لها ما تدفع به الخصوم.

وقال ابن أبي نَجِيح: هذا إنما قالته قبل أن يتكلم عيسى في المهد.

قلت: وأيُّ حُجَّة أبلغ من جَرْي النهر، وإخراج الرُّطَبِ من جِذْع يابس، وإنما قد ورد أن الملائكة كانت تحدِّثها وتؤانسها، فاشتغلت بذلك عن إقامة العذر لبني آدم.

فإن قيل: فإنْ كان أَمَرها بالسكوت فقد قال: ﴿فَقُولِىٓ﴾ وإنْ كان أَمَرها بالصوم المتعارف فقد قال: ﴿فَكُلِى﴾!

فالجواب: إنما أمرها بالسكوت في بداية الحال لعدم البرهان فلما تكلم عيسى عليه السلام زال السكوت، وقال لها: ﴿فَقُولِىٓ﴾، وأما الصوم فلأنها كانت صائمة، وكانوا يتعبدون بالصمت في الصوم، فلما ظهر برهانها قال لها: ﴿فَكُلِى﴾.

وقال ابن الكلبي: حملها يوسف النجار وابنها، فأدخلهما غاراً، فأقامت فيه أربعين يوماً حتى تعالَّت من نفاسها، فخرجت به، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾، فلما رأوه حزنوا وبكوا؛ وكانوا قوماً صالحين، و﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[مريم: ٢٧] أي: عظيماً.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وفيه أقوال:

أحدها: أنهم عنوا هارون أخا موسى بن عمران، لأن أمها كانت من نسله، ورواه أنس مرفوعاً(١).

والثاني: أن هارون كان رجلاً صالحاً من بني إسرائيل، وليس بهارون أخي موسى، قاله قتادة، قال: وكان رجلاً صالحاً، شيَّع جنازته من أولاد الأنبياء أربعون ألفاً، كلهم اسمه هارون، شبهوها به في صلاحه، وكانت كذلك(٢).

والثالث: أنه كان في بني إسرائيل رجل اسمه هارون من أفسق الناس، فشبهوها به.

---

(١) لم نقف عليه من حديث أنس مرفوعاً، وانظر تفسير الثعلبي ٦/ ٢١٢، وأخرجه الطبري في «تفسيره» عن السُّدي ١٥/ ٥٢٥، وأخرجه ابن أبي حاتم ـ فيما ذكر ابن كثير ٣/ ١١٩ ـ عن محمد بن كعب القرظي، قال ابن كثير: وهذا القول خطأ محض، وانظر البداية والنهاية ٢/ ٤٤٧..

(٢) انظر «تفسير عبد الرزاق» ٢/ ٧، و«تفسير الطبري» ١٥/ ٥٢٣، وعرائس المجالس ٣٨٨.

والرابع: هارون اسم أخٍ لها من أُمها وليس من أَبيها. رويت هذه الأقوال عن ابن عباس.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ أي: زانياً ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[مريم: ٢٨] أي: فاجرة، فمن أين لك هذا الولد؟ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أن كلِّموه، فتعجبوا و﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[مريم: ٢٩].

فإن قيل: فمن أين لها أنه يتكلَّم وهو طفل؟

فالجواب: ما ذكره مقاتل، قال: كلمها عيسى في الطريق، فقال لها: يا أُمَّاه، أبشري، فإني عبد الله ورسوله ومسيحهُ. فكانت على ثقةٍ من كلامه .﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو الإنجيل، ومعناه: سيؤتيني.

وقال ابن أبي نَجيح: إنما نطق عيسى في أول كلامه: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ردّاً عليهم، لأنه علم أنهم يقولون: ابن الله، فاعترف بالعبودية والنبوَّة، فارتفعت ضرورة النبوة.

وقال مجاهد: كان ثديها في فمه، فنزعه وكلمهم جالساً.

وقيل: معنى قوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: عِلْمَ التوراة وأنا في بطن أمي ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[مريم: ٣٠] أي: سيجعلني، ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهذا يدل على أنه كان لهم شرائع وعبادات.

وروى السُّدي عن أشياخه، قالوا: كانت مريم تخدم الكنيسة مع ابن عمها يوسف النجّار، فهو أوَّل من أنكر حملها، وقال لها: هل ينبت زرع من غير بذر؟! فقالت: ألم تعلم أن الله خلق آدم وحواء من غير ذَكَر. قال: وقد وقع في بعض الأناجيل أن يوسف النجَّار خطب مريم وتزوَّجها، فلما زفت إليه وجدها حاملاً، فأراد أن يفارقها، فرأى تلك الليلة في منامه ملَكاً، فقال: أمرها من الله، فتركها.

وقال مجاهد: كان الملِك الذي كان في ذلك الزمان مَن زنى قتله، واسمه هرادش[1]، فأخذها يوسف وهرب بها. وهذه روايات ضعيفة. والأول أصحُّ.

---

(١) في (خ): هرداش.

وقال علماء السِّير: ولد عيسى في زمان أَرْدشِير بن بابك بعد الإسكندر بثلاث مئةِ سنة وقد ذكرناه في ترجمة يحيى.

وكانت المملكة في ذلك الوقت لملوكِ الطوائف، وكانت الرياسة بالشام لقيصر ملك الروم، وكان هرادش نائباً من قيصر بالشام. ولما شاع خبر عيسى قصد الملِك وبنو إسرائيل قتله؛ وذلك لأنهم نظروا إلى نجمٍ طلع يكون سبباً لظهور دين عيسى، فبعث الله ملكاً إلى يوسف يأمره بإخراج مريم وابنها إلى مصر، فسار بهما على حمار، وكانت مريم تغزل الكَتَّان، وتَلْقُطُ السُّنْبُلَ وتتقوَّت به.

ولما بلغ عيسى خمس سنين حملته إلى المعلم، فقال له: قل: بسمِ الله، فقال: وما بسمِ الله؟ فقال المعلم: لا أدري، فقال عيسى: الباء بَهَاء الله، والسين سَنَاؤه، والميم مُلْكه[1]. فعَجِب المعلم وأحبه.

وقال مجاهد: كان عيسى آدَمَ، سَبْطَ الشَّعر، وقيل: أبيضَ، لم يدهن رأسه قطُّ. وكان يمشي حافياً، ويركب الحمار، ويجلس على الأرض، ويأكل الحشيش، ويصوم النهار، ويقوم الليل، وكان يجتمع على بابه كل يومٍ من المرضى والزَّمْنَى خمسون، فيداويهم بالدعاء فيبرؤون، فاتَّبعه خلق كثير، وسألوه أن يُحيي سام بن نوح، فجاء إلى قبره، وناداه: يا سام، فانشقَّ القبر عنه، وقام ينفض التراب عن رأسه، وقال له عيسى: منذ كم متَّ؟ قال: منذُ أربعةِ آلافِ سنةٍ، أو ثلاثةِ آلافِ سنةٍ، وما بردت عنِّي حرارة الموت. ثم قال لهم سام: هذا عيسى روح الله وكلمته وآيته، فاتَّبِعوه ولا تعصوه.

وقال السُّدي: وصف لهم عيسى سفينة نوح، فقالوا: نحب أن نرى من شَهِدَها. فأتى بهم إلى الثَّنيَّة من أرض حَوْرَان، فسأل الله، فأقام سامَ ابن نوح، وقد شاب نصف رأسه، فقال: أقامت القيامة؟ قال: لا، ولكني دعوت الله باسمه الأعظم فأحياك. فنعت لهم السفينة، ثم عاد إلى قبره.

وقال ابن عباس: كان عيسى يقول: لباسي الصوف، وشعاري الخوف، وبيتي

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١/ ١١٩ـ١٢٠، من حديث ابن مسعود مرفوعاً، وأورده ابن كثير في «تفسيره» ١٩/١، وقال: وهذا غريب جداً، وقد يكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات.

المسجد، وطيبي الماء، وأكلي من نبات الأرض، وإدامي الجوع، ودابتي رجلي، وسراجي القمر، وصلاتي في الشتاء في مشارق الشمس، وفاكهتي ورَيْحاني بُقُول الأرض، وجلسائي المساكين والزَّمْنَى، وأُصبح وأُمسي وليس لي شيء، وأنا طيب[١] القلب، فمن أغنى مني، وليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرب، ولا أدَّخر شيئاً لِغَد؟

وقال مجاهد: كان يَلْقُطُ مع أمه السُّنْبُلَ، فإذا عُرفا في مكانٍ تحولا إلى غيره، وأين ما أدركه المساء بات، ولم يمسَّ امرأةً ولا طيباً، ولم يلبس قطناً ولا كَتَّاناً، ولم يجعل بينه وبين الأرض حائلاً، ويمشي وعليه بُرْنس، وبيده عصا، ويَقنَعُ باليسير، ويقول: هذا لمن يموت كثيرٌ.

وقال جدي رحمه الله في «التبصرة»: أوحى الله إليه وهو ابن ثلاثين[٢] سنة، وأنزل عليه الإنجيل، وكان يجتمع على بابه خمسون ألفاً، فيداويهم بالدعاء. وذكر بمعنى ما ذكرنا[٣]. قال: وكان يقول لأصحابه: أهينوا الدنيا تَكْرُمُ الآخرةُ عليكم، إنكم لا تُدْرِكُون ما تأمَلُون إلا بالصبر على ما تكرهون، ولا تبلغون ما تريدون إلا بتركِ ما تشتهون[٤].

وروى جدي في «التبصرة» عن محمد بن سباع النميري، قال: بينما عيسى بن مريم يسيح في بلاد الشام اشتد به المطر والرعد والبرق، فجعل يطلب شيئاً يلجأُ له، فرُفِعَتْ له خيمةٌ من بعيد فيها امرأةٌ، فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه، وإذا في الكهف أسد، فرفع يديه وقال: إلهي، جعلت لكل شيء مأوى، ولم تجعل لي مأوى. فأجابه الجليل: مأواك عندي في مستقر رحمتي، لأُزوِّجنَّكَ يوم القيامة مائة حوراء، ولأُطعمنَّ في عرسك أربعة آلاف عام مثل عمر الدنيا، ولآمرنَّ منادٍ ينادي: أين الزاهدون في الدنيا؟ احضروا عرس الزاهد عيسى بن مريم[٥].

(١) في (خ): طبيب.
(٢) في «التبصرة»: ثلاث سنين.
(٣) «التبصرة» ١/ ٣٥٥.
(٤) «التبصرة» ١/ ٣٥٥.
(٥) «التبصرة» ١/ ٣٥٦.

ورواه السُّدي، وفيه: لأُزوِّجنَّكَ أربعةَ آلافِ حوراءَ، خلقتُهنَّ بيدي.

وفي رواية: أنه جاء إلى خيمة العجوز، فجلس في ظلِّها، فأقامتهُ، وقالت: قم من ظلِّي، فبكى، وقال: لستِ التي أقمتيني، وإنما أقامني من ما رضيَ لي ظِلَّك.

وروى ابن أبي الدنيا عن ابن المُسيَّب، قال: مرَّ عيسى في سياحته بنهرين يجريان من أصل جبلٍ، فوقف ينظر إليهما، فأنطق الله الجبل، وقال له: يا عيسى، ممَّ تعجب؟ فقال: من هذين النهرين فقال: أما الذي عن يميني فدمع عيني اليمنى، وأما الذي عن يساري فدمع عيني اليسرى. قال: فما سبب بكائك؟ قال: خوفي من نارٍ وَقودها الناس والحجارة، فاسأل ربك أن يؤمِّنني إياها، ولا يجعلني من وَقودها. فسأل الله عيسى فيه، فقال الله: قد أمنته منها، فأَخْبَرَهُ عيسى. فمدَّ الواديَ من الجبل إلى الجبل، وارتفع الماء إلى أعلاه، وكاد عيسى يغرق، فقال له عيسى: ما هذا؟! فقال الجبل: يا روح الله، تلك دموع الخوف والحزن، وهذه دموع الشكر والحمد[1].

وذكر أبو حامد الغزالي في كتاب الزهد من «الإحياء» أن: عيسى اجتاز بقريةٍ خرابٍ، وأهلُها موتى على الطرق. فقال عيسى: يا معاشر الحواريين، إنَّ هؤلاء ماتوا عن سُخْطٍ، ولو ماتوا عن رضًى لتدافنوا. فأوحى الله إليه: إذا جاء الليل فاسألهم. فنادى عيسى في الليل: يا أهل هذه القرية، فأجابه واحد منهم: لبيك يا روح الله، فقال: ما بالكم كذا؟ فقال: بتنا في عافيةٍ وأصبحنا في الهاوية. قال: ولِمَ؟ قال: لحبِّنا الدنيا. قال: وكيف كان حبكم لها؟ قال: حبَّ الصبيِّ لأمِّه، إنْ أقبلتْ فَرِحنا، وإن أدبرت حَزِنَّا. ثم قال: يا نبيَّ الله، ولست منهم، وإنما أتيتهم زائراً، فنزل عليهم السُّخْطُ فعمَّني. قال: وأين أهلها؟ قال: أُلجموا بلجامٍ من نار، فلا يقدرون على الكلام. فقال عيسى: لأكل خبز الشعير، والنوم على التراب، ولبسُ المُسُوحِ، أحسن حالاً من هؤلاء، يا معشر الحواريين، خذوا الحقَّ من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، كونوا مستعدين لئلا تجوزَ عليكم الزُّيُوف[2].

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٩٠٤) عن الفضيل بن عياض.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٠٥.

وقال وهب بن منبِّه: كان عيسى يمشي على وجه البحر، ولم يكن أحبُّ إليه من أن يقال له: يا مسكين.

فصل في واقعات عيسى وهي كثيرة[(١)]

فمنها: ما حكاه وهب قال: لمَّا ذهب يُوسف النَّجار بعيسى وأُمِّه إلى مصر نزلوا على دِهْقَان، فسُرِقَ له مالٌ، فضاق صدر مريم، فقال لها عيسى وكان قد ترعرع: لا تَحْزَني وقولي للدهقان يجمع مساكين داره، فجمعهم وفيهم رجلان أعمى ومُقْعد، فأمر عيسى بحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له: قم به، فقال الأعمى: لا أقدر وإنِّي ضعيف. فقال له عيسى: كيف قويت البارحة على حمل المال الذي أخذته أو على حمل المقعد إلى الخزانة حتى أخذ المال، فأنكر فضربوه فأقرَّ وردَّ المال.

ومنها: ما رواه عِكرمة قال: كان عيسى[(٢)] يحدِّث الصبيان في المكتب بما يأكلون في بيوتهم، فيخبرون أهاليهم فيقولون لهم: إيَّاكم وهذا السَّاحر، وحبسوا الصبيان في بيتٍ، وجاء عيسى يطلبهم فقالوا: ليس ها هنا، قال: فما في هذا البيت؟ فقالوا: خنازير، فقال عيسى: خنازير إن شاء الله، ففتحوا البيت وإذا بهم خنازير.

ومنها: ما حكاه الكَلبي قال: أسلمتْ مريمُ عيسى إلى صبَّاغين بعدما خرج مِن الكُتَّاب فاجتمع عند المعلِّم ثيابٌ كثيرة وعرض له سفر فقال لعيسى: أنا مسافر وعندنا ثيابٌ مختلفة الألوان وقد علَّمتُ على كل ثوب فيها بخيط على اللون الذي يُصبغ به، فلا أقدمُ إلا وقد فرغتَ منها، ثم سافر وأخذ عيسى الثياب فجعلها في جُبٍّ واحد على لون واحد وقال لها: كوني مختلفة الألوان بإذن الله على ما أُريد، وقَدِم أستاذه فقال: أين الثياب، فقال: في الجُبِّ الفلاني، فقال: لقد أفسدتها عليَّ، وخاف الأستاذ، فقال له: على رِسْلك، ثم أدخل يده في الجُبِّ وأخرج الثياب كل ثوبٍ على لون الخيط الذي كان عليه من بين أحمر وأصفر وأخضر وغيره، فآمن به الصبَّاغ هو وأصحابه فيقال: إنهم الحواريُّون.

---

(١) انظر عرائس المجالس ٣٩٥.

(٢) في (ك) يحيى.

ومنها: خروجه من مِصْرَ[(١)] إلى الشَّام، قال كعب: لما مات هرادش المَلِك أوحى الله إلى عيسى ارجع إلى الشام، فخرج هو وأُمهُ ويوسف النجّار فنزلوا النَّاصِرَةَ فنُسِبوا إليها، وأخذ في مداواة المرضى والعُمْيان، فجاء إبليسُ ومعه شيطانان وتصوَّر هو في صورة آدمي، فجلس بمحضرٍ مِن النَّاس، وأشار إليه وقال: هذا تكلَّم في المهد ويبرىء الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى، فهذا هو الله تعالى، فقال أحد الشيطانين: أخطأت أيها الشيخُ لا يُتَصوَّرُ أنْ يتجلَّى الله لعباده، ولكن هو ابن الله، فقال الآخر: أخطأتما إنَّما هو إله آخر. فصار النَّاس فيه ثلاث فرق: نسطورية[(٢)]، ويعقوبية[(٣)]، وملكية[(٤)] قالوا بالتثليث.

ومنها: إنعام الله عليه بقوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[المائدة: ١١٠] واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنَّه الروح الذي نفخ فيه فأضافه الله إلى نفسه تشريفاً له كقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ وبيت الله، فالقُدُس هو الله، قاله ابن عباس.

والثاني: جبرائيل، وتأييدهُ به أنَّه كان يأتيه بالوحي ويحرسه إلى حين صعوده إلى السماء. قاله مجاهد.

والثالث: أن القُدُس هو الطهارة، ومعناه الرُّوح الطاهرة، قاله مقاتل.

ومنها: أنَّه كان يخلق من الطين كهيئة الطَّير وهو الخفَّاش، ثمَّ ينفخ فيه الرُّوحَ فيكون طائراً بإذن الله. قال وهب: لم يخلق غير الخفَّاش، وخَلْقُهُ الخفَّاشَ أعظم من غيره، لأن له خصائص من اليد والرِّجل واللِّسان ويحيضُ ويَلد ويطير بغير ريش، ولقد نعتته

---

(١) في (خ): الناصرية.

(٢) النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي تصرف في الأناجيل بحكم رأيه وإضافته ومن قوله: إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. انظر «الملل والنحل» ١/ ٢٢٤.

(٣) اليعقوبية: أصحاب يعقوب، قالوا بالأقانيم الثلاثة، إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح. انظر «الملل والنحل» ١/ ٢٢٥.

(٤) الملكية: أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها ومعظم الروم ملكانية، ومن قولهم: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته، ويعنون بالكلمة أقنوم العلم، وانظر الخبر في عرائس المجالس ٣٩٣.

بنو إسرائيل به، وكان يطير ما دام النَّاس ينظرون إليه فإذا غاب عنهم سقط مَيتاً، ليتميَّز فعل الخالق من المخلوق.

وكان يُبرىء الأكْمَهَ وهو الذي وِلِدَ أعمى والأبرص، وإنَّما خُصَّ بهذين، لأنَّه كان في زمنه الأطباء فأراهم الله عجزهم بهذه المعجزة، لأنه ليس في قدرة الطبيب أن يُبرىءَ مِنْ هاتين العلَّتين، قالوا: ولم يولد في الإسلام أكْمهُ إلا قتادة بن النعمان، وأمَّا بعده فكثير.

ومنها: إحياء الموتى، وقد ذكرنا أنَّه أحيا سَام بن نُوح، وأحيا العَازَر، قال ابن إسحاق: وكان صَديقاً له فأرسلت إليه أُخته: إنَّ صديقك العَازَرَ يموت، وكان بينهما مسيرة ثلاثة أيام، فجاء فوجده قد مات، فجاء فوقف على قبره ودعا فقام العَازَرُ حيّاً وعاش زماناً وولد له.

وذكر أبو حامد الغزالي في كتابه المُسمَّى بـ «سرِّ العالمين» وقال: لمَّا اشْتَهَر عيسى بإحياء الموتى بَعَثَ إليه جَالينوس الحكيم ـ وكان في زمانه ـ: يا عيسى إنَّا لا نطلب منك إحياء الموتى وإنَّما ها هنا رجلٌ مسلول به حُمَّى الرِّبع اشفه في هذا الشهر ـ وكان كانون الأول ـ وأؤمن بك، فقال عيسى: ائتوني ببِطِّيخَة الحُمَّى فسقاه منها فقاء[1] الرجل شيئاً أسودَ مثل الحبرِ المحترق وقام سليماً لا مرض به، ثم قال عيسى: أَيهددني جَالينوس، ثم دخل هيكل العبادات ودعا، فما انتصف الليل إلا وثار على جالينوس علَّة إسطوريا الكرائية فمات قبل الصباح[2].

قلت[3]: والعجب من الغَزَاليّ أنْ يذكر مثل هذا، فإن جالينوس كان بعد عيسى بمئتي سنة باتفاق المؤرخين.

وقال المصنف رحمه الله بعد هذا في آخر هذه المجلدة عند ذِكر حكماء اليونان، فذَكر سقراط الحُبِّ[4] وجماعة، وقال: منهم جالينوس وكان في زمان عيسى عليه

(١) في النسخ: (فقام) والصواب ما أثبتناه.

(٢) سر العالمين ١٦، وفي نسبة هذا الكتاب إلى الغزالي شك ومقال، انظر مؤلفات الغزالي لعبد الرحمن بدوي ٢٧١.

(٣) في (ب): قال المصنف رحمه الله.

(٤) انظر ما سيأتي في الصفحة ٤١١.

السلام، ويقال: إنه قصد الاجتماع بعيسى عليه السلام وسار إليه فمات في طريقه. فَلْيتأمَّل، ولم يبقَ لإنكاره على الغَزَالي وجه والله أعلم[١]. ثم إنَّ جالينوس إنْ صحَّ ذلك ما طلب من عيسى أن يُبرىء المريض بالبِطِّيخَة، فإنه كان أعرف من عيسى بها، وإنما طلب أنْ يُبرئه بطريق المعجزة لا بطريق الطِّبِّ، فإنَّ جالينوس يشاركه في ذلك، ثم نسب إلى أنه دعا على جالينوس حتى مات وما كان طريق عيسى هذا، لأن الله وَصَفَه بأنَّه يُحيي الموتى لا أنه يُميت الأحياء.

ومنها: إنزال المائدة قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [المائدة: ١١٢]، اختلف العلماء في تسمية أصحاب عيسى بالحَوارِيِّين على أقوال:

أحدها: أنَّهم الخواصُّ الأصفياء، والوزراء ومن يصلح للخلافة ويستعان به في النوائب، قاله الحسن البصري، ورواه العوفي عن ابن عباس قال: ومنه قوله ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوارِيٌّ وحَوَارِيَّ الزُّبَيْر»[٢].

والثاني: إنما سموا بذلك لبياض ثيابهم، وأصل الحَوَر شدة البياض، يقال: رجلٌ أحورُ وامرأةٌ حوراءُ لشدة بياض مقلة العينين، ويقال للدقيق الأبيض: حُوَّارَى، وهذا مذهب أهل اللغة، قال أبو عبيدة: فالحَوَارِيُّون هم الذين نُقُّوا من العيوب كما يُنقَّى الدَّقيق الحُوَّارَى مِن لباب البُر.

والثالث: أنهم القصَّارون كانوا يحوِّرون الثياب، أي: يقصِّرونها ويبيِّضونها، قاله الزجَّاج[٣]. ووهب قال: ومرَّ عيسى على بحيرة طبريَّة فرأى عليها قصَّارين فدعاهم إلى الله فآمنوا.

والرابع: أنهم المجاهدون. قاله مقاتل، واحتجَّ بقول القائل: [من الطويل]

وَنَحْنُ أُنَاسٌ تملأ[٤] البَيْضَ هَامُنَا ... وَنَحْنُ حَوَارِيُّونَ حِينَ نُزَاحِفُ

---

(١) من قوله: وقال المصنف رحمه الله بعد هذا . . . إلى هنا زيادة من (خ) و(ك)، وهو من دلائل الاختصار للكتاب، والله أعلم.

(٢) أخرجه «البخاري» (٧٢٦١)، و«مسلم» (٢٤١٥).

(٣) انظر «معاني القرآن» للزجاج ١/ ٤١٧.

(٤) في النسخ (على)، والمثبت من زاد المسير ١/ ٣٩٤، والبرصان والعرجان ٥١٥، والشعر لمسكين الدارمي.

جَمَاجِمُنَا يَوْمَ اللِّقَاءِ تِراسُنَا إلى المَوْتِ نَمْشِي لَيْس منا تَجَانُفُ

والخامس: أنهم الصَّيَّادون، قال السُّدي: كانوا ملَّاحين يصيدون السَّمك.

والسادس: أنهم المُلُوك، حكى هذه الأقوال ابن الأنباري.

والسابع: سُموا به لصفاء قلوبهم، قاله الضحَّاك.

وقال وهب: كانوا اثني عشر رجلاً تبعوا عيسى وآمنوا به، فأمَّا أسماؤهم: شَمْعُون، ولُوقَا، ويُوحَنَّا، ومارقس، وتوما، وبُطرُس، ويعقوبس، ويُحنِّس، وأندارييس، وقلس، وقلما، ومَتَّى، وتوماس، ورأسهم شمعون، والذين نقلوا الإنجيل منهم خمسة: شَمْعُون، وقطرس، وقيل: بُطْرُس، ويعقوبس ويُحنِّس.

واتفقوا على أنَّ عيسى بَعَث شَمْعُون إلى أَنْطَاكِيَة في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣﴾[يس: ١٣] واختلفوا في الاثنين، هل كانا من الاثني عشر، أم من غيرهم؟ وسنذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى.

وكانوا يُسَمُّون يَحْيَى بن زَكَرِيَّا المعمداني؛ لأن عيسى عمَّدهُ في الأُرْدُن عند أَرِيحا، وقيل: في بحيرة طَبَرِيَّا، وكان إذا عَطِشُوا يضرب الأرض بيده فينبُع الماء فيشربون، وإذا جاعوا ضرب بيده الأرض فيظهر لكل واحدٍ منهم رغيفان، قالوا: يا روحَ الله مَنْ أفضل مِنَّا ونحن إذا جعنا أطعمتنا وإذا عطشنا سقيتنا؟ فقال: أفضلُ منكم مَن عمل بيده وأكل من كسبه، قال ابن عباس: فصاروا قصَّارين يغسلون الثياب بالكراء.

وقال مجاهد: مرَّ بهم عيسى وهم يصيدون السَّمك من بحيرة طَبَرِيَّة، فدعاهم إلى الله وقال: تعالوا حتى نصيد البشر فاتبعوه، وقيل: إنّه كان في الأول يستطعم منهم، فكانوا يتصدَّقون عليه بسُميكةٍ سميكةٍ حتى أَنِسُوا به.

وعامة القرَّاء على تشديد الواو من «الحوَّاريين» وقرأ عاصم بتخفيفها.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢] عامة القُرَّاء على «يستطيع» وقرأ الكسائي «تستطيع» بتاء منقوطة من فوق بنقطتين، و«ربَّكَ» بالنصب(١)، واختاره أبو عبيد، وبه قرأت عائشة رضي الله عنها وابن عبَّاس

(١) كتاب «السبعة» ص ٢٤٩، و«التيسير» ص ١٠١.

وعليٌّ في آخرين[(١)]، ومعناه: هل تقدر أنْ تسأل ربَّك.

فإنْ قيل: فهذه القراءة أجودُ مِن الأولى، لأن في الأولى نوع شكٍّ واجتراء على الله تعالى، والجواب: أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يَظُنَّ في الحَوَاريِّين ذلك، وإنما معناه هل يفعل ذلك بمساءلتك إيَّاها. ذكره ابن الأَنْبَاريِّ.

قلت: وقول الله إخباراً عن عيسى ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ١١٢] يدل على عكس ما ذكره ابن الأَنْبَاري، لأن معناه: أتنسبون إلهكم إلى العَجْز، وقد قيل: إنَّما قالوا ذلك قبل أنْ يصحبوه ويشاهدوا معجزاته، فإنَّ إيمانهم لم يكمل بعد، فأمَّا في الأخير فلا.

وقال ابن عباس: معنى الآية: واتقوا الله ولا تسألوه ما لم يسأله أحدٌ مِن قبلكم.

وأمَّا المائدة: فقد قال الثعلبي: قال أهل الكوفة: إنَّما سميت مائدة لأنها تميد بالآكلين عليها.

قلت: وليس هذا القول بشيء، لأن المائدة لا تميد بنفسها وإنما يميد من عليها، وقال الجوهري: المائدة الخوان إذا كان عليه طعام، أما إذا لم يكن عليه طعام فليس بمائدة، وهو خوان[(٢)]. وعلى هذا ألفاظٌ كثيرة.

قالوا في الجواب: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾[المائدة: ١١٣] وهذا اعتذار منهم حين نهوا عنها ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾[المائدة: ١١٣] بالإيمان ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنَّك رسول الله. وقال مجاهد: وتطمئن قلوبنا بأنَّ الله قد أجاب دعاك ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لله بالقدرة ولك بالرسالة، وقال الماوردي: إنَّما قصدوا التبرك بها[(٣)].

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ الآية [المائدة: ١١٤]. والعيد من العود لأنهما يعودان في كل سنة ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي: علامة يُستدل بها على قدرتك ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ الشكر على نعمتك ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

(١) انظر «تفسير البغوي» ص ٤٠٧.
(٢) «الصحاح»: (ميد).
(٣) «تفسير الماوردي» ٢/ ٨٣.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ مجيباً لهم: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المائدة: ١١٥] وهو المسخ قردة وخنازير. قال الحسن: لما سمعوا هذا الشرط قال بعضهم: لا حاجة لنا فيها.

واختلفوا هل نزلت أم لا؟ على قولين:

أحدهما ما نزلت وإنّما هو ضَرْبُ مَثَلٍ ضربه الله لهم، لأن الله نهاهم عن سؤال الآيات لأنبيائه. قاله مجاهد.

والقول الثاني: أنَّها نزلت وعليه عامة العلماء، كعليٍّ وابن عباس وابن مسعود وأنس وأبي الدرداء وأبي هريرة وابن المسيَّب وابن جُبير والحسن وعطاء وقَتَادة والتابعين[١] وغيرهم.

وقال وهب ومَن سَمَّينا من التابعين: وقف عيسى خاشعاً خاضعاً بين يدي الله تعالى يبكي ويتضرع ويدعو، وإذا بمائدةٍ قد نزلت بين غمامتين، واحدة تحتها وأخرى فوقها فاستقرت بين يديه وعليها سفرة خضراء، والقوم ينظرون إليها وهي مغطاة بمنديل.

واختلفوا في الذي كان عليها، على أقوال:

أحدها: سمكةٌ مشوية ليس فيها شوك وحولها البقول ما خلا الكُرَّاثَ وعند ذَنَبِها سُكُرُّجَةٍ[٢] فيها خلٌّ، وعند رأسها أخرى فيها ملح وحولها خمسة أرغفة، على رغيف تمرٌ، وعلى رغيف زيتون، وعلى رغيف خمس رمَّانَات، قاله ابن عباس.

والثاني: خبز ولحم، رواه عمار بن ياسر مرفوعاً[٣].

والثالث: خبز وسمك، رواه مجاهد عن ابن عباس.

---

(١) في (خ) و(ك): والمعاملين، والمثبت أقرب للصواب، وانظر تفسير الثعلبي ٤/ ١٢٨، وعرائس المجالس ٤٠٠ـ٤٠١، وزاد المسير ٢/ ٤٥٩.

(٢) السُكُرُّجَة: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٦١) بلفظ: «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدَّخروا لغدٍ، فخافوا وادخروا ورفعوا لغدٍ فمسخوا قردة وخنازير» ثم قال: هذا حديث قد رواه أبو عاصم وغير واحد عن سعيد بن أبي عَروبه عن قتادة عن خلاس عن عمار بن ياسر موقوفاً، ... ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً.

والرابع: قَصْعَةٌ من ثريد، رواه الضحَّاك عن ابن عباس.

والخامس: كلُّ شيء إلا اللحم، قاله ابن جُبير.

والسادس: سمكة فيها طعم جميع الأطعمة، قاله عطيَّة العوفي.

والسابع: خبز وأرز وبَقْل، قاله ابن الكلبي.

والثامن: سبعة أرغفة من شعير، وسبع سمكات.

والتاسع: سمك ولحم، قاله عطاء بن السائب.

والعاشر: كان عليها ثمار من ثمار الجنَّة، وسمن وعسل، قاله عمَّار ومقاتل.

فقال عيسى: أَيّكم أوثق في نفسه فَلْيكشف هذا المنديل، فقالوا: يا روح الله، أنت أولى، فكشفها، فقال شَمْعُون رأس الحَوَارِيِّين: يا روح الله، أَمِنْ طعام الدُّنيا أمْ من طعام الجنة؟ فقال عيسى: لا مِن هذا ولا من هذا ولكن شيء قال له الله: كُنْ، فكان، فقال الحَوَارِيُّون: نريد أنْ تُرِيَنا آيةً في هذه الآية، فقال: سبحان الله، أما اكتفيتم بها؟! ثم أشار إلى السَّمكة وقال لها: عودي بإذن الله كما كُنْتِ طريَّة حَيَّةً فاضطربت على المائدة، فقال: عودي مشوية فعادت، فقال: كلوا، فقالوا: أنت أوَّل مَن يأكل، فقال: معاذ الله إنَّما يأكل منها مَن سألها، فلما رأوا امتناعه خافوا أن يكون نزولها عقوبة، فدعا عيسى الفقراء والمساكين واليتامى والزَّمْنَى، فقال: كُلوا من رزق ربّكم ودعوةِ نبيكم لتكون مهنأً لكم وعقوبة لغيركم، قال وهب: فأكل منها ألف وسبع مئة إنسانٍ صدروا عنها شِبَاعاً وهي على حالها، فصحَّ كلُّ مريضٍ واستغنى كلُّ فقير أكل منها، ثم كانت تنزل عليهم بعد ذلك فيزدحمون عليها وكانت تنزل يوماً وتغيب يوماً فنزلت أربعين يوماً.

وقال وهب: قال لهم عيسى: كلوا ولا تدَّخِروا، فادَّخَروا، فمُسِخُوا خَنَازيرَ وقِردة.

وقال ابن عباس: إنَّما مُسِخُوا لأنَّ الذين أكلوا منها لمَّا رجعوا إلى قومهم قالوا لهم: سحر عيسى أعينكم، وبلغ عيسى فدعا عليهم فمُسِخُوا وماتوا بعد ثلاث. قالوا: ولم يعش مَسْخٌ أكثر من ثلاث.

وقيل: إنَّما خبؤوا منها لأنَّهم ظنُّوا أنَّها لا تنزل بعد ذلك.

وقال قتادة: كانت تنزل متى ما أرادوا كالمنِّ والسلوى.

وقال سلمان: لمَّا خانوا مُسِخ منهم في يومٍ وليلةٍ ثلاث مئة وثلاثون رجلاً باتوا على فُرُشِهِم مع نسائهم، فأصبحوا خنازيرَ يسعون في الطُّرقات ويأكلون العَذِرَات، فمرَّ بهم عيسى فبكوا بين يديه فرقَّ لهم، وسأل الله فيهم، فقال الله تعالى: إنِّي آليت على نفسي أنَّ من كفر بعد إنزالها أنْ أُعذِّبَه عذاباً لا أُعذِّبُه أحداً من العالمين.

وقال عمَّار بن ياسر: لما خصَّ بها الفقراءَ والمساكين تكلَّم الأغنياء بالقبيح وارتابوا[1] فمُسِخُوا.

ومنها: حديث اللِّص، قال أبو نعيم بإسناده عن وهيب بن الورد قال: بلغنا أنَّ عيسى عليه السلام مَرَّ بلصٍّ في قلعة ومعه رجل من الحَوارِيِّين، فلمَّا رآهما اللِّص ألقى الله في قلبه التوبة، فقال في نفسه: هذا عيسى روح الله وكلمته، وهذا حواريه، ومَن أنت يا شقي يا لصَّ بني إسرائيل، قطعتَ الطريقَ وقتلتَ النفسَ، وأخذتَ المالَ، ثم هبطَ مِن قلعته نادماً تائباً على ما كان منه، فلمَّا لحقهما قال لنفسه: تريد أنْ تمشي معهما؟ لست أهلاً لذلك، امشِ خلفهما كما يمشي الخاطىء المذنب، فالتفت إليه الحواريُّ فعرفه، فقال في نفسه: انظروا إلى هذا الخبيثِ الشَّقِيِّ ومشيه وراءنا، فاطَّلع الله على ما في قلوبهما من توبة اللِّص وندامته وازدراء الحواريِّ به وتفضيله نفسه عليه، فأوحى الله تعالى إلى عيسى أن مُر الحواريَّ ولصَّ بني إسرائيل أن يستأنفا العمل، أمَّا اللِّصُّ فقد غفرتُ له ما مضى بندامته وتوبته، وأمَّا الحواريُّ فقد أَحبطتُ عمله لعجبه بنفسه وازدرائه لهذا التائب[2].

ومنها: قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. واختلفوا في وقت هذا القول على قولين:

أحدهما: أنَّه قال له ذلك عند رفعه إليه، قاله السُّدي وقُطْرب، قالا: لأنَّ إذ للماضي.

(١) بعدها في (خ) زيادة كلمة وهي (الورد).
(٢) «حلية الأولياء» ٨/ ١٤٧.

والثاني: أنه يقول له يوم القيامة وهو قول الباقين، وأنَّ معناه: وإذ يقول الله.

فإنْ قيل: فما الفائدة في هذا السؤال والله عالم بأنَّه ما قال؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: لأنَّ جماعة من النصارى ادَّعوا أن عيسى أمرهم بعبادته، فأراد تكذيبهم، فلفظ الآية استفهام، ومعناه التوبيخ لمن ادَّعى عليه أنه قال ذلك[١]، قال أبو عبيدة: ومثله قول القائل لآخر: فعلت كذا وكذا وقد علم أنه لم يفعله. واختاره أبو عبيدة[٢].

والثاني: أنَّه أراد اعتراف عيسى بالعبودية؛ ليظهر ذُلَّه وخضوعه، والإله لا يكون خاضعاً، قاله ابن عباس.

والثالث: أنَّه أراد إظهار فصاحة عيسى وأنه مؤيَّد بروح القدس، قاله أهل المعاني، وذلك لأنه أجاب بأحسنِ الأجوبة وأَبْلَغ، فقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ جواب، لأنَّ التسبيح هو التقديس لله والتنزيه له من كل سوى، ومعناه: تقدَّستَ وتنزَّهْتَ عنْ أن يقول مثلي هذا، فأنت المعبود وأنا العبد.

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[المائدة: ١١٦] جواب ثان، كأنه يقول: قد علمتُ أني لا ينبغي لي ذلك فما قلتُ، وقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦]، جواب ثالث، لأنه قد علم أنَّه ما قال.

وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ جواب رابع، لأنه مُطَّلع على سره وضميره وقد علم أنَّه ما قال، وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ جواب خامس، لأنه إذا كان عالماً للغيب لم يخفَ عليه شيء، وقد علم أنه ما قال.

وقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾[المائدة: ١١٧] جواب سادس، لأنه ما أمرهم أن يقولوا ذلك.

وقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة: ١١٧] جواب سابع، لأنه إذا أمرهم بعبادة الله فقد اعترف بالعبودية، والعبد لا يكون إلهاً.

---

(١) بعدها في (خ): «عند رفعه إليه».

(٢) في (خ) و(ك): أبو عبيد، وليس في (ب)، والمثبت من زاد المسير ٢/ ٤٦٣، وانظر «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ١/ ١٨٤.

وقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ جواب ثامن، لأنه لمَّا كان بينهم ما ادعوا عليه ذلك وقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: رفعتني، جواب تاسع، ومعناه: ما زلت معترفاً لك بالإلهية إلى حين وفاتي، فكيف أقول لهم هذا.

وقوله: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[المائدة: ١١٧] جواب عاشر، ومعناه: إنَّك تشهد الأشياء وتعلمها، وأنت مُطَّلع على البواطن والظواهر، والشهيد لا يستتر عنه شيء، وقد علمتَ أنِّي ما قلتُ فما قلتُ.

وقال أبو روق: لمَّا قال الله لعيسى ذلك: أرعدت مفاصله، وانفجرت مِن كلِّ شَعرة منه عينٌ من دَم[١].

وقال مجاهد: يبقى أربعين عاماً على وجهه بمنزلة الميت.

فإن قيل: فالنصارى لا تتخذ مريم إلهاً، فكيف قال: ﴿إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فالجواب: أنَّه لمَّا قالوا: لم تلد بشراً وإنما ولدت إلهاً، لزمهم ذلك من حيث البعضية، فصاروا بمثابة مَنْ قاله.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ على أقوال: بالرفع إلى السماء. والثاني: غيَّبتني. والثالث: أمتَّني عند انتهاء أجلي، فيكون بمعنى قَبَضتَني.

وقال الحسن: الوفاة في كتاب الله على ثلاثة أوجه:

وفاة الموت، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[الزمر: ٤٢] يعني: عند انقضاء آجالها.

وفاة النَّوم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾[الأنعام: ٦٠].

ووفاة الرفع، كقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾[آل عمران: ٥٥].

فإن قيل: فظاهر الآية لا يدل على الرفع، لأنَّه قال: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ قُلنا: فيه تقديم وتأخير، ومعناه: رافعك ومتوَفيك بعد ذلك لما نذكر.

ثم أدركته رِقة عليهم فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[المائدة: ١١٨] أي: تميتهم

(١) انظر «تفسير البغوي» ص ٤٠٩.

على الكفر، وإن تغفر لهم بتوبتهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ العزيز في سُلطانك الحكيم في قضائك، فلا ينبغي لأحد أن يعترض عليه. والرقيب: الحفيظ، والشهيد الشاهد.

واختلفوا في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾[المائدة: ١١٩] هل هو خاص لعيسى ابن مريم أم عام؟ على قولين:

أحدهما: أنَّه خاص له، أي: نفع عيسى صدقُه.

والثاني: أنَّه على العموم في حق كلّ صادق. وقيل: معناه ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا وصدقهم في الآخرة.

وقال قتادة: خطيبان يوم القيامة عيسى ابن مريم، والشيطان، فأما عيسى فكان صادقاً في الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه، والشيطان صدق في الآخرة حين أخبر الله عنه أنه قال: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾[1][إبراهيم: ٢٢] الآية، وكان كاذباً في الدُّنيا فما نفعه صدقه في الآخرة.

وقوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ يدل على أنّ السؤال إنَّما يكون في القيامة، لأنَّ اليوم المشار إليه ليس فيه عمل، وإنَّما فيه الجزاء والثواب.

ومنها: أنه رأى رجلاً يسرق، قال أحمد بن حنبل: حدَّثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رَأَى عيسى ابنُ مَرْيَمَ رَجلاً يَسرِقُ فقالَ لَه: أَسَرقتَ؟ قال: كلا، والله الَّذي لا إله إلَّا هو، فقال عيسى: آمنتُ بالله، وكذَّبتُ عَيني، أَوْنَفسِي». أخرجاه في «الصحيحين»[2].

فصل في رفع عيسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] الآية.

قال علماء السِّير: سبب رفع عيسى أنَّ اليهود حسدوه على مَيْل الناس إليه، وظهور

(١) تمام الآيـة هـو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[إبراهيم: ٢٢].

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨١٥٤)، والبخاري (٣٤٤٤)، ومسلم (٢٣٦٨).

دينه ومعجزاته فتآمروا على قتله.

قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي: علم وعرف، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾[الأنبياء: ١٢]. فأمَّا قوله: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾[مريم: ٩٨] أي: ترى، وقال مقاتل: رأى أمارات القَتْل، ولمَّا تيقن عيسى منهم القَتْلَ استنفر الحواريِّين فقال: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[آل عمران: ٥٢] أي: مَن أعواني.

وقال علماء السِّير: لمَّا بعث الله عيسى إلى بني إسرائيل كذبوه، فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض، فنزلا على رجل في قرية فأكرمهما، وكان بالقرية جبَّارٌ، فجاء ذلك الرَّجل إلى امرأته حزيناً مهتماً، فقال لها: لا تسأليني، فقالت مريم: أخبرني لعلَّ الله أنْ يُفرِّج عنك على يدي فقال: إنَّ هذا الجبَّار قد جعل على كل واحد منَّا في السَّنة يوماً يُطعمه وجنوده فيه ويسقيهم الخمر، فإن لم يفعل عاقبه، واليوم يأتينا وليس عندنا شيء، فقالت مريم لعيسى: ادعُ الله لهم، فقال: أخافُ أنْ يَقَع شرٌّ، فقالت: قد أحسن إلينا وأكرمنا فقال: قولوا له يملأ قدوره، وخوابيه ماءً، ففعل، فسأل عيسى ربَّه فملأ القدور لحماً والخوابي خمراً لم ير الناس مثله، وجاء الملِكُ فأكل وشرب وقال: من أين لكم هذا الخمر، فقال الرجل: منْ أرض كذا، قال: فإنَّ الخمر يُحمل إلينا منها وليست كذا واختلف كلامه، فقال: اصدقني وإلا قتلتك، فقال: عندي غلام لا يسأل الله شيئاً إلا آتاه إيَّاه، وإنه دعا الله فجعل الماء خمراً. وكان للمَلِك ابناً يريد أنْ يستخلفه فمات قبل ذلك بأيَّام، وكان أعزَّ الخلق عليه، فقال: قل له يسألِ الله في ابني ليعيش فكلَّم الرجل عيسى، فقال: إنْ عاش وقع شرٌّ، فقال الملك: لا أُبالي بعد أن أراه، فقال عيسى: إنْ أَحييته تَدَعوني وأمي نذهب أين شئنا، قال: نعم، فسأل الله فأحياه، فلبس أهل المملكة السلاح وقالوا: أَكَلَنا أبوه حتى إذا دنا موته وأراحنا الله منه، يريد أنْ يستخلف علينا مثله فيأْكُلُنا كما أَكَلَنا أبوه، واقتتلوا[1].

وذهب عيسى وأمه فمرُّوا بالحَوَارِيِّين وهم يصيدون السمك، فقال: ما تصنعون،

(١) عرائس المجالس ٣٩١-٣٩٢.

قالوا: نصيد، فقال: ألا تمشون معي حتى نصيد بني آدم، فقالوا: مَن أنت، قال: عيسى ابن مريم، فآمنوا به وانطلقوا معه، فلمَّا رأت اليهود ما يبدو منه من المعجزات والآيات نسبوه إلى السحر والنارَنْجِيّات[1] فنهوه عن ذلك، ونهوا الناس عنه فلم ينتهوا، فعزموا على قتله، فاستنفر عليهم الحواريين فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قالوا: نحن أنصار الله، أي: أعوان دينه ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ﴾ علينا يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وقصد اليهود قتله وطلبوه أشد الطلب وأخبروا المَلِكَ وكان يهودياً، فركب بنفسه ومعه اليهود، فدخل عيسى خَوْخَة، ووقف الملك على بابها، فقال رجل: أنا أدخل خلفه فدخل فألقى الله عليه شبه عيسى ورفع الله إليه عيسى مِن الكُوَّة التي في الخَوْخَة، وخرج الرَّجل إلى أصحابه فقال: ليس في الخَوْخَة أَحَدٌ، فقالوا: بلى، أنت هو، فقتلوه وصلبوه، قال ابن عباس فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] فمكر الله إلقاؤه على الرجل شبه عيسى، ومكرهم طلبهم لعيسى.

فإن قيل: فالمكر لُطف الحيلة والتدبير، وهو من الله ممتنع، فالجواب: إنه من الله المُجازَاة واستدراج العبد ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: المُجازِين، وقال ثعلب: المَكْرُ مِنَ الخَلْق الخِدَاعُ والفساد والاحتيال، ومِنَ الله المُجازَاةُ على الأعمال.

وقال وهب: نصبوا لعيسى خشبة ليصلبوه عليها فأظلمت الدنيا وأرسل الله الملائكة فحالت بينهم وبينه، وهناك رجل يقال له: يهوذا، وهو الذي دلَّهم عليه فصلبوه.

قلت: وقد عاب أبو العلاء المَعَرِّي على النصارى تخلِّيهم عن المسيح حتى صُلب، وبيَّن فساد اعتقادهم.

قرأتُ على شيخنا تاج الدين الكندي قال: حدثنا أبو منصور بن الجَواليقي، قال: حدثنا أبو زكريا التِّبريزي قال: قرأت على أبي العلاء المعري[2] من شعره من قصيدة:

---

(١) النِّيْرَجُ: أُخَذٌ كالسحر، وليس به، أي: ليس بحقيقته وإنما هو تشبيه وتلبيس وهي النِّيرَنْجِيَّات، انظر تاج العروس.

(٢) في (خ) و(ك): أبي المعرّا (كذا؟)، والقصيدة في «لزوم ما لا يلزم» لأبي العلاء المعري ٣/ ١٦٧٣.

عَجَباً لِلْمَسيحِ بَيْنَ أُناسٍ وإلى غَيْرِ والِدٍ نَسَبُوهُ
أَسْلَمَتْهُ إلى اليَهُودِ النَّصارَى[1] وأَقَرُّوا بأَنَّهم صَلَبُوهُ
يُشْفِقُ الحَازِمُ اللّبيبُ على الطِّفْـ ـلِ إذا ما لِدَاتُهُ ضَرَبُوهُ
وإذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ فِي عِيْـ ـسَى صَحيْحاً فَأَيْن كَان أَبُوهُ
كَيْف خَلَّى وَلِيْدَهُ لِلأَعَادِي أَمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُم غَلَبُوهُ

وقال مقاتل بن حيان: جمع عيسى الحَوَارِيِّين في تلك الليلة وأوصاهم وقال: لَيَكْفُرنَّ بي واحد منكم ويبيعني بدراهم، ثم تفرَّقوا ودخل خَوْخَةً، وجاءت اليهود تطلبه فدلهم عليه بعض مَنْ كان معه وأعطوه ثلاثين درهماً، فألقى الله عليه شبه عيسى فَصَلَبُوه.

وقال مجاهد: دخل عيسى الخَوْخَةَ ومعه سبعة عشرة مِن الحَوَارِيِّين، فأحاط اليهود بهم، فقال عيسى: من يَبيعُ منكم نفسه بالجنَّة؟ قالوا: وكيف؟ قال: يُلقي عليه شبهي فيُصْلَبُ فيكون رفيقي في الجنَّة، فقال شاب منهم: أنا فأَلْقى الله عليه شبهه فَقُتِل ورُفِع عيسى.

وقد اختلفوا في اسم المَصْلُوب الذي دلَّ عليه شَبَهُهُ، على أقوال:

أحدها: يهوذا من اليهود.

والثاني: من الحَوَارِيِّين، واسمه نودس.

والثالث: سورجس، وقيل: جرجس، وكان قد آمن بعيسى، ويقال له: ابن العجوز، وقيل: إنَّه ندم على ما فعل فخنق نفسه، والأصح أنَّه صُلب.

وقال ابن عباس: رفع إلى السماء لثلاث ساعات مضين من الليل، وقيل: من النهار، وكُسيَ الرِّيش ونزعت منه لذة المطعم والمشرب، فصار إنسياً مَلَكياً سماوياً أرضياً.

وقال مقاتل: لا خلاف بين النَّصارى واليهود أن عيسى صُلِبَ، وأنه لما رُفِعَ لِيُصْلَبَ

(١) في (خ) و(ك): «أسلمته اليهود إلى النصارى»، والمثبت من (ب).

طُعِنَ برمح فصاح، وقال: يا أبي الذي في السَّماء إنْ قدرت أنْ تصرف عني هذا الكأس فافعل، ومعنى أبي، أي: رَبِّي، وقد تكررت منه هذه اللفظة، فإنه قال للحَوَارِيِّين: إذا سألتم الله فقولوا: يا أبانا الذي في السَّماء افعل كذا، ولا خلاف بين المسلمين: أنَّ المصْلُوب غير عيسى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال ابن أبي نَجِيح: جاءت مريم بعد أيام إلى الخشبة ومعها امرأة كان عيسى دعا لولدها فَشُفِيَ من المرض، فوقَفَتا تبكيان، فجاءهما عيسى فقال: ما لكما تبكيان؟ فقالتا: عليك، فقال: إنَّ الله رفعني إليه ولم يُصبني إلا خير(١)، وإنَّ هذا شيء شُبِّهَ لهم.

وقال كعب: وجدتُ في بعض الكتب: أنَّ الله تعالى قال بعد سبعة أيام: يا عيسى انزل إلى مريم المَجْدَلانيّة ـ نسبها إلى قرية بالجبل يقال لها: المجدل ـ فإنّه لم يبك عليك أحدٌ بكاءها، ولم يحزن عليك حزنها، ثم اجمع الحواريين وبُثَّهُم في الأرض دعاة إليَّ، فنزل على جبلٍ ببيت المقدس فاشتعل نوراً، وجَمَع الحَوَارِيِّين وبَثَّهم في الأرض، ثم رفعه الله إليه، وتلك اللَّيلة التي تدخن فيها النَّصارى(٢). فلمَّا أصبح الحَوَارِيُّون تحدث كل واحدٍ بلغة من أُرسل إليهم.

واختلفوا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران: ٥٥] على أقوال:

أحدها: إني قابضك ورافعك إليَّ من غير موت. قاله الحسن البصري، قال: ودليله قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾[المائدة: ١١٧] أي: رَفَعْتَني وأنا حيٌّ وافياً لم ينالوا مني شيئاً.

والثاني: أنَّ معناه: إني مُنيمك من النوم، من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾[الأنعام: ٦٠] لأنَّ النَّوم أخو الموت. قاله الربيع بن أنس.

والثالث: إنِّي حميتك من الموت. قال ابن عباس: توفاه ثلاث ساعات من نهارٍ، ثم أحياه ورفعه إليه.

---

(١) في النسخ: يصيبني إلا خيراً؟ والمثبت من عرائس المجالس ٤٠٤.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤٠٥، وفيه أن اسم القرية مجدلان. وانظر «تاريخ الطبري» ١/ ٦٠٢ـ٦٠٣.

والرابع: أنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً، ومعناه: إنِّي رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السَّماء، قاله مقاتل.

والخامس: إنِّي مُتَوفِّيك عن حظوظ نفسك وشهواتك، قاله أبو بكر الورَّاق، وهو قولٌ حسن؛ لأنَّ عيسى كان في الدُّنيا بهذه المثابة، وفي الآخرة رفعت عنه لذة المَطْعَم والمَشْرَب فصار كالملائكة.

وقال ابن أبي نَجِيح: كان عيسى على طور زيتا[1] جبل ببيت المَقْدِس وعليه مِدْرَعَة شَعْر، فهبت ريح فهرول، فرفعه الله إليه.

ذِكرُ نُزول عيسى عليه السلام

قد اختلفت الروايات في ذلك.

حدثنا جدي رحمه الله، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن عبد الواحد الدينوري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الأَنْبياءُ إخوةٌ لِعَلَّات، أُمَّهاتُهم شَتَّى ودينهم واحد، وأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بعيسى ابن مريم، لأَنَّه لَيْس بَيْني وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ». أخرجاه في «الصحيحين»[2].

وفي لفظ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بابنِ مَرْيَمَ في الدُّنيا والآخرة، ولَيْس بَيْنِي وَبَيْنَه نَبِيٌّ، الأَنبياء إخوةٌ أَبْنَاءُ عَلَّات، أو أَوْلاد عَلَّات»[3].

وأخرج أحمد في «المسند» بمعناه قال: «وإنَّه نَازِلٌ على أُمَّتي وخَلِيفَتي فيهم، فإذا رَأَيْتُمُوهُ فاعرِفُوهُ، فإنَّه رَجلٌ مَرْبُوع الخَلْق إلى الحُمْرة والبَيَاض، سَبْطُ الشَّعْر، كأن شَعْرَهُ يَقْطُر وإنْ لَم يُصِبْهُ بَلَلٌ» - وفي رواية: «كَأَنَّه خرج من دِيْمَاس»[4] - بين مُمَصَّرَيْن[5] يَدُقُّ الصَّلِيب، ويَقْتُلُ الخِنْزير، ويُفِيضُ المَالَ، وليَسْلُكَنَّ الرَّوْحَاء حاجّاً أو معتمراً، أو لَيُثْنِيَنَّهُما جمِيْعَاً، ويُقَاتِلُ النَّاسَ على الإسْلام حتى يُهْلِكَ اللهُ في زَمَانِهِ المِلَل

---

(١) في (ب): طور سيناء.
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٥).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٣).
(٤) أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨).
(٥) في (ب): ممصرتين.

كُلَّها، ويُهْلِكَ مَسِيحَ الضَّلالَةِ الدَّجَّال الكَذَّاب، ويقع في الأَرْضِ منه الأَمَنَةُ، حتى تَرْتَعَ الأُسُودُ مَع الإِبِلِ، والنُّمورُ مع البَقَرِ، والذِّئَابُ مَع الغَنَم، وتَلْعَبَ الغِلْمَانُ بالحيَّاتِ، لا يَضُرُّ بعضهم بعضاً، ويَلْبَث في الأَرْضِ أربعينَ سَنَةً ـ وفي رواية: «أربعاً وعشرين حجَّةً» ـ ثُمَّ يَتَزَوَّج ويُولَدُ له، ثُمَّ يُتَوَفَّى ويُصلِّي عَلَيه المُسْلِمُون»[1].

وفي رواية: «ويَدْفِنُونه في مَسْجِدي أو حُجْرَتي».

الكلام على الحديث قوله: «رَجُلٌ مَرْبُوع الخَلْقِ إلى الحُمْرَةِ والبَيَاضِ» كذا وقع في هذا الحديث، وقد روينا عن ابن عمر في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «آدم»[2] يعني أسمر، وقوله: بين مُمَصَّرَيْن، أي: ثوبين فيهما صُفْرةٌ خفيفة، و«الرَّوْحَاء»: منزل بين مكَّة والمدينة، و«الدِّيْمَاس»: الحَمَّام.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والَّذي نَفْسِي بِيَدِه لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيْكُم ابنُ مَرْيَمَ حَكَماً مُقْسِطاً، فَيَكْسِرُ الصَّلِيْبَ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيْرَ، ويَضَعُ الجِزْيَةَ، ويفيض المالُ حتى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، وتَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا ومَا فِيْهَا». ثم يقول أبو هريرة: اقْرَؤُا إنْ شِئْتُم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[النساء: ١٥٩]. أخرجاه في «الصحيحين»[3]، وهو حديث طويل.

وفيه: «كَيْفَ أَنْتُم إذا نَزَلَ عِيْسَى ابن مَرْيَم فِيْكُم فَأَمَّكُم مِنْكُم»[4] قال ابن أبي ذئب: قُلْتُ للزُهْرِيّ: ما معنى «فَأَمَّكم مِنْكُم» قال: أَمَّكُم بكتاب الله وسنة نبيكم.

وفيه: «وإمَامُكُم مِنْكُم»[5] وهذا ظاهر.

«ولَتُتْرَكَنَّ القِلاص فلا يُسعى عليها، ولَتَذهَبَنَّ الشَّحناء والتَّبَاغُضُ والتَّحاسُدُ»[6] والقَلُوصُ من النُّوقِ: الشابة بمنزلة الجارية من النِّساء، وكذا القَلُوص من الإبل بمنزلة الشاب.

---

(١) مسند أحمد (٧٢٦٩) و(٧٢٧٣) و(٩٢٧٠) و(٩٦٣٢)، وانظر عرائس المجالس ٣/ ٨٢.
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٠)، ومسلم (١٦٩).
(٣) «مسند أحمد» (١٠٩٤٤)، والبخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥).
(٤) أخرجه مسلم (١٥٥) (٢٤٦).
(٥) أخرجه البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥) (٢٤٤).
(٦) أخرجه مسلم (١٥٥) (٢٤٣).

ولمسلم عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لاتَزَالُ طَائفَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتلون على الحَقِّ ظَاهِرينَ إلى يَومِ القِيامَة، فَينزِلُ عيسى ابن مَرْيَم فيقول أميرهم: صلِّ لَنَا. فيقول: لا، إنَّ بَعْضَكُم على بَعْضٍ أُمَراء، تَكْرِمَةً لهذه الأُمَّة»[١].

وقال جدي رحمه الله[٢]: إذا نزل عيسى ابن مريم اجتمع بصاحب الزمان، فيحضر وقت الصلاة فيقول صاحب الزمان لعيسى: تقدَّم، فيقول له عيسى: أنت أولى، فيتقدم صاحب الزمان، فلو تقدم عليه عيسى لكان ناسخاً لشرعنا، وقد قال نبينا ﷺ: «لَوْ كَانَ عِيْسَى ومُوسَى حَيَّيْن لَمَا وَسِعَهُمَا إلَّا اتباعي»[٣]. فامتناع عيسى لئلا يتدنس وجه: «لا نَبِيَّ بَعْدِي»[٤] بغبار الشبهة، وهذا معنى حديث جابر، وقوله: «تكرمةً لهذه الأمة»، والدليل على أنَّ التَّبَعِيَّة قائمة، فإنه ينكح على ما في الحديث ويولد له، لأنه ضيف والضيف يتبع أوامر المُضيف «تناكحوا تناسلوا»[٥] الحديث.

وقد أخرج مسلم حديثاً طويلاً في أمارات الساعة والدجَّال عن النوَّاسِ بن سَمْعَان عن رسول الله ﷺ: «فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ عيسى ابنَ مَرْيَم، فَيَنْزِلُ عند المَنارةِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بين مَهْرُودَتَيْن، واضِعَاً كَفَّيهِ على أَجْنِحَةِ مَلَكَيْن، إذا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمانٌ كَاللّؤْلُؤ، فلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِد رِيْحَ نَفَسِهِ إلَّا مَاتَ، ونَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُه حتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقتُلُه، ثُمَّ يَأْتي عِيسى بنَ مَرْيَم قومٌ قد عَصَمَهُم الله منه، فَيمسَحُ عن وجُوهِهِمْ ويحدِّثُهُم بِدَرَجاتِهِم في الجَنَّة، فَبَيْنَما هُم كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى الله إلى عيسى: إنِّي قد أَخرَجتُ عِباداً لِي، لا يدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهم فَحَرِّزْ عِبَادي إلى الطُّورِ، ويَبْعَثُ الله يَأْجُوجَ ومَأْجُوج». الحديث[٦].

---

(١) أخرجه «مسلم» (١٥٦)

(٢) في (ب): قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٦٣١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة. رضي الله عنه

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠٣٩١) من حديث سعيد بن أبي هلال مرسلاً ولفظه: «تناكحوا تكثروا، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة» وأخرج ابن ماجة (١٨٦٣) من حديث أبي هريرة مرفوعاً «انكحوا فإني مكاثر بكم»، وهذا الحديث مما اشتهر على الألسنة، انظر كشف الخفاء ١/ ٣٨٠.

(٦) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

«المَهرودَتَيْن» المصبوغتين بالصُّفْرَةِ، وفيها لغتان: بالدَّال المُهْمَلة والمعجمة. وإنَّما يَمْسَح وجوهَهُم عيسى لِما لاقوا من الدجَّال، و«حَرِّز» أي: ضمَّهم، هذا قدر ما أخرج في «الصحيح».

وقد رُوي أنَّ عيسى يقتل الدجَّال على عقبة أفيق[1].

وفي رِوَاية أوس بن أوس الثقفي: أنَّه ينزل عِنْد القَنْطَرة البَيْضَاء شَرْقِيَّ دِمَشقَ في غمامة، وعليه رِيْطَتَان مُؤْتَزِر بإحدَاهُما مُرْتَد بالأُخْرَى، ويَأْتي مَسجِدَ دِمَشق فَيَقْعُد على المِنبَر ويدخل اليهود والنصارى والمسلمون إلى المَسجِد وكُلُّهُم يرجوه»[2].

وقال ابن عباس: يَقْتُلُ عيسى الدَّجَّالَ على ذُرْوَة أَفيق[3].

وأخرج أحمد طرفاً منه فقال: حدثنا يزيد بن هارون بإسناده عن عثمان بن أبي العاص الثقفي قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «يكُون للمُسلِمين ثَلاثَةُ أَمْصَارٍ، مِصرٌ بمُلتَقَى البَحرين، ومِصرٌ بالحِيرة، ومِصرٌ بالشَّام، فَيَفزَعُ النَّاسُ ثلاثَ فَزعاتٍ، فَيَخرُجُ الدَّجال في أَعْراضِ النَّاسِ، وأَكْثَرُ تَبعه اليَهُودُ والنِّساءُ». وفي رواية: «يَتْبَعه سَبْعُونَ أَلفاً مِن يَهُود أَصْبَهَان[4] ويَشْتَدُّ على النَّاسِ أَمْرُهُ، ويُصِيبُهُم مَجاعة[5] شَديدَة، فَيُنادِيْهم مُنادٍ في السَّحر: أَيُّها النَّاسُ، أَتَاكُم الغَوْثُ ثَلاثاً، ويَنزِلُ عيسى ابنُ مَرْيَمَ عندَ صَلاةِ الفَجر، فيقولُ له أَمِيرُهُم: يا رُوحَ الله تَقَدَّمْ صلِّ، فيقولُ: هذه الأُمَّةُ أُمراءُ بعضهم على بَعْضٍ، فَيتقدمهم أميرهم فَيُصَلِّي، فإذا قَضَى صَلاتَهُ أَخَذَ عِيسى حَرْبَتَهُ، فَيَذهَبُ نحوَ الدَّجال، فإذا رآهُ الدَّجال، ذابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ، فَيَضَعُ حَرْبَتَهُ في تَنْدُوَتِه، فَيَقْتُلُه ويَنْهَزِمُ أَصْحَابُه، فَلَيْسَ يَوْمَئِذٍ شَيءٌ يُواري مِنْهُم أحداً، حتى إنَّ الشَّجَرَةَ لَتَقُولُ: يا مُؤمِنُ، هَذا كَافِر، ويَقُولُ الحَجَر: يا مُؤْمِنُ، هذا كافر.

وقيل: يقتله بباب لُدٍّ[6]، والمشهور على عقبة أَفِيق.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٩٢٩) من حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١/ ٢٢٧.

(٣) تاريخ دمشق ٥٧/ ٢١٨.

(٤) أخرجها مسلم (٢٩٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) في (خ) و(ك): مجاهدة، والمثبت من (ب)، وهو موافق لما في مسند أحمد (١٧٩٠٠).

(٦) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

وقد أخرج أحمد بمعناه بإسناده عن جابر بن عبد الله وذكر حديثاً طويلاً في الدجَّال، وفيه: «ومَعَه جِبَالٌ مِن خُبْزٍ وَنَهْرَانِ وشَيَاطِيْن تُكَلِّمُ النَّاسَ، ويَأْمُرُ السَّماءَ فَتُمْطِرُ، ويَقْتُلُ نَفْساً ثم يُحْيِيها، لا يُسلَّط على غَيْرِها مِنَ النَّاسِ، وَقَد حَرَّمَ الله عليه مَكَّةَ والمَدِينَة، فالملائكة قائمةٌ على أَبْوَابِها، ويفرُّ المسلمونَ منه إلى جبلِ الدُّخَان بالشَّام، فَيأتيهم فَيَحْصُرُهُم فيه، وَيَشْتَدُّ حِصَارُهم، فَيَنْزِلُ عيسى فَيُنَادِي وَقتَ السَّحَر، أَيُّها النَّاسُ مَا يَمْنَعُكُم أَنْ تَخْرُجُوا إلى الكَذَّابِ الخَبِيْثِ، فَيَنْطَلِقُونَ معهُ ويقولُون: هذا رجل جِنِّيٌّ، فتُقام الصَّلاةُ، فيقال لعيسى: تَقَدَّم يا رُوحَ اللهِ، فيقول: لِيَتَقَدَّم إمَامُكُم فَلْيُصَلِّ بكم. فإذا صَلَّوا صَلاةَ الصُّبحِ، خَرَجُوا إليه، فحين يَرَاهُ الكَذَّابُ يَنْمَاثُ كما يَنْمَاثُ المِلْحُ في الماء، فَيَمْشِي إليه فَيَقْتُلُه، حتى إنَّ الشَّجرَةَ والحَجَرَ لَيُنَادِي: يَا رُوحَ الله، هذا يَهُودِيٌّ، فلا يَتْرُكُ أَحَداً ممن كَان يَتْبَعُهُ إلا قَتَلَهُ»[١].

وقيل للحُسين بن الفضل البَجَلِيِّ: هل تجد نزول عيسى في القرآن؟ قال: نعم، في قوله تعالى: ﴿وَكَهْلًا﴾[آل عمران:٤٦] وهو لم يكتهل في الدُّنيا، فصار معناه: وكهلاً بعد نزوله.

وأنبأنا غير واحد، حدثنا يوسف بن محمد بن محمد بن عمر الأرموي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ تَهْلكُ أُمَّةٌ أَنَا في أَوَّلِهَا، والمَهْدِيُّ مِن أَهْلِ بَيْتِي في أَوْسَطِها، وعيسى في آخِرِها»[٢].

وقد روى الشافعي عن محمد بن خالد[٣] الجَنَدي عن أبان بن صالح عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَزْدَادُ الأَمْرُ إلَّا شِدَّةً، ولا الدُّنيا إلَّا إدْباراً، ولا النَّاسُ إلا شُحّاً، ولا تَقُوم السَّاعةُ إلَّا على شِرَار الناس، ولا مَهْدِيَّ إلا عيسى ابن مريم»[٤]. إلا أنه حديث لا يصح، قال البيهقي: لم يروه عن الشافعي غير يونس بن عبد

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٩٥٤).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٥/ ٣٩٥.

(٣) في (خ) و(ك): مخلد، وهو خطأ، وليس في (ب)، بل فيها: وروي عن الشافعي، وسيرد على الصواب.

(٤) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٠٣٩)، والحاكم في «مستدركه» (٨٣٦٣)، والبيهقي في «المعرفة (٢٠٨٢٧)، وبيان من أخطأ على الشافعي ص ٢٩٦.

الأعلى[١]. ولما سئل الشافعي عنه قال: كذب علي يونس، ما حدثته به، ولا حدثني به أحد. ومحمد بن خالد الجندي مجهول. وقال البيهقي: إنما أنكروه لأن الأحاديث في خروج المَهْدي من ولد نبينا ﷺ مشهورة، فلا يعارضها هذا الحديث الواهي.

وقد رُويَ أن عيسى يُدفن مع نبينا ﷺ في الحجرة، وقد ذكرناه في الحديث الذي في أول الفصل، وهو قوله عليه السلام: «ويُدفن في مسجدي أو حجرتي».

وفي حديث عروة عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، أَتأْذَنُ لِي إذَا مِتُّ بَعْدَكَ أَنْ أُدْفَنَ إلى جَانِبِكَ، فقال: «ما بقي في الحُجْرَة إلا مَوْضِعُ قَبْرِ عيسى»[٢].

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام قال: نَظَرْتُ في التَّوراة صِفَةَ رَسُولِ الله ﷺ وعيسى ابن مريم، وأَنَّه يُدفن معه[٣].

والجواب أنَّه ليس في هذه الأخبار ما يصح، أما الحديث الأول فالصحيح من الرواية «ويُدفَنُ في مسجِدِي»، وأما حديث عائشة، فقد ضعَّفه الحفاظ، وقالوا: لا يصح عن عائشة، وأما حديث ابن سلام، ففي إسناده أبو مَوْدُود المَدَنيّ. قال البخاري: وهذا لا يصح عندي ولا يتابع عليه[٤].

وقال ابن عباس: يدفن عيسى عند باب حجرة النبي ﷺ، وهو الأصح لوجوه:

أحدها: تأدباً مع رسول الله ﷺ.

والثاني: ليكون موافقاً لقوله عليه السلام: «ويدفن في مسجدي».

والثالث: لأنه حاجبٌ، لقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. والحاجب ينبغي أن يكون قريباً من المحجوب لا أن يكون معه.

---

(١) انظر تاريخ دمشق ٥٧/ ٢٢٨ـ٢٣١، وانظر «تهذيب الكمال» ٢٥/ ١٤٩.

(٢) أخرجه ابن عساكر ٥٧/ ٢٣٤ من طريق طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبي بكر، عن عائشة. قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٥٢٧: لا يصح إسناده.

(٣) سنن «الترمذي» (٣٦١٧).

(٤) «التاريخ الكبير» ١/ ٢٦٣، وتاريخ دمشق ٥٧/ ٢٣٥.

فصل في وفاة مريم عليها السلام

واختلفوا فيه على قولين:

أحدهما: أنها توفيت بعده، فقال السُّدي عن أشياخه: توفيت بعده بست سنين. وكذا قال ابن عباس وغيره.

والثاني: أنها توفيت قبله، فرُويَ أن عيسى كان لا يأكل إلا من غزلها إذا لم يكن زمان اللّقاط، وكانا يصومان الدهر، فجاء ليلةً عند الإفطار وهي نائمة قد ماتت، فناداها: يا أُماه، قد أفطر الصائمون، أما آن لك أن تفطري، فأوحى الله إليه أنها قد توفيت، فسَلْها تجيبك، فقال: يا أماه، فقالت: لبيك يا بني، فقال: كيف وجدت الموت؟ فقالت: يابني، والله لو وقعت عليَّ جبال الدنيا لكان أهون عليَّ من الموت. والقول الأول أشهر.

وكان سنها يوم ماتت نيفاً وخمسين سنة[1]، وقيل أقلُّ من ذاك.

وقال السُّدي: حملت به وهي بنت ثلاث عشرة سنة، ورفع وهو ابن ثلاثين، وعاشت بعده ست سنين[2]. ومن قال: حملت به وهي بنت خمس عشرة[3] سنة قارب الحساب[4]. ودفنت بالجسمانية[5] شرقي بيت المقدس عند قبر داوود عليه السلام.

وقال علماء السير: ولما رفع عيسى انقطع الوحي بعده ووقعت الفترة حتى بعث نبينا ﷺ.

وقال وهب: كان بين عيسى ونبينا ﷺ أربعةٌ من الأنبياء، ثلاثة منهم ذكروا في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[يس: ١٤]. والرابع: خالد بن سنان العبسي[6]. وسنشير إليهم في الفترة إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر تاريخ دمشق ٣٨٧ (تراجم النساء)، و«المنتظم» ٢/ ٤١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤٠٦.

(٣) في (خ): «ثلاث عشرة».

(٤) انظر «التبصرة» ١/ ٣٥٤.

(٥) يعني: كنيسة الجسمانية ببيت لحم. انظر ما تقدم في الصفحة ١٨٠ و٢٤٤.

(٦) انظر «المنتظم» ٢/ ٣٨.

فصل

فإن قيل: فكم كانت معجزاته؟ فالجواب: كثيرة، منها: ولادته من غير أب، وتعليمه الكتاب والحكمة، والنطق في المهد، ورفعه إلى السماء، وغير ذلك مما ذكرناه[١].

فإن قيل: فلِمَ رفعه إلى السماء؟ فلوجوه:

لتصحبه الملائكة فتصل بركته إليهم كما وصلت إلى أهل الأرض.

والثاني: لأنه ضمن له النجاة من أعدائه[٢] لما ضاقت به الأرض.

والثالث: لقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران: ٥٥] قال محمد بن إسحاق: أماته سبع ساعات ثم أحياه ثم رفعه[٣]. وقد بيناه.

فإن قيل: فلِمَ لم يردَّه إلى الأرض؟ فالجواب: ليكون علماً للساعة، وليُؤمن به الكفار لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[النساء: ١٥٩].

فإن قيل: فقد ذكرتم أنه كان زاهداً، فكيف قال: ﴿وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾[مريم: ٣١]؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أوصاني بالزكاة على شرط وجود المال[٤]. والثاني: أنَّ الزكاة ها هنا: الإسلام. والثالث: الطهارة[٥]، لأن الزكاة طهارة. والرابع: الثناء على الله.

ومذهب[٦] النصارى: أنَّ من هبوط آدم إلى رفع عيسى، خمسة آلاف سنة وخمس مئة واثنان وثلاثون سنة[٧].

---

(١) في واقعات عيسى وهي كثيرة.
(٢) في (ك) و(خ): لوجوه . . . النجاة لأعدائه، وليس في (ب)، والمثبت أقرب للصواب.
(٣) انظر «تفسير البغوي» ص ٢١١.
(٤) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٠٢.
(٥) انظر «زاد المسير» ٥/ ٢٢٩.
(٦) في (ب): فصل ومذهب.
(٧) انظر «المنتظم» ٢/ ٣٨.

فصل

في عدد الأنبياء والمرسلين، وذكر ما بينهم من السنين[١]

حدثنا عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد الطُّوسي بإسناده عن ابن المسيب عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبيَاءُ؟ قال: «مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعِشرُونَ ألفاً» قال: قلت: كم الرُّسُلُ منهم؟ قال: «ثلاثُ مئةٍ وثَلاثَةَ عَشرَ جَمَّاً غفِيراً» قلت: من كان أولهم؟ قال: «آدمُ نبيٌّ مُرسَلٌ، خَلَقَهُ اللهُ بِيده، ونَفَخَ فيهِ من رُوحِهِ، وسَواهُ قُبُلاً. ثُم قال: أربعةٌ مِنهم سُريَانِيونَ آدمُ، وشيثُ، وخَنُوخُ، وهو: إدريسُ، ونُوحٌ. وأربعةٌ من العربِ: هودٌ، وصالحٌ، وشعيبٌ ونَبِيُّكَ، وأولُ الأنبياءِ من بَني إسرائِيلَ: مُوسى وآخِرُهم: عيسى». قال: فقلت: فكم أَنزَلَ الله مِنَ الكُتُبِ؟ فقال: «مئةٌ وأربَعة كُتُبٍ»[٢].

وقوله: «قُبُلاً» أي: عياناً. ومنه: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾[الكهف: ٥٥]، وقوله: «أول أنبياء بني إسرائيل موسى» أي: بعد يعقوب ويوسف.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: المرسلون ثلاث مئة وخمسة عشر أو ستة عشر على عدة قوم طالوت.

وروى عنه عكرمة أنه قال: بعث الله من بني إسرائيل أربعة آلاف نبي. قال: وكل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: إدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ولوط، وشعيب، ومحمد ﷺ، وقال: ليس من نبي له اسمان إلا يعقوب وهو إسرائيل، وعيسى وهو المسيح[٣].

فصل في مقدار ما بينهم من السنين

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه كان بين نوح وآدم ألفا سنة ومئتا سنة وثمانٍ وعشرون سنة، قاله ابن عباس في رواية مجاهد، وذكره جدي في «التلقيح»[٤].

---

(١) في (ب): الباب الثلاثون في عدد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين وذكر ما بينهم من السنين.

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١)، وابن الجوزي في «المنتظم» ٢/ ١٤٢، وإسناده ضعيف جداً.

(٣) انظر «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٤.

(٤) تلقيح فهوم أهل الأثر ص٥.

وفي رواية عكرمة: مئتي سنة لا غير. وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس: أنَّ بين آدم ونوح ألف سنة عشرة قرون. قال: وكلهم كانوا على الإسلام[(١)].

وبين نوح وإبراهيم ألف ومئة وثلاث وأربعون سنة. ذكره جدي في «التلقيح»[(٢)]، وقد اختلفوا فيه: فروى الوالبي عن ابن عباس قال: بين نوح وإبراهيم ألف ومئة سنة: أحد عشر قرناً.

قال في «التلقيح»: ومن إبراهيم إلى موسى خمس مئة وخمس وسبعون سنة. وروي عن ابن عباس: أنَّ بينهما ست مئة سنة.

قال: ومن موسى إلى داود خمس مئة وتسع وسبعون سنة. وروي عن ابن عباس: أن بينهما ست مئة سنة. وقيل: خمس وخمسون.

ومن داود إلى عيسى ألفُ سنة وثلاث وخمسون سنة. وقال غيره ألف وثلاث مئة وخمسون سنة.

ومن عيسى إلى محمد ست مئة سنة.

وهذه الرواية بالاتفاق ما بين عيسى ومحمد ﷺ، ولهم فيما عدا ذلك اختلاف كثير اقتصرنا على الأصول.

وحكى في «التلقيح» عن ابن أبي خيثمة قال: منذ خلق الله آدم إلى أن بعث محمداً ﷺ خمسة آلاف سنة وثمان مئة سنة[(٣)]. وقد أشرنا إلى طرفٍ من هذا في خطبة الكتاب.

وأنبأنا جدي قال: حدثنا عبد الرحمن بن محمد القزاز بإسناده إلى الضحاك عن ابن عباس قال: كانت فترتان فترة بين آدم ونوح، وفترة بين عيسى ومحمد ﷺ، فكان أول نبي بعث بعد آدم إدريس، وبين موت آدم وبعث إدريس مئتا سنة، لأن آدم عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً، وولد إدريس وآدم حي، ومات آدم ولإدريس مئة سنة، ورُفِعَ وهو

---

(١) انظر «المعارف» ص ٥٧.

(٢) «التلقيح» ص ٥.

(٣) انظر تلقيح فهوم أهل الأثر ٥ـ٦، والمنتظم ١/ ١٤٥ و١٩٧، والمحبر ١ـ٢، والمعارف ٥٦ـ٥٧، وطبقات ابن سعد ١/ ٣٥ـ٣٦.

ابن أربع مئة سنة وخمس وستين، وكان الناس من لدن آدم إلى إدريس ملةً واحدة، مستمسكين بالإسلام، وتصافحهم الملائكة، فلما رُفِعَ إدريس فتر الوحي إلى أن بعث الله نوحاً، وكان يوم بُعِثَ: ابن أربع مئة سنة وثمانين سنة، وكانت نبوة نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد الغرق خمسين عاماً، ومات. وقيل: مئتي عام. وانقطع الوحي ما بين إدريس ونوح، وكان سام ابن نوح بعدما مات نوح ابن أربع مئة سنة، وعاش بعده مئتي سنة.

وكان بين نوح وهود ثمان مئة سنة، وعاش هود أربع مئة وستين سنة.

وكان بين هود وصالح مائة سنة، وعاش صالح ثلاث مئة سنة وثلاثين سنة، وقيل: ثلاث مئة إلا عشرين سنة.

وكان بين صالح وإبراهيم ست مئة وثلاثون سنة، وعاش إبراهيم مئة سنة وخمساً وسبعين سنة، وقيل: مئتي سنة. وعاش إسماعيل مائة سنة وتسعاً وثلاثين سنة، وعاش إسحاق مئة وثمانين سنة، وعاش يعقوب مئة وتسعاً وأربعين سنة.

وكان بين موسى وإبراهيم سبع مئة سنة، وكانت الأنبياء بين موسى وعيسى متواترة. وبين عيسى ومحمد ست مئة سنة[١].

قلت: وقد وهم الخطيب[٢] في هذه الرواية بإسقاط شيث، ولم يتدبر حقيقة التاريخ، فإنهم لا يختلفون أنه كان بين آدم وإدريس، وأنه نبي مرسل، ووصيُّ آدم، وكان أفضل أولاده، وقد ذكرناه بعد آدم عليه الصلاة والسلام.

فصل في ترتيب كبار الأنبياء

قال جدي في «التلقيح»: كان من بعد آدم شيث وهو وصيُّه، ثم إدريس، ثم نوح، ثم

(١) لم أقف عليه فيما بين يدي من كتب ابن الجوزي، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١/ ١٢ (مخطوط) و١/ ٢٩ـ٣٠ (طبعة شيري) من طريق الخطيب بإسناده إلى الضحاك عن ابن عباس، وانظر تاريخ الطبري ٢/ ٢٣٥ـ٢٣٨.

(٢) في (ب): قال المصنف رحمه الله وقد وهم الخطيب. اهـ . ولم يرد ذكر الخطيب قبلاً، وهذا من دلائل اختصار الكتاب، وانظر التعليق السابق.

هود، ثم صالح، ثم إبراهيم، ثم لقمان الحكيم.

قلت: وأين لقمان من إبراهيم، وبينهما ألوف سنين، ولقمان كان في زمان داود؟ والصحيح: أنه كان عبداً صالحاً، ولم يكن نبياً وقد ذكرناه.

ثم قال: وكان لوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وشعيب، ويوسف، ومن بعد يوسف موسى بن ميشا.

قلت: موسى هذا ابن ميشا مختلف فيه، ولم يُذكر في جملة الأنبياء، إلا في رواية شاذة.

قال: ثم موسى بن عمران، ثم يوشع بن نون، ثم كالب بن يوفنا، ثم حزقيل، ثم إلياس، ثم طالوت الملك، ثم داود، ثم سليمان، ثم أيوب، ثم يونس بن متَّى، ثم شعيا بن أمصيا، ثم زكريا ويحيى، وعيسى، وإرميا.

قلت: وقد أخلَّ بهارون وجماعة، وقد ذكرناهم(١).

ثم قال جدي رحمه الله: وكان ذو القرنين بين عيسى ومحمد في الفترة، ثم قال: كذا ذكروا، والصواب: أنَّ ذا القرنين كان في أيام الخليل عليه السلام، إلا أن يعنى به اليوناني(٢).



(١) فصل في قصة يوشع بن نون.

(٢) «التلقيح» ص ٤ـ٥.

فصل في مذهب أرباب الرَّصَد

ذكر يعقوب بن طارق المنجم في كتاب «الأفلاك» وقال: إن الماضي من سني العالم من هبوط آدم إلى الهجرة على سير الشمس أربعة آلاف ألف ألف ألف ألف سنة ـ ذكره أربع مرات ـ وثلاث مئة ألف ألف وعشرين ألف ألف سنة.

وقال النُّوْبَختي: من ابتداء حركة الفلك بالكواكب من أول نقطة في برج الحمل أول سنة اثنتين وثمانين وخمس مئة للهجرة أربعة آلاف ألف ألف ألف سنة وذكرها النوبختي أربع مرات.

قلت: وهذا ضرب من المالنخوليا[1]، لأن هذا باب لا يدرك بالتخمين والحدس، وهل في طاقة بشر أن يحقق تاريخ مئة سنة على الوجه؟ وإنما هذه تخيلات وظنون، ونظير هذا قول ابن طارق والنُّوبختي وأبي معشر: إنَّ لكل كوكبٍ من الكواكب السبعة سلطان وزمان يتعلق بعمر العالم الذي هو فيه، فإذا استكمل قطع المسافة، وقع التعاد، ودثر ذلك العالم، وعاد التدبير إلى الكواكب الأُوَل، وعادت أشخاص كل عالم إلى ما كانت عليه، وذلك يتعلق بالبروج والكواكب.

قالوا: فسلطان الحمل وماله من الكواكب ـ وقد ذكرنا في صدر الكتاب ما لكل برج من الكواكب[2] ـ اثنتا عشرة ألف سنة، وسلطان الثور وماله أحد عشر ألف سنة، وسلطان الجوزاء وماله عشرة آلاف سنة. ومازالوا ينقصون من كل برجٍ وماله من الكواكب سنة سنة حتى قالوا: وسلطان الحوت وماله من الكواكب ألف سنة، فجميع عمر العالم ثمانية وسبعون ألف سنة.

قلت: وهذه الأقوال تأباها العقول السليمة، وتردها الشرائع المستقيمة، والاعتماد في هذا الباب على ما ورد من سيدنا المصطفى زاده الله عزاً وشرفاً.

أنبأنا جدي رحمه الله، وعبد العزيز بن محمود البزاز قالا: حدثنا أبو القاسم ابن

(١) «المالنخوليا»: يقال مالنخوليا لتغير الظنون والفكر عن المجرى الطبيعي إلى الفساد وإلى الخوف. انظر «القانون» لابن سينا ٢/ ٦٥.

(٢) انظر فصل في البروج ومطالعها.

السمرقندي[١] بإسناده عن قتادة عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن صَدَّقَ مُنجماً بما يَقُولُ فَقَد كَفَرَ بِما أُنزِلَ عَلى مُحمدٍ». أخرجه ابن ماجه[٢].

وفي رواية: «مَن أتَى مُنجماً أو كاهِناً فَصَدَّقَهُ فَكأنَّما كَذَبَ بِما أُنزِلَ على محمدٍ».

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: لما انصرف عليٌّ عليه السلام من الكوفة لقتال الخوارج بالنَّهروان، وكان معه مُسافرُ بنُ عَوفٍ بن الأحمر، وكان يَنظرُ في النجوم، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تَسِرْ في هذه الساعة، فإنك إن سِرتَ فيها، أصابك وأصحابَك بلاء وشدة، وسِرْ في الساعة الثانية، فإنك تظفر بما تطلب. فقال أمير المؤمنين: الله لا إله إلا هو، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، وذكر هذا الحديث، ثم قال: ما كان لمحمد ﷺ منجم، ولا للخلفاء بعده، فمن صدَّقَكَ بما تقول، فقد كذَّب بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[لقمان: ٣٤]، ثم قال: يا ابن الأحمر، نخالفك ونسير في هذه الساعة التي نَهيتَ عنها. ثم أقبل على الناس، وقال: إياكم وتعلّم النجوم، إلا بما تهتدون به في ظلمات البر والبحر. يا ابن الأحمر، لئن بلغني بعدها أنك تنظر في النجوم، لأجلدنك جلد المفتري، ولأخلِّدنك الحبس ما بقيت، ولأحرمنك العطاء ما عشت وكان لي سلطان. ثم سار في الساعة التي نهاه عنها، فظفر بالخوارج وأبادهم[٣].

وقال: المنجمون أعداء الرسل يكذبون بما جاؤوا به من عند الله، يتسترون بالإسلام ظاهراً، ويستهزؤن بالأنبياء باطناً. وذكر كلاماً طويلاً.

وفي رواية: أنَّ المنجم قال له: لا تسر في هذه الساعة، فإن القمر في العقرب. فقال له: قمرنا أو قمرهم.

وحكى لي شيخنا يوسف بن يعقوب الحربي قال: كان ببغداد رجل مُرجف، يقال

(١) في (خ): أبو القاسم بن محمود، وهو خطأ، انظر مشيخة ابن الجوزي ٨٩، واسمه إسماعيل بن أحمد بن أحمد ابن عمر.

(٢) في سننه (٦٣٩)، وأحمد في مسنده (٩٢٦٠) و(٩٥٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ ولفظه: «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد». ولم نقف على حديث أنس ﷺ.

(٣) أخرج القصة مختصرة الحارث في «مسنده» (٥٦٤).

له: ابن بِشْران، يقف في الأسواق، ويقول: ترك السلطان مسعود هَمَذان، وصلت مقدماته إلى حُلْوان، خرج أتابُك زنكي من الموصل، وصل تَكْرِيت، فتغلو الأسعار، ويخاف الناس. ولم يكن جرى شيء مما ذكره. وبلغ الخليفة المستنجد، فبعث إلى الوزير وقال له يؤدب ابن بِشْران وينهاه. فأحضره الوزير ونهاه، وأراد أن يوقع به الفعل، فاستحيا منه، وقال له: والله لئن بلغني عنك بعدها كلمة من هذا لأعملنَّ معك الواجب. فخرج من عنده، فأقام أياماً لا يستجري يتكلم، فأعيته الحيل، فاشترى تقاويم وقعد على دكة بغداد، وشرع يقول: يقترن الكوكب الفلاني مع الكوكب الفلاني، فتهب ريح سوداء تأخذ بأنفاس[1] العالم، فيهلكون، تنشف دجلة بعد أيام، وشرع في مثل هذا، فمرَّ به بعض ظرَّاف بغداد، فوقف عليه وهو يقول كذا، فعمل فيه هذا الشعر[2]: [من الكامل]

إنَّ ابنَ بِشْرانٍ ولستُ ألومُهُ ... من خِيفةِ السُّلطَانِ صَارَ مُنجِّمَا
طُبِعَ المشومُ على الفُضُولِ فلم يُطق ... في الأرضِ إرجَافاً فأرجَفَ في السَّما

وحكى لي جماعة عن بعض المنجمين ببغداد: أنَّه مرَّ به شاعر وبيده اسطرلاب، فقال: أين الشمس؟ فقال المنجم: في الثور، فقال الشاعر[3]: [من السريع]

قامَ إلى الشَّمسِ بآلاتِه ... يَنظُرُ بالتَّخمِينِ والحَدْسِ
فَقُلتُ: أينَ الشَّمسُ؟ قَالَ الفتى ... في الثَّور قُلتُ الثَّورُ في الشَّمسِ

وحكى لي أيضاً جماعة: أنه كان ببغداد منجم يقال له: الحُدَاني، عبر عليه شخص وهو في حلقة يقول: يا قوم، كيف تصنعون؟ قد نظرت في علومي، وإذا بكم تلاقون سنيناً كسني يوسف، تبقون سبع سنين لا تمطرون، وتأكلون الجيف والميتة، وجعل يعظم الأمر، قال: فنشأت سحابة مثل الترس، وامتدت، وجاءت كأفواه القرب، وخاض الناس في الوحل، فقال ذلك الشخص هذه الأبيات: [من الكامل]

جَمَعَ الحُدَانِيُّ المُنَجِّمُ حلْقَةً ... وبدا يُسفسِطُ في النُّجومِ ويَحدِسُ

---

(١) في (خ، ك): بأتفاع، والمثبت من (ب).
(٢) نسبه ابن خلكان في وفيات الأعيان ٧/ ٤٠ لابن صابر.
(٣) نسبها الصفدي في الوافي بالوفيات ١١/ ٣٨٨ إلى جكينا البرغوث.

ويَـقُـولُ هـذا الـعَـامُ أزعُـمُ أنَّـهُ مِـن عـامِنَـا الـمـاضِـي أجفُّ وأيـبَـسُ
فَـتَـدفَّـقَـت سُـحـبٌ فَـمـا قَـامَ امـرُؤٌ مِـن عِـنـدِهِ إلا يـشُـقُّ ويَـرفُـسُ

وأما الأبيات التي ذكرناها في ترجمة المأمون، فقليل لها أن تكتب بماء الذهب على صفحات الأحداق، وأن يحث في طلبها كوم النياق، وهي هذه الأبيات:[1] [من الخفيف]

أيُّـهـا الـجـاهِـلُ الـمُـفَـكِّـرُ فـي الـشَّـمـ ـسِ الـمُـعـنَّـى بـهـا اعـتـنَـاءَ الـمـجُـوسِ
تـارِكَـاً خُـطَّـة الـمـسِـيـرِ مـن الـسَّـبـ ـتِ يـروم الـمـسِـيـر يـوم الـخَـمِـيـسِ
مـا رأيـنَـا الـنُّـجـومَ أغـنَـتْ عـن الـمـأ مُـونِ فـي عِـزِّ مُـلـكـه الـمـأسُـوسِ
خـلَّـفُـوه بِـعـرصَـتَـيْ طـرسُـوس مـثـلـمـا خـلَّـفُـوا أبَـاهُ بِـطُـوسِ



(١) نسب الأخيران منها في تاريخ الطبري ٨/ ٦٥٥، وتاريخ بغداد ١٠/ ١٩٢، وتاريخ دمشق ٣٩/ ٢٩٢ إلى أبي سعيد المخزومي.
وهنا ينتهي تحقيق الأستاذ مهند خذها لهذا القسم، وقد راجعه له وقوّمه الأستاذان محمد بركات وعمار ريحاوي الذي حقق أيضاً القسم التالي إلى نهاية أخبار الأمم الماضية.

فصل في ذِكر الأمم الماضية والقرون الخالية

الأوَّل: في ذِكر الهِندِ وأنبائها وبُدوِّ ممالكها وآرائها[١]

قال الجوهريُّ: هندٌ وسِندٌ: اسمُ بلادٍ، والنِّسبةُ إليها: هِنديٌّ وسِنديٌّ[٢].

وذكر العلماءُ بأخبار العالم أنَّ الهندَ في قديم الزَّمان كانت الفِرقةَ التي يُنسَبُ إليها الصَّلاحُ والحكمة والخَيْرُ، فاستَضْعَفَهمُ الناس لطيب بلادهم وسَعَتها، وكثرةِ المال فيها.

وكان عندهم حكيمٌ قد فاق أهل عصره، يقال له: البرهمن[٣]، من وَلَد إبراهيم على ما قيل، فنَصَّبوه ملِكاً لهم، وسمَّوه: السُّلطانَ الأعظم، والإمامَ المقدَّم ـ وبعضُهم يقول: هو آدم ـ وإليه تُنسب البراهمةُ، فقام بالأمر أحسنَ قيام، وقرَّب الحكماءَ والعلماءَ، وبنى الهياكلَ، والهيكل الأعظَمَ، ورصَّعه بالجواهر المُشْرِقة، وصوَّر فيه الأفلاكَ والبروجَ الاثنَي عشر، والنُّجومَ الثابتةَ والسَّيَّارةَ، وبيَّن في الصُّور كيفيَّة العالَم وتأثيراتِ النَّيِّرَيْنِ، وأشار إلى واجب الوجود، وقرَّر في أذهان الخواصِّ معرفته، وأن نُورَه فائضٌ على خَلْقه، وصنَّف كتاباً سماه: «سِند هِند»، وتفسيره: دهر الدُّهور، ومنه تَفرَّعت كتبُ الحِكْمِيَّات مثل: المِجِسْطِي[٤] ونحوه، وعمل الزِّيجات، واستخرج الحروفَ التِّسعَةَ المحيطةَ بالحساب الهندي، وهو أولُ مَن أحدَث القَولَ بالأكرار[٥] والأدوار، وأن الأعمار في أوّل البُدُوِّ تَطولُ لسَعَة الدائرة، وتَقصُر عند قِصَرِها.

وتكلَّم على سير الشَّمس وأَوْجِها، وأنها تقطعُ الفَلَكَ في ستة وثلاثين ألف سنة، وتُقيم في كل برجٍ ثلاثة آلاف سنة، ومتى انتقلتْ إلى البُروج الجنوبية صار العامرُ

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ١/ ٨٤، والملل والنحل ٢/ ٢٥٠، والبدء والتاريخ للمقدسي ٤/ ٩، وتحقيق ما للهند من مقولة ٤٥٢ وما بعدها، ومروج الذهب ١/ ١٤٨ وما بعدها.

(٢) الصحاح (سند) (هند).

(٣) ضبطه الزبيدي في شرح القاموس (برن): بكسر الموحدة وفتح الراء وسكون الهاء وفتح الميم. وانظر تهذيب اللغة ٦/ ٥٣٧، والعين ٤/ ١٣٠.

(٤) بكسر الميم والجيم وتخفيف الياء، انظر كشف الظنون ٤/ ١٥٩٤.

(٥) في النسخ: بالأكوار، والمثبت من مروج الذهب ١/ ١٥٢، ١٥٣.

خراباً، والخرابُ عامراً، وسَمَّى العالم في ابتداء كل ثمانية وسبعين[١] سنة: هازروان، وأَن العالم متى قطع هذه المدةَ عاد الكونُ والنَّسل. على حسب ما ذكرنا في الباب الماضي[٢]، وله في هذا كلامٌ طويلٌ، فانقادت له الهند وأطاعتْه.

وكان قد بنى بيتاً من ذَهَب يُجالس فيه الحكماءَ، فجمعهم يوماً وقال لهم: تعالَوْا ننظر في أمر هذا العالَم والسِّرِّ في إيجاده، وهل له غاية، وما وَجْهُ إعدامِنا بعد إيجادنا؟ فقال حكيم منهم: الواجبُ علينا أولاً أن نبتدئ بمعرفة نفوسِنا، التي هي أقربُ الأشياء إلينا منافعَ نعدُّها، فكيف بالمُبدِئ الأوّل؟ وقال آخر: لو تناهَتْ حكمةُ الخالق في أحد العقُول، كان نقصاً في الحكمة، ولكان الغرضُ غيرَ مُدرك، لأن الباريَ تعالى لا بدايةَ له ولا نهاية. فقال البرهمن[٣]: ما أدري ما تقولون، غير أنا خرجنا إلى الدنيا مُضطرِّين، وعِشْنا فيها حائرين، ونخرجُ منها مُكرَهين، فأَقَرُّوا له بالفضل.

وأقام فيهم البرهمن ثلاثَ مئةٍ وستّاً وستين سنةً، ثم مات، وجَزِعت الهندُ عليه.

وكان قد أوصى إلى ولده واسمُه: الباهبوذ.

فصل

فأقام فيهم على منهاج أبيه، وزاد في بناءِ الهياكل، وضاعف الإحسانَ إلى العلماء والحكماء، وزاد على أبيه بأن وَضَع أشياءَ منها: النَّرْدُ، وجُعِلت مثالاً للمكاسب، وأنها لا تُنالُ بالحِيل، وأن الرزق لا يَحصُل في هذه الدُّنيا بالحِذْقِ والاحتيال، بل بالأقدار، ورتَّب اثني عشرَ بيتاً بعدد الشُّهور، وجعل كِلابَه ثلاثين كلباً بعدد أيام الشَّهر، وجعل الفُصوصَ مثالاً للقَدَرِ[٤] وتقلُّبه بأهل الدُّنيا، وأن الإنسان يُلْعبُ به، فيبلُغ بإسعادِ القَدر إياه ما يريد، وأن الحازمَ الفَطِنَ لا يَنتفع بحَزْمِه إذا لم يُساعده القَدرُ.

ويقال: إن أَرْدَشير بن بابك أولُ مَن وضَع النرد، وليس كذلك، وإنما وضعَه

(١) في مروج الذهب ١/ ١٥١: في كل سبعين ألف سنة.
(٢) انظر فصل البروج والشمس.
(٣) في مروج الذهب ١/ ١٥٦ أن الذي قال ذلك سابع الحكماء.
(٤) في مروج الذهب ١/ ١٥٨: ورأى تقلب الدنيا بأهلها وجعل بيوتها اثني عشر ... وجعل كلابها ثلاثين كلباً ... وجعل الفصين مثالاً للقدر.

الباهبُوذ، ومضى عليه زمان فدَثَر، فجدَّدَه أَرْدَشير، فأُضيفَ إليه، فقيل: نَرْدَشير.

وأولادُ البرهمن أشرافُ الهند وأكابرُهم، ولا يرون ذبحَ الحيوان، ومَن ذبح حيواناً ذبحوه، ولو كان دجاجةً، وفي أعناق النِّساء منهم والرِّجال خيوطٌ صُفْرٌ، يُعرفون بها، مثلُ الغِيار[١].

وأقام الباهبوذ فيهم مئةَ سنةٍ، ثم مات.

فصل

وملَّكوا بعده رجلاً يقال له: زامان[٢]، فأقام فيهم مئةً وخمسين سنة على سيرة مَنْ تقدَّمَه، ثم مات.

فصل

فملَّكوا عليهم رجلاً اسمه: فور[٣]، فقام بالمُلك أحسنَ قيام، ويقال: إنه الذي قتله الإسكندرُ اليوناني مبارزةً، وكان صاحبَ مدينة المانكير، وعاش مئةً وأربعين سنةً ولم يُجدِّدْ شيئاً من الحكم.

فصل

فولَّوا بعده رجلاً يقال له: دَبْشَلم، وكان فاضلاً، وضع شيئين:

أحدهما: كتاب «كليلة ودمنة» الذي نقله ابن المقفَّع من الهندية إلى العربية، وصنَّف سهل بن هارون للمأمون كتاباً على وَصْفِه وسماه: «ثُعْلَة وعُفْرة»[٤]، وهيهات، بينهما كما بين مصر والبصرة.

والثاني: الشِّطْرَنج[٥]، وحكم لها على النَّرد، وجعلها على وضع الحيوان ناطقٍ

---

(١) الغيار بالكسر: علامة أهل الذمة كالزنار ونحوه، القاموس المحيط (غير).

(٢) في النسخ: رامان، والمثبت من المسعودي ١/ ١٥٨.

(٣) في النسخ: بود، والمثبت من تاريخ اليعقوبي ١/ ٨٧، ومروج الذهب ١/ ١٥٨، وسيذكر المصنف في واقعات الاسكندر وقعة له مع ملك الصين واسمه بود.

(٤) انظر الفهرست ص ١٣٤.

(٥) ذكر اليعقوبي في تاريخه ١/ ٩٠، والمسعودي في مروج الذهب ١/ ١٥٩ أن الذي صنع الشطرنج واخترعها الملك بلهيت الذي ملك بعد دبشلم.

وصامتٍ، ومثَّل الشاه بالرئيس الأعظم، وما يليه من القطع على المراتب، وأقام ذلك أمثلةً للأجرام العُلوية من السَّبعة والاثني عشر، وجعل كلَّ قطعةٍ منها لكوكب، وهي تتضاعفُ إلى ألوف ألوف على حساب الهند.

وأقام دَبْشَلم في الملك مئةً وثمانين سنةً، ثم مات.

فصل

ومَلَك بعده كورش، فأحدث آراءً في الديانات، وعَدَل عن مذاهب البراهمة، وفي أيامه كان السِّنْدِباد، وله تصانيف ـ أعني السِّندباد ـ منها: كتاب «الوزراء السبعة»، وكتاب «معرفة العِلل والعلاجات»، و «أشكال الحشائش» وغيرها.

وأقام كورش مئةً وعشرين سنةً، ثم مات.

فصل

وافترقت الهندُ، وتحزَّبت الأحزابُ، وانفرد كلُّ واحد بناحية، فكان مُلْك الهند على الاجتماع ثمان مئة ونيفاً وخَمْسين سنة، ولما افترقوا، أطاعوا ملكاً من ولد البرهمن يقال له: البلهري، صاحب مدينة المانكير[1]، وملوك الهند يصلون إليه، وتحت يده ملوك كثيرة، وكلُّهم مآلهم إلى ولد البرهمن لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذا بيوت الوزراء والكبراء والقضاة معروفة لا يتعدَّونَ إلى غيرها.

والهندُ بلاد واسعة برًّا وبحراً، والبحرُ أعظم، وهي من ناحية الشَّرق متصلةٌ بالصين والزابج[2] والمهراج والقِمار، وحدُّها من الغرب ما وراءَ النَّهر بأربعين يوماً.

ولا يُملِّكون عليهم رجلاً حتى يَبلُغَ أربعين سنة، ويقولون: هي منتهى كمال العقل وقوّة النظر.

ولا يَظهَرُ المَلِكُ للعوام إلا في وقت معلوم، ويكون ظهوره بسبب النظر في أمور

---

(١) في النسخ: المناكير، والمثبت من مروج الذهب ١/ ١٦٢.

(٢) في النسخ والروض المعطار ص٢٦٦ ونزهة المشتاق ١/ ٦١: الرانج (بنون بعد الألف)، والمثبت من مروج الذهب ١/ ١٦٣، ومعجم البلدان ٣/ ١٢٤. قال ياقوت: بعد الألف باء موحدة تفتح وتكسر وآخره جيم، جزيرة في أقصى بلاد الهند.

الرعية، ويقولون: نظرُ العوامِّ إلى الملك يَخرِقُ الهيبة، وفيه استخفافٌ بالمملكة.

وآراءُ الهند تختلف: منهم مَن يقول بتناسُخ الأرواح، ومنهم طائفة لا يشربون الخَمْرَ ويقولون: إنه يُفسِدُ العقل، ومتى شَرِب عندهم ملكٌ خَلَعوه، ويقولون: هو حارس، فمتى فَقَد عقله انتبه اللصوص.

واتفقوا على سَماع الملاهي، قالوا: لأنها تزيدُ في العقل.

وإذا مات الملك جعلوه على عَجَلةٍ وتحتها بَكَرة، وشَعَرُه ينجرُّ على الأرض، وامرأة بيدها مِكنَسة تحثو التراب على رأسه، وهم يَجُرُّونه، والمرأة تقول: أيها الناس، هذا ملككم بالأمس، وقد جرى فيكم حكمُه، وقد صار إلى ما ترون من فِراق الدنيا، فلا تَغتَرُّوا بها. ثم يُطافُ به في شوارع البلد، ويُطلى بالكافور والطِّيب، ويجمعون بين يديه الملاهي، وخواصُّه وأهلُه مُحدِقُون به، ويأتون به إلى الهيكل الأعظم عندهم، وفيه هُوَّةٌ عظيمة فيها نار، يَزعُمون أنَّها نار الخليل عليه السلام، تُوقَد دائماً بخشب الزيتون لا تَفْتُر، وعليها الكراسي تحت المَوابِذَة: وهم العلماءُ، ومُوبَذ مُوبَذان ـ وهو عالمُ العلماء عندهم ـ جالسٌ على كرسي من ذهب ـ والهند يَعبُدون هذه النار ـ فإذا جاؤوا بالملك قام المُوبَذ والمَوابِذة، ويأتون بالملك إلى بين يديه، فَيُزمْزِمُ عليه ساعةً[١]، ثم يأمر بارتفاع أصوات الملاهي جُملةً، ثم يُقذَف بالملك في النار، فيشير المُوبَذ إلى خواصِّه وأهله فيتهافَتُون في النار على حسب منازلهم عند الملك.

وقال ابن المقفَّع: الهند يُعذِّبون أنفسَهم بأنواع العذاب، يتقرَّبون بأرواحهم إلى بارئهم.

قلت: وقد حكى لي جماعةٌ من التُّجار الذين يَدخُلون الهند، أنهم شاهدوا الملوك وقد فَعلوا بهم ما ذكرنا.

وحكى لي جماعة أن ببلاد المانكير جبلاً شامخاً، وله جانب أملسُ من أعلاه إلى الأرض على أسلوب واحد، وفي وسطه شجرةٌ نابِتة شاهقةٌ كثيرةُ الأغصان قد ألبسوها الأسنَّةَ، ولهم عيدٌ في السنة يجتمعون فيه على رأس الجبل، ومعهم الملاهي والطُّبول

(١) يصوّت بصوت مبهم يديره في خيشومه وحلقه لا يحرك فيه لساناً ولا شفة. المعجم الوسيط.

والبُوقات، فيضربون بها، وتجتمع الشباب وأولو البأس والقوة فيرقصون، ثم يتهافتون من أعلى الجبل إلى الشجرة، فتَلَقَّاهُم الأَسنَّةُ، منهم مَن يَدخُل السِّنانُ في جنبه فيخرج من الجنب الآخر، وتارةً يقع في عينه أو في بطنه، فإن مات وإلا بقي على حاله معلَّقاً حتى يموتَ ويَبْلَى ويتقطَّع ولا يدفنوه.

وحكى شيخٌ من أهل بغداد قال: خرجتُ وأنا يومئذٍ ببعض بلاد الهند إلى ظاهر البلد، أتنزَّه بين البساتين؛ وإذا بشابٍّ قد رَبَط عجوزاً إلى شجرة، وجمع لها حطباً، فقلتُ: مَن هذه منك ؟ قال: أُمِّي. قلت: وما تصنعُ بها؟ قال: أحرقها. قلت: ولِمَ؟ قال: قد ضَجِرتُ منها، وأريد أن أقرِّبَها. قال: فقلت لها: أَوَتُحبِّين هذا؟ قالت: نعم، أمضي إلى هناك، وأشارت إلى السماء، فأَحْرَقَها.

قلت: فانظُروا إلى هذه العقول التي كادها بارئها، فكيف تتعبَّدُ بإتلاف النفوس التي يُستَدلُّ بها على صنعة مُنشئها؟! وأين هذا من الحِكَم التي يَمنُّون بها على جميع الأمم؟ فسبحان مَن أظهر فيهم أسرارَ حكمته، وعجائبَ قُدرته، وكم لهم من مَثَلٍ سائر، ولفظٍ أحسنَ من اللآلئ والجواهر! فنذكر طرفاً من ذلك.

فصل

ذكر العلماءُ بأخبار العالم فنوناً من كلامهم وأخباراً من[1] أيامهم

فمنه قول وزير البرهمن: الملكُ العاقل يزدادُ برأي الوزير الحازم زيادة البحر بموادّه من الأنهار، ويَنالُ بالحَزْمِ ما لا ينال بالقُوَّة والاستظهار، وقال: المستشيرُ وإن كان أفضلَ من المُشير، فإنه يَزدادُ برأيه رأياً، كما تزدادُ النارُ بالسَّليط[2] ضياءً.

وقال حكيم آخر: إذا أحدَثَ لك العدوُّ صداقةً لعِلَّةٍ ألجأتْهُ إليك، فمع ذهاب العلَّة ترجِعُ العداوة، كالماءِ فإنك تُسَخِّنُه، فإذا أمسكتَ عنه رجع إلى الأصل بارداً.

قلت: أخذه شاعر فقال: [من المتقارب]

---

(١) في (خ) و (ك): وأخبار أمر.

(٢) السليط: الزيت. (القاموس المحيط)، والقول في الأدب الصغير لابن المقفع ص٣٢ (رسائل البلغاء)، وعيون الأخبار ١/ ٢٧-٢٨.

وكُــلٌّ إلــى طــبــعِــه عــائــدٌ وإن صــدَّه الــصّــدُّ عــن قَــصْــدِهِ
كــمــا الــمــاء مــن بــعــد إسْــخــانِــه يــعــودُ ســريــعــاً إلــى بَــرْدِهِ

وأحسنُ من هذا، قولُ بعض عوامٍّ ببغداد في كان وكان(١):

الشوك لو سقيته يحمل ما ورد عرق مايرجع إلا إلى أصله ويحمل الخرنوب

وقال آخر: أجودُ الناس من جاد عن قلَّة.

أخذه حمّاد عَجْرد فقال من أبيات: [من البسيط]

بُـثَّ الـنَّـوالَ ولا يَـمـنَـعْـكَ قِـلَّـتُـه فـكـلُّ مـا سـدَّ فَـقْـراً فَـهْـو مـحـمـودُ
إذا تـكـرَّمْـتَ عـن بَـذْلِ الـقـلـيـل ولـم تَـقـدِرْ عـلـى سَـعَـةٍ لـم يَـظـهَـرِ الـجـودُ
إن الـكـريـمَ لَـيُـخـفـي عـنـك عُـسْـرتَـه حـتـى تَـراه غـنِـيَّـاً وَهْـوَ مَـجْـهـودُ
ولِـلـبـخـيـلِ عـلـى أمـوالِـه عِـلَـلٌ زُرْقُ الـعـيـونِ عـلـيـهـا أوجُـهٌ سُـودُ(٢)

وقال آخر: إنَّ ذا المروءة لَيكونُ خامِلَ الذِّكْر، فتأبى له مروءتُه إلا أن يَستَعليَ؛ كالشُّعلة من النار يصونُها صاحبها وهي تأبى إلا ارتفاعاً، وإن ذا الفضائل لا يَخْفَى فَضْلُه وإنْ أخفاه، كالمِسك يُخفيه صاحبُه فلا يمنَعُه ذلك أن يفوح ريحُه.

وقال آخر: لا ينبغي للعاقل أن يُرى إلا في مكانين: إمّا معَ الملوك مكرَّماً، وإما مع العُبَّاد مُتبتِّلاً(٣).

ومن أمثال الهند في الدُّنيا وآفاتِها، قالوا: مَثَلُ الإنسان المغرور بالدنيا، مثلُ رجل ألجأه الخوفُ إلى بئر، فتدلَّى فيها، وتعلَّق بغُصْنَيْن نابتَيْن على شفير البئر، فوقعَتْ رِجلاه على شيء، فنظر فإذا أربعُ حياتٍ قد أطلَعْنَ رؤوسهنَّ من حُجرتهنَّ، ونظر أسفلَ

---

(١) في حاشية (ك): قول المصنف رحمه الله إن البيت من كان وكان أحسن من البيتين، يدل على عدم ذوقه وإنصافه، بل البيتين نادرين (كذا). اهـ قلت: وكان كان، نوع من الشعر الشعبي، شاع بين البغداديين في عصور متأخرة، وقد سمي بهذا الاسم لأن الشعراء كانوا يجعلون في شعرهم «كان وكان» للدلالة على أن ما يقولون هو روايات لا أصل لها، وقد تحلل ناظموه من بعض قواعد الإعراب وقيود القافية. معجم مصطلحات العروض والقافية ص٢٢٧.

(٢) الأبيات بترتيب آخر في الشعر والشعراء ٢/ ٧٧٩ـ٧٨٠، وعيون الأخبار ٣/ ١٧٨، وطبقات ابن المعتز ص٦٩ـ٧٠، ووفيات الأعيان ٢/ ٢١٣.

(٣) القول في يتيمة السلطان لابن المقفع ص١٥٦ (رسائل البلغاء).

البئر، فإذا ثعبانٌ عظيم قد فَغَر فاهُ نحوه، فرفع عينه إلى الغُصنين اللَّذين تعلَّق بهما، وإذا في أصلهما جُرْذانِ: أبيض وأسود؛ يَقرِضان الغصنَيْن دائبَيْن لا يَفتُران. فبينما هو يُعمِلُ الحيلةَ، يتخلَّص مما وقع فيه، إذ حانَتْ منه التفاتةٌ، فإذا بنحلٍ قد عشَّش في جانب البئر، فمدَّ يده إلى عُشِّه، فأخذ من العسل، فلَعِقَه فوجده حُلْواً، فشَغَله عن الفكر في أمره، والتماسِ النَّجاة لنفسه، ونَسي أنَّ رجليه على أربع حيَّاتٍ لا يَدري متى تُساوِرُهُ إحداهُنَّ، وأنَّ الجُرذين دائبان في قَرْض الغُصنَيْن، وأنهما متى قَطَعا ذلك وقع في البئر، فالتقمه التِّنِّينُ. فلم يزل مشغولاً بلَعْق العسل حتى قَرَض الجُرذان أصل الغُصنَيْن، فسقط في البئر، فالتقمه التنّين.

فالدنيا هي البئر، والغُصنان الأمل، والطمعُ هو العَسَل، والجُرذان: الأبيضُ النهار، والأسودُ الليل، يقرضان العمر لا يفتران، والحياتُ الأربع: الأخلاط التي بُني عليها الجسدُ: وهي: البَلغم، والمِرَّةُ الصَّفراء والسوداء، والدمُ، والتِّنِّينُ الذي في أسفل البئر مَلَكُ الموت، واليسير من العسل لذاتُ الدنيا تُلهيه عن عاقبة ما يَؤولُ إليه أمرُه(١).

واقعة جرت بالهند

حكى العلماءُ بأخبار الأوائل أنه كان بالهند ملكُ المِهْراج، وكان عظيماً يَركَبُ في ثلاث مئة ألفٍ، وكان مجاوره ملك القِمار، فحسد ملكُ القمار ملك المهراج، فقال لوزيره يوماً: في نفسي أمرٌ أحبُّ بلوغَه قبل موتي. فقال له الوزير: وما هو؟ قال: أرى رأسَ ملك المهراج في طَشْت بين يديَّ، فشَقَّ على الوزير وقال: أيُّها الملكُ، وما الذي بدا من ملك المهراج إلينا ما يَستوجبُ به ما خَطَر في نفسك؟! ووالله إنه نِعم الجار، وكان بين المملكتين مِقدارُ عشرين يوماً في البحر، وكان الوزيرُ صالحاً ناصحاً، فقال: أُعيذُك بالله أن يَخطُرَ هذا ببالك، فضلاً عن أن يَشِيعَ عنك. فغضب عليه، وتحدَّث مع غير الوزير بذلك.

وبلغ ملكَ المهراج ما جرى لملك القمار مع وزيره، وكان ملكُ المهراج رجلاً

---

(١) انظر يتيمة السلطان لابن المقفع ص١٦٨ (رسائل البلغاء).

عاقلاً ثابتاً، فقال لوزيره: قد بدا من ملك القمار كذا وكذا، ولا ينبغي أن نسكت عن هذا الجاهل، بعد أن شاع عنه هذا، فإنه قَدْحٌ في المُلك.

ثم تجهَّز وأظهر أنه يقصد بلداً سمَّاه، وسار في ألوف مراكب، وطابت له الريحُ، فما شعر ملك القمار به إلا وقد بغته، فحاصره في بلده، وانهزم أصحابُه، فأخذه أسيراً، وأحضره وأحضر الوزير، وقال للملك: ما الذي حملك على تمنِّي ما ليس في وُسعِك، ولا أوجبه سببٌ من الأسباب؟ فلم يُحِرْ جواباً. فقال له ملك المهراج: أما إنك لو تَمنَّيت ما تمنيت من أن ترى رأسي بين يديك لتأخذ مُلكي، لاعتمدتُ ذلك فيك، ولكنك تمنَّيت شيئاً بعينه، فأنا فاعلُه بك وراجعٌ إلى بلادي من غير أن أمدَّ يدي إلى شيءٍ من بلادك، لتكونَ عِظَةً لمَن بعدك، فلا يتجاوز قدره.

ثم ضرب عنقه، وجعل رأسه في طَشْتٍ بين يديه، ثم أقبل على الوزير فقال: وأما أنت، فجُزيت خيراً من وزيرٍ، فقد صَحَّ عندي أنك أشرت عليه بالرأي لو قبل منك، فانظر مَن يَصلحُ للملك بعد هذا الشقي فولِّه. ثم نزل من ساعته إلى المراكب، وسار إلى بلاده، ولم يَمَسَّ شيئاً من المملكة لا هو ولا أصحابُه.

ولما عاد إلى بلاده جلس على سريره، ووضع رأس ملك القمار بين يديه في طشتٍ، وجمع أرباب دولته وخواصَّه، وعرَّفهم بالقصَّة، فعَظُم في عيونهم ودعوا له.

ثم ردَّ الرأسَ إلى القمار، وكتب معه: رُدُّوا رأسَ صاحبكم إلى جسده، فإنَّ الذي حملَنا على ما فعلنا به بَغيُه علينا، فأدَّبْنا أمثالَه، وبلَغْنا فيه ما رامه فينا من غير سببٍ نستحقُّ به إلا حُسنَ جواره، ورأينا ردَّ رأسه إلى جسده، إذ لا فخر لنا في تركه عندنا.

وبلغ ملوكَ الصين ما فعل، فصاروا كل يوم عند طلوع الشمس يسجدون نحو المهراج تعظيماً له[1].



(١) في مروج الذهب ١/ ١٧٥ أن الذي فعل ذلك هم ملوك القمار لا ملوك الصين.

فصل في ذكر ملوك الصّين في سالف الدَّهر والحين[١]

قال الجوهريُّ: والصِّينُ بلدٌ، والصَّواني: الأواني، منسوباتٌ إليه[٢].

وقال غيره: اسم رجل[٣].

وقال علماء السير: لما قسم فالغُ بن غابر بن أرْفخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام الأرضَ بين ولد نوح، نزل أولادُ عابورا ـ وقيل: عامورا بن سويل[٤] بن يافث بن نوح، وقيل: عامورا بن يافث ـ عن يسار المشرق ويمينه، وانتشروا في تلك النواحي، ووصلوا إلى جبل القبق[٥]، وانقسموا عدّة ممالك، منهم التّرك ـ قال الجوهري: وهم جيلٌ من الناس[٦] ـ فنزلوا براري عن يمين المشرق، وامتدُّوا إلى الشمال، وكان مَلِكُهم في ذلك الزمان يقال له: زنجان، ثم صار اليوم خاقان، ومنهم: أفراسياب التركي المتغلِّب على أرض فارس، وكلُّهم من ولد عامورا.

ثم من أولاد عامورا: الدَّيلم، والأكراد، واللان، والخَزَر، وأهل مملكة السّرير، وكذا النازلون على بحر الخَزَر والبُرْغَز والصُّغْد والأُشْروْسَنَة، وهم بين بُخارى وسَمَرْقَنْد والجبل، ويسكنون جِيلان، وليس فيهم أقوى شوكةً من الترك.

وسار مع أولاد عامورا طائفةٌ، فنزلوا في تخوم الهند وبلاد التُّبَّت، وبَنَوْا للملك مدينةً عظيمة وسمَّوها أنموا، وبينها وبين البحر الشرقي ـ وهو بحر الصين ـ ثلاثةُ أشهر عمائر متصلة، ومصَّروا الأمصار، وعَمَروا المدن.

وأولُ ملوك بني عامورا: انسطوناس بن باعورا بن بريح[٧] بن عامورا بن سويل بن

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ١/ ١٨٠، ومروج الذهب ١/ ٢٨٦، والبدء والتاريخ ٤/ ١٩، ومعجم البلدان ٣/ ٤٤٠ (الصين)، وآثار البلاد للقزويني ص٥٣، والروض المعطار ص٣٧٠.

(٢) الصحاح (صين).

(٣) انظر تاريخ اليعقوبي ومعجم البلدان، فقد نسبه ياقوت إلى الزجاجي.

(٤) في مروج الذهب ١/ ٢٨٦: سوبيل.

(٥) في النسخ: الفتح، والمثبت من مروج الذهب ١/ ٢٨٧، وضبطه ياقوت في معجم البلدان ٤/ ٣٠٦ (قبق) بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره أيضاً قاف.

(٦) الصحاح (ترك).

(٧) في مروج الذهب ١/ ٢٩٠: نسطرطاس بن باعور بن مدتج.

يافث بن نوح، أقام بأنموا حاكماً عليهم نيفاً وثلاث مئة سنة ثم مات.

وملك بعدَه ابنُه غرون[١]، فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب، وتركه على سرير من الذهب مُرصَّع بالجواهر، وكان يجلس دون مجلس أبيه، وأقام يسجُد للتمثال هو وأهلُ مملكته خمسين ومئتي سنة، ثم مات.

فملك بعده ولده عيثرون[٢]، ففعل بأبيه ما فعل أبوه بجدِّه، وأقام مئتي سنة، ثم مات.

وملك بعده ولده عيتبان[٣]، ففعل بأبيه كذلك، وأقام ملكاً أربع مئة سنة، ثم مات.

فملك بعده ولده خرابان[٤]، ويقال: إنه أول مَن عَمِل المراكب بالصين وبعث بها إلى الأمصار، وجلب إليه التجارُ الأمتعةَ من الدنيا، وملك مئتي سنة، ثم مات.

فملك بعده ولده يونان[٥]، فبنى هيكلاً عظيماً ورصَّعَه بالجواهر، وبنى فيه بيوتَ العبادات، ونقل أجسام آبائه وأجداده إليه، وجعلهم في قُبَّةٍ لها طاقات، وأمر بتعظيمها، وجمع خواصَّ مملكته، وقال: الرأي أن نجمع الناس على مِلَّةٍ وديانةٍ يرجعون إليها، فإن الملك متى عَدِم شريعة[٦] دخل عليه الخلل، ولم يأمَنِ العِثارَ.

فرتَّب لهم شريعةً عقليةً، وفرض عليهم فرائضَ جعلها رِباطاً، ورتَّبَ المناكح، والقصاص في النفوس، على حسب ما وردت به الشرائعُ، وجَعل عليهم صلواتٍ مفروضةً لخالقهم في اليوم والليلة، وفيها ركوعٌ وسجودٌ يختصان بأزمنةٍ، وأوجب الحدَّ على الزاني والزانية، وأقام للكواكب أبْخِرةً من العقاقير[٧].

وساس الناسَ سيرةً عادلةً، فأحبَّه الناس، واعتقدوا فيه. وعاش مئةً وخَمسين سنة ثم مات، فجَزِعُوا عليه جَزَعاً عظيماً، وجعلوه في تابوت من الذهب ورصَّعوه بالجواهر

---

(١) في مروج الذهب ١/ ٢٩٠: عوون، وفي تاريخ اليعقوبي ١/ ١٨٠: عرون.

(٢) في مروج الذهب ١/ ٢٩١: عيثدون.

(٣) في مروج الذهب ١/ ٢٩١: عيثنان، وفي تاريخ اليعقوبي ١/ ١٨٠: عينان.

(٤) في مروج الذهب ١/ ٢٩٢: حراتان، وفي تاريخ اليعقوبي ١/ ١٨١: خرابات.

(٥) في تاريخ اليعقوبي ١/ ١٨١، ومروج الذهب ١/ ٢٩٣: توتال.

(٦) في (خ) و (ك): شريعته، والمثبت من (ب) ومروج الذهب ١/ ٢٩٥.

(٧) في مروج الذهب ١/ ٢٩٦: وأمرهم بقرابين الهيكل، ودخن وأبخرة للكواكب، وجعل لكل كوكب منها وقتاً يتقرب إليه بدخن معلومة بأنواع الطيب والعقاقير محصورة.

النَّفيسة، وبَنَوا له هيكلاً عظيماً على حِدَةٍ، وزيّنوه بأنواع اليواقيت، وبَنَوه على هيئة الكواكب السَّبعة، وجعلوا له عيداً يجتمعون إليه فيه مثلَ يوم وفاتِه، وصَوَّروا صورتَه وما شرعه في لوحٍ من ذهب، وجعلوه في أعلى الهيكل، وكتبوا اسمه وما فعل على أبواب المدن والدنانير والدراهم والفلوس وذلك بمدينة أنموا.

ولما مات اختلفت الآراءُ والنِّحل والممالك بعده، إلا أنهم مع اختلافهم لم يخرجوا عن قضية العقول في نَصْب القُضاة والعدل، والنظر في أمور الخواصِّ والعوام.

فروي أن بعض التجار قصد بعض ملوكهم بهدية، فأخذها منه بعض الخدم، ودَفَع له ثمناً بَخْساً وظلمه، فأحضر الملكُ التاجرَ وسأله، فقال: إنما قَصَدْتُ بالهديَّةِ الملكَ، فقطع عليَّ الخادمُ الطريقَ وظلمني، فدعا بالخادم، وقال له: وَيْلَك، عَمَدْت إلى رجلٍ قَصَدنا، وخاطر بنفسه يُؤمِّلُ فَضْلَنا، ثقةً بكرمنا وعدلنا، يرجو إحساننا، ففعلتَ في حقِّه ما فعلتَ، فما الذي أمَّنَك أن ينصرف عنا فيسيء الأُحدوثة والسيرة؟ أما والله لولا سابقُ خِدمتك لنَكَّلْتُ بك، ولكن قد جَعلتُ عقوبتك ولايةَ قبور الموتى لما عَجزت عن سياسة الأحياء، ثم أعطى التاجر أضعافَ ما كان يظنُّ وقرَّبه[1].

وأهلُ الصين قبائلُ وأفخاذ وشعوب مثل العرب، ويَعتنون بالأنساب، وربما انتسب الرجلُ منهم إلى خمسين أب حتى يصل إلى عامورا.

واقعة جرت بالصين

قال علماءُ السِّير: كان بالبصرة رجلٌ من ولد هبَّار بن الأسود، فلما دخل الزَّنْج البصرة، ركب البحر هارباً منهم، فلم يزل ينتقلُ من بحر إلى بحر وبلدٍ إلى بلد حتى وصل إلى الصين، إلى مدينة يقال لها: خانقوا[2]، وبلغ الملكَ خبرُه، فاستدعاه، وقال: مَن أنت؟ قال: أنا رجل من العرب، من ولد صاحبٍ لرسول الله ﷺ. فقال له: كيف قهرتِ العربُ العجمَ مع ضعفهم وقوة العجم؟ فقال: إنما قهروهم بالله تعالى. فقال: لقد غلبت العربُ على أجلِّ الممالك وأوسعِها، وأعقلها رجالاً وأبعدِها صيتاً.

(١) ذكرها المسعودي في مروج الذهب ١/ ٣٠٧-٣١٢ بأطول مما هنا.

(٢) في مروج الذهب ١/ ٣١٣: خانفوا، قال القلقشندي في صبح الأعشى ٤/ ٤٨٣: بخاء معجمة وألف ونون وقاف ثم واو، وهي مدينة على النهر.

ثم قال: ما منزلةُ الملوك عندكم؟ قلت: لا أدري. قال الملك: أما نحن فنعدُّ الملوك خمسة: فأوسعُهم ملكاً ملك العراق؛ لأنه وسط الدنيا والملوك به محدقة، وبعده ملِكُنا، وبعد ملكنا ملكُ السِّباع، وهو ملك الترك الذي يلينا وهم سباع الإنس، وبعده ملك الفِيَلة وهو ملك الهند والحكمة، وبعده ملك الروم، وهو ملك الرجال.

ثم قال: أتعرف صاحبَك ـ يعني النبي ﷺ ـ إن رأيته؟ قال الرجل: فقلت: كيف ترينيه وهو عند الله تعالى؟ فقال: إنما أردتُ صورتَه. ثم أخرج لي دُرْجاً فيه صفةُ الأنبياء وعلى صورة كلِّ نبيٍّ اسمُه، وإذا نوح عليه السلام في سفينة، فقلت: الحمد لله الذي أغرق أهل الأرض ونجاه، فضحك وقال: لا نعرف غرقَ الأرض، ولا وصل إلينا ولا إلى الهند والسِّند، ولا نقله إلينا أسلافُنا. قال: ورأيتُ موسى عليه السلام وبيده العصا، وعيسى عليه السلام على حمارٍ، ونبينا ﷺ[1] على جمل، وعند كلِّ نبيٍّ نسبُه وعمرُه وبلدُه وسيرتُه. ورأيتُ حول نبينا ﷺ أصحابه وفي أوساطهم حبال الليف، وقد علَّقوا فيها المساويك، وفي أرجلهم نِعالٌ من جلود الإبل، فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فلقد ملك نبيكم أجلَّ الممالك، غير أنه لم يُعاين ذلك، وإنما عاينه مَن بعده.

ثم قال: ما تقولون في عُمر الدنيا؟ فقلت: قد اختلف الناس في ذلك، فمن قائل: سبعة آلاف سنة، وقائل: ستة آلاف. فقال: عمَّن تنقل هذا، عن نبيك؟ فغلطت وقلت: نعم. فضحك ضحكاً عالياً، وضحك وزيرُه أيضاً، وقال: ما أحسب نبيَّكم قال هذا، قلت: بلى، فرأيت أثر الكآبة على وجهه، وقال: ميِّز كلامك، فإن الملوك لا يُخاطَبون إلا عن تحقيق، وما تقولُه الأنبياء فمُسلَّم لهم لا يُختَلَف فيه، وهذا مُختلَف فيه، فإياك أن تحكيَ عن نبيِّك مثلَ هذا، فإنه لا يقوله.

قلت: لله درُّ هذا الملك، ما كان أعقله وأبصره بحقائق الأشياء، فإنه لم يَثبُت عن نبينا ﷺ في هذا الباب شيء، وقد ذكرناه في خطبة الكتاب[2]، وإنما الجاهل الذي هو من ولد هبَّار الذي عَرَّض نبيَّنا ﷺ لمثل هذا، ولكن الله أنطق الملكَ بالحق، معجزةً لنبينا ﷺ.

(١) في (خ) زيادة: وزاده فضلاً وشرفاً إلى يوم القيامة.

(٢) في فصل انقضاء مدة العالم، وقد ذكر المسعودي ١/ ٣١٢ـ٣٢١ هذه القصة مطولة.

فصل في ذكر السُّريانِيينّ والكَلْدانيين والحَرّانيين

أول السُّريانيين آدمُ عليه السلام، حتى إنه قيل: لو تُرِك كلُّ مولود وطَبْعَه لتكلَّم بالسُّريانية. وامتدَّ الزمان عليهم، ولم يكن لهم بين آدمَ ونوحٍ مُلْكٌ، فلما كان الطُّوفان عاد مُلْكُهم بعده.

فأولُ ملوكهم نبيط بن سور بن سام بن نوح، وهم النَّبَط، وقيل: أولُ ملوكهم سوشان[(١)] وكان جباراً، ويقال: إنه أولُ مَن وضع التاج على رأسه، فأقام ستَّ عشرة سنة، ثم هلك، وكانت الرعية قد صرفت الهِمم إلى هلاكه. وكان مُلْكُ السُّريانيين ببابل، فوَلي منهم جماعةٌ دون المئة سنة، وآخِر مَن ملك منهم أَخوان، يقال لأحدهما: أزود، والآخر: خلنجاس، فأحسنا السيرة وتعاضدا.

فحُكي أن أحدهما كان جالساً ذات يوم في قصره، فنظر إلى أعلاه، فرأى طائراً قد فَرَّخ هناك، وهو يَصيح ويَضرب بجناحيه، وإذا بحيَّة قد دبَّت تريد أن تأكل فِراخه، فرماها الملكُ بنُشَّابة فقتلها، وسَلِمت الفراخ.

فلما كان بعد أيام جاء الطائر وفي منقاره حبة، وفي رجليه حبَّتان، فصَفَق بجناحيه وألقى الحبَّ بين يدي الملك، فتأمَّله وقال: لأمرٍ ما ألقى هذا الطائرُ الحبَّ، ولا شكَّ أنه قصدَ مكافأتَنا على ما فعلنا معه.

ثم أخذه ولم يعرف أحدٌ في إقليمه ما هو، فقال له بعض الحكماء: أَودِعْه الأرض. فأودعه الأرض فنبت، وأقبل يلتفُّ، فحَصْرم وأعنب، ولم يتجاسروا أن يذوقوه خوفاً أن يكون سمّاً، فقال الحكيم: اعصروه، فعصروه، وأودع ماءَه الآنية، فهدر وقذف بالزَّبَد، وفاحت له ريحةٌ عطِرة، فأحضر الحكيم شيخاً كبيراً، فسقاه منه قَدَحاً فتهلَّل وجهُه، ثم سقاه آخر فضحك، ثم سقاه آخر فصفَّق وطرِب ورفع صوته يتغنَّى، فقال الحكيم[(٢)]: هذا شرابٌ يَذهب بالعقل، ألا ترون الشيخ كيف عاد إلى الصِّبا وقوَّة الشباب وسلطان الدم! ثم أفاق الشيخ وقال: ما أرى هذا الطائر إلا أراد مكافأتكم بهذا

---

(١) في تاريخ اليعقوبي ١/ ٨١، ومروج الذهب ٢/ ٧٨: شوسان.

(٢) في مروج الذهب ٢/ ٩١ أن قائل هذا الكلام هو الملك.

الشراب الشريف، لقد أذهب عني الهمومَ والأحزان.

ثم أمر الملك بغَرْسِ الكروم بأرض بابل، وأكثروا منع العامَّة عنه. وقد جرت مثل هذه الواقعة لكسرى في الرَّيحان لما نذكر.

وأما الكلدانيُّون(١)

فهم ملوكُ بابل بعد النَّبَط، وأوَّلُهم نمرود بن كنعان، فإنه غَرَس الأشجار، ورتَّب العالَم، وأجرى الأنهار، وحفر نهر كُوثَى(٢) بين قصر ابن هُبَيْرة وبغداد، وتوالت الممالكُ بعده إلى زمان سنحاريب، وآخرهم بُخْتُ نَصَّرُ، فيقال: إنهم ملكوا ألفَيْ سنة.

وأما الحَرَّانيون

فهم الصابئة، وكانوا يسكنون حَرّان يعبدون الكواكب، وكان لهم بِحَرَّان أربعة هياكل مدوَّرات الشكل؛ أحدهم: هيكل العقل الفعَّال، والثاني: هيكل السلسلة، والثالث: هيكل الصورة، والرابع: هيكل النفس، وكانت لهم الهياكل السبعة على النجوم السبعة، فهيكل القمر مثمَّن، وهيكل عُطارد والزُّهَرة مربَّعان، وكذا هيكل الشمس، وهيكل المشتري مُثلَّث، وهيكل المرِّيخ وزُحَل مُسدَّسان، وقيل: هيكل المريخ مستطيل.

وكان على أبواب حران تماثيلُ وهياكل، منها على باب الرقَّة هيكل يقال له: مغلسا(٣)، وكان لآزَر والدِ الخليل عليه السلام، لأنه كان يَعبُد الكواكب، وكان تحت مغلسا سراديبُ فيها تماثيلُ الأجسام العُلوية، ولها مَنافخ وبَرابِخ(٤) تَصفِر فيها السَّدَنةُ من وراء السُّترة، فتدخل الأصوات في المنافذ، فتظهرُ منها أصوات مُطرِبة يصيدون بها عقولَ الناس مثل الأُرْغُن الذي للرُّوم.

(١) في النسخ: الكلدانيين، وانظر فيهم تاريخ اليعقوبي ١/ ٨٢، ومروج الذهب ٢/ ٩٥.

(٢) ضبطه ياقوت في معجم البلدان ٤/ ٤٨٧ بالضم ثم السكون والثاء مثلثة وألف مقصورة تكتب بالياء لأنها رابعة الاسم.

(٣) في مروج الذهب ٤/ ٦٣ (وأكثر الكلام منه) مغليتيا.

(٤) البرابخ: منافذ المياه ومجاريه. القاموس المحيط (بربخ)، وفي مروج الذهب ٤/ ٦٤: فتجري الأصوات في تلك المنافخ والمخاريق والمنافذ إلى تلك الصور.

وأصل الصابئة: من صَبأ، إذا مال إلى ما يهواهُ.

واختلف العلماء فيهم(١)، فقال مقاتل: هم صنفٌ من النصارى وافقوهم في بعض الأحكام وخالفوهم في البعض، وهو قولٌ عن الشافعي وأحمد.

وقال ابن زيد: هم يعبدون الكواكب، ويقرؤون الزَّبور، والكواكبُ عندهم الآلهةُ المدبِّرات للعالَم.

وقال عبيد بن عمير(٢): كانوا فبانوا وذهبوا فلم يبقَ لهم عينٌ ولا أثرٌ.

قلت: وليس كما ذكر، فإن الصابئةَ اليوم بأرض البطائح منهم خلق كثير، وهم الذين يُسَكِّرون الأنهار، ولا يُطلِعون أحداً على مذاهبهم، فانتقلوا عن حَرَّانَ إلى العراق.

وأما حكم مناكحتهم فعند أبي حنيفة: هم قومٌ يقرؤون الزَّبُور، ولا يعبدون الكواكب بل يُعظِّمونها، كما يعظِّم المسلمون الكعبةَ، ومخالفتُهم للنصارى في بعض الأحكام لا يُخرِجُهم من أن يكونوا من جُملتهم، كنصارى بني تَغلب، فإنهم يُخالفون النَّصارى في الخمور والخنازير، وهم من جملتهم، وإذا كان لهم كتاب، وهو الزَّبور فتجوز مناكحتهم كاليهود مع النصارى، إلا أنه يكره مناكحتُهم للخلاف.

وعند أبي يوسف ومحمد: يعبدون النجوم، ويخالفون اليهود والنصارى في عقائدهم، فلا يكونون من جملتهم، وإذا كانوا يعبدون الكواكب فهم عبَّاد الأوثان، فلا يجوز مناكحتهم، واتفقوا على أنهم لو كانوا يعبدون الكواكبَ ولا كتاب لهم، أنه لا يجوز مناكحتُهم.

وقال بعضُ المشايخ: لا خلافَ على حقيقة؛ لأنَّ أبا حنيفةَ أجاب في فِرقةٍ لها كتابٌ، وهما أجابا فيمن ليس له كتابٌ وهو يعبُد الكواكب، فحينئذٍ ليس بينهم خلاف،

---

(١) انظر في ذلك تفسير الطبري ٢/ ١٤٦ـ١٤٧، وزاد المسير ١/ ٩٢، وتلبيس إبليس ص٧٣، وتفسير القرطبي ٢/ ١٦١ـ١٦٢ (طبعة الرسالة)، والرد على المنطقيين لابن تيمية ٢٨٧، وأحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية ١/ ٩٢، وتفسير ابن كثير (البقرة ٦٢).

(٢) في (خ): بن عبيد، والمثبت من (ب).

وكذا حُكم حِلِّ ذبائحهم(١).

وقيل: إن الصحيح أنهم لا كتابَ لهم، لأن الزَّبور إنما أُنزِلَ على داود، وليس فيه أحكام ولا حلال ولا حرام، بل كلُّه مواعظ، وقد ذكرناه(٢) وليس في سيرة داود أنه بُعِث إليهم، ولا لهم ذِكْر.

ولمّا ولي القاهرُ محمد بن أحمد المعتضد بَلَغه ما هم عليه، فاستفتى الفقهاءَ فيهم، فأفتَوْه بقتلهم(٣)، وقالوا: لا كتابَ لهم ولا نبي، وهم يعبدون الكواكب، فنظر، فرآهم خلقاً كثيراً، فبذلوا للقاهر مالاً فكَفَّ عنهم.

وقيل: إنهم طائفةٌ من اليونان. وقال ابنُ الكلبي: الذي أظهر مذاهبهم رجل يقال له: يوداسف(٤)، في زمان طهمورث، وكان من كلامه: إن معالي الأمور، والشَّرف الكامل، والصلاح الشامل، ومعدن الحياة الأبدية، في هذا السَّقف المرفوع، وإن الكواكب هي المدبِّرات والواردات والصادرات، وذكر كلاماً طويلاً.

فصل في ذِكر الفُرس الأُوَل، وتَنقُّل الأحوال بهم وتَقلُّب الدول

واختلفوا في فارس على أقوال(٥):

أحدها: أنه فارس بن سام بن نوح عليه السلام، والثاني: فارس بن ياسور(٦) بن سام بن نوح، وأن نبيط وفارس كانا أخوين، وأبوهما ياسور بن سام، والثالث: أن فارس اسمُه أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وأميم أولُ من حلَّ ببلاد فارس فنُسبت إليه، ذكر هذه الأقوال الثلاثة هشام بن محمد الكَلْبي.

والرابع: أن فارسَ من ولد يوسف عليه السلام.

(١) انظر في رأي أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد إضافة إلى المراجع السالفة: المبسوط للسرخسي ٤/ ٢١١.
(٢) انظر قصة داود.
(٣) ذكر القرطبي وابن القيم وابن كثير وتاج الدين السبكي في طبقات الشافعية ٣/ ٢٣١ أن الذي أفتاه بذلك أبو سعيد الإصطخري.
(٤) في مروج الذهب ٢/ ١١١: بوداسف، وثمة كلامه.
(٥) ذكر هذه الاختلافات المسعودي في مروج الذهب ٢/ ١٣٨، وانظر صبح الأعشى ١/ ٣٦٩.
(٦) في (ك): ياسر، وسقطت من (خ)، والمثبت من (ب) وهو موافق لما في مروج الذهب.

والخامس: أنه فارس بن هدرام بن أرفخشذ بن سام بن نوح، قاله السدي.

والسادس: أنه من ولد لوط، قال عكرمة: وكان ابنَ بنته.

والسابع: أنه فارس بن بَوَّان بن إيران بن سام بن نوح عليه السلام، وبَوَّان هو الذي يُنسَب إليه شِعْب بَوَّان بفارس، وهو أحد المتنزَّهات الموصوفة، حتى قيل: إنه أنزهُ من غُوطة دمشق.

والثامن: أنه فارس بن كيومرت.

والتاسع: أنه فارس بن إيران بن كيومرت نفسه.

والعاشر: أنه من ولد منوشهر بن إيرج بن أفريدون بن وترك، ووترك[1] هو إسحاق على قول ابن الكلبي.

وقد فخرت العربُ العاربة بفارسَ على قَحْطان، وكان جرير بن الخَطَفَى يفتخر، ويذكر أن الفُرس والروم من ولد إسحاق، وأن الأنبياء من نسله: [من الطويل]

وأبناءُ إسحاق الليوثُ إذا ارتَدَوْا ... حمائلَ موتٍ لابسين السَّنَوَّرا[2]

إذا افتخروا عَدُّوا الصَّبَهْبَذَ منهم ... وكسرى وعَدُّوا القَيْصَرَيْنِ وحميرَا[3]

ومنهم سليمان النبيّ الذي دعا ... فأُعطي تبياناً[4] ومُلْكاً مُقَدَّرا

أبونا أبو إسحاقَ يجمع بيننا ... أبٌ كان مَهديّاً نبيّاً مُطَهَّرا

ويَجمعُنا والغُر[5] أبناء فارس ... أبٌ لا نُبالي بعده مَنْ تأخَّرا

وقال آخر من ولد فارس، يفتخر بأن الذَّبيح إسحاق، وأن الفُرس من ولده: [من المنسرح]

أيا بني هاجر أبانت لكم ... ما هذه الكبرياء والعَظَمهْ[6]

---

(١) في مروج الذهب ٢/ ١٤١: ويرك.

(٢) الأبيات من (ب) على تحريف فيها، والتصحيح من مروج الذهب ٢/ ١٤٣ (وعنه ينقل)، وديوان جرير ص٤٧٢ (بشرح ابن حبيب).

(٣) في مروج الذهب والديوان: الهرمزان وقيصرا.

(٤) في مروج الذهب والديوان: بُنياناً.

(٥) في (ب): ويجمعنا الغراء.

(٦) الأبيات من (ب) على تحريف فيها، والتصحيح من مروج الذهب ٢/ ١٤٦.

ألــم تــكــن فــي الــقــديــم أمُّــكــم لأمِّــنــا ســارة الــجــمــال أَمَــهْ
والــمــلــكُ فــيــنــا والأنــبــيــاءُ لــنــا إن تُــنــكــروا ذاك تُــوجــدوا ظَــلَــمَــهْ

وزعم مَن يحفظ أنسابَ الفُرس ويعتني بها أن ملوك فارس كانت تحجُّ البيت الحرام، تمسُّكاً بهدي أبيها إبراهيم عليه السلام، وأن آخر مَن حجَّ منهم ساسان بن بابك جدُّ أرْدَشير بن بابك، وهو أول ملوك الفُرس الثانية، وإنما سُمِّيت زمزم بذلك لأنه لما جاء وقف عليها وزمزم، قالوا للملك: زَمْزِمْ، فسُمِّيت بذلك لزمزمته، وأن ساسان هو الذي أهدى إلى الكعبة الغزالَيْن من الذهب والسيوف، فأخرجهما عبد المطلب(١).

وأنكر العارفون بالأنساب هذا، وقالوا بأن فارس من ولد سام بن نوح، وبينه وبين إسحاق عليه السلام قُرونٌ كثيرة على ما ذكرنا، ولا يُلتَفت إلى قول جرير؛ لأن العصبية حملتْه على ذلك، ولا يَثبت أن الفُرس حكموا على البيت الحرام ولا حَجُّوه، وإن الغزالَيْن من دَفْنِ جُرْهُمٍ، وزمزم اسمٌ لها من زمان أمِّ إسماعيل، ولو كان من ولد إسحاق عليه السلام فلِمَ عبدوا النيران وتمجَّسوا وكفروا؟ وإنما نزل فارس بتلك الأرض فنُسِبت إليه.

قال ابن قتيبة: وكان يَنزل بعضهم ببَلْخ، وبعضهم ببابل(٢).

وقال ابن الكلبي: أول ملوك فارس كَيُومَرْت بالكاف، وقيل: جيُومَرْتِ بالجيم. وبعضهم يزعم أنه آدم نفسه، وبعضهم يقول: ابن آدم لصُلْبه من حوَّاء، وهو قول علماء الفُرس(٣).

وقال قوم: هو أول بني الفرس، وكان منفرداً عن العالم، ولم يكن في زمانه ظلمٌ ولا فساد، فكَثُر الظلم والفسادُ والبغي، فاجتمع حكماءُ زمانه وقالوا: إن صلاح هذا العالم في إقامة مَلِك يُورِد الأمور ويُصدِرها، كما أن صلاح الجسد بالقلب، وإن العالَم الصغير من جنس العالم الكبير، لا تستقيمُ أمورُه ولا تنتظم أحوالُه إلا برئيس

---

(١) انظر مروج الذهب ٢/ ١٤٨ ـ ١٥٠.
(٢) المعارف ص٦٥٢.
(٣) انظر تاريخ الطبري ١/ ١٤٦.

يُدبِّره على ما تقتضيه قضايا العقول.

فصاروا إلى كيومرت وقالوا: أنت أفضلُنا وأشرفُنا، وبقية أبينا آدم، ولا بدَّ لنا من تقديمك علينا، وتفويض أمورنا إليك. فأخذ عليهم العهود والمواثيق على السمع والطاعة وتَرْكِ الخلاف عليه، فوضعوا التاجَ على رأسه، وهو أولُ مَن لبسه من ملوك الدنيا.

ثم خطب بالسُّريانيّة ـ وهو أول مَن خطب ـ فقال كلاماً معناه بالعربية: نحمد الله على نعمه[١]، ونشكُره على أياديه، ونرغب إليه في مزيده، فإن بالشكر تدوم النعم، ونسأله المعونة على ما دفعنا إليه، وحسن الهدايةِ إلى العقل[٢] الذي يجمع الشَّمل ويُصفّي العَيْشَ. وذكر كلاماً طويلاً.

وهو أول مَن أمر بالسكون على الطعام لتأخُذَ الطبيعة بقِسْطها منه، فيَصلُح البدنُ بما يَرِدُ إليه من الغِذاء، وتسكن النفس عند ذلك.

وقد اختلفوا فيه اختلافاً كثيراً، فالفُرس تَزعُم أنه أول النَّسْل، وأنه عاش ألف سنة. ومنهم مَن يقول: إنه من نبات الأرض من الرِّيباس، وليس له أبٌ، وأنه حارب إبليس فقتله.

ومنهم مَن يقول: هو جابر[٣] بن يافث بن نوح، وكان ينزل جبل دُنْباوَنْد من بلاد طَبَرِسْتان، ثم عَظُم أمره، وكَثُر ولده، وملك الأقاليم كلها، وبنى المدن والحصون، واتَّخذ الخيول والسلاح، وتسمَّى بآدم، وقال: مَن سمَّاني بغيره قتلتُه، وتزوج ثلاثين امرأةً.

وهو أبو الفُرسِ كلِّهم، وأما غير الفُرْس فإنهم يقولون: أقام ملكاً أربعين سنة، ومات[٤].

(١) في (ك): إنعامه.
(٢) في (ب) و (خ): الفعل، والمثبت من (ك) ومروج الذهب ٢/ ١٠٨.
(٣) كذا في النسخ، وفي تاريخ الطبري ١/ ١٤٧: جامر، وفي نسخة منه، والمنتظم ١/ ٢١٨، والكامل لابن الأثير ١/ ٤٦: حام.
(٤) مروج الذهب ٢/ ١١٠.

فصل

ثم قام بعده أوشهنج ـ ويقال: هوشنك ـ وهو أخو كَيُومَرْت ـ وقيل: كيومرت، وقيل: جيومرت بالجيم ـ وبعضهم يقول: كيومرت جدّ أبيه، فنزل الهند.

وهو أولُ مَن اتخذ الصوف والشعر وبنى سابور بفارس، واتخذ الخيل والبغال والحمير وكلاب الصيد والماشية، وكتب بالفارسية.

وكان عبداً صالحاً مطيعاً لله تعالى، يهرُبُ الشيطان منه إلى المفاوز والجبال هو وجنوده.

فلما تُوفِّي فرح إبليس بموته، ودخل إبليس وجنوده مساكنَ بني آدم.

وقد اختلفوا فيه، فقال الكلبي: هو ابنُ آدم لصُلبه، وقيل: ابن نوح، والأول أصح، ويقال: إنه مَهْلائيل، وقيل: هو الذي يُسمى فيشداذ، ومعناه: أول مَن حكم بالعدل؛ لأن «فاش» معناه: أول، و«داذ»: عدل.

والفرْس تزعم أنه ابنُ ابنِ جيومرت، وأن الله بعثه عذاباً ونقمةً على الشياطين، وأنه قهرَ إبليس وجنوده، وكتب عليهم كتاباً، وأخذ عليهم المواثيقَ أنهم لا يتعرضون للإنس[١]، وقد ذكرناه[٢].

وعاش أوشهنج في المُلك أربعين سنة ومات.

فصل

ثم ملك بعده ولده طهمورث، وقيل: هو ابن ابنه، قال ابن مسكويه: بينهما آباء كثيرة[٣].

ونزل طهمورث سابور[٤]، وبعد مُضِيِّ سنةٍ من ملكه ظهرت الصابئة، وقد ذكرناه[٥].

---

(١) انظر تاريخ الطبري ١/ ١٦٩.

(٢) في فصل إبليس وجنوده.

(٣) تجارب الأمم ١/ ٦.

(٤) في النسخ: نيسابور، والمثبت من مروج الذهب ٢/ ١١١، وتاريخ الطبري ١/ ١٧٢.

(٥) في فصل الحرانيين

ثم مات طهمورت، واختلفوا في سنه قيل: إنه عاش مئة سنة، وذكر جدي في «أعمار الأعيان»[(١)] أنه عاش ألف سنة.

فصل

ثم ملك بعده أخوه جَمْ شِيد، وتفسيره: سيّد الشعاع، وكان ينزل بفارس، وقد ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه» فقال: ملك الأقاليمَ كلَّها، وسُخِّر له مَن فيها من الجن والإنس، وجعل الناسَ أربع طبقات: مقاتلةً، وفقهاءَ، وخدماً، وحَرَّاثين، ووكَّل الشياطين بقطع الصخور وأذَلَّهم.

والفرس تزعُم أنه سليمان عليه السلام، وأمر بعمل عجلة من زجاج، فكان يَركب عليها، وتحملُه الشياطين في الهواء من دُنْباوَنْد إلى بابل في يوم واحدٍ، فاتُّخِذَ ذلك اليوم نَيروزاً، وهو الذي قتله الضَّحَّاك ونَشَره بالمِنشار على ما بيَّنا فيما تقدَّم[(٢)].

وهو أول مَن أحدث النَّيْروز، وأقام ست مئة سنة مطيعاً لله تعالى، ثم طغى وتجبَّر، وبغى وادَّعى الربوبية، فطلبه الضحاكُ فهرب من بين يديه مئة سنة، ثم ظَفِر به فنَشَره، وقيل: إنه مَلَك ألفَ سنة، وقيل: خمس مئة سنة[(٣)].

فصل

ثم ملك بعده الضحاك بن الأهبوب، والعرب تَزعم أنه منها[(٤)]، وقد ذكرناه في سيرة نوح، وأن أفريدون قتله وكابي، وأنه عاش ألف سنة[(٥)]، وفيه يقول أبو نُواس: [من المنسرح]

وكان منّا الضَّحاكُ تَحذَرُه الـ ... ـخابِلُ[(٦)] والوحشُ في مساربِها

---

(١) ص١٢٨.

(٢) مرآة الزمان قصة سليمان وقصة الضحاك.

(٣) تاريخ الطبري ١/ ١٧٦ـ١٧٨ و ٢٠٠ـ٢٠١، وانظر مروج الذهب ٢/ ١١٢ـ١١٣، والبدء والتاريخ ٣/ ١٤٠ـ١٤١، وتجارب الأمم ١/ ٦ـ٧.

(٤) انظر المحبر ص٣٩٣.

(٥) انظر سيرة نوح عليه السلام في الجزء الأول.

(٦) في النسخ: الحامل، والتصحيح من تاريخ الطبري ١/ ١٩٤، وديوانه ٢/ ٢ (برواية حمزة)، وانظر مروج الذهب ٢/ ١١٤، والخابل: الجن.

فصل

ثم ملك بعده أفريدون بن قَباذ بن جَمْ شِيد، وقيل: إنه التاسع من ولد جَمْ شيد، وكانت دار مُلكه بابل، ومَلَك خمس مئة سنة، وقسم الأرض بين ولده، وملك الأقاليم كلَّها، ورَدَّ جميع ما أخذ الضحاكُ من الغُصوب على أهله، وما لا وَجد له أهلاً وَقَفه على المساكين.

وكان له ثلاثةُ أولادٍ قسم الدنيا بينهم، فوثب اثنان منهما على واحد، واسمُه إيرج، فقتلاه، وقد ذكرناه فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام[١]، وعاش أفريدون خمسَ مئة سنة.

فصل

ثم ملك بعده مِنُوجَهر - ويقال: مِنُوشَهر - بن إيرج الذي قتله أخواه، وهو ابن أفريدون، وكان ينزل ببابل، ويقال إن موسى ويوشع عليهما السلام كانا في زمانه، وجرت له وقائع مع عمَّيه اللذين قتلا أباه، وقيل[٢]: كان في آخر أيام الخليل عليه السلام.

قال ابن مسكويه في «تجارب الأمم»: نشأ لإيرج بن أفريدون ولدٌ يقال له: منوجهر، فغلب على مُلْك أبيه، وقاوم عمَّيه طوجا وأخاه سرما، ونشأ لطوج[٣] ولدٌ، فنفى منوجهر عن بلاده، ثم أُدِيلَ منوجهر عليه فنفاه، وعاد إلى منوجهر ملكُ أبيه إيرج.

وكان منوجهر عادلاً منصفاً محسناً، وهو أولُ مَن حفر الخنادق، وجمع آلة الحرب، ووضع الدَّهْقَنة لكل قرية فجعل لها الدَّهاقين، وجعل لهم العبيد والخَوَل[٤].

وسار نحو التُّرك، وطلب دمَ جدِّه إيرج بن أفريدون - وقيل: إنه أبوه - فأدرك ثأْرَه، ثم عاد إلى العراق، وقيل: إنه قتل طوجاً وأخاه، وأقام والياً مئة وعشرين سنة[٥].

---

(١) سلف في الجزء الأول، وانظر تاريخ الطبري ١/ ٢١٢-٢١٤، ومروج الذهب ٢/ ١١٦، والبدء والتاريخ ٣/ ١٤٤-١٤٥، وتجارب الأمم ١/ ١٠.

(٢) في (ك): وقال ابن مسكويه، وليست في (خ)، والمثبت من (ب).

(٣) في النسخ: طوخا وأخاه شرما ونشأ لطوخ.

(٤) في تجارب الأمم ١/ ١٢: وجعل أهلها عبيداً وخولاً.

(٥) تجارب الأمم ١/ ١٢، وانظر تاريخ الطبري ١/ ٣٧٩، ومروج الذهب ٥/ ١١٧.

ومِنُوشَهر هو الذي خَطَب تلك الخُطبة الطويلة التي ذكرناها فيما تقدَّم، لمّا تغلَّبَ التركُ على البلاد[١].

فصل

وملك بعده أفَرْاسياب بن فارس من ولد أفريدون، ويقال له: التركي؛ لأنه أقام ببلد التُّرك فنُسِب إليها، لا أنه تركيٌّ.

وذكره ابن مسكويه فقال: ثم نشأ أفراسياب بن ترك، وإليه تُنسب الترك من ولد طوج بن أفريدون، فحارب منوشهر، وحصره بطَبَرِسْتان، ثم إن منوشهر وأفراسياب اصطلحا وضربا بينهما حدّاً لا يجاوزه واحد منهما، وهو نهر بَلْخ، فلما مات منوشهر تغلَّبَ أفراسياب على بابل ومملكة فارس، وأقام بِمهْرِجان قَذَق، وعاث في الأرض ودَفَن القُنِيَّ، وغوَّر المياه، فقَحِطَ الناسُ وأصابهم الجَهْد والبلاء[٢]، وقد أشرنا إلى هذا فيما تقدم[٣].

فلما مضى من مُلكه اثنتا عشرة سنة، خرج عليه رجل من ولد منوشهر، واختلفوا في اسمه على أقوال، أحدها: زو بن[٤] بهماسب، والثاني: زاب بن طهماسب، قاله هارون بن المأمون، والثالث: زوبا، والرابع: زاغ[٥]، واتَّفقوا على أنه من ولد منوشهر.

وقال هارون بن المأمون: لما مات منوشهر تَغلَّب أفراسياب على الفرس، وأخرب البلاد، وظلم وجار، فقَحِط الناس، فظهر زاب بن طهماسب، وكان منوشهر قد طرد أباه إلى بلاد الترك، فتزوج هناك امرأة فولدت له زاب بن طهماسب، فلما كبر زاب قتل جدَّه لأمه، وتبعه جنده، فسار نحو أفراسياب، فأخرجه عن بلاد فارس إلى الترك،

(١) انظر فصل في افريدون.

(٢) تجارب الأمم ١/ ١٢و١٧، وانظر تاريخ الطبري ١/ ٣٨٠و٤٥٣، ومروج الذهب ٥/ ١١٧ـ١١٨.

(٣) انظر فصل في افريدون.

(٤) في النسخ: دو، والمثبت من تاريخ الطبري ١/ ٤٥٣، ومروج الذهب ٥/ ١١٨، والبدء والتاريخ ٣/ ١٤٧، وتجارب الأمم ١/ ١٨.

(٥) في تاريخ الطبري وتجارب الأمم: زو، زاب، زاغ، زاسب.

فكانت مدة افراسياب على بابل لما أخرجه عن بلاد فارس اثنتي عشرة سنةً.

وملك زاب فأحسن السيرةَ، ووضع الخراج عن العراق سبع سنين، واستخرج النهر المعروف بالزاب من بلاد أرمينية، وقيل: إنما أخرج الأنهار الثلاثة: الزاب الكبير والأوسط والصغير، وسماهم باسمه، وبنى على جانب النهر مدينة، وهي المسمَّاة بالعتيقة، وغرس حولها البساتين، وعدل وأحسن، فأخصبت البلاد، وكثرت الخيرات(١).

وقيل: إن أفراسياب قتل الملك الذي يقال له: زو، وكان مقام زو ثلاث سنين، وأقام زاب في المُلك سبع سنين، ومات.

فصل

وخلف بعده ولدُه كَيْ قَباذ، وكان جباراً، وله مع التّرك وقائعُ، وكان نازلاً على جانب نهر بَلْخ، يمنع التُّرك من الغارات على بلد فارس، وهو أولُ مَن أَخَذ العُشر من الغَلَّات، وكان له وزيرٌ من ولد أفريدون يقال له: كاشف، ويقال: إنهما شركاء في المُلْك، وأقام عشرَ سنين ثم مات(٢).

ويقال: إن كيقباذ ابنُ زو، وزو ابن زاب، ويقال: إن زو كان وزيراً لزاب؛ ذكره ابن مسكويه، وملك ثلاث سنين(٣).

فصل

ثم ملك بعد كي قباذ ولدُه كي كاووس، وقيل: كي قابوس بن قباذ، وكان يسكن بناحية بلخ، ووُلد له ولدٌ سماه سياووس أو سياخوس(٤)، ولم يكن في عصره أجملَ

(١) انظر الأخبار الطوال ص١٠ـ١١، وتاريخ الطبري ١/ ٤٥٤ـ٤٥٥، وتجارب الأمم ١/ ١٨.

(٢) ذكر الطبري في تاريخه ١/ ٤٥٥، وابن مسكويه في تجارب الأمم ١/ ١٨ أن كرشاسب (أوكرساسف) كان وزيراً لزو، وقيل: كانا مشتركين في الملك، والأول أصح، وذكر الطبري ١/ ٤٥٦، والمطهر المقدسي في البدء والتاريخ ٣/ ١٧٤ أن ملك كيقباذ كان مئة سنة.

(٣) الذي في تجارب الأمم ١/ ١٨ أن ملك زو كان ثلاث سنين، وأما ما سبق فلم أجده فيه، وانظر الحاشية السابقة.

(٤) في تاريخ الطبري ١/ ٥٠٤، ومروج الذهب ٥/ ١١٨، وتجارب الأمم ١/ ٢٠، والمنتظم ١/ ٤٠٠: سياوخش لم يُرَ مثله في عصره جمالاً وتمام خلقه، وفي البدء والتاريخ ٣/ ١٤٨: سياوش.

منه، فسلَّمه إلى إصبَهْبَذ سِجِسْتان، واسمُه: رستم بن كاشف الذي ذكرناه، وقيل: رستم بن ديسان، ويُعرف بالشديد، فحمله إلى سجستان، وتخيَّر له المراضع، ثم فُطِم، فأدَّبه أحسن تأديب، وعلَّمه الفروسية فبرع فيها، وقَدِم على أبيه فامتحنه فرآه كاملاً فأعجبه.

وكان لكي قابوس امرأةٌ بارعة الجمال، وهي بنت أفراسياب ملك الترك، وقيل: بنت ملك اليمن، فهَوِيت سياووس وهَوِيها، ودَعَتْه إلى نفسها فامتنع احتراماً لأبيه، فقالت لأبيه: إنه تعرَّضَ لي، فأفسدت ما بينهما، فأعرض عنه. وفهم سياووس فسأل رستماً أن يسأل أباه أن يُولِّيه حرب أفراسياب ليَبْعُد عن أبيه، فأجابه إلى ذلك، وأرسل معه جيشاً عظيماً، فلما نزل بلاد أفراسياب صالحه بواسطة وزيره، وعاد عسكر [كي] قابوس إليه[1].

وزوَّج أفراسياب سياووس ابنتَه، ويقال لها: شافرند[2]، فحبلت منه بولد سمّاه: كي خسرو.

وأقام سياووس عند أفراسياب، فأحبَّه الناس ومالوا إليه، فدَسَّ إليه أفراسياب مَن قتله غِيلةً.

وبلغ كي كاووس ما فعل أفراسياب بابنه، فدَسَّ إلى بلد الترك مَن حمل إليه زوجة ابنه سياووس وولده كي خسرو، ثم أرسل كي كاووس رستماً إلى أفراسياب، وبعث معه طوس بن نوردان، وكان مَرزباناً على رُبع العراق، فأوغلا في بلاد أفراسياب وقتلا، وقتل طوسٌ قاتلَ سياووس، وقتل رستم ولدين لأفراسياب، ويُقال لهما: سهرة وشهرة.

ثم إن كي كاووس تجبَّر وطغىَ، وحَدَّث نفسه بصعود السَّماء، فعمِل النسور، ويقال: هو أحد النماردة، وبلغ إلى السحاب فسقط وكاد يهلك، واضطرب عليه مُلكُه.

وكان باليمن يومئذٍ ملكٌ يقال له: ذو الأذعار بن أبرهةَ ذي المنار [ابن] الرائش، فغزاه كي كاووس فخرج إليه ذو الأذعار بجيوشه، والتقيا فظَفِر بكيكاووس، واستباح

(١) انظر تاريخ الطبري ١/ ٥٠٦، وتجارب الأمم ١/ ٢١.

(٢) في تاريخ الطبري: وسفافريد.

عسكره، وألقاه في جُبٍّ، وأطبق عليه طبقاً من نحاس، ووَكَّل به خواصَّه، وبلغ رستماً وهو بسِجِسْتان، فجيَّش الجيوش، وسار إلى اليمن، واجتمع إليه عسكرُ كي كاووس، فأَخرج كي كاووس من الجُبِّ وظَفِر باليمن وعاد إلى بابل.

ويقال: إن رستماً لما قصد اليمن خرج إليه ذو الأذعار بجيوشه، فخندق كلُّ واحدٍ منهما على عسكره، وطال الأمرُ بينهما، وخافا الهلاكَ على عسكريهما، فاصطلحا على تسليم كي كاووس إلى رستم، فسلَّمه إليه، وعاد به إلى بابل، فأعفاه كيكاووس لرستم من الخِدمة، وأقطعه سِجِسْتان وغيرها، وعَرَف له ما فعل معه.

وقيل: إن كي كاووس أقام في الجُبِّ سبعَ سنين[1]، وفيه يقول أبو نُواس يفتخر باليمن على الفرس: [من المنسرح]

وقاظَ كاووسُ في سلاسِلنا سنينَ سبعاً وَفَتْ لحاسِبِها[2]

ويقال: قابوس.

وكان كي كاووس بين يوسف وأيوب، واختلفوا في مُدَّة مُلكِه على قولين: أحدهما: أربعون سنة، والثاني: مئة سنة.

فصل

وملك بعده ابنُ ابنِهِ كي خسرو بن سياووس، الذي أمه بنت أفراسْياب، وتَحيَّل جدُّه كيكاووس حتى حملها إليه إلى بابل، وقد ذكرناه.

فجلس كي خسرو على السَّرير وعلى رأسه التَّاج، وسار يطلب ثأر أبيه من جدِّه لأمه افراسياب، وكتب إلى إصبَهْبَذ خُراسان واسمه جودر[3] يأمره بالتقدم إلى أفراسياب، فسار، ثم بعث طوس بن بوذران في ثلاثين ألفاً ومعه عم لكي خسرو يقال له: برزافره[4] بن كي كاووس، وكان سياووس بن كي كاووس قد تزوج في الترك امرأة،

(١) جاء عقب هذا في (ب) غزو قابوس لملك اليمن شمر يرعش، ثم بيت أبي نواس وستأتي في (خ) و (ك) بعد ذكر زرادشت، وهناك موضعها.

(٢) ديوان أبي نواس ٢/ ٣، وانظر: تاريخ الطبري ١/ ٥٠٤-٥٠٩، وتجارب الأمم ١/ ٢٠-٢٢.

(٣) في تاريخ الطبري ١/ ٥٠٩، وتجارب الأمم ١/ ٢٣: جوذرز.

(٤) في النسخ: برافرة، والمثبت من تاريخ الطبري وتجارب الأمم.

فولدت له ولداً فسمَّاه فردوين، ووُلد قبل أن يُولد كيخسرو، وأم فردوين من بعض نساء الأتراك.

وأوصى كي خسرو طوساً ورستماً أن لا يقتلا أخاه لأبيه فردوين، فلما التقى العسكران خرج فردوين يقاتل، فقتله طوس - وقيل: قُتِل في جملة الناس - وبلغ كي خسرو فحزِن على أخيه، وكتب إلى عمه برزافره أن يقيد طوساً ويبعثَ به إليه، ففعل.

وعبر كي خسرو النهر، وقسم عسكره قسمين من ناحيتين، ودخل إلى التُّرك، فلم يكن لأفراسياب به طاقة، فانهزم، وأكثرت الفرسُ القتلَ في الترك. قال ابن مسكويه: فلم يكن قط مثل ذلك، كان القتلى خمس مئة ألف وستين ألفاً على ما تَزعُم الفرس، والأسرى ثلاثين ألفاً، والغنائم لا تُحصى(١).

وتَبع كي خسرو أفراسياب، فظفر به عند سيره، فأسره، ثم أحضر الملوك والموابِذَة والعلماء وقال لهم: ما جزاءُ مَن استجار به خائف والتجأ إليه فعدا عليه فذبحه؟ فقالوا: يُفعَل به كما فَعل. فقال له: لم ذبحت أبي؟ فلم يكن لأفراسياب حجةٌ، فذبحه. وعاد إلى خراسان وقد صَفَت له الدنيا، فبنى مدينة بَلْخ وسمَّاها الحسناء(٢)، وأقام بها.

ولما استقامت له الدنيا تزهَّد وتنسَّك، وعَهِد إلى ولده لهراسب، فلما رأى ذلك أهلُ مملكته جزعوا لفقدِه، وتضرَّعوا إليه، فقال: قد أقمتُ لكم مَن ينظرُ في أموركم، وهو ولدي لهراسب. وقيل: إنه لم يكن ولدَه، وإنما كان صاحبَه خصيصاً به، وكان ملك كي خسرو ستين سنة، وخَفِي أمرُه.

فصل

ثم مَلَك بعده لهراسب، ويقال: إنه الذي كان بُختُ نَصَّر إصبَهْبَذَ عسكره، وفي أيامه فعل بخت نصر ببني إسرائيل ما فعل. قالوا: وفيه بُعْد، بينهما زمان طويل، ومَلك لهراسب عشرين ومئة سنة، ثم مات.

---

(١) تجارب الأمم ١/ ٢٤-٢٥، وانظر تاريخ الطبري ١/ ٥١٢.

(٢) في تاريخ الطبري ١/ ٥٣٨، ومروج الذهب ٥/ ١٢١، وتجارب الأمم ١/ ٢٦ أن الذي بنى بلخ وسماها الحسناء لهراسب الذي ملك بعد كيخسرو.

فصل

ثم ملك بعده بشتاسف بن لهراسب، فغزا بلاد الترك وأوغل فيها، ويقال: إن أباه لم يمت، وإنما عَهد إليه.

ولما دخل بلاد الترك خلف أباه لهراسب ببلْخ في أثقاله، فجاء ابن أخي أفراسياب فقطع النهر وحاصر بَلْخاً، ولم يثبت له لهراسب، وكان قد كبر وأسنَّ فقتله ابن أخي أفراسياب، وأسر ابنتين كانتا لبستاسف، يقال لإحداهما: خُمانى، والأخرى: ياذفوه[1]. وبلغ بشتاسف فعاد، وكان قد حبس ولده اسفنديار، فأطلقه وجَهّز معه الجيوش، فدخل بلاد الترك، وهزم ابن أخي أفراسياب، وقتل عسكره، وسبى، واستنقذ أختَيْه، وعاد إلى أبيه، فخاف منه أبوه، فأرسله إلى رستم وكان قد عصى عليه، فقتله رستم.

وفي أيام بشتاسف رجع بنو اسرائيل إلى القدس، وعاش العُزير، فظهرت المجوسية على يد زَرَادُشْت المجوسي.

فصل في ذِكره

قال علماء السِّيَر: هو زَرادُشْت بن أسبيمان[2]، من ولد مِنُوجِهر، ادَّعى أنه نبيُّ المجوس، وظهر بأَذْرَبيجان، فكان يُخبر بالعجائب، فيقول: يموت فلانٌ في اليوم الفلاني، ويُولد فلان في الوقت الفلاني، وأشباه هذا. وقيل: كان ساحراً.

وجاءهم بكتاب سمّاه: «بستاه»، يدور على ستين حرفاً من حروف الهند، فيه الغرائبُ، حتى قيل: إنه يكتبُ في الرفوف، ويُجلَّد بجلد اثنتي عشرة ألف بقرةٍ[3]. قلت: وهو قول بعيد. ولم تزل ملوك الفرس تُعظِّمُه وتعمل به، وتبني له الهياكلَ، حتى غزاهم الإسكندر اليونانيُّ فأحرق بعضَه، وبقي بعضُه في خزائن الهند.

---

(١) في تاريخ الطبري ١/ ٥٦٢: باذفراه.

(٢) في (خ) و(ك): أسمان، وفي (ب): أشمان، والمثبت من مروج الذهب ٥/ ١٢٤، وعند الطبري ١/ ٥٦١: أسفيمان.

(٣) في تاريخ الطبري ١/ ٥٦١، وتجارب الأمم ١/ ٣٠: فكُتب في جلد اثني عشرة ألف بقرة حفراً في الجلود ونقشاً بالذهب. وانظر مروج الذهب ٢/ ١٢٥.

ويقال: إن زرادُشْت كان خادماً لبعض تلامذة العُزير أو إرميا، فسرق من علوم بني إسرائيل، فدعا عليه أستاذُه فبَرِصَ، ولحق بأَذْربيجان، ثم سار منها إلى بُشتاسف وهو ببَلْخ، فادَّعى النبوَّة وجاء بهذا الكتاب، وقال: أُوحي إليَّ به، فصدَّقه بشتاسف، وبنى له هيكلاً بإِصْطَخْرَ، ووكَّل به الموابِذة[1]، وألزم الخواصَّ والحكماء تعليمه، وخالف زرادُشت جماعةٌ، فقتلهم بشتاسف حتى أفنى خلقاً كثيراً، فانقادوا له، وبنى له بيوتَ النِّيران.

وقد ذكره الجاحظ فقال: كان زَرادُشْتُ يزعُم أن الوحي يَنزِلُ عليه على جبل سيلان أو جِيْلان، فدعا أهلَ تلك النواحي الباردة الذين لا يَعرِفون الحرَّ، وجعل الوعيد بتضاعُفِ البَرْد، وقال: لم أُبعث إلا إلى أهل الجبال فقط. وأباح الوضوءَ بأبوال الإبل، وأباح غِشْيان الأمهات والبنات والأخوات وذوات المحارم، وقال: أنتم أحقُّ بهِنَّ من غيركم. وعظَّم أمر النيران[2].

وكان يقول: كان اللهُ ولا شيءَ معه، فطالَتْ وحدتُه ففكَّر، فتولَّد من فكره إبليس، فلما مَثَل بين يديه أراد قتله، فامتنع عليه، فوادعه إلى مُدَّةٍ، وسالَمه إلى غاية[3].

وكانت نبوَّةُ زَرادُشْت على زَعْمه خمساً وثلاثين سنة، وهلك وهو ابنُ سبع وسبعين سنة.

وما زال كتابه يُعمَل به إلى زمان كِسرى أنوشِرْوانَ، فأبطل العملَ به، وأحرقه الإسكندرُ، وبَقِيَت منه سورةٌ، فلما ظهر أرْدَشير بن بابَك جمع الفرس على تلك السورة، ويقال لها: اسناجه[4]، فالفرسُ إلى هلمَّ جراً يعظِّمونها، وقيل: اسمها اسمار.

ولما مات زرادُشت أقام لهم بشتاسف جاباس[5] من أهل أَذْرَبيجان، وهو أول مُوبِذ قام فيهم بعد زرادُشت.

---

(١) في تاريخ الطبري ١/ ٥٦١، وتجارب الأمم ١/ ٣٠: الهرابذة.

(٢) الحيوان ٥/ ٦٧ و ٣٢٤ـ٣٢٥، ونقله المصنف عن جده في المنتظم ١/ ٤١٣.

(٣) المنتظم ١/ ٤١٣، وانظر التنبيه والإشراف ص٩٧.

(٤) في مروج الذهب ٢/ ١٢٥: اسنادا.

(٥) في مروج الذهب ٢/ ١٢٧: خاناس، ومن قوله: وما زال كتابه... إلى: وهو أول موبذ قام فيهم بعد زرادشت؛ جاء في (ب) مؤخراً بعد مدة ملك بشتاسف.

قلت: وقد كان للمجوس نبيٌّ وكتابٌ، إلا أنه لا يتحقَّقُ ذلك، فروى أبو زُرعة المقدسي أو الدمشقي: أن فروة بن نوفل قال بمحضر من الصحابة: علامَ تُؤخذ الجزية من المجوس وليسوا أهلَ كتاب؟! فقام إليه المستورد بن شداد فقال: يا عدوَّ الله، أتَردُّ على الخلفاء الراشدين؟! وذَهَب به إلى علي عليه السلام، وأخبره بما قال، فقال علي: أنا أعلمُ الناس بالمجوس، كان لهم علم يتعلَّمونه، وكتابٌ يدرسونه، وإن ملكهم سَكِر، فوقع على أمه أو ابنته، فاطلع عليه بعضُ أهل مملكته، فلما صحا جاؤوا يُقيمون عليه الحدَّ، فامتَنَع، وقال: هل تعلمون دِيناً خيراً من دين آدم؟ قالوا: لا. فقال: قد كان يُزوِّج ابنه من ابنته. فاتَّبعوه ـ أو تابعوه ـ على ذلك، وقتلوا مَن خالفه، فأصبحوا وقد أسري بكتابهم، وذهب ذلك العلم الذي في صُدور الباقين[1].

وقال ابن عباس: لما مات نبيُّهم كتب لهم إبليس المجوسية.

قلت: وقد أخذ النبي ﷺ الجزية من مجوس هَجَرَ على يد العلاء بن الحضرمي، وكذا الخلفاءُ الراشدون بعده.

وعامَّةُ العلماء على أنه لا يجوز للمسلم نكاحُ المجوسية، وقال أبو ثور: يجوز، قياساً على أهل الكتاب، فإنه يُؤخذ منهم الجزية. ولعامة العلماء قوله عليه السلام: «سُنُّوا بهم سنةَ أهل الكتاب، غير آكِلي ذبائحهم، ولا ناكحي نسائهم»[2]، وقد بيَّنا أنهم ليسوا بأهل كتاب.

قلت: وبشتاسف بن لُهراسف صاحب هذه الترجمة أقام في الملك مئة وعشرين سنة، ثم مات.

وظاهر الروايات يدل على أن لُهراسب والد بشتاسف ولي بعد كي خسرو بن سياووس على ما ذكرنا.

---

(١) القصة والقول في المنتظم ١/ ٤١٣ـ٤١٤، وانظر الخراج لأبي يوسف ص١٣٠، والسنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٨٨ـ١٨٩.

(٢) أخرجه أبو يوسف في الخراج ص١٣٠، ومالك في الموطأ ١/ ٢٧٨ من حديث عبد الرحمن بن عوف. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢/ ١١٤: هذا حديث منقطع، وانظر الاستذكار ٩/ ٢٩٢، وسنن البيهقي ٩/ ١٨٩ ـ ١٩٠، وفتح الباري ٦/ ٢٦١.

وقال بعضهم: إنما ولي بعد كي خسرو [كي] قابوس من ولد أفريدون، وتجبَّر وطغى، وسار إلى اليمن وبها ملك يقال له: شمريرعش، فخرج إليه [شمر] فأسر كي قابوس وحبسه في أضيق الحبوس، فنظرت إليه ابنةٌ لشمر فهويته، واسمها: سعدى، وكانت تحسن إليه وإلى أصحابه سرًّا مدة أربع سنين، فسار إليه رستم من خراسان في أربعة آلاف سرية[1]، فلم يشعر به شمريرعش إلا وقد بغته، فقتله، واستنقذ كي قابوس وردَّه إلى مُلكه، فأخذ سعدى معه إلى بابل، وأحسن إليها، فهويت ولده سياووس فلم يطاوعها، فأغرت بينه وبين أبيه حتى كان من أمره مع أفراسياب ما ذكرناه، وتزويجه ابنته وقتله إياه، وقتل كي خُسرو أفراسياب بأبيه على ما ذكرناه. ويقال: إن رستماً قتل سعدى. والرواية الأولى أشهر.

وقيل: إن كي خسرو لم يكن له عقب، فعمد إلى لهراسب لأنه من بيت الملك.

ويُروى أن كي خسرو غزا الشام والمغرب، وسبى امرأةً من بني إسرائيل اسمُها دنيا، فتزوجها، فيقال: إنها كانت سبباً لرجوع بني إسرائيل إلى القدس.

فصل

ولما مات بشتاسف مَلَك بعده ولدُه اسفنديار، ويقال: أردشير، ويقال: بَهْمَن، وهو جدُّ دارا الأكبر وأبوساسان، ومعنى بَهْمَن: الحسن.

ويقال: إن بَهْمَن ابنُ اسفنديار بن بشتاسف، وكانت أمُّ بَهْمَن من بني إسرائيل ولدِ سليمان عليه السلام، وجرت له مع رستم حروب، وكان ملك بهمن عشرين ومئة سنة[2].

وفي أيامه رُدَّ البيتُ المقدَّس إلى بني إسرائيل، وقيل: إنما رُدَّ في زمان كورش الفارسي نائب بَهْمَن بالعراق، وكان بَهْمَن ببلخٍ يومئذٍ، ويقال: إن دانيال الأصغر خالُ بَهْمَن. وملك بَهْمَن الأقاليم كلَّها.

---

(١) في مروج الذهب ٥/ ١١٩ وما بين معكوفين منه: أسرى رستم من بلاد سجستان سرية في أربعة آلاف.

(٢) في تاريخ الطبري ١/ ٥٦٩، ومروج الذهب ٢/ ١٢٧، والتنبيه والإشراف ص٩٨، والبدء والتاريخ ٣/ ١٥٠، والمنتظم ١/ ٤٢١ أن ملكه كان مئة واثنتي عشرة سنة، وقيل: ثمانين سنة.

وقال الجاحظ: كان بهمن يُدعى أردشير الطَّويل الباع، لأنه كان يتناول ما تمتدُّ إليه يده من الممالك، ويقال: إنه بنى الأُبُلَّة، ويقال: إنه جدُّ دارا الأكبر، وقيل: أبوه وأبو ساسان[١].

وكانت لبهمن ابنةٌ يقال لها: خُمانى، حملت من أبيها بدارا الأكبر[٢]، وكانت أديبةً عاقلةً، وكان ساسان قد ولده بهمن من امرأةٍ أخرى، فسألت خمانى أباها أن يَعقِد التاج على بطنها لدارا، ففعل، وكان ساسان يتوقَّع المُلك، ومات أبوه، ومال إليها أهلُ المملكة لإحسان أبيها إليهم فملَّكوها.

فلما رأى ذلك ساسان تعبّد وتنسَّك، ولَحِق بجبال إصطَخْر، واتّخذ غُنَيْمَةً، وكان يتولَّاها بنفسه ـ وهذا هو ساسانُ الأكبر، أما ساسان الأصغر فهو أبو الفرس الثانية ـ ولما اتَّخذ الغُنَيمة استقبح الناسُ هذا، وقالوا: صار ساسانُ راعياً.

ثم وضعت خمانى بعد شهور من موت بهمن دارا بن بهمن، وكانت قد استولت على الممالك، وجَهَّزت الجيوش إلى الروم، فمنعَتْهم عن التطرف إلى بلاد فارس، وعاش الناس في أيامها.

فلما وضعت دارا أَنِفت من إظهاره لاستقلالها بالملك، فجعلته في تابوتٍ، وجعلت معه جوهراً نفيساً، وألقتْه في نهرٍ من أنهار إصطخر، فساقه الماء إلى طاحونةٍ لرجل من أهل إصطخر، ففتح التابوت، فرآه ورأى ما معه فقال: لهذا شأنٌ. وكتم أمره، وربَّاه، وعلَّمه الفروسية.

وظهر أمره للفرس، وبلغ أمَّه، فأحضرت الأساورة وأحضرتْه، واعترفت أنه ابنُها من بهمن، وحوَّلت التاج عن رأسها ووضعته على رأسه، وفوَّضت إليه أمرَ المُلك، وانتقلت خمانى إلى إصطخر، وبنت مدينةَ إصطخر، وأقامت ثلاثين سنةً عادلة محسنة عاقلة.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في المنتظم ١/ ٤١٦ دون عزو للجاحظ، ولم نقف عليه في كتبه.

(٢) في هامش (ك) حاشية نصها: لعن الله المجوس، كيف تتحرك جوارحهم وشهواتهم على بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم، فهذا من فساد مركوز في جبلاتهم، لعنهم الله.

وقد قيل: إن خمانى إنما حملت بساسان من بهمن، وأنه الذي ألقته في النهر، وليس بصحيح، والأول أصحّ.

وتُوفِّيت خمانى بعد عمارة القُدس في زمان دانيال الأصغر بست وعشرين سنة[١].

فصل

ولما تُوفِّيت استقلَّ ابنُها دارا بالملك، فضبط الممالك، وأحسن السيرة، ونزل بابل، فكان مَن حوله من الملوك يُؤدُّون إليه الإتاوة، يعني الخراج. ووُلد له ولد فسمَّاه دارا الأصغر، وكان معجَباً به، وبلغ من حبه إياه أنه سماه باسمه، وعهد إليه بعده. وملك دارا الأكبر اثنتي عشرة سنة، ومات.

فصل

فملَكَ بعده ولدُه دارا الأصغر، فأساء السيرة، وظلم الرعية، وتجبَّر وطغى وبغى، وقتل الأساورة.

وكان سببُ فساد حاله أنه كان لأبيه دارا الأكبر وزيرٌ يقال له: رشين[٢]، وكان عاقلاً، وكان لدارا غلامٌ قد رُبِّي معه اسمه: بيري، فجرى بين بيري وبين الوزير كلامٌ، فأساء أدبَه على الوزير، فأخبر الوزير دارا الأكبر بذلك، فسقى الغلام شربة فمات، فحقد دارا الأصغر على الوزير، فلما مات دارا الأكبر وولي دارا الأصغر قتل جماعة الوزير، واستوزر أخا الغلام بيري، ولم يكن أهلاً للوزارة، فأفسد عليه قلوبَ الناس، فاستوحشوا منه، ونفروا عنه، وكاتبوا الإسكندر الرومي، فسار إليه فقتله لما نذكر.

واختلفوا في مدة ملك دارا الأصغر؛ فقيل: ملك أربع عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سنة، وقيل: ثلاثين سنة، وهو آخر ملوك الفرس الأُول.

قلت: وقد اختلفوا في عددهم وسنينهم اختلافاً كبيراً، أشار إليه الجاحظ، ومحمود بن الحسن الأصبهاني في «تاريخه»، وأبو معشر، والمسعودي. وقد ذكرت في

---

(١) انظر الأخبار الطوال ص٢٧ـ٢٨، وتاريخ الطبري ١/ ٥٦٩ـ٥٧٠، ومروج الذهب ٢/ ١٢٧ـ١٢٩، والبدء والتاريخ ٣/ ١٥٠ـ١٥٢، وتجارب الأمم ١/ ٣٤، والمنتظم ١/ ٤٢١ـ٤٢٢.

(٢) في تاريخ الطبري ١/ ٥٧٢: رستين، وفي تجارب الأمم ١/ ٣٥: رشتين.

كتابي هذا ما اشتهر من عدد ملوكهم، وسنينهم، وما قالوه.

قال الجاحظ فيما حكاه: فعدَّة ملوك الفرس الأولى ستة عشر ملكاً وامرأة، ومدة ما ملكوا من السنين ثلاثة آلاف سنة وزيادة.

وقد ذكرنا ذلك، فإن كان كيومرت عاش ألف سنة، وجم شيد ألف سنة، والضَّحاك ألف سنة، فيكون المبلغُ أكثر مما ذكر الجاحظ.

وقد قسمهم محمود بن الحسن الأصبهاني في «تاريخه» أربع طبقات قال: الفيشدانية، والكيانية، والأشغانية، والساسانية.

قال: فالفيشدانية عددهم تسعة ملوك، أولهم أوشهنج، ويلقب: فيشاد، وزمان ملكهم ألفان وأربع مئة وسبعون سنة.

والطبقة الثانية: وهم الكيانية، وعددهم عشرة، وأولهم كي قباذ، وزمان ملكهم سبع مئة سنة.

والطبقة الثالثة: وهم الأشغانية، وعددهم أحد عشر ملكاً، وزمان ملكهم ثلاث مئة وأربع وأربعون سنة، وأولهم أشك بن أشك.

والطبقة الرابعة: الساسانية، وعدتهم أربع وعشرون ملكاً، وزمان ملكهم أربع مئة وتسع وسبعون سنةً، وأول ملوكهم أردشير بن بابك، وآخرهم يزدجرد بن شهريار المقتول في أيام عثمان بن عفان.

قلت: وقد لحق الأصبهاني ما ذكر في كتابه وزيادة، لأنه قال: تواريخ الفرس مدخولةٌ غير صحيحة، لأنها نُقلت من لسان إلى لسان، ومن خط متشابه إلى مثله.

قال: وقد لخّصت ما وقع لي من كتب ابن المقفع، ومحمد بن الجهم، وخزانة المأمون، وغير ذلك.

وقد وهم؛ لأنه خلَط الفرس الأولى بالثانية، وجعل الجميع أربعاً وأربعين ملكاً، وعدد سنينهم ـ على ما قالوا ـ زيادة على أربعة آلاف سنة.

وقال ابن الكلبي: ملوك الفرس ستون ملكاً. وقال السدي: ثمانون، وثلاث نسوةٍ.

وسنذكر الفرس الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فصل في سيرة الإسكندر اليوناني وهو الثاني

واختلفوا في نسبه، قال الغزالي: إن الإسكندر الروميَّ هو الصَّعب بن جابر، وكان أبوه نسَّاجاً، واسم أمه هيلانة، وكان يتيماً في حمير، سمعت أمُّه ببيت الصنائع في القُسطنطينية فحملتْه إليه، فشاهد صور الأشياء، فقالت له: اختر ما تريد، فوضع يده على تاج الملك، فنَهَتْه مراراً فلم ينته، فنظر إليها يونان متولِّي بيت الصنائع، فقال لها: أنت هيلانة؟ قالت: نعم. قال: وهذا ابنُك الصعبُ بن جابر[(١)]؟ قالت: نعم. فأخذ عهده وذمامه أنه وذريته في أمانه، وقال له: أبشر، فأنت الملك الذي يسحب ذيلَه على أقطار الدنيا شرقاً وغرباً.

فرجعت به أمه إلى بابل وكتمت أمره. فرأى في ثلاث ليالٍ ثلاثَ منامات: رأى في الأولى كأنه شرب مياه البحار كلِّها، وأكل طينها، ورأى في الثانية: كأنَّ الأرض صارت خُبزةً فأكلها، ورأى في الثالثة: كأنه رقي إلى السماء، فعد نجومها ورمى بها إلى الأرض، وركب الشمس، وسحب بناصيةِ القَمر. فاجتمع بالخضر فأخبره بما رأى، فبشّره بنَيْل الممالك، وقال له: استصحب نبياً وحكيماً.

قال المصنف رحمه الله: يا ليت شعري، من أين روى أبو حامد الغزالي هذه الروايات؟! وهل توجد في كتاب يُوثَق به من المنقولات؟ وهل قال قائل: إن الإسكندر الثاني اسمُه الصعبُ بن جابر؟ إنما هو الأول. وقوله: كان أبوه نسَّاجاً، وقد اتَّفق أرباب السِّير أنه ملك اليونان. وقوله: يتيماً في حِمْير، وأين اليونان من حمير؟! وقوله: حملته أمّه إلى القُسطنطينية، وهل بُنيت إلا بعد رفع عيسى عليه السلام بمدة طويلة؟! وقوله: رأى الخضر، وأين هو من الخضر؟! بينهما زمانٌ طويل، وقوله: استصحب معك نبياً، وهل كان اليونان يقرون بالنبوات؟!.

وقد نسبه الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في «المنتظم» فقال: هو الإسكندر ابن فيلفوس بن مرطويس[(٢)] بن هرمس بن هردس بن منظور[(٣)] بن رومي بن لمكي[(٤)] بن

(١) في هامش (ك) حاشية: الصعب وجابر من أسماء العرب لا اليونان.

(٢) في (ب) برطويس، وفي الطبري ١/ ٥٧٧، والمنتظم ١/ ٤٢٤، والكامل ١/ ٢٨٤: مطريوس.

(٣) في (ب) وتاريخ الطبري ١/ ٥٧٧: ميطون.

(٤) في تاريخ الطبري ١/ ٥٧٧: ليطي، وفي مروج الذهب ٢/ ٢٤٨: لبط، وفي المنتظم ١/ ٤٢٥: يلظي.

يونان بن ثوبة بن سرحون بن رومية بن بوبط بن زرمي بن الأصفر بن إيلنفز[١] بن العيص ابن إسحاق عليه السلام، وكان أبوه ملك اليونان.

وقال علماءُ السير: وُلد الإسكندر لثلاثَ عشرة سنةً مضت من ملك الأراكنة، وسلَّمه أبوه إلى أرسطاطاليس الحكيم، وكان مقيماً بمدينة اقمينية[٢]، فأقام عنده خمسَ سنين يتعلَّم منه الحكمة والأدب، فنال منه ما لم ينلْه أحدٌ من تلامذته. ومرض أبوه فخاف على الملك، فاستردّه وعهد إليه ومات، فاستولى الإسكندر على الملك، وكانت الملوك تهابه.

قصته مع دارا[٣]

كان أبوه ملكاً على بلاد اليونان، وتهابه الملوك إلا الفرس، فصالحه دارا بن دارا ملك فارس على أن يحمل إليه في كل سنة ألف بيضة من ذهب، في كل بيضةٍ مئة مثقال. فلما مات فيلفوس لم يَحمل إليه الإسكندرُ شيئاً، فكتب إليه دارا يهدِّده ويتوعَّدُه حيث أخّر الإتاوة، وبعث إليه بكرة وصولجان وخرقةٍ فيها سِمسم، وقال: أنت صبي، فالعب بهذه الكرة والصَّولجان، فإن أديت الإتاوة وإلا بعثت إليك بجنودٍ بعدد هذا السمسم، وأتيتُ بك في وثاقٍ.

فكتب إليه الإسكندر: أما بعد، فقد تَيمَّنت بالكرة والصولجان، فإن الدنيا مثل الكرة وسألعب بها، وأضيف ملكك إلى ملكي، وأما السمسم فقد تَيَمّنْتُ به لأنه بعيد عن الحَرافة[٤] والمرارة، وأما الدجاجة التي كانت تبيض ذاك البيض فقد ذبحتُها وأكلتُ لحمها.

فغضب دارا وسار إليه بجموعه، وسار إليه الإسكندر بجموعه، فالتقيا على نصيبين الجزيرة، وقيل: مما يلي الخزر من ناحية خراسان، والأول أصحُّ.

فلما همَّ دارا باللقاء، بعث إليه الإسكندر يقول له: أيها الملك لا تفعل، فإن دماء

(١) في المنتظم: زوفي بن الأصفر بن أليفز، وفي الطبري والكامل: رومي بن الأصفر بن أليفز.
(٢) في تاريخ الطبري ١/ ٥٧٣، والكامل ١/ ٣٨٢: مقدونية.
(٣) انظر تاريخ الطبري ١/ ٥٧٣، والأخبار الطوال ص٢٩ـ٣٢، ومروج الذهب ٢/ ٢٤٧، والبدء والتاريخ ٣/ ١٥٢، وتجارب الأمم ١/ ٣٥، والمنتظم ١/ ٤٢٣.
(٤) الحَرافة: طعمٌ يُحرِق اللسان. «لسان العرب»: (حرف).

الملوك لا يجوز إراقتها، وهدم البيوت القديمة غير محمودٍ، والبغيُ مصرعه وخيم، والحرب غير مأمونة، وأصحابك قد مَلُّوك وكرهوك لسوء سيرتك، فارجع من حيث جئت، فإنك تَحمد قولي. فلم يلتفت دارا، وأقاما يتحاربان سنة، فمَلّا وكَلّا، والحرب بينهما سجال.

ذكر حيلةٍ دبَّرها الإسكندر

لما وقع المَلَلُ من الفريقين برز منادي الإسكندر فقال: يا معاشر الفرس، علمتُم قديماً [ما] كان من مكاتباتكم إلينا، وما كتبنا لكم من الأمانات، فمَن كان منكم مقيماً على الوفاء فليتحوَّل إلينا، فله منا الوفاءُ بالعهد. فاتَّهمت الفرسُ بعضها بعضاً واضطربوا، فكان ذلك سبباً لخذلان دارا، ووَثب عليه رجلانِ في المعركة ممن أحسن إليهما من خلْفِه، فطعناه، فوقع.

وكان الإسكندرُ قد نادى: مَن ظَفِر بدارا فلا يؤذِه، وجاء الرجلان إلى الإسكندر فقالا: قد قُتِل دارا. فجاء الإسكندر إليه ونَزَل عن فرسه ووجده بَعدُ حياً، فقعد عند رأس دارا، وقال: والله ما هَمَمْتُ بقتلك، ولا سَرَّني ما أنت فيه، ولقد نَهيتُ عنه، ويعزّ عليَّ ما أصابك، ثم رَقَّ له وبكى عليه، وقال: سلني حاجةً، فقال: تقتلُ فلاناً وفلاناً اللذين قتلاني، فإني كنتُ محسناً إليهما، وأن تتزوج ابنتي روشنك، فقال: سمعاً وطاعة. وأحضر الرجلين ومثَّل بهما، وقال: هذا جزاء مَن يتجرَّأ على مَلِكه.

وتفرق مُلك فارس بقتل دارا، وكان مجتمعاً، واجتمع ملك اليونان والروم بالإسكندر، وكان متفرقاً.

ثم سار الإسكندر إلى بابل، وجلس على سرير الملك، ثم قال: أدالنا اللهُ من دارا، ورزقَنا خلافَ ما كان يتوعَّدُنا به.

ثم استولى على خزائنه وذخائره وسلاحه وجواهره، فلم يقدر على إحصائها، وتزوج ابنته روشنك، وبنى لها داراً، وقيل: مدينة عند بابل، ولم يكن لها في زمانها نظير. وقيل: إن روشنك كانت زوجةَ دارا، ولم يكن في زمانها أجمل منها، فقيل له: ألا تتزوجها، فقال: أكره أن يُقال: غلب الإسكندر دارا، وغلبت عليه روشنك.

ولما استولى على مُلك فارس عرض جيشه فكان ألف ألف وأربع مئة ألف، وكان عسكرُ دارا ألف ألف، وعسكر الإسكندر أربع مئة ألف.

وشرع فهَدم بيوت النِّيران، وقتل المَوابِذة، وأحرق كتبهم، وسار إلى الشرق فأوغل في الهند والصين، وفتح المدائن، ودانت له الملوك، وبنى مدينة أصبهان وهراة ومرو وسمرقند.

ولما وصل إلى الهند خرج إليه ملكها في ألف فيل عليها المقاتلة، وفي خراطيمها السيوف، فلم تثبت لها خيل الإسكندر، فصنع فيلة من نحاس مجوَّفة، وربط خيله بينها حتى ألِفَتْها، وملأها نفطاً وكبريتاً، ثم ألبسها السلاح، وجرّها على العَجَل إلى ناحية العدو، وبينها الرجال، فلما نَشِبت الحرب أمر بإشعال النار في أجوافها، فلما أُشعِلت تنحَّت عنها الرجال، وغشيتها فيلة الهند، فضربتها بخراطيمها، فاحترقت وولَّت هاربةً، فكانت الدائرة على ملك الهند.

ذكر قصته مع بود ملك الصين

وهو صاحب مدينة المانكير، ولما نزل الإسكندر على المانكير خرج إليه الملك، وأرسل إليه يقول: علام تُفني العالم؟ ابرُزْ إليَّ، فإن قتلتني كنت الملك، وإن قتلتك فأنا الملك. فتيمَّن الإسكندرُ لكونه بدأ بنفسه في ذكر القتل، فبرز إليه، فتجاولا ساعةً، فقتله الإسكندر وأخذ بلاده.

ذكر قصته مع كند (١)

كان بأقصى الهند مَلِكٌ حكيمٌ عادل، صاحب سياسة، واسمه كند، أتت عليه سنون كثيرة. فكتب إليه الإسكندرُ يستدعيه ويتوعَّدُه إن تأخر عنه. فكتب إليه يتلطَّفُه ويعتذرُ إليه بِكبر السنّ ويقول: قد بعثت إليك بهدايا لم يقدر عليها أحد من الملوك، منها: فيلسوف يخبر بالمقصود قبل أن يُسأل عنه، وطبيب لا يُخاف معه إلا الداء المحتوم، وجارية لم تطلع الشمس على مثلها، وقَدَح إذا ملأتَه شرب منه جميعُ عسكرك لا ينقصُ منه شيء.

(١) انظر مروج الذهب ٢/ ٢٦٠.

فلما وصلت الهدية إلى الإسكندر مع خواص الملك، أكرمهم وأحسن إليهم، وشاهد الجارية فحار في حُسنها، وأكرم الطبيب، وأنزل الفيلسوف قريباً منه وامتحنه، فأرسل إليه قدحاً مملوءاً سمناً لا يسع شيئاً آخر، فغرز الفيلسوف فيه إبراً وردَّه، فأمر الإسكندر بسَبْك تلك الإبرِ كُرةً مدوَّرة متساويةَ الأجزاء، وردَّها إلى الفيلسوف، فأمر الفيلسوفُ بسَبْكها مرآةً صَقيلةً وردَّها إلى الإسكندر، فأعادها إليه، فدعا الفيلسوفُ بطَشْت فتركها فيه، وأمر بصبِّ الماء عليها، ثم عَمِل منها مشربةً وجعلها في الماء فطَفَت، وأعادها إلى الإسكندر، فملأها تراباً وردَّها إلى الفيلسوف، فلما رآها بكى وتغيَّرت أوصافُه، وردَّها، وجعل يبكي ويقول: ويحَكِ يا نفسُ، ما الذي قَذَف بك في هذه الظُّلمة؟ ألست إذا كنتِ تسرحين في النُّور، وتَمْرَحين في العلوِّ، ثم أُنزلت إلى العالم المظلم، عالم الكون والفساد، أين مصادرك الطيبة، ومواردك اللذيذة؟ حللتِ بين السِّباع الضَّارية، والأفاعي المهلكة، لا تشاهدين إلا غافلاً، ولا تُعاشرين إلا جاهلاً، وذكر كلاماً طويلاً.

وبلغ الإسكندر، ففهم أنه أشار إلى نقل النفوس من العالم العلوي إلى العالم السفلي، فاستدعاه، فرآه حسن الصورة، مشرق اللون، فقال: ما معنى غرز الإبر في السَّمْن؟ فقال: فهمتُ من إرسال القدح أنك تقول: قد امتلأ قلبي بالحكمة كما مُلئ هذا القَدَحُ، فليس فيه مُستزاد، فأخبرتك أن حكمتي تزيد على حكمتك، وتدخل فيها دخول الإبر في السَّمن.

قال: فلم عملت الإبر مرآةً؟ قال: لأني علمتُ أن قلبك قد قسا من سَفْك الدماء، وسياسة العالم، فأريتُك أفعالَك فيها. قال: فما الكرةُ؟ قال: الدنيا. قال: فما بالُ المشربة؟ قال: هي حبُّ الدنيا، تُشربُ ولا تُشْبِعُ. قال: فلم طَفَت؟ قال: فلم يَطفو الأجل؟ قال: فما بالُ التراب؟ قال: فهمتُ أنك تقول: ما بقي غير النزول فيه، ومفارقة النفس الناطقة هذا الجسد، وذكر كلاماً طويلاً.

فأعجب به الإسكندر، ودفع له أموالاً جليلة فلم يقبلها، وقال: لو أردت المال ما آثرتُ عليه العلم، ولست أُدخِل على علمي ما يُنافيه، وليس بعاقلٍ من خدم غير ذاته، واستعمل ما لا يصلح نفسه، والذي يصلحها صِقالُها بالحكمة، ورَدْعُها عن تناول

اللذات، فإنها صَدؤها، ومن عدم النظر في العالم العُلوي عدم القُربة من بارئه. فقال له الإسكندر: لله دَرُّك. ولأحسننَّ إلى صاحبك لأجلك، ثم صرفه مكرماً.

ذكر واقعة أخرى

لما توغَّل الإسكندرُ [في] بلاد الصين، بينا هو في بعض الليالي جالساً نصف الليل إذ دخل الحاجب، فقال: رسولُ ملك الصين على الباب. فأَذِن له، فدخل فجلس، فقال له: قُل. فقال: الأمر الذي جئتُ فيه لا يحتمل الزِّحام، فأَخْلِني. ففتَّشوه، فلم يجدوا معه حديداً، فأُخلي المجلس وبقي هو وإياه، فقال له: قل، فقال: أنا ملكُ الصين. قال: وما الذي آمنك مني؟ قال: ليس بيني وبينك عداوةٌ، ولا مطالبةٌ بذَحْلٍ، وبلغني أنك رجل عاقل حكيم، ولو قتلتني لم تظفر بطائل، فإنهم يُقيمون غيري، وتُنسب إلى الغدر، فأخبرني ما الذي تريدُ مني؟ فقال: ارتفاع مُلكِك ثلاث سنين آجلاً، ونصف ارتفاعها في كل سنةٍ عاجلاً[1]. فقال: لقد أجحَفْت. فما زال ينقصه حتى اقتصر على سدس المغل، ثم قام مسرعاً فخرج، وبات الإسكندر يفكر فيه.

فلما طلع الصباح، وإذا بملك الصين قد خرج في جيشٍ طبَّق الأرض، وعليه تاجه، وبين يديه الأمم، فركب الإسكندر واستعدَّ للقتال، ثم ناداه: يا ملك الصين أغدراً؟ فانفرد عن أصحابه، وقال: لا، ولكني أردتُ أن أعرِّفَك أنني لم أطعك عن ضعف وقلة، وما غاب عنك من جنودي أعظم، ولكن رأيت العالم الكبير مقبلاً عليك، ممكنك ممن هو أقوى منك وأكثر عدداً، ومَن حارب العالم الكبير غُلِب.

ثم ترجَّل وقبّل الأرض بين يدي الإسكندر، فنزل الإسكندرُ من فرسه، وأجلسه معه على سريره، وقال: ليس مثلُك مَن يُؤخَذ منه خراجٌ، وقد أعفيتُك، فما أحقَّك بالإنصاف والفضل، ولم تر عيني مثلَك. فقال الملكُ: أما إذا فعلت هذا، فلا بُدَّ من مجازاتك. ثم انصرف وبعث إلى الإسكندر بأضعاف ما كان قرّره عليه، وبعث إليه الإسكندر بمثل ذلك.

(١) في تجارب الأمم ١/ ٤٠، والمنتظم ١/ ٤٢٦: ارتفاع مملكتك لثلاث سنين عاجلاً ونصف ارتفاع مملكتك لكل سنة.

وحكي عنه أنه رأى رجلاً وكان يُسمَّى الإسكندر، وكان كثير الهزيمة، فقال له: إمّا أن تغير اسمَك، وإما أن تغيّر فعلَك.

ذكر وفاته وسِنِّه

مَلَك وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وتوفي وهو ابن إحدى وثلاثين سنة[١]، فكان مُلكُه عشر سنين، وقيل: ثلاثَ عشرةَ سنةً، وقيل: أربع عشرة سنةً أو ستَّ عشرة سنة، بمقدار مُلك دارا بن دارا الذي قتله الإسكندر، وكان قتلُه لدارا في السنة الثالثة من ملكه. وتُوفِّي بشَهْرَزُور، وقيل: بنَصِيبينَ، وقيل: ببابل، والأول أصحُّ.

وقال هارون بن المأمون: دخل الظلمات مما يلي القطب الشمالي، فسار فيها ثمانية عشرَ يوماً، ثم رجع إلى العراق، فاحتُضر، فأوصى أن يُحمل إلى أمه في تابوتٍ من ذهب، فطُلي بالأطلية المُمْسِكَة لذاته وأجزائه، وكانت أمه بالإسكندرية، وكتب إليها أيضاً كتاباً يعزيها بنفسه، فتلقته في نساء المملكة باكيةً حزينةً تقول: إن فقدتُ من ولدي أمره فما فقد قلبي ذكره.

وقيل: إنه أوصى إلى أرسطاطاليس: أنه إذا مات يُجعل في تابوت من ذهب، ويتكلَّم الحكماء عليه، كما فُعل بذي القرنين.

فتولاه أرسطاطاليس بنفسه، وجمع الحكماء وقال: ليتكلم كلُّ واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزِّياً، وللعامة واعظاً. فقاموا وأحدقوا بالتابوت، فقال الأول: أصبح مستأسرُ الأسرى أسيراً[٢].

وقال الثاني: ما أزهد الناس في هذا الجسد، وأرغبهم في هذا التابوت.

وقال الثالث: من العجب أن القوي قد غُلب، والضعفاءَ لاهون.

وقال الرابع: أيها الساعي الحريصُ، جمعتَ ما خذلك عند الاحتياج إليه، فعاد مغناه لغيرك، ووبالُه عليك.

---

(١) في تاريخ الطبري ١/ ٥٧٨، ومروج الذهب ٢/ ٢٥٧، والتنبيه والإشراف ص١١٤، والمنتظم ١/ ٤٢٨ أن عمره حين توفي كان ستاً وثلاثين سنة.

(٢) في مروج الذهب ٢/ ٢٥٢: أصبح آسر الأسرى أسيراً.

وقال الخامس: رب حريصٍ على سكوتك [إذ لا تسكت]، وهو اليوم حريصٌ على كلامك [إذ لا تتكلم].

وقال السادس: يا عظيم الشأن، اضمحلَّ سلطانُك كما اضمحل ظلُّ السحاب، وعَفَت آثارُك كما عفت آثار السَّراب(١).

وقال السابع: يا مَن ضاقت عليه الأرضُ، ليت شعري كيف حالُك فيما احتوى عليك منها.

وقال الثامن: هذا الذي كانت الآذانُ تنصت لكلامه، قد سكت فلْيتكلَّم الآن كلُّ ساكتٍ.

وقال التاسع: سيلحق بك مَن سرَّه موتُك، كما لحِقْتَ بمن سرَّك موتُه.

وقال العاشر: كنتَ تأمرنا بالحركة، فما بالك ساكناً.

ولما مات الإسكندر عرضوا على ولده إسكندروس المُلك فامتنع، واختار النُّسُك والتعبُّد، فملَّكت اليونان عليها بطليموس.

فصل في ذكر أرسطاطاليس

اعلم أن أرسطاطاليس حكيمُ اليونان، ورئيسهم المطلق، وصاحب المنطِق، وكان يُؤدِّب الإسكندر في صغره، وكان الإسكندر يُعظِّمُه ويكاتبه ويشاوره، فكان بمنزلة الوزير عنده.

وقيل للإسكندر: إنك تُعظِّم مؤدِّبَك أكثرَ من تعظيم والدك؟ فقال: لأن أبي كان سبباً لحياتي الفانية، ومؤدبي سبباً لحياتي الباقية. وقال مرة أخرى: أبي كان سبباً في رِقِّي، ومؤدبي سبباً في نُطقي(٢).

وجلس يوماً كاملاً لم يسأَله أحد حاجةً، فقال لجلسائه: ما أعد هذا اليومَ من عمري. قيل: ولم؟ قال: لأن الملك لا يَلتذُّ إلا بالجود على السائل وإغاثة الملهوف،

(١) في مروج الذهب ٢/ ٢٥٤ وما بين معكوفين منه: وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الذباب.
(٢) الملل والنحل ٢/ ١٣٧.

ومكافأةِ المُحسِن، وإنالةِ الراغب، وإسعافِ الطالب.

وشاوره أصحابُه في السجود له، فقال: لا يستحق ذلك إلا البارئُ تعالى، لأنه كسانا بهجة الفضائل.

وأغلظ له رجل، فقام بعضُ أصحابه إليه ليقتله، فقال له الإسكندر: لا تنحطَّ إلى دناءته، وارفعه إلى شرفك.

وقال: من انتجعك فقد أسلَفَك حُسنَ الظنِّ بك[١].

وكتب إلى أرسطاطاليس: بم تأمرني؟ فكتب إليه: اجمع في سياستك بين بِدارٍ لا حِدَّة فيه، ورَيْثٍ لا غفلة[٢] معه، وامزج كل شيء بشكله، وصُنْ وعدك عن الخلف فإنه شَيْن، وشِبْ وعيدك[٣] بتأخير العقوبة فإنه زَيْن، وكن عبد الحق فإن عبد الحق حرٌّ، وليكن خُلقك الإحسانَ إلى جميع الخلق، وأَظْهر لأهلك أنك منهم، ولأصحابك أنك بهم، ولرعيتك أنك لهم.

وكتب الإسكندر إليه يخبره أن في عسكره جماعةً لا يأمنهم على نفسه، لبُعْد هممهم وشجاعتهم وقلَّة عقولهم، ويكره أن يُقدم عليهم بالقتل على وجه الظِّنَّة، مع وجوب الحُرمة وسابق الخدمة، فكتب إليه أرسطاطاليس: أما ما ذكرتَ من بُعد هممهم، فإن الوفاءَ من بُعد الهمة. وأما ما ذكرتَ من شجاعتهم وقلة عقولهم، فإن كانت هذه الحالة فرفِّهْهُم في معيشتهم، وخُصَّهم بحسان النساء، فإن رفاهية العيش تُوهي العزم، وتُحبِّب السلامة، وتُباعد من ركوب الغرور، وأحسن خُلُقك تَخلُص لك النيّات، ولا تتناول من لذيذ العيش ما لا يمكن أوساط رعيتك مثله، فليس مع الاستئثار محبة[٤]، ولا مع المساواة بِغْضة. واعلم أن المملوك إذا اشتُرِي لا يَسأل عن مال من اشتراه، وإنما يَسأل عن خُلُق مولاه.

وكتب إليه الإسكندر: إني أرى رجالاً ذوي أصالة في الرأي، وحُسنِ التَّدبير،

(١) العقد الفريد ١/ ٢٣١. وانتجع فلاناً: أتاه يطلب معروفه.
(٢) في النسخ: عجلة، والمثبت من الملل والنحل ٢/ ١٣٨.
(٣) في النسخ: وعدك، والمثبت من الملل والنحل ٢/ ١٣٨ وما سبق من أخبار فيه.
(٤) في النسخ: صحبة، والمثبت من تجارب الأمم ١/ ٣٨، والمنتظم ١/ ٤٢٧.

واعتدال الخلق، ولهم مع ذلك صرامة وشجاعة، ولا آمنهم أن يَثِبوا عليَّ، ولا تستقيم الأمور إلا ببوارهم. فكتب إليه: أما بعد: فإنك إذا قتلتهم؛ أَنْبت إقليم بابل أمثالَهم، لأنه إنما يُنبت الرجالَ العقلاء، أهل الرأي والسداد، والاعتدال في التركيب، فصاروا أعداءً لك، وإخراجُهم من عسكرك مخاطرةٌ بنفسك وأصحابك، فافعل ما هو أنفع لك من قتلهم، استدع أولاد الملوك منهم؛ فقلِّدهم البلدان، وولِّهم الولايات، ليصيرَ كلُّ واحد منهم ملكاً برأسه، فتتفرَّق أجسامهم، وتجتمع كلمتُهم على الطاعة. ففَعَل الإسكندرُ ذلك، فصَلَحت الأحوالُ[1].

وكتب إليه: إنما تُملَك الرعايا بالإحسان إليها، فأحسن تظفرْ بالمحبة منها، واعلم أنك إنما تملك الأبدان، فاجمع إليها القلوب.

وقال الجاحظ: أرسطاطاليس تلميذ أفلاطن، وأفلاطن تلميذ سُقراط[2].

وقال الهيثم: رؤساء الفلاسفة ستة: سُقراط، وبُقراط، وأفلاطن، وفيثاغورس، وثالس، وأرسطاطاليس، وهو الفيلسوفُ الأعظم عندهم، وهو الذي رتَّب علومهم وهذَّبها وحذف الحشو منها، وانتخب الأقرب إلى الصواب، وزاد على مَن تقدَّمَه حتى على أستاذه أفلاطن الألمعي. وقد اعتذر عن ذلك فقال: أفلاطن أستاذ وصديق، والحق صديق، وهو أصدقُ منه.

وقال: لكلِّ شيءٍ صناعة، وصناعة العقل حُسنُ الاختيار.

وقال: اعصِ الهوى، وأَطِعْ من شئت.

وقال: الأديانُ أوطان.

وقال: إذا خان السفيرُ بطَلَ التدبير، وإذا كان الجاهلُ عدوّاً لنفسه، فكيف يكونُ صديقاً لغيره؟!

وقال للإسكندر: إن الناس إذا قدروا أن يقولوا، قدروا أن يفعلوا، فاحترز من أن يقولوا، تسلم من أن يفعلوا. فقال له: صدقت أيها الحكيم[3].

---

(١) تجارب الأمم ١/ ٣٩.

(٢) ذكره المسعودي في التنبيه والإشراف ص١٢٠، ومروج الذهب ٢/ ٢٥٠ دون عزو إلى الجاحظ.

(٣) في هامش (ك): ليس هذا من كلام أرسطو.

وقيل له: ما البلاغة؟ فقال: حسنُ الاستعارة، وقيل: الاستدلالُ بالقليل على الكثير، وقيل: فتق المشكل، وإيضاح المعضل.

وكتب إلى بعض الملوك وكان قد اشتغل باللهو عن النظر في أمور الرعية: أما بعد، فإن الرعية إذا علمت تسلُّط الهوى على المَلك تسلَّطت عليه، فاقهر هواك بفضل يقظتك. فكتب إليه الملك: إذا كانت بلادنا عامرة، وعُمَّالنا عادلة، وسُبُلُنا آمنةً، فلِمَ نمتنعُ من لذةٍ عاجلةٍ؟ فكتب إليه: إنما تمهدت الأمور على ما ذكرت باليقظة دون الغفلة، فما أخوفني أن تهدم ما بنته اليقظة بما جنته الغفلة. فانتبه الملك وكتب إليه: صدقتَ أيها الرشيد[١].

وكانت وفاةُ أرسطاطاليس بعد وفاة الإسكندر بيسيرٍ، وعاش ستين سنة، وقال ابنُ حَوقل: إنه مُعلَّق في خشبة بجزيرة صِقِلِّية بالكنيسة، وكانت النصارى تستقي به[٢]، وعاش أفلاطن أيضاً ستين سنة.

قال المصنف رحمه الله: وقد وازن أبو علي بن حسن الحاتمي بين أرسطاطاليس والمتنبي[٣]، فقال:

قال أرسطاطاليس: مَن علم أن الكون والفسادَ يتعاقبان الأشياء، لم يحزن لورود الفجائع. قال المتنبي: [من الطويل]

إذا استقبلَتْ نفسُ الكريم مُصابَها ... بخُبْثٍ ثَنَتْ فاستدبرته[٤] بطيبِ

وقال: النفس المتجوهرة تأبى مقارنة الذّل [جداً، وترى فناءها في ذلك بقاءها]، والنفس الدنية بضد ذلك.

قال المتنبي: [من الطويل]

(١) انظر عيون الأخبار ١/ ٨، والعقد الفريد ١/ ٢٤-٢٥ و٤/ ١٩٠، والمنتظم ١/ ٤٢٧.

(٢) صورة الأرض ص١١٣.

(٣) في هامش (ك) حاشية: هذا لا يطلق عليه موازنة ولا وقع الحافر، وإنما المتنبي كان كثير المطالعة لكتب الفلاسفة، فأخذ هذه الكلمات الحكمية فسبكها شعراً، والله أعلم.

(٤) في النسخ: فاستقبلته، والمثبت من الرسالة الحاتمية ص١٤٦ (ضمن كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية)، وديوانه ٢/ ٢٠٤ بشرح ابن جني.

فحُبُّ الجبانِ النَّفسَ أَورده التُّقى   وحبُّ الشجاعِ النَّفسَ أَورده الحَرْبا[١]

وقال: أَقبحُ الظلم حسدُك لعبدك الذي تُنعم عليه.

قال المتنبي: [من الطويل]

وأظلمُ أهلِ الأرض مَن بات حاسِداً   لمَن بات في نعمائه يتقلَّبُ[٢]

وقال: موتُ النفس حياتُها، وعُدْمُها وجودُها، لأنها تلحقُ بعالَمها.

قال المتنبي: [من المتقارب]

كأنك بالفقر تَبغي الغنى   وبالموت في الحرب تبغي الخُلودا[٣]

وقال: أقربُ القُربِ مَودَّات القلوب وإن تباعدت الأجسام، ، وأبعدُ البُعد تنافر التداني. قال المتنبي: [من الوافر]

وأبْعدَ بُعدَنا بُعدَ التداني   وأقربَ قُربَنا قُربَ البعادِ[٤]

وقال: إذا كان البناءُ على غير قاعدةٍ، كان الفساد أقربَ إليه من الصلاح.

قال المتنبي: [من الوافر]

وإن الجُرحَ يَنفِرُ بعد حين   إذا كان البناءُ على فسادِ[٥]

وقال: تعاقُبُ أيام الزمان مفسدةٌ لأحوال الحيوان. قال المتنبي: [من المنسرح]

فما تُرجِّي النفوسُ من زمنٍ   أَحْمدُ حالَيه غيرُ محمودِ[٦]

وقال: أَتعَبُ الناس من اتَّسعت مروءَتُه، وقصرت مقدرتُه.

قال المتنبي: [من الطويل]

وأتعبُ خلقِ الله مَن زاد همُّه   وقصَّر عما تشتهي النفسُ وُجْدُه[٧]

(١) الرسالة ص١٤٦، وديوانه ٢/ ٢٣٢.
(٢) الرسالة ص١٥٢، وديوانه ٢/ ٥٧٦.
(٣) الرسالة ص١٥٦، وديوانه ٢/ ٩٧٣.
(٤) الرسالة ص١٥٦، وديوانه ٢/ ٩٤٦.
(٥) الرسالة ص١٥٦، وديوانه ٢/ ٩٥٦.
(٦) الرسالة ص١٤٥، وديوانه ٢/ ٧٧٠.
(٧) الرسالة ص١٥١، وديوانه ٢/ ١٠٦.

وقال: مَن استعمل الفكر في موضع البديهة فقد أضرَّ بخاطره، وكذا من استعمل البديهة في موضع الفكر. قال المتنبي: [من الطويل]

ووَضْعُ النَّدى في موضعِ السيف بالعُلا مُضِرٌّ كوَضْعِ السَّيفِ في مَوضعِ النَّدى[1]

وقال: مَن لم يَرفع نفسَه عن قَدْر الجاهل، رفع الجاهلُ قَدرَه عليه.

قال المتنبي: [من الطويل]

إذا الفَضْلُ لم يَرفَعْك عن شُكر ناقصٍ على نفسِه فالفضلُ فيمن له الشُّكرُ[2]

وقال: مَن أفنى مُدَّتَه في جمع المال خوفَ العُدْم، فقد أسلم نفسَه للعدم.

قال المتنبي: [من الطويل]

ومَن يُنفِقُ الساعاتِ في جَمْع ماله مخافةَ فقرٍ فالذي فَعَل الفقرُ[3]

وقال: مَن تخلَّى عن الظُّلم بظاهره، وسَكن إليه بحواسِّه، فهو ظالم.

قال المتنبي: [من الطويل]

وإطراقُ طَرْفِ العينِ ليس بنافعٍ إذا كان طَرْفُ القَلب ليس بمُطْرِقِ[4]

وقال: يَقبحُ بذي الجِدَة أن يفارقَه الجُود، لأنهما كشيءٍ واحد يحويهما إنسان.

قال المتنبي: [من الخفيف]

والغنى في يد اللئيم قبيحٌ قَدْرَ قُبْحِ الكريم في الإملاقِ[5]

وقال: نفوسُ الحيوان أغراضٌ لحوادث الزَّمان. قال المتنبي: [من الكامل]

[والمرءُ من حَدَثِ الزمان كأنه عَوْدٌ تداوَلَه الرُّعاةُ ركوبا
غَرضٌ لكل مَنيَّةٍ يُرمى بها حتى يُصابَ سَوادُه منصوبا

وقال: مَن استمرت عليه الحوادث لم يألَمْ بحلولها. قال المتنبي[6]]: [من الوافر]

---

(١) الرسالة ص١٤٨-١٤٩، وديوانه ٢/ ٨٣٣.
(٢) ديوانه ٣/ ١٥١، وليس في الرسالة الحاتمية.
(٣) الرسالة ص١٥٠، وديوانه ٣/ ١٥١.
(٤) الرسالة ص١٤٨، وديوانه ٤/ ٤٩٣.
(٥) ديوانه ٣/ ٦٠٥، وليس في الرسالة الحاتمية.
(٦) الرسالة الحاتمية ص١٤٥ وما بين معكوفين منها.

إذا اعتاد الفتى خَوْضَ المنايا فأهونُ ما يَمُرُّ بهِ الوُصُولُ[١]

وقال: نَقْلُ الطِّباع من ذوي الأطماع، شديدُ الامتناع. قال المتنبي: [من المتقارب]

يُرادُ من القلب نِسيانُكم وتأبى الطِّباعُ على النَّاقلِ[٢]

وقال: مَن علم أن الفناء مُسْتَولٍ على كونه، هانت عليه المصائب.

قال المتنبي: [من البسيط]

فالهجرُ أقتلُ لي مما أُحاذِرُه أنا الغريقُ فما خَوفي من البللِ[٣]

وقال: العِيان شاهدٌ لنفسه، والأخبار يتداخلها الزيادة والنقصان، فأَولى ما أخذ الإنسان ما كان دليلاً على نفسه. قال المتنبي: [من البسيط]

خُذْ ما تَراه ودَعْ شيئاً سَمعتَ به في طَلْعة الشمس ما يُغنيكَ عن زُحَلِ[٤]

وقال: قد يفسد العضو الواحد لصلاح أعضاءٍ كثيرة. قال المتنبي: [من البسيط]

لعلَّ عَتْبَك محمودٌ عواقِبُه وربَّما صَحَّت الأجسامُ بالعللِ[٥]

وقال: عِلَلُ الأفهام أشدُّ من عِلَل الأجسام. قال المتنبي: [من الطويل]

يَهونُ علينا أن تُصابَ جُسومُنا وتَسلَمَ أعراضٌ لنا وعُقولُ[٦]

وقال: الحكيم تُريه الحكمةُ أن فوق علمه علماً، فهو يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظنُّ أنه قد تناهى، فيسقط [بجهله، فتَمقُته النفوس].

قال المتنبي: [من الطويل]

وما التِّيهُ طِبِّي فيهمُ غيرَ أنني بَغيضٌ إليَّ الجاهلُ المُتَعاقِلُ[٧]

وقال: كلُّ ما له أول، تدعو الضرورةُ إلى أن يكون له آخِر. قال المتنبي: [من الكامل]

---

(١) الرسالة ص١٤٥، وديوانه ٣/ ٦٦٥.

(٢) الرسالة ص١٤٥، وديوانه ٣/ ٦٩٢.

(٣) الرسالة ص١٤٧، وديوانه ٣/ ٧٧٣ وفيهما: أراقبه، بدل: أحاذره.

(٤) الرسالة ص١٤٧، وديوانه ٣/ ٧٧٧.

(٥) الرسالة ص١٤٧، وديوانه ٣/ ٧٨٥.

(٦) الرسالة ص١٤٨، وديوانه ٣/ ٨٣١.

(٧) الرسالة ص١٤٨ وما بين معكوفين منها، وديوانه ٣/ ٨٤٣.

إنْعَمْ ولَذَّ فللأمورِ أواخرٌ   أبداً إذا كانت لهنَّ أوائلُ[(١)]

وقال: عدم الغِنى من النَّفس أشدُّ من عدم الغِنى من الملك[(٢)].

قال المتنبي [من الطويل]

غَثاثةُ عَيشي أن تَغَثَّ كرامتي   وليس بغَثٍّ أن تَغَثَّ المآكِلُ[(٣)]

وقال: مَن لم يقدر على فِعْل الفضائل، فلتكن فضيلتُه تَركُ الرَّذائل.

قال المتنبي: [من البسيط]

إنَّا لفي زمنٍ تَرْكُ القبيح به   من أكثر الناس إحسانٌ وإجمالُ[(٤)]

وقال: تخليد الذِّكر في الكتب عمرٌ لا يبيد، وهو في كل يوم ذكر[(٥)] جديد.

قال المتنبي: [من البسيط]

ذِكرُ الفتى عُمْرُه الثاني وعيشَتُه   ما قاتَه وفُضولُ العيشِ أشغالُ[(٦)]

وقال: إذا كانت الشَّهوةُ فوق القُدرة، كان هلاكُ النفس دون بلوغ الشهوة.

قال المتنبي: [من الخفيف]

وإذا كانت النفوسُ كباراً   تَعبتْ في مُرادها الأجسامُ[(٧)]

وقال: مَن لم يُرِدْك لنفسه فهو النائي عنك [وإن كنتَ قريباً منه، ومن يُرِدْك لنفسه فأنت قريبٌ منه وإن تباعَدْتَ عنه]. قال المتنبي: [من البسيط]

إذا تَرحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَروا   ألّا تُفارقَهم فالراحلون همُ[(٨)]

وقال: بالصبر على مَضَض السياسة تنال شرف الرئاسة. قال المتنبي: [من الكامل]

(١) الرسالة ص١٥٥، وديوانه ٤/ ١٩٥.

(٢) في الرسالة ص١٥٠: عدم غنى النفس أشد من عدم غنى اليد.

(٣) الرسالة ص١٥٠، وديوانه ٤/ ٨٢.

(٤) الرسالة ص١٥٣، وديوانه ٤/ ٢٥٢.

(٥) في (خ): كنز، ولم ترد هذه الكلمة في الرسالة.

(٦) الرسالة ص١٥٣، وديوانه ٤/ ٢٥٢. وفيهما: وحاجته، بدل: وعيشته.

(٧) الرسالة ص١٤٥، وديوانه ٤/ ٣٤٧.

(٨) الرسالة ص١٤٧ وما بين معكوفين منها، وديوانه ٤/ ٣٨٥.

لا يَسلَمُ الشَّرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدَّمُ[١]

وقال: الظلم في طباع النفوس مُركَّب، وإنما يَصدُّها عن ذلك عِلَّةُ ديانة، أو عِلَّةُ سياسة[٢]. قال المتنبي: [من الكامل]

والظُّلمُ من شِيَمِ النفوسِ فإن تَجِدْ ذا عِفَّةٍ فلعِلَّةٍ لا يَظلمُ[٣]

وقال: إذا لم تتصرَّف النفوسُ في مُراداتها، فحياتُها موت، ووجودُها عدم.

قال المتنبي: [من الخفيف]

ذَلَّ مَن يَغْبِطُ الذَّليلَ بعيشٍ رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ[٤]

وقال: الفرقُ بين الحِلم والعجز أن الحِلم لا يكون إلا عن مَقدِرة، والعجزَ لا يكون إلا عن ضعفٍ، فليس للعاجز أن يَتسَمَّى بالحليم. قال المتنبي: [من الخفيف]

كلُّ حِلمٍ أتى بغيرِ اقتدارٍ حُجَّةٌ لاجئٌ إليها اللئامُ[٥]

وقال: النفسُ المَهينة الذليلة لا تَجِدُ ألَمَ الهوان، والنفسُ الشريفة العزيزة يؤثّر فيها يسير الكلام. قال المتنبي: [من الخفيف]

مَن يَهُنْ يَسهُلِ الهوانُ عليه ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ[٦]

وقال: بإنفاذِ سَهْم الحزم، تُدرك صِحَّة الحزم[٧]. قال المتنبي: [من الطويل]

مع الحَزْمِ حتى لو تَعمَّد تَرْكَه لألحقَه تَضييعُه الحزْمَ بالحزْمِ[٨]

وقال: مَن نظر بعين العقل، ورأى عواقبَ الأيام، لم يَجزع لحلول النَّوائب[٩].

---

(١) الرسالة ص١٥٤، وديوانه ٤/ ٥٧٠ .

(٢) في الرسالة ص١٥٤: الظلم من طبع النفس، وإنما يصدها عن ذلك إحدى علّتين؛ إما علة دينية لخوف معاد، أو علة سياسية لخوف السيف.

(٣) ديوانه ٤/ ٥٧٠، والرسالة ص١٥٤.

(٤) الرسالة ص١٥٥، وديوانه ٤/ ٥٣٢.

(٥) الرسالة ص١٥٥، وديوانه ٤/ ٥٣٢.

(٦) الرسالة ص١٥٥ـ١٥٦، وديوانه ٤/ ٥٣٢.

(٧) في النسخ: العزم في الموضعين، والمثبت من الرسالة الحاتمية.

(٨) الرسالة ص١٥٧، وديوانه ٤/ ٤٧٧.

(٩) في الرسالة: من نظر بعين عقله، ورأى عواقب الأمور قبل مواردها لم يجزع لحلولها.

قال المتنبي: [من الطويل]

عَرفْتُ الليالي قبلَ ما صَنعتْ بنا فلما دَهَتْنا لم تَزِدْني بها عِلما[١]

وقال: حُلول الفناء في عظيم الأمور، كحلوله في صغيرها.

قال المتنبي: [من الوافر]

فطعمُ الموتِ في أمرٍ صغيرٍ كطَعْمِ الموت في أمرٍ عظيمِ[٢]

وقال: مَن أثرى من العَدم، افتقر من الكَرم. قال المتنبي: [من البسيط]

ورَبَّ مالٍ فقيراً[٣] من مُروءتِه لم يُثْرِ منه كما أَثْرى من العَدَمِ

وقال: كُرور الأيام أحلام، وغذاؤها أسقامٌ وآلام. قال المتنبي: [من البسيط]

هَوِّن على بَصَرٍ ما شَقَّ مَنْظَرُه فإنَّما يَقظاتُ العينِ كالحُلُمِ[٤]

وقال: ثلاثة إن لم تَظلمْهم ظلموك: ولدُك وعبدُك وزوجتُك، لأن صلاح أحوالهم في التعدّي عليهم. قال المتنبي: [من الطويل]

من الحِلم أن تَستعملَ الجهلَ دونَه إذا اتَّسعتْ في الحِلم طُرْقُ المظالمِ[٥]

وقال: أيامُ الحياة لا خَوفَ فيها، كما أن أيام المصائب لا بقاءَ لها.

قال المتنبي: [من البسيط]

لا تَلْقَ دَهركَ إلا غيرَ مُكترِثٍ ما دام يَصحَبُ فيه رُوحَك البَدَنُ[٦]

وقال: الأيام لا تُديم الفرح، كما أنها لا تُديم التَّرح، فالأسف على الماضي تَضييع للعمر[٧] من غير فائدةٍ. قال المتنبي: [من البسيط]

فما يُديمُ[٨] سُروراً ما سُرِرْتَ به ولا يَرُدُّ عليك الفائِتَ الحَزَنُ

(١) الرسالة ص١٥٧، وديوانه ٤/ ٥٤٥.

(٢) في النسخ: فعظم الموت ... كعظم، والمثبت من الرسالة ص١٥٠، والديوان ٤/ ٥٦٤.

(٣) في النسخ والرسالة الحاتمية ص١٥١: فقير، والمثبت من الديوان ٤/ ٤٥٦.

(٤) الرسالة ص١٥٣، وديوانه ٤/ ٦٤٦.

(٥) الرسالة ص١٥٤-١٥٥، وديوانه ٤/ ٥٥٥.

(٦) الرسالة ص١٥٢، وديوانه ٤/ ٧٠٥.

(٧) في النسخ: العقل، والمثبت من الرسالة.

(٨) في النسخ: يدوم، والمثبت من الرسالة الحاتمية ص١٥٢، والديوان ٤/ ٧٠٥ بشرح ابن جني.

وقال: العشقُ أمر ضروري داخلٌ على النفس، والعاشق جاهلٌ بتلك الضّرورة الداخلة عليه[١]. قال المتنبي: [من البسيط]

مما أَضرَّ بأهل العِشقِ أنّهمُ هَووا وما عَرفوا الدُّنيا ولا فَطَنوا[٢]

وقال: على قَدْر الهِمَم تكون الهُموم. قال المتنبي: [من البسيط]

أَفاضِلُ الناسِ أغراضٌ لذا الزَّمَنِ يَخلو من الهمِّ أَخلاهم من الفِطَنِ[٣]

وقال: ليس جمال الإنسان بنافعٍ له إذا كان ميِّتَ القلب من العلم.

قال المتنبي: [من البسيط]

لا يُعجِبنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّته وهل يَروقُ دَفيناً جَودَةُ الكَفَنِ[٤]

وقال: ليس من الحزم فناء النفوس في طلب الشهوات، بل في دَرْك العالم العلوي.

قال المتنبي: [من الخفيف]

ومُرادُ النُّفوسِ أصغرُ من أن تَتَعادى فيهِ وأن تَتَفانى[٥]

وقال: خوفُ وقوعِ المكروه قبل تناهي المدّة، خَوَرٌ في الطبع.

قال المتنبي: [من الخفيف]

وإذا لم يكن من الموتِ بُدٌّ فمن العَجْزِ أن تموتَ جَبانا[٦]

وقال: الكَلال والمَلال يتعاقبان الأجسامَ لضعف آلة الجسم، لا لضعف [آلة] الحسّ. قال المتنبي: [من الخفيف]

وإذا الشَّيخُ قال أُفٍّ فما مَلَّ حياةً ولكنِ الضَّعفَ مَلّا[٧]

وقال: الدنيا أبداً تلد، وتأكلُ أولادها[٨]. قال المتنبي: [من الخفيف]

---

(١) في الرسالة: العشق ضرورة داخلة على النفس، والإنسان جاهل بتلك الضرورة.

(٢) الرسالة ص١٥٢، وديوانه ٤/ ٧٠٥.

(٣) الرسالة ص١٥٦، وديوانه ٤/ ٦٧٤.

(٤) الرسالة ص١٥٦، وديوانه ٤/ ٦٨٠.

(٥) الرسالة ص١٥٢، وديوانه ٤/ ٧١٤.

(٦) الرسالة ص١٥٣، وديوانه ٤/ ٧١٥.

(٧) الرسالة ص١٤٩ وما بين معكوفين منها، وديوانه ٤/ ١٤.

(٨) في الرسالة الحاتمية ص١٤٩: الدنيا تطعم أولادها وتأكل مولودها.

أبــداً تَــســتــرِدُّ مــا تَــهَــبُ الــدُّنــ ـيـا فـيـا لـيـت جُـودَهـا كـان بُـخـلا[١]

وقال: الجُبْنُ ذِلَّةٌ كامنة في نفس الجبان، فإذا خلا أظهر شجاعته.

قال المتنبي: [من الخفيف]

وإذا مــا خَــلا الــجــبــانُ بــأرضٍ طَـلـبَ الـطَّـعـنَ وحـدَه والـنِّـزالا[٢]

وقال: على قدر بصيرة العقل [يرى الإنسان الأشياء، فالسالم العقل] يَرى الأشياء على حقائقها، والنفسُ اللئيمة ترى الأشياء بطبعها. قال المتنبي: [من الوافر]

ومَــن يــكُ ذا فــمٍ مُــرٍّ مــريــضٍ[٣] يَــجِــدْ مُــرًّا بــه الــمــاءَ الــزُّلالا

وقال: الغَلَبَةُ بطبع الحياة، والمسألةُ بطبع الموت، والنفسُ لا تُحب الموتَ، فلذلك لا تُحَبُّ الأشياءُ إلا بالغَلَبة لا بالمسألة. قال المتنبي: [من الخفيف]

مَــن أطـاقَ الـتـمـاسَ شــيءٍ غِـلابـاً واغـتـصـابـاً لـم يَـلْـتَـمِـسْـه سُـؤالا[٤]

وقال أبو يعلى محمد بن محمد بن الهبَّارية العباسي في «فلك المعالي»: ذُكر لعبدالله بن المعتز قول أرسطاطاليس: إن الضَّبُع تضَعُ سنة أُنثى وسنة ذكراً، وتَلقَح عاماً ولا تلقح عاماً[٥]؛ فقال: انظُروا إلى هذا الجاهل الذي يَدفع معجزات الأنبياء، ويقول: لا أقبل إلا ما يقوم برهانُه بالعقل، ويقول مثل هذا.

وقيل لابن المعتزِّ: إنه يقول: إن الجراد لا يُفسِد في الأرض إلا بوحيٍ من السماء. فقال: هذا يَمنع جواز الوحي إلى بني آدم، ويُجيزه إلى الجراد.

فصل في «الغالب والمغلوب»

ألَّفه أرسطاطاليس للإسكندر، يُعرِّفُ به الغالبَ والمغلوب في وقت الحرب، وغلبة الشريك لشريكه، والزوجِ لزوجته، والخَصْمِ لخصمه، ومَن هو المستظهر منهم.

---

(١) ديوانه ٤/ ١٥.
(٢) الرسالة ص١٤٩، وديوانه ٤/ ٣١.
(٣) في النسخ: مرير، والمثبت من الرسالة ص١٥٥ وما بين معكوفين منها، وديوانه ٤/ ١٦١.
(٤) الرسالة ص١٥٨، وديوانه ٤/ ٣٦.
(٥) ذكر نحوه الجاحظ في الحيوان ٧/ ١٦٨.

قال: احسب اسم كلٍّ واحد من الاثنين على حِدَة بحساب الجُمَّل، وأسقِط مما جمعتَه من الحساب تسعةً تسعةً حتى يبقى تسعة أو أقل، فإن بقي من الاسم تسعةٌ ومن الآخر تسعةٌ، فاحكم بالغلبة للصغير منهما على الكبير إن كانا من جنسٍ واحدٍ، وإن كان أحدهما صاحب قلم، والآخر صاحب سيف، فاحكم لصاحب السَّيف على صاحب القلم، ولا تسقط الألف من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسليمان ونحوه لأنها أصلية، وأسقطه من الحسن والحسين لأن لامهما وألفهما زائدتان، وإن كان للرجل اسمان فاحسب أشهرهما.

وقد اعتبروا الغالب والمغلوب من قديم الزمان، فوجدوه مستقيماً على هذا الحساب، فإن وقع اختلال كان منسوباً إلى الغلط في الهجاء.

قالوا: ومن ذلك داود عليه السلام وجالوت، فالباقي من اسم داود ستةٌ، لأن الدال أربعة، والألف واحد، والواو ستة، والدال أربعة، والجملة خمسة عشر، لأنهم أسقطوا الواو الواحدة لأنها زائدة، وأسقطوا تسعة وبقي ستة، والباقي من اسم جالوت ثمانية، لأن الجيم ثلاثة، والألف واحد، واللام ثلاثون، والواو ستة، والتاء أربع مئة، فإذا حسبت تسعة تسعة سقط الجميع إلا ثمانية، فقد غلب القليل الكثير، ولا تسقط الألف من داود وجالوت.

ومن ذلك موسى عليه السلام وفرعون، فالميم أربعون، والواو ستة، والسين ساقط، والألف واحد، لأنهم يكتبونه على اللفظ موسا بغير ياء، فإذا أسقطت تسعة تسعة بقي اثنان، وقيل: واحد، وهو الأصح، لأنه لما كان موسى يكتب بالياءِ والألف، أسقطوا الألف، وفرعون أربع مئة وستة، لأن الفاء ثمانون، والراء مئتان، والعين سبعون، والواو ستة، والنون خمسون، إذا أسقطت تسعةً تسعةً بقي واحد في قبالة ما بقي لموسى عليه السلام، لكن موسى عليه السلام أصغر من فرعون، لأنه عاش مئةً وعشرين، وفرعون أربع مئة سنة.

وقيل: هذا الحسابُ[1] إنما وضعه فيثاغورس صاحب العلوم الأربعة التي كشف بها أسرار الطبيعة وتركيبها.

---

(١) ينظر في هذا الحساب تاريخ ابن خلدون ١/ ١١٤، والإشارات في علم العبارات ١/ ٢٧٥.

فصل في ذكر اليونان وحكمائهم

ويُونان بن يافث بن نوح عليه السلام.

وقال ابن الكلبي: يونان بن ثوبة بن سرحون، ونسبه إلى إسحاق عليه السلام.

وقال يعقوب بن إسحاق الكندي: يونان أخو قحطان من العرب من ولد عابر، خرج من اليمن فنزل ديار المغرب، فأقام بها واستعجم لسانُه، وتكلَّم بلغة مَن هناك من الروم والفرنج.

وقد ردَّ عليه أبو العباس عبدالله بن محمد الناشئ[1] فقال: [من الطويل]

أبا يوسُفٍ إني نظرتُ فلم أجد ... على الفَحص رأياً صحَّ منك ولا عَقْدا

وصرتَ حكيماً عند قومٍ إذا امرُؤٌ ... بَلاهُمْ جميعاً لم يجد عندهم عندا

أَتَخلِطُ قحطاناً بيونانَ ضلَّةً ... لَعَمري لقد باعدتَ بينهما جِدًّا

قال الناشئ[2]: والأصحُّ أن يونان ابنُ يافث بن نوح عليه السلام، وليس من العرب ولا من الروم، وإنما جاوَر الرومَ على ساحل البحر الرومي.

وكان جسيماً وسيماً، حسنَ العقْلِ، كبيرَ الهمة، عظيمَ القَدْر، فأقام هناك حتى كَثُر ولده، فخرج يطلب مكاناً يسكُنُه، فانتهى إلى مدينة بالمغرب يقال لها: أقنينة[3]، وهي مدينة الحكماء، وقيل: اسمُها مقدونية، فأقام بها وكثُر نسلُه، وبنى بها قصُوراً وأبنية شاهقةً.

ولما احتُضِر أوصى إلى ولده الأكبر واسمه: حربوش[4]، فقال: يا بني، إني قد وافيتُ الأجلَ المحتُوم، وإني مُفارقكم، وقد كانت أحوالكم حسنةَ النظام بي، وكنت لكم كهفاً في الشدائد، وعوناً على المحن، فعليكم بالجود فإنه قُطْب الملك، ومفتاح السِّياسة، وباب السِّيادة، وكن حريصاً على اقتناء الرجال، وإياك والحَيْد عن الطريقة

(١) في (ب): الرياشي، وفي (خ) و(ك): الرقاشي، والمثبت من مروج الذهب ٢/ ٢٤٤، وصبح الأعشى ١/ ٣٧١ و ٥/ ٣٧٩. وانظر ترجمته في السير ١٤/ ٤٠.

(٢) في (ب): الرياشي، وفي (خ) و (ك): الرقاشي، وانظر الحاشية السابقة.

(٣) في مروج الذهب ٢/ ٢٤٥: أفيتية.

(٤) في مروج الذهب: حربيوس.

المُثلى التي بُني عليها العقْل، فإن من ترك النظر في العواقب؛ تَورَّط في المهالك، ووقع في المغائص[(١)].

ثم مات، فاستولى ولدُه على بلاد المغرب من ناحية إفرنجة والنيوكرد[(٢)] والصقالبة ومَن جاورهم.

ولما ظهر بُختُ نَصَّرُ على مصر دخل المغرب، ووصل إلى بلاد اليونان، وقَرَّر عليهم أن يؤدُّوا الخراج إلى ملوك فارس، وفي الجملة بيض من ذهب[(٣)]. واستقر ذلك حتى مات فيلفوس أبو الإسكندر، فأزاله الإسكندر على ما ذكرنا.

وما زالت الملوكُ في اليونان إلى الإسكندر، فلما مات عَرَضوا الملكَ على ولده إسكندروس فأبى وتنسَّك، ولَحِق بالجبال وتعبَّد، فملكوا عليهم بطليموس الحكيم، وكان خليفةَ الإسكندر إذا غاب، وهو أولُ مَن لعب بالبُزاة والصُّقور والجوارح.

وكان المُلْكُ بالمغرب لليونان، والرئاسةُ بالقُدْس لبني إسرائيل، إلى أن وُلد يحيى ابن زكريا عليهما السلام، وجرى ما جرى.

وهذا اللقب ـ وهو بطليموس ـ لملك اليونان ككسرى وقيصر. فأقام بطليموس الأول مالكاً أربعين سنةً، ثم مات.

فصل

فملك بعده بطليموس الصائغ، وكان حاذقاً بمعرفة الصِّياغة حكيماً، فأقام ستاً وعشرين سنةً، ثم مات.

فصل

فملك بعده بطليموس محبُّ الأب، ويقال: إنه ملك الشام،وبنى مدينة فامية بين شيزر وأنطاكية، وأقام ملكاً سبع عشرة سنة.

فصل

ثم ولي بطليموس صاحب النجوم وكتاب «المِجِسطي»، وأظهر علوم الكواكب،

---

(١) في مروج الذهب ٢/ ٢٤٦: مقابض المتالف.

(٢) في مروج الذهب: والنوكبرد.

(٣) في مروج الذهب ٢/ ٢٤٧: وكان خراجهم بيضاً من ذهب.

وقَدَّر مطالعها وما يتعلَّقُ بها، وأقام أربعاً وعشرين سنةً يجمَعُ الحكماء والعلماء ويذاكرهم، ثم مات.

فصل

ثم ولي بطليموس، ويقال له: محبُّ الأمّ، فأقام خمساً وثلاثين سنةً، ومات.

فصل

وولي بطليموس المخلِّص، وكان صالحاً، فأقام سبع عشرة سنة، ثم مات.

فصل

فولي بطليموس الإسكندري عشرين سنةً، وقيل: عشر سنين، ثم مات[(١)].

فصل

فولي بطليموس الحديدي ثمان سنين، ثم مات.

فصل

فولي بطليموس الجَوَّال، وكان سائحاً منفرداً، فأقام ثماني سنين، ثم مات.

فصل

فولي بطليموس الخبيث، وكان فاجراً ظالماً خرج عن قانون اليونان، فأقام ثلاثين سنةً، ثم مات.

فصل

فملكت ابنتُه قلان طره، وقيل: بلو قطرا[(٢)]، وكانت عاقلةً فاضلة حكيمة، لها التصانيفُ في الحكميات والطبيات، وهي آخرملوك اليونان.

وكان لها زوج مُشارِك لها يُقال له: أنطونيوس، وكان له مصر والسواحل، ومصر داخلةٌ في مُلك اليونان.

---

(١) في مروج الذهب ٢/ ٢٨٥: ثم ملك بطليموس الإسكندراني اثنتا عشرة سنة.

(٢) في مروج الذهب ٢/ ٢٨٥: قلا بطرة.

وكانت قُلان طره تتردَّدُ من المغرب إلى مصر، وكانت الجزائر بأسرها داخلةً في ملك اليونان: صِقِلِّية وقبرس والأندلُس، وجميعُ ما على البحر الرومي من البلاد الروميةِ وأعمالها، فإنها كانت للروم. وأقامت قلان طره ملكةً عشرين سنة، وقيل: اثنتين وعشرين، ثم قتلت نَفْسَها لما نذكر.

وقال علماء السير: فجميع ملوك اليونان بعد الإسكندر عشرةٌ والمرأة، وقيل: ثلاثةَ عشر آخرهم المرأة. ومدة ملكهم مئتان ونيف وأربعون سنة، وقيل: مئتان وستون سنة، وقيل: ثلاث مئة وأربع سنين.

حديث المرأة مع ملك الروم

لما اشتهر اليونانُ بالحكمة والفضائل والمُلك، حَسَدهم ملوك الروم، وكان مُلْك الروم برُومِيَة، ولم تكن القسطنطينية بُنيت بعد، وما كانوا يتجاسرون أن ينالوا من أطراف اليونان شيئاً، فنبغ فيهم ملك جبار يقال له: انطوطس[1]، ويُسمى بقيصر، ويقال: إنه أول مَن تسمَّى به، وإليه تُنسَب القياصرة.

وبلغه أنَّ ملوك اليونان قد انقرضوا ولم يَبقَ منهم سوى امرأة، فجمع العساكر وسار إليها من رُومية، وهي وزوجها يومئذٍ بمصر، فخرج إليه زوجها فقتله قيصر. وكانت قُلان طره امرأة حازمة، فأرسل إليها يخطبها ويقول: ما قصدي إلا أن تصير المملكتين واحدة، وأن أقربَ منك لفضلك وعقلك. وعَلمتْ أنه متى تمكن منها قتلها، فأجابته وقالت: تقيمُ في مكانك إلى يومٍ بعينه، فأقام.

فأفكرت في حيلة تحتالُ بها عليه، فرأت أن تُهلكَ نفسها وتُهلكَه معها، ولا يتمكَّن منها. فعَمَدت إلى حَيَّة تكونُ بالصَّعيد في الرَّمل، تَثِبُ في الهواء فتضربُ الإنسانَ، فما يجتمعُ، فجعلتها في إناء من زجاج، وزيَّنَت قصرها، وفرشت مجلسها بالرياحين، ولَبِست تاجها، وجلست على سريرها، واستدعت قيصر.

فلما دخل من باب القصر قَرَّبت يدها من الحية فضربتها، وانسابت في الرياحين، ووصل قيصر إلى السرير، ولم يشك أنها في عافيةٍ، فجلس إلى جانبها، فرآها ميتةً،

(١) في مروج الذهب ٢/ ٢٨٦: أغسطس.

فعَجِب وفكَّر، وعبث ببعض الرياحين فضربته الحيةُ، فأيبست شِقَّه الأيمن، وأذهبت عينَه اليمنى وسمعَه الأيمن، ففهم وعلم أن قلان طره آثرت الموت في العزِّ على الحياة في الذل، ومات من ليلته. وانقضى مُلكُ اليونان، وزالت أيامُهم، ودَثَرت علومهم بموت قُلان طره.

وكانت لهم بيوتٌ للعبادات يُعظِّمونها، ومنهم من يَعبد الفَرقَدينِ، وبعضهم يعبد الأصنام. وكان لهم بيوت عبادات بالمغرب وبالأندلس وبمصر. ويقال: إن الهَرَمين كان عليهما بيتان، بيتٌ على جبل أنطاكِيَة أخربه قسطنطين، وبيت بالقدس.

وقال أبو معشر: كانت خزائنُ علومهم بقُبرس، فحُملت إلى المأمون فنقلها إلى العربية، فهي التي في أيدي الناس اليوم، من المنطقيات والعقليات والطب والنجوم والإلهيات والطبيعيات وغير ذلك، وملك الرومُ بلادهم.

فصل في ذكر حكمائهم

وفيهم كثرةٌ، فنذكر أعيانَهم، ويقال: إن أولهم سُقراط الحُب، وهو أستاذ الكل، وكان قد أقام في حُب مكسور سبعين سنة لم يخرج منه إلا لحاجةٍ.

جاءه بعضُ ملوك اليونان فسَلَّم عليه وهو على فرسه، وقال له: أيها الحكيم الفاضل ألك حاجةٌ؟ قال: نعم. قال: وما هي؟ قال: تنحي فرسَك وتنصرفُ عني، فقد كنتُ أَستَدفئ بحر الشمس فمنعتَني.

ومن كلامه: لا تخَفْ موت البدن، ولكن خَفْ موت النفس. فقيل له: ألستَ القائلَ بأن النَّفس الناطقة لا تموت؟ فقال: بلى، إذا انتقلت النفسُ الناطقة من حدِّ النطق إلى الحد البهيمي[1] بطل النطق؛ فالتحقت بالموت.

وقال له رجل قد أَسنَّ: إني أريد أن أَنظر في العلوم وأستحيي. فقال له: أتستحيي أن تكون في آخر عمرك خيراً من أوله؟

وقال: خساسةُ الرجل تُعرف بشيئين: بكلامه فيما لا يعنيه، وبجوابه فيما لم يُسأل عنه.

(١) في (خ) و (ك): البهمي.

ورأى رجلاً حسنَ الوجه سيئ الأدب، فقال: سلبت فضائلَ نفسك محاسنُ وجهك.

وتعرَّض له رجلٌ بكلام قبيح، فأعرض عنه، فقيل له في ذلك، فقال للقائل: لو رَمَحك حمارٌ أكنت ترمحه؟ أو نبح عليك كلبٌ أكنت تَنبح عليه؟ قال: لا. قال: فكذا السَّفيهُ ما يقابَلُ بأبلغَ من الإعراض عنه.

ومنهم بُقراط الأول، وقد اعترف بفضله الأوائل والأواخر، وهو واضع الطب. ولما بلغ بهمن بن اسفنديار بن بشتاسف خبرُه، كتب إليه يستدعيه، وبعث له قناطير من الذهب فردَّها، وقال: لا حاجة لي في الدنيا، المال والحكمة لا يَجتمعان. ولم يخرج من بلده. وكان يعالجُ الفقراء، ولا يأخذ منهم شيئاً، ويُعينهم.

وقال: استهينوا بالموت، فإن مرارته في خوفه.

وقال: الأمنُ مع الفقر خيرٌ من الغنى مع الخوف.

وقال: يُداوى كلُّ مريضٍ بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة مُتطلِّعة إلى هوائها، ونازعةٌ إلى غذائها.

وقيل له: لمَ يتكرَّبُ الإنسان بشُرب الدواء؟ فقال: البيتُ أكثر ما يكون غُباراً إذا كُنِس.

وعشق بعض أولاد الملوك حظيَّة لأبيه، فنحل وسقم وخولط، فقال أبوه لبُقراط: انظُر ما به، فجسَّ نَبضه فلم يجد به مرضاً، فأخذ يذاكره بحديث العشق والعُشاق، فمال إليه وتهلَّل وجهُه، فسأل عنه: هل خرج من الدار؟ قالوا: لا. فقال لأبيه: اعرض عليه كل حظية في الدار. فأَخرج كلَّ امرأة في الدار فعرضَهنَّ عليه، وهو لا يلتفتُ، حتى أخرج الخادمُ تلك الحظية، فتغيَّر وجهُه، فترك بُقراط يده على نبضه وهو يضربُ، فقال للملك: هو عاشقٌ لمن لا سبيل له إلى الوصول إليها. قال: ومن هي؟ قال: حليلتي. قال: انزل عنها ولك أمثالُها. قال: فأين العدل؟ تأمرني بطلاق زوجتي؟! قال: إن أبيت فالسيف، ولا يموت ولدي. فقال: أرأيت لو كانت حظية الملك أينزل له عنها؟ ففهم الملك باطن الحال، فقال له: عقلك أتم، ومعرفتك أعم. ونزل عنها لولده، فبرئ.

وقيل لبقراط: لم يثقل الميت؟ قال: لأنهما كانا اثنين: خفيفٌ [رافع] وهو الرُّوح، وثقيل [واضع] وهو البدن، فلما انصرف الخفيف الرافع، بقي الثقيل الواضع.

وقال: علاجُ الجسد خمسة أضرب: ما في الرأس بالغرغرة، وما في المعدة بالقيء، وما في البدن بالإسهال، وما في أعماق البدن بالفَصْد، وما بين الجلدين بالعرق[1].

ويقال: البقارطة أربعة، وهذا هو الأول، وبينه وبين جالينوس ستُّ مئة وخمسون سنة، وكان جالينوس في زمن عيسى عليه السلام[2].

ومنهم أفلاطن أستاذ أرسطاطاليس، وهو صاحب المنطق[3]، وقد برز عليه أرسطاطاليس وأخذ عليه في مواضع.

ومن كلام أفلاطن: عقولُ الناس مدوَّنة في رؤوس أقلامهم، وظاهرةٌ في حُسن اختياراتهم.

وقال: الله تعالى بقَدْر ما يُعطي من الحكمة يمنَعُ من الرزق. قيل له: ولم؟ قال: لأن الحكمةَ حظُّ النَّفس الناطقة، والمال حظُّ النفس الشهوانية، والناطقة عاليةٌ على الشهوانية، فالمال والحكمة متغايران لا يجتمعان.

وقال أبو يعلى بن الهبَّارية: كان على خاتم أفلاطن: تحريكُ الساكن أسهل من تسكين المتحرك.

وقال أفلاطن: لا ينبغي لك أن تفعل شيئاً إذا عُيِّرتَ به غضبتَ، فإنك إذا فعلتَ ذلك، كنت أنت القاذفَ لنفسك.

ومنهم بطليموس صاحب «المِجسطي»، المتكلم في هيئات الأفلاك وما يتعلق بالهندسة كلاماً طويلاً.

---

(١) الملل والنحل ٢/ ١٠٩ ـ ١١٠ وما بين معكوفين منه.

(٢) المنتظم ٢/ ٤.

(٣) في هامش (ك) حاشية: المنطق لأرسطاطاليس لا لأفلاطن، وإن كان المنطق موجوداً في كلام الحكماء، لكن أرسطاطاليس أخرجه من القوة إلى الفعل، وجعله فناً بذاته، وهذا ما لا ينكره أحد من العلماء.

وله كلام حسن، فمنه أنه قال: ما أحسنَ الإنسانَ أن يصبِر عما يشتهي، وأحسنُ منه أن لا يشتهي ما لا يَقدرُ عليه.

وقال: لأن يستغنيَ الإنسان عن المُلْك، خيرٌ من أن يستغنيَ به[1].

ومنهم صاحب إقليدس، وهو أولُ من تكلَّم في الرياضيات، وقال: الخطُّ هندسةٌ روحانية ظهرت بآلة جسمانية.

وقال: لما علم العاقلُ أنه لا ثقةَ له بشيء من أمور الدنيا، ألقى منها ما منه بُدٌّ، واقتصر على ما لا بُدَّ له منه[2].

ومنهم جالينوس، وكان في زمن عيسى عليه السلام، ويقال: إنه قَصَد الاجتماع بعيسى عليه السلام، وسار إليه فمات في طريقه[3]. قال ابن حوقل: مات جالينوس اليوناني بمدينة الفرما، وهي شاطئ بحيرة تِنِّيس من أرض مصر، وبها قبرُه[4]. ومات ابن مئة وتسعة وثلاثين سنة[5]، وإليه انتهى علمُ الطب.

ومن كلامه: عِلَّةُ الاختلاف الذي يعرض للإنسان إنما سببُه الدماغ؛ وذلك لأن أوعية الدماغ ثلاثة: مقدَّم الرأس وهو للحِسِّ والخيال، ومُؤخَّره للحركة والفكر والحفظ، ووسَطُه للعقل والفِطنة والذكاء، فمتى اعتدل الدماغ، اعتدلت الروح واعتدلت الأفعال، فإن مال الاعتدال إلى البرودة، كان الفعلُ أبطأ، وإن مال إلى الحرارة، كان الفعل أسرع.

ولما اشتد بجالينوس مرضُ الموت، قيل له: ألا تتداوى؟ فقال: إذا كان الداء من السماء بطل الدواء، وإذا نزل قَدَر الرب بطل حذرُ المربوب، ونعم الدواء الأجلُ، وبئس الداء الأملُ.

---

(١) الملل والنحل ٢/ ١١٦.

(٢) الملل والنحل ٢/ ١١٤_١١٥.

(٣) المنتظم ٢/ ٤.

(٤) صورة الأرض ص١٤٩.

(٥) في طبقات الأطباء والحكماء ص٤٢، وأخبار العلماء ص٨٩، والمنتظم ٢/ ٤ أنه عاش سبعاً وثمانين سنة أو ثمانياً وثمانين.

ومنهم حكيم احتُضر، فقال لولده وهو حاضرٌ عنده: يا بنيَّ، إنك وإن كنتَ وارثي وحدك، فليس لك جميعُ ما حَوتْه يدي، لأن عليَّ فيما أخلِّفُه ديوناً لإخوان من مكارمَ سبقت، لم يقبلوا مني مُجازاةً عليها؛ لاستغنائهم عنها، وقد كنتُ أُراعيهم خوفاً من تَحوُّل حال واحد منهم، فيحتاجُ إلى ما هو الآن غنيٌّ عنه، فيجدُ عندي مكافأته ذخيرةً له، وقد أثبتُّ أسماءَهم في دفترٍ، فإن لَحِقْتَ أحدَهم فأْتِه فاقضِ عني حقَّه كما يقضي الحُرُّ عارِفَةَ الحر. ثم استحلفه على ذلك وأَشهد عليه الحاضرين، ومات.

فإن قيل: فقد ذَكرتَ الفلسفةَ، فما معناها؟

فالجواب: أنها عندهم الإحاطة بمعرفة الحقائق والحكميات. والفيلسوف بالعربية معناه: محبُّ الحكمة. ويَدخُل فيها علمُ النجومِ والطب والهندسة والحساب وتأليف الألحان، والهندسةُ دون الفلسفة لأنها تختصُّ بمعرفة مقادير الأرض، والأبنية، ومجاري المياه، وغَرْسِ الأشجار، وآلاتِ الصنائع وتركيبها.

فإن قيل: فما الذي يَعتمدُ عليه هؤلاء الحكماءُ من العقائد؟

فالجواب: أن لهم مذاهبَ، منها: أن الأرواح عندهم باقية، والفساد والكون إنما يَلحقان الجسدَ، ومكانُ الروح من الجسد مكانُ النار من الفَحْم، وأن الروح جسمٌ لطيف متداخل في هذا الجسد الكثيف، فالروح بلطافته يحرك الكثيف ويستعمله.

ومن مذاهبهم: أن العالم الأرضي متصل بالعالم السماوي، وأن الفَلَك يَتدوَّرُ بحركة مستديرة فتتحرك له الكواكب، فيحدُث بتحريكها في هذه الأجسام الاستحالات، فيقع الكون والفساد. قالوا: وفسادُ كلِّ شيء كونُ شيءٍ آخر، كالخشب الذي يحترقُ بالنار فيصير فحماً.

قال المصنف رحمه الله: والغالبُ على علومهم الحَدْس والتخمين لا التحقيق واليقين، فإن أسرارَ البارئ المخفيّاتِ، وأمورَه المغيَّبات، لا مجالَ فيها للظنون. وأقربُ علومهم إلى الصحة علومُ الهندسة، فإنها مبنية على الحساب، وقد ذكرتُ منها ها هنا جُملةً لا يُستغنى عنها.

قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣] فأقول: الأعدادُ أربعةٌ: آحاد،

وعشرات، ومِئين، وألوف. فالآحادُ: تنتظم ما بينَ الواحدِ إلى التسعة، والعشرات: تنتظم ما بين العشرة إلى التسعين، والمِئين: تنتظم ما بين المئة إلى تسع مئة، والألوف: تنتظم ما بين الألف إلى تسعة آلاف، وما بعدَ ذلك تكرار.

فالآحاد في العشرات كلٌّ واحدٍ عشرة، والعشرات في العشرات كلٌّ واحد مئة، والعشرات في المئين كلٌّ واحد ألف، والمئين في المئين كلٌّ واحد عشرة آلاف، والمئين في الألوف كل واحد مئة ألف، والألوف في الألوف كلٌّ واحد ألف ألف.

والحَبْل عشرة أبواب، والباب ستة أذرُع، والذراع تسع قَصَبات، والقصبة أربع أصابع، والحبل في الحبل جَرِيب، والحبلُ في الباب قَفِيز، والحبل في الذراع عَشير.

والدينار أربعة وعشرون قِيراطاً وأربعة عشر طَسُّوجاً وست دوانيق وثنتان وسبعون حَبّة، والقيراط ثلاث حبات وعشرة دراهم فضة وزن سبعة مثاقيل ذهب.

والرِّطْل ثنتا عشرة أُوقِيَّة، والأُوقية سبعة مثاقيلَ ونصف.

والفرسخ ثلاثة أميال، والميلُ اثنا عشر ألف قدم أو أربعة آلاف خُطوة بخطوة الجمل.

فصل في ذكر بني الأصفر

وسُمُّوا الروم، لأنهم من ولد روم بن العيص بن إسحاق عليه السلام، وقيل: لأنهم نُسِبوا إلى رُومِيَة، والأول أصحُّ، لأن رومية بُنِيت قبل ظهورهم بأربع مئة سنة، وكان يقال لها: رماس[1]، فلما سَلَبوها نُسبت إليهم.

وقال ابن الكَلْبي: وَلَدَ العيصُ بن إسحاق ثلاثين ولداً منهم الروم، وكان أصفرَ اللون، فقيل: بنو الأصفر.

وقيل: غارت عليهم الحبشةُ، فوُلِد لهم بنات أَخَذْنَ من بياض الروم وسواد الحبشة، فكنَّ صُفراً لُعْساً، فنُسِبوا إليهن.

وأولُ ملوكهم الذي قتلته الحية، وقيل: مَلَك قبله هالوس، وبعده قيصر.

(١) في مروج الذهب ٢/ ٢٩٣: روماس، وفي معجم البلدان ٣/ ١٠٠: رومانس.

وقال ابنُ الكلبي: عدد ملوكهم الذين ظهروا من رومية أربعون مِلِكاً، وقيل: ستون، وعدد سنينهم خمس مئة سنة، وقيل: أربع مئة سنة وسبع وثلاثون سنة، إلى أن ظهر الإسلامُ.

فنذكر أعيانَهم، لأن أسماءهم لم تُحقَّقْ، ومنهم أيضاً مَن ليس له مَكرُمة، ولا تَجدَّد في زمانه ما يُؤرَّخ.

فثالثُ ملوكهم أغسطوس، مَلَك نيفاً وخمسين سنة، ولما مضى من مُلكه اثنان وأربعون سنة وُلد المسيحُ عليه السلام، وبين مولده وغلبة الإسكندر الثاني على بابل ثلاث مئة وثمانون سنة، وقيل: خمسون. وقيل: إن الذي قتلته الحيةُ أقام على رومية ملكاً سنة.

وكان يقال له: قيشر لأن أُمَّه كانت حاملاً به فعَسُرَت ولادتُها، فشَقُّوا بطنها فخرج، وكان يفتخر على الناس بأن النساء لم يَلِدْنَه، فصار ذلك سُنّةً بعده.

وكان جباراً عاتياً، وهو الذي بنى قيسارية الروم، وقيل: وقيسارية الشام بالساحل. ويقال: إن عيسى عليه السلام وُلد في زمانه.

ومَلَك بعده طبارس[1]، فأقام بعده اثنتين وعشرين سنة، وفي أيامه رُفع عيسى عليه السلام لثلاث سنين بقيت من ملكه.

ثم اختلفت الروم بعده فلم يجتمعوا على مَلِك، بل تنازعوا الأطراف ثلاث مئة سنة، وكانوا يَعبُدون التماثيل والأصنام.

فصل

ثم ملك بعده فلورس رومية[2] أربع عشرة سنة، وهو الذي قتل النصارى ونفاهم، وفي أيامه قُتل بيرس وبولُس، وقيل: وشمعون، وصُلِبا بأنطاكية[3]، وهما اللذان أخبَر

(١) في تاريخ اليعقوبي ١/ ١٤٦، ومروج الذهب ٢/ ٢٩٩: طباريس، وفي تاريخ الطبري ١/ ٦٠٦، والتنبيه والإشراف ص١٢٤: طيباريوس.

(٢) في تاريخ اليعقوبي ١/ ١٤٦، ومروج الذهب ٢/ ٢٩٩: قلوديس، وفي تاريخ الطبري ١/ ٦٠٦، والتنبيه والإشراف ص١٢٥: قلوذيوس.

(٣) في مروج الذهب: وقيل إن في أيامه قتل برومية بطرس ـ واسمه بالسريانية شمعون، والعرب تسميه سمعان ـ هو وبولس، وصلبا منكّسين.

الله عنهم في سورة «يس». ثمَّ لمّا ظهر دينُ النصرانية نُقِلا إلى رومية، وجُعلا في جُرنَين من البلور، فهما في كنيسة رومية إلى اليوم.

فصل

ثم ولي بعده رجلان: طنطس واسبانوس(١)، اشتركا في الملك، وقصدا بيتَ المقدس وأَخرباه، وقتلا من بني إسرائيل ثلاث مئة ألف، وكانا يعبدان التماثيل.

فصل

ومنهم انطونس(٢)، وفي أيامه يُقال: مات جالينوس الحكيم.

فصل

ومنهم دقيانوس الذي نام في أيامه أصحابُ الكهف.

فصل

ومنهم قُسطنطين، وكان يعبد الأصنام، وهو الذي بنى القُسْطَنْطِينيَّة، جاء إلى موضعها ـ وتُسمى بَرزيطيا(٣) ـ فقال: نبني ها هنا مدينةً تحفظ بلد الروم من ملوك فارس، فبناها وانتقل من رُومية.

ولما مضى من مُلكه ست سنين خرَج عليه عدوٌّ من فارس اسمه: برجان، فظهر عليه وخاف منه، فرأى في نومه رماحاً نزلت من السماء عليها صُلبان من ذهب مرصَّعة بالجواهر، وقائل يقول له: خُذ هذه الرماح فقاتِلْ بها عدوَّك، فإنك تُنصر عليه. فأخذها في المنام وقاتل عدوَّه، فانتصر عليه، فاستيقظ وعمل رماحاً مثلَها، وقاتل عدوه فانهزم ونُصِر عليه. فسأل العلماء عن الصُّلْبان فقالوا: ببيتِ المقدسِ مَن يعرف هذا. فبعث إليه، فقَدِم منهم ثلاث مئةٍ وثمانية عشر أسْقُفًّا، فسألهم، فقَصُّوا عليه قصة المسيح عليه السلام، وشرعوا له دينَ النصرانية، ونصَّروا النصارى، فسُمِّي هذا الاجتماع السنودس، وهي ستُّ سنودسات، وهي لفظة رومية معناها الاجتماعات، وكان

(١) في مروج الذهب ٢/ ٣٠٤: ططس واسفيانوس.
(٢) في مروج الذهب ٢/ ٣٠٦: أبطونيس.
(٣) في مروج الذهب ٢/ ٣١١: بوزنطيا.

اجتماعُهم بنِيْقِية من أرض الروم.

وكان لقُسطَنْطين أمٌّ حكيمة يقال لها: هلاني، خَرَجت إلى الشام وبَنَت الكنائس، وطَلَبت الخشبةَ التي صُلب عليها المسيحُ عليه السلام بزعمهم، فأحضروها، فزيَّنتها بالجواهر، واتخذت ذلك اليومَ عيداً، وسمَّته: عيدَ الصليب، وذلك لأربع عشرة خلت من أيلول. وملك قسطنطين ثمانين سنة، ومات.

فصل

ثم وَلي بعده أخوه بالس[1]، فرفض دينَ النصرانية، ويُعرف بالحنيفي لرجوعه عن النصرانية، ويُسمى: البرباط[2] أيضاً، غزا العراق، فقتل وسبى في أيام أرْدَشِير بن بَابَك، وقيل: في أيام سابور بن أرْدشير، فلم يكن لسابور به قِبَلٌ لكثرة جنوده، فبينا هو يَقتل ويسبي جاءه سَهْمٌ غَرْبٌ فقتله، وقيل: كان ذلك باحتيال سابور. وكان مقامُه في المُلْك سنة واحدة.

فصل

ثم ملك بعده أوبالس، وفي أيامه انتبه أهل الكهف من منامهم، فأقام أربع عشرة سنة.

ثم ملك شرهو[3]، وهو الذي بنى عمورية، فوجد في أرضها كنوزاً عظيمة.

فصل

ثم ملك سطناس[4]، وهو الذي عمر كنيسة الرُّها، وكان بها منديل تَزعُم النصارى أن المسيح لما خرج من المعمودية تنشف به. ولما حوصرت الرُّها في سنة اثنتين [وثلاثين] وثلاث مئة، واشتدَّ الحصار على أهلها، وكانت للمسلمين، طلبت منهم الرومُ المِنديل ويرحلوا عنهم، فأعطَوْهم إياه ورحلوا.

---

(١) في مروج الذهب ٢/ ٣٢٥، والتنبيه والإشراف ص١٤١ أن اسمه لليانس (أويوليانوس) وأنه ابن أخي قسطنطين بن هيلاني.

(٢) في (خ) و (ك): الرباط، وفي التنبيه والإشراف ص١٤١: باربديس.

(٣) في مروج الذهب ٢/ ٣٣١: نسطاس.

(٤) في مروج الذهب وما سيرد بين قوسين منه: يسطانياس.

فصل

ومنهم هِرَقْل، ولسبع سنين من ملكه هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، وهو الذي ضرب الدنانير والدراهم الهِرَقْليَّة. وهو الذي كَتَب إليه رسول الله ﷺ. ومات في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وملك بعده ابنُه قيصر، وهو الذي أجلاه أبو عبيدة وخالد بن الوليد عن الشام وإلى هلمَّ جرًّا.

وقيل: عِدّة ملوكهم قبل ظهور النَّصرانية من المَلِك الذي نَهَشَتْه الحية إلى قسطنطين ثلاثون مِلِكاً، ومن قُسطَنطين إلى مورق بن لاوي الذي كان في أيام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ثلاثون ملكاً، أقاموا في المُلْك أربع مئة سنة.

فصل في ذكر ملوك الطوائف

وكانوا من الفُرس، وقيل: من النَّبَط، وقيل: من العرب، ويقال: هم الأَرْدَوان.

قال علماء السير: لما قَتل الإسكندر دارا بنَ دارا، وأوغل في بلاد الهند والصين، تغلَّب كلُّ قوم على ناحيةٍ، وكانوا أصنافاً، فكاتبهم الإسكندر، وكان مقصودُه تشتيتَ كلمتهم، وأن ينقادوا إلى مِلِكٍ واحد[(١)]. وكانوا بأسرهم يميلون إلى ملوك الجبال من نواحي الدِّيْنَوَر ونَهاوَنْد، ويقال لهم: الأشغانيون، وكان يقال لملوك الطوائف: الأشغانيُّون، لميلهم إليهم، وكانت منازل النَّبَط منهم ـ وهم الأَرْدوان ـ على الفُرات مما يلي قصرَ ابن هُبَيرة إلى ناحية الطفوف وما والاها، وكانت ملوكُ العرب من مُضَر ابن نزار[(٢)] وربيعة وأَنْمار وقَحطان بالحجاز واليمن. وكان أرسطاطاليس هو الذي أشار على الإسكندر بمكاتبتهم واستمالتهم، وأقام كلُّ ملكٍ في أرضه، ومَن مات منهم وَرِثَه ولده أو قريبه، وكان مُلكُهم خَمْس مئة سنة، وكانوا تسعين ملكاً مفرَّقين في العراق والشام ومصر والحجاز واليمن.

---

(١) في مروج الذهب ٢/ ١٣٣: وكان مراد الإسكندر تشتيت كلمتهم وتحزيبهم وغلبة كل رئيس منهم على السقع الذي هو به فيعدم نظام الملك ولا ينقاد إلى ملك واحد يجمع كلمتهم.

(٢) في النسخ: مضر ونزار، والمثبت من مروج الذهب ٢/ ١٣٤.

وقال ابن قتيبة: كان مُلكُهم أربع مئةٍ وخمساً وستين سنة(١).

وقال أبو عبيدة: لما رجع الإسكندرُ من الشرق تُوفِّي يوم الأربعاء، فأقاموا بعده مئتين وخمسين سنة. وفي أيامهم كان قتلُ يحيى بن زكريا عليهما السلام، وولادة المسيح عليه السلام، وأول ملوكهم بالعراق أشَكُ بن أَرْدَوان بن أشغان، وإليه نُسِبوا فقيل: الأَشْغانِيَّة، وقيل: الأَشْكانيَّة.

قال ابن مسكويه: أَشَك هو ابن دارا الأكبر، جمع جمعاً عظيماً وسار إلى أَنْطِيخُس الملك الرومي، وكان مقيماً بسواد العراق من قِبَل الروم، وزحف إليه أنطيخس، والتقيا ببلاد الموصل، فقتل أَشَكُ أنطيخس، وغَلَب على السَّواد، وصار في يده من المَوْصل إلى الرَّي وأَصبهان، وعظَّمه ملوكُ الطوائف لشرفه وكونه من بيت المُلك، وبدؤوا به على نفوسهم في كتبهم، وأَهْدَوا إليه من غير أن يَعزِلَ أحداً [منهم] أو يستعمِلَه(٢).

ثم ملك بعده جماعةٌ آخرهم الأَرْدَوان من ولد أَشَك، وظهر أَردَشير بن بابَك فغَلب على ملوك الطوائف، وقتل الأَرْدَوان مبارزةً واستولى على الممالك، وانقضت أيامُ ملوك الطوائف. وعددُ ملوكهم من أَشَك إلى الأَرْدَوان سبعةُ ملوك، وملَكوا مئةً ونيفاً وسبعين سنةً، غير أيام أَشَك فإنها كانت عشرين سنةً.

وملك بعدَه ولده جودرز بن أشك إحدى وعشرين سنة(٣)، ثم ملك فَيروز بن سابور ابن أشك عشرين سنة، ثم ملك بعده ابنُه سابور تسع عشرة سنة، ثم ملك بعده حوض ابن جَودَرز(٤) أربعين سنة، ثم ملك بعده أخوه هُرمز عشرين سنة، ثم ملك بعده أَرْدَوان بن هرمز خَمْس عشرة سنة، ثم ملك بعده ولده بلاش(٥) أربعاً وعشرين سنة، ثم مَلَك الأَرْدَوان وهو آخرهم ثلاث عشرة سنةً.

---

(١) المعارف ص٦٥٣.

(٢) تجارب الأمم ١/ ٤٣ وما بين معكوفين منه.

(٣) في تاريخ الطبري ١/ ٥٨٢، ومروج الذهب ٢/ ١٣٦، والتنبيه والإشراف ص٩٩ أنه ملك عشر سنين.

(٤) في مروج الذهب ٢/ ١٣٧، والتنبيه والإشراف ٩٩، وتاريخ الطبري ١/ ٥٨٢: نرسي بن نيزر.

(٥) في النسخ: بلا سون، والمثبت من تاريخ الطبري، ومروج الذهب ٢/ ١٣٧، والتنبيه والإشراف ص١٠٠، وتجارب الأمم ١/ ٤٤، والمنتظم ٢/ ٧٨.

فصل في ذكر ملوك الفرس الثانية

وأولُ ملوكهم ساسان الأصغر، وكان بالجبال لا يُؤبَه إليه، فجمع جموعاً كثيرة، ومَلَك البلاد وأباد ملوك الطوائف، ولم يبقَ منهم غير الأردوان فهرب منه، واستولى ساسانُ على الممالك، وإليه تنتهي أنساب الفرس الثانية. وهو الذي كوَّر الكُوَر، ورتَّب الصنائع والحِرَف والنواميس، وأقام مدةً لم تضبط، ثم مات.

فمَلَك بعده أَرْدشير بن بابَك بن بَهْمن بن اِسْفَنديار بن بُشْتاسِف، فسمَّى نفسه شاهِنْشاه الأعظم، وبنى المدائن، واستولى على الممالك، وإنما خرج طالباً بثأر ابنِ عمِّه دارا بن دارا بن بَهْمن الذي قتله الإسكندر.

وكان مولده بقرية من قرى إِصطَخْر، وكان أبوه بابَك شجاعاً يلتقي وحدَه مئةَ رجل(١)، وقتل أردشير الأردوان(٢) ووَطِئ رأسه بقدميه، وفي ذلك اليوم تسمَّى بشاهنشاه الأعظم، وكان منصوراً لا تُردُّ له رايةٌ. وملك خمس عشرة سنةً، واختلفوا في نسبه، ولا خلاف أنه من ولد مِنُوجِهْر.

وهو أول مَن خَطَب من الفُرس الثانية، فقال لمّا قتل الأَرْدَوان(٣): الحمدُ لله الذي خَصَّنا بنعمه، ووفَّر لنا من عطاياه، وشملنا بفوائده، ومهَّد لنا البلاد، [وقاد إلى طاعتنا] العباد، ألا وإنّا شارعون(٤) في إقامة منار العدل، وإدرار الفَضْل، وتشييد المآثر، والإقبال على الرأفة والرحمة، وإنصاف الضعيف من القوي، ومن الشريف للدَّنِيّ، فإن العدل سُنَّةٌ محمودة، وشريعةٌ مسلوكة، وسترون في أيامنا ما تَحمَدونا عليه، وتشكُرونا على فِعْله، وسوف تُصَدِّق أفعالُنا أقوالَنا... في كلام طويل.

وبأَرْدشير اقتدى الخلفاءُ والملوك في ترتيب الممالك، فإنه رَتَّب الناس على ثلاث طبقات؛ فالأولى: الحكماء والعلماء وكان مجلسُهم عن يمينه، والثانية: الملوك وأبناؤهم

(١) في تاريخ الطبري ٢/ ٣٧، والمنتظم ٢/ ٧٩ أن جده ساسان هو الذي يلتقي وحده ثمانين رجلاً.

(٢) في النسخ: وقتل ملك أردشير الأردوان.

(٣) في النسخ: لما قتل ملك الأردوان، وانظر تاريخ اليعقوبي ١/ ١٥٩، والطبري ٢/ ٤٠، ومروج الذهب ٢/ ١٥٢، وتجارب الأمم ١/ ٥٤.

(٤) في مروج الذهب ٢/ ١٥٢ وما بين معكوفين منه: ساعون.

وسمَّاهم الخواصَّ، وكان مجلسُهم عن يساره، والثالثة: المَرازبة والأصبَهبذية وهم بين يديه. ولم يكن في هذه الطبقات وضيعٌ ولا خسيسُ الأصل ولا ناقصُ الخَلْق(١).

ثم زادهم سبعَ طبقاتٍ: أولها: الوزراء، والثانية: الموابِذة، وهم الحكام والقُضاة وأصحاب الشرع، والثالثة: نُوَّاب هؤلاء.

وجعل الأصبَهْبَذية أربعةً: فالأولُ على خراسان، والثاني على بلاد الشمال، والثالث على المغرب، والرابع على ناحية الجنوب. ودانت له الدُّنيا.

ومن كلامه: معاشرةُ الوضيع للشريف شهراً، تُفسِد عقلَه دهراً. وقال: يجبُ على الملك أن يكون فائضَ العدل، فإن فيه جِماعَ الخيرات، وهو الحِصنُ الحصينُ من زوال المُلْك، وإن أول مخايل الإدبار في الملك ذهاب العدل منه(٢)، وما خفقت رايةُ الجَوْر في دولة إلا لَفَحتها نسائم الخِذْلان فردَّتها على أعقابها. وليس أحد ممن يصحب الملوك أولى باستجماع مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وطرائف المُلَح، وغرائب التُّحَف من النَّديم، فإنه يحتاج إلى تواضع العبيد مع قُربه من الملك، وعفاف النُّساك، ووقار الشيوخ، وأن يفهم ما مُرادُ الملك فيناجيه على حسب ما يبلوه من خلائقه، ويكون له جمالٌ ومروءة، أما جمالُه فنظافة ثوبِه، وطيب رائحته، وفصاحةُ لسانه، وأما مروءتُه فكثرةُ حيائه، ووقار مجلسه مع طلاقةِ وجهه، وأن يستكمل المروءةَ حتى يَسلُوَ عن اللذَّة(٣).

وكتب إلى من كان بقربه من ملوك الطوائف يخبره بما أجمع عليه من الطلب للمُلْك لما فيه من صلاح الرعية وإقامة العَدْل، وكان من كتابته: من أردشير بن بابَك المُستأثَر دونه بحقِّه، المغلوبِ على ميراث آبائه، الداعي إلى الله المستنصرِ به، فإنه وَعَد المظلومين النَّصرَ والظَّفَر، وجعل لهم العاقبةَ، إلى من يَصلُ إليه كتابي هذا من ملوك الطوائف، سلامٌ عليكم بقدر ما تستوجبون به معرفةَ الحقِّ، وإنكار الباطل والجَوْر.

فمنهم مَن أقرَّ له بالطاعة، ومنهم مَن تربَّص عليه، ومنهم من عصاهُ. فلما استوسق

---

(١) انظر مروج الذهب ٢/ ١٥٣.

(٢) في النسخ: وإن أول مخايل الملك في الإدبار وذهاب عدله، والمثبت من مروج الذهب ٢/ ١٥٥.

(٣) في مروج الذهب ٢/ ١٥٦: ولا يستكمل المروءة حتى يسلو عن اللذة.

ملكُه، أباد من تربَّص عليه وعصاه(١).

وكتب إلى رعيته: مِن أرْدشير ملك الملوك، ووارث العُظماء المؤيَّد، إلى العلماء الذين هم حملةُ الدِّين، والأَساوِرة الذين هم حُفَّاظ الدولة، والكُتَّاب الذين هم زَيْنُ المملكة، سلامٌ عليكم؛ اعلموا أنَّا قد وضعنا عن رعيَّتنا بفضل رأفتنا الإتاوةَ التي كانت عليها، ونحن كاتبون بوصيةٍ فاحفَظُوها: لا تستشعروا الحقد فيَدهَمَكم العدوُّ، ولا تحتكروا فيشمَلَكم القحط، وتزوَّجوا في الأقربين؛ فإنه أمسُّ للرحم، وأثبتُ للنسب، ولا تعدُّوا هذه الدنيا شيئاً فإنها لا تُبقي على أحد، ولا تهتموا لها، فالرزق بيد الباري، ولا ترفضوها بمرَّة فإن الآخرة لا تُدرَك إلا بها(٢).

وأجدبت الأرض، فكتب إلى عُماله: ليس من العدل أن يفرح الملكُ ورعيتُه محزونون، ثم فرَّق جميع ما في بيت المال.

ورُفع إليه أن جماعةً من بطانتك قد فسدت نياتهم، فكتب عليها: إنما أملكُ الأجسام دون النيات، وأحكُم بالعدل دون الرضى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر.

ومدحه مادح فقال: طُوبى للممدوح إن كان أهلاً للمدح(٣).

وكتب إليه مُتنصِّح: إن قوماً اجتمعوا على ثلبك، فوقَّع عليها: لئن كانوا نطقوا بألسنةٍ شتَّى لقد جمعتَ ما قالوه في ورقتك، فجرحُك أعجب، ولسانك أكذب.

وكتب إليه جماعة من بطانته يشكون إليه سوءَ حالهم، فوقَّع: ما أنصفكم مَن ألجأكم إلى الشكوى. ثم فرَّق فيهم مالاً وأغناهم.

قال ابنُ قتيبة: وهو الذي بنى مدينة جُور بفارس، ومدينة أرْدشير بفارس أيضاً، ومدينة أَستَراباذ، وهي كَرْخُ مَيْسان، ومدينة الأُبُلَّة وغيرها(٤).

ولما تمَّ لأرْدشير أمره، ودانت له الممالكُ، زَهِد في الدنيا وانقطع إلى بيوت

(١) المعارف ص٦٥٣.
(٢) مروج الذهب ٢/ ١٦٢_١٦٣.
(٣) العقد الفريد ١/ ٢٥ و ٢/ ١٣٣ و ٤/ ٢٢٢، وزهر الآداب ١/ ٢٠٧.
(٤) المعارف ص٦٥٤.

العبادات والخلوة، وأجلس ولدَه سابور مكانه وتَوَّجه، وكان أكبر ولده وأعقلَهم وأفضلَهم.

وأقام أرْدشير ثلاث سنين يتعبَّد، ولما احتُضِر أوصى ولده سابور، وكان فيما أوصاه: يا بُني إن الدّين والمُلك توأمان لا غِنى لواحدٍ منهما عن الآخر، فالدِّين أساس، والملك حارس له، وما ليس له أُسٌّ فمهدوم، وما لا حارس له فضائعٌ[١].

فصل

في ذكر ولده سابور، ويقال له: سابور الجنود، لكثرة جنوده واعتنائه بهم، ولما ولي سار بسيرة أبيه وزاد عليها، وأحسن السياسة، وضبط الممالك، ولما شاع ذلك عنه كتب إليه قيصر: لمّا بلَغَني حسنُ سيرتك وتدبيرك، أحببتُ أن أسلُكَ طريقتك، فاكتُب بها إلي.

فكتب إليه: اعلم أني ما نِلتُ ما نلتُ إلا بثلاث خصال: لم أَهزِل في أمرٍ ولا نهي، ولم أُخلِف وعداً، وربَّما أخلفتُ وعيداً، ولا عاقبتُ إلا للذنب لا للغضب.

وسابور هو الذي حاصر حصن الضَّيزَن، وقيل: اسم الحصن السَّاطِرون وهو على الفرات، وقيل: هو الحَضْر، وقيل: السَّاطِرون اسم الملك. وقال أبو عبيدة: اسمُ الملك الضَّيزَن بن معاوية بن مالك التَّنوخي القُضاعي، ويلقب بالسَّاطِرون.

وكان السبب في قَصْد سابور له، أنه غاب بخُراسان يُحارب عدواً له، فتطرَّق الساطرون إلى بلاده، فلما عاد سابور حصره في الحصن ـ وكان حصناً لا يُراد ـ فأقام عليه أربع سنين، وكان للملك ابنةٌ يقال لها: نَضيرة، ولم يكن في زمانها أجملُ منها، فنظرت من فوق الحصن إلى سابور فعَشِقتْه، فراسلته: إن دَللتُك على عورة الحصن أتتزوَّجُني؟ قال: نعم. قالت: فعليك بحمامة مُطوَّقة زرقاء، فاكتب في رجليها بحيض جارية بكرٍ، يُفتح بها الحصن فهي طِلَّسْمُه، وسقت هي حراس الحصن الخمر، وفعل هو، فانْهَدم جانبُ الحصن، ودخله عَنْوةً، فقتل الملك وأَقيال قُضاعة، وأخرب الحصن، وحمل معه نَضيرة فأعرس بها، فلم تزل طول ليلتها تقلق على الفراش، وكان

---

(١) مروج الذهب ٢/ ١٦٢.

محشُوّاً حريراً وقَزّاً، فقال لها: ما الذي بك؟ ثم فتش الفراش وإذا بطاقة آس كانت عليه قد أثَّرت في عُكْنَةٍ من عُكَنِها، وكان ينظر إلى مخّ ساقها من لين بشرتها، فقال لها سابور: بأيِّ شيءٍ كان يَغذُوك أبوك؟ فقالت: بالزُّبد والمخ والشَّهد وصَفْو الخَمْر. فقال: إذا كان أبوك فعل معك هذا وقابلتيه بما فعلت؟! فلا آمَنُك أن تفعلي بي كما فعلتِ بأبيك. ثم شدَّ ضَفيرتَها في رِجْل فرسين وأمر أن يُركَض بهما، فَرُكِضَ فقُطِّعت قطعاً قطعاً(١).

وسابور هو الذي بنى جُندَي سابور، وكانت أيامُه ثلاثين(٢) سنة، وقيل: إحدى وثلاثين سنة. ولما احتُضر دعا ولده هُرمز بن سابور فأوصاه، ثم مات.

وملك بعده ولده هُرْمُز، وكان عادلاً منصفاً على سَنَن جدِّه، وكان يُلقَّب بالبطل لشجاعته، وهو الذي بنى بالعراق دَسْكَرة الملك، وأقام والياً سنة واحدة، وقيل: ثلاث سنين، ثم مات.

ويقال: إن أباه اتَّهمه بأمر وأبعده عنه، فقَطع يد نفسِه وبعث بها إليه، فاستحى أبوه وقال: ما يَصلُح للمُلك سواه، فولَّاه الملك. ولما احتُضر، عَهِد إلى ولده بهرام بن هرمز.

فصل

ملك بهرامُ، وقتل ماني الزِّنديق القائل بمذهب الثَّنَوية، وصَلَبه، وحشى جلده تِبناً وعلَّقه على باب جُندَيْ سابور.

واختلفوا في ظهور ماني، فقال قوم: ظهر في أيام أرْدشير بن بابَك، وقال بإلهين اثنين، وأباح نكاح المحرَّمات كالأمهات والبنات والأخوات. وقال لأردشير: لا بُدّ لي من أم سابور أطؤها، فإن في ظهري نبياً، وما أحبُّ إلا أن يكون فيها. فأجابه أردشير إلى ذلك، وعزَّ على سابور، فبكى بين يدي ماني، وتضرع إليه، فسكت عنها. وقيل: إن سابور لما وَلي قتَله، وقيل: بل قتله بهرام بن هُرمز لأنه طلب منه أن ينكح أمَّه

(١) انظر تاريخ الطبري ٢/ ٤٧-٥٠، وتجارب الأمم ١/ ٦٩ - ٧١، والمنتظم ٢/ ٨١ - ٨٢.

(٢) في النسخ: ثمانين، ولم يذكر أحد أنه ملك هذه المدة، انظر المعارف ص٦٥٤، والأخبار الطوال ص٤٧، وتاريخ الطبري ٢/ ٥١، ومروج الذهب ٢/ ١٦٣ و١٦٦، والتنبيه والإشراف ص١٠٣، والبدء والتاريخ ٣/ ١٥٨، وتجارب الأمم ١/ ٧١، والمنتظم ٢/ ٨٢.

كما أراد أن يفعل بسابور، فقتله. وأقام بهرام في الملك عشرين سنة، ثم مات[١].

فصل

فولي بعده ولدُه نَرْسي، فأقام تسع سنين على منهاج أبيه، ثم مات. فوَلي بعده هرمز ابن نرسي، فأقام سبع سنين ومات.

فصل

ولما مات هُرْمُز بن نَرسي لم يُخلِّف ولداً، فشَقَّ على الفرس، وسألوا نساءَه: هل فيكن حاملٌ؟ فقالت امرأة منهن: أنا. ففرحوا وبعثوا إليها القوابلَ، وقد استبان حملُها، ورأَيْنَ من نضارة لونها، وخِفَّة الجنين في بطنها ما دلَّهن على أنه ذكرٌ، فأخبرنَ الفرس، فاجتمعوا ووضعوا التاجَ على بطنها. فلما انقضت أيامُها وضعت ولداً فسمَّوهُ سابور، واستبشروا به.

وأقام الوزراءُ والأساوِرَة يُدبِّرون أمرَ الفرس، وفشا في الآفاق أن الفرس يُملِّكون الحمل، ومَن هو في المهد، فطمع فيهم الناس، وغزتهم العرب: عبدُ القَيْس وكاظمةُ والبحرين[٢]، والروم، والترك، وكثر الفساد وقلَّت هيبة الفرس.

فلما ترعرع سابور كان أوَّل ما عُرِف من علوّ هِمَّته أنه سمع بالمدائن عند السَّحَر ضجَّة، فسأل عنها، فقيل له: الناسُ يَزدحِمون على جسر المدائن مُقبِلين ومُدبِرين. وكان الجسر على دِجْلة، فقال: وما الذي دعاهم إلى هذه المشقَّة وهم قادرون على حَسْمِها بأيسر مؤونة، بأن يجعلوا جسرَين: أحدهما للمُقبلين، والآخر للمدبرين، ولا يقعُ أحدٌ في الماء. ثم قال: لا تغربُ الشمس حتى يُعمَل الجسر. ففرح الناس لِما رأوا

(١) كذا ذكر، والذي ذكره المؤرخون أن بهرام بن هرمز ملك ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ثم قام بعده بهرام بن بهرام بن هرمز، وبقي ثماني عشرة سنة، وقيل: سبع عشرة سنة، ثم ملك بعده بهرام بن بهرام بن بهرام بن هرمز، فبقي أربع سنين وقيل: أربعة أشهر. انظر المعارف ص٦٥٥، والأخبار الطوال ص٤٧، وتاريخ اليعقوبي ١/ ١٦١، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٣، ٥٤، ومروج الذهب ٢/ ١٦٧، ١٦٨، ١٧٤، والتنبيه والإشراف ص١٠٣-١٠٤، والبدء والتاريخ ٣/ ١٥٨، ١٥٩.

(٢) في تاريخ الطبري ٢/ ٥٥، وتجارب الأمم ١/ ٧٢: فسار جمع عظيم منهم في البحر، من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى أناخوا على أبرشهر ...

من علوّ همته.

ولما بلغ ستَّ عشرة سنة سار إلى العرب الذين تَحزَّبوا عليه، ومنهم إياد بن نزار، وكان يقال لها: طَبَق، لإطباقها على البلاد، ومَلِكُها يومئذٍ الحارث بن الأغرّ الإيادي، فقتلهم سابور وسباهم ونفاهم، وجعل له مسالح بالأنبار وعَيْن التمر، فكان إذا أُتي بالرجل منهم نزع كتفَيْه، فسُمِّي ذا الأكتاف.

قال ابنُ الكلبي: بعث معاويةُ جماعةً من تميمٍ ليفتكوا بعليٍّ عليه السلام، فقال: [من الخفيف]

إنَّ حيّاً يَرى الصلاحَ فساداً ويرى الغيَّ في الأمور رَشادا
لَقريبٌ من الهلاك كما أهْـ لَكَ سابورُ بالسَّوادِ إيادا[1]

ولما فرغ سابور من إياد سار إلى البحرين وبها بنو تميم، فقتلهم وأجلاهم، وعليهم عمرو بنُ تميم، وكان قد أتت عليه ثلاثُ مئة سنة، وكان يُعلَّق في عمود في البيت في قُفَّة قد اتُّخِذت له، فأرادوا حملَه فقال: دَعُوني، فلعلَّ الله يُنجيكم بي من صَوْلة هذا الملك المُسَلَّط على العرب. فتركوه وانهزموا، وجاءت خيلُ سابور وعمرو معلَّق في شجرة، فأخذوه وأتوا به إلى سابور، فلما رآه عَجِب وقال: مَن أنت أيها الفاني؟ فقال: عمرو بن تميم.

ثم قال لسابور: أيها الملك، قد هرب الناس منك، فلم تقتلُ رعيَّتَك؟ فقال: لما ارتكبوا من بلادي وأهل مملكتي، فقال له عمرو: فعلوا ذلك ولستَ عليهم بقيّم، فلما بلغتَ أمسكوا هيبةً لك. فقال: إنما أقتُلهم لأنا نجد في علومنا أن العرب ستُدالُ علينا. فقال له عمرو: فوالله لأن تُحسنَ إليهم ليكافئوك عند الإدالة أولى بك من الإساءة. قال: صدقت. وأمر برفع السيف عنهم. وعاش عمرو بعد هذا اليوم ثمانينَ سنةً[2].

وسابور هذا هو الذي بنى الإيوان وسكَنَه، وكان إلى جانبه كوخُ عجوزٍ فلم يُغيِّرْه. ولما اجتاز هارون الرَّشيد بالإيوان نزل به فأعجبه، فقال خادم من خُدَّامه لآخر: ترى الذي بنى هذا الإيوان أراد أن يَصعدَ إلى السماء؟! فسمعه هارون فضربه مئةَ سوط،

---

(١) مروج الذهب ٢/ ١٧٧ـ١٧٨، والبدء والتاريخ ٣/ ١٦٠ـ١٦١.
(٢) مروج الذهب ٢/ ١٧٨ـ١٨١.

فقيل له في ذلك، فقال: المُلْك نِسبةٌ، والملوك فيه إخوة، فلَحِقَني غَيْرةٌ على الملك، فأدَّبتُ هذا الجاهل.

وسابور هذا هو الذي بنى نيسابور بخراسان، وهو الذي دخل بلاد الروم متجسساً وعرفه مَلكُ الروم، فأخذه وجعله في بقرةٍ من جلود، وأتى به العراقَ، ثم نصره الله عليه، وملك اثنتين وتسعين سنة[1]، وقيل: إحدى وثلاثين سنة.

فصل

ثم ملك بعده أخوه أرْدشير بن هُرْمُز، فأفسد وظلم، وأساء السيرة، فخلَعَتْه الفرسُ، وكانت مدةُ أيامه أربعَ سنين.

فصل

ثم ملك بعده ابنُ أخيه سابور بن سابور بن هُرْمُز، وكان عادلاً منصفاً، فأقام إحدى عشرة سنةً، وقيل: خمس سنين[2]، ضربوا له فُسْطاطاً فوقع عليه، فمات.

فصل

ثم ملك بعده أخوه بهرام بن سابور ذي الأكتاف، وكان يُلقَّب: كَرمان شاه، وكان عادلاً حسن السيرة والسياسة، فأقام إحدى عشرة سنة، ثم تجبَّر وطغى، فرماه رجل من الفُتّاك بسهمٍ فقتله.

فصل

ثم ملك بعده يَزْدَجِرد بن بهرام بن سابور، وكان يُلقَّب بالأثيم لسوء سيرته، وكان يحتقرُ العلماء، ظالماً جباراً، سيئ الخُلُق، لا يَقبل شفاعةً، ولا يجازي على صنيع، وكان ينزل بجرجان، فلما رأى ذلك أهلُ مملكته وأشرافُهم، اجتمع الصلحاء منهم والمظلومون ودَعَوا عليه، وصرفوا هممهم إليه.

---

(١) في المعارف ص٦٥٩، والأخبار الطوال ص٥٠، وتاريخ اليعقوبي ١/ ١٦٢، وتاريخ الطبري ٢/ ٦١، ومروج الذهب ٢/ ١٧٥، والتنبيه والإشراف ص١٠٤، والبدء والتاريخ ٣/ ١٦٣، وتجارب الأمم ١/ ٧٧، والمنتظم ٢/ ٨٧ أنه ملك اثنتين وسبعين سنة.

(٢) الذي ذكره المؤرخون أنه ملك خمس سنين وأشهراً، انظر المصادر في الحاشية السابقة.

فبينما هو ذاتَ يومٍ في قصره إذا بفرسٍ عائرٍ[(١)]، لم يُرَ مثلُه في الخِلْقة، فجاء فوقف على باب قصره وبلغه، فأمر بإسراجه وإلجامه وإدخاله عليه، فقام السُّوّاس إليه، فلم يُمكِّنْهم من نفسه، فقام يزدجرد إليه بنفسه، فلما رآه الفرس سكن، فألجمه وأسرجه، فلما أراد أن يرفع ذنبه ليُثْفِرَه[(٢)] استدبره الفرس، ورفسه على رأس فؤاده، فمات من ساعته، وذهب الفَرس فلم يُرَ له أثر. وروي أنه ركبه فجرى به مثل الطير، فاقتحم به البحر فهلك، ففرح الناسُ وقالوا: هذا صُنعُ الله تعالى.

وأقام والياً اثنتين وعشرين سنة.

فصل

ثم ملك بعده ولده بَهرام بن يَزدجِرد، ويسمى: بَهرام جُور. وكان المنجمون قد أخبروا أباه عند مولده أنَّ إرضاعه يكون ببلاد العرب، فضمه إلى المنذر بن النعمان صاحب الخَوَرْنَق والسَّدِيْر، فاسترضع له المراضع.

فلما بلغ [خمس] سنين قال للمنذر: أحضر لي مؤدِّبين يعلِّموني[(٣)] الكتابة والرمي. فقال له: إنك صغير السن. فقال: أنا وإن كنتُ صغير السنّ فعقلي عقلُ مُحتنِكٍ، وأنت مُحتنكٌ وعقلُك عقلُ رضيعٍ، أما علمتَ أني من ولد الملوك، وأن المُلك صائرٌ إليَّ، وأولُ ما يُطلب من الملوك[(٤)] صالحُ العمل والأدب، لأنه زَيْن لهم وركن لدولتهم.

فاستدعى العلماء من الآفاق والرماة، فما بلغ اثنتي عشرة سنة إلا وقد برع وكَمُل حاله، وتعلَّم الفروسية. ودفع له المنذر فرساً أشقر فكان يأخذ عليه الأسد.

ثم إنه قصد باب أبيه يَزْدَجِرد فلم يقبله، فأنف أن يعود إلى المنذر، فسار إلى الهند، فأكرمه ملك الهند وزوَّجه ابنته، وأقطعه الدَّيْبُل ومُكْران والسِّند.

---

(١) عار الفرسُ، إذا ذهب يتردد كأنه مُنْفَلِت. المخصص ٦/ ١٧٠.

(٢) ليشد عليه السير الذي في مؤخر السرج. القاموس (ثفر).

(٣) في النسخ: يعلماني، والمثبت من تاريخ الطبري ٢/ ٦٩، وتجارب الأمم ١/ ٧٩، والمنتظم ٢/ ٩٢ وما بين معكوفين منها.

(٤) في النسخ: الملك.

فلما هلك أبوه يَزدجِرد عاد إلى المنذر، وكانت الفُرس قد ملكت عليها رجلاً من غير نسل يزدجرد لِما لقوا منه، فقال له المنذر: طِبْ عيشاً، وسار إلى المدائن مع بهرام في أربعين ألفاً، فخرج إليه الأساورة، وشكوا إليه ما لقوا من أبيه، فعذرهم، وقال: لِله عليَّ لئن وليتُكم لأُصلحنَّ ما أفسد.

واجتمعت الموابذةُ، وحضر الرجل الذي ولَّوه، فقال موبذ موبذان: ضعوا التاج بين أسدين ضاريين، فمَن أخذه منكما فهو أحقُّ بالمُلك. فقال بهرام: أنصفتم.

فأحضروا التاج والأسدَين، ورموه بينهما، فصاح بهرام بالرجل: أيها المتغلِّبُ على مُلكنا، دونك التاج. فقال له: أنت أولى؛ لأنك تطلب الملك بالميراث، وأنا في زي غاصب. فصاح موبذ موبذان ببهرام: بوبد بويك، فنحن برآء من دمك. فحمل على الأسدين، ووثب فصار على ظهر أحدهما، وعصر جانبيه برجليه فقتله، ثم أخذ رأس الأسد الآخر، فما زال يضرب به رأس الأسد الآخر حتى قتله، وهو يومئذٍ ابنُ عشرين سنة، فصاح به الرجل المتغلب: يا بهرام، ليَهْنِك المُلك.

ولما ملك اشتغل باللهو واللذات عن الرعية، فسار إليه خاقان ملك الترك في مئتين وخمسين ألفاً، فبيَّته بهرام ليلاً فقتله، وغنِم أمواله وعساكره، وعَظُم في عين الفرس. ثم أقام ثلاثاً وعشرين سنة وعشرة أشهر، ثم هلك.

وسبب هلاكه أنه كان مُغْرىً بالصيد، فظهر له حمار وحشٍ، فركض خلفه فوقع في جُبٍّ فيه ماء فغرق، فأُخبرت أمُّه فقصدت الجب، وأنفقت أموالاً عظيمة على الغوَّاصين، ولم يقدروا على جثته بعد أن أخرجوا كل ما في الجُب. ولم يزل مغلُّ الدَّيبُل ومَكران والسِّند يُحمل إليه حتى هلك.

فصل

ثم ملك بعده بهرام بن بهرام[1]، فاشتغل باللهو والصيد عن النظر في الأمور،

(١) كذا ذكر المصنف، وذكر المؤرخون أن الذي ملك بعد بهرام جور هو: يزدجرد بن بهرام جور، والقصة التي ساقها المصنف إنما جرت لبهرام بن بهرام بن هرمز، كما ذكر المسعودي في مروج الذهب ٢/ ١٦٨، ثم ملك بعد بهرام هذا: بهرام بن بهرام بن هرمز، ثم ملك نرسي بن بهرام. انظر المعارف ص٦٦١، والأخبار =

فخربت البلاد، وعمَّ القحط، وضعفت بيوت الأموال، وقلّ الجند، وهرب الفلاحون.

فركب بهرام يوماً إلى بعض مُتنزهاته، فجَنَّ عليه الليلُ وكانت ليلةً مقمرة، والموبذ يُسايره ويحادثه، فمروا بقرية كانت أمَّ القُرى، وهي خرابٌ لا أنيسَ بها إلا البوم يصيح ويتجاوب، فقال بهرام: أتُرى أُعطي أحدٌ من الناس فهمَ منطقِ هذا الطير المتجاوب في الليل الهادئ؟ فقال الموبذ: نعم أنا أعرفُ. قال: فما يقول؟ قال: هذا المصوِّتُ بومٌ ذَكَر يخاطب بومة أنثى، يقول لها: أمتعيني بنفسك حتى يخرج منا أولادٌ يسبحون الله، ويبقى لنا في العالم ذكرٌ. فقالت البومة: إن لي في هذا الحظَّ الأوفر، ولكن أريد أن تقطعني إقطاعاً على ذلك عِوضَ مَهري، فقال: وما هو؟ قالت: عشرين قرية من أمهات القرى الخراب التي خربت في أيام هذا الملك السعيد. فقال لها: إن دامت أيامُه أقطعتك ألف قريةٍ خراباً.

فلما سمع بهرام ذلك، ترجَّلَ عن فرسه وقال للموبذ: أيها القيِّمُ بأمر الدين، الناصح للملك، المُنبِّه على ما أهمله الملك من أمور رعيته، وإضاعة مملكته، ما هذا الكلامُ الذي خاطبتني به؟! فقد حركتَ مني ما كان ساكناً، وأيقظتَ ما كان غافلاً.

فقال: أيها الملك، اعلم أنه لا قِوام للملك إلا بالرجال، ولا رجالَ إلا بالمال، ولا أموال إلا بالعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل، لأن العدل هو الميزان بين العالم، نصبه الله لخليقته، وأقام له قيِّماً وهو المَلك، وإنك أقطعتَ البلاد الوزراءَ والخدم والحاشية، فأخذوا ما كان فيها من الغَلّات، ولم يَعمروها فخرِبت.

فجزاه بهرامُ خيراً، وعاد إلى النظر في أمور رعيَّته بنفسه، فحسُنت أيامُه، واستقام ملكه، ثم أقام مالكاً أربعاً وعشرين سنة، وقيل: سبع عشرة سنة.

فصل

واختلفوا فيمن ملك بعده على ثلاثة أقوال:

أحدها: بهرام بن بهرام، ونظير ذلك في ملوك غسان: الحارث الأصغر بن

= الطوال ص٥٨، وتاريخ اليعقوبي ١/ ١٦٣، وتاريخ الطبري ٢/ ٨١، ومروج الذهب ٢/ ١٩٣، والتنبيه والإشراف ص١٠٤، والبدء والتاريخ ٣/ ١٦٥، وتجارب الأمم ١/ ٨٥، والمنتظم ٢/ ١٠٤ وغيرها.

الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر، وفي الطالبيين: حسن بن حسن بن حسن، وفي المحدِّثين: هاشم بن هاشم بن هاشم بن عُتبة بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن ابن المُجَبَّر، وعلى هذا الباقي كثرةٌ في المتأخرين.

والثاني: فيروز بن يَزدجِرد بن بهرام بن سابور، وقُحِط الناس في زمانه سبع سنين، ثم استسقى فسُقوا، وجاء الله بالخصب، وكان مُلك فيروز ستاً وعشرين سنة.

والثالث: إنما ملك بعد بهرام بن بهرام ولدُه يزدجرد، وكان محمود السيرة، فأقام ثماني عشرة سنة.

فصل

ثم ملك بعد يزدجرد ابنُه هرمز، وكان له أخ يُقال له: فيروز بن يزدجرد، وهو الذي ذكرناه آنفاً، فنازع أخاه هُرمز على الملك، فلم يقدر عليه، فهرب فيروز إلى ملك الهياطلة، واستجار به فأجاره، وبعث معه جيشاً، فحارب أخاه هرمز، فلم يكن لهرمز بفيروز طاقةٌ فضعف، واستولى عليه فيروز فقتله، وكان مُلك هرمز سبع عشرة سنة.

وكلّ مَن تقدم هرمز من الملوك مات على فراشه إلا هو، فإن أخاه فيروز قتله.

ثم أقام فيروز بعده مدة يسيرة وهلك، وملك بعده ولده بلاش بن فيروز، فأقام أربع سنين ثم هلك.

فصل

ثم ملك بعده أخوه قُباذ بن فيروز، وهو الذي بنى حلوان. ولما مضت لقباذ عشر سنين اجتمعت الفرس على خلعه، وسببه أنه تابع رجلاً يقال له: مَزْدَك، أحدث مقالاتٍ لا يعرفها الفرس من إباحة الأموال والفروج، وكان لا يأكل اللحم ولا يسفك الدم وغير ذلك، فأخذوا قباذ فحبسوه، وأقاموا أخاه جاماست بن فيروز فأقام ستَّ سنين.

ثم إن أخت قباذ احتالت حتى دخلت إلى الحبس، ولفت أخاها في بساط وأخرجته على قفا حمال، ولم يعلم السجان، فمضى قباذ إلى ملك الهياطلة واستجار به، فأنجده على أخيه جاماست، فجاء فقتل جاماست وأخذ الملك.

فصل

ثم ملك أَنُوشِرْوان بن قباذ المسمى بالملك العادل، واختلفوا في أبيه قباذ بن

فيروز، فروي أنه لما هرب من أخيه[١] بسبب نسبته إلى الزندقة، ومضى إلى بلاد الترك، نزل على دهقان فتزوج ابنته، فأولدها أنوشروان، فلما قدم المدائن وملك تيمَّن بطلعة أنوشروان.

قالوا: وقباذ بنى مدينة أَرّجان، وأقام في الملك أربعاً وأربعين سنة ومات بالمدائن، فعهد إلى ابنه أنوشروان. وقيل: أشارت عليه المَزْدَكِيَّة بقتل مَن خالفه، فشرع في ذلك، فاجتمعت الفرسُ على قتله، فانهزم إلى ملك الهياطلة فمات عنده. وكان ولده أنوشروان بالمدائن، فملكوه بعده لما رأوا من نجابته وحسن سيرته.

فصل

فلما ملك أحسن السيرة، ومهَّد الممالك، وأحسن إلى الموابذة والأساورة والخاص والعام، وشرع في قتل المَزْدَكيَّة فأفناهم، فعَظُم في عين الفرس. وكان مولده بناحية نَيْسابور، ولما ترعرع كانت مخايل الملك لائحةً عليه.

وفي أيامه وُلد رسول الله ﷺ، وسلك أنوشروان سيرة أَردَشير بن بابك، وجدَّد في الإيوان.

وروي أنه كان جالساً في الإيوان، فرأى على جانب البساط وردةً، فقال لبعض غِلمانه: ناولْني تلك الوردة. فقال: ما ها هنا وردةٌ؟ قال: بلى. فقال: لا والله. فقام من حَنَقه ليأخذها، فلما خرج من الإيوان سقط سقفُه، فتصدَّق بمال جليل، وأعاد السقف إلى حاله.

وكان جالساً يوماً في الإيوان، وإذا بحيّةٍ قد دبّت إلى عُشٍّ حمامة في بعض شُرَف الإيوان لتأكل الفراخ، فضربها ببندقةٍ فقتل الحية، وقال: هكذا نفعلُ بعدوٍّ مَن استجار بنا. فلما كان بعد أيام جاءت الحمامةُ بحَبٍّ في مِنقارها وبين رجليها فألقته إليه، فقال: ازرعوه. فزرعوه فنبت ريحاناً، فقال: نِعْم ما كافأَتْنا به الحمامةُ، ولن يضيع المعروف، فنسأل الله الذي ألهم هذه الحمامة ما ألهمها، أن يُلهمَنا شكرَه، والإحسانَ إلى الرعية والصبرَ عليهم[٢].

(١) في النسخ: أبيه، وهو خطأ.
(٢) المنتظم ٢/ ١١١ـ١١٢.

وروي أن خُطَّافةً عشَّشت في مجلس أنوشروان، فدبّت حيّةٌ فأخذت فِراخها، فحزنت حُزناً شديداً، فعَزّاها جميعُ الطير، فلم تقبل عزاءً، فلامها بعض الطَّير، فقالت: والله ما أبكي على نفسي الرزيَّة، وإنما أبكي لما جرى علي من الظلم في مجلس العدل. فقيل لها: إن أنوشروان لم يعلم. فقالت: هذا أعظم، يتولَّى أمورنا ويَغفل عنا.

وكان على خاتمه: عَدلُ السلطان خيرٌ من خِصب الزمان.

وكان له أربعة خواتيم: خاتم الخراج، وفَصُّه ياقوت أحمر يَتَّقد كالنار، ونَقْشُه: العدل. وخاتم الضِّياع، وفصه فيروز، ونقشه: العمارة. وخاتم البريد، وفصه ياقوت أصفر، ونقشه: الوَحى الوَحى. وخاتم المعونة وفصُّه ياقوت كحلي ونقشه: التأني[١].

وكان له جامُ ذهب يأكل فيه، فسرقه بعض الغلمان وكسرى ينظر إليه، فافتقد الطباخ الجام فلم يجده، فبُهت، فقال له كسرى: لا تتعنَّى، الذي أخذه ما يرده، والذي رآه ما يَنمُّ عليه. ودخل السارق بعد مدةٍ وعليه مِنْطَقةٌ من جوهرٍ، فقال له بالفارسية: هذا من ذاك. فخجل الرجل وخاف، فقال له كسرى: لا بأس عليك.

وكتب إليه صاحب خراجه: إني قد جبيت في هذه السَّنة زيادةً على المعهود ثمانية آلاف ألف درهم. فوقَّع كسرى على ورقته: إن الملك إذا عمرت بيوت أمواله بما يأخذه من أموال رعيته، كان كمن عَمّر سطح بيته بما يقلعه من قواعد بنيانه. ثم أمر برد المال إلى الرعية[٢].

وأنوشروان هو الذي بنى السُّور على جبل القبج عند باب الأبواب، وغرم أموالاً جليلة، وحسم به مواد الفساد من الأمم التي خلفه، وعمل فيه الأبواب وأقام عليها الحرس.

وقتل في يوم واحدٍ من المزدكية ثمانين ألفاً، وقتل مزدك أيضاً على النهروان من أرض العراق، وكان قد استفحل أمرهم.

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٠٤.

(٢) المنتظم ٢/ ١١٤، ١١٣.

وبعث إليه ملك الروم رسولاً، فلما شاهد الإيوان هاله، وتأمله وإذا فيه يسيرُ اعوجاجٍ، فقال: يحتاج أن يكون مربعاً، فقيل له: هكذا بُني، وإن عجوزاً لها إلى جانبه بيتٌ، وقد أرغبها الملك بالأموال النفيسة لتعطيه البيت فيدخله في الإيوان، فامتنعت، وقالت: هكذا وجدتُه وورثتُه عن آبائي. فتركها ولم يعرض لها لئلا يشقَّ عليها. فقال الرومي: هذا الاعوجاجُ أحسن من الاستواء[1].

ويُروى أن العجوز قالت: أرغَبْتَني في هذا الكوخ ما أشتري به المنازل العالية والقصور الشاهقة، ولكن قصدتُ شيئين؛ أحدهما: أن تبقى لك هذه المأثرة، ويتحدَّث بها الناس بعدك، والثاني: من أين لي جارٌ أجاوره مثلك، فلو أعطيتَني جميع ما تملك ما بعت به جوارك؟ فبكى الملك وقال: زِه، ولم يكن عنده أحظى منها.

وسابور بنى الإيوان، وزاد فيه أنوشروان.

وقال أنوشروان: صَلاحُ العمال باستقامة الوزراء، ورأسُ الكل تفقُّدُ الملكِ أمورَ رعيته، فإن صلاح الرعية أنصر من [كثرة] الجنود.

وقال: أيام السرور كلمح البصر، وأيام الحزن تكاد تكون أعواماً[2].

قال علماء السير: فتح أنوشروان الشرق والشام والمغرب والروم، وبنى مدينة قريبة من المدائن وسماها: رومية، ونقل إليها من الشام الرخام والمرمر والفصوص، وحكم بلاد الهند والصين، وزوَّجه خاقان ابنته وابنة أخيه، وخضعت له ملوك الدنيا، وكاتبوه وكانوا على بابه، وقطع النهر، وقتل الاخشنوار ملك الهياطلة، وكان ملكاً عظيماً، وأوغل في الهند وتخوم الصين، فخافته ملوك المشرق.

وكتب إليه ملك الصين: من بود ملك الصين الذي له قصر الدرّ والجواهر واليواقيت، ويجري فيه نهران يسقيان شجر الكافور والعود، وتوجد رائحة قصره من مسيرة شهرين، ويخدمه ألف ملك، وفي مربطه ألف فيل بيض؛ إلى أخيه كسرى أنوشروان. وبعث مع الكتاب هدايا، من جُملتها فارسٌ من دُرٍّ عيناه ياقوتتان، والفَرس

---

(١) مروج الذهب ٢/ ١٩٧ـ١٩٨.

(٢) مروج الذهب ٢/ ٢١٠ وما بين معكوفين منه.

من الياقوت الأحمر، وقائم سيفه قضيب من الجوهر، وثوب حرير مرصّع بالجواهر، فيه صفة الملك وقصرُه وجُلاسُه وعساكره، والجميع في سَفَط من ذهب، تحمله جارية تغيب في شعرها، تتلألأ حُسناً وجمالاً.

وأهدى له ملك الهند جاماً من الياقوت، فَتحُه شِبرٌ في شبر، مملوءاً دُرّاً، وعوداً يختم فيه كالشمع، وعشرة أَمْناء مثل الفستق[1]، وجارية طولها سبعة أذرع، تضرب أشفارُ عينيها خدَّيها، وبين أشفار عينها مثلُ لَمَعان البرق، لها ضفائر بطولها.

وكاتبه ملوك الهند والصين في لحاء شجر الكاذي، مكتوب فيه بالذهب، له رائحة طيبة، وهو أرقُّ من الورق، يكاتب فيه ملوك الهند والصين.

وأنوشروان أول مَن وضع الخراج بالعراق على كل جَريب من المَزارع يبلغه الماءُ من الحنطة والشعير درهماً، وعلى جَريب الرَّطْبة خمسة دراهم، وعلى جريب الكَرْم عشرة دراهم[2]. وكان يقال له: كسرى الخير.

وكان قد علّق على ستر الإيوان أجراساً يُحرِّكها المظلوم فيسمع، ويقول: أخاف أن تحجب عني دعوة المظلوم[3].

وقيل له: ما أعظم الكنوز قدراً وأنفعها عند الحاجة؟ فقال: معروفٌ أودعتَه الأحرار، وعلم أورثتَه الأعقاب.

وقيل له: مَن أطول الناس عمراً؟ فقال: مَن كَثُر علمه فتأدّب به مَن بعده، أو كَثُر معروفه فتشرَّف به عَقِبه.

وقال: الإنعام لقاح، والشكر وِلاد، والمُنعم هو الجاعل للشاكر إلى شُكره سبيلاً[4].

---

(١) في مروج الذهب ٢/ ٢٠١-٢٠٢: وأهدى إليه ألف منّ عوداً هندياً، يذوب في النار كالشمع، ويختم عليه كما يختم على الشمع فتتبين به الكتابة، وجاماً من الياقوت الأحمر، فتحه شبر، مملوءاً من الدر، وعشرة أمناء كافور كالفستق. قلت: والأمناء: جمع المَنّ، وهو رطلان.

(٢) في مروج الذهب ٢/ ٢٠٥: والكرم ثمانية دراهم، والرطبة سبعة دراهم.

(٣) المنتظم ٢/ ١١٥.

(٤) مروج الذهب ٢/ ٢٠٧-٢٠٨.

وأنوشروان هو الذي مَلّك النعمان بن المنذر على العرب، وأمّه ماء السماء.

وفي أيام أنوشروان ظهرت الحبشة على اليمن.

وخرج أنوشروان في بعض أيامه مُتصيِّداً، فعَنَّ له صيد، فتبعه فانقطع عن أصحابه، وأظلَّته سحابةٌ، فأمطرت مطراً حال بينه وبينهم، فمضى لا يدري أين يَقصد، فلاح له كوخٌ في البرية فقصده، فإذا عجوزٌ على بابه جالسة، فقال لها: أنزل؟ قالت: نعم. فنزل ودخل الكوخ، وأدخل فرسه، وجاء الليل، وإذا بابنة العجوز قد جاءت ومعها بقرةٌ قد رعتها، فقامت العجوز فحلبتها لبناً كثيراً، فقال أنوشروان في نفسه: هذا حِلاب كثير، والخراج بالحماية، وينبغي أن تُجعل على كل بقرة إتاوة. وقدمت له اللبن، فشرب ونام إلى وقت السَّحَر، فقالت العجوز لابنتها: قُومي فاحلبي اللبن للضيف. فقامت لتحلبها فوجدتها حائلاً ليس في ضَرعها قطرةٌ من لبن، فنادت يا أُمّاه، قد أَضمر الملكُ لنا شراً. فقالت: ولِم؟ قالت: هذه البقرةُ حائلٌ لا قطرةَ فيها. فقالت: لعله ليل، امكثي قليلاً. فقال كسرى في نفسه: من أين علمَتْ ما أضمرتُ؟ أما إني لا أفعلُ ذلك. ثم مكثت ساعة، وقالت: قومي فاحلبيها. فقامت وإذا ضَرعها قد امتلأ لبناً، فقالت: يا أماه، ذهب والله ما كان في نفس الملك من الشر، هذه البقرة حافل.

وطلع الصبح، وجاء أصحابُه، فركب، وأمر بحمل المرأة وابنتها معه إلى قصره، وأحسن إليهما، ثم قال للعجوز: من أين علمت ابنتُك أن الملك قد أضمر في نفسه شرّاً ثم عَدل عنه؟ فقالت: نحن بهذا المكان منذ كذا وكذا سنةً، ما عُمل فينا بالعدل إلا أخصبت أرضُنا، وعاشت بلادُنا وأموالُنا، وما عُمل فينا بالظلم إلا أجدبت أرضُنا، وضاق عيشُنا، وانقطعت موادُّ النفع عنا. فقال كسرى: إن شَفقةَ الملك على رعيَّته وعدلَه فيهم يؤثر ما قلت، وإن غِشَّه لهم يُضيّق الأعطان، ويجدب الأوطان[١].

وكان مُلكُ أنوشروان ثمانياً وأربعين سنة، وهو كان طِرازَ القوم، وواسطة عقدهم[٢].

---

(١) المنتظم ٢/١١٦_١١٧.

(٢) من هنا سقط في (خ) إلى قوله: وجمع أبرويز من الأموال والخيول والفيلة والمماليك والجواري والأمتعة ما لم يجمعه أحد ممن تقدمه.

فصل

ثم ملك بعده ولدُه هرمز، وكان عادلاً حسن السيرة، وكان في جرايته وراتبه ثلاثة عشر ألفاً، وأمه فاقم بنت خاقان، فالترك أخواله.

ثم أساء السيرة وظلم، فقصده الأعداءُ من كل مكان، فسار إليه شابة ملك الترك في أربع مئة ألف لإحدى عشرة سنة مضت من مُلكه، ووصل إلى هَرَاة، وقصده ملك الروم في مئة ألف، فوصل إلى الضواحي[1]، وقصده ملك الخزر في ست مئة ألف، فوصل إلى باب الأبواب.

فأرسل هرمز بهرام جوبين[2] مَرْزُبان الرَّي في اثني عشر ألف سرية، فكان يسري ليلاً ويَكمُن نهاراً، فبيَّت ملك الترك ولم يشعر به، فرماه بهرام بسهم فقتله، وكان ذلك في السنة السابعة عشرة من مولد النبي ﷺ، واستولى على خزائنه وعساكره وذخائره.

وبعث بهرام إلى هرمز من الأموال والأمتعة والجواهر وِقْر مئتي [ألف وخمسين ألف] بعير[3]، فاستكثر ذلك هرمز، فقال له وزيره وكان يحسد بهرام: ما أوصل إليك من الشاة إلا أذنها. فغضب هرمز، وأنفذ إلى بهرام حِمل جَملٍ مغازل، فقال بهرام للعساكر: قد جَعلَنا مثل النساء، فما تَرون؟ قالوا: نخلعه ونقاتله.

وسار بهرام بالعساكر نحو المدائن، فاتَّفق عظماء المملكة على خلع هرمز لسوء سيرته وقبح تدبيره، فقال عظماء المملكة: نخلعه ونُولّي ابنه أبرويز. وعلم هرمز فبعث إلى ابنه أبرويز مَن يغتاله ويقتله، فهرب أبرويز إلى أَذْرَبيجان.

وكان هرمز قد أفنى خواصّه وأربابَ دولته بالقتل، فيقال: إنه قتل ثلاثة عشر ألفاً، فانخرمت عليه قواعد الملك، وكان قد أزال أحكام الموابذة، وغيّر الأحكام، وأزال الرسوم، واستخف بالعلماء.

فكتب بهرامُ اسم أبرويز بن هرمز على الدراهم والدنانير، ودسها مع التجار،

---

(١) في (ب) و (ك): الصوافي، والمثبت من تاريخ الطبري ٢/ ١٧٤، والمنتظم ٢/ ٣٠٢.

(٢) في (ب) و (ك): جوين، والمثبت من تاريخ الطبري، ومروج الذهب ٢/ ٢١٣، والتنبيه والإشراف ص١٠٥، وتجارب الأمم ١/ ١١٦.

(٣) ما بين معكوفين من تاريخ الطبري ٢/ ١٧٥، وتجارب الأمم ١/ ١١٧، والمنتظم ٢/ ٣٠٢.

فألقوها في المدائن، ولما وقف عليها هرمز ظن أن أبرويز فعل ذلك، وكان هرمز قد حبس خالَيْ أبرويز، فاتفقا مع المحبسين، وكسروا الباب، ودخلوا على هرمز فسَمَلوه وقيَّدوه.

وبلغ أبرويز، فجاء من أذْرَبيجان إلى المدائن، فدخل على أبيه فأخبره أنه لا ذنب له، وإنما هرب خوفاً منه، وقال له: يا أبت ما خلعتك، وإنما خلعك أشراف قومك لسوء سيرتك، فقال: يا بني أريد أن تنتقم لي ممن سَملني، وتُؤنِسني بثلاثة نفر. فقال أبرويز: إن بهرام قد أظلنا بمن معه، فاصبر حتى يقضي الله بيننا وبينه.

فتوّجه هرمز وملّكه. وبلغ بهرام جوبين، فسار إلى المدائن، فخرج إليه أبرويز فالتقيا على النهروان، فكانت الدائرة على أبرويز فانهزم، وقام تحته فرسه المعروف بسندان[1]، وهو فرس مشهور عند العرب. ولما قصّر به الفرس طلب من النعمان بن المنذر فرسه اليَحموم، فأبى عليه ونجا عليه النعمان، ونظر حسان بن حنظلة بن حيّة الطائي إلى أبرويز قد خانه فرسُه، وخامر عليه أصحابه[2]، وأشرف على الهلاك، فأعطاه فرسه المعروف بالضُّبَيْب[3]، وقال: أيها الملك، انْجُ عليه؛ فإن حياتك للناس خيرٌ من حياتي. وأعطاه أبرويز فرسه سندان، ومضى أبرويز إلى المدائن إلى أبيه فقال له: استنجد بقيصر على بهرام. وجاء حسان سالماً على سندان، فأحسن إليه أبرويز، وعرف له ما صنع، وحقدها على النعمان حتى قتله.

ثم خرج أبرويز من المدائن قاصداً قيصر، وتبعه خالاه بسطام وبندويه، فعبر دجلة، وتأخرا عنه ذلك اليوم، فاستراب بهما، ثم لحقاه، فسألهما عن تأخرهما، فقالا: قتلنا أباك.

ودخل بهرامُ إلى المدائن فأقام بها، ووصل أبرويز إلى الرُّها، فأقام بها، وكتب إلى قيصر يستنجد به، وأهدى إليه الهدايا النفيسة والجواهر المثمنة، فبعث إليه قيصر مئة

---

(١) في مروج الذهب ٢/ ٢١٦: بشبدار.

(٢) كذا، ولعلها: وتآمر، ففي مروج الذهب ٢/ ٢١٦: وخانه الرجال، وأشرف على الهلاك.

(٣) في (ب): بالصبيب، وفي (ك): بالصليب، والمثبت من مروج الذهب ٢/ ٢١٧، والبدء والتاريخ ٣/ ١٧٠، وأنساب الخيل لابن الكلبي ص٩٥، وأسماء خيل العرب للغندجاني ص١٥٣، والحلبة للصاحبي التاجي ص٥٢.

ألف فارس وألفي دينار، وألف ثوب من ديباج وجواهر، وزوّجه ابنته مارية، وحملها إليه مع أخيه ثياذوس[١]، واشترط عليه قيصر أن لا يتعرض للجزيرة والشام ومصر مما غلب عليه أنوشروان، فأجابه إلى ذلك.

وجاء أبرويز إلى المدائن، وخرج إليه بهرام والتقيا، فانهزم بهرام ولحق بالترك، وعاد أبرويز إلى المدائن دار ملكه، ووفى لملك الروم بما شرطه، واستولى قيصرُ على الجزيرة والشام ومصر.

وبعث أبرويز إلى امرأة ملك الترك وبذل لها الأموال، فاغتالت بهرام، فقتلته وبعثت برأسه إلى المدائن، فنصبه أبرويز على باب قصره. وكان بسطام وبندويه خالاه قد مضيا إلى الدَّيلم وإلى الترك، فكاتب أبرويز امرأة ملك الترك في قتلهما بأبيه هرمز فقتلتهما، وعلم خاقان فطلّقها ونفاها، فقدمت المدائن فتزوجها أبرويز، واسمها كردية.

وجمع أبرويز من الأموال والخيول والفيلة والمماليك والجواري والأمتعة[٢] ما لم يجمعه أحد ممن تقدمه.

أما الأموال فإنه كان يُرفع إلى خزائنه في كل سنة من الخراج أربع مئة ألف ألف دينار وأضعافها من الفضة. وكانت جواهره في ألف صندوق. وكان له مئة ألف مملوك، ومئة ألف فرس، منها خمسون ألفاً سروجها مكللة بالجواهر واليواقيت.

وكان على مَربطه ألفُ فيل منها ما هو أبيض مثل الثلج، ومنها ما ارتفاعه من الأرض اثنا عشر ذراعاً، وهذا نادر؛ لأن أكثر ما يكون ارتفاع الفيل من الأرض سبعة أذرع.

وكان له من النساء عشرة آلاف امرأة، ومن الجواري مئةُ ألفِ جاريةٍ للغناء والفِراش. وكان يَشْتُو بالمدائن، ويَصيف بقصر شيرين، وكانت شيرين أحظى نسائه عنده.

---

(١) في النسخ: بيدرس، وفي مروج الذهب ٢/ ٢٢١: تندوس، والمثبت من الأخبار الطوال ص٩٢، وتاريخ اليعقوبي ١/ ١٦٨، وتاريخ الطبري ٢/ ١٨٠، وتجارب الأمم ١/ ١٢٠.

(٢) إلى هنا نهاية السقط في (خ) المشار إليه قريباً.

وفي أيامه مات قيصرُ ملك الروم، فتغلَّبَ بعضُ الروم على ابن قَيْصر فأخرجه من المُلك، فقَدِم على أبرويز مستنصراً به، فأنجده وبعث معه ولدَه شهريار في مئةألف، فأوغلوا في البلاد ـ وفي هذه الوقعة نزل قولُه تعالى ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ الآية [الروم: ١] وقتلوا المتغلِّب على الرومية بأنطاكية، فوثب آخرُ بالقُسطنطينية فغلب عليها، وجهَّز ألف مركب إلى قتال شهريار، فيها السلاح والأموال والخزائن، فضربتها الريح فألقتها إلى ساحل أنطاكية، فغنم شهريارُ ما فيها وجهَّز ابنَ قيصر فملك القسطنطينية.

ذكر قصة أبرويز مع وزيره بُزُرْجُمهْر(١)

وكان بزرجمهر بن البختكان وزير أبرويز والحاكمَ عليه، وكان من حكماء الفُرس. فلما مضى من ملك أبرويز ثلاثَ عشرة سنةً، ظهر طغيانه وفساده، فوُشي إلى أبرويز أنه اتفق مع الأساورة على قتله، فأظهر أنه اتَّهمه بالزندقة، فقبض عليه، وقال: الحمد لله الذي أظفرني بك. فقال له بزرجمهر: فكافِئْه بما يُحبُّ كما أعطاك ما تُحب. قال: بماذا؟ قال: بالعفو. فحبسه في بيت مظلم مثل القبر، وصَفده بالحديد، وألبسه خشن الصوف، وأمر أن لا يُزاد في كل يوم على قُرصين من شعير، وكفِّ ملحٍ جريشٍ، ودَورقٍ من ماء.

فأقام شهوراً لا يُسمع منه لفظةٌ، فأمر أبرويز تلامذته بالدخول عليه، وأن يخبروه بما يقول، فدخلوا عليه فرأوا لونَه نقيّاً، وسَحْنته ظاهرةً، وجسمَه صحيحاً، فقالوا: أيها الحكيم، أنت في هذا الحديد والضيق، وحالُك كما نرى!؟ فقال: إني عملت جُوَارِشاً من ستة أخلاطٍ، فأنا آخذ منه كل يوم شيئاً، فهو الذي أبقاني على ما تَرون. قالوا: فصِفْه لنا، لعلنا نقع فيما وقعتَ فيه فنتناول منه.

فقال: أما الخلط الأول: فالثقة بالله تعالى، وأما الثاني: فعلمي بأن كلَّ مَقدورٍ كائنٌ لا محالة، وأما الثالث: فالصبر أَولى ما استعمله المُمتَحَن، وأما الرابع: إن لم أصبر أيش أعمل؟ وأما الخامس: فقد يمكن أن أكون في شرٍّ مما أنا فيه، السادس:

---

(١) جمع المصنف ها هنا بين ما ورد في مروج الذهب ٢/ ٢٢٤ من قصة أبرويز مع بزرجمهر، وما ورد في المنتظم ٢/ ١٣٦ من قصة كسرى أنوشروان مع بزرجمهر، فجعلهما قصة واحدة.

فمن ساعةٍ إلى ساعة فَرجٌ.

فأخبروا أبرويز، فكتب إليه: كان ثمرة علمك، ونتيجة ما أدَّاه إليك عقلُك أن صرتَ به أهلاً للقتل والحبس، وموضعاً للعقوبة.

فكتب إليه: أما إذا كان معي السَّعدُ والجد فقد كنتُ أَنتفعُ بثمرة عقلي، والآن لما فاتني ذلك فأنا أَنتفعُ بالصبر، ولئن كنتُ فقدتُ كثيراً من الخير، فلقد استرحتُ من كثير من الشر.

فدعا به أبرويز وقال: يا عدوَّ الله المخالف. ثم أمر بكسر أنفِه، فقال: إني أهلٌ لما هو شرٌّ من هذا. قال: ولِمَ؟ قال: لأني كنتُ أصفك للخواص والعوام بما ليس فيك؛ لأُقرّبك إلى قلوبهم، وأرفعَ من محاسن أمورك ما لم تكن عليه. فقال: اقتلوه. فقال: يا أخبث الملوك نَفْساً وفعلاً، وشرَّ الحيوانات وأسوأَهم عِشرةً، أتَقتُلني بالشك، وتدفع به اليقين الذي تيقنتَه من التمسُّك بولائك، والمحافظة على الشرائع؟ فمن ذا الذي يرجو بعدي عَدلَك، ويثق بك، ويطمئن إليك؟ فقتله، ثم ندم على قتله، فاستدعى وزيراً كانت منزلتُه دون منزلة بزرجمهْر، فلما رآه قتيلاً قال: يا أخبث العالَم، انتظر أقبح من هذه القِتلة. فقتله.

قيل لبزرجمهر: مَن أحبُّ الناس إليك أن يكون عاقلاً؟ فقال: عدوّي، قيل: ولم؟ قال: لأني أكونُ منه في دَعَةٍ.

وقال: إذا كان الرِّزقُ مقسوماً، فالحرصُ باطلٌ، وإذا كانت الأمورُ بمشيئة الله تعالى، فما آفتُنا إلا العلل. وقال: مُداراة الناس نصف العقل.

ولما قتل أبرويز هذين الوزيرين، مع ما كانا عليه من النهضة والكفاية، وحسن التدبير، وسياسة المُلك، نفر عنه الخواص والعوام، وكان قد ظلم وسفك، وحمل الناس على ما لم يعهدوه منه، فقتلوه[1].

وقال أبرويز لابنه شيرويه: لا تُوسعن على جندك بسعةٍ يستغنون بها عنك، ولا تُضيّقنّ عليهم ضيقاً يَضِجُّون منك، ولكن أعطهم عطاءً قَصْداً، وامنعهم منعاً جميلاً،

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٢٥-٢٢٦، والمنتظم ٢/ ١٣٧.

وابسُط لهم في الرجاء، ولا تبسط لهم في العطاء[١].

وكتب أبرويز إلى ابنه شيرويه وأبرويز في الحبس: كلُّ كلمةٍ منك تَسفِك دماً، وأخرى تحقن دماً، وسَخَطك سيف مسلول على من سَخِطت عليه، ورضاك بَركةٌ مستفيضة على من رَضيتَ عنه، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، واحترس في غضبك من قولك أن تخطئ، ومن لونك أن يَتغيَّر، وإن الملوك تُعاقِب حَزماً[٢]، وتعفو حِلماً.

ذكر مقتله

وسببُه أن الناس استَوْحشوا منه لظُلمه، وسفكِه دماءَ العلماء والأساورة، وكان مسيئاً إلى ابنه شيرويه، قد نفاه إلى بابل، فبعثوا إليه واتفقوا على قتله، وكان قد عرض السجون فوجد فيها ثلاثين ألفاً من أشراف قومه، فأمر بقتلهم.

وعلم أهلُ مملكته، فأرسلوا إلى بابل، فأحضروا شيرويه، وهجموا به [على] المدائن، وأجلسوه على سرير المُلك، وحبسوا أباه أبرويز، وأرسل إليه ابنه شيرويه يؤنِّبُه، ويُوبِّخه على أفعاله، ويقول: أنا ما وثبت على الملك، وإنما جازاك اللهُ بسوء فِعالك، فتكْتَ بأبيك هرمز، وسَمَلْتَ عينيه، وأزلْتَ مُلكه، وقتلْتَه شرَّ قتلةٍ، وأسأتَ إلى الأساورة والخواص، وظلمتَ الرعية، وبخلتَ بالمال، وحبستَ ثلاثين ألفاً من الأشراف، وأمرتَ بقتلهم، وضبطت عشرة آلاف امرأةٍ في قصرك مُكرهات مع عجزك عنهن[٣].. وعدَّد أفعالَه.

فبعث إليه أبرويز: إذا أدبر الأمرُ لم تنفع الحيل [في إقباله] وإذا أقبل أعيت الحيل في إدباره[٤].

وحبسوه أياماً، ثم اجتمعت الفرسُ إلى شيرويه وقالوا له: إما أن تقتل أباك ونحن لك مطيعون، وإما أن نُعطيه الطاعة. فأخرج أباه من دار الملك على برذون، مُقنَّعَ

(١) عيون الأخبار ١/ ١١، والعقد الفريد ١/ ٢٦.

(٢) في (ب) و (خ) وصبح الأعشى ١/ ٢٣٦: جرماً، وفي (ك): جزماً، والمثبت من عيون الأخبار ١/ ٢٨٩، والعقد الفريد ١/ ٢٧.

(٣) انظر الأخبار الطوال ص١٠٨، وتاريخ الطبري ٢/ ٢١٩.

(٤) تاريخ الطبري ٢/ ٢٢١، والمنتظم ٣/ ٢٨٦ وما بين معكوفين منهما.

الرأس إلى دار بعض الأساورة أو الدهاقنة، فمرّ على إسكافٍ، فضربه بقالبٍ وشتمه، وبعث إليه رجالاً ليقتلوه فلم يُقدموا عليه، فضربه غلامٌ منهم اسمه هرمز ـ كان أبرويز قتل أباه بطَبَرْزِين[١] ـ عدة ضرباتٍ فلم يعمل فيه، ففتشوه فوجدوا في عنقه تعويذاً فأزالوه عنه، فضربه فقتله[٢]، وكان قتلُه بمكان يقال له: الماحُوزة، عند سامراء، وفيه قَتل المنتصر أباه المتوكل، ولما قُتل أبرويز شقَّ ابنُه شيرويه ثيابه، وقتل قاتل أبيه.

وكان لأبرويز ثمانية عشر ولداً، فقتلهم شيرويه كلهم. وكان أبرويز يمنعهم من النكاح وعليهم الحَفَظة، لأن المنجّمين أخبروه أنه يُولد مولود من ولده يكون ذهابُ مُلكهم على يده، فاحترز، فأفلت يوماً ولدُه شهريار بن أبرويز فدخل على زوجة أبيه شيرين، وسألها أن تبعث إليه امرأةً وإلا قتل نفسه، فأرسلت إليه جاريةً كانت تحجمها فوطئها، فحملت بيزدجرد ووضعته، فكتَمتْه شيرين خمسَ سنين. وكان المنجِّمون قد ذكروا لأبرويز أن ذلك الغلام في بدنه نقصٌ، فوقف يوماً يلعب مع الصبيان بالكرة فرآه أبرويز، فقال: من هذا؟ فقالت شيرين: بعضُ أولاد الخاصَّة. فألحَّ عليها، فأخبرته الخبر، فنظر إلى نقصٍ في وَركيه، فأراد قتله، فنهتْه عنه، وقالت: إن يكن لله أمرٌ فيه، فلا مَرَدَّ له. فقال: هذا المشؤوم لا أراه ها هنا بعد اليوم. فذهبوا به إلى سجستان.

وأقام شيرويه بعد قتل أبيه نادماً حزيناً على أبيه وإخوته، وابتُلي بالأمراض المزمنة، ولم يَلتذَّ بشيء من الدُّنيا، وسُمّي: الغشوم المشؤوم، ووقع في أيامه طاعونٌ فمات نصف العالم. ودخلت عليه أُختاه بُوران وآزرمي دَخت، فقالتا له: ويحك، ما حملك على ما صنعت بأبيك وإخوتك لأمرٍ لا يتم لك؟! فبكى بكاءً شديداً، ورمى التاج عن رأسه، ودخل بيتاً مظلماً فأقام فيه.

ولما قتل أبرويز وجدوا في خزائنه جميع ما ذكرنا من الأموال وغيرها، ووجدوا بيتاً مملوءاً جواهر، وأقام عشرة آلاف موبذ، وبلغت خيلُه القسطنطينية وإفريقية. وقُتل في سنة ست أو سبع من الهجرة.

وفي أيامه كان يومُ ذي قارٍ، انتصفت فيه العربُ من العَجم، وذلك لتمام أربعين

(١) هو فأس السرج، لأن فرسان العجم تحمله معها يقاتلون به. المعرب ص٢٧٦.
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٢٢٩، والمنتظم ٣/ ٢٨٧.

سنةً من مولد نبينا ﷺ.

وأبرويز هذا هو الذي قتل النعمان بن المنذر، وهو الذي كتب إليه رسولُ الله ﷺ فمزّق كتابه، وكتب أبرويز إلى واليه باليمن أن يحمل إليه رسول الله ﷺ، فدعا عليه، فقتله ابنُه.

وهو الذي أرسل الاصبهبذ إلى الروم فقتل وسبى وفتح البلاد، فخاف منه أبرويز، فبعث إليه رجلاً ليقتله؛ فلما رأى عقل الاصبهبذ وتدبيره رقَّ له، وأخبره بما جاء له، فأرسل الاصبهبذ إلى ملك الروم وطلب الاجتماع به، فاجتمعا، فقال له: حَسَدني الخبيث، وأنا آخذ لك بلاده ومُلكه وكنوزَه. فسار معه حتى نزلا المدائن، فأقاما محاصِرين له، فدسّ أبرويز رجلاً نصرانياً بكتاب، عنوانه إلى الاصبهبذ، وأعطاه مالاً وقال له: تحيّل في إيصاله إلى قيصر. وفيه: إلى الاصبهبذ، قد علمتُ حُسْنَ رأيك، وقد آمنك الله من العدو، وأنا خارجٌ إليك في ساعة كذا من الليل لنبغت القوم، فكن مستعدّاً. فلما قرأه قيصر ولّى منهزماً إلى بلاده، وهرب الاصبهبذ.

قصة شيرين مع شيرويه

كانت شيرين يتيمةً في حجر رجلٍ من أشراف المدائن، وكان أبرويز صغيراً يدخل منزل ذلك الرجل، فيلاعب شيرين وتلاعبُه، فأخذت من قلبه موضعاً، فنهاها ذلك الرجل عنه فلم تنته، فرآها وقد أخذت في بعض الأيام من أبرويز خاتماً، فقال لبعض خواصّه: اذهب بها إلى دجلة فغَرِّقْها. فأخذها ومضى، فقالت له: وما الذي ينفعك تغريقي؟ فقال: قد حلفتُ لمولاي. فقالت: اقذفني في مكانٍ رقيق، فإن نجوتُ لم أظهر، وتَبَرُّ أنت في يمينك. ففعل، فأقامت في الماء حتى غاب عن عينها، وصعدت إلى دير هناك فترهَّبت فيه، فأحسن إليها الرهبان.

فلما تقرر المُلك لأبرويز بعد أبيه هرمز، مرَّ بذلك الدير رسل من قيصر إلى أبرويز، فدفعت الخاتم إلى رئيسهم، وقالت: ابعث به إلى أبرويز فتحظى عنده. فأرسله مع قاصدٍ وعرَّفه مكان شيرين، فسُرَّ سروراً كبيراً، وأعطى القاصد مالاً عظيماً، وأرسل إليها فأحضرها. وكانت من أجمل النساء وأظرفهن، ففوض إليها أمره، وهجَر نساءه

وجواريه، وعاهدها أن لا تمكِّن منها أحداً بعده، وبنى لها القصر المعروف بقصر شيرين بالعراق.

فلما قَتل شيرويه أباه أبرويز راودها عن نفسها فامتنعت، فضيَّق عليها واستأصلها، ورماها بالزنى، وتهدَّدها بالقتل إن لم تفعل، فقالت: أفعل على ثلاث شرائط. قال: وما هي؟ قالت: تُسلِم إليَّ قَتلة زوجي أقتلهم، وتصعد المنبر فتبرئني مما قذفتني به من الزنى، وتفتح لي ناووس[1] أبيك فإن له عندي وديعةً عاهدتُه إن تزوَّجتُ رددتُها عليه. فدفع لها قَتلةَ أبرويز فقتلتهم، وصعد المنبر فبرَّأها مما قذفها به من الزنى، وفتح لها ناووس أبيه وبعث بالخدم معها. فجاءت إلى أبرويز فعانقته ومَصَّت فصّاً مسموماً كان معها، فماتت من وقتِها. وأبطأت على الخدم فصاحوا بها فلم تكلِّمْهم، فجاؤوا إليها فوجدوها معانقة لأبرويز ميتةً، فجاؤوا إلى شيرويه وأخبروه، فشقّ عليه، ومات بعد أيامٍ[2].

وكان سبب موته ما حكاه الجاحظ قال: أبرويز أول من أخذ بثأره من حيٍّ وهو ميّت، وذلك لأن المنجمين أخبروه أنه سيُقتل، فقال: والله لآخذنَّ بثأري ممن قتلني، وعمل حُقّاً فيه حبوب، وخلطه بسُمّ ساعةٍ، وختم الحُقَّ، وجعله في صندوق من ذهب. فلما أرسل إليه شيرويه من يَقتُله، قال له: لا تقتلْني وأدلُّكَ على غِنى الأبد. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني، فيه حُقٌّ فيه غناك، فلما قتله أَخبر شيرويه، واشتغل بالمُلْك عن الحُقِّ. فلما كان بعد ستة أشهر من قتل أبرويز، فتح شيرويه ذلك الصندوق، فوجد الحُقَّ وعليه مكتوب: مَن أخذ من هذا الحبِّ حبةً وابتلعها افتضَّ عشرةَ أبكار ـ وكان شيرويه مُولَعاً بالنساء ـ فأخذ حبة فبلعها، فتقطَّعَت أمعاؤه، ورأى العبر بنفسه، ومات[3]. وكانت مدةُ ولايته ستة أشهر.

فصل

وكان لشيرويه ابنٌ صغير اسمه أَرْدشير، عمرُه سبع سنين، فوَلَّوه المُلك، فأقام خمسة أشهر.

---

(١) الناووس: مقابر النصارى.

(٢) المنتظم ٢/ ٣٠٦ـ٣٠٨.

(٣) انظر المنتظم ٢/ ٢٨٤ـ٢٨٥.

وكان شهريار بن أبرويز مقيماً بأنطاكية مذ جهَّزه أبوه لقتال الروم على ما ذكرنا، فلما قُتل أبوه أقام مكانه خائفاً من شيرويه، وجعل الروم ظهرَه، وكتب إلى قيصر يستمدُّه ويقول: قد علمتَ ما فعلتُ معك. فأمدَّه بالمال والرجال، وأقام متحصِّناً بأنطاكية. فلما مات شيرويه وولي ابنُه أردشير، سار إلى المدائن طالباً بثأر أبيه، فقتل أردشير، وجار وظلم، وفضح نساءهم وسفك دماءهم، فوثبوا عليه وقتلوه، فكان مُقامه في المُلك عشرين يوماً.

ولم يبق من نَسْل الفُرس ذَكر، قتل شيرويه الجميع ولم يبق إلا ابنتين لأبرويز: بوران وآزرمي دخت.

فصل

فملّكوا عليهم بُوران: فأقامت العدل، وأحسنت السيرة، وأصلحت القناطر والجسور. ولما جلست على السَّرير قالت: ليس ببطش الرجال تُدَوَّخُ البلادُ، ولا بمكائدهم يُنال الظَّفر، وإنَّما ذلك بعون الله ومشيئته. فأقامت سنة وسبعة أشهر. ولما بلغ النبيَّ ﷺ أمرُها، قال: «لا يُفلحُ قومٌ ولَّوْا أمرَهم امرأةً»[1]. ثم ماتت، ويقال: إنها قُتلت.

فصل

ثم ملَّكوا آزر ميدخت بنت أبرويز، وكانت من أجمل نسائها، فلما جلست على السرير قالت: منهاجُنا العدلُ والإنصاف، فإن زغنا زيغ بنا.

فأرسل إليها فُرُّخ بن رستم صاحب خُراسان يخطبها، فقالت: لا ينبغي للملكة أن تتزوج علانيةً. ووعدته أن يَقدم عليها سرّاً في ليلةٍ عيَّنتها له، فجاءها في تلك الليلة فقتلته، فسار إليها أبوه رستم فقتلها[2]، وكانت أيامُها ستةَ أشهرٍ.

فصل

ثم مَلّكوا عليهم يَزدَجِرْد بن شهريار بن أبرويز، الذي كان خَرابُ البيت على يده، وكان عمره يومئذٍ خمس سنين، وقيل: خمس عشرة، وصِغَرُ سنِّه هو الذي أوجب

(١) أخرجه أحمد (٢٠٤٣٨)، والبخاري (٤٤٢٥) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) في تاريخ اليعقوبي ١/ ١٧٣، والطبري ٢/ ٢٣٢، والتنبيه والإشراف ص١٠٦، وتجارب الأمم ١/ ١٤٤، والمنتظم ٣/ ٣١٢ أن الذي خطبها هو فرخ هرمز، وأن الذي سار إليها فقتلها هو ابنه رستم.

تَمليك النِّساء. فأقام والياً عشرين سنةً، ثم هلك في أيام عثمان رضي الله عنه.

قال هشام: فعدَّة ملوك الفرس من أوَّل الزمان إلى آخره ثمانون ملكاً وثلاث نسوة، من كيومرت إلى يَزدجِرد، وعددُ ما ملكوا من السنين أربعة آلاف سنة وخمسون سنة.

قال المصنف رحمه الله: وليس ما ذكره هشامٌ على التحقيق، بل على التقريب، فإن بعضهم قال: ملك منهم ستون ملكاً، وعددُ سنيّهم ثلاثةُ آلاف سنة. وقد ذكرنا أن الغالب على التواريخ عدمُ التحقيق لاختلاف الأمم والألسُن، وتقلُّب الدهر، وتغيير الأمور، والله أعلم.



فصول تتعلّق بالعرب والأنساب والأدب

الفصل الأول[١]

في ذكر القبائل والعمائر، والشعوب، والجماجم، والجَمَرات، والأَرْحاء[٢]، وما يتعلَّقُ بالشعر والشعراء، والأعراب سكان البادية خاصة.

ويَعرُب بن قحطان أولُ مَن تكلم بالعربية، وهو أبو اليَمن كلِّهم. والعربُ العاربة والعَرْباء: هم الخُلَّص منهم، والمستَعرِبة: الذين ليسوا بخُلَّص.

والقبيلة: بنو أبٍ واحدٍ، وقيل: إنما سُمُّوا القبائلَ من القبيلة، وأن بعضهم يُقابل بعضاً، أي: يكافئهم[٣]، وقال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: تعلَّموا من النَّسب ما تعرفون به أنسابكم[٤]، وتَصِلون به أرحامَكم، ولا تكونوا كنَبَط السَّواد إذا قيل لأحدهم: مَن أنت؟ فيقول: أنا من قرية كذا وكذا[٥].

فصل في القبائل

ومن القبائل القديمة: عادٌ وعَبيل، ابنا عَوْص بن إرَم بن سام بن نوح عليه السلام.

وثمود وجَدِيس ابنا غاثار بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

---

(١) في (ب): أبواب تتعلق بالعرب والأنساب والآداب الباب الأول.

(٢) الأرحاء: القبائل التي تستقل بنفسها وتستغني عن غيرها.

(٣) صحاح الجوهري (عرب) و (قبل).

(٤) في (خ) و (ك): أحسابكم.

(٥) العقد الفريد ٣/ ٣١٢، وإنباه الرواة ص١٢، وأخرج بعضه البخاري في الأدب المفرد (٧٢).

وطَسْم وعِمْلِيق وجاسم وأَمِيم بنو يلمع بن عابر بن أَرفَخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام. وشالاف وحضرموت، وهم السلف، والمراد بنو عابر بن أرفخشذ.

وروي عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «العربُ كلُّها من إسماعيل إلا أربع قبائل، وهم: السلف والأوزاع، وحَضْرموتُ، وثَقيف»(١).

ومعنى قوله عليه السلام: كلُّ العرب بنو إسماعيل إلا من استثنى من القبائل أنهم ليسوا بخُلَّص.

أما طَسْم وَجدِيس وجُرْهم، فهم العرب العاربة، لأنهم جُبِلوا على العربية المَحْضَة فكانت لسانَهم.

وأما بنو إسماعيل عليه السلام فهم المستعرِبة، لأنهم تكلَّموا بلسان الأمم الذين سكنوا بين أظهرهم.

فصل

فمن القبائل: **أَسَدُ بن خُزَيْمة** بن مُدرِكَة بن الياس أبو قبيلة من مُضَر، وأَسد بن ربيعة ابن نزار قبيلة من ربيعة.

ومنها **تَيْم** في عشر قبائل: تَيم الله بن عُكابَة، وهم اللَّهازم من بكر، وتيم الله في النَّمِر بن قاسط، وتيم بن مُرَّة رهط أبي بكر الصديق ﷺ، وتيم بن غالب بن فِهْر، وهم بنو الأدْرَم من قريش، وتيم بن عبد مَناة بن أُدّ بن طابِخة في مُضر، وتيم بن ضَبَّة، وتيم اللّات بن ثعلبة واسمه النجار، وتيم اللّات أيضاً في ضَبة.

وأما قول امرىء القيس: [من الوافر]

بَنو تَيْمٍ مصابيحُ الظلامِ(٢)

فهم بنو تيم بن ثعلبة من طيِّىء.

---

(١) أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف ٤١/ ١٥٠، وابن عساكر في تاريخه ١٠/ ٧٠ عن مالك بن يخامر قال: قال رسول الله ﷺ... الحديث. قال ابن عبد البر في الإنباه على قبائل الرواة ص ٧٩ بعد إيراده: وهي آثار كلها ضعيفة الأسانيد، لا يقوم بشيء منها حجة، والله أعلم بصحة ذلك.

(٢) ديوانه ص ١٤١، وصدره: أقرَّ حشا امرىء القيس بنِ حجر.

ومنها **جَدِيلةُ**: حيٌّ من طيِّىء، وهو اسمُ أمهم، وهي جَديلة بنت سُبَيْع بن عمرو بن حِمْير، وجديلة في ربيعة.

ومنها **جُشَم** في أربع قبائل: جُشَم بن خزرج، حيٌّ من الأنصار، قال الشاعر: [من الرجز]

إنْ سَرَّكَ العِزُّ فَجَخْجِخْ بِجُشَمْ[1]

وُجشَم بن ثقيف، وجشم حيٌّ من تَغلِب وهم الأراقم، وجُشم في هوازن، وهو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن.

ومنها **الخزرج** بن قَيْلة، قبيلةٌ من الأنصار، والخزرج في النَّمِر بن قاسط.

ومنها **الدِّيل** بن شَنّ بن أَفْصى، والدِّيْل بن عمرو بن وديعة بن عبد القيس، منهم[2] أهلُ عُمان، والدُّئِل حيٌّ من كِنانة، ينسب إليهم أبو الأسود الدُّؤَلي، والدُّوْل في حنيفة.

ومنها **دُودان** بن أسد بن خُزيمة، ودُودان في جُذام من اليمن.

ومنها **ذُهْل** بن شيبان بن ثعلبة بن عُكابة، وذُهْل بن ثعلبة بن عُكابة، وذُهْل في ضَبَّة.

ومنها **شَيبان** بن ثعلبة بن عُكابة بن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل، وشيبان بن ذُهْل ابن ثَعْلبَةَ بن عُكابة.

ومنها **ربيعةُ** في سبع قبائل: ربيعة بن عُقيل أبو الخُلَعاء[3]، وربيعة بن عامر بن عُقيل أبو الأبرص، وربيعة بن مالك بن زيد مَناة، ويُلقَّب: ربيعة الجُوع، وربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة، وربيعة بن عامر بن صَعْصَعة بنو مَجْد، وهي أُمهم نُسِبوا إليها، وربيعة بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان، وهو ربيعةُ الفَرَس، وربيعة الصُّغرى: وهو ربيعة بن مالك بن حنظلة.

ومنها **سعد**، وهو في ستِّ قبائل: سعد تَميم[4]، وسعد هُذيل، وسعد قيس، وسعد

---

(١) البيت للأغلب العجلي، وهو في المعارف ص ١٠٩، ومقاييس اللغة ١/ ٤٠٦، وصحاح الجوهري (جشم)، وتهذيب اللغة ٦/ ٥٤٥، ولسان العرب (جخ وجشم)، وتاج العروس (جشم).

(٢) في النسخ: من، والمثبت من صحاح الجوهري (دول).

(٣) في النسخ: الخلفاء، وهو خطأ، والمثبت من صحاح الجوهري (ربع)، وانظر الاشتقاق ص ٢٩٩، وتاج العروس (ربع) ٢١/ ٤٠.

(٤) في النسخ: تيم، وهو خطأ، والمثبت من صحاح الجوهري (سعد)، والمعارف ص ١١٥.

ابن بكر بن هَوزان ـ هم أظآرُ رسول الله ﷺ ـ وسعد بن ذُبيان، وسعد في عِجْل، وقال الشاعر: [من الطويل]

رأيتُ سُعوداً في شعوبٍ كثيرةٍ فلم أرَ فيها مثلَ سعدِ بن مالكِ[١]

وفي المثل: «في كل وادٍ بنو سعدٍ» قاله الأَضْبَط القُرَيعي السَّعْدي لما تحوَّل عن قومه وانتقل في القبائل، فلما لم يَحمَدْهم رَجَع إلى قومه وقال: بكلِّ وادٍ بنو سعد، يعني سعد بن زيد مناة بن تميم[٢].

ومنها **سُلَيْم** بن منصور بن عِكْرِمة بن خَصَفة بن قَيْس عَيْلان، وسُليم قَبيلةٌ من جُذام، وسُليم قبيلةٌ من بني قُشَير، وهو سَلَمة الشَّر، وأمّه لُبَيْنة بنت كعب بن كلاب، وسلمةُ الخير، وهو سلمة بن قُشير، وهو ابنُ القُشيريّة[٣].

ومنها **سَهْم**[٤] قبيلةٌ في قُريش، وقبيلةٌ في باهِلة.

ومنها **شَقِرَة** قبيلة من بني ضبَّة، وفي بني تميم.

ومنها **ضُبَيعة** بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة بن صعب بن بكر بن وائل، رَهْط الأعشى ميمون بن قيس، وضُبيعة في ضَبّة، وضبيعة في عِجْل.

ومنها **ضَمْرة** في بني كِنانة رهط عمرو بن أُمية الضَّمْري رضي الله عنه، وبنو ضَمْرة في قُشَير.

ومنها **عَدِيٌّ** بن كعب بن لُؤي بن غالب رَهْط عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعدي بن عبد مَناة من الرِّبَاب رهط ذي الرُّمَّة، وعَدي في بني حَنيفة، وعَدِي في فَزارة.

ومنها **غاضرة**: قبيلةٌ في بني أَسَد بن خُزيمة، وهي من بني صَعْصَعَة، وبطن من ثقيف في هوازن.

ومنها **كلاب** بن مُرة في قريش، وكلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

ومنها **محارب** بن فِهْر بن مالك في قُريش، ومحارب بن خَصَفَة بن قَيْس عَيْلان،

---

(١) البيت لطرفة، وهو في ديوانه ص ٨٨.

(٢) صحاح الجوهري (سعد)، والمثل في جمهرة الأمثال ١/ ٦١، ومجمع الأمثال ١/ ٥٣.

(٣) خلط المصنف هنا في نقله عن الجوهري بين سلمة وسُليم.

(٤) في (ب): شمم، وفي (خ) و(ك): سليم، والمثبت من صحاح الجوهري (سهم)، والمعارف ص ١١٥.

ومحارب بن عمرو بن وَديعة بن عبد القَيْس.

ومنها **مازن** بن مالك بن عمرو بن تميم، ومازن في بني صَعْصعة بن معاوية، ومازن في بني شيبان، ومازن في قيس عَيْلان، وهم رهط عُتْبة بن غَزْوان رضي الله عنه.

فصل في العَمائر

قال التَّغلبي[1]: [من الطويل]

لــكــلِّ أُنــاسٍ مــن مَــعَــدٍّ عِــمــارةٌ ... عَـروض إلـيـهـا يَـلـجـؤون وجـانـبُ

والشَّعْب: القبيلةُ العظيمة.

وقال بعضُهم[2]: الشَّعب، ثم القبيلة، ثم العِمارةُ، ثم البطن، ثم الفَخِذ، ثم العشيرةُ، ثم الفَصيلة، وهي أهلُ بيت الرجل خاصةً، قال الله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُؤْوِيهِ﴾[المعارج: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤].

وقال أبو عبيدة: أرحاءُ العرب ستٌّ؛ لمُضَر اثنتان: تَميم بن مُرّ، وأسد بن خُزيمة، ولربيعة اثنتان: بكر بن وائل، وعبدُ القيس بن أفصى، ولليمن اثنتان: كلب بن وَبْرة، وطَيِّىء بن أُدَد. وإنما سُمِّيت هذه الأَرحاء لأنها أَحرزت مياهَها ومنازلَها، ولم يكن للعرب مثلُها، ولم تَبْرح من أوطانها، ودارت في دُورها دورانَ الأَرحاء على أقطابها، إلا أن يَنتَجِع بعضُها في أعوام الجَدْب، وكان ذلك قليلاً.

وأما الجماجمُ فثمان: أربع في مضر، اثنتان منها في قَيس، وهما: غَطَفان وهَوازن، واثنتان في خِنْدِف، وهما: كِنانة وتَميم، وفي ربيعة اثنتان: بكر بن وائل وعبدُ القيس بن أَفصى، وفي اليمن اثنتان من مَذْحِج؛ وهما: مالك بن أُدَد بن زيد بن كَهْلان بن سبأ، وقُضاعة بن مالك بن زيد بن مالك بن سبأ[3].

وجَمَرات العرب ثلاث: بنو ضَبَّة بن أُدّ، وبنو الحارث بن كعب، وبنو نُمير بن

---

(١) هو الأخنس بن شهاب، والبيت في المفضليات ٣٠٤، وصحاح الجوهري (عمر).

(٢) هو ابن الكلبي كما في العقد الفريد ٣/ ٣٣٥.

(٣) العقد الفريد ٣/ ٣٣٥، ٣٣٦.

عامر، طَفِئَت منهم جمرتان: ضَبَّة لأنها حالفت الرِّبَاب، وبنو الحارث لأنها حالفَت مَذْحِج، وبقيت نُمير لم تَطْفأ لأنها لم تُحالف.

ويقال: الجَمَرات: عَبْس والحارث وضَبَّة، وهم إخوةٌ لأم، وذلك لأن امرأةً من عرب اليمن رأت في منامها أنه خرج من فَرْجها ثلاثُ جَمَرات، فتزوّجها كعبُ بن عبد المَدَان رجل من اليمن، فوَلَدت له الحارث بن كعب، وهم أشرافُ اليمن، ثم تزوَّجها بَغيض بن رَيْث فولدت له عَبْساً، وهم فُرسان العرب، ثم تزوَّجها أُد فوَلَدت له ضَبَّة، فجمرتان في مُضَر، وجَمْرة في اليمن[١].

فصل في الشِّعر والشعراء

والشعر ديوان العرب، ومَنبع الفضل والأدب، ومن عناية العرب به وحُبِّها له؛ أنها عَمدت إلى سبع قصائد من الشعر، فعلَّقَتْها في البيت الحرام، وافتخرت بذلك على الأُمم، وهي الموسومة بـ«السَّبع المعلَّقات».

فالأولى: قصيدة امرِىء القيس بن حُجْر الكندي: [من الطويل]

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل[٢]

والثانية: قصيدة زُهير بن أبي سُلْمى: [من الطويل]

أمِن أمِّ أَوفى دِمْنةٌ لم تَكلَّمِ ... بحَوْمانَةِ الدُّرّاج فالمُتَثَلَّمِ[٣]

وكان عمر بن الخطاب ﵁ مُغرًى بشعره، وكان زهير لا يمدَحُ إلا مستحقاً للمدح، كهَرِم بن سِنان[٤] وأمثالِه، ولما دخل [ابنُ] هَرِم على عمر ﵁، قال له: أنتم الذين كان زهيرٌ يقول فيكم فيُحسِن؟ فقال: ولذلك كنا نُجزِل له في العطاء. فقال: ذَهب ما أعطيتُموه وبقي ما أعطاكم[٥].

---

(١) صحاح الجوهري (جمر).

(٢) تمامه: بسقط اللوى بين الدخول فحومل، وهو في ديوانه ص ٨.

(٣) ديوانه ص ٩ بشرح الشنتمري.

(٤) في النسخ: حيان، وهو خطأ.

(٥) العقد الفريد ٥/ ٢٩٢، والعمدة لابن رشيق ١/ ٨١، وما بين معكوفين منهما.

وزهير هو القائل: [من البسيط]

وإنَّ أَشْعَرَ بيتٍ أنت قائِلُه بيتٌ يُقالُ إذا أَنشدْتَه صَدَقا[١].

وقيل للحُطيئة: مَن أشعرُ الناس؟ فقال: زهيرٌ حيث يقول: [من الطويل]

ومَن يَجعَلِ المعروفَ من دون عِرْضِهِ يَفِرْهُ ومَن لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشتَمِ[٢]

والثالثة: قصيدة طَرَفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن بكر بن وائل: [من الطويل]

لِخَولةَ أطلالٌ ببُرقةِ ثَهْمَدِ تَلوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليدِ[٣]

وقال أبو عَمْرو بن العلاء: أشعرهم طَرفةُ الذي يقول: [من الطويل]

ستُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهِلاً ويَأتيك بالأخْبارِ مَن لم تُزَوِّدِ[٤]

ولما أُنشِد رسولُ الله ﷺ هذا البيت، قال: «هذا من كلامِ النبوّة»[٥].

والرابعة: قصيدة عَنترة العَبْسي: [من الكامل]

يا دارَ عَبْلةَ بالجَواءِ تَكلَّمي وعِمي صباحاً دارَ عبلةَ واسلَمي[٦]

والخامسة: قصيدة عمرو بن كلثوم: [من الوافر]

ألا هُبِّي بصَحْنِك فاصْبَحينا[٧]

والسادسة: قصيدة لَبيد بن ربيعة بن مالك من ولد نزار: [من الكامل]

عَفَتِ الديارُ مَحَلُّها فَمُقامُها بمِنًى تَأبَّدَ غَولُها فرِجامُها[٨]

قال الأصمعي: أصدق بيت قالت العرب قول لبيد: [من الطويل]

---

(١) تابع المصنف في نسبة هذا البيت إلى زهير صاحبَ العقد الفريد ٥/ ٢٧٠، ٣٢٦، والبيت لحسان في ديوانه ١/ ٤٣٠، والعُمدة ١/ ١١٤.

(٢) الشعر والشعراء ص ٣٢٤، والعقد الفريد ١/ ٢٨٣، والأغاني ٢/ ١٦٨، والبيت في ديوانه ص ٢٦.

(٣) ديوانه ص ٦.

(٤) العقد الفريد ٥/ ٢٧١، والبيت في ديوانه ص ٤٨.

(٥) العقد الفريد ٥/ ٢٧١.

(٦) ديوانه ص ١٨٦ بشرح الشنتمري.

(٧) تمامه: ولا تبقي خمور الأندرينا، وهو في شرح المعلقة لابن كيسان ص ٤١، وشرح القصائد العشر ص ٣٢٠.

(٨) ديوانه ص ٢٦٧.

ألا كـل شـيء مـا خـلا الله بـاطـلُ وكـل نـعـيـمٍ لا مـحـالـةَ زائـلُ(١)

ومن شعر لبيد: [من الطويل]

لَعَمري لئن كان المخَبِّرُ صادقاً لقد رُزِئَتْ في سالفِ الدهر جَعفرُ
أخاً لي أمّا كلّ شيء سألته فيُعطي وأما كلّ ذنبٍ فيَغفِرُ
فإن يَكُ نَوْءٌ من سَحابٍ أصابه فقد كان يَعلو في اللّقاء فيَظفَرُ(٢)

والسابعة: قصيدة الحارث بن حِلِّزَة: [من الخفيف]

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أسماءُ(٣)

وقد أضاف الخطيب التّبْريزي إلى هذه القصائد ثلاثاً أُخر، قصيدةُ ميمون بن قَيْس الأعشى، وكُنيته أبو بَصير: [من البسيط]

ودِّعْ هُريرةَ إنَّ الركب مُرتَحِلُ وهل تُطيقُ وَداعاً أيُّها الرجلُ(٤)

والثانية: قصيدة النابغة الذُّبياني، واسمه زياد بن عَمْرو من ولد نزار، وكنيته أبو ثُمامة: [من البسيط]

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأَبَدِ(٥)

والثالثة: قصيدة عَبِيْد بن الأبرص بن جُشَم بن عامر من ولد مُدرِكة بن إلياس: [من مخلع البسيط]

أَقْفَر من أهلِهِ مَلْحوبُ فالقُطَبِيَّاتُ فالذَّنوبُ(٦)

فصل في مدح الشعر وذمّه

قد تعارضت فيه الأخبارُ، فأخرج الإمام أحمد بن حنبل، عن أُبيّ بنِ كعب رضي الله عنه قال: قال

(١) ديوانه ص ٢٥٦.
(٢) من قوله: قال الأصمعي... إلى هنا زيادة من (ب)، والأبيات في ديوانه ص ١٦٧ يرثي أخاه فيها.
(٣) تمامه: رُبّ ثاوٍ يملّ منه الثواء، وهو في شرح القصائد العشر ٣٧٠.
(٤) شرح القصائد العشر ص ٣٨٨، وديوانه ص ١٠٦.
(٥) شرح القصائد العشر ص٤١٤، وديوانه ص ١٤ بشرح الشنتمري.
(٦) شرح القصائد العشر ص٤٣٤، وطبقات فحول الشعراء ١٣٩.

رسول الله ﷺ: «إنَّ من الشِّعرِ لَحِكْمةً». وفي رواية: «لحكماً». انفرد بإخراجه البخاري[١].

وروى الإمام أحمد ﵁، عن سعد بن أبي وقاص ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنْ يَمتَلِئَ جوفُ أحدِكم قيحاً حتى يَرِيَه، خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً» وأخرجه مسلم[٢].

وفصل الخطاب في الباب جوازُه، وما رُوي من الذّم، فمحمول على الهَجْو دون المدح؛ لأن النبي ﷺ سمع الشعر، وأجاز عليه، وقال لحسان: «هاجِهِم»[٣]، ونَصب له مِنبراً في المسجد. ولأن الله تعالى بعث رسوله ﷺ في زمن الفُصحاء والشعراء، وأنزل عليه القرآن، فعجبت قريش من نَظْمه ونَثره، وعَجَزوا عن الإتيان بمثله.

وروى كعب الأحبار قال: سمعت عمر بن الخطاب ﵁ يقول: نِعمَ الأبياتُ من الشعر يُقدِّمها الرجل في صدر حاجته يستعطفُ بها قلبَ الكريم، ويستميلُ بها لُؤم اللئيم[٤].

وروي عن أبي الدرداء أنه قال: سمع رسولُ الله ﷺ قائلاً يُنشِد بيتَ الحُطيئة: [من البسيط]

مَن يفعَلِ الخير لا يَعدَمْ جوازِيَهُ ... لا يَذهب العُرفُ بين الله والناسِ

فقال: «نعم»[٥].

وروي عن أبي الدرداء أنه قال: قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن رواحة: «ما الشِّعرُ»؟ فقال: شيء يَعتَلِجُ في صدري، فيَنطِقُ به لساني. قال: «فأنشِدْني منه»، فقال:

وثبَّتَ الله ما آتاك من حَسَنٍ

فقال رسول الله ﷺ: «وأنت ثبَّتك الله»[٦].

(١) مسند أحمد (٢١١٥٤)، و صحيح البخاري (٦١٤٥).
(٢) مسند أحمد (١٥٠٦)، وصحيح مسلم (٢٢٥٨).
(٣) أخرجه أحمد (١٨٦٥٠)، والبخاري (٣٢١٣)، ومسلم (٢٤٨٦) من حديث البراء بن عازب ﵁.
(٤) العقد الفريد ٥/ ٢٧٤، والعمدة ١/ ١٦.
(٥) لم أقف عليه، وانظر العقد الفريد ٥/ ٢٧٦، والبيت في ديوانه ص ٢٨٤.
(٦) العقد الفريد ٥/ ٢٧٨، والخبر بنحوه في طبقات فحول الشعراء ٢٢٥-٢٢٦، وطبقات ابن سعد ٣/ ٥٢٨، وتهذيب الآثار (٩٧٧) (مسند عمر)، والمعجم الكبير للطبراني ١٣/ (٤٣٧) الجزء المتمم، وسير أعلام النبلاء ١/ ٢٣٤.

فصل في شعراء الإسلام

روي عن ابن سيرين أنه قال: كان أبو بكر وعمر وعلي ﷺ شعراء، وكان علي أشعرَهم، وكان ابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن رواحة وحسان وكعب بن مالك وجماعة من الصحابة شعراء.

ومن التابعين خَلْق كثير كعبد الله بن عُتْبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة، وابن المسيّب، والحسن البصري، وابن سيرين والزُّهْري وغيرهم. وكان ابنُ المبارك يشعر، وكذا سفيان الثوري وابن عُيينة، وعامّة خُلفاء بني العباس، وبعض بني أمية[١].

فصل

فيما عِيبَ من الشعر المستقيم، وآفته من الفَهْم السَّقيم.

قال الأصمعيُّ: أُنشِد عند حمَّاد الراوية قولُ حسان بن ثابت: [من الكامل]

يُغْشَونَ حتى ما تَهِرُّ كِلابُهم لا يَسألون عن السَّواد المُقْبِلِ

فقال حمَّاد: هذه صفة كلاب الخانات[٢].

ومرادُ حسان أن كلابهم آنِسةٌ بالأضياف لكثرة الطُّرّاق، فلا يَنْبَحون عليهم.

ومن ذلك قولُ الفرزدق: [من الطويل]

أيا ابنةَ عبدِ الله وابنةَ مالكٍ ويا ابنةَ ذي البُرْدَين والفَرَس الوَرْدِ[٣]

قال بعضهم: وأيُّ مدح في كون الرجل يَلبَس بُردين، ويركَبُ فرساً وَرْداً؟!

وليس كما ذكروا، وإنما لهذا القول سبب؛ وهو أن وفود العرب اجتمعوا عند النُّعمان بن المنذر، فأخرج لهم بُرْدَيْ مُحَرِّق، وقال: مَن كان أعزَّ العرب فليَلْبَسْهُما.

---

(١) انظر العقد الفريد ٥/ ٢٨٣، والعمدة ١/ ٣٢ فما بعدها.

(٢) العقد الفريد ٥/ ٣٣٠، والبيت في ديوانه ١/ ٧٤.

(٣) تابع المصنفُ صاحبَ العقد الفريد ٥/ ٣٣٠ في نسبة هذا البيت إلى الفرزدق، وليس في ديوانه، وقد نَسب التبريزي في شرح الحماسة ٤/ ١٠٠ هذا البيت إلى حاتم الطائي، وهو في ديوانه ٤٣ (صادر)، ونسبه المبرد في الكامل ٧٠٩، وأبو الفرج في الأغاني ١٤/ ٧١ إلى قيس بن عاصم المنقري، وورد في البيان ٣/ ٣٠٩، وعيون الأخبار ٣/ ٢٦٣، وشرح المرزوقي للحماسة ١٦٦٨ دون نسبة، وانظر شرح أبيات المغني للبغدادي ٤/ ٣١٥.

فقام عامر بن أُحيمر بن بَهدلة السَّعْدي فأْتَزَرَ بأحدهما، وارتدى بالآخر. فقال له النعمان: أنت أعزُّ العرب؟ قال: نعم. قال: ولِمَ؟ قال: لأن العزَّ والعَدد في مَعَدّ، ثم في نزار، ثم في مُضَر، ثم في خِندِف، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في عَوف، ثم في بَهدلة، فمن أنكر هذا، فليبارني[1] أو يُنافرني. فلم يُجِبْه أحد، فقال له النعمان: فهذه عشيرتُك، فكيف أنت في نفسِك وأهلِ بيتك؟ فقال: أنا أبو عشَرةٍ، وعمُّ عشرة، وأخو عشرة، وخالُ عشرة، وأما أنا في نفسي فهذا شاهِدي، ثم وضع قدمه في الأرض وقال: مَن أزالها عن مكانها فَله مئةُ ناقةٍ من الإبل سودِ الحَدَق، فقام الجماعة إليه فلم يقدِرْ أحد على زوال قَدَمِه من الأرض، فذهب بالبُردَين، فافتخر الفرزدقُ بذلك.

ومن ذلك قولُ ذي الرُّمّة: [من الوافر]

رأيتُ الناسَ يَنتَجِعونَ غَيْثاً ... فقلتُ لصَيْدَحَ انتَجِعي بِلالا

فلما أنشدها بلالاً، قال لغُلامه: مُرْ لصَيدحَ ـ وهو اسم ناقة ذي الرمة ـ بعَلفٍ[2]. وإنما أراد به قصد نفس بلالٍ، لا غيره. ومن هذا كثير.

فصل

ومن عادة الشُّعراء تحسينُ القبيح، وتقبيحُ الحسن.

قال الحارث بن هشام يعتذر عن فِراره يومَ بدر، وكان مع المشركين: [من الكامل]

اللهُ يعلَمُ ما تركتُ قِتالَهمْ ... حتى رَمَوا فَرَسي بأَشْقرَ مُزبِدِ

فصَدفْتُ[3] عنهم والأحبَّةُ فيهمُ ... طمعاً لهم بعقابِ يوم مُرصَدِ

ولما بلَغَ بعضَ ملوك الروم هذا قال: يا معاشرَ العرب، حسَّنتُم كلَّ شيء حتى الفِرار.

وقال بشارٌ العُقيلي في سليمان بن علي، وقد وَصَل رجلاً وأحسن إليه: [من البسيط]

(١) في (خ): فليبارزني، وفي (ب): فليناوئني، والمثبت من (ك).

(٢) العقد الفريد ٥/ ٣٣٣، والبيت في ديوانه ٣/ ١٥٣٥.

(٣) في (ب): فصددتُ، وانظر العقد الفريد ٥/ ٣٣٦، والبيتان في سيرة ابن هشام ٢/ ١٨.

يا سَوْءةً يُكثِرُ الشيطانُ ما ذُكِرت   منها التعجُّبَ جاءت من سُليمانا
لا تَعجَبَنَّ لخيرٍ زال عن يدِهِ   فالكوكبُ النَّحْسِ يَسقي الأرضَ أحيانا(١)

فصل

وقد تختلفُ الشعراء في المعنى الواحد. قال الشَّماخ(٢): [من الوافر]

إذا بَلَّغْتِني وحمَلْتِ رَحْلي   عَرَابةَ فاشرَقي بدَمِ الوَتينِ

وقد عكسه بعضُهم فقال(٣): [من الوافر]

أقولُ لناقتي إذْ بلَّغَتْني   لقد أصبحتِ مني باليمينِ
فلم أجعَلْكِ للغِربان نهباً   ولا قلتُ اشرَقي بدم الوتينِ

ومن هنا أخذ أبو نُواس في قوله: [من الكامل]

وإذا المَطِيُّ بنا بَلَغْنَ محمداً   فظُهورُهنَّ على الرجال حرامُ(٤)

فصل

واختلفوا في قَصْر الممدود، ومَدّ المقصور، والحَذْف.

أما قَصْر الممدود فجائزٌ بالاتفاق.

وأما مدُّ المقصور فقبيح، وقد عِيب على حسان بن ثابت لمّا هجا النعمان، ومدح ملك بني غَسَّان: [من المتقارب]

قَفاؤُك أحسنُ من وَجْهِه   وأمُّك خيرٌ من المنذرِ(٥)

وأما الحذف فجائز، وهو من باب الفصاحة، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾[البقرة: ١٩٧] وإنما هو: في أشهر.

وقال مسلم بن الوليد: [من الطويل]

---

(١) العقد ٥/ ٣٣٦، وديوانه (٦١٢)، ونسبهما ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١/ ٤٢٩ إلى أبي الغول النهشلي، وانظر خزانة الأدب ٦/ ٤٣٩.

(٢) ديوانه ص ٣٢٣.

(٣) هو أبو نواس، والبيتان في ديوانه ٣/ ٣٠٣-٣٠٤.

(٤) ديوانه ١/ ١٣٢، والعقد الفريد ٥/ ٣٤٠ وما سلف منه.

(٥) ديوانه ١/ ٤٨٩، والعقد ٥/ ٣٥٦، وما يجوز للشاعر في الضرورة ٢١٧.

سَلِ النَّاسَ إنِّي سائلُ اللهِ وحدَه وصائنُ عِرضي عن فُلانٍ وعن فُلِ[١]

وقال آخرُ: [من الرجز]

نادَوهُمُ أن أَلجِموا ألا تا قالوا جميعاً كلُّهُمْ بلى فا[٢]

أراد: ألا تركبون؟ قالوا: بلى فاركبوا.

وقال آخر: [من الرجز]

قلنا لَها قِفي فقالت قاف[٣]

تريد: وقفتُ.

وقال آخر[٤]: [من الرجز]

خرجتُ من عِند زيادٍ كالخَرِفْ تَخُطُّ رِجلايَ بخطٍّ مختلِفْ

تُكتِّبانِ في الطريقِ لامَ الِفْ

ولم يقل لاماً ولا ألفاً، ومن هذا كثير

ذكر ملوك الحيرة

وعُمّرت الحيرةُ في زمن عَمْرو بن عدي بن أخت جَذيمةَ الأَبرش، فاتَّخذها منزلاً، فأقامت عامرةً خمسَ مئة سنة إلى أن وضع المسلمون الكوفةَ. وكانت الحيرةُ والأنبار بُنِيا جميعاً في زمن بُختَ نَصَّر، وأقامت الأنبار عامرةً خمس مئة سنة، ولما خَرِبت الحيرة تحوَّلَ أهلها إلى الأنبار.

وأولُ ملوك الحيرة من العرب: مالك بن فَهْم بن غانم بن دَوْس بن الأزد بن غوث ابن نَبْت بن مالك.

وكان بُختَ نصَّر قد أَخْرَبَ الحيرة وطرد عنها العرب زماناً، فلما ضَعُف أمرُ الفُرس، قصدها مالك لَمَّا خرج من اليمن مع ولد جَفْنة حين أحسُّوا بسَيْل العَرِم، فملك

(١) ديوانه ص ٢٦، والعقد الفريد ٥/ ٣٥٥.

(٢) ما يجوز للشاعر ص ٣٤٨، وضرائر الشعر ١٨٥ والمصادر فيهما.

(٣) تأويل مشكل القرآن ٢٣٨، وضرورة الشعر للسيرافي ص ٨٩، وضرائر الشعر ١٨٦ والمصادر فيها.

(٤) هو أبو النجم العجلي، والأبيات في ديوانه ١٤١.

مالك على مُضَر ونزل الحيرة، فأقام مدةً، ثم مات.

فصل

فملك بعده ولدُه جَذيمةُ، ويُلقَّب بالأبرش، والوضَّاح لوَضَحٍ كان به، وكان من أفضل ملوك العرب رأياً، وأشدهم نكاية[١]، وهو أول مَن اجتمع له مُلك العراق، وحكم على العرب، وكانت منازلُه من الحيرة إلى الأنبار وهِيت وعَيْنِ التّمرِ.

وكان لا يُنادم إلا الفَرقَدَيْن ترفُّعاً، وكان إذا شرب قَدَحاً صبَّ لهما قَدَحَيْن، وكانت تُجبى إليه الأموالُ، وتَفِدُ عليه الوفودُ، وفي أيامه كانت زَرْقاء اليمامة.

فصل في ذكرها

كان قد خرج جَذيمة يغزو طَسْماً وجَدِيْساً، فوجد حسَّان بن تُبَّع الحِمْيَري قد سبقه إلى غزوهم، فعاد جَذيمة إلى منازله.

وسبب غزو حسانَ لهم: أنه كان لهم ملك يقال له: عملوق، وكان جباراً فاتكاً فاسقاً، وكان من طَسْم وهو حاكم على جَديس، ظالماً لها بحيث أنه لا يُزَفُّ من جَديس امرأةٌ إلى زوجها إلا وتُحمَلُ إليه، فيَفترِعَها عملوق قبل زوجها.

فتزوَّجت امرأة شريفة في جديس يُقال لها: الشَّموس بنت عَفار أخت الأسود بن عَفار الجَدِيسي، فلما كانت ليلة زفافها ذهبوا بها إلى عملوق، فافتَرعها وخلَّى سبيلها، فخرجت على قومها في دمائها، وقد شقَّتْ جيبَها، وكشفتْ عورتها، وقالت تُحرِّضُ جَديساً على طَسْم: [من الطويل]

أيَصلُح ما يُؤتى إلى فَتياتِكم وأنتم رجالٌ فيكمُ عددُ النَّملِ
أيَحسُن تمشي في الدِّما فَتياتُكم صبيحةَ زُفَّت في النساء إلى البَعْلِ[٢]
فإن أنتُم لم تَغضَبوا عند هذه فكونوا نساءً لا تَريموا[٣] من الكحلِ

---

(١) في النسخ: مكانة، والمثبت من المنتظم ٢/ ٥٠.

(٢) في مروج الذهب ٣/ ٢٧٩: أيحسن تمشي في الدماء فتاتكم، وفي معجم البلدان (عامة) ٥/ ٤٤٣: أيجمل تمشي في الدماء فتاتكم... في العشاء إلى بعل.

(٣) في أسماء المغتالين لابن حبيب (نوادر المخطوطات) ٢/ ١١٩، ومعجم البلدان، والخزانة: لا تَغِبّ، وفي الأغاني ١١/ ١٦٦، وتاريخ ابن الأثير ١/ ٣٥٣: لا تُعاب، وفي مروج الذهب ٣/ ٢٧٩: تغيضوا.

ودونكم طيبُ النساء فإنما جُعِلْتُم لأثواب العروسِ وللغُسلِ
فلو أننا كنا الرجالَ وأنتمُ نساءٌ لكُنَّا لا نُقِرُّ على الذلِّ
فموتوا كراماً واصبِروا لعدوِّكُم بحربٍ تَلظَّى بالضِّرامِ من الجَزْلِ(١)
فيَهلِك فيها كلُّ خَبٍّ مُخادعٍ ويَسلم فيها ذو النَّجابَةِ والفَضْلِ

فلما سمعت جَديس ذلك غضبت، فقال لهم أخوها الأسود وكان فيهم مُطاعاً: يا جَديس، أطيعوني. قالوا: وما ذاك؟ قال: قد عَلمتُم أن طَسْماً ليسوا بأعزَّ منكم، وإنما تمليكُ عملوق علينا، وميلُه إليهم، هو الذي فعل بنا ما فعل، وإني صانعٌ لهم طعاماً، وأَدعوا عملوقاً وطسماً إليه، فإذا جاؤوا قَتلتُ أنا عملوقاً، واقتلوا أنتم رؤساءهم. وصنع طعاماً، وأَحضرهم، وقتل عملوقاً، وقتلوا رؤساءهم حتى أفنَوْهم، ولم يُفْلِت من رؤسائهم إلا رياح بن مُرّة، فهرب إلى حسان بن تُبَّع فأخبره، وقال: قد انْتُهِكَ من طَسْم ما لم يُنْتَهَك(٢) من أحد. فسار حسان إليهم بقبائل حِمْير وهم باليمامة، فلما بقي بينه وبينها ثلاثة أيام قال رياحٌ لحسان: أيها الملك، أخشى من امرأة في جديس ليس في الدنيا أبصرُ منها، إنَّها لتُبصرُ الرّاكب من مسيرة ثلاثة أيام، وأخافُ أن تُنذِرَ القَوْمَ، فلو أمرتَ أصحابك أن يحمل كلُّ واحد منهم شجرة ويجعلها أَمامه، فأمرهم حسان بذلك.

ونظرت زرقاءُ اليمامة إلى القوم من مسيرة ثلاثة أيام، فأنذرت قومها، وقالت: يا جديسُ، لقد سار إليكم الشجرُ من ورائها الرجال، وأرى فيهم رجلاً يَخصِفُ نعلاً، وآخر يَنْهَشُ كَتِفاً، فكذَّبوها، فقالت: [من البسيط]

إنــي أَرى شجراً من خَلْفِه بشَرٌ فكيف تجتمعُ الأشجارُ والبشرُ
ثوروا بأجمَعِكم في صَدْر أوّلِهِ فإن ذلك منكم فاعلَموا ظَفَرُ

ثم قالت:

أُقسم بالله لقد دَبَّ الشَّجر أو حِمْير قد أخذت شيئاً يُجَرّ

---

(١) في (ب) و(خ): بالكرام من الذل؟! والمثبت من مروج الذهب ٣/ ٢٨٠.

(٢) في (ب): انهتك... تنتهكه، وفي (خ) و(ك): وقال: هل من طسم ما لم ينتهله، والمثبت من مروج الذهب ٣/ ٢٨٤.

فصبَّحهم حسان فاجتاحهم، وأخذ زرقاء اليمامة، فشَقَّ عينيها، فإذا عروقٌ سود، فسألها عن ذلك، فقالت: إني لأكتحلُ بالإِثْمِد في كل ليلة فيَشِبُّ بصري، وهي أولُ من اكتحلت به فاتّخذته الناس بعد ذلك. ثم أمر بها حسانُ فصُلِبت على باب اليمامة.

وزرقاء اليمامة لقبٌ لها، واسمُها يمامة بنت مُرَّة أخت رياح الذي أتى بحسان. ويقال: هي من بنات عاد، وبها يُضربُ المثلُ في حِدَّة البصر.

واختلفوا في أيام جَذيمة، فقيل: ستين سنةً، وقيل: ملك مئةً وثمانية عشرة سنة، وأقام ملكاً في زمان ملوك الطوائف خَمْساً وتسعين سنة، وفي أيام أَرْدشير بن بابَك ثلاثاً وعشرين سنة. وقصصُه مع أخته رَقَاش، وتزويجها بعَديّ بن نصر، وحديث عمرو بن عدي، واستطارة الجن له وعَوْده إليه، وطلبه لزواج الزَّبَّاء، وقتلها له، وتحيُّل قصير وعمرو بن عدي على قتلها مشهور، لا حاجةَ إلى الإطالة بذكره.

فصل

وملك عمرو بن عَديّ بعد خاله، فأقام نيّفاً وستين سنة، وقيل: مئةً وستين سنة، ثم مات.

فصل

ثم ملك بعده ولدُه امرؤ القيس بن عمرو، فأقام ستين سنة، ثم مات.

فصل

ثم ملك بعده ولده عمرو بن امرىء القيس، وأمُّه مارية من ولد ملوك غسان، وهو من لَخْم ويُسمّى مُحرِّقاً؛ لأنه أول من حرَّق بالنار، وفيه يقول الأسود بن يَعفُر: [من الكامل]

ماذا أؤمِّلُ بعد آلِ مُحرِّقٍ[1]

الأبيات.

فأقام خمساً وعشرين سنةً، ثم مات.

فصل

وولي بعده النعمانُ بن امرىء القيس، وأمُّه الهَيْجُمانَةُ، وقيل: هي التي يُقال لها:

(١) تمامه: تركوا منازلهم وبعد إيادِ، وهو في «المفضليات» ص ٢١٧ وتخريجه فيه.

ماء السماء، لجمالها.

وهو الذي بنى الخَوَرْنَق والسَّدير، وهو النعمان الأكبر، وكان أعورَ، وهو الذي مَلّكه أنوشروان بن قُباذ، وهو الذي أشرف يوماً على الخورنق والسدير، فنظر إلى ما حولَهما، فقال: أكلّ ما أرى يَصيرُ إلى فناء؟ قالوا: نعم. فقال: أريد عيشاً لا يزول. فقالوا: تَخلعُ أسباب الملك، وتَلبَسُ الأَمساح، وتَسيح في الأرض، ففعل. وأقام في الملك خمساً وستين سنة.

وروى الأصمعي: أن النعمانَ بن امرىء القيس الأكبر ـ وهو الذي بنى الخورنق والسدير ـ ركب يوماً، فأشرف على الخَوَرْنَق، فنظر إلى ما حولَه، فقال لمن حضره: هل علمتُم أن أحداً أُوتيَ مثلَ ما أوتيتُ؟ قالوا: لا، إلا رجلاً منهم ساكتٌ لا يتكلّم، وكان من حُكمائهم، فقال له: مالَكَ لا تتكلَّم؟! فقال: أيها الملكُ، إن أَذنتَ لي تكلَّمتُ. قال: قُل. قال: أرأيتَ ما جمعتَ، أشيءٌ هو لك لم يَزُلْ ولا يزولُ، أم هو شيءٌ كان لمن قبلك، وزال عنه وصار إليك، وكذلك يزولُ عنك؟ فقال: لا، بل كان لمن قبلي فزال عنه، وصار إليَّ، وكذا يزولُ عني. قال: فسُررتَ بشيءٍ تزول عنك لذَّتُه غداً، وتبقى تَبِعَتُه عليك، تكون فيه قليلاً، وتُرتَهنُ فيه كثيراً طويلاً؟!

قال: فبكى النعمانُ، وقال: أين المهربُ؟ قال: إلى أحد أمرين: إما أن تُقيمَ، فتعملَ بطاعة ربِّك، وإما أن تُلقيَ عليك أمساحاً، ثم تلحقَ بجبلٍ، وتفرَّ من الناس، وتُقيمَ وحدَك تعبدُ ربَّك حتى يأتيَك أجلُك. قال: فإذا فعلتُ ذلك فما لي؟ قال: حياةٌ لا تموت، وشبابٌ لا يهرم، وصحة لا تسقم، ومُلْك جديد. قال: والله لأطلُبنَّ عيشاً لا يزولُ أبداً.

قال: فانخلع من مُلكه، ولبس الأمساحَ، وساحَ في الأرض، وتَبعَه الحكيم، فعبدا الله جميعاً حتى ماتا.

وهو الذي يقول فيه عديُّ بن زيد العِبَادِي: [من الخفيف]

أيُّها الشَّامتُ المُعَيِّرُ بالدَّهْـ ... ـرِ أأنتَ المخلَّدُ الموفورُ
أم لديكَ العهدُ الوثيقُ من الأيّام بل أنتَ جاهلٌ مغرورُ
مَن رأيت المنونَ أخلَدْنَ أمْ مَنْ ... ذا عليه من أن يُضامَ خَفيرُ

أينَ كِسْرى كسرى الملوكِ أبو سَا ... سَانَ أَمْ أينَ قبلَه سابُورُ
وبنو الأَصْفَرِ الكِرامُ مُلوكُ الرُّوم لم يَبْقَ منهمُ مَذْكُورُ
وأخو الحَضْرِ إذْ بناهُ وإذ دِجْـ ... ـلَةُ تُجبَى إليه والخابورُ
شادَهُ مَرمَراً وجلَّلَه كِلْـ ... ـساً فللطَّيرِ في ذُراهُ وُكُورُ
لم يَهَبْهُ رَيبُ المنُوْنِ فزال الـ ... ـمُلكُ عنه فبابُه مَهجورُ
وتَذكَّرْ رَبَّ الخَوَرْنَقِ إذْ أشْـ ... ـرف يوماً وللهُدَى تفكيرُ
سرَّه مالُه وكَثرةُ ما يَمْـ ... ـلكُ والبحرُ مُعرِضٌ والسَّديرُ
فارْعَوى قلبُه وقال: وما غِبْـ ... ـطةُ حيٍّ إلى المماتِ يَصيرُ
ثم أضحَوْا كأنهم وَرَقٌ جَفـ ... ـفَ فألْوتْ به الصَّبا والدَّبورُ
ثم بعدَ الفَلاحِ والمُلكِ والإمَّـ ... ـةِ وارَتهمُ هناك القبورُ
يا ديارَ الأحبابِ غيَّركِ الدَّهْـ ... ـرُ وكانتْ بعدَ الأمورِ أمورُ[(١)]

وفيهم يقول الأسود بن يَعفُر: [من الكامل]

ماذا أُؤمِّلُ بعدَ آلِ مُحرِّقٍ ... تركُوا منازِلَهم وبعدَ إيادِ
أرْضِ الخَوَرْنَقِ والسَّديرِ وبارقٍ ... والقصرِ ذي الشُّرُفاتِ من سِنْدادِ
نزلوا بأَنْقِرةٍ يسيلُ عليهم ... ماءُ الفُراتِ يَجيءُ من أَطْوادِ
أرضٌ تخيَّرها لطِيبِ مَقيلها ... كعبُ بن مامَةَ وابنُ أمِّ دُؤادِ
جَرَتِ الرِّياحُ على مَحلِّ ديارِهم ... فكأنما كانوا على مِيعادِ
فأرى النَّعيمَ وكلَّ ما يُلْهى به ... يوماً يَصيرُ إلى بِلىً ونَفادِ[(٢)]

قال ابن الكلبي: ملك بعده ولدُه المنذرُ بن النعمان، وأمه الفراسية من آل نصر بن ربيعة اللخمي، فأقام في الملك خمساً وعشرين سنة، ويقالُ لأمه: ماء السماء. وكان يقال له: ذو القرنين، لضفيرتين كانتا له في جانبي رأسه يُرسِلُهما.

وقال المدائني: إنما ملك بعد النعمان الحارثُ بنُ عمروٍ جدُّ امرىء القيس الشاعر، والأول أشهر.

---

(١) التوابين ص ٦٧ـ٦٨، وانظر الأغاني ٢/ ١٣٧، والمنتظم ٧/ ٢١٥ـ٢١٧.

(٢) المفضليات ص٢١٧، والشعر والشعراء ١/ ٢٥٥ـ٢٥٦، والأغاني ١٣/ ١٦ـ١٩، وانظر التوابين ص ٦٩.

فصل

ثم ولي بعد المنذر بن النعمان ولدُه عمرو، ويقال له: الأسود. وأمُّه هند بنت الهيجمانة. أقام عشرين سنةً وسُمّي مضرِّطَ الحجارة لشدّة صرامته، وسُمّي محرِّقاً لأنه أحرق من بني تميم تسعة وتسعين رجلاً، وكمَّلهم مئةً برجلٍ من البَراجم، وكان بنو تميم قتلوا أخاه سعد بن هند.

ومحرِّق أيضاً لقبُ الحارثِ بن عمرو، ملك الشام من آل جَفْنَةَ، سُمّي بذلك لأنه أولُ من حرَّق العرب في ديارهم.

وعمرو بن هند صاحبُ طَرَفة والمتلمّس، وكان كتب لهما كتابين إلى عامله بالبحرين، أَوْهَمهما أن في الكتابين صِلةً، وفي الكتابين يأمره بقتلهما ويقول: إذا أتاك طرفةُ والمتلمِّسُ فاقطع من كل واحدٍ منهما أكحلَه، ودَعْه حتى يموت.

فأما المتلمسُ فإنه مرَّ على رجل يَفلي ثيابه ويأكل خبزاً، فقال: ما رأيتُ أحمقَ من هذا. فرفع الرجل رأسه وقال: أما أنا فأرمي خبيثاً وآكلُ طيِّباً، وأحمق مني من حمل حتفه بيده. ففتح الصحيفةَ فرأى ما فيها من الشرِّ فرمى بها في النهر. وأما طرفةُ فمضى بالكتاب إلى العامل فقرأه فقطع أكحله، وتركه حتى مات.

وكان مُلْكُ عمرو بن هندٍ أربعاً وعشرين سنة.

والمتلمّس اسمُه: جرير بن عبد المسيح الضُّبَعي، عَشِق أخت عمرو بن هند وشبَّب بها، فطلبه عمرو ليقتله فهرب، وهو من المقِلِّين من الشعر، وهو خالُ طرَفة بن العبد، وإنما سُمِّي المتلمّس لقوله: [من الطويل]

فـهـذا أوانُ الـعِـرض جُـنَّ ذُبـابُـه ... زَنـابـيـرُه والأزرقُ الـمـتـلـمِّـسُ

وأولُ الأبيات:

ألـم تَـر أن الـمـرءَ رَهْـنُ مـنـيَّـةٍ ... صريعاً لعافي الطيرِ أو سوف يُرْمَسُ
فـلا تَـقْـبَـلَـنْ ضـيـمـاً مـخـافـةَ مِـيـتـةٍ ... ومـوتَـنْ بـهـا حُـرّاً وجِـلـدُك أمـلَـسُ
فـمِـن طَـلَـبِ الأوتـارِ مـا حَـزَّ أنـفَـه ... قصيرٌ وخاضَ الموتَ بالسّيف بَيْهَسُ

بيهس كان خرج في سفر ومعه سبعةُ إخوة فقُتلوا، ورجع هو فاستَحْمَق، فرجع حتى أخذ بثأرِه، وكان يُقال له: نعامة.

نَعامةُ لما صَرَّعَ القومُ رهطَه تبيَّنَ في أثوابه كيف يَلبَسُ

وقيل: كان يَلبَسُ ثوبه مقلوباً حتى أخذ بثأره.

وما الناسُ إلا ما رأَوْا وتحدّثوا وما العَجْزُ إلا أن يُضامُوا فيَجلِسوا
ألم تَر أن الجَوْن أصبح راسياً تُطيفُ به الأيام ما يتأيَّسُ
عصى تُبَّعاً أيام أُهلكت القُرى يُطانُ عليه بالصَّفيح ويُكلَسُ
هلمّ إليها قد أُثيرتْ زروعُها وعادت عليها المنْجَنون تكدَّسُ
فهذا أوانُ العِرضِ جُنَّ ذُبابُه زنابيرُه والأزرقُ المتلمِّسُ
يكون نذيرٌ من ورائي جُنَّةً ويَنصرني منهم جُلَيٌّ وأَحْمسُ
وجَمْع بني قُرّان فاعرض عليهم فإن يَقبلوا هاتا التي نحن نُوبَسُ
فإن يُقبِلوا بالوُدِّ نُقبِلْ بمثله وإلا [فإنّا] نحن آبى وأشمسُ
وإن يك عنّا في حبيبٍ تَثاقُلٌ فقد كان فينا مِقْنَبٌ ما يُعَرِّسُ(١)

وقال الخطابي: إن النبي ﷺ كتب كتاباً لعُيَيْنَة بن حِصن، وخَتمه وناوله إياه، فقال: يا محمد، أراني حاملاً إلى قومي صحيفة المتلمّس(٢). أي: لا أحمل كتاباً لا أدري ما فيه.

ومن شعر المتلمّس: [من الوافر]

وأَعلمُ عِلْمَ حقٍّ غيرَ ظنٍّ لَتقوى الله من خير العَتادِ
لَحِفْظُ المال أيسرُ مِن بُغاه وضربٍ في البلاد بغير زادِ
وإصلاحُ القليل يزيدُ فيه ولا يبقى الكثيرُ مع الفسادِ(٣)

فصل

ثم ملك بعده أخوه قابوس بن المنذر، فأقام والياً ثلاثين سنة، وقيل: أربع سنين، وأمُّه هند أيضاً.

---

(١) ديوانه ١١٠-١٢٩، وما بين معكوفين منه.
(٢) معالم السنن ٢/ ٥٨، وهو من حديث سهل بن الحنظلية ﷺ، وهو في سنن أبي داود (١٦٢٩)، ومسند أحمد (١٧٦٢٥).
(٣) من قوله: والمتلمس اسمه جرير... إلى هنا زيادة من (ب)، والأبيات في ديوانه ١٧٢-١٧٣، وانظر الشعر والشعراء ١/ ١٧٩.

فصل

ثم ملك بعده النعمان بن المنذر بن امرىء القيس، وهو الذي يقال له: أَبَيْتَ اللَّعْنَ، ومعناه: أَبَيْتَ أن تأتي ما تُلْعَنُ عليه. وكانت تحية الجاهلية فنسخها الإسلام. وأمه: سلمى بنت وائل، كَلْبية، وأمّها الشُّقيقة بالضم. وهو صاحب النابغة الذّبياني مدحه وهجاه، قال يهجوه: [من الخفيف]

خَبّروني بني الشُّقيقةِ ما يَمْـ ... ـنَعُ فَقْعاً بقَرْقَرٍ أن يَزولا[1]

والشُّقيقةُ بنت عَبَّاد بن زيد بن عمرو بن ذُهْل بن شيبان،، وهي أمُّ سيَّارٍ وسمير وعبد الله وعمرو بن أسعد بن همَّام بن مُرّة بن ذُهل بن شيبان، وكانوا سيَّارةً مَرَدَةً لا يأتون على شيءٍ إلا أفسدوه.

وكنية النعمان أبو قابوس، قال النابغة: [من البسيط]

نُبِّئْتُ أن أبا قابوسَ أوعدني ... ولا قَرارَ على زَأْرٍ من الأَسَدِ[2]

ومن مديح النابغة - واسمه زياد بنُ معاوية أبو أُمامة - في النعمان قصيدته المشهورة[3]: [من البسيط]

يا دارَ ميّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأَبَدِ
وقفتُ فيها أُصَيْلالاً أُسائلُها ... عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبْع من أَحَدِ
إلّا أواريَّ لأْياً ما أُبَيِّنُها ... والنُّؤْيُ كالحَوْضِ بالمظلومَةِ الجَلَدِ
أضحتْ قِفاراً وأضحى أهلُها احتَملوا ... أَخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ
ولا أرى فاعلاً في الناسِ يُشْبِهُه ... ولا أُحاشي من الأقوام من أَحدِ
واحكُم كحكم فتاةِ الحيِّ إذ نظرت ... إلى حَمامٍ سِراعٍ واردِ الثَّمَدِ

وهذه القصيدةُ قالها معتذراً إلى النعمان لمّا بلغه أنه تعرّضَ لزوجته المتجرِّدة.

والنابغةُ من الطبقة الأُولى من المتقدِّمين على سائر الشعراء، وهو أحد شعراء الجاهلية المشهورين، وأحدُ الأشراف الذين غَضَّ منهم الشعر.

---

(١) ديوانه ص ٩٩، والفقع: ضرب من الكمأة، والقرقر: الأرض المطمئنة الرخوة اللينة.
(٢) ديوانه ص ٣٦.
(٣) هي المعلقة، وهي في ديوانه ص ٣٠ فما بعدها، وسلف أن كنيته أبو ثمامة، وقد كني بابنتيه أمامة وثمامة، انظر الشعر والشعراء ١٥٧.

وكان خصيصاً بالنعمان ومن ندمائه، فرأى زوجةَ النعمان المتَجرِّدةَ، وقد سقط نَصيفُها ودِرعُها فسترت وجهها بيدها.

وكان النعمان أَبرشَ قبيحَ المنظر، وكان من نُدمائه المنخَّلُ اليَشْكُري الشاعر، وكان من أجمل العرب، وكان يُرمى بالمتجرِّدة، ويتحدَّث للعرب أن ابْنَي النعمان كانا منه، فلما رآها النابغةُ قال: [من الكامل]

سَقط النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَه فتَناوَلَتْه واتَّقَتْنا باليدِ[1]

وأوَّلُها:

من آلِ ميّةَ رائحٌ أو مغتدِي عَجْلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوَّدِ[2]

لو أنها عَرضَتْ لأَشمَطَ راهبٍ يخشى الإلهَ صَرورَةٍ مُتَعَبِّدِ

لصَبا لبَهْجَتِها وحُسْنِ حديثها ولَخالَه رُشْداً وإن لم يَرشُدِ

ووصف بطنَ المتجردة وظهرها وغيرَ ذلك، فغار المنخَّل، وقال للنعمان: ما يَقْدِرُ أن يقولَ هذا الشعر إلا من جرَّب. فغضب النعمان وتنكَّر له، وعزم على قتله. فهرب النابغةُ إلى الشام، فالتجأ إلى عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شَمِر الغَسّاني، وأُمّه مارِيَة بنت ظالم الكِنْديّة ذات القُرطَين، وأُختها هند الهنود امرأة حُجْرٍ آكل المُرار، فمدحه النابغة وقال: [من الطويل]

كليني لهمٍّ يا أُميمةَ ناصِبِ وليلٍ أُقاسيه بَطيءِ الكواكبِ

ومنها:

ولاعيبَ فيهم غير أن سيوفَهم بهنَّ فُلولٌ من قِراع الكتائبِ

تَقُدُّ السَّلوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُه وتُوقِدُ بالصُّفّاحِ نارَ الحُباحِبِ[3]

ومدح النعمانَ بن الحارث الأصغر الغساني أخا عمروٍ الذي التجأ إليه، فقال وقد رآه يمشي وهو غلام: [من السريع]

هذا غلامٌ حَسَنٌ وَجْهُه مُقتَبلُ الخيرِ سريعُ التَّمامْ

(١) ديوانه ص ٤٠.
(٢) ديوانه ص ٣٨.
(٣) ديوانه ص ٩، ١١، وانظر الشعر والشعراء ١/ ١٦٦-١٦٧، والأغاني ١١/ ١٤ - ١٦.

لـلـحـارثِ الأكـبـر والـحـارث الـ　　أصـغـر والأعـرجِ خـيـرِ الأنـامْ
ثـم لـهِـنـدٍ ولـهِـنـدٍ فـقـد　　أسـرع فـي الـخـيـرات مـنـه إمـامْ
خـمـسـةُ آبـاءٍ هـمُ مـا هـمُ　　هـمْ خيرُ مَن يشربُ صَوبَ الغمامْ(١)

ولم يزل النابغة مقيماً عند عمرو بن الحارث الغساني حتى مات عمرو، وولي أخوه النعمان بن الحارث، فاستعطفه النعمان بن المنذر، فعاد إليه.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً: مَن القائل: [من الطويل]

حـلـفـتُ فـلـم أتـرُكْ لـنـفـسِـكَ رِيـبـةً　　ولـيـس وراءَ الله لـلـمـرء مَـذْهَـبُ
ولـسـتَ بـمُـسْـتَـبْـقٍ أخـاً لا تَـلُـمُّـه　　على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المُهذَّبُ(٢)

قالوا: النابغة. فقال: فمن الذي يقول: [من البسيط]

إلا سـلـيـمـانَ إذْ قـال الـمـلـيـكُ لـه　　قُـمْ في البَرِيَّة فازْجُرها عن الفَنَدِ(٣)

قالوا: النابغة. قال: فمن القائل: [من الوافر]

فـلـسـتُ بـذاخـرٍ لـغـدٍ طـعـامـاً　　حِـذارَ غـدٍ لـكـلِّ غـدٍ طـعـامُ(٤)

قالوا: النابغة. فقال: هو أشعر شعرائكم وأعلمُ الناس(٥).

استأذن النابغة يوماً على النعمان، فقال الحاجب: هو على شرابه. قال: فإنه وقت الملَق، فإن تَبلّج فَلَقُ المَجْدِ عن غُرَر مواهبه، فأنت قسيمُ ما أفدتُ. فقال الحاجب: كيف أرغبُ فيما قصدتَ ووصفتَ، ودون ذلك رَهبةُ التعدِّي؟ وكيف السبيل؟ قال: فمن عنده؟ قال: خالدُ بن جعفر الكلابيُّ نديمُه. قال: فهل لك أن تُؤدّي إلى خالدٍ ما أقول؟ قال: قُل. قال: قل له: يقول لك النابغةُ: عظيمُ قَدْرِك يفي بمأمول الدَّرك منك، وأنا من الشّكر مَنْ قد علمت، فدخل الحاجب، فقام خالد يقضي حاجتَه، فبلّغه الحاجب ما قال النابغة. فلما عاد خالد إلى المجلس، قال للنّعمان:

---

(١) ديوانه ص ١١٧، والأغاني ١١/ ١٩ـ٢٠.
(٢) ديوانه ص ١٧.
(٣) ديوانه ص ٣٣.
(٤) ديوانه ص ١١٦.
(٥) انظر الأغاني ١١/ ٤ـ٥، و«طبقات فحول الشعراء» ص ٥٦، والعقد الفريد ٥/ ٢٧٠.

[إلا لـمِـثـلـك أو مَـنْ أنـت سـابِـقُـه   سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأَمَدِ]

أَبَيْتَ اللَّعنَ، إن أملاكَ ذي رُعين - يعني ملوك اليمن - قد مدَّت لهم قَصَبات المجد[1] إلى معالم الأحساب، ومناقب الأنساب، في حلبةٍ أنت غُرَّتُها، فجئتَ سابقاً لها. فقال له النعمان: لأنت أبلغُ في وصفهم من النّابغة في نظم قافيته. فقال خالد: ما أَبلغَ فيك مدحاً إلا وهو دون قدرك، ولو كان النابغة حاضراً لقال وقلنا. فقال: عليَّ بالنابغة. فخرج الحاجب، فقال: فُتِح البابُ، ورُفِع الحجابُ، ادخل، فدخل وأنشد: [من البسيط]

أخلاقُ مجدِك جَلّتْ ما لها خَطَرٌ   في البَأْسِ والجُود بين العِلم والخَبرِ
مُتَوَّجٌ بالمعالي فوق مَفْرِقِه   وفي الوغى ضَيْغَمٌ في صورةِ القمرِ[2]

فملأ فاه دُرّاً، فقاسمه الحاجبُ.

وكان يُضربُ للنَّابغة قُبَّةٌ من أَدَم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراءُ، فتعرِضُ عليه أشعارَها، فأنشده الأعشى، ثم حسَّان بن ثابت، ثم الخنساء، فمما أنشدَتْه أبياتها التي تقول فيها: [من البسيط]

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ به   كأنَّه عَلَمٌ في رأسِه نارُ[3]

فقال النابغة: واللهِ لولا أنَّ أبا بصير أنشدَني آنِفاً، لقُلتُ إنكِ أشعرُ أهلِ زمانِك من الإنس والجِنِّ.

ومن شعر الخَنْساء في «الحماسة»: [من السريع]

دَلَّ على مَعْرُوفِه وجهُه   بُورِك هذا هادياً من دليلْ
تَحسَبُه غَضبانَ من عِزِّهِ   ذلك منه خُلُقٌ ما يَحولْ
وَيْلُ امِّهِ مِسعَرَ حَرْبٍ إذا   أُلقِيَ فيها وعليه الشَّليلْ[4]

(١) في النسخ: قد مدت لهم قصب السبق، والمثبت من مروج الذهب ٣/ ٢٠٣ وما بين معكوفين منه، والبيت في ديوانه ص ٣٣.
(٢) ديوانه ص ٧٤، وانظر مروج الذهب ٣/ ٢٠٤.
(٣) ديوانها ص ٤٨.
(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٧٩٨، وديوانها ص ١١٥.

فقام حسان بن ثابت، فقال: والله أنا أشعرُ منها ومنك ومن أبيك. فقال النابغة: حيث تقول ماذا؟ فقال: حيث أقول: [من الطويل]

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحى ... وأَسْيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَما
وَلَدْنا بَني العَنْقاءِ وابنَيْ مُحَرِّقٍ ... فأكرِمْ بنا خالاً وأكرِم بنا ابْنَما[١]

فقال له النابغة: يا بُنيَّ إنك قلت: الجفنات فقلَّلت عددك، ولو قلت: الجفان كان أولى، وقلت: يلمعن بالضُّحى، ولو قلتَ: في الدُّجى، كان أبْلَغ، لأن الضِّيفانَ يكْثُرن في الليل، وقلتَ: يقْطُرن. ولو قلتَ: يجرين، لكان أكثر للدم، وفَخَرْتَ بمن ولدْته، ولم تَفْخَر بمن ولَدَك[٢].

وكسرى أبرويز هو الذي قتل النُّعمان بن المنذر، وسببُ قتله أنه قتل عَدِيَّ بنَ زيدِ ابن حِمار بن أيوب[٣]، وكان يسكن الحيرة، وكان عديٌّ نصرانياً، وكان منزلُ جدِّه أيوب بن مَحروف باليمامة، في بني امرىء القيس بن زيد مَناة، فأصاب دماً باليمامة فهرب، فنزل الحيرة على أوس بن سلام[٤] أحد بني الحارث بن كعب، وكان بين أوسٍ وأيوبَ نسبٌ من قِبَل النساء، فأنزله أوس وأكرمه، وأقام عنده مدة ثم ماتا.

ونشأ زيد أبو عَديّ، وتعلَّم الكتابة ووُلِد له عَديّ، فعلَّمه الكتابة، فخدم كسرى وأَنفق عليه، وكان يكتب له، وكان ذلك في زمان المنذر، فجعل المنذرُ ابنَه النعمان في حِجْر عَديّ بنِ زيد، وتزوّج عَديٌّ هنداً بنت النعمان، ومات المنذر، فأشار عَديّ على كسرى بتولية النعمان دون إخوته، وكان أصغرهم، فغضب الأسودُ بنُ المنذر أخو النعمان وأهلُه على عَديّ، واحتالوا وتَوصَّلُوا إلى النعمان، ووشَوْا بينهما، وقالوا: إن عديّاً يقول: إنما النعمان عاملٌ من قِبَله. فحبسه، وأطال حبسه، فكتب إليه عدي من الحبس يقول: [من الرمل]

أَبلِغِ النُّعْمانَ عني مَأْلَكاً ... أنّه قد طال حَبسي وانتظاري

(١) ديوانه ص ٢٢١.
(٢) انظر الأغاني ١١/٦، وخزانة الأدب ٨/ ١١٢-١١٣.
(٣) في النسخ: حماد بن أثوب، والمثبت من طبقات فحول الشعراء ١/ ١٣٧، وانظر حاشيته لزاماً.
(٤) في الأغاني ٢/ ٩٨: قلّام.

لـو بـغـيـر الـمـاءِ حَـلْـقـي شَـرِقٌ كـنـتُ كـالـغَـصَّـانِ بـالـمـاءِ اعْـتِـصـارِي
وعُـداتـي شُـمَّـتٌ أَعـجَـبَـهـم أنَّـنـي قـد غِـبْـتُ عـنـهـم فـي إسـاري
فـلَـئِـن دهـرٌ تَـولَّـى خـيـرُه وجـرت لـي مـنـه بـالـنـحـس جـوار
رُبَّـمـا مـنـه قَـضـيـنـا حـاجـةً وحـيـاةُ الـمـرءِ كـالـشَّـيءِ الـمُـعـارِ[1]

ومدحه بقصائد كثيرة فلم تغن عنه شيئاً.

وبلغ كسرى حبسُ النعمان لعَديّ، فبعث إليه يتوعَّدُه ويتهدَّده، ويأمرُه بإطلاقه. فأشار أعداءُ عديّ على النّعمان بقتله، فغمّوه في ليلة، فلمَّا وصل رسولُ كسرى إلى النعمان يطلبُ عديّاً، أمره أن يذهب إلى الحبس ويُخرجه، فجاء فوجده ميتاً، فقالوا: مات البارحة. فعاد الرسول إلى كسرى فأخبره، فتَغَيَّظ وقال: قتلني الله إن لم أقتلْه. وكان في قلبه منه من يوم طلب منه فَرسَه اليَحْموم لينجو عليه، فمنعه النعمان منه[2].

ثم إن النعمان ندم على قتل عدي، وأحضر ابنه زيداً، واعتذر إليه، وجهَّزه إلى كسرى، وكتب معه كتاباً: إن عدياً كان ممن أُعين به في المُلك، وقد انقضت مُدّتُه، ولم يُصَبْ به أحد أَشَدَّ من مصيبتي به، وقد بلغ له ابنٌ وليس بدونه، فإن رأى المَلك أن يجعله مكان أبيه فعل.

فلما حضر زيد عند كسرى أُعجب به، وسأله عن النعمان فأثنى عليه، وأقام زيدٌ يُعْمِلُ الحيلةَ في قتل النعمان، فما زال حتى قتله، لما نذكر.

وكان النعمان يعبد الأوثان، فلم يزلْ به عَديّ حتى نَصَّرَه؛ خرج يوماً معه إلى الصيد، فمرا بمقبرة، فقال له عَديّ: أيها الملكُ أتدري ما يقولُ أهلُها؟ قال: لا. قال: إنهم يقولون: [من الرمل]

رُبَّ رَكْـبٍ قـد أَنـاخـوا حـولَـنـا يَـشـربـون الـخَـمْـرَ بـالـمـاءِ الـزُّلالِ
ثـمّ عـادوا عَـصَـفَ الـدَّهـرُ بـهـم وكـذاك الـدَّهـرُ حـالاً بـعـد حـالِ

فقال له النّعمان: إنَّ هؤلاء لا ينطِقُون فما الذي أَردْتَ؟ قال: أردتُ وَعْظَك، وأن ترجعَ عن عبادةِ الأوثان إلى عبادةِ الرحمن، وتدينَ بدين المسيح. فتنصَّرَ النعمان[3].

---

(١) انظر العقد الفريد ٥/ ٢٦١، والأغاني ٢/ ١١٤.
(٢) سلفت القصة ص٤٤٠ من هذا الجزء.
(٣) انظر الأغاني ٢/ ٩٦، ١٣٤.

وعَديّ القائل: [من البسيط]

يا أيُّها الرَّكبُ سيروا إن قَصْرَكُمُ ... أن تُصبِحوا ذات يومٍ لا تَسيرونا

حُثُّوا المَطِيَّ وأرخوا من أزِمَّتها ... قبل المماتِ وقَضُّوا ما تُقَضُّونا[1]

وكان عَديٌّ يَهوى هنداً بنت النعمان، وكانت من أجمل النّساء، رآها في بِيْعةٍ في خميسِ الفِصْح، وذلك في أيّام المنذر، وكان قد قدِم عليه بهدية من عند كسرى. وكان لهندٍ أَمَةٌ يقال لها: مارِيَة، فعشِقتْ عديّاً، فأرادتْ أن تتقرَّب إليه بهند، فقالت له: هل لك أن تَقع عليَّ، وأتسبب لك في هند؟ فأَدْخلها حانوتَ خَمَّار، ووقع عليها، فأعملت الحيلة حتى جَمعتْ بينهما في البِيْعة، فعَشِقتْه هندُ وخطبها إلى النعمان فزوجه إياها، وكان جميلاً، وأقامت معه حتى قتله النُّعمان، فترهَّبتْ بدير هند ظاهر الحيرة، وأقامت به إلى صدر الإسلام، وماتت في ولاية المغيرة بن شُعبة على الكوفة من قِبَلِ معاوية، وخطبها المغيرة، فقالت: والله ما بي بقيَّةٌ من جَمال، ولكنَّك أردتَ أن تقول في المواسم: ملكتُ مملكةَ النّعمان، ونكحتُ ابنتَه. فقال المغيرة: صَدقْتِ.

ويقال: إن هنداً كانت تهوى زرقاءَ اليمامة، وهي أوّلُ امرأةٍ أحبَّت امرأةً من العرب، فلما قُتِلتْ زرقاء اليمامة، ترهَّبتْ ولَبِستْ المُسوح، وبنَتَ بظاهرِ الكوفة دَيْراً وسَكنَتْه. وهذا بعيدٌ؛ أين هند من زرقاء اليمامة؟ الزرقاء كانت في زمن جَذيمة، والنعمانُ في آخر ملوك الحيرة.

ولما حَبس النّعمان عديّاً أكرهه على طلاقها، فطلقها[2].

ذكر مقتل النعمان

أقام زيد بن عدي عند كسرى يُعمِلُ الحِيْلةَ في قتل النعمان، والأخذ بثأرِ أبيه، وما كانت الفُرس تتعرَّض لنساء العرب، فوصف زيدٌ لأبرويز نساءَ آل المنذر، فكتب أبرويز إلى النُّعمان أن يبعث إليه بأخته أو ابنته ليتزوَّجَها، وبعث بالكتاب مع زيد بن عَدي. فلما قرأ الكتابَ قال: أما كان لأبرويز في مها السواد كفايةٌ حتى تَخطّى إلى كرائم

(١) تاريخ دمشق ٤٧/ ١٢٨ (طبع المجمع)، ونسبهما أبو الفرج في الأغاني ١٥/ ١٩ إلى مضاض بن عمرو.

(٢) انظر الأغاني ٢/ ١٢٨-١٣٣.

العرب؟ فقال له زيد: إنما أراد الملكُ إكرامَك ورفعَ منزلتك بمصاهرته إياك، ولو علم أنّ ذلك يَشُقُّ عليك لما فعل. فقال له النّعمان: قد علمتَ ما على العرب من العارِ والشَّناعَة بتزويج الأعاجم. فقال له: طِبْ نَفْساً سأصرفه عن ذلك.

فلمّا عاد زيد إلى أبرويز أعاد عليه ما قال النّعمان، وقال: إنه قال: فأين أبرويز عن بَقرِ السَّواد، وحرَّف عليه. وقال زيد: رُبَّ عبدٍ صار من الطغيان إلى أكثر من هذا[١].

فأرسل كسرى يطلبُ النُّعمان، فرحل بأمواله وأثقاله وأهله إلى البادية، فنزل على أصهاره من طيّيء فلم يَحمُوه، فانتقل إلى بني رَواحة فأجاروه. وضَجِر ومَلّ من التنقُّل في البادية، فأشارت عليه امرأتُه المُتَجرِّدة بأن يقصد باب كسرى مُستجيراً به.

وبلغ كسرى فصفّ ثمانية آلاف جارية، عليهن الحليُّ والحُلَلُ صَفَّين، فلما صار النّعمان بينهن قُلنَ جميعاً: أما فينا للملك غناء عن بقر السَّواد؟ فعلم النّعمان أنه غيرُ ناجٍ منه.

ولقيه زيد بن عَديّ فقال: أنت فعلت بي هذا، ولئن تخلَّصتُ لأسقِيَنَّك بكأس أبيك، فقال زيد: امض نُعَيْم، فقد أَخَّيتُ لك أَخِيَّة لا يَقطعُها المهرُ الأَرِنُ.

ثم أمر به كسرى فحُبس بساباطِ بالمدائن، ثم ألقاه تحت أرجل الفيلة فداسَتْه حتى مات. وقيل: إنه حبسه بخانقين فوقع طاعون هناك فمات. والأول أصحُّ.

وقد أكثرت فيه الشعراء، قال زهير بن أبي سُلمى: [من الطويل]

ألم تر للنّعمانِ كان بنَجْوةٍ ... من الشرِّ[٢] لو أن امرأً كان ناجيا
فلم أر مسلوباً له مثلُ مُلكه ... أقلَّ صديقاً باذلاً أو مُواسِيا[٣]
خلا أن حيّاً من رواحةَ حافظوا ... وكانوا أُناساً يتقون المخازيا
فقال لهم خيراً وأثنى عليهمُ ... وودَّعهم توديعَ أنْ لا تلاقيا

(١) في المصادر أن القائل لذلك هو كسرى أبرويز، انظر تاريخ اليعقوبي ١/ ٢١٥، والطبري ٢/ ٢٠٥، ومروج الذهب ٢/ ٣٠٦، والأغاني ٢/ ١٢٥، وتجارب الأمم ١/ ١٣٣.

(٢) في النسخ: ألم تريا النعمان كان بنجوة من الأرض، والمثبت من العقد الفريد ٥/ ٢٦١، ومروج الذهب ٣/ ٢٠٧، وديوانه ص ١٧١ بشرح الشنتمري، وص ٢٨٨ بشرح ثعلب.

(٣) في النسخ: مساويا، والمثبت من المصادر.

ولما قصد النعمانُ بابَ كسرى مرَّ على بني شيبان فأودعهم أهلَه وعيالَه ودروعَه وسلاحَه وزوجته المتجردة ـ وكانت دروعُه عشرة آلاف شِكَّةٍ[١] ـ فلما قُتِل أَرسل كسرى يطلبها، وكان زعيمُ القوم هانىءُ بنُ قَبيصة بن هانىء بن مسعود، فامتنع هانىء من تسليمها إليه، وقال: قد استجار بي، فكيف أَخفِر ذِمامَه؟ فكان ذلك سبباً ليوم ذي قار.

فصل في ترجمة النعمان بن المنذر

كان شجاعاً فاتكاً، وكان له يومان: يوم بُؤسٍ، ويوم نَعيم. فمن لَقيه في يوم نعيمه وصله، ومَن لقيه في يوم بُؤسه قَتله. فلقيه عَبيد بن الأبرص الشاعرُ في يوم بؤسه فقتله.

وقال الهيثم: لقي يومَ بؤسِه رجلاً فقال له: ما حملك على الخروج في هذا اليوم وقد علمتَ أنه يوم بؤسي؟ فقال: حملني العشقُ لابنة عمٍّ لي، تَواعدنا إلى مكان كذا، فخيَّرتُ نفسي بين أن أَراها وبين أن أُقتَلَ، فاخترتُ القتل. فقال: اقتلوه. فقال: أيها الملك، دَعْني أرى محبوبتي واقتُلني بعد ذلك. فقال: ومَن يَضمنُك أن تعود؟ فالتفتَ الرَّجل وجعل يُدير طَرْفَه في الناس، فاختار كاتبَ النعمان، فقال: هذا. فقال النعمان للكاتب: أَتضمنه؟ قال: نعم. قال: فإن لم يأت قتلتُك. قال: نعم. فمضى الرجل ثم عاد، فقال له النعمان: أيها الرجل، ما حملك على الرجوع وقد علمتَ أني قاتلُك؟ قال: خفتُ أن يذهب الوفاء. قال لكاتبه: ما حملك على ضمانه ولم تَعرفْه؟ قال: إنه تصفَّح الوجوه فاختارني، فخفتُ أن يَذهب الكرمُ. فقال: وأنا أخاف أن يذهب العفو، فعفا عنه ورفع يوم البؤس.

ذكر وِفادةِ النُّعمان على كسرى وتفضيله العرب على سائر الأُمم

وفَد النُّعمان على كسرى وعنده وفود الصِّين والهند والفرس والروم وغيرِهم، فذكروا[٢] ملوكَهم وبلادَهم، فافتخر النُّعمان على جميع الأمم بالعرب، ولم يَستثْنِ فارساً ولا غيرها، فغضب كسرى، وأخذته عِزَّة المُلك، وقال: يا نعمانُ، إني فكَّرت في أمر العرب ومن يَرِدُ عليَّ من الأُمم؛ فوجدت أهلَ الهند والصِّين لهم حظٌّ في اجتماع آرائها، وكثرة صنائعها، وبُعْدِ هِمَمِها وفُروسيَّتها، وطِيْبِ بلادها واتساعها،

(١) الشِّكَّةُ: ما يُلبس من السلاح. اللسان (شك).
(٢) في النسخ: فذكر، والمثبت من العقد الفريد ٢/ ٤.

وكَثْرةِ أموالها وحِكَمِها، وكذا الرُّوم في نسبها[١] وعِظَم سلطانها، وكثرةِ مدائنها، وأن لها ديناً تتبيَّنُ فيه حلالَها من حرامها، وكذا التُّرك لهم النضارةُ والحُسْنُ والشجاعةُ، وكذا جميع الأمم، لكلِّ أمةٍ مَلِكٌ يُدبِّرها ويَجمع كلمتَها. وذكر كلاماً طويلاً ثم قال: ولم أرَ للعرب شيئاً من هذه الخِصال، لا في أمر دينٍ ولا دنيا ولا عقول، مع مهانتها وذُلِّها وصِغَر نفوسها، ومخالطتها الوحوشَ النافرة والحشراتِ القبيحة، يقْتُلون أولادهم من الفاقَةِ، ويأكلُ بعضهم بعضاً من الحاجة. قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها وشهواتها ولَذَّاتها، فأفضلُ طعامِهم لحومُ الإبل التي يعافُها كثير من السباع، لِثقَلها وسُوء طَعْمها. وإنْ قَرى أحدهم ضَيفاً عَدَّها مَكْرُمة، وإن أُطعِم طُعْمةً عدَّها غنيمة، تَنطِقُ بذلك أشعارُهم، ويفتخر به رجالُهم، ما عدا هذه التنوخية التي أسَّس جدّي اجتماعَها، وشَدَّ مملكتَها، وحماها من عَدوِّها، يعني اليمن.

فقال له النعمان: أيُّها الملك حقّ لأمَّةٍ أنت منها أن تسموَ بفَضلِها، ويَعْظُمَ خَطبُها، وتَعلو درجتُهَا، إلا أن عندي جواباً عن كل ما نَطق به الملك من غير ردٍّ عليه، فإن أَمِنتُ غضبه قلتُ. قال: قل، فأنت آمن. فقال: أصلح الله الملك، إنَّ أُمتَك ليست تُنازَعُ في الفضل لموضعها في عُقولها وأحلامها، وما أكرمها الله به من وِلايتها وأحكامها.

وأما العربُ فإنها تَفْضُل الأمم التي ذكرتَ بعزِّها ومَنَعتها، وبأسها وشجاعتها، وأنسابها، وسخائها، وفصاحتها ولغتها، ودينها، وحُسنِ ألوانها، وشِدَّة عقولها، وأنفتها، ووفائها.

فأمّا عزُّها ومَنَعتها؛ فإنها لم تَزل مجاورةً لآبائك الذين دوَّخوا البلاد، ووطَّدوا الممالك، وقادوا الجيوشَ، لم يطمع فيها طامعٌ، ولم يَنَلْهم نائل. حصونُهم ظهورُ خيلهم، وجُنَّتُهم رماحُهم وسيوفُهم، وغيرُهم من الأمم عِزُّهم الطينُ والحجارةُ وجزائر البحور.

وأمّا حُسْنُ ألوانِها؛ ففضلُها ظاهرٌ على الهنود المحترقةِ، والتُّركِ المشوّهةِ والروم المقشَّرة.

وأمّا أنسابُها؛ فليست أُمّةٌ من الأُمم إلا وقد جَهلت أنسابَها، حتى لو سُئِل واحدٌ

(١) في (خ) و(ك): نسبتها.

عما وراء أبيه لم يَنْسبه، ولم يعرفه، وما في العربِ إلا مَن يُسمّي آباءه أباً أباً، وجدّاً جدّاً، يَحفظون بذلك أحسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا يدعى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها؛ فإن الرجل يكون عنده البَكْرُ أو النابُ، عليها بُلْغَتُه من العيش، فيطرقه الطارقُ، فيعقِرُها له ويَرضى أن يَخرجَ من دنياه كلِّها بحُسْنِ الأُحدوثة، وجميل الذّكر.

وأما فصاحتُها؛ فإن الله أعطاها في نَظمها ونثرها ما لم يُعْطِه غيرَها من الأمم. ثم إن خيولهم أفضلُ الخيول، ونساءهم أعفُّ النساء.

وأما دينها؛ فإن لها بيتاً محجوجاً، وشهراً حراماً، وبلداً مُحرّماً يَنسكون فيه نسائكَهم، ويَذبحون ذبائحهم، ويَلقى الرجلُ قاتلَ أبيه، أو ابنه، أو أخيه، فلا يتعرَّض له في الشهر الحرام.

وأما وفاؤُها، فإنَّ أحدَهم إذا عَقد عُقدةً لا يَحُلُّها إلا خروج نَفْسه، وإن أحدهم ليرفعُ عوداً من الأرض؛ فيكون رَهْناً بدينه وذمَّته، فلا يَغْلَق رَهْنه ولا تُخفَر ذِمَّتُه. وإن أحدهم ليَبْلُغُه أن شخصاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيُصابُ، فلا يرضى حتى يُفني تلك القبيلة التي أصابتْه، أو تَفنى قبيلتُه، لما أُخْفِر من ذِمامه وجِواره، وإنَّه ليَلجأُ إليهم المُحْدِثُ المجرمُ من غير معرفةٍ ولا قرابة، فتكون نُفوسُهم دون نَفْسِه، وأموالُهم دون أمواله.

وأما قتلُهم الإناث من أولادهم؛ فليس للفاقَة، بل أنفةً من العار، وغَيْرةً من الأزواج.

وأما أكلُهم لحومَ الإبل؛ فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له، فجعلوها طعامَهم ومَراكبَهم، مع أنها أكثرُ البهائم شُحوماً، وألذُّها لُحوماً، وأرقُّها ألباناً، وأقلُّها غائلَةً. وذكر كلاماً طويلاً، فعجب كسرى من كلامه، وقال: إنَّك لموضع الرِّئاسة في أهل مملكتك، وفيما هو أفضل. ثم كساه من كِسوته وسَرَّحه إلى الحيرة.

فكتب النعمانُ إلى رؤساءِ العرب وحكمائها، مثل: أكثَم بن صَيْفيّ، وحاجِب بن زُرارة التَّميمي، والحارث بن عُبادٍ البَكريّ، وعَمرو بن مَعدي كَرِبٍ الزُّبَيديّ،

والحارث بن ظالم، وقيس بن مسعودٍ البَكريِّ، وخالد بن جعفرٍ، وعَلْقمة بن عُلاثة العامِرِيِّ، وعَمرو بن الشَّريد السُّلَمي، فقدموا عليه، فأكرمهم وأخبرهم بما جرى له مع كسرى، وقال:

قد سمعتُ منه مقالةً أَتخوَّف أن يكون لها غَوْرٌ، [أو يكونَ إنما أظهرها لأمر]، وهو أن يَتّخذَ العرب خَوَلاً كبعض[1] طَماطِمته، كما يَفعل بملوك الأمم الذين حوله. وإنما أنا رجلٌ منكم، وما عَزَزتُ إلا بمكانكم، وبما يتخوَّفُ من ناحيتكم. وقد رأيتُ أن تَنطلقوا إليه بكتابي، وأن يَنطِقَ كلُّ واحدٍ منكم بما حضره، ليعلمَ أن العرب غير ما ظَنَّ، ولا تَنطِقوا بما يُغْضِبُه، فإنه ملكٌ عظيمُ الشَّأن، كثير الأعوان، ولا تَنخَزِلوا له انخِزالَ الخاضع الذَّليل، وليكن أمراً بين ذلك تَظهر به وَثاقَةُ حُلومِكم، ورَزانَةُ عقولكم. وليكن أوّل مَن يتكلم منكم أكثمُ بنُ صَيْفي، ثم تتابعوا على الولاء بقَدْر منازلكم التي وصفتكم[2] بها، فإنما دعاني إلى ذلك لئلا يَحرِصَ كلُّ واحدٍ منكم على التَّقدُّم قبل صاحبه، فيَجد في آدابكم مَطعناً، فإنه ملكٌ مُترَف، وقادرٌ مُسَلَّط.

ثم كساهم الحُلَل الثَّمينة، وحملهم على المَهاري والخيل العِتاق، وكتب معهم كتاباً فيه: أما بعد، أيها الملك، فإني قد أَنفَذتُ إليك وجوهَ العربِ وحكماءهم ورؤساءهم، ومَن لهم حَزمٌ وعَزْمٌ، وفصاحةٌ وصباحةٌ، وأحسابٌ وأنسابٌ. وقد كنتُ أجبتُ الملك عمّا رماهم به، وأَحببتُ أن يكونَ منهم على علمٍ ويقينٍ، فلْيَسمع الملك منهم، ويتغافل عن جَفاءٍ إن ظهر منهم، ويكرمني بإكرامهم، والسلام.

فلما وفدوا على كسرى أكرمهم، وجلس لهم مجلساً عامّاً، ولبس تاجه، وجمع علماء أهل مملكته، ونصب كراسيّ الذهب والفضَّة للوفود عن يمينه وشماله، ودعا بالأساورة والمَرازِبَة والمَوابِذة، وأجلس العربَ مجالسَهم التي وصفها النُّعمان في كتابه، وأقام التُّرجُمان ليؤدِّي إليه ما يقولون، وأذن لهم في الكلام.

فقام أكثم بن صَيْفي فقال: إن أفضل الأشياء أَعاليها، وأَعلى الرجالِ مُلوكها، وأفضلَ الملوك أعمُّها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبُها، وأفضل الخطباء أصدقُها. الصدقُ

(١) في النسخ: لبعض، والمثبت من العقد الفريد ٢/ ٩ وما بين معكوفين منه.
(٢) في العقد ٢/ ١٠: وضعتكم.

مَنجاة، والكذبُ مَهواةٌ، والشرُّ لَجاجَةٌ، والخيرُ عادةٌ. وذكر ألفاظاً، فأُعجِبَ كسرى بكلامه وقال: لو لم يكن للعرب غيرُك لكفاها.

ثم قام حاجبُ بن زُرارة التميمي فقال: وَرى زَنْدك، وعَلتْ يدُك، وهِيْبَ سُلطانُك. نحن وُفود العرب إليك، ذِمَمُنا محفوظةٌ، وأنسابُنا مضبوطةٌ، وأحسابُنا ممنوعةٌ، وعشائرُنا فينا سامعةٌ مُطيعةٌ. وذكر ألفاظاً.

ثم قام الحارث بن عُبادٍ البَكري فقال: دامَتْ لك الممالكُ باستكمال جزيل حظِّها، وعُلوِّ شأنها، وارتفاع سلطانها أو سنانها. نحن جيرانُك اللائذون، ومُجاوِروك الأعلون، خيولُنا مُجمَّة وجيوشُنا جمّة، لا ننثني لذعر، ولا نتنكّر لدهر، رماحُنا طوال، وأعمارُنا قصار.

فقال كسرى: أَنفُسٌ عزيزة، وآلة ضعيفة. فقال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل على الكتيبة يقدم على الموت، فهي حياةٌ استدبرها ومنيّةٌ استقبلها، ومتى استعَرت نارُ الحرب واشتدَّ لظاها، جعلتُ مَقادَها رُمحي، وبَرقَها سيفي، ورَعدَها زَئيري، ولم أقصِّر عن خَوْض ضَحْضاحها حتى أنغمس في غَمرات لُجَجها، فأترك حُماتَها جَزْراً للسِّباع وكلِّ نَسرٍ قَشْعَم.

فقال كسرى للقوم: أهكذا هو؟ قالوا: فعالُه أنطق من لسانه. فقال كسرى: ما رأيتُ كاليوم وفداً أحشد، ولا شُهوداً أرفد.

ثم قام عمرو بن مَعدي كَرِب فقال: إنما المرء بأصغَرَيْه: قلبه ولسانه. فاشْتَر طاعتَنا بفضلك[1]، واكظم بادِرَتَنا بحِلمك، وأَلِنْ لنا كَنفَك يَسلُس لك قيادُنا، فإنا أُناسٌ لم يكسر صفاتَنا قِراعُ مناقيرِ من أراد لها قضما، وقد مَنَعْنا حِمانا عن كل من أراد له هضماً.

ثم قام الحارث بن ظالم فقال: آفةُ المنطق الكذبُ، ومن لؤم الأخلاقِ الملقُ، ومن خَطَل الرّأي خِفَّةُ الملك المُسَلَّط، فإن أعلمناك أن مُواجهتَنا لك عن ائتلافٍ، وانقيادَنا لك عن إنصاف، ما أنت بقبول ذلك منا بخَليقٍ، ولا الاعتمادِ عليه بحَقيقٍ، ولكن الوفاءُ بالعهود، وإحكامُ العقود، والأمرُ بيننا وبينك مُعتدِلٌ، ما لم يَأتِ من قِبَلك مَيلٌ.

فقال كسرى: مَن أنت؟ قال: الحارثُ بن ظالمٍ، قال: إن في اسم أبيك دليلاً على

(١) في (ب) و(ك): بلطفك.

قِلَّة وفائك. فقال الحارثُ: الحِلم مع القُدرةِ، فلْتُشبه أفعالُك مجلسَك. فقال كسرى: هذا فتى القوم.

ثم قام قيسُ بن مسعودٍ فقال: أطاب الله لك المَراشِد، إنا لم نَقدم عليك لمُساماة، ولم نَنتسب لمُعاداة، ولا لنُسمِعَك ما يُخشن صَدرَك، ويَزرع لنا الحقدَ في قلبك، ولكن لتعلم ومَن حضرك من الوفود أنا في المَنطق غيرُ مُفحَمين، وفي البَأس غير مُقَصّرين، إن جُورينا فغيرُ مسبوقين، وإن سومينا فغيرُ مغلوبين.

فقال له كسرى: غير أنكم إذا عاهدتُم غيرُ موفين، يُعرِّض به في تركه الوفاء بضمانه السَّواد، فقال قيس: ما كنتُ في ذاك إلا كوافٍ غُدِر به.

ثم قام خالد بن جعفر فقال: أَرشدَ اللهُ المَلك إرشاداً، وزاده إسعاداً. إن لكلِّ مَنطقٍ فُرْصةً، ولكلِّ جابَةٍ[١] غُصّة، وعِيُّ المنطق أشدُّ من عيِّ السُّكوت، وعِثار القول أنكى من عِثار الوَعْث، وقد أوفَدَنا إليك ملكُنا النّعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونِعم موضعُ المعروفِ والإحسان. أنفُسنا لك بالطاعة باخعة، ورقابُنا لك بالنَّصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة. فقال كسرى: نطقْتَ بعقلٍ، وسَموتَ بفضلٍ.

ثم قام عَلقمة بن عُلاثَة فقال: نَهَجت لك سُبلُ الرَّشاد، وخضع لك العبادُ والبلاد. إن للأقاويل مناهج، وللآراء مَوالج، وخيرُ القول أصدقُه، وأفضلُ الطلب أَنجَحه. نحن وإن أَحضرَتْنا المحبَّة، فليس من حضرك منّا بأفضلَ ممن غاب عنك. فقال له كسرى: أبلغْتَ. وذكر كلاماً طويلاً.

ثم قام عمرو بنُ الشَّريد فقال: نَعِم بالُك، ودام في السُّرور حالُك، إن عاقبة الكلام مُتدَبَّرة، وأشكال النّظام مُعتَبرة، وهذا قول ما بعده شرفٌ[٢]. إن في أموالنا مرتفداً، وعلى عِزِّنا المُعتَمد[٣]، فلذلك لا نتعرّضُ لرِفدك، وتخلص نِيَّاتنا في قصدِك، ونحن مع هذا لجوارِك حافظون، ولمَن رامَك مُكافحون.

---

(١) في النسخ: جارحة، والمثبت من العقد الفريد ٢/ ١٥، والجابة هي الإجابة.

(٢) في العقد ٢/ ١٤: وهذا موطن له ما بعده، شرف فيه من شرف...

(٣) في النسخ: المنتقد.

فقال كسرى: قد فَهمتُ ما نَطق به خطباؤكم، وتَفنَّن فيه متكلِّمُوكم، وإني لأكره أن أَجْبَهَ وُفودِي، وأُحنِقَ صُدورَهم، وقد قَبلتُ ما كان في مَنطقكم من صوابٍ، وصَفحتُ عمّا كان فيه من خللٍ، فانصرفوا إلى مَلككم، والزَموا طاعتَه، وأَحسنوا مؤازَرَتَه. ثم وَصَلهم وسَرّحهم.

وأقام النعمان والياً على الحيرة ثلاثين سنةً. وكان له ابنتان: هند التي ذكرناها، وحُرَقَة بنتُ النعمان، وهي التي دخلت على سعد بن أبي وقاص ﷺ في فتوح القادسيَّة.

فصل

ولما قَتل أبرويز النعمانَ بن المنذر ولَّى على الحيرة إياس بنَ قَبيصة الطائيّ، فأقام تسع سنين، ومات بعَين التَّمر، وفيه يقول زيد الخيل: [من الطويل]

فإن يكُ ربُّ العينِ خَلَّى مكانَه فكلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائلُ[1]

ثم قُتل أبرويز وولي شيرويه، وجاء الإسلامُ.

فهؤلاء المشهورون من ملوك الحيرة، ومدّةُ أيّامهم أربع مئة سنةٍ، وقيل: ست مئةٍ، وقيل: ملك منهم ثلاثون مَلِكاً.

فصل

وحكى المَدائنيُّ أن الرابعَ من ملوك الحيرة الحارثُ بنُ عمرو، جدُّ امرىء القَيس ابن حُجْرِ بن الحارث الكنديِّ، ولّاه قباذ. ومَلَّك الحارثُ ابنَه حُجْراً على بني أَسدٍ، وكان يأخُذُ منهم شيئاً معلوماً، فعَصَوه، فسار إليهم، فقتل سَرَواتهم بالعصا، فسُمُّوا عَبيدَ العصا، وأسر منهم جماعةً، منهم عَبيد بنُ الأبرص الشاعر، ثم عفا عنهم ورَدَّهم إلى بلادهم.

وعَمرو بنُ الحارث هذا يقال له: ابن حُجْر آكلِ المُرار بن عَمرو بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مُرَتِّعٍ[2] بن معاوية بن كندة بن ثور. وإنما سُمِّي

---

(١) ديوانه ص٨٢، والمعارف ص ٦٥٠.

(٢) في (خ) و(ك): ربيع، والمثبت من (ب)، هذا والاختلاف في سياق النسب كبير، انظر طبقات فحول =

حُجْرٌ آكلَ المُرار؛ لأن السَّليحيَّ أغار عليه، فأخذ امرأتَه هند بنت ظالم بن وهبٍ بن معاوية الأكرمين فقال لها: كيف رأيتِ حُجْراً؟ فقالت: شديد الطّلب، حثيث الكَلَب، كأنه بعيرٌ أكل مُراراً، وهو نَبْتٌ حارّ[١] تتقلَّص منه شَفَة البعير.

فأقام على الحيرة مدَّة، فلما مات قباذ وولي أنوشِروان؛ وَلّى على الحيرة المُنذر بن ماء السَّماء، فهرب منه الحارث، واتَّبعتْه خيلُ المنذر ففاتَهم، فأدركوا ابنَيْه عَمْراً وحُجْراً فقتلوهما[٢].

فصل في ترجمة امرىء القيس بن حُجْر

وكان حُجْر قد طَرد ابنَه امرأ القيس لأجل عُنَيْزة، واسمُها: فاطمة، فإنه عشقها، وشَبّب بها في أشعاره، وعَرّض بالدَّخول وحَوْمل وتُوضِحَ والمِقْراة، وكل هذه أماكن بحوران وما والاها، وقيل بالعراق.

وقال الشعر، وبلغ أباه، فقال لعبدٍ له: اذهب فاقتُلْه، وائتِني بعينَيه، فذبح العبدُ شاةً، وجاءهُ بعينَيْها، فندم وبكى، فرقَّ له العبدُ وأخبره أنه لم يَقتُله، ففرح أبوه، وأعتقَ العبدَ وقال: عليَّ به، فجاء به، فاستَتابَه من قول الشعر، فقال: [من الطويل]

ألا انْعَمْ صباحاً أيُّها الطَّللُ البالي[٣]

فطرده، فغاب عنه مدةً، فلما قَتل المنذرُ أباه حُجْراً قال: ضَيَّعني صغيراً وحَمَّلني دمَه كبيراً. ثم آلى ألّا يأكلَ لحماً، ولا يشربَ خمْراً حتى يأخُذَ بثأر أبيه.

فخرج إلى قيصر ملك الروم مستصرخاً به على المنذر، فأكرمه وأنزله، فعشقَتْه ابنةُ قيصر، فكان يأتيها. وكان الطِّرمّاح بن قيس الأسدي الشاعر[٤] عند قيصر، فوشى به

= الشعراء ١/ ٥١، والشعر والشعراء ١/ ١١٤، والمؤتلف والمختلف ص ٥، والأغاني ٩/ ٧٧، وجمهرة ابن حزم ٤٢٧، وتاريخ دمشق ٣/ ٩١.

(١) في النسخ: وهو بيت حمار، وهو خطأ، والمثبت من تاريخ دمشق.

(٢) المنتظم ٢/ ١٣٨.

(٣) تمامه: وهل يَعِمَن مَنْ كان في العُصُر الخالي، وهو في ديوانه ص ٢٧.

(٤) كذا في النسخ وأصل المنتظم ٢/ ١٣٩ والمصنف ينقل عنه، وهو خطأ صوابه: الطمّاح بن قيس الأسدي، وليس بالشاعر، انظر الشعر والشعراء ١/ ١٠٩، ١٢٠، والأغاني ٩/ ٩٩، والكامل لابن الأثير ١/ ٥١٨، وديوان امرئ القيس ص ١٠٨.

إليه، فطلبه، فأدركه الطلب عند أَنقِرة، أو دونها بيوم، وكان مع الرسول حُلَّةٌ مسمومة فألبسه إياها في يومٍ صائفٍ، فتناثر لحمُه، ومات فدُفن بأَنقِرة.

وكان إذا عَرِق فاحتْ منه ريحُ الكلب، فكنّ النساء يَكرهنَه لذلك، وكانت أمُّه قد ماتت وهو رضيع، فطلبوا له من يُرضعُه فلم يجدوا، فأرضعوه بلَبنِ كَلْبة أيّاماً.

وتزوج امرأةً، فطالت ليلتُها معه فقال لها: ما كرهتِ مني؟ فقالت: أنت سريعُ الإراقة، بطيء الإفاقة، ريحك ريحُ كلبٍ فطَلِّقني، فطلقها[(١)].

وكان امرؤ القيسِ يُلقَّب بالملك الضِّلّيل وذي القروح، وأمه: تَملك، وقيل: اسمها هند بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الأكرمين[(٢)]. وامرؤ القيس أوَّلُ من اخترع المعاني اللطيفة مع قُرب المَأخذ.

ورُوي أنه قدم وَفدٌ على النبيّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا ضَلَلنا الماء فعَطِشنا، وإذا براكبٍ على قَلوصٍ، وهو يَترنَّم ويقول: [من الطويل]

ولـمّـا رأتْ حَـرَّ الـهَـجـيـر بـكَـفِّـهـا وبَرْدَ الحَصى من تحت أرجُلِها حامي

تـيـمَّـمَـتِ الـعَـيْـنَ الـتـي عـنـد ضـارجٍ يَـفـيءُ عـلـيـهـا الـظِّـلُّ عَـرْمَـضُـهـا طـامي

ثم قال الراكب: أتدرون مَن قائلُ هذا الشّعر؟ قلنا: لا. قال: امرؤ القيس، وهذه ضارجٌ ترونها، فسرنا خطواتٍ، وإذا بعين ماءٍ عذبٍ عليها العَرْمَض[(٣)] فشربنا، ولولاه لمتنا عطَشاً، فأحيانا الله ببيتين من الشعر، وكان كلٌّ واحدٍ منّا قد جلس تحت شجرةٍ يَنتظر الموت، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك رجل مشهورٌ في الدنيا، خامِلُ الذّكر في الآخرة، يجيءُ يومَ القيامة ومعه لواءُ الشعراء، يقودُهم إلى النّار».

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: لا يصح هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، في إسناده أبو الجَهْم عن الزهري، وأبو الجهم مجهولٌ[(٤)].

---

(١) المنتظم ٢/ ١٣٩ـ١٤٠، وانظر الشعر والشعراء ١/ ١٢١.

(٢) انظر الأغاني ٩/ ٧٧ـ٧٨، والمنتظم ٢/ ١٣٨، وذكر ابن قتيبة في الشعراء ١/ ١١٤ـ١١٥ أن أمّه هي فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير.

(٣) هو الطُّحلب.

(٤) انظر الشعر والشعراء ١/ ١١١ـ١١٢، ١٢٦، والمنتظم ٢/ ١٤٠، ومسند أحمد (٧١٢٧)، والجرح والتعديل ٩/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥، والعلل المتناهية ١/ ١٣٨.

قال المصنف رحمه الله: قد روى ابن عساكر هذا الحديث، وذكر له ثلاثين طريقاً، ولم يبين ما فيه، وما كان يخفى عنه ذلك(١).

ولما خرج امرؤ القيسِ إلى قيصر أخرج معه عمرو بنَ قَمِيْئَةَ الشاعر، ويُعرَف بالضَّائع، وهو أقدمُ من امرىء القيس وأكبرُ سِنّاً منه، بلغ تسعين سنةً، ومات في طريقه إلى الروم. وإنما سمَّتْه العربُ: الضّائع؛ لموته ببلاد الروم في دار غُربةٍ من غير مَطلبٍ ولا أَربٍ. وهو الذي رثاه امرؤ القيس بقوله: [من الطويل]

بكى صاحِبي لمَّا رأى الدَّربَ دونَه ... وأيقنَ أنَّا لاحِقانِ بقَيصَرا
فقلتُ له لا تَبْكِ عينُك إنّما ... نُحاوِلُ مُلْكاً أو نموتَ فنُعذَرا(٢)

قال ابن ماكُولا: أوَّلُ مَنْ عَمِل في الخيالِ شعراً عمرو بنُ قَميئة، وهو قوله: [من الطويل]

كأنّي وقد جاوزْتُ تسعين حِجَّةً ... خَلعتُ بها عنِّي عِذارَ لِجامي
رَمتْني بناتُ الدَّهر من حيث لا أرى ... فما بالُ مَن يُرمى بغير سهامِ
وأهلَكني تَأميلُ يومٍ وليلةٍ ... وتأميلُ عامٍ بعد ذاك وعامِ(٣)

فصل في ملوك الرّدافة

وإردافُ الملوك في الجاهلية: هو أن يجلس الملك، ويجلس الرِّدفُ عن يمينه، فإذا شرب الملك شرب الرِّدفُ قبل الناس، وإذا غزا الملك جلس الرِّدفُ مكانَه، وكان خليفتَه على الناس حتى ينصرف، فإذا عادت(٤) كتيبةُ الملك، أخذ الرِّدفُ منها المِرْباع(٥).

---

(١) تاريخ دمشق ٣/ ٩٢ـ٩٩ (مخطوط).

(٢) ديوانه ص ٦٥ـ٦٦.

(٣) ديوانه ص ٤٤ـ٤٧، والإكمال لابن ماكولا ٥/ ٢٣٦، وتاريخ دمشق ١٣/ ٥٩١ـ٥٩٢، ولم يذكر ابن ماكولا وابن عساكر الأبيات التي عملها عمرو في الخيال، فذكر المصنف أبياتاً لا تدلّ على الخيال، والأبيات كما ذكر الشريف المرتضى في طيف الخيال ص ٩٩ هي:

نأتْكَ أمامةُ إلا سُؤالا ... وإلا خيالاً يُوافي خيالاً
تُوافي مع الليل مُستَوطِناً ... وتأبى مع الصبح إلا زِيالا
خيالٌ يُخَيِّلُ لي نَيْلَها ... ولو قَدَرَتْ لم تُخَيِّل نَوالاً

(٤) كذا في (ب) و(خ) وصحاح الجوهري (ردف)، وفي المعارف ص ٦٥١، ونقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة ص ٢٩٩: غارت.

(٥) هو ربع الغنائم.

وكانت الرِّدافةُ في الجاهلية لبني يَربوع؛ لأنه لم يكن في العرب أكثرُ غارةً منهم على ملوك الحيرة، فصالحوهم على أن يجعلوا لهم الرِّدافةَ، ويَكفُّوا عن أهل العراق الغارة. قال جرير وهو من بني يربوع: [من الطويل]

رَبَعْنا وأَرْدَفنا الملوكَ فظَلَّلوا وِطابَ الأَحاليبِ الثُّمامَ المُنَزَّعا[1]

وأوّل من رَدف من بني يربوع عتَّاب بن رياح، ثم ابنه عوف بن عَتَّاب، ثم ابنه يزيد ابن عوف، وذلك على عهد المنذر بن ماء السماء، وأول الرِّدافة أن المنذر بعث جيشاً إلى بني يربوع وعليه قابوس وحسان ابنا المنذر، فالتقوا بمكانٍ يقال له: طِخْفة، فاقتتلوا، فانهزم جيش المنذر، وأسروا ابنَيْه، ففداهما بألفي بعيرٍ، وأَقرَّ الرِّدافة فيهم، وفي هذا اليوم يقول جرير: [من الطويل]

ويومَ أتى قابوسُ لم نُعطِه المنى ولكنْ صَدَعْنا البَيْض حتى تَهزَّما[2]

ولما انقضى مُلك الحيرة، وجاء الإسلام، ذهبت الرِّدافة.

فصل في ذكر ملوك اليمن

وأصلُ اليمن قَحطان بن الهَمَيْسَع بن نَبْت بن إسماعيل عليه السلام.

وقيل: قحطان هو يَقطن بن عابر بن شالخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام، وإنما عُرِّب يَقطِن فقالوا: قحطان.

وكان لقحطان ثلاثون ولداً ذكوراً، وأمُّ الجميع حيّ بنت روق بن فزارة بن سام بن نوح عليه السلام، منهم كَهْلان وحِمْير، وكانوا يسكنون التَّهائم والأنجاد، وبلاد حَضْرموت، والشِّحْر، والأحقاف، وعُمان وما والاها.

فوُلد لقَحطان يَعْرُب، ووُلد ليَعْرُب يَشْجُب، ووُلد ليَشْجُب ولدان، [أحدهما] عَبْد شَمسٍ، وهو سبأ، وسبأ لقبٌ له لأنه أوّل من سَبى السَّبايا من ولد قَحطان[3].

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٨٣٦، والمعارف، وصحاح الجوهري، والوِطاب جمع وَطْب، وهو وعاء اللبن، والأحاليب ما زاد على السقاء من اللبن إذا جاء به الراعي حين يورد إبله، والثمام: نبت يُنتزع من أصله، وتُبرَّدُ به أوطاب اللبن.

(٢) «المعارف» ٦٥١، و«نقائض جرير والفرزدق» ص ٦٦ وفيه: أبي قابوس، وكلاهما صحيح.

(٣) مروج الذهب ٣/ ١٤٤ وما بين معكوفين منه.

والعَقِب من ولد قَحطان لحِميَر وكَهْلان، ويقال: إنهما من ولد سبأ.

وكان لسبأ أولاد أُخَر منهم: عمرو، والأشعَر، وأَنمار، وعامِلَة، ومُرّ، وكلُّهم بنو سبأ.

والأنصار من وَلد كَهلان.

ويَعرب أوّل من دَخل اليمن وأقام بها، وحُيِّيَ بتحيَّة الملك، وقيل له: أَبيتَ اللَّعنَ، وأَنعِم صباحاً.

وقد أنكر قومٌ أن يكون قَحطان من ولد إسماعيل عليه السلام.

واسم حِمْيَر: العَرَنْجَج[١].

فصل

وأوّلُ ملوكهم سَبأ بن يَشْجُب، أقام مَلِكاً أربع مئة سنة وثمانين سنة حتى مات هرماً، وعامَّةُ ملوك اليمن من ولده.

وكان لسبأ أولادٌ، منهم: حِمْيَر وكَهلان، وهما أَعيان ولده.

فصل

ومَلَك بعد سبأ حمير، وكان شجاعاً جميلاً، وهو أول من وضع التاج على رأسه من ملوك اليمن، وعاش مثل أبيه حتى مات هرماً، وقيل: إنه أقام خمسين سنة مالكاً.

وكان لحِمَير أولادٌ، منهم: عامر بن حِميَر فولَدَ دُهْمان، وولد دُهْمان يَحْصُب كلّها.

وأمّا سعد بن حِمْيَر فولَدَ السّلف وأَسْلَم.

وأما عَمرو بن حِميَر فولد عَديّ بن عمرو، وولد عَديّ لَخْم بن عَديّ، ومن لَخْم بنو الدَّار، ومنهم تَميم الدَّاريّ. وقيل: إن عمرو بن حمير ولد الحارث، وولد الحارث آل ذي رُعَين[٢].

وأما مالك بن حِمْيَر فولد قُضاعة كلّها، ومن قبائلها: كَلْب بن وَبْرة[٣]، ومن

(١) المعارف ٢٧، ١٠١، ١٠٩، والاشتقاق ٣٦٢، والصحاح (عرج ١/ ٣٢٩).

(٢) المعارف ص ١٠٣.

(٣) في النسخ: كلب ووبرة، وهو خطأ.

بُطونهم: بنو عَديّ بن جَناب، وبنو عُلَيم بن جَناب، وبنو العُبَيد، ورُفَيدة، ومَصاد، وبنو القَيْن، وسَلِيح، وتَنوخ، وجَرم بن رَبَّان، وراسِب بن جَرْم، وبَلِيّ[1]، ومَهْرَة، وعُذْرَة، وسَعْدُ بن هُذَيْم.

ومن قضاعة: ذو الكَلاع، وذو نُواس، وذو أصْبَح ـ وإليه تُنسب السِّياط الأَصْبَحِيّة ـ وذو جَدَن، وذو يَزَن، وذو فائش، وجُرَش، والسَّحول، وبطون كثيرة.

وأما وَائِلة بن حِميَر؛ فولد السَّكَاسِك بن وائِلة، والعَدد من حِمير في السَّكاسِك.

وأما الأَشْعر بن حِميَر، فمن ولده رَهْطُ أبي موسى الأَشعري[2].

وقد اختلفوا في أسامي، منها: أَنمار وعامِلَة، فقال قوم: هم من ولد حِميَر بن سَبأ، وقال آخرون: بل هم ولد سَبأ لصُلْبه.

فأما أَنمار فولد خَثْعَم وبَجِيْلَة ـ اسم امرأة ـ ومن بطونها قَسْر؛ رَهْط خالد بن عبد الله القَسْرِيّ.

وأما عامِلَة فولد قبائل كثيرة، ونُسَّاب اليمن يَزعمون أنّهم من وَلَد قاسِط بن وائل، وفيهم يقول الأعشى: [من المتقارب]

أعامِلَ حتّى متى تَذْهَبين ... إلى غيرِ والدِك الأَكرمِ
ووالِدُكُم قاسِطٌ فارجِعوا ... إلى النَّسَبِ الأَتْلَدِ الأعظمِ[3]

ومات حمير.

فصل

فملك بعده أخوه كَهلان بن سَبأ، فأقام مالكاً ثلاث مئة سنة، وجرت في أيامه حروبٌ وخطوب، وتفرَّقت القبائل، ومضت القُرونُ على ولد حِميَر وكهلان وهم على ذلك، حتى ملك الحارثُ، ويُسمّى: الرَّائش.

وولد كَهْلان بن سبأ: زيد بن كهلان، وولد زيدٌ مالكَ بنَ زيد، وأُدَد بنَ زيد، وولد

(١) في النسخ: نصر وبلي، والمثبت من المعارف ١٠٤.
(٢) كذا قال، وفي المعارف ١٠٢ أنه الأشعر بن سبأ.
(٣) المعارف ١٠٣، والصحاح (عمل)، وليسا في ديوانه.

أُدَد طيىء بن أُدَد، والغَوْث بن أُدَد، فمن طيىء بنو نبهان بن عمرو، وبنو ثُعَل بن عمرو، وحاتم الطائيّ منهم، وكذا بنو سِنبس.

واختلفوا في أوّل ملوك اليمن بعد كَهْلان، وبعد تفرُّق القبائلِ ومضيّ القرون على قولين: أحدهما: أبو مالك بن كليكرب من ولد سبأ[١]، وكان عادلاً منصفاً، أقام ثلاث مئة سنة ملكاً.

والثاني: الحارث الرَّائش من ولد كَهلان بن سبأ، وبينه وبينه خمسة عشر جَدّاً.

والرائش أوّلُ من غَزا منهم بلادَ حضرموت، فغَنم غنائم كثيرة، وعاد بها إلى اليمن، فأعطى أهل اليمن فسُمّي: الرّائش، وفي أيّامه كان لُقمان بن عاد صاحب النسور.

وكان الحارث من أشجع ملوك اليمن، غزا المشرق، والهند، وخُراسان، وأَذربيجان، وكان يَذكر نبيَّنا ﷺ ويقول: إنه يأتي في آخر الزَّمان. ومن قوله: [من الوافر]

ويَملك بعدنا رجلٌ عظيمٌ ... نَبيٌّ لا يُرَخِّص في الحرام
يُسمَّى أحمداً يا ليت أنّي ... أُعَمَّر بعد مَخرجِه بعامِ[٢]

وأقام مالكاً مئةً وعشرين سنة.

فصل

ثم ملك بعده، ولده أَبرَهة بن الرَّائش، وهو ذو المنار، لأنه أول من عمل المنار على طريقه في مغازيه ليهتدي بها إذا رجع، وغزا غزوات كثيرة، وملك مئة ونيفاً وثلاثين سنة[٣].

فصل

ثم ملك بعده ولده أفريقيش بن أبرهة، فغزا بلادَ المغرب ووصل طَنْجَة. ويقال: إنه

(١) في مروج الذهب ٣/ ١٥٠: أبو مالك بن عسكر بن سبأ.

(٢) المعارف ص ٦٢٧، والبدء والتاريخ ٣/ ١٧٥.

(٣) في المعارف ص ٦٢٧، وتاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٦، ومروج الذهب ٣/ ١٥١ أنه ملك مئة وثمانين سنة أو مئة وثلاثاً وثمانين سنة.

الذي بنى إفريقية، ونقل البَربَر من الشام ومصر والسَّواحل إلى مساكنهم اليوم ـ والبربر بقيّةُ العمالقة، ومَن أفسد بالشام، وقتلهم يُوشَع بن نون عليه السلام. وملك مئةً وأربعاً وستين سنة.

فصل

ثم ملك أخوه العَبدُ بن أبرهة، ويقال له: ذو الأذْعار، لأنه غزا بلاد النَّسْناس، وعاد إلى اليمن ومعه من النَّسْناس شيء كثير، وجوههم في صدورهم، فذُعِر الناسُ منهم، وكان غَزوُه في زمن أبيه، وفُلِج فبطل شِقُّه الأيمن. وملك خمساً وعشرين سنة.

فصل

ثم ملك بعده الهَدْهاد بن شَراحيل بن عمرو بن الحارث الرَّائش والدُ بلقيس، مَلك سنةً، وقيل: عشرين، وأوصى إلى ابنته بلقيس بعده.

وقال ابن قتيبة: لقبه الهَدْهاد، واسمُه: ذو شرح بن صَيْفي بن سبأ[1]. وليس كما ذكر، بينه وبين سبأ زمانٌ طويل.

فصل

وملكت بلقيس، وقد ذكرناها في قصة سليمان عليه السلام.

فصل

ثم ملك بعد بلقيس ياسرُ بن عمرو بن يعفر، وقيل: ابن يَنْعُم بن يعفر بن عمرو بن شرحبيل بن الحارث الرائش، ويعرف بناشر النّعم؛ لأنه أَنعم على الناس ويَسَّر أمورَهم.

وغزا المغرب، فبلغ إلى وادي النّمل، ولم يبلغه بعد سليمان عليه السلام غيرُه؛ فنزل هناك ولم يقدر أن يتجاوزَه، ووجد هناك نملاً مثل البَخاتي[2]، تَصرع النملةُ الفارس، فأمر أن يُعمَل صنمٌ من نُحاس، وكتب في صدره: ياسر الحِمْيري، ليس وراء هذا الصنم مسلكٌ، فلا يَسلكنَّ أحدٌ فيَعطَب، وعاد.

---

(١) لم أجد كلام ابن قتيبة.
(٢) هي الإبل الخُراسانية.

وهو الذي ردَّ الملك بعد موت سليمان عليه السلام إلى اليمن، وكان ملك ياسر خمساً وثلاثين سنة، وقيل: خمساً وثمانين سنةً.

فصل

ثم ملك بعده شَمِر بن أفريقيش بن أبرهة بن الرائش، وكان به ارتِعاشٌ، فقيل له: شَمِر يَرْعِش.

وغزا المشرق في جيش عظيم، وأوغل في بلاد الهند والصين، وفتح المدائن والحصون، وأحرق مدينة الصُّغْد، وهي سَمَرقَنْد، فقيل: شَمِركَند، أي: أخربها، فعرَّبَتْها العرب فقالت: سَمَرْقَنْد، ثم عاد إلى اليمن. وكان ملكه مئة وسبعاً وثلاثين سنة، وقيل: ثلاثاً وخمسين سنة.

فصل

فملك الأَقرن بن شَمِر يرعِش، فغزا بلادَ الروم، وأوغل فيها، حتى قَرُب من وادي الياقوت، فمات قبل دخوله فدفن هناك. وكان ملكه مئة وثلاثاً وستين سنة، وقيل: ثلاثاً وخمسين سنة.

فصل في التَّبابِعة

وتُبَّع: لقبٌ لملوك اليمن، ككِسرى للفرس، وقَيصر للروم ونحوه.

واختلفوا في أوّل التَّبابِعة بعد اتِّفاقهم على أنهم ثلاثةٌ، فقال قوم: الأول: الأَقرن ابن شَمِر يرعش الذي ذكرناه آنفاً، وقيل: ولده تُبَّع بن الأَقرن ويُسمّى: تُبَّعاً الأكبر، والثالث: أسعد بن كلكرب، وقيل: حسّان بن تبان.

واختلفوا في تُبَّع صاحب هذه الترجمة، فقال قوم: اسمُه الأَقْرن بن شَمِر يرعش. وقال آخرون: مَلِكي كَرِب بن تُبَّع. وقال ابن الكلبي: اسمُه زيد بن عمرو بن تُبَّع بن أَبرهة ذي المنار، وهو الذي غزا في زمان بشتاسب[١].

---

(١) في المحبر ٣٦٧، وصبح الأعشى ٥/ ٢٣ أنه أسعد أبو كرب بن قيس بن زيد بن عمرو ذي الأذعار تبع الآخر ابن أبرهة ذي المنار.

والظاهر أن تُبَّعاً الأول هو ابنُ الأَقْرن بن شَمِر يرعش، وهو أول من اشتهر بلقب تُبّع، وهو القائل[1]: [من الكامل]

مَنع البقاءَ تقلُّبُ الشمسِ ... وطُلوعُها من حيث لا تُمسي
وطلوعُها بيضاءَ صافيةً ... وغروبُها صفراءَ كالوَرْسِ
تجري على كَبِد السَّماءِ كما ... يجري حِمامُ الموت بالنَّفسِ
اليومَ نعلم ما يجيءُ به ... ومَضى بفَصْل قضائِه أمسِ

وكان تُبَّع عظيماً، بلغه أن التركَ قاصِدتُه، فسار إليهم على جبلي طيىء، ثم سلك على الأنبار، وهذا الطريقُ الذي سلكه الرائش، فلَقيهم في حدِّ أَذْرَبيجان فقَتل وسبى، وأَوغل في الهند والصِّين، ووصل إلى التُّبَّت، وخلَّف جيشاً عظيماً هناك رابطه، فأَعقابُهم هناك إلى اليوم. ولما عاد إلى العراق خَلّف بالحيرة قوماً من الأزد وقُضاعة ولَخْم وجُذَام وعامِلَة فبنَوها، وهابته الملوك وهادوه، ثم عاد إلى اليمن.

وسأل ابنُ عباس رضي الله عنهما ابنَ مسعود رضي الله عنه[2] قال: سمعت الله تعالى يَذكر تُبّعاً فلم يذمّه، وذمَّ قومَه؟ فقال: نعم. إن تُبَّعاً غزا بيتَ المقدس، فسبى أولادَ الأَحبار، وقَدِم بفتيةٍ منهم على قومه، فجعل يُدْنيهم، ويَسمعُ منهم، ويُخبرونه عن الله تعالى، فتحدَّثَ قومُه، وقالوا: إنا نخافُ أن يَفتنوه عن دِينه، وكان يعبد الأوثان، وبلغ تُبّعاً ما قالوا، فأخبر الفِتية فقالوا: بيننا وبينهم النَّصَف. قال: وما هو؟ قالوا: نارٌ تحرق الكاذبَ وينجو منها الصادقُ.

فجمع قومَه وقال: اسمعوا ما يقول هؤلاء، وقال لهم: تكلّموا، فقالوا: لنا خالقٌ نعودُ إليه، وبين أيدينا جنَّةٌ ونار، فإن أبيتم علينا، فبيننا وبينكم النَّصفُ. فقالوا: قد رضينا. فأضرموا ناراً، وقام الفتيةُ فذكرُوا اسم الله، واقتحموها، وخرجوا منها سالمين، ودخل من أولئك جماعةٌ فاحترقوا، فأسلم تُبَّع، وكان رجلاً صالحاً فذكره الله تعالى ولم يذمَّه وذمَّ قومَه.

---

(١) المعارف ص ٦٣٠، والبدء والتاريخ ٣/ ١٧٧، والروض الأنف ١/ ٢٦، وتاريخ دمشق ٣/ ٥١٠.

(٢) في تاريخ دمشق ٣/ ٥٠٢ سؤال ابن عباس لعبد الله بن سلام، وانظر تفسير ابن كثير للآية (٣٦) من سورة الدخان.

وسُمِّي تُبَّعاً لكثرة أتباعه، وكسا البيتَ، وكان يعبد النارَ فأسلم، وأقام ملكاً ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل: ثمانين سنة. وهو تُبَّع الأوسط.

فصل

ثم ملك بعده تُبَّع الآخر، وهو أسعد بن كَليكَرِب، وقيل: حسان بن تبان، وقيل: هو ابن تُبَّع الأوسط وكُنيتُه أبو كرب.

وقال ابن سيرين: هو أوّلُ من كسا البيت، وملك الدنيا والأقاليمَ بأسرها.

وحكى ابن عساكر: أنه كان إذا عرض الخيلَ قاموا صفاً من دمشقَ إلى صَنعاء[1]. وهذا بعيد.

وكان يغزو على النُّجوم، ويستضيء بها. وطالت مدته، وثَقُلَ على حِمْير من كَثرة ما كان يغزو بها.

ولما رجع من غزو المشرق، جعل طريقه على المدينة، وكان لمَّا مَرّ بها لم يَهِجْ أهلَها، وخلّف فيها ابناً له فقتلوه غِيلةً، وبلغه؛ فرجع إليها، وهو مُجمعٌ على خرابها، واستئصالِ أهلها، وقطع نخيلها. فجمع له هذا الحيُّ من الأنصار، ورئيسُهم يومئذ عمرو بنُ طَلَّة أخو بني النجار، وجاء تُبَّع فنزل على المدينة، ولم يتعرَّض لها، فجاء رجلٌ من أصحابه فصَعِد نخلةً لرجل من الأنصار، يُقال له: أحمر، فضربه الأنصاري بمِنْجَل فقتله، وألقاه في بئر. وبلغ تُبَّعاً فازداد حَنَقاً عليهم فقاتلهم، فكانوا يقاتلونه نهاراً، ويَقرونه في الليل العسلَ والتَّمرَ والبُرّ، فقال: ما رأيتُ أكرمَ من هؤلاء.

فبينا هو على ذلك إذ جاءه حَبْران من اليهود من بني قُرَيظة عالمان، فقالا: أيّها الملك، لا تقاتلْ هذا البلد، فإنا نجد في كُتبنا أن هذا المكان مُهاجَرُ نبيٍّ يَخرج من هذا الحيِّ من قريش في آخر الزمان اسمُه محمد، فتكون المدينةُ دارَه وقرارَه، وإنا نَخافُ عليك العقوبة، فكفَّ عن القتال. ثم دعواه إلى دينهما فأجابهما وكان وقومه يعبدون الأوثان.

وقال هشام: كانت الأنصار من أعزِّ العرب وأشرفها، وهم الأوس والخزرج ابنا

(١) تاريخ دمشق ٣/ ٥٠٠.

قَيْلة، لم يُؤدُّوا خراجاً ولا إتاوةً قطُّ إلى أحد من الملوك في الجاهلية، فكتب إليهم تُبّع أبو كرب يدعوهم إلى طاعته، ويُحذِّرُهم مخالفتَه. فكتبوا إليه: [من الكامل]

العبدُ تُبَّع كم يَرومُ قِتالَنا ومكانُه بالمَنْزِلِ المُتَذلِّل
إنا أُناسٌ لا ينامُ بأرضنا عَضّ الرسول ببَظْر أمِّ المرسلِ[1]

فسار إليهم، فقاتَلهم، فلم ينل منهم طائلاً.

قال ابن الكلبي: وله شعر يذكر فيه خروجَ النبيِّ ﷺ، وأوَّلُه: [من الكامل]

ما بالُ نومك مثل نومِ الأَرْمَدِ أَرِقاً لجَنْبِك بالعَراء مسهَّدِ
ولقد هبطنا يثرباً وصدورُنا تغلي مَراجِلُها بقَتْلٍ مُحصِدِ
حَنَقاً على ولدي وصاحبِ أُسرتي أضحى قتيلاً عند باب المِرْبدِ
ولقد حلفتُ يمينَ صدقٍ مُؤلياً قَسماً لَعَمري ليس بالمُتَرَدِّد
إن جئتُ يثربَ لا أغادرُ وَسْطَها عِذْقاً ولا نخلاً يكون لمُعتَدي
حتى أتاني من قُريظةَ عالِمٌ حَبْرٌ لَعَمرُك في اليهود مُسَدَّد
قال انْزَجِر عن قريةٍ محفوظةٍ لرسولِ ربِّ العالَمين مُؤيَّدِ
فعفوتُ عنهم غيرَ مُكتَرِثٍ بهم وتركْتُهم لعقاب يوم سَرْمَدِ

فرحل ومعه الحَبْران، فقصد مكة، فلما نزل عُسْفان، جاءه نفرٌ من هُذَيلٍ، فقالوا له: ألا ندلُّك على بيت مالٍ أَغفلَه الملوكُ، فيه من الجواهر واليواقيت والذهب والفضّة ما ليس في غيره؟ قال: وأين هو؟ قالوا: بمكة، يعبدُه أهلُها، ويُصلُّون إليه. وإنما قَصدوا أن يتعرَّضَ له فيهلك.

فأخبر الحَبْرين فقالا: إنما قصد الهُذَليُّون هلاكَك وهلاكَ جُندك. قال: فما تأمراني؟ قالا: تذهبُ إليه، وتعظِّمُه، وتحلقُ رأسَك عنده، وتذبحُ له؛ فإنه بَنِيَّةُ أبينا إبراهيم. قال: فما يمنعكما منه؟ قالا: أهلُه حالوا بيننا وبينه بالأصنام التي حوله.

فعلم صحَّة قولهما، فعَمد إلى الهُذليِّين، فقطَّع أيديهم وأرجلَهم، فقالا: سِرْ إليه، وافعل كما يفعل أهلُه.

(١) العقد الفريد ٢/ ١٩٣.

فسار إليه، وعظَّمه، وذبَح له، وفعل ما أمراه، ورأى في المنام وهو بمكة قائلاً يقول: اكْسُ هذا البيت، فكساه بالمُلاء والوصائل.

قال ابن إسحاق: وهو أول مَن كساه، وجعل عليه باباً ومفتاحاً، ونهى الحُيَّض عن دخوله، ثم سار إلى اليمن[1].

وذكر ابن سَعد أن تُبَّعاً نزل بقناةٍ بسفح أُحُد، وقال: إني مُخربٌ هذا البلد، ولا أبقي فيه يهودياً، حتى يرجعَ الأمرُ إلى العرب، فخرج إليه سامول اليهودي ـ وهو أعلمُ اليهود يومئذ ـ فقال له: أيها المَلك، إن هذا البلد مُهاجَرُ نبيٍّ من ولد إسماعيل، اسمه أحمد، يولَد بمكة، وهذا البلد قَبرُه، ويكون له في هذا المنزل وَقْعَةٌ مع أهله فرجع، وقال: ما لي إلى هذا البلد سبيل[2]، وأنشد: [من الكامل]

ولقد تركْتُ[3] بها ضُحى من قومنا ... نَفراً أُولي حَسَبٍ بغير تَفَنُّدِ
نَفراً يكون النصرُ في أعقابهم ... أرجو بذاك رِضى النبيِّ محمَّدِ
ما كنتُ أحسب أن بيتاً طاهراً ... لله في بَطْحاءِ مكةَ يُعْبَدُ
حتى أتاني من هُذَيلٍ أعبُدٌ ... بالبَرِّ من عُسْفانها بتَودُّدِ
قالوا بمكةَ بيتُ مالٍ داثِرٍ ... وكنوزُه من لؤلؤٍ وزَبَرْجَدِ
فأمرتُ أمراً حالَ ربِّي دونَه ... والله يَدفعُ عن خراب المَسجدِ
فرَدَدْتُ ما أمَّلْتُ فيه وفيهمُ ... وتركتُهم مثلاً لأهلِ المَشْهَدِ
قد كان ذو القرنينِ قَبلي مُسلماً ... مَلِكاً يَفوقُ على الملوك بسُودَدِ

وقال عبد الملك بن هشامٍ: هذا الشِّعر مصنوع، وليس لتُبَّع[4].

وقال الأزرقي، عن محمد بن إسحاق: سار تُبَّع الأول إلى الكعبة ـ ومذهبُه أن الذي سار إليها هو تُبَّعٌ الأوّل ـ فأراد هدمَ الكعبة، فأخذه الله بالصُّداعِ، وأجرى من أنفه وفمه وأُذنيْه ومِنخَرَيْه ماءً مُنْتِناً، بحيث لم يستطع أحدٌ أن يَدنوَ منه، فخلا به وزيرُه،

---

(١) السيرة النبوية ١/ ٢٤ـ٢٥، وانظر تاريخ الطبري ٢/ ١٠٥ـ١١٠.

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ١٥٩، وتاريخ دمشق ٣/ ٥٠٧.

(٣) في النسخ: نزلت، والمثبت من تاريخ الطبري ٢/ ١١٠.

(٤) السيرة النبوية ١/ ٢٣.

وقال له: هل نويتَ لهذا البيت أمراً؟ قال: نعم هَدْمَه. قال: فارجع عما نويتَ وقد عُوفيتَ، ففعلَ فعُوفي، فآمن بالله، وبدين إبراهيم عليه السلام، وخَلع على الكعبةِ سبعةَ أثواب، وهو أولُ من كساها.

ثم خرج إلى يَثرب وهي بُقْعةٌ فيها عين، وليس بها بُنْيان ولا أحدٌ، فنزل على رأس العين.

واعتزل من الحكماء والعلماء الذين في صحبته أربعُ مئة، وقالوا: لا نفارق هذه البقعة، ترقُّباً لخروج نبيٍّ من بني إسماعيلَ بن إبراهيم، اسمُه محمّد ﷺ.

فقال: سيروا معي، فأبوا، وعَرَّفوه ما أجمعوا عليه، فبنى لهم أربع مئة دارٍ، وأعطى كلَّ واحد منهم جاريةً، وأجزل عطاءهم، وكتب لهم كتاباً وختمه بالذهب، ودفعه إلى العالم الذي نصحه في شأن الكعبة، وقال له: إنْ خرج محمدٌ ﷺ، فادْفعْه إليه إن أَدركْتَه، فإن لم تُدركه فإلى أولادكم، وأولاد أولادكم.

وكان في الكتاب: أما بعد، يا محمد، فإني آمنتُ بالله، وبك وبكتابك الذي أنزله الله عليك، أنا على دينك، وقد آمنتُ بشرائع الإسلام، فإن أدركتُك فبها ونِعمتْ، وإن لم أُدركك فاشفَعْ لي يوم القيامة ولا تَنْسَني، فإني من أمَّتك. وذكر كلاماً هذا معناه.

ثم خرج إلى الهند، فمات بغلسان بلدة من بلاد الهند، قال: ومن يوم مات تُبَّع إلى مولد نبينا ﷺ ألفُ سنة، وأن الأنصار من أولاد أولئك العلماء الأربع مئة، وأن أولادَهم أوصلوا الكتاب إلى النبي ﷺ، وأنه قال: «مرحباً بالأخ الصَّالح»، قال: وأن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه كان من ولد ذلك العالم الذي نهى تُبَّعاً عن خراب الكعبة، وأن الدَّار التي نزلها رسول الله ﷺ هي الدارُ التي بناها تُبَّعٌ له.

وقد ذكر ابن عساكر في «تاريخ دمشق» هذا الأثر وقال: هو حديث مُنكر، وفيه غير واحد من الضعفاء[1].

وقال الرّقاشي: كان أبو كربٍ أسعد الحميري من التبابعة، آمن بالنبي ﷺ قبل مَبعثه بسبع مئةِ سنة وقال: [من المتقارب]

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١٣٢، وتاريخ دمشق ٣/ ٥٠٤_٥٠٧.

شهدتُ على أحمد أنَّه رسولٌ من الله باري النَّسمْ
فلو مُدَّ عمري إلى دَهْره لكنتُ وزيراً له وابنَ عمّ[(١)]

وقال عروة: هو الذي قالت عائشةُ فيه: كان رجلاً صالحاً، ذمَّ اللهُ قومَه ولم يذمَّه[(٢)].

وقال هشام بن محمد: خرج تُبَّع معه بالحَبْرَيْنِ إلى اليمن، فلما دنا منها؛ حالت حِمْيَر بينه وبين دخولها، وقالوا: لا تدخلها حتى تفارقَ هذين الحَبْرين، وترجع إلى دِين حِمْيَر - وكانوا يعبدون الأوثان - فقال: إن دين هذين الحَبْرين خيرٌ من دينكم، فقالوا: حاكمنا إلى النَّار - وكانت نارٌ باليمن في أسفلِ جبلٍ يتحاكمون إليها، تأكلُ الظالم دون المظلوم - فقال تُبَّع: أنصفتُم.

فخرجوا بأوثانهم يُقرِّبونها إلى النار، ومعهم القرابين، فغشيتهم نارٌ، فأحرقتهم وما معهم. وجاء الحَبْران بمصاحفهما في أعناقهما يتلُوان التوراة، فهجما على النّار، فنكصت حين رأتهما، وعادت إلى المكان الذي خرجت منه، فدخلت فيه. فرجعت حمير عن عبادة الأوثان، ودانت باليهودية، فمن هناك أصل اليهودية باليمن.

وكان لهم بيتٌ يعظِّمونه ويذبحون عنده، ويكلِّمُهم منه شيطان، فقال الحَبْران: إئذَنْ لنا في خرابه، فإنما يكلِّمُهم منه شيطان، فهدماه، فخرج منه كلبٌ أسود فذبحاه، فبقايا ذلك البيت في اليمن إلى اليوم[(٣)].

ومن شعر تُبَّع: [من الخفيف]

إذ جَنَبْنا جِيادَنا من ظَفَار ثم سِرنا بها مسيراً بعيداً
فاستَبَحْنا بالخيل مُلكَ قباذ وابن أُفلوذ جاءنا مَصفوداً
وكسونا البيت الذي حرم اللـ ـه مُلاءً مُعَصَّباً وبُرودا
وأَقَمْنا به من الشهر عَشْراً وجَعلْنا لِبابِه إقليدا

(١) المعارف ص ٦٣١، ومروج الذهب ١/ ١٣٣، والبدء والتاريخ ٣/ ١٧٧، والروض الأنف ١/ ٣٥ وفيها: مد عمري إلى عمره.
(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٠٨، والطبري ٢١/ ٥٠ (دار هجر).
(٣) تاريخ الطبري ٢/ ١٠٨-١٠٩.

ونَحرنا في الشِّعب ستَّةَ آلا ... فٍ ترى الناسَ حولَهن وُرودا
ثم سِرنا نَؤُمُّ قَصْدَ سُهَيلٍ ... قد رَفَعْنا لِواءنا مَعقودا[1]

وقال: [من الخفيف]

لستُ بالتُّبَّع اليَمانيِّ إن لم ... أُرْكِضِ الخيلَ في سَواد العراق
وتُؤَدِّي ربيعةُ الخَرْجَ قهراً ... أو تَعُقْني عَوائقُ العوّاق[2]

وكان لتبَّع مع نزار بن مَعَدّ بن عدنان وقائع كثيرةٌ، واجتمعت العرب إلى نزار، وتواهبوا ما كان بينهم من الدماء، والتَقَوا، فكانت الدائرةُ على تُبَّع. وفي ذلك يقول أبو دُواد الإياديُّ من قصيدة: [من المتقارب]

ضَربْنا على تُبَّعٍ جزيةً ... جِيادَ البُرود وخَرْجَ الذَّهَبْ
وولَّى أبو كَرِب هارباً ... وكان جباناً كثيرَ الكَذِبْ[3]

ذكر مقتله

قال ابن قتيبة: لمّا طالت مُدَّتُه على حِمْير، وأخذهم بالغزو؛ مَلُّوه وضَجِروا منه. فإنه أقام ملكاً عليهم ثلاث مئةٍ وعشرين سنةً.

واختلفوا في زمان مُلْكِه، فقيل: كان في أيام ملوك الطوائف، وقيل: قبلَهم، وقيل: في أيام كسرى أنوشروان. وهو غلط.

ولما طالت أيامه، اجتمعت حِمْير إلى ولده حسَّان، وقالوا: ما رضي أبوك أن يُطيلَ غَزونا حتى أَحدث اليهودية في ديننا، لابدَّ من قتله. وساعدهم ولدُه حسان على ذلك، وهو الذي فعل بزرقاء اليَمامة ما فعل.

وبلغ تُبَّعاً ما عزموا عليه، فقال: أما إذا قتلتموني، فدعوني قائماً، ولا تدفنوني مُضطجعاً، فلا يزال مُلكُكم قائماً باقياً مادمتُ قائماً. فقالوا: والله لا مَلّكناه علينا حيّاً

(١) أخبار مكة ص ١٣٤، وتاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٨، ومروج الذهب ٣/ ٢٢٦، والروض الأنف ١/ ٤٠، وتاريخ دمشق ٣/ ٥٠٨ ـ٥٠٩، وذكر ابن قتيبة في المعارف ص ٦٣٥، والمقدسي في البدء والتاريخ ٣/ ١٨٠ منها بيتاً واحداً.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٢٢٦.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٢٢٧.

وميتاً. فقتلوه ودفنوه وملّكوا ابنَه حساناً، وشرطوا ألّا يؤاخِذَهم بقتْل أبيه.

وقيل: مَلّكوا عليهم أخاه عبد كُلال، فلم يأخذه النوم، فقيل له: إنك لا تنام حتى تقتلَ قَتَلَة أخيك، فقتلهم وهم قيام. والظاهر أنهم ملّكوا حساناً ولدَه.

فصل

ثم ملك بعد تُبّع ولدُه حسّان، فأقام مدة، ونَدِم على قتل أبيه، فشرع بقتلهم واحداً بعد واحد، فبايعوا أخاه عمرو بنَ تُبّع على أنهم يقتلون حساناً ويملكونه. فجاء رجل من أشرافهم يُقال له: ذو رُعَيْن، فأَخبرَ حساناً، وحذَّره سوءَ العاقبة؛ فكفَّ عن قتلهم.

وقيل: إن ذا رُعَين حذَّر أخاه، وقال: إن قتلتَه ذهب المُلك، فلم يلتفت، ودفع ذو رُعَين إلى عمرو صحيفةً، وقال: هذه وديعتي عندك، وختمها.

ولما أراد عمرو قتل حسان، قال له حسان: لا تعجل عليّ، فالمُلكُ تأخذُه بغير حُشودٍ[1]. فلم يسمع منه، وقتله بمكانٍ يُقال له: فُرضة، وهي رَحْبَةُ مالك بن طَوْق. فلما قتله عَدِم النّوم، فقال له كاهنه: ما قَتل أحدٌ أخاه أو ذا رَحمٍ إلا عَدِم النَّوم حتى يَقتل مَن ساعده عليه. فنادى في المملكة: إن المَلك يريد أن يعهد عهداً، فلا يتخلَّفَنَّ أحد. فاجتمعوا، وأقام لهم الرجال، وأُدخلوا عليه خمسةً خمسة، وعشرة عشرة، فقتل الجميع، وأُدخِل عليه ذو رُعَيْن، فأمر بقتله فقال: وَديعتي عندك. فأخرج الصّحيفة وفيها: [من الوفر]

ألا مَــن يَــشْــتــري ســهــراً بــنــومٍ ... ســعــيــدٌ مَــن يَــبــيــتُ قــريــرَ عَــيــنِ
فــإن تــكُ حِــمْــيــر غَــدرتْ وخــانــتْ ... فــمَــعــذِرةُ الإلــه لــذي رُعَــيْــنِ[2]

فقرَّبه، وأحسن إليه، واختصّ به.

وكان عمرو يسمى مَوثَبان القعود[3]، لأنه ترك الغزو، ولَزم الدَّعة.

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٢/ ١١٥، والمعارف ٦٣١ ـ ٦٣٤.

(٢) المعارف ص ٦٣٣، وتاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٧، والطبري ٢/ ١١٥ـ١١٦، والبدء والتاريخ ٣/ ١٧٨، والروض الأنف ١/ ٤٢ـ٤٣.

(٣) في المعارف ٦٣٤: لقعوده.

وفي أيامه انتقل عمرو بن عامر مُزَيْقياء من أرض اليمن لما أحسُّوا بخراب السدّ، وعمرو مزيقياء هو أبو الأَوس والخَزرج وخُزاعة.

وأقام عمرو بن تُبَّع مالكاً ثلاثاً وثلاثين سنة، ثم هلك.

فصل

وملك بعده [عبد] كُلال بن مُثَوِّب أربعاً وسبعين سنة، وكان مؤمناً على دين عيسى عليه السلام[1].

فصل

ثم ملك بعده تُبَّع بن حسَّان بن تُبَّع، ويقال: إنه تُبَّع الأصغر، آخر التَّبابعة.

وكان مهيباً، فسار إلى الشام، وملوكه غسّان، فأطاعوه. وصار إلى يثرب وبها قوم من اليهود، فشكا إليه بعضُ مَن خرج مع عمرو بن عامر من اليمن ضِيقَ مُجاورة اليهود؛ فقتل من اليهود ثلاث مئة وخمسين رجلاً صبراً. وأراد أن يُخرب يثرب، فخرج إليه حَبْر من أحبار اليهود، قد أتت عليه مئتان وخمسون سنة، فقال: أيها الملك، إنك لا تَقدر على إخراب هذه القرية، قال: ولمَ؟ قال: لأن بها مُهاجَرُ نبيٍّ من ولد إسماعيل عليه السلام. فرجع عن المدينة إلى اليمن وطالت أيامه، فمَلك ثمانياً وسبعين[2] سنة. ويقال: إنه الذي أخذ الحَبْرين، وقال الشعر، وأُخبِر بخروج النبيِّ ﷺ، ثم مات.

فصل

وملك بعده أخوه لأُمِّه مَرْثَد بن عبد كُلال، وكان ذا رأيٍ وشجاعة، فأقام إحدى وأربعين سنة، وتفرَّق كلُّ حِمير بعده.

فصل

ثم ملك بعده وَليعَة ابنُه، وكان عاقلاً شجاعاً، فأقام سبعاً وثلاثين سنة لم يتعدَّ اليمن ومات.

---

(١) المعارف ص ٦٣٤ وما بين معكوفين منه.

(٢) في النسخ: وتسعين، والمثبت من المعارف ٦٣٥، وانظر تاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٨، والبدء والتاريخ ٣/ ١٧٩.

فصل

فملك أَبْرَهة بنُ الصَّباح، وكان عالماً جواداً قارئاً للكتب، فرأى في الكتب أن أولاد النَّضر بن كِنانة يَملِكون فكان يُكرمهم، ويُحسنُ إلى ولد مَعَدّ، وكان ملكُه ثلاثاً وأربعين سنة(١)، ثم مات.

فصل:

فملك حسَّان بنُ عمرو [بن تُبَّع] بن كلكرب، فأقام خمساً وسبعين سنة(٢)، وكان قد غزا بني كِلاب، فأَسر منهم ألوفاً، فأتاه خالد بنُ جعفر الكلابي فمدحه، فأَطلقَهم.

فصل

ثم ملك بعده ذو شَناتِر وكان فاسقاً يتعرَّض إلى أولاد الأَقيال، وكان فظّاً غليظاً، لا يسمع بغلامٍ حسنٍ إلا بعث إليه وفَسق به، واسمه لَخْنيعَة، ولم يكن من بيت المُلك، وهو أوّلُ من أظهر اللِّواط باليمن، ولا يَقرب النساء، وكان له مَشْرَبَة يجلس فيها، فإذا قضى حاجته من الغلام، أخذ سواكاً فجعله في فِيه، واطَّلع على حرسه وجنوده، وكان ذلك آية فراغه من الغلام، فينزل من عنده وقد افتُضح، وكان قد بقي من أولاد الملوك غلامٌ يقال له: ذو نُواس بن أسعد أبي كرب، واسم الغلام: زُرْعَة، وقيل: يوسف بن شراحيل بن تُبَّع، فسمع به لخنيعة، فأرسل إليه، فعلم الغلام ما يريد منه، فأخذ سكِّيناً، فدفنها بين نَعله وقدمه، فلما صَعِد المَشرَبة، وثب عليه ليُواقِعه، فأخرج السكين، فضربه بها فقتله، ثم قطع رأسه وجعل سواكه في فيه، وتركه في كوة المشربة، ثم نزل فخرج عليهم، فقالوا: ذو نُواس؛ أَرَطْبٌ أم يَباس؟ فقال: لاباس، وأشار إلى الطّاقة، فنظروا، فإذا رأسُ لَخْنيْعَة، فقاموا إليه، وقالوا: أنت أحقُّ بالمُلْك حيث أَرَحْتَنا من الفاسق، وملكوه، وكان مُلك لَخْنيْعَة سبعاً وعشرين سنة.

---

(١) في المعارف ص ٦٣٦، والبدء والتاريخ ٣/ ١٨١: ثلاثاً وسبعين سنة، وفي تاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٩، ومروج الذهب ٣/ ١٥٥: ثلاثاً وتسعين سنة.

(٢) في المعارف وما بين معكوفين منه، والبدء والتاريخ: سبعاً وخمسين سنة.

فصل

ثم ملك ذو نواس، وكان على دين اليهود، فبلغه أن أهل نجران اليمن تنصَّروا، فسار إليهم، فخَدَّ لهم الأخاديد، وغَرِق ذو نواس في البحر، وكانت أيامُه ثمانياً وستين سنة.

وانقضت أيامُ التَّبابِعة، وكانوا نَيِّفاً وعشرين ملكاً، وقيل: ثلاثين، وقيل: أكثر، وقيل: أقل، وقد ذكرنا أعيانهم، وكان مُلكهم ثلاثة آلاف سنة، وقيل: ألفين وثمان مئة سنة.

فصل في ذكر ملوك اليمن الذين مَلكوا الشام

أولُ من مَلك الشام منهم: عمرو بن عامر الغساني، وعاش ثمان مئة سنة، أربع مئة سُوقة، وأربع مئة ملكاً.

وقال الهيثم: أول مَن نزل الشام من طوائف اليمن قُضاعة بن مالك بن حِمْير بن سبأ، فتنصّر، فملّكتْه الروم على الشام، وكان أول ملوك تَنوخ بالشام.

وقال ابن قتيبة: أولُ مَن ملك بالشام منهم: النُّعمان بن عمرو بن مالك بن حِمْيَر بن سَبأ، ثم ملك بعده ولدُه مالك بن النعمان، ثم ملك بعده ولده عمرو بن مالك، ولم يملك من تَنوخ غير هؤلاء الثلاثة، ثم وَردت سَليح إلى الشام فتنصَّرت، وغلبت على تَنوخ، فملّكتها الروم.

وقال السُّدّي: أول ملوك الشام من أهل اليمن: عمرو بن عامر، ثم ملك بعده ولده الحارث بن عمرو، فأقام ملكاً بعد أبيه عشرين سنة، ومات. فأبوه أولُ ملوك الشام من غسّان، وهو الظاهر.

فصل

ثم ملك بعده الحارث بن ثَعلبة بن جَفْنة بن عمرو بن عامر، وأمُّه مارِية بنت ظالم بن وَهْب بن معاوية بن ثَوْر [وهو] كِنْدَة، صاحبةُ القُرْطَين، وإليها ينسب ملوك غسان، فأقام الحارث عشرين سنة.

وهم آلُ جَفْنَة، وقد مَلك منهم جماعة؛ منهم: الحارث بن أبي شَمِر، وهو الذي بُعث النبي ﷺ في زمانه[1]، وزاره حسَّان بن ثابت، وكان النُّعمان بن المُنذر في ذلك

---

(١) «المعارف» ص ٦٤٠، ومروج الذهب ٣/ ٢١٦ ـ ٢١٨.

الوقت على الحيرة، وكان يُسامي الحارث، فقال الحارثُ لحسّان: يا ابنَ الفُرَيْعَة، لقد بَلغني أنك تُفضِّلُ النعمان عليّ، فقال حسان: كيف أُفضِّلُه عليك؟ ووالله لقَفاك أحسنُ من وجهه، ولأبوك أشرفُ من جميع قومه، ولأُمُّك أشرفُ من أبيه، ولشِمالك أَجودُ من يمينه، ولحِرمانُك أنفعُ من عطائه، ولَقليلُك خيرٌ من كثيره، ولكُرسِيُّك أرفعُ من سريره، ولجَداوِلُك أغزرُ من بحوره، ولَيومُك أطولُ من شهره، ولَشهرُك أَمدُّ من حَوْله، ولحَوْلُك خيرٌ من حِقَبِه، ولزَنْدُك أَورى من زَنْده، ولرَجِلُك أعزُّ من خَيله، ولَعبيدُك أكرمُ من جُنده، وأنت من غَسَّان وهو من لَخْم، فكيف أفضّلُه عليك، أو أَعدِلُه بك؟ فقال الحارث: إن هذا لا يُسمع إلا في شعر، فقال حسان: [من المتقارب]

ونُبِّئتُ أن أبا منذرٍ[1] يساويك يا حارِ في المخْبَرِ
قَذالُك أحسنُ من وَجْهه وأمُّك خيرٌ من المُنذرِ
ويُسرى يديك على عُدْمها[2] كيُمنى يديه على الميسرِ[3]

فصل

ثم ملك بعد الحارث جَبَلَةُ بن الأَيْهم الغَسّاني من آل جَفْنَة، وهو الذي امتدحه حسّان بأشعارٍ كثيرة منها: [من الكامل]

لله دَرُّ عِصابةٍ نادَمْتُهم يوماً بجِلّقَ في الزمانِ الأوّلِ[4]

وجبلة الذي كاتَبه رسول الله ﷺ على يد شُجاع بن وَهْب، وعزم على قَصْده، فمنعه قيصر، وأسلم في زمان عمر رضي الله عنه، ثم تنصَّر.

وقال ابن قتيبة: كان طول جَبَلة اثني عشر ذراعاً[5]، وإذا ركب مَسَحتْ قدماه الأرض. ولم يوافق ابنَ قتيبة على هذا أحدٌ، وإنما كان طُوالاً من الرجال.

وكانت منازل آل جَفْنة وملوكِ غسَّان باليرموك والجَوْلان، والصَّمّان، والأردن وأعمال دمشق إلى مشاريق الشام.

---

(١) في النسخ: ونبئت أن نعيما، والمثبت من مروج الذهب ٣/ ٢١٩، وديوانه ص ٢٣٨ (برقوقي).

(٢) في مروج الذهب: غيرها، وفي الديوان: عُسرها.

(٣) في الديوان: المعسر.

(٤) ديوانه ص ٣٦٤ (برقوقي).

(٥) في المعارف ٦٤٤: اثني عشر شبراً.

فصل

وقيل: إن عَمرو بن عامر لم يَملك الشَّام، ولا وصل إليه؛ وذلك لأنه لما خرج من اليمن في ولده وأهله ومَن معه من الأَزْد، نزلوا بلاد عَكّ، ومَلِكُهم سَمْلَقَة، وسألوهم أن يأذنوا لهم في المقام حتى يبعثوا مَن يَرتادُ لهم المنازل ويعود، فأَذنوا لهم، فبعث عمرو بنُ عامر ثلاثةً من ولده: الحارث، ومالك، وحارثة، وهم أولاد عمرو لصُلْبه، ومات عمرو قبل أن يرجع إليه الرُّوَّاد، ولما احتُضِر استخلف ولده ثعلبة.

ووثب رجل من الأزد يقال له: جِذْع بن سِنان على سَمْلَقَة ملك عَكّ فقتله، ونَشِبت الحرب بينهم، فخرج ثعلبة بن عمرو بالأزد إلى مكة، وجُرهم يومئذ ولاةُ البيت، فنزل بمنى، وخرجت إليهم جُرهم فحاربتهم، فنُصرت الأزدُ عليهم، فأقاموا بمكة، فضاقت بهم، فرحلوا عنها. فصار بعضهم إلى سواد العراق، فملّكوا عليهم مالكاً أبا جَذيمة الأَبرش، وصار قوم إلى يثرب، فهم الأوس والخزرج، وصار قوم إلى عمان وقوم إلى الشام، فهم آل جَفْنة.

وكان فيهم جِذْع بن سنان قاتلُ سَمْلَقة، وبالشام يومئذ سَليح، فكتب ملك سَليح إلى قيصر يستأذنُه في إنزالهم، فقال قيصر: على شرط ألا يُفسدوا ويطيعوا، فأنزلهم، وقدم عاملٌ لقيصر إلى الشام ليَجبيهم، فطالبهم بالخراج، فقال له جِذْع بن سنان: خذ هذا السَّيف رَهْناً إلى أن أُعطيك، فقال العامل: اجعله في كذا وكذا من أمِّك. فضرب به جِذْع عُنق العامل، فقال بعضُهم: خُذْ من جِذْع ما أعطاك فذهبت مَثَلاً[1]، ثم انتقل جِذْع إلى يثرب، وأقام بنو جَفْنَة بالشام، وتنصَّروا، وأطاعوا قيصر، وكانوا من قبله.

فأوّلُ ملوك الشام على هذا القول: الحارث بن عمرو بن عامر، ثم الحارث بن أبي شَمِر الأعرج الذي قتل المنذر بن ماء السماء.

قال ابن قتيبة: وأمُّ الحارث الأعرج مارية ذاتُ القُرطَيْن، وكان خيرَ ملوكهم، وأيمنَهم نَقيبةً، وأسعَدَهم طائراً.

---

(١) المعارف ٦٤١ وعنه ينقل المصنف، والمثل في أمثال أبي عبيد (١٠٢٣)، وجمهرة الأمثال ١/ ٤٢١، ومجمع الأمثال ١/ ٢٣١.

ثم ملك بعده الحارثُ الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر، وأخوه النعمان بن الحارث، وكان له ثلاثة بنين: حُجْر، وبه كان يُكنى، والنعمان بن النعمان، وعمرو بن النعمان، وفيهم يقول حسّان: [من الرمل]

مـن يَـغُـرّ[1] الـدّهـر أو يَـأمـنُـه ... مـن قَـبـيـلٍ بـعـد عَـمْـرٍو وحُـجُـرْ
مَـلَـكـا مـن جـبـل الـثَّـلـجِ إلـى ... جـانـبَـيْ أيـلـةَ مـن عـبـدٍ وحُـرّ

وآخر ملوكهم جَبَلَةُ بنُ الأَيْهم، فملوك آل جَفْنة أحد عشر ملكاً، وكان مُلكُهم خمسَ مئة سنة وأقل، وكان بالشام ملوك بعضهم ببلاد مأرب والبَلْقاء[2]، وكذا على زُغَر، ومنازل قوم لُوط والسواحل، وكلُّ مَلِك من هؤلاء يقال له: يارع، كما يقال: كسرى وقيصر.

فصل

وفي أيام ملوك غسان كان الأَعشى، وهو الذي يبصر بالنهار، ولا يبصر بالليل، وهذا اللقب واقعٌ على جماعة من الشعراء منهم:

ميمون بن قَيْس بن ثعلبة بن بكر بن وائل أبو بصير، وهو أعشى قَيْس، وهو الأعشى القديم، إذا أُطلق هذا اللقب انصرف إليه.

وكان سفيان الثوري يتمثّل دائماً بقوله: [من الطويل]

إذا أنـتَ لـم تَـرحَـل بـزادٍ مـن الـتُّـقـى ... ولاقـيْـتَ بـعـد الـموت مـن قـد تَـزوَّدا
نـدِمـتَ عـلـى أن لا تـكـون كـمـثـلِـه ... وأنـك لـم تُـرصِـد كـمـا كـان أَرصـدا[3]

وقيل لمحمد بن مروان: مَن أشعرُ الناس؟ فقال: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رَهِب، وزهير إذا عَجب، والأعشى إذا طَرِب. وفي رواية إذا شهد[4].

ومنهم أعشى بني ربيعة، واسمه عبد الله بن خارجة.

---

(١) في النسخ: يعتب، والمثبت من المعارف ٦٤٣، والديوان ص ٢٦١.
(٢) في (ب) و(ك): بالبلقاء، وفي مروج الذهب ٣/ ٢٢١: ببلاد مادب من أرض البلقاء من بلاد دمشق.
(٣) ديوانه ١٨٧.
(٤) ذكره أبو الفرج في الأغاني ٩/ ١٠٨ عن يونس النحوي.

ومنهم أعشى بني تغلب، واسمه ربيعة، وقيل: النعمان، لم يُسلِم.

وهذا القائل يمدح النبي ﷺ: [من الطويل]

أَلَم تَغتَمِض عيناكَ ليلةَ أَرْمَدا

الأبيات[١]

ومنهم أعشى هَمْدان، واسمُه: عبد الرحمن بن عبد الله، قتله الحجَّاج، وهو آخِرُهم[٢].

فصل
في ظهور الحبشة على اليمن وعودها إلى العرب

كان باليمن مَلك يقال له: ربيعة بنُ نَصْر، فيما بين التَّبابعة، رأى رؤيا هالَتْه، فلم يدع في مملكته كاهناً ولا ساحراً إلا ويقول له: رأيت رؤيا، فيقول: أخبرني بها حتى أعبِّرها، فيقول: لا، اعرفها[٣]، فقيل له: عليك بشِقّ وسَطيح، وكانا كاهِنَيْن.

فبعث الملك إلى سطيح وشق فأَقدَمهما عليه، فقدم سطيح أولاً، فقال له: يا سطيح رأيتُ رؤيا فأخبرني بها، فقال: نعم، رأيتَ حُمَمَة، خرجت من ظُلُمة، فوقعت بأرض تَهمَة، فأكلت [منها] كلَّ ذات جُمْجُمة، فقال: صدقْتَ، فما تأويلُها؟ فقال: أحلف بما بين الحَرَّتَيْن من حَنَش، لَيَهبِطَنَّ أرضَكم الحَبَش، ويَملِكُنَّ ما بين أَبْيَنَ إلى جُرَش. فقال الملك: إن هذا لنا لَغائظٌ، فمتى يَحدثُ في زماني أم بعده؟ قال: بل بعده، فقال: كم مِقدارُه؟ قال: يجيءُ أكثر من ستين أو سبعين تمضي من السنين، ثم يُقتَلون أجمعين، ويخرجون[٤] هاربين، قال: ومن يتولّى ذلك؟ قال: إرَم ذي يَزَن، يخرج عليهم من عَدَن فلا يُبقي أحداً منهم باليمن، قال: أفيدوم ذلك من سُلطانه؟ قال: لا، قال: فمن يُزيلُه؟ قال: نبيٌّ زكيّ، يأتيه الوحيُ من العَليّ، من آل غالب بن فِهر، يكون المُلك فيه

(١) تمامه: وعادَك ما عاد السليم المسهَّدا، وهو في ديوانه ١٨٥.

(٢) انظر المؤتلف والمختلف للآمدي ١٠ـ٢١.

(٣) في الطبري ٥/ ١١٢: لا يعرف تأويلها إلا من يعرفها قبل أن أخبره بها.

(٤) في النسخ: ويملكوا... يقتلوا... يخرجوا.

إلى آخر الدَّهر، قال: وهل للدَّهر من آخِر؟ قال: نعم، يوم يجمع الله فيه الأوَّلين والآخِرين، ويَسعَد فيه المحسنون، ويَشقى المسيئون، فقال: أحقّاً ما تقول يا سطيح؟ قال: نعم، والشفق، والليل إذا اتَّسق، إن ما أَنبأتُك به لَحقّ.

ثم قدم شق بن مصعب[(١)] الأنماري فقال له الملك: إني رأيتُ رؤيا، فأخبرني بها، ولم يذكر له ما جرى بينه وبين سطيح ليَختبرهما، هل يتفقان أو يختلفان؟ فقال له شِقّ: رأيتَ حُمَمة، خرجت من ظُلْمة، فوقعت بين رَوْضة وأَكَمَة، فأكلتْ [منها] كلَّ ذات نَسَمة، قال: فما تأويلُها؟ قال: أقسم بما بين الحَرَّتَيْن من إنسان، لَيَنزِلَنّ أرضَكم السُّودان، وليغلبُنَّ على كلِّ طَفْلَةِ البَنان، وليَملكُنَّ[(٢)] ما بين أَبْيَن إلى نَجْران، قال: فمتى يكون ذلك؟ قال: بعدك بزَمان، ثم يَستنقِذُهم ذو شان، ويذيقهم الذُّلَّ والهَوان، قال: ومَن هو؟ قال: غلامٌ ليس بدَنيّ، يخرج من آل ذي يزن في زي غني، قال: أفيدوم مُلكُه؟ قال: لا، بل يَنقطع برسولٍ يُبعثُ بالعَدل من بيت الخير والفَضْل، يكون المُلك في أُمَّته إلى يوم الفَصْل، قال: وما يوم الفَصْل؟ قال: يوم يُجازى فيه الآباءُ، والأبناء، والأُمَّهات، والأخوة، والأخوات، يصيح بهم داعٍ من السماوات، فيسمع الأحياء والأموات، يكون لمن اتَّقى فيه الفوز والخيرات، فقال: أحقّاً ما تقول؟ قال: نعم وربِّ السماوات والأرض، وما بينهما من رَفْعٍ وخَفْض، إن ما أخبرتُك لحَقّ، ما فيه مِضّ. أي: لا، بلغة الحبشة[(٣)]، فنقل الملكُ أهلَه إلى الحِيرة، وكان ذلك في أيام سابور من الأكاسرة.

---

(١) كذا في النسخ، وفي السيرة ١/ ١٥ وشروحها، وتاريخ الطبري ٢/ ١١٢: صعب. وما بين معكوفين منها.

(٢) في النسخ: وليملأن.

(٣) في السيرة ١/ ١٨: أَمْض، قال ابن هشام: يعني شكّاً، هذا بلغة حمير، وقال أبو عمرو: أمض، أي: باطل. قال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٢٨: أكلت منها كل ذات جمجمة وكل ذات نسمة، نصب (كل) أصح في الرواية وفي المعنى، لأن الحممة نار، فهي تأكل ولا تُؤكَل. وقال الخشني في شرح غريب السير ١/ ٧٧ من ظلمة؛ من جهة البحر. فوقعت بأرض تهمة، التهمة: الواسعة المتطامنة، ولذلك قيل لما انخفض من أرض الحجاز: تهامة. وأبين: بلد باليمن، وجرش بلد أيضاً. الحرتين؛ الحرة: أرض فيها حجارة سود. طفلة البنان: ناعمة أطراف الأصابع.

ذكر سبب خروج اليمن على العرب

كان ذو نواس على اليمن، وهو الذي قتل لَخْنيعة، وكان يهودياً، فبلغه أن أفيميون من بقايا النصارى، دخل اليمن، وكان مجابَ الدعوة، يُبرىء الأكمه والأبرص، فأقام بينهم، وظهرت كراماته، فآمن به أكثرُ أهل اليمن، وكان بنَجران نخلَةٌ طويلة يَعبدونها، فدعا عليها، فيَبِسَتْ، وبلغ حديثُه ذا نواس، فسار إليهم، فخَدَّ لهم الأخاديد، وخيَّرهم بين العَوْد إلى اليهودية وبين أن يَرميَهم في الأخاديد، فاختاروا القَتْلَ، فأحرق منهم اثني عشر ألفاً، وقتل سبعين ألفاً، وعاد إلى صَنْعاء، وكان ذلك في أيّام كسرى أنوشروان، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ [البروج: ٤].

ولما أكثر ذو نواس القتلَ في النصارى، خرج رجلٌ منهم يقال له: ذو ثَعْلبان، ومعه حَبْر من أحبارهم ومعه الإنجيل قد احترق، فركبا البحر إلى النَّجاشي، وكان نصرانياً، فدخلا عليه وبكيا بين يديه، وأخرجا الإنجيل وقد احترق، وقيل: إن ذا ثَعْبان خرج أولاً إلى قيصر، واستنصر به، فقال: أرضُكم بعيدةٌ عني، وليس عندي سُفن، وسأكتب لك إلى النَّجاشي فإنه قريبٌ منكم. ثم كتب له إلى النجاشي، فجهَّز معه تسعين ألفاً من الحبشة، وأمَّر عليهم أَرْياط بن أَسْحم[1]، وفي جيشه أَبرهة بن الصَّباح صاحبُ الفيل، فعبروا من بلاد ناصع والزّيْلَع، وهو أضيق مكان في البحر بين اليمن والحبشة، فخرج إليهم ذو نواس بحِمْيَر والقبائل، فاقتتلوا، فانهزم ذو نواس، وأتى البحرَ، فاقتحم به فرسُه، فكان آخر العَهْدِ به. وفيه يقول عَمرو بن معدي كرب: [من الوافر]

أَتــوعِــدُنــي كــأنّــك ذو رُعَــيْــنٍ ... بــأنــعــم عــيــشــةٍ أو ذو نُــواسِ
وكــائــنْ كــان قــبــلَــك مــن نــعــيــمٍ ... ومُــلــكٍ ثــابــتٍ فــي الــنــاس راسِــي
أزال الــدهــرُ مُــلْــكَــهــم فــأضــحــى ... يُــنَــقَّــل مــن أُنــاسٍ فــي أُنــاسِ[2]

فأقامت حمير بعده ذا جَدَن، فالتقى بالحبشة ثانياً فهزموه، وغرق أيضاً في البحر، وكان النجاشيّ قد أوصى أَرْياط أن يُخرب حصون اليمن، ويقتلَ ثُلُث رجالها، ويَسبي ثلثاً، ويَبعثَ إليه بالسبايا، ففعل، وأخرب غُمْدان وسَلْحين وغيرهما.

(١) في مروج الذهب ٣/ ١٥٧: أضخم.
(٢) ديوانه ١٣١، والسيرة ١/ ٤٠، والبدء والتاريخ ٣/ ١٨٣.

ذكر مقتل أرياط

كان أَبرهةُ بن الصَّباح في جُند أرياط، فطمع في المُلك، ومالت إليه طائفةٌ من الحبشة، وعلم أرياط فانحاز بمن معه، وانحاز أبرهة بمن استمال، والتقوا، فقال أبرهة لأرياط: لا فائدة في فناء الناس، ابرز إلي وأبرز إليك، فأيّنا قتل صاحبَه كان أولى بالمُلك، فتبارزا، وخرج خلف أبرهة عَتْوَدَة وزيرُه[1]، وكان بيد أرياط حربة، فضرب بها أبرهة، فوقعت على جبينه، فشرمَتْ عينه وأنفه وشفته، فسُمّي الأَشرم، وكان قصيراً دميماً، وأرياط طويلاً جسيماً، واشتغل أبرهة بنفسه، وحمل عَتْوَدَة على أرياط فقتله، واجتمعت الحبشة على أبرهة، وبلغ النجاشي فغضب، وحلف لابدَّ أن يَجُزَّ ناصية أبرهة، ويطأَ البلاد، وقال: تَعدَّى على أميري وقتله، وكان أبرهة حازماً، فحلق رأسه، وملأ جراباً من الأرض[2]، وكتب إلى النجاشي: أيها الملك، إنما كان أرياط عبداً من عبيدك، ولم يكن له خِبرةٌ بسياسة المُلك، وأنا أَخبرُ منه بذلك، وقد بعثتُ إليك بناصيتي، وبجرابٍ فيه تراب من أرض اليمن لتضعَه تحت قدميك، وتبرَّ في يمينك. فرضي النجاشيّ عنه، وأعجبه فهمُه، وأقرَّه على أرض اليمن.

وأبرهة الذي قصد البيت الحرام، فأهلكه الله سبحانه وتعالى.

ذكر عودة اليمن إلى العرب

كان سيفُ بن ذي يَزَن من أشراف ملوك حِمْير، مُعتزلاً في طرف من أطراف اليمن، فلما طال البلاءُ على حِمْير، ولقوا من السّودان مالقوا من الفسق، والفَتْك، والظلم، وغَصْب النساءِ على نفوسهن، خرج إلى قيصر مُستَصرخاً به، وشكا إليه، وسأله أن يَبعث عليهم نائباً من عنده، فمَطَله، وأقام عنده سبع سنين، فكان آخر كلامه أنه قال: أنتم يهودٌ، والحَبشةُ نصارى، وليس من الدّيانة نُصرةُ المخالِف على المُوافق. ففارقه وأتى الحِيرة، فنزل على النُّعمان بن المُنذر عاملِ كسرى أنوشروان، وكان للنعمان كل عام وِفادة على كسرى، فقال له: أقم عندي حتى تَسيرَ معي إليه، فأقام عنده، فقدم النُّعمان على كسرى فقضى حوائجه، وذكر له قصَّة سيف، وما قَدِم له، وسأله أن يَدخل

---

(١) في السيرة ١/ ٤٢، واليعقوبي ١/ ٢٠٠، والطبري ٢/ ١٢٩ أنه غلام أبرهة.

(٢) في السيرة: وملأ جراباً من تراب اليمن.

عليه، فأَذن له، وكان كسرى إذا دخل عليه أحدٌ سجد له، فدخل سيف وطأطأ رأسَه، فعلم كسرى بُعدَ همَّتِه، وشَرف نفسه، ثم سلّم وجلس، وقال: أيها الملك، غَلبَتْنا الحبشة على بلادنا، فجئتُك مستصرخاً لتخرجَهم منها، وتكونَ بلادُنا لك.

فقال: بَعُدَت أرضُكم عن أرضنا، وهي قليلةُ الخير، وإنّما هو البعير والشاء، وذلك مما لا حاجة لنا به، ولم أكن لأُوَرِّط جيشاً من فارس بأرض العرب، لا حاجةَ لي بذلك، وأجازه بعشرة آلاف درهم، فنَثرها في الدّهليز، فنهبها الغلمان، وأُخبِر كسرى بذلك، فقال: إن لهذا الرجل لشأناً، رُدُّوه فردُّوه، فقال له: عَمَدْت إلى حِباء الملك الذي حَباك به فأعطيتَه النّاس، فقال: ما أصنع بالذَّهب والفضّة، وأرضي نَبْتُها[1]، وأنا من أملاك ذي رُعَيْن، وهل أَجَزْتُ أحداً بدون عشرة آلاف دينار؟ وإنما قَصد تَعظيم نفسه وأرضِه في عين كسرى، فقال له: أقمْ عندنا حتى نَنظُرَ في أمرك.

فأقام عنده مدة، فاستشار كسرى أصحابه فيه، فقالوا: إن في سُجونك رجالاً حَبستَهم للقتل، فابعث بهم معه، فإن هلكوا، كان الذي أَردْتَ بهم، وإن ظهروا على البلاد كان مُلكاً ازْدَدْتَه إلى مُلكك، فأمر بعرض السجون، فكانوا ثمان مئة، فقدَّم عليهم رجلاً من العُظماء، يقال له: وَهْرِز بن حِمْير في ثماني سفائن، في كلّ سفينة مئةُ رجل وما يحتاجون إليه من الزاد والسلاح، فغرقت منها سفينتان، ونَجت إلى اليمن ستة، فأَرْسَوا بساحل عَدَن.

وقال ابن الكلبي: كان أبو مُرَّة الفيَّاض ذو يزن من أشراف اليمن، وكانت تحتَه ريحانة ابنة ذي جَدَن، فولدت له غُلاماً فسمَّاه: معدي كرب، وكانت ذات جَمال، فانتزعها أَبْرهة من أبي مرة، فنكحها قَهراً.

وخرج أبو مُرَّة من اليمن، فلحق ببعض ملوك بني المنذر، ويقال: هو عمرو بنُ هند، فسأله أن يكتب له كتاباً إلى كسرى يُعرِّفُه شرفَه ومكانتَه، فقال له: أقم عندي، فلي في كلِّ سَنة وِفادةٌ على كسرى. وذكر بمعنى ما تقدّم، وأن كسرى قال له: أقمْ عندي حتى أَنظُرَ في أمرك، ووعده أن ينصرَه، فأقام عنده، واشتغل عنه كسرى بحرب الروم.

ومات أبو مُرَّة بباب كسرى، وولدت ريحانة من أبرهة غلاماً سماه: مسروقاً، ونشأ

(١) في (خ) و(ك): تنهبتها، والمثبت من (ب)، وفي الطبري ٢/ ١٤٠: ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة.

معدي كرب في حِجْر أبْرهة، لا يَحسبُه إلا أباه، فسَبَّه ابنٌ لأبرهة، وقال له: لعن الله أباك، فأتى أمَّه وقال: مَن أبي؟ قالت: الأشرم، قال: لا والله، لو كان أبي ما سبَّني فلانٌ ابنُه، فأخبرتْه بالقصّة.

ثم إن الأشرم هَلك، وهلك ابنُه يكسوم، وولي مَسروق، وهو أخو معدي كرب لأمِّه، فخرج معدي كرب إلى قيصر فلم يجدْ عنده فَرجاً، فرجع إلى كسرى، ووقف له على الطّريق، وناداه: أيُّها الملك، لي عندك ميراثٌ، فدعا به كسرى، وقال: مَن أنت، وما ميراثُك؟ فقال: أنا ابنُ الشّيخِ اليمانيّ ذي يزن، الذي وعدْتَه النُّصْرَة، فمات على بابك، فرقَّ له كسرى، وأمر له بمالٍ فنثره في الدِّهليز.

وقال له مُوبَذ مُوبَذان: إن لهذا الغُلام حقّاً بموت أبيه على بابك، ونزوعِه إليك من أوطانه، وفي سجونك أهلُ البأس والنَّجدة، وذكر بمعنى ما تقدّم، وأنه جهَّز معه الرجال في السُّفن، ومقدَّمُهم وَهْرِز، وكان إصْبَهْبَذ الدَّيْلم، فركبوا من الأُبُلَّة، وهي فَرْجُ بحرِ فارس، وقصدت [السفن] اليمن، فأَرْسَوا بمكان يقال له: مَثْوَب، من أعمال حَضْرَموت في ست مئة رجل، وقيل: في ألف.

وكان على اليمن مَسْروق بنُ أبرهة، فخرج إليهم في مئة ألف من الحبشة، ولحق بابنِ ذي يَزن عامَّةُ حِمْيَر، وكان وَهْرِز يُعَدُّ بألف رجل، ولما رأى مسروق قلَّتهم، طمع فيهم، وبعث إليهم: إن شئتُم أن ترجعوا إلى بلادكم، فارجعوا.

وتهادنوا عشرة أيام حتى ينظروا، وكان لوَهْرِز ولدٌ، فقتلتْه الحبشةُ غِيلةً، فأَحرق وَهْرِز المراكب والزاد، وقال لأصحابه: ما عندي غير الموت، وبايعوه وبايعه ابنُ ذي يزن وأصحابُه على الموت، ثم استعدُّوا للقتال، ولم يكن أهلُ اليمن رأوا النُّشَّاب بعد.

وركب مسروق على فيل وعلى رأسه تاجه، وبين عينيه ياقوتةٌ حمراء مثلُ البيضة، ولا يَظنُّ إلا أنه منصورٌ عليهم، ثم نزل عن الفيل، وركب حماراً احتقاراً لهم، فقال وَهْرِز: هذا كبيرُهم؟ قالوا: نعم، قال: ذَلَّ مُلكُه بنزوله من الفيل وركوبه الحمار، ثم رماه وَهْرِز بسهم فوقع بين عينيه وخرج من قفاه، فخرَّ صريعاً.

وانهزمت الحبشة، وغَنِمت الفُرسُ أموالَهم وعساكرهم، وانقلبَتْ حِمْير والعرب مع الفُرْس، فقال وَهْرِز: دونكم السُّودان، لا تُبقوا منهم أحداً، فقتلوهم، ولم يَبْقَ

منهم إلا مَن كان في أطراف اليمن، وسار وَهْرِز إلى صنعاء وعلى رأسه رايةُ كسرى، فأراد دخولَها، وكان الباب قصيراً، فقال: اهدموه فإني لا أُنكِّس رايةَ الملك، فهدموه.

وكتب وهرز إلى كسرى بالفتح، ويقول: قتلتُ من السُّودان سبعين ألفاً ـ وقيل: مئة ألف ـ وبعث بالأموال والسَّبايا، وقال: ما يأمُرُ المَلك في اليمن، فكتب إليه: سلِّم البلاد إلى ابن ذي يَزن، وانصرف، ففعل، وتَوَّج كسرى ابنَ ذي يزن، وشَرط عليه أن تتزوَّج الفُرس في اليمن، ولا تتزوَّج اليمنُ في الفرس، وكان ابنُ ذي يزن يؤدي الخراج في كل سنة إلى كسرى.

وقد أكثر الشعراء في غلبة الفرس على اليمن، فقال بعض أولاد فارس: [من الخفيف]

نحن خُضْنا البحارَ حتى فَكَكْنا حِمْيراً من بليّة السُّودانِ
بلُيُوثٍ من آلِ ساسان شُوسٍ يَمنعون الحريمَ بالمرزبانِ[1]
فقتلْنا مسروقَ إذ تاه لما أنْ تداعت قبائلُ الحُبْشانِ
ففلَقْنا ياقوتةً بين عينيـ ـه بنُشَّابةِ الفتى السَّاساني
وحَوَينا بلادَ قَحطانَ قَهْراً ثم سِرنا إلى ذُرى غُمْدانِ
فنَعِمْنا فيه بكلِّ سُرورٍ ومَنَنّا على بني قَحطانِ

وقال آخر من أهل حَضْرموت: [من الرجز]

أصبح في مَثْوَبَ ألفٌ في الجُنَنْ من آل ساسانَ ورهط مِهْرَسَنْ
ليُخرِجوا السُّودان من أرض اليَمنْ دَلَّهُمْ قصدَ السَّبيلِ ذو يَزَنْ[2]

وقال أبو الصَّلْت [أبو] أمية بن أبي الصلت[3]: [من البسيط]

لن يَدرك الثأرَ[4] أمثالُ ابنِ ذي يزن حتى تغيّب للأعداء أحوالا
أتى هِرَقْلَ وقد شالتْ نعامَتُه فلم يجد عنده القولَ الذي قالا

(١) في مروج الذهب ٣/ ١٦٧: بالمرَّان.
(٢) مروج الذهب ٣/ ١٦٤.
(٣) ما بين معكوفين من تاريخ الطبري ٢/ ١٤٧، وانظر طبقات ابن سلام ٢٦٢، والروض الأنف ١/ ٨٤.
(٤) كذا في النسخ، وفي المصادر وديوانه أمية ٤٥٣: ليطلب الوتر.

ثم انثنى نحو كسرى بعد سابِعةٍ من السنين لقد أبعدْتَ إقفالا
حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم هناك عمري لقد أسرعتَ إرقالا
مَن مثلُ كسرى وبهرام الجنود له ومثلُ وَهْرِز يوم الجيش إذ صالا
لله درُّهم من عُصبةٍ خرجوا ما إن رأينا لهم في الدهر أمثالا
فاشرب هنيئاً عليك التاجُ مُرْتفِقاً في رأس غُمدان داراً منك مِحْلالا
هذي المكارمُ لا قَعْبانِ من لَبَنٍ شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أَبْوالا[(١)]

قالوا: وهذا البيت للنَّابغة الجَعْدي، ولعله وقع تَضْميناً[(٢)]

ذكر ملوك الحبشة

وكانوا أربعة: أرياط، وأَبْرهة، ويَكْسوم بن أبرهة، ومسروق بن أبرهة، وأقاموا ثلاثاً وتسعين سنة، مَلَك أرياط عشرين سنة، وأبرهة أربعين سنة، ويَكْسوم عشر سنين، ومَسروق ثلاث سنين، وقتله الفرس، وكانت أيّامُه أشدَّ على حِمْير ممن تَقدَّمه مع قلَّتها، لأنه أذلَّ أَقْيال اليمن، وسلّط عليهم السُّودان، فنكحوا نساءهم، وسَبَوا أولادهم، وبقية جيش الفُرْس باليمن يُقال لهم: الأَبْناء.

ذكر مقتل سيف

ولمّا ملك أَمعنَ في قتل السُّودان، وبَقيت منهم بَقيَّة، فاستخدم منهم جماعةً يَمشون بين يديه بالحِراب، فخرج يوماً إلى الصَّيْد وهم بين يديه فمالوا عليه فقتلوه، وبلغ كسرى، فبعث وَهْرِز في أربعة آلاف، وأمره أن لا يَبْقى من السُّودان في اليمن أحدٌ إلا قَتَله، ففعل، وأقام بها وَهْرِز.

وقال ابن قتيبة: أقام سيفٌ ملكاً باليمن من قِبَل كسرى، يُكاتبُه ويَصدُر عن رأيه في الأمور إلى أن قتله السودان، وبقي اليمن شاغِراً بلا مَلك، وصاروا كملوك الطوائف، مَلك على كلِّ طائفة منهم رجلٌ[(٣)].

(١) ديوان أمية ٤٥٣-٤٥٩ وتخريجها ورواياتها ثمة.
(٢) انظر طبقات فحول الشعراء ٥٧-٥٨، والسيرة ١/ ٦٦-٦٧.
(٣) المعارف ٦٣٨-٦٣٩.

وكان وَهْرِز مُقيماً بصَنعاءَ، فمات، فولّى كسرى أَبرويز عليها ابنَه التينجان[١] بن وهرز، ثم غضب عليه فعَزله، وولّى عليها باذان، فلم يزل عليها حتى مات في صدر الإسلام، وبُعث رسول الله ﷺ وعاملُ أَبرويز عليها باذان، وفيروز، وداذَوَيْه، وقدموا على رسول الله ﷺ[٢]، وقيل: إن الذي خَلُصَت اليمن على يده مَعْدي كرب بن ذي يَزن، والله أعلم.

فصل في قصّة أصحاب الفيل

لما أقام أَبرهةُ بصنعاء، رأى النّاس يتجهّزون أيّامَ الموسم إلى مكة، فقال: أين يذهبون؟ قالوا: إلى البيت الحرام، قال: وما هذا البيت؟ قالوا: بيتٌ بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قال: وبأي شيء هو مبنيّ؟ قالوا: بالطّين والحجارة، فقال: وحقِّ المسيح، لأبنينَّ لكم بيتاً خيراً منه، فبنى كنيسةً بصَنْعاء؛ لم يُبْنَ في زمانها مثلُها، بناها بالرُّخام، وزَخرَفها بالذَّهب والفضَّة والجواهر واليواقيت، ولطّخ حيطانها بالمِسْك، وجعل في أعلاها قُبَّةً عظيمةً من عجائب الدُّنيا، وجعل على رأسها ياقوتةً حمراءَ تُضيء تلك النّاحية في الليل منها، وجعل على أبوابها السُّتور والحَجَبة والسَّدَنة، وسمّاها: القُلَّيس، وأمر الناس بحجِّها، وكتب إلى النجاشي: قد بَنيتُ لك كنيسةً لم يُبْنَ مثلُها، ولسْتُ بمُنْتَهٍ حتى أَنقلَ إليها حَجَّ العرب.

فدخل نُفَيلُ بن حبيب الخَثْعميُّ فلطَّخ القُلَّيس بِعَذِرِه، ودخل أَبرهةُ ليصلّي، فرأى العَذِرة في القُبَّة، فقال: مَن فعل هذا؟ فقال السَّدنة: رجلٌ من العرب، من أهل البيت الذي أبطلت حجَّ النَّاس إليه، غضب لكَعبتهم.

وكان أبرهةُ قد منع أهلَ اليمن من الحجِّ إلى مكة، فأقاموا سنين، فغضب أَبرهةُ، وقال: وحقّ المسيح لأَنقُضنَّ بيتَهم حَجراً حجراً، وكتب إلى النجاشيّ يطلُبُ فيلَه الأعظم، واسمه: محمود، ولم يكن في زمانه أقوى منه ولا أعظم، فبعث به إليه،

---

(١) في تاريخ الطبري ٢/ ١٤٨: البينجان، والمثبت من السيرة ١/ ٦٩، والنسخ مضطربة في رسمه.

(٢) في المعارف ٦٣٩: وأن النبي ﷺ بعث باذان عامل أبرويز عليها ـ يعني اليمن ـ ومعه قائدان من قوّاد أبرويز يقال لهما: فيروز وداذويه، فأسلموا.

ومعه ثلاثة عشر فيلاً، ثم خرج أَبرهةُ بجنوده ومعه مُلوك حِمْير والأَقيال، وبلغ العربَ فأعظموه، ورأوا جهادَه حقّاً عليهم.

وخرج عليه ملكٌ من ملوك حِمْير، يقال له: ذو نَفر بمن أطاعه من قومه، فقاتله فهزمه، وأُخِذ ذو نفر فأُتي به إلى أَبرهة، فقال له: أَيُّها الملك، لا تقتُلْني فإن بقائي لك خيرٌ، فاستحياه وأَوثقَه، وكان أَبرهةُ ذا أناةٍ.

ثم مرَّ ببلاد خَثْعَم، فخرج إليه نُفَيل بن حبيب الخَثْعَميُّ في قبيلَيْ خَثْعَم ومَن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه فهزمهم، وأَخذ نُفَيلاً، فقال له: أَيُّها الملك، لا تقتُلْني فإنّي دليلٌ في أرض العرب، وهاتان يداي على قومي بالسَّمع والطَّاعة، فاستبقاه، وخرج معه يَدلُّه.

فلما مرَّ بالطائف، خرج مسعود بن مُعَتّب الثقفيُّ في رجال من ثقيفٍ، فقال: أَيُّها الملك، إنما نحن عبيدُك، ليس لك عندنا خلاف، وليس بيتُنا هذا البيتَ الذي تُريد ـ يَعنون اللّات ـ إنما تُريد البيتَ الذي بمكّة، نحن نَبعثُ معك من يدلُّك عليه، فبعثوا أبا رِغالٍ مولى لهم، فمات بالمُغَمَّس، وهو الذي يُرجَم قَبرُه إلى هلمَّ جرّا.

وقال البَلاذُري: كان أبو رِغال من العرب العاربة، وله سلطان بالطائف، وكان ظلوماً غشوماً، أتى يوماً على امرأة تُرَبّي طفلاً يتيماً في عام جَدْبٍ بلبن عَنْز، لم يكن بالطائف شاةٌ لَبونٌ غيرَها، فأخذها منها، فمات الصبيُّ جُوعاً، فرماه الله بقارعة فأهلكه، فدفن بين مكة والطائف، فقبره هناك يُرجَم على وَجْه الدهر.

ويقال: إنه كان عبداً لشُعيب بن ذي مِهْدم[(١)] الحميري الذي قتله قومُه، وكان فيما يزعمون أنه مبعوث إليهم، فلما بلغه ما فعله بالصبيّ، أمر به شعيب فقُتِلَ، ورُجِم قبرُه.

وقيل: كان جدُّ الحجّاج يَخدُم أبا رِغال، ولهذا قيل للحجاج: عبدُ بني رغال[(٢)].

وأبو رِغال من بقيّة ثمود. قال جرير يهجو الفرزدق: [من الوافر]

إذا مـات الـفـرزدقُ فـارجُـمـوه ... كـمـا تَـرمـون قـبـرَ أبـي رغـالِ[(٣)]

---

(١) في (ب) و(ك): مهدي، وفي (خ): معدي، والمثبت من أنساب الأشراف ١/ ٢٩.

(٢) في (ب): عبد آل ذي رغال، وفي أنساب الأشراف: عبد أبي رغال.

(٣) ديوانه ٢/ ٥٤٧.

وبعث أَبرهةُ على مُقدّمته الأَسود بنَ مَقْصود من الحبشة، فجمع أموالَ أهلِ الحرم، وأصاب لعبد المطَّلب مئتي بعيرٍ.

وبعث أَبرهةُ حُناطَةَ الحميريَّ إلى أهل مكة، يَسأل عن شريفها، ويقول لهم: لم آتِ لقتالكم، وإنما جئتُ لأَهدم هذا البيت، فدلُّوه على عبد المطلب، فقال عبد المطلب: نحن لا نُقاتلُه، وليس لنا به طاقةٌ، وسنُخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا البيتَ الحرام بيتُ الله، وبيتُ إبراهيم خليله، فإن يمنعه، فهو بيتُه وحرمُه، وإن يُخلِّ بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به طاقة.

قال: فانطلِقْ معي إلى الملك، فأردفه على بغلةٍ له، وخرج به حتى قَدِم العسكر، وكان ذو نَفْرٍ صديقاً لعبد المطلب، فأتاه فقال: يا ذا نَفْر، هل عندك من غَناءٍ فيما نزل بنا؟ فقال: وما غَناء أسير لا يَأمنُ أن يُقتلَ بُكرةً أو عشيّاً، ولكن سأبعثُ إلى أُنَيْس سائس الفيل، فإنه لي صديق، فأسأله أن يصنعَ لك عند الملك ما استطاع من خير، ويُعظِّم خَطرَك ومنزلتك عنده.

وأرسل إلى أُنيْس، فأتاه فقال: إن هذا سَيِّد قريش الذي يُطعم الناس في السَّهل، والوحوشَ في رؤوس الجبال، وصاحب عِير[1] مكة، وقد أصاب له الملك مئتي بعيرٍ، فإن قدرت أن تنفعه عنده، فانفعه، فإنه صديقٌ لي، فدخل أُنَيس على أبرهة، وعرَّفه منزلةَ عبد المطلب، وذكر له مثل ما ذكر ذو نَفْر، وقال: أحبُّ أن تأذنَ له في الدخول عليك.

وكان عبد المطلب وسيماً جسيماً عظيماً، فأذن له فدخل، فلما رآه أبرهة عظَّمه وأكْرمَه، وكرِه أن يُجلسه معه على سريره، أو يجلسه تحته، فهبط عن سريره، فجلس على البِساط، ثم أجلسه معه، وقال لترجُمانه: قل له: ما حاجتُك؟ فسأله التّرجُمان فقال: حاجتي أن يَردَّ علي الملك مئتي بعير لي أخذها أصحابُه، قال: قل له: لقد أعجبْتَني حين رأيتُك، والآن فقد زهِدْتُ فيك، قال: ولم؟ قال: جئتُ إلى بيتٍ هو شرفُك وشرفُ آبائك لأهدمَه لا تكلِّمني فيه، وتكلِّمُني في مئتي بعيرٍ أصبتُها، فقال عبد

(١) في النسخ: عين. والمثبت من السيرة ١/ ٤٩، والطبري ٢/ ١٣٣.

المطلب: أنا ربُّ هذه الإبل، ولهذا البيت ربٌّ سيمنعُه، فقال: ما كان لِيمنَعه منّي، قال: فأنت وذاك، وأمر بردِّ إبله، فرُدَّت إليه.

قال ابن إسحاق: وذهب عبد المطلب إلى أبرهة بعَمْرو[١] بن نُفاثة بن عدي بن الدُّئل سيِّد بني كنانة يومئذ، وخُوَيْلد بن واثِلة سيّد بني هُذَيل، فعرضا على أبرهة ثُلُث أموال تِهامة، على أن يرجع عنهم، ولا يهدم البيت، فأبى عليهم، فرجع عبدُ المطلب إلى مكة، وأخبر قريشاً الخبر، وأمرهم أن يتفرَّقوا في الشِّعاب، ويتحرَّزوا في رؤوس الجبال، تخوُّفاً عليهم من معرّة[٢] الجيش، ففعلوا، ثم أتى عبدُ المطَّلب إلى الكعبة، فأخذ بحَلْقة الباب وجعل يقول: [من مجزوء الكامل]

لا هُمَّ إن المَرْءَ يَمـ ... ـنعُ رَحْلَه فامنع حِلالَكْ
لا يَغْلبنَّ صَليبُهم ... ومِحالُهم غَدْواً مِحالَكْ
جَرُّوا جُموعَ بلادهم ... والفيلَ كي يَسْبُوا عِيالَكْ
عَمَدُوا حِماك بكَيدِهم ... جَهْلاً وما رَقَبوا جَلالَكْ
إن كنتَ تاركَهم وكعـ ... ـبَتنا فأمرٌ ما بدا لك[٣]

ثم قال لهم: [من الرجز]

يا ربِّ لا أرجو لهم سِواكا ... إن عدوَّ البيت مَنْ عاداكا
يا ربِّ فامنَعْ منهم حِماكاً ... امنَعْهم أن يُخربوا قُراكا[٤]

ثم ترك الحَلْقة، وتوجَّه مع قومه في بعض الوجوه، وأصبح أبرهة بالمُغَمَّس قد تهيَّأ للدُّخول، وعبّى الحبشة، وهيَّأ الفيلَ الأعظم، فأقبل نُفَيْل الخَثْعَمي إلى الفيل، فأخذ بأُذنه وقال: ابْرُك محمود، أو ارجع راشداً حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام.

وكان الفيل أَمام الجيوش مُزَيَّناً بالسلاح، والرجال حوله، فبرك، فبعثوه نحو مكة فأبى، فضربوه بالمِعْوَل في رأسه، وأدخلوا تحت مَراقِّه مَحاجِنَهم، وضربوه ليقوم فأبى

(١) في السيرة ١/ ٥٠: يَعْمر، والمثبت موافق لتاريخ الطبري ٢/ ١٣٤.
(٢) في النسخ: مغيرة، والمثبت من السيرة والطبري.
(٣) انظر السيرة ١/ ٥١، والطبري ٢/ ١٣٥.
(٤) تاريخ الطبري ٢/ ١٣٤.

أن يتوجّه إلى الحرم، فوجَّهوه إلى اليمن فقام يُهرِول، فوجّهوه إلى الشام فتوجَّه، ثم إلى المشرق فتوجَّه، فصرفوه إلى الحرم فبرك، وخرج نُفَيْل يشتدُّ حتى صعد الجبل، وأرسل الله طيراً من البحر أمثالَ الخَطاطيف، مع كلّ طَيْرٍ منها حَجرٌ في منقاره، وحجران في رِجلَيْه، أمثال الحمّص والعَدَس، فلما غَشِينَ القومَ أرسلْنَها عليهم، فلم تُصبْ تلك الحجارةُ أحداً إلا هلك، وليس كلّ القوم أصابت، فخرجوا هاربين، يبتدرون الطريق الذي جاؤوا منه، ويسألون عن نُفَيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نُفيْل حين رأى ما أنزل الله بالقوم من النّقمة: [من الرجز]

أيـن الـمَـفَـرُّ والإلـهُ الـطّـالـبْ والأشـرمُ الـمَـغْـلـوبُ غـيـرُ الـغـالـبْ

ومَرِج أمرُ القوم، وماج بعضهم في بعض، فخرجوا يتساقطون في كلّ طريق، ويهلكون على كل مَنْهل، وبعث الله على أبرهة داءً في جسده، فجعل تتساقط أناملُه وجسدُه، كلما سقطت أُنملةٌ اتَّبعتْها أُنملة، فانتهى إلى صنعاء وهو مثل الفَرْخ، ثم انصدع قلبُه ومات.

وقيل: كان أبو مسعود الثقفي ـ وهو مكفوف البصر ـ يصيف بالطائف، ويَشتو بمكة، وكان رجلاً نبيهاً نبيلاً، وكان خِلًّا لعبد المطلب، فقال له: يا أبا مسعود، ماذا عندك؟ هذا يوم لا يُستغنى فيه عن رأيك.

فقال أبو مسعود: اصعَدْ بنا حِراء، فصعدا الجبل، فمكثا فيه، فقال أبو مسعود: اعْمِد إلى مئةٍ من الإبل، فاجعلها لله تعالى، وقلِّدها، ثم بُثَّها في الحرم، لعلَّ بعضَ هذه السُّودان أن يَعقرَ منها، فيغضبَ ربُّ هذا البيت فيأخُذَهم، ففعلَ عبد ا لمُطّلب ذلك، فعمد القوم إلى تلك الإبل، فعقروا بعضها.

فقال [أبو مسعود]: إن لهذا البيت ربّاً يمنعُه، فقد نزل تُبَّع وأراد هدمه، فمنعه الله وابتلاه، فكساه، وعظَّمه، ونَحَر له، فانظر نحو البحر، فنظر عبد المطلب فقال: أرى طيراً بِيضاً، نشأت من شاطىء البحر، قال: فهل تعرفُها؟ قال: لا والله، وليست بنجديّة، ولا تِهامية، ولا عدنية، ولا شامية، وهي أمثال اليعاسيب، في مناقيرها حصًى مثلُ حصى الخَذْف، قد أقبلت كالليل، يَتبع بعضُها بعضاً، أمام كلِّ فرقةٍ طائرٌ أحمر يقودُها.

فجاءت، حتى إذا حاذَت العسكرَ طارت فوق رؤوسهم، ثم هالَتْ عليهم ما في مناقيرها، وعلى كلِّ حَجَرٍ مكتوبٌ اسمَ صاحبه، ثم إنها انصاعت راجعةً من حيث جاءت.

فلما أصبحا نزلا من الجبل، وجاءا إلى العَسْكر فإذا هم خامدون، يقع الحجر على بَيْضة أحدهم فيخرقها، وتغيبُ في الأرض، فحفر عبد المطلب حفرةً له، وحفرة لصاحبه، وملأَهما ذهباً أحمر، ونادى في الناس فتراجعوا، وأصابوا من أموالهم ما ضاقوا به ذرعاً.

وقال أبو الجَوزاء: خلقها الله في ذلك الوقت، فكان الحجرُ يَنفُذ في البيضة، ويَغيب في دماغ الرَّجل، ثم يَخرج فيغيب في الأرض من شدَّة وَقعه، وكذا فعلت بالدَّواب والفِيَلة، إلا محموداً فإنه سَلِم لكونه لم يَقدرْ على الكعبة، وأفلت أبو يَكسوم صاحبُ جيش أبرهة، ووزيرُه ونديمُه، فسار إلى الحبشة وعلى رأسه طائر لم يَشعر به، حتى دخل على النجاشي فأخبره بما أصابهم، فلما استتمّ كلامَه، رماه ذلك الطائر بحجر فقتله، فأرى الله النجاشيَّ كيف كان هلاكهم.

وامتلأت بهم الأوديةُ، وفِجاجُ مكة، فبعث الله سيلاً، فحملهم فألقاهم في البحر، وعَظُمَت قريش في أعين الناس، وقالوا: هؤلاء أهلُ الله، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونةَ عدوِّهم، وأكثر الناسُ الأشعارَ في ذلك، فقال أمية بن أبي الصَّلْت: [من الخفيف]

إن آيــاتِ ربِّــنــا بــيِّــنــات ... مـا يُـمـاري فـيـهـنَّ إلا الـكَـفُـورُ
حَـبس الـفـيـلَ بـالـمـغَـمَّـس حتـى ... ظـلَّ يَـحـبـو كـأنَّـه مَـعـقـورُ
حـولـه مـن رجـال كِـنـدةَ فِـتـيـا ... نٌ مَـصـالـيـتُ فـي الـحـروب صُـقـورُ
غـادروه ثـم ابْـذَعَـرُّوا سـراعـاً ... كـلُّـهـم عـظـمُ سـاقِـه مـكـسـورُ
كـلُّ دِيـنٍ يـومَ الـقـيـامـة عـنـد الـ ... ـلـه إلا ديـن الـحـنـيـفـة زُورُ[١]

والنجاشي الذي كان في زمن رسول الله ﷺ ـ واسمه: أَصحمة ـ هو ابنُ ابنِ النجاشي الذي كانت في أيامه قصةُ الفيل، وكانت قصة الفيل في أيام كسرى أنوشروان

(١) ديوانه ص ٣٩١. وابذعروا: تفرقوا.

العادل، وقالت عائشة رضي الله عنها: رأيتُ قائدَ الفيل وسائسَه بمكة أعميَيْن مُقعَدَيْن، يستطعمان الناس[1].

وقَصَّ الله قصة الفيل على رسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ السورة، واتَّفق أهلُ السِّيَر على أن أوّلَ يوم من المُحرَّم عام الفيل كان يوم الجمعة، وأن أبرهة وصل إلى مكّة يومَ الأحد سابع عشر مُحرَّم، وفيه هَلَك.

فصل في قصة عبد الله بن الثامر

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عفان بن مُسلم، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان مَلِكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فمرض الساحر، فقال للملك: إني قد كَبِرت، وحضر أَجلي، فادفع إليَّ غلاماً أعلِّمُه السِّحْر، فدفع إليه غُلاماً، فكان يَختلفُ إليه، وكان في طريقه راهبٌ، فمرَّ به الغلامُ، فأعجبه كلامُه، فكان يُطيلُ القُعودَ عنده، فإذا أتى أهلَه ضربوه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الرّاهب، فقال: يا بني، إذا استبطأَك الساحر فقل: حَبَسني أهلي، وإذا استبطأك أهلُك، فقل: حبسني الساحر.

فمرَّ ذات يوم بدابّةٍ قد حبسَت الناس، وكانت فظيعةً، فقال: اليوم أعلمُ أمرَ الراهب والساحر، الرّاهبُ أفضل أم السَّاحر؟ فأخذ حجراً وقال: اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحرِ، فاقتل هذه الدابة، فرماها، فقتلها، ومضى الناسُ، وأخبر بذلك الراهب، فقال له: يا بنيَّ، إنك ستُبتلى، فإن ابتُليت فاصبر، وفي روايةٍ: يا بني، أنت اليوم أفضلُ منّي، وقد بلغ من أمرك ما أرى، فإنك ستُبتلى، فإن ابتُليتَ، فلا تدلَّ عليّ.

وكان الغُلام يبرىء الأكمه والأبرص، ويُداوي الناس، فبينا هو على ذلك إذ عَمِي جليسُ الملك، فأتاه بمالٍ عظيم، وقال: اشفني، ولك هذا، ولك ما هاهنا، فقال: إني لا أشفي أحداً، ولكنّ الله هو الشافي، فإن آمنت به دعوتُه فشفاك، فآمن بالله، فدعا له الله فشفاه.

(١) السيرة ١/ ٥٧.

فجلس إلى الملك فقال: يا فلان، مَن شفاك؟ فقال: ربي. قال: أَولَك ربٌّ غيري؟ قال: نعم، ربي وربُّك الله. فأخذه فلم يزل يُعذّبه حتى دلّ على الغلام، فجيء به، فقال له الملك: قد بلغ من سِحرك أنّك تُبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أَشفي أحداً، إنما الله سبحانه الشافي، فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب، فجيء به، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضعه على مفرقه، فشقّه نصفين، ثم جيء بجليس الملك، ففُعل به كذلك.

ثم جيء بالغلام، فقال له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نَفَرٍ من أصحابه وقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فإذا بلغتم ذُروتَه، فإنْ رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به إلى الجبل، فقال: اللهم اكْفِنيهم، بما شئت، فرَجفَ بهم الجبل، فسقطوا، وجاء الغلام يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابُك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفرٍ آخر وقال: اذهبوا به في قُرقُور ـ أي: سفينة ـ وتوسّطوا به البحر، فإنْ رجع عن دينه، وإلا فاقذفوا به في البحر، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينةُ فغرقوا، وجاء يمشي، فقال له الملك: ما فعل أصحابُك؟ فقال: كفانيهم الله.

ثم قال الغلام للملك: إنك لستَ قاتلي حتى تفعل ما آمُرك، قال: وما هو؟ قال: تَجمعُ الناس في صعيدٍ واحد، وتَصلِبُني على جذعٍ، ثم تأخذ سهماً من كنانتي، وتضعه في كبد القوس، ثم قل بسم الله ربِّ الغلام، ثم ارمِ به، فإنك إذا فعلتَ ذلك قتلتَني، فجمع الناس في صَعيدٍ واحد، وصلبه على جِذْع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، وقال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السَّهمُ في صُدْغه، فوضع يده على صُدْغه ومات، فقال الناس: آمنّا بربِّ الغلام، فأُتي الملك، وقيل له: أرأيْتَ ما كنتَ تَحذر، قد والله نزل بك حَذَرُك، قد آمن النّاس، فأمر بالأخاديد فخُدَّت بأفواه السِّكَك، وأَضرم فيها النيران، وقال: مَن رجع عن دينه، وإلا اقذفوه في النار وأَقْحموه، ففعلوا، وجاءت امرأةٌ ومعها صبيّ لها، فقيل: ارجعي عن دينك، فتقاعست أن تقع فيها، أي: توقَّفتْ، فتكلَّم ابنُها وقال: يا أمَّاه اصبري، فإنك على الحق». انفرد بإخراجه مسلم[١].

---

(١) مسند أحمد (٢٣٩٣١)، وصحيح مسلم (٣٠٠٥).

وقال الضحاك: تكلَّم في المَهْد ستة: شاهدُ يوسف، وابنُ ماشطة فرعون، وعيسى، ويحيى عليهما السلام، وصاحبُ جُرَيج، وصاحبُ الأُخدود.

وقد اختلف العلماء فيمَنْ نزل قولُه تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾[البروج: ٤]، فقال ابن عباس ﷺ وعامة المفسرين: نزلت في عبد الله بن الثامر وأصحابه، وقال ابن عباس: كان عبد الله بن الثامر في زمان ذي نواس، وعبد الله يومئذ بنجران، فسار إليه، فخدَّ له ولأصحابه الأخاديد قبل مولد النبي ﷺ بسبعين سنة.

وقيل: إن بعض الملوك سكر، فوقع على أخته، فلما صحا قال له الناس: ما صنعتَ؟ فندم، فقالت له أخته: ادْعُ الناس إلى إباحة مثل هذا، فدعاهم، فأبَوا، فقالت: خُدَّ لهم الأخاديد، ثم اقذِفْهم في النار، ففعل، فمَن وافقه تركه، ومن خالفه ألقاه في النار[1].



(١) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٣٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٧٠ ـ ٢٧٦.

فصل في أيَّام العرب

فمن ذلك **يوم ذي الأَثْل**: غزا صَخر بنُ عَمرو بن الشَّريد بني أسد بن خُزيمة، فساق إبلَهم، فنذروا به، فلحقوه، فطَعنَ ربيعةُ بن ثور صخراً في جنبه ونجا، وأقام مريضاً من تلك الطَّعنةِ سنةً، فسمع امرأتَه سلمى يوماً وهي تقول لأخرى وقد سألتْها عنه فقالت: لا حيٌّ فيُرْجى، ولا مَيْتٌ فيُسْلَى، ولقد لقيتُ منه الأمرَّين.

وكانت أمُّ صَخْر إذا سُئلت عنه تقول: أرجو له السلامة والعافية إن شاء الله تعالى.

فقال صخر: [من الطويل]

أرى أمَّ صخرٍ ما تَمَلُّ عيادتي ... ومَلَّتْ سُليمى مَضْجعي ومَكاني
وأيُّ امرىءٍ ساوى بأمٍّ حَليلةً ... فلا عاش إلا في أذىً وهوانِ
وما كنتُ أخشى أن أكونَ جِنازَةً ... عليكِ ومَنْ يغترُّ بالحَدَثانِ
لعَمري لقد أيقظْتُ مَن كان نائماً ... وأسمعتُ مَنْ كانت له أُذنانِ
أهمُّ بأمر الحَزْمِ لو أستطيعُه ... وقد حِيل بين العَيْرِ والنَّزَوانِ[1]

فلما طال عليه البلاء، نَتأتْ قطعةٌ من جنبه مثل الكَبِد[2] في موضع الطعنة، فقالوا له: لو قطعتَها رَجونا أن تبرأ، فقال: افعلوا، فقطعوها فمات، فرثتْه أختُه الخنساء بالمراثي المشهورة[3].

ومنها **يوم أَقْرُن**: غزا عمرو بن عمرو بن عُدَس الدارمي بني عبس، فاستاق الإبل والشاء والسّبايا، ثم أقبل فنزل عند ثَنيَّةِ أَقرُن، فلحقه أنسُ الفوارس فقتله، وانهزمت بنو مالك، فكان لبني عبس على بني دارم، وفيه يقول جرير: [من الكامل]

هل تَذكُرون على ثَنِيَّة أَقْرُنٍ ... أنسَ الفوارسِ يوم يَهوي الأَسْلَعُ

أراد بالأسلع عمرو؛ لأنه كان أبرص[4].

---

(١) الأصمعيات ١٤٦.
(٢) في العقد ٥/ ١٦٧: اليد.
(٣) انظر الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي ١/ ١١٠.
(٤) النقائض ٩٧٧، والعقد الفريد ٥/ ١٧٨-١٧٩.

ومنها **يوم الإبل**، قُتل فيه بِسْطامُ بنُ قَيْسٍ.

ومنها **يوم أُوارَة**، هو اسمُ ماءٍ كانت به وقعةٌ بين عمرو بنِ هند وبني تميم، وفيه يقول بعض بني تَيْم الله بن ثعلبة: [من الكامل]

ولقد شهِدتُ الخيلَ يوم طِرادِها فطعَنتُ تحت كنانةِ المُتَمطِّرِ[١]

ومنها **يوم بَرْزَة** لكنانةَ على بني سُلَيم، لما قتلت بنو سُليم ربيعةَ بنَ مُكَدّم ـ فارس كنانة ـ يوم الكَدِيد رجعوا، فأقاموا مدة، فملّكوا عليهم مالك بن خالد بن صَخر بن الشَّريد، وتوَّجوه، وكان يُقال له: ذا التَّاج، وخرجوا معه، فعرفه بنو كِنانة، فأغار على بني فراس ببَرزَة، ورئيسُ بني فراس يومئذ عبد الله بن جِذْل، فدعا عبدُ الله إلى البِراز، فبرز إليه هندُ بن خالد بن صَخْر أخو مالك، فقال له عبد الله: مَن أنت؟ فقال: هند بن خالد، فقال: أخوك مالك أَسَنُّ منك، نريد مالكاً، فرجع، فأخبر مالكاً، فبرز إليه مالكٌ فقتله عبدُ الله، ثم برز إليه كُرْز بنُ خالد أخو مالك، فقتله عبدُ الله[٢].

ومنها **يوم البِشْر**، ويقال له: يوم الجَحَّاف، وفيه يقول الأخطل: [من الطويل]

لقد أَوقعَ الجحَّافُ بالبِشْر وَقعةً إلى الله منها المُشتكى والمُعَوَّلُ[٣]

ومنها **يوم بُعاث**، كان قُبيل الإسلام بين الأوس والخزرج.

ومنها **يوم النُّتاءة**[٤] لعبسٍ على بني عامر، خرجت بنو عامر لتدرك ثأرَها من عَبْس يوم الرَّقْم، فوصلوا النُّتاءة وهي في أرض عبس، وقد نذِروا بهم، فالتقَوْا، وعلى بني عامر: عامر بن الطُّفَيل، وعلى عَبْس: الرَّبيعُ بن زياد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزمت بنو عامر، وطعن ضُبَيعةُ بنُ الحارث عامرَ بن الطُّفيلِ، فلم يَضُرَّه.

ومنها **يوم تَحلاق اللِّمَم**، كان لتَغْلب[٥] على بَكر بن وائل، وكان الحَلْق شعار تغلبَ يومئذ، حلقوا رؤوسهم علامةً لهم.

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٣٣، تمطّر الرجل، إذا أسرع، والكنانة من الكنّ، لأنه يُصان بها النَّبْل.
(٢) العقد ٥/ ١٧٤، والأنوار ١/ ١٢٠.
(٣) ديوانه ص ١٠.
(٤) في النسخ: البناءة، هنا وفيما يأتي، وهو خطأ، والمثبت من العقد ٥/ ١٦١.
(٥) يعرف بيوم قِضَة، وكان لبكر على تغلب، انظر العقد ٥/ ٢٢٠.

ومنها يوم جَبَلَةَ، وهي هضبة حمراء بين الشُّرَيْف والشَّرَف، وهما ماءان: الشُّرَيف لبني نُمَير، والشَّرَف لبني كِلاب، وكان بين عبس وذُبيان ابنَي بَغيض، وفيه يقول الرَّاجز:

لــم أرَ يــومــاً مــثــلَ يــومِ جَــبَــلَــهْ

يـــوم أتـــانـــا أســـدٌ وحَـــنْـــظَـــلَـــهْ

وغَـــطَـــفـــان والـــمـــلـــوكُ أَزْفَـــلَـــهْ[1]

ويقال له: يوم شِعْب جَبَلة، وكان لعامرٍ وعبسٍ على ذُبيان وتميم، وسببه أنه لما انقضت وَقْعة رَحْرَحان، جمع لَقيط بنُ زُرارَة لبني عامر، وألَّب عليهم، وبين يوم رَحْرَحان ويوم جبلة سنة، وكان يوم جَبَلَة في العام الذي وُلد فيه رسولُ الله ﷺ.

وكان لبني عَبس في بني عامر حُلَفاء لهم، فاستعدى لَقِيط بني ذُبيان لعداوتهم لبني عبس من أجل حرب دَاحِس، فأجابته غَطَفانُ كلّها غير [بني] بدر، وتجمّعت تميم كلها غير بني سَعد، وخرجت معه بنو أَسدٍ بحِلْفٍ كان بينهم وبين غطفان، ثم أتى لقيطٌ إلى الجَوْن الكَلْبي، وهو ملك هَجَر، فقال: هل لك في قوم غارِّين قد ملؤوا الأرض نَعَماً وشاءً، وترسلُ معي ابنَيْك، فما أصبنا من نَعَمٍ وشاءٍ فهو لهما، وما أصبنا من دَمٍ فعلينا؟ فأجابه الجَوْن إلى ذلك.

ثم أتى لقيطٌ النُّعمان بنَ المُنْذر، فاستنجده ووعده بالغنائم، فأجابه، وكان لقيط وَجيهاً عند الملوك، فلما كان رأسُ الحَوْلِ من يوم رَحْرَحان، أقبلت الجيوش نحو لَقيط، وأقبل سِنانُ بن أبي حارثة المُرِّي في غَطَفان، وهو والد هَرِم الجَواد، وجاءت بنو أسد، وأرسل الجَوْنُ ابنَيْه معاوية وعَمْراً، فقال الأحوص بنُ جعفر - وهو يومئذ رَحَا لهوازن[2] - لقيس بن زهير: ما ترى؟ فإنك تَزعم أنه ما عَرَض لك أمران إلا وجدتَ في أحدهما المخرجَ، فقال قيس: الرأيُ أن نَرتحلَ بالأموال والعيال، فندخلَ شِعبَ جَبَلة فنقاتل القومَ من وجه واحد، فإن لَقيطَ بن زُرارة رجل فيه طَيشٌ، وسيقتحم عليك

(١) النقائض ٦٦٣.

(٢) يعني سيدهم.

الجبل، فأرى لك أن تأمرَ بالإبل فلا تُسقى ولا تَرعى وتُعْقَل، وتجعلَ الذَّراري وراء ظهورنا، وتأمرَ الرَّجَّالة يأخذون بأذناب الإبل، فإذا دخلوا الشِّعب، حلَّت الرَّجالةُ عُقل الإبل، ثم لزمت أذنابها فتنحدِر عليهم، وتحنُّ إلى مرعاها وورودِها الماءَ، فلا يردُّ وجوهَها شيء، وتخرج الفرسانُ في إثْر الرجَّالةِ الذين خلف الإبل، فتَحطِمُ ما لَقيتْ، فقال: نِعْمَ ما رأيت.

وأقبل لقيطٌ والملوكُ معه، فوجد بني عامر قد دخلوا شِعبَ جَبَلة، فنزلوا على فم الشِّعب، فقال لهم رجل من بني أَسد: خُذوا عليهم فمَ الشِّعْب حتى يجوعوا ويعطشوا، فإنهم يتساقطون عليكم تساقُطَ البَعر من اسْت الجمل، فأبَوْا، ودخلوا، وكانوا قد عقَلوا الإبلَ اثنتي عشرة ليلةً لم تَطعَم، ولم تشرب، وحلَّت الرَّجَّالة عُقُلَها، فأقبلت تهوي، فسمع القوم دويَّها في الشِّعْب، فظنوا أنَّ الشِّعَب قد تَدَهْدى عَلَيهم، والرَّجَّالةُ خلفَها، والفرسانُ في إثْرِهم، فانهزمَ القومُ لا يَلْوُون على شيء، وقُتِل لقيطُ بن زُرارة، وأُسِر أخوه حاجب، أسره ذو الرُّقَيْبَة، وأَسر عروةُ الرَّحَّال سنانَ بنَ أبي حارثة، فجزَّ ناصيته، وأَطلقه، وقُتل معاوية بن الجَوْن، وأَسر قيس بنُ المُنتَفِق عمرو بنَ أبي عمرو ابن عُدُس، فجزَّ ناصيتَه، وأطلقه طَمعاً في المكافأة، فلم يفعل، وقُتل جماعةٌ من سَرَوات الناس منهم: مُنْقذ بن طَريف الأَسدي، ومالك بن رِبْعي بن جندل بن نَهشل، وأكثر الشعراء في يوم جبلة، قال جرير: [من الطويل]

كأنَّك لم تَشهد لقيطاً وعامراً ... وعَمرو بنَ عَمرو إذ دعا يا لَدارِمِ
ويومَ الصَّفا كنتُم عَبيداً لعامرٍ ... وبالحَزْن أصبحتُم عبيدَ اللَّهازمِ[1]

وقال المعَقِّر البارِقي: [من الطويل]

أَمِن آلِ شَعثاءَ الحُمولُ البَواكرُ ... مع الصُّبح أم زالَتْ قُبَيلُ الأَباعِرُ
وحلَّتْ سُليمى[2] في هِضابٍ وأيْكةٍ ... فليس عليها يومَ ذلك قادِرُ
وصَبَّحها أملاكُها بكتيبةٍ ... عليها إذا أمسَتْ من الله ناظِرُ
معاويةُ بنُ الجَوْن ذُبْيانُ حولَه ... وحسَّانُ في جَمْع الرِّباب مُكاثِرُ

---

(١) العقد ٥/ ١٤٣، وهما في النقائض ٤٠٩ـ٤١٠.

(٢) في النسخ: فحلت وجالت، والمثبت من العقد ٥/ ١٤٤، والنقائض ٦٧٦، والأغاني ١١/ ١٦٠.

وقـد زحـفَـتْ دُوْدانُ تَـبـغـي ثُـؤورَهـا وجـاشـت تـمـيـمٌ كـالـفـحـول تُـخـاطِـرُ
وقـد جـمـعـوا جـمـعـاً كـأنّ زُهـاءَه جَـرادٌ هَـفـا فـي هَـبْـوةٍ مُـتَـطـايـرُ
ومـرُّوا بـأَطـنـابِ الـبـيـوتِ فـردَّهـم رجـالٌ بـأطـرافِ الـبـيـوت مَـسـاعـرُ
فـبـاتـوا لـنـا ضَـيـفـاً وبِـتْـنـا بـنِـعـمَـةٍ لـنـا مُـسـمِـعـاتٌ بـالـدُّفـوف وسـامِـرُ
وصـبَّـحـهـم عـنـد الـشُّـروق كـتـائـبٌ كـأركـان سَـلْـمـى سَـيـرُهـا مُـتـواتِـرُ
كـأن نَـعـامَ الـدَّوِّ بـاض عـلـيـهـم وأعـيـنُـهـم تـحـت الـحَـبِـيـك خَـوازِرُ
أظـنَّ سَـراةُ الـقـوم أنْ لـن يُـقـاتِـلـوا إذا دعـمـت بـالـصدر[1] عَـبْـسٌ وعـامـرُ
ضَـربْـنا حَـبيكَ الـبَـيْـض في غَـمْـر لُـجَّـةٍ فـلـم يَـنْـجُ في الـنَّـاجِـين منهـم مُـفـاخِـرُ

ومنها:

فأَلقَتْ عصاها واستقرَّتْ بها النَّوى كـمـا قَـرَّ عـيـنـاً بـالإيـاب الـمُـسـافـرُ

وقيل: إن هذا البيت لراشد بن عبد ربّه، وكان رسول الله ﷺ قد ولّاه المظالمَ بنَجران، فقال: [من الطويل]

صحا القلبُ عن سَلْمى وأَقصَر شَأْوُه وردَّت عـلـيـه مـا بَـعَـتْـه[2] تُـمـاضِـرُ
وحَـلَّـمَـه شَـيـبُ الـقَـذال عـن الـصِّـبـا ولـلـشَّـيـبُ عـن بـعـض الـغِـوايـةِ زاجـرُ
فـأقـصـر جَـهـلـي الـيـوم وارتَـدَّ بـاطـلـي عـن الـلّـهـو لـمّـا ابـيضَّ مـنـي الـغَـرائـرُ
وخـبَّـرهـا الـواشـون أنْ لـيـس بـيـنـهـا وبـيـن قُـرى بُـصـرى وحـوران كـافـرُ

فأَلقَتْ عصاها واستقرَّتْ بها النَّوى... البيت

ومنها يوم جَدُود، وهو موضع فيه ماء يُسمّى الكُلاب، كان الحَوْفَزان بنُ شَريك على بني سعد، طعنه قيسُ بن عاصم فبقي الحوفزان أياماً ومات.

وقال أبو عبيدة: غزا الحوفزان وهو الحارث بن شَرِيك، فأغار على مَنْ بالقاعةِ من بني سعد بن زيد مَناة، فأخذ نَعَماً وشاءً، وأخذ الزَّرقاء من بني رُبَيْع بن الحارث، فأُعْجِبَ بها، وأُعْجِبت به، فلم يتمالك أن وَقعَ عليها، فلما انتهى إلى جَدود منعتْه بنو يَربوع أن يَرد الماء، ورئيسُهم عُتيبة بنُ الحارث بن شهاب فقاتلهم، فلم يكن له بهم

(١) كذا، وفي المصادر: إذا دُعيت بالسفح.
(٢) العقد ٥/١٤٦ و٢٨٦، قوله: بعته؛ أي: أصابت منه، انظر اللسان، والتاج (بعو).

طاقةٌ، فصالحهم على أن يُعطيهم بعضَ الغنائم. ووَرد الماء، وأجازوه ومَن معه من بَكْر[(١)]، وبلغ قيسَ بن عاصم فركب في آثارهم، ومعه بنو سعد، وقال: [من الطويل]

جَزى الله يَرْبوعاً بأسوأ سَعيِها ... إذا ذُكرت في النّائباتِ أُمورُها
ويومَ جَدُودٍ قد فَضحتُم أباكُمُ ... وسالَمْتُم والخيلُ تَدمى نُحورُها[(٢)]

فأدركه قيسٌ وقد أَرْدَفَ الزَّرقاءَ خلفَه على فرسه، وعَقَدَ شَعْرها بصدره، فناداه قيسٌ: يا [أبا] حِمار أنا لك خير من البيداء والعطش، فقطع قرونَ الزَّرقاء وأَلْقاها عن الفرس، وأدركَه قيسٌ فطعنه فأصاب وَرِكَه، ومضى، فمات بعد أيام، وَردَّ قيسٌ الزَّرقاء إلى بني رُبَيع، وفيه يقول سَوَّار بن حيَّان المِنقريّ: [من الطويل]

ونحن حَفَزْنا الحَوْفَزان بطَعنةٍ ... سَقَتْه نَجيعاً من دم الجَوْفِ أشكَلا[(٣)]

ومنها يوم **الحاجِزْ**، قُتِلَ فيه وائل بن صُرَيم اليَشْكُري، قتله بنو أُسَيِّد بن عمرو بن تميم، كانوا يَغْمسونه في الماء، ويقولون: [من الرجز]

يا أيُّها الماتِحُ دَلْوي دُونَكا

حتى مات، فغزاهم أخوه باعِثُ بنُ صُرَيْم، فقتل منهم مئة سَيِّدٍ من ساداتهم[(٤)].

ومنها يوم **حُسا**، لمّا أصاب بنو عَبْس من ذُبيان يوم المُرَيْقِب، اجتمعوا والتَقوا بذي حُسا، وهو وادي الصَّفا من أرض اليَعْمَريّة، فهربت بنو عَبْس خوفاً أن لا يقوموا ببني ذُبْيان فقالوا: الفِداء أو الفَناء، فأشار قيسُ بنُ زهير على الرَّبيع بن زياد أن لا يناجزَهم، وأن يعطوهم رهائنَ من أبنائهم حتى ينظروا في أمرهم، فاتفقوا أن يكون الرَّهْنُ عند سُبَيع بن عمرو، أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذُبْيان، فدفعوا إليه ثمانيةً من أبنائهم وانصرفوا.

وكان من رأي الرَّبيع مناجزتُهم، فصرفه قيس عن ذلك، وحضرت سُبَيْعاً الوفاةُ، فقال لابنه مالك بن سُبَيْع: إنّ عندك مَكرمةً لا تَبيد إن أنت حَفظتَ هؤلاء الغِلْمةَ،

(١) في العقد ٥/ ١٩٩: فصالحوهم على أن يعطوا بني يربوع بعض غنائمهم، على أن يخلوهم يردوا الماء، فقبلوا ذلك وأجازوهم.
(٢) النقائض ١٤٦ و٣٢٧، والأغاني ١٤/ ٧٩، والعقد، والأنوار ١/ ٩٣.
(٣) العقد ٥/ ٢٠١ وما بين معكوفين منه، وانظر الحاشية السابقة.
(٤) العقد ٥/ ٢١١.

وكأني بخالِك حُذيفة بنِ بدر قد جاءك، وعَصر عينيه وقال: هلك سيِّدُنا، ثم خدعك حتى تدفعَهم إليه فيقتلَهم، ولا تَشْرُفُ بعدها أبداً، فلما مات سُبَيع، جاء حُذيفةُ، فخدع مالكاً، وأخذ الغِلْمة فقتلهم، فكان كل يوم يُخرج واحداً واحداً، ويقول: نادِ أباك، فيناديه، فينصبه غَرَضاً ويقتله[١].

ومنها يوم حَليمة، وحَليمة بنتُ الحارث بن أبي شَمِر الغساني، وكان بين الحارث وهو ملك الشام، وبين المُنذر بن ماء السماء ملك العراق، سار المُنذرُ بعرب العراق إلى الشام، فالتقيا بمشاريق الشام، وكان يوماً عظيماً لم يكن في أيّام العرب مثلُه، ارتفع الغبارُ حتى سدَّ عين الشمس، وظهرت الكواكبُ في وَسط النهار، وزاد الفريقان على أربع مئة ألف، فخرجت حليمةُ كاشفةً رأسَها في المعركة تُحرِّض النّاس.

وفي هذا اليوم للعرب أمثالٌ منها: ما يوم حَليمةَ بسِرّ، أي: ليس بمخفيّ، ومنها: لأُرينَّك الكواكبَ نهاراً، ومنها: أعزُّ من حَليمة[٢].

وفي المثل: ما يوم حليمة بسرّ؛ يُضرَب لكلِّ أمرٍ متعالَم مشهور، وجَّه أبوها جيشاً إلى المُنذر بن ماء السماء، فأخرجتْ لهم طِيْباً في مِرْكَن، فطيَّبَتْهم، فنُسب اليوم إليها، وكانت الدائرةُ على المُنذر قُتل في ذلك اليوم، وانهزمت جيوشُ العراق، ولم يتبعهم الحارث، فماتوا في البرِّية عطشاً وجوعاً.

ومنها يوم حَوْزة، كان بين معاوية بن عمرو بن الشَّريد السُّلَمِي وبين هاشم بن حَرْمَلة أحد بني مُرَّة بن غَطفان كلام بعُكاظ، فقال له مُعاوية: والله لوَدِدتُ أني لو سمعتُ الظَّعائنَ يَندُبْنَك، فقال له هاشم: وأنا والله وَدِدتُ أني قد تَرَّبتُ الرَّطْبة، وهي جُمَّة معاوية، وكانت تَنْطِفُ دُهْناً وإن لم تُدهَن، ثم تهيَّأ معاوية ليغزو هاشماً، فقال له أخوه صخر: كأني والله بك وقد تَعلَّقَ بجُمَّتك حَسَكُ العُرْفُط، فلم ينته، وغزاهم يوم حَوْزَةَ الأول، فخرج إليه هاشم وكان ناقِهاً من مرض، فقتل معاوية.

وأما اليومُ الثاني؛ فإنه لما قُتِل معاويةُ، قتل خُفاف بن نُدْبَة مالكَ بنَ حمار الفَزاري بمعاوية وقال: [من الطويل]

(١) العقد ٥/ ١٥٤_١٥٥.

(٢) الكامل ٨٣٤، وجمهرة الأمثال ٢/ ٢٣٣، ومجمع الأمثال ١/ ٤٥ و٢/ ٢٧٢.

فإنْ تكُ خَيلي قد أُصيبَ صَميمُها فعَمْداً على عَينٍ تيمَّمتُ مالِكا

وكان هاشم على فرسه الشمَّاء، فوقع منها، وعادت، ومشى، فلقيه عمرو بن قيس الجُشَمي فقتله بمعاوية وقال: [من الرجز]

أنا قتلتُ هاشمَ بنَ حَرْمَلَهْ أَقتلُ ذا الذَّنبِ ومَنْ لا ذَنبَ له(1)

ومنها **يوم الخابور** بالجزيرة، قَتل فيه عميرُ بن الحُباب نُفَيْعَ بن سالم، وفيه يقول الشاعر: [من الكامل]

وَلَوَقْعةُ الخابورِ إن تكُ خِلْتَها خلقتْ فإن سَماعَها لم يخْلَقِ(2)

ومنها **يوم خَو**، فيه قَتل ذُؤاب بنُ رُبَيِّعة الأسديّ عُتَيبةَ بن الحارث بن شهاب صيَّادَ الفوارس، وسببُ ذلك:

أغارت بنو أَسد على بني يَرْبوع، فاستاقوا إبلَهم، وأتى الصَّريخُ إلى الحيِّ، فلم يتلاحقوا إلى آخر النَّهار، وجاء الليل وكان ذُؤابٌ على فرسٍ أُنْثى، وعُتَيبةُ على حصان، فجعل الحصان يَستَنشق ريحَ الأُنثى في سَواد الليل، ولم يعلم عُتَيْبَة إلا وقد أُقْحم حصانُه على فرس ذُؤاب، وكان عُتَيبة قد لَبس دِرْعَه، وغفل عن جَيْبها فلم يشدَّه لِعجلته، ورآه ذؤاب، فطعنه في ثُغرة نَحْره فقتله، وشدَّ الربيعُ بن عتيبة على ذؤابٍ فأسره، ولم يعلم أنه قاتلُ أبيه، فكان عنده أسيراً، حتى فاداه أبوه رُبَيِّعةُ على إبلٍ معلومة، وأن يوافيه بها إلى سوق عُكاظ في الأشهُر الحُرُم، ويوافيه الربيع بذؤاب، وأقبل رُبَيِّعةُ بالإبل، وشُغِل الربيعُ فلم يَحضر بالأسير، فلم يشكَّ أبوه أنهم قد قتلوه بعتيبة، فقال يرثيه بأبيات منها: [من الكامل]

إن يَقتلوك فقد ثَلَلْتَ عُروشَهم بعُتَيبةَ بنِ الحارث بن شِهابِ(3)

وسمعه رجل من يَرْبوع، فجاء إلى بني عُتَيبة فقال: هل تدرون من قتل أباكم؟ قالوا: لا، قال: ذؤابٌ أسيركم، وأنشدهم الشعر، فقالوا له: أنت قاتلُ أبينا، فقال: لا والله، لا أَقَرُّ عيونكم بها، فأخرجوه فقتلوه.

---

(1) العقد 5/ 165ـ166، وبيت خفاف في ديوانه 484 (شعراء إسلاميون).

(2) مجمع الأمثال 2/ 435، وفيه أن المقتول عمير بن الحُباب، والشاعر نفيع بن سالم.

(3) العقد 5/ 249، وأمالي القالي 2/ 72، وشرح ديوان الحماسة 845.

ومنها **يوم داحِس**، وهو فرس مشهور لقَيْس بن زُهَير العَبْسي، وداحِس بن ذي العُقّال، فرسُ حَوْط بن [أبي] جابر بن حَنْظَلة[1]، وكانت أمُّ داحس لقِرْوَاش بن عوف ابن عاصم، ويقال لها: جَلْوى، وإنما سُمّي: داحساً؛ لأن ذا العُقَّال نزا على جَلْوى من غير علم صاحبه حَوْط، فلما علم شَقَّ عليه، وقال: والله لا أرضى حتى آخذ ماء فَحْلي، فكرهت بنو ثعلبة الشرَّ، وقالوا: دونَك ماء فَحْلك، فأدخل يده في رَحِم جلوى، ودسّها حتى كاد أن يفتح رَحِمَها، فلم يلقَ شيئاً، ونَتِجَتْ جلوى داحساً، فرآه حَوْط فقال: ابن فَحْلي، لا أتركُه، فكرهوا الشرّ، فبعثوا به إليه ومعه قلائص، فاستحيا، فردَّه عليهم.

وتلخيصُ القصة: أنه كان من حديث داحِس والغَبْراء، أن رجلاً من بني عَبْس يُقال له: قِرْواش بن هُنَيّ بارى حَمَل بن بدر، فقال: داحِس أجودُ من الغَبْراء، وقال حَمَل: الغَبْراء أجود، وكانت الغَبْراء لحُذَيفة بن بدر، وداحِس لقيس بن زهير، وتَراهنا على عَشْر قَلائص، فأتى قِرواش إلى قيس بن زهير فأخبره بالرِّهان، فقال قيسٌ: راهِن من شئت، وجنِّبني بني بَدر فإنَّهم قومٌ يظلمون، فقال قِرواش: قد أَوجَبْنا الرهان، فقال: والله لتُشعِلَنَّ علينا شرّاً، ثم أتى قيس حملَ بنَ بدر وحذيفةَ بن بدر، فقال: إنما أتيتُك لأُواضِعك الرِّهان عن صاحبي، فقال: لا والله، أو تجيءَ بالعَشْر قلائص، فأَحْفَظ ذلك قيساً، وغضب، وتزايدا حتى بلغا مئةَ قَلُوص، ووضعا الرهان على يَدَيْ غَلّاق بن سعد أحد بني ثعلبة[2]، وجعلا الغاية مئة غُلْوَة، وجعلا الغُلْوَةَ من ذات الإِصاد إلى هَضْب القَليب[3]، ثم قادوا الفرسين إلى الغاية، فجعل حَمَلُ بنُ بَدْر حَيْساً في دِلاء، ووضعه في شِعْب من شعاب هَضْب القَليب، على طريق الفرسين، وأكمن فيه فتياناً، وأمرهم إن جاء داحِسٌ سابقاً أن يَرُدُّوا وجهَه إلى الغاية، فسَبق داحس، فلما دنا من الفِتية، وثب زهير بنُ عبد عمرو فلَطم وجهَه، ورَدَّه إلى الغاية، وجاءت الغَبْراء، وعَلم

(١) في النقائض ٨٣، والأغاني ١٧/ ١٨٧: حوط بن أبي جابر بن أوس بن حميري. وما بين معكوفين منهما.

(٢) في النقائض ٨٦، والفاخر ٢٢١، والأغاني ١٧/ ١٩١، ومجمع الأمثال ٢/ ١١١: ووضعا السَّبقَ على يَدَيْ غلّاق أو ابن غلاق أحد بني ثعلبة بن سعد.

(٣) الغلوة: الرمية بالنُّشابة، وهذه أسماء مواضع.

قيس بن زهير والذي على يده الرِّهان بذلك، فقال قيس لحُذيفة: يا حُذيفة أعطني سَبَقي، وقال الذي على يده الرِّهان: يا حذيفة أعطه سَبَقه، فقد سبق داحس، فأعطاه السَّبَق، فقال قيس بن زهير[1]: [من الوافر]

كما لاقيتَ من حَمَلِ بن بدرٍ وإخوتِه على ذات الإصادِ
هُمُ فَخَروا عليَّ بغير فَخْرٍ وَرَدُّوا دون غايتِه جَوادي

ثم إن جماعةً من قوم حُذَيفة نَدَّموه على دَفْعه السَّبَق إلى قيس، ونهاه آخرون عن الشَّرِّ، وقالوا: إن قيساً لم يسبقك إلى مَكْرُمَة، وإنما سبقت دابَّةٌ دابةً فأبى، وبعث ابنَه مالك بنَ حُذيفة، وكنيتُه أبو قِرْفة إلى قيس يطلب منه السَّبَق، فقال له: هذا سبقي، فكيف أُعطيكم إياه، فتناول ابنُ حذيفة من عِرْض قيس وشَتمه، وأَغلظ له، وكان إلى جانب قيس رمحٌ، فطعنه فدقَّ صُلْبه، واجتمع الحيّان فأدَّوا دِيَةَ المقتول مئةً من الإبل، دفعاً للشر، فأخذها حذيفةُ، وسكن النّاس، ثم إن قوم حذيفة ندَّموه فعاد القتال بينهم، حتى تفانَوْا.

وفي هذه القصة يقول بِشر بن أُبَيّ [بن] حُمام العَبسيّ: [من الطويل]

إنّ الرِّباط النُّكْدَ من آل داحِسٍ أَبَيْنَ فما يُفْلِحْن يومَ رِهانِ
جَلَبْنَ بإذن الله مَقتَلَ مالكٍ وطَرَّحْنَ قيساً من وراء عُمانِ
لُطِمنَ على ذات الإصادِ وجَمعُكُم يَرَونَ الأذى من ذِلَّةٍ وَهوانِ
سيُمنَعُ منك السَّبْقُ إن كنتَ سابقاً وتُقْتَلُ إن زَلَّت بك القَدمانِ[2]

وحَمَل الحارث بنُ عَوف المُرِّي الدماءَ بين القبيلتين، وصالح بين عَبْس وذُبيان، فقال قيسٌ: والله لا نَظَرْتُ إلى غَطفانيّة، قَتلتُ أباها أو أخاها، ومضى إلى عُمان فأقام ببُرْقَة عُمان حتى مات.

ومنها يوم **الذَّنائب**، ظفر دُرَيد بن الصِّمَّة فيه بغَطَفان، فأخذ ثأرَ أخيه عبد الله، وفيه يقول: [من الطويل]

---

(١) في النسخ: زهير بن قيس، وهو خطأ، والبيتان في النقائض ٩٠ـ٩١، والفاخر ٢٢٠، والأغاني ١٧/ ١٩٨، والعقد الفريد ٥/ ١٥٠، ومجمع الأمثال ٢/ ١١١.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤٥٠، وللتبريزي ٢/ ٢، ونسبها ياقوت في معجم البلدان (الإصاد) ١/ ٢٠٥ إلى بدر بن مالك بن زهير. الرباط: الخيل المربوطة، النكد: جمع أنكد، القليل الخير، وقوله: أبين فلا يفلحن، دعاء على داحس ونسله.

جَـزيْـنـا بـنـي عَـبْـسٍ جَـزاءً مـوَفَّـراً ... بـمـقـتـلِ عـبـد الله يـومَ الـذَّنـائـبِ
ولـولا سَـوادُ الـلـيـلِ أَدْرَكَ رَكْـضُـنـا ... بذي الرِّمْثِ والأَرطى عِياضَ بنَ ناشبِ
قَـتَـلْـنـا بـعـبـد الله خـيـرَ لِـدَاتـه ... ذُؤابَ بـنَ أسـمـاءَ بـن زيـد بـن قـاربِ

وبلغ قوله عبد الملك بن مروان، فقال: كاد ينسُبه إلى آدم، وليت أن الشمس لم تَغب له قليلاً حتى يُدركَه.

وقالت رَيحانة أمُّ دريد: يا بُني إن عَجزت عن أخذ الثأر ممن قتل أخاك، فاستعن بأخوالك من زبيد، فأنف من كلامها، وغزاهم بنفسه، فأَسر ذؤابَ بنَ أسماء، وجاء به إلى فِنَائها فقتله بعبد الله ابنها[(١)].

ومنها **يوم الرَّقَم**، عُقِر فيه قُرْزُل فرسُ عامر بن الطُّفَيل[(٢)].

قال أبو عبيدة: أغارت بنو عامر على بلاد غَطَفان بالرَّقم، وعلى بني مُرَّة عامرُ بن الطُّفَيل، فركب عُيينة بن حِصْن في بني فَزارة، ويزيد بنُ سِنان في بني مُرَّة، والتقَوا فانهزمت بنو عامر، وجعل عامر بن الطُّفيل يقول: [من الرجز]

يـا نـفـسُ إن لـم تُـقـتـلـي تـمـوتـي ... هـذي حِـيـاضُ الـمـوتِ قـد صَـلـيـتِ[(٣)]

فيقال: إن غَطَفان أصابت من بني عامر أربعةً وثمانين رجلاً فقتلوهم، وانهزم الحكم بن الطُّفَيل في نفرٍ من أصحابه فعطشوا، فخنق الحكمُ نفسَه تحت شجرة خوفاً من المُثْلة، فقال فيه عُروة بن الوَرْد: [من الطويل]

عَـجِـبـتُ لـهـم إذ يَـخـنُـقـون نـفـوسَـهـم ... ومَـقـتـلُـهـم تـحـت الـوَغى كـان أَعـذَرا[(٤)]

ومنها **يوم الزُّوَيْرَين**، وهما جَملان مَقرونان. أغارت بنو تميم على بَكْر، وأقبلتْ بجمَلَين مَقْرونَين، وقالوا: لا نُولّي حتى يولِّي هذان الجملان، واقتتلوا، فانهزمت بنو

(١) هذا الخبر عن يوم الصلعاء لا الذنائب، انظر العقد ٥/ ١٧٢، ومعجم البلدان ٣/ ٤٢٢، والأبيات في الأصمعيات ١١١، والخبر والأبيات في الأغاني ١٠/ ١٣، وديوان دريد ٢٧.

(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٤٤٠، وعنه نقل، وإنما اسم فرس عامر بن الطفيل المعقور: كلب، وقرزل اسم فرس الطفيل بن مالك، والد عامر، انظر شرح المفضليات للأنباري ١/ ٦٢، ونسب الخيل لابن الكلبي ٤٩، وأسماء خيل العرب لابن الأعرابي ٦٣، وللغندجاني ١٩٨.

(٣) شرح المفضليات ١/ ٦٢، والعقد الفريد ٥/ ١٦٠، وتروى لعبد الله بن رواحة في السيرة ٢/ ٣٧٩.

(٤) ديوانه ٨٢.

تميم، وأخذت بَكْر الجملين فنحروهما، وأكلوهما.

قال شاعرهم: [من البسيط]

نحن الذين هَزَمْنا يوم صَبَّحنا جيشَ الزُّوَيْرَين في جمع الأحاليفِ[١]

ومنها **يوم السُّوبان**، أغارت بنو عامر على تميم وضَبَّة، وكان على ضَبَّة حسَّان بن وَبرة، أخو النّعمان بن المُنذر لأمّه، فأسره يزيد بنُ الصَّعِق، وانهزمت تميم، وفدى حسّان نفسَه بألف بعير، وهي ديَةُ المُلوك، وكان عامر بنُ مالك بن جعفر يَنتقل من سَرْج الفرس إلى جانبه، ومن جانبه إلى ظهره، فسُمِّي ملاعب الأَسِنَّة[٢].

ومنها **يوم الشَّقيقة**، كان بِسطام بن قيس قد أغار على بني ضَبَّة، فاسْتاق ألفَ بعير لمالك بنِ المُنْتَفِق الضَّبِّي، وكان مالك في الإبل، فَركض فرسَه، وأنذرَ قومَه، فركبوا وركب فيهم عاصم بنُ خَليفةَ الصّباحي، فقال عاصم: مَن رئيسُ القوم؟ قالوا: بِسطام ابن قيس، وأشاروا إلى بسطام، وكان على فرسٍ أَدْهَم، فحمل عليه عاصم، فطعنه في أُذنه فأنفَذَه. ووَلَّتْ بنو شيبان، فهم بين قتيلٍ وأسير، وجريح وكسير، وأُسِر بجاد بنُ قيس أخو بِسطام، وقتلوا تسعين من أعيان بني شَيبان[٣]، وكان بِسطام عظيماً في بني شيبان، وفيه يقول عبد الله بنُ عَنَمة الضَّبِّي: [من الوافر]

لك المِرْباعُ منها والصَّفايا وحُكمُكَ والنَّشيطَةُ والفُضولُ[٤]

المِرْباع: ما يأخذُه الرئيس، وهو رُبع الغنيمة. والنَّشيطة: ما يَغنمُه الغُزاةُ في الطريق قبل البلوغ إلى المَوضِع الذي قصدوه، والفُضول: ما يَفضُل من السَّبْي.

وكان عاصم بن خليفة يُضعَّفُ في عقله، زار يوماً أمَّه وبيده حديدة، وهو يصْقُلُها، فقالت له: ما تصنعُ بها؟ قال: أصقُلُها لأقتُلَ بها بِسْطام بن قيس، فقالت مستخفةً به: اسْت أمِّك أضيقُ من هذا.

وأدرك عاصم أَوّلَ الإسلام فأسلم. وكان إذا طلب الإذن على عُمر رضي الله عنه، يقول:

---

(١) العقد ٥/ ٢٠٦.

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٧٧.

(٣) في النقائض ٢٣٥، والعقد ٥/ ٢٠٣: وأسر بنو ثعلبة بجادَ بنَ قيس في سبعين من بني شيبان.

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٠٢٤، والنقائض٢٣٦، والعقد ٥/ ٢٠٤.

ائذنوا لعاصم قاتل بِسْطام، يفتخر بذلك.

ومنها **يوم الشَّيِّطين**، كان في أوّل الإسلام، سارت بكر إلى السَّواد، وقالوا: نُغير على تميم، فإن في دين ابنِ عبد المُطَّلب: مَن قتل نَفْساً قُتل بها، فنشنُّ هذه الغارة ثم نُسلِم، فساروا من لَعْلَع إلى الشّيّطين في أربع ليال، وبينهما مسيرة أيام، فسبقوا أخبارهم، وصبّحوا بني تميم وهم غارُّون، فقتلوا فيهم قَتْلاً ذَريعاً، فيقال: إنّهم قتلوا منهم ست مئة رجل، وسَبَوْا، واستاقوا الأموال، ثم بعثوا وافِدَهم إلى رسول الله ﷺ، وأسلموا بعد ذلك(١).

ومنها **يوم عاقل**، قُتِل فيه خالدُ بن جعفر، وذلك لأن خالداً وعُروة الرَّحّال قَدِما على الأسود بن المُنذر أخي النّعمان، وعند الأسود الحارثُ بنُ ظالم الذُّبياني، فوضع الأسود بين أيديهم تمراً على نِطْع، وجلسوا يأكلون، فقال خالد للحارث: يا حارث، لي عندك يدٌ، قتلتُ سيّدَ قومك زهيراً وتركتُك، وكان مع زهير يوم قُتِل، وجعل خالد يكرّر عليه القول، فقال الحارث: سأُخبِرك بشُكْر ذلك(٢)، ثم قام الحارث وخرج، فقال الأسود لخالد: ما دعاك إلى أن تتحرّشَ بهذا الكلب وأنت ضَيْفي؟ فقال خالد: إنما هو عبدٌ من عبيدي، ولو رآني نائماً ما أيقَظني، وانصرف خالدٌ إلى قُبَّته، ولامه عُروةُ الرَّحّال، وناما فلما هدأت العُيون، أخرج الحارث ناقتَه، وقال لخراش: كن لي بمكان كذا، فإنْ طلع كوكبُ الصُّبح، ولم آتك، فاذْهب حيثُ شِئتَ، ثم دخل القُبَّة، فقتل خالداً وخرج، وانزعج عروةُ الرَّحّال، وصاح، فاجتمع الناس، وهرب الحارث، وبلغ الأسود، وعنده امرأةٌ من بني عامر، يقال لها: المُتَجرِّدة، فشقَّت جيبَها وصرخت، فقال عبد الله بن جَعْدة يرثيه: [من الكامل]

شَقَّت عليه العامريَّةُ جَيبَها ... أسفاً وما تبكي عليه ضَلالا
يا حارِ لو نَبَّهتَه لوجدتَه ... لا طائشاً رَعِشاً ولا مِعْزالا
ولَنَقتُلَنَّ بخالدٍ سَرَواتِهم ... ولنجعلَنْ للظالمين نَكالا

ومنها **يوم الغَبيط**، ويُقال له: يوم الثّعالب، غزا بِسْطام بن قيس، ومفروق بن عمرو، والحارث بن شَريك، وهو الحَوْفَزان، بلادَ بني تميم، فأغاروا على بني ثَعْلبة ابن يَرْبوع، وثعلبة بن سعد بن ضَبَّة، وثعلبة بن عَديّ بن فَزارة، وثعلبة بن سعد بن

(١) النقائض ١٠٢٠، والعقد ٥/ ٢٠٦، قوله: غارون: غافلون.

(٢) في العقد ٥/ ١٣٨: سأجزيك شكر ذلك.

ذبيان، وكانوا متجاورين بصحراء فَلْج، فاقتتلوا، فانهزمت الثّعالب، وساقوا أموالَهم، ولم يشهدْ عُتَيبة بنُ الحارث بن شهاب هذه الوقعةَ، لأنه كان نازلاً في بني مالك بن حَنْظلة، ثم أغار بِسْطام بن قيس وأصحابه ـ في وجههم ذلك ـ على بني مالك بن حَنْظَلة، وهم بصحراء فَلْج والغَبيط، فأخذوا إبلَهم، فركب عُتيبة بن الحارث بن شِهاب وراءهم في بني مالك، ومعه فرسان بني يَرْبوع، فأدركهم بغَبِيْط المَدَرة فقاتلوهم، فظهروا عليهم، ولحق عُتيبةُ ببسطام بن قيس، فقال له: اسْتَأْسِر أبا الصَّهباء، فأنا لك خيرٌ من الفَلاة والعطش، فقال: من أنت؟ فقال: عتيبةُ بنُ الحارث، فاستأسر له، ففَدى نفسَه بأربع مئة بعير، وثلاثين فرساً، وكان عظيمَ القَدْر، لم يكن عربيٌّ عُكاظيٌّ أعلى منه قَدْراً، وجَزَّ عتيبةُ ناصيتَه، وعاهده أن لا يغزوه أبداً، وردَّ عُتيبةُ الأموالَ والسَّبايا، وقال: [من البسيط]

أَبْلِغْ سَراةَ بني شَيبانَ مَأْلُكَةً   أنّي أَبَأْتُ بعبد الله بِسْطاما
قاظَ الشَّرَبَّةَ في قَيْدٍ وسِلْسِلةٍ   صوتُ الحديد يُغنّيه إذا قاما[1]

ومنها يوم **قُحقُح**[2]، لبني يَرْبوع على بكر، قَتل المِنهالُ بنُ عِصْمَة المُجَبَّه بنَ ربيعة، فقال ابن نِمْران الرِّياحيّ: [من الكامل]

وإذا لَقيتَ القومَ فاطعنْ فيهمُ   يومَ اللِّقاء كطعنةِ المِنهالِ
تَرك المُجبَّهَ للضِّباع مُجَنْدلاً   والقومُ بين سَوافلٍ وعَوالِ

ومنها **يوم فيحان**، لما فدى نفسَه بِسطامُ بنُ قيس من عُتيبةَ بأربع مئة ناقة، وثلاثين فرساً، قال وَلَده: لأُدركنَّ بثأر أبي، فأغار فأَسر الربيعَ بن عتيبة، واسْتاق مالَه، فلما سار يومين، اشتغل ابنُ بِسطام عن الربيع بالشُّرْب، وكان الربيع قد بال[3] على قِدّه حتى لان، فحَلَّه وركب [ذات] النُّسوع[4] ـ فرسَ بِسْطام ـ وهرب، ونذروا به فركبوا خلفه، فلم يدركوه، وجاء إلى الحيّ فنزل عن الفرس، فماتت في الحال، فدَفنها،

(١) النقائض ٧٦ و٣٦٥، والعقد ٥/ ١٩٧، الشربة: موضع، وقاظ: أقام زمن القيظ، والمألكة: الرسالة، وأبأت: عاقبت.

(٢) لم تجود الكلمة في النسخ، والمثبت من العقد ٥/ ١٩١.

(٣) في العقد ٥/ ٢١٠: مال.

(٤) في النسخ: وركب الشموع، والمثبت من العقد ٥/ ٢١٠، وأسماء خيل العرب لابن الأعرابي ٧٧، وللغندجاني ١٠٤.

فسُمّي ذلك المكان: قبر[(١)] الفرس، وأخلف له أبوه مالَه.

ومنها يوم قِضَة، وهو من حرب البسوس، كانت بَكْر قد قتلت بُجَير بنَ الحارث بن عُباد، فخرج أبوه في قبائل تَغْلب، يطلب ثأرَ ابنه من بَكْر، وكان له فرسٌ يقال لها: النَّعامة، فقال: [من الخفيف]

قَــرِّبــا مَــرْبَــطَ الــنَّــعــامــة مــنِّــي   لَــقِــحــتْ حــربُ وائــلٍ عــن حِــيــال[(٢)]

وركبها، وكان معه مُهَلْهِل التغلبي والتقوا، فانهزم الحارث بن عباد، فنجا، وهرب مُهلهل، فنزل على جشم في مكان يقال له: جَنْب، فخطبوا إليه ابنتَه، فأبى، فساقوا إليه المَهْر، وفيه جلود من أَدَم، فقال: [من المنسرح]

أَعــزِزْ عــلــى تَــغْــلــب بــمــا لَــقِــيَــتْ   أخــتُ بــنــي الأكــرمــيــن مــن جُــشَــمِ
أَنــكــحــهــا فَــقــدُهــا الأراقــمَ فــي   جَــنْــبٍ وكــان الــحِــبــاءُ مــن أَدَمِ
لــو بــأبــانَــيْــن جــاء يــخــطُــبُــهــا   زُمِّــل مــا أَنْــفُ خــاطــبٍ بــدَمِ[(٣)]

ومنها يوم قَطَن، وهو من أيام عَبْس وذُبيان، وذلك لأن عَبْساً لما مَثَّلوا بحُذيفة بنِ بدر يوم الهَباءة، أعظمت غَطَفانُ ذلك، وتجمّعت، وعلمت بنو عَبْس أنهم لا طاقةَ لهم بهم، فرحلوا عنهم فنزلوا اليمامةَ على أَخْوالهم من بني حَنيفة، ثم رحلوا عنهم، فنزلوا على بني سَعْد بن زيد مناة، فغدر بهم بنو سعد، واستجاشوا عليهم بمعاوية بن الجَوْن[(٤)]، ورحل بنو عَبْس عنهم لما علموا بذلك، وقدَّموا ظُعُنَهم، ووقفت فرسانُهم بمكان يقال له: الفَروق، وأغارت بنو سَعْدٍ عليهم ومن معهم من جنود الملِك ابنِ الجَوْن، فلم يجدوا في منازلهم إلا مَواقِد النار، فاتَّبعوهم إلى الفَروق، وإذا بالفرسان

(١) في العقد: هَبير. وهو ما اطمأن من الأرض.

(٢) الأصمعيات ٧١، وتخريجها ثمة.

(٣) هذا السياق فيه أكثر من خطأ، فالحارث بن عباد من بني بكر، ومهلهل بن ربيعة كان رأس تغلب وسيدها في حروبها ضد بني بكر، ولم يكن مع الحارث، وإنما أسره الحارث بن عباد البكري، ولم يكن يعرفه، ثم أطلقه. انظر الشعر والشعراء ١/ ٢٩٨، والكامل للمبرد ٢/ ٧٧٥، والأغاني ٥/ ٤٧ـ٥١، والعقد الفريد ٥/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢، وديوان الحارث ١٣٠.

(٤) استجاشوا: طلبوا منه جيشاً.

والرَّجَّالة والظُّعُنِ، فانصرفوا عنهم، ومضى بنو عَبْس إلى بني ضَبَّة فأقاموا فيهم[1]، ثم رجعوا إلى قومهم بني ذُبيان فصالحوهم، ثم جرى بينهم أمرٌ فالْتَقَوا، ثم اصطلحوا.

وسببُ ما جرى بينهم أن حَرْمَلَة بن الأَشْعَر بن صِرمَة بن مُرَّة سعى لهم في الحَمالة بينهم، فمات، فسعى ابنُه هاشم بن حَرْملة، فلما توافقوا على الصلح، وقفت بنو عَبْس بقَطَن، فأقبل حُصين بن ضَمْضَم، فطعن تَيْحان المخزومي، فقتله بأبيه ضمضم، فقالت بنو عبس: لا نصالحهم أبداً، والتقوا بقطن، فسفر بينهم السُّفَراء، فاصطلحوا.

ومنها **يوم الكَدِيْد**، قُتل فيه ربيعة بنُ مُكَدَّم فارس كِنانة، قتلته بنو سُلَيم، وهو من بني فِراس بن غَنْم، وهو أنْجد العرب، كان الرجل منهم يُعَدّ بعشرة من غيرهم، وقد مدحهم عليٌّ عليه السلام، فقال: يا أهل الكوفة، وَدِدتُ والله أن لي بجميعكم، وأنتم مئةُ ألف، ثلاثَ مئة من بني فِراس بن غَنْم.

وكان يُعْقَر على قبر ربيعة بن مُكَدَّم في الجاهلية، ولم يُعْقَر على قبر أحدٍ سواه[2].

ومنها **يوم الكُلَاب الأول**، لما غلب سُفهاء بَكْر بن وائل على كُبَرائها، اجتمع رؤساؤهم، وقالوا: الرأي أن نُمَلِّكَ علينا ملِكاً يُنْصِفُ المظلومَ من الظالم، ويَردعُ القويَّ عن الضعيف، فأتوا تُبَّعاً، وعَرَّفوه أمرَهم، فولّى عليهم الحارث بن عَمرو الكِنْدي، آكل المُرار، فقدم عليهم، ونزل ببَطْن عاقل، فغزا ببكرٍ، حتى انتزعَ ما في أيدي ملوك الحيرة اللَّخميِّيْن، وما في أيدي الغسَّانيين، وردَّهم إلى أقصى أعمالهم، ثم طُعِنَ في بطنه ببطن عاقل، فمات.

وخلّف ابنيه شُرَحْبيل وسلمة، فاختلفا [في المُلك] وتواعدا الكُلاب، وأقبل شُرَحبيل في ضَبَّة والرِّباب وبني يربوع وبكر بنِ وائل، وأقبل سَلمةُ في النَّمِر[3]، ومالك ابن حنظلة، وعليهم سفيان بن مُجاشع، وتَغلب، وعليها السَّفَّاح لأنه سفح أَسْقِيَةَ قومه، وقال: اسبقوهم إلى الكُلاب، فسبقوا ونزلوا عليه، والتقوا واستحرَّ القتلُ في

(١) في النسخ: فصالحوهم، والمثبت من العقد ٥/ ١٥٨، وقد جمع المصنف هنا بين يومي قطن والفروق، وانظر النقائض ٤٢٠.

(٢) العقد ٥/ ١٧٤، وانظر الأنوار ١/ ١١٣.

(٣) في النسخ: اليمن، والمثبت من العقد ٥/ ٢٢٣ وما بين معكوفين منه.

بني يربوع، فشدَّ أبو حَنش على شُرحبيل فقتله، وكان شُرحبيل قد قتل ابنَه حَنشاً، وبعث أبو حَنش برأس شُرحبيل إلى سلمة مع عَسيف له، وخاف أبو حَنش من سلمة أن يَحمله بنفسه، فلما حصل الرأسُ بين يَدَيْ سلمة، دمعت عيناه وقال للعَسيف: أنت قتلتَه؟ قال: لا، وإنما قتله أبو حَنش، فقال سلمة: أنا أدفع الثَّواب إلى قاتِله، وجاء العَسيفُ فأخبر أبا حنش، فخاف فهرب، فقال سلمة: [من الوافر]

تَـعـلَّـم أن خـيـرَ الـنَّـاسِ طُـرّاً قـتـيـلٌ بـيـن أحـجـارِ الـكُـلابِ
تَـداعـتْ حـولـه جُـشَـمُ بـنُ بَـكـرٍ وأسـلَـمَـه جَـعـاسـيـسُ الـرِّبـابِ(١)

وأما **الكُلاب الثاني**: أغار بنو تميم على لَطِيمة(٢) لكِسْرى، فيها مِسْك وعَنْبر وجوهر كثير ومالٌ عظيم، فأخذوها، فأوقع بهم كِسْرى في هَجَر، فأخذ الأموال وسبى الذُّريّة، فاجتمع رؤساؤهم: أكثم بن صَيْفي الأُسيِّدي، وقيس بن عاصم المِنْقري، والزِّبْرقان بن بدر السَّعدي وغيرهم، وقالوا: قد أَغْضبنا الملك، ولا نأمن ذِئاب العرب أن تتخطَّفنا، فماذا ترون؟ فمسح أكثم بن صيفي يده على صدره وقلبه وقال: إني قد نَيَّفْت على التسعين، وإنما قلبي مُضْغةٌ من جَسدي، وقد نحل كما نحل جسدي، وأخاف أن لا يُدرِكَ ذهني الرأيَ لكم، فاعرضوا عليَّ آراءكم، فإني متى ما أسمع الحَزْمَ أعرفه، فقال النُّعمان بن جِساس: الرأي أن تنزلوا الكُلاب، وتنظروا في أمركم، ولا تُخبروا أحداً بحالكم، فقال أكثم: هذا الرأي فاكْتُموه، وساروا إلى الكُلاب فنزلوه، وبين أدناه وأقصاه مسيرة يوم، [وأعلاه] مما يلي اليمن، وأسفله مما يلي العراق، فنزلت سعدٌ والرِّباب بأعلى الوادي، ونزلت حَنْظلة بأسفله.

وكانوا لا يُغيرون في القَيْظ لبُعْد المسافات، وقِلّةِ المياه بها، وشِدَّة الحرّ، فأقاموا مكانهم، ولم يَعلم بهم أحد، فلما انقضى القَيْظ مَرَّ بهم رجل من هَجَر، فرأى الشاء والنَّعم، فرجع إلى ملوك هَجَر فقال: هل لكم في جارية عَذْراء، ومُهْرة سوداء(٣)، وبَكْرةٍ حمراء ليس دونها مانع؟ قالوا: وكيف؟ قال: تميم بقِدَّة، مُطَرَّحين غارّين، فسار

(١) النقائض ٤٥٥، والعقد ٥/ ٢٢٣، والأغاني ١٢/ ٢١٢، والأنوار ١/ ٢١٦، والجعاسيس: جمع جُعسوس، القصير الدميم.

(٢) اللطيمة: القافلة التي تحمل البزَّ والطيب. فقه اللغة ١/ ٤٩.

(٣) في «العقد» ٥/ ٢٢٥: شوهاء، وهي الطويلة الرائعة.

إليهم أربعةُ أَملاك يُقال لهم: اليزيديّون، وهم: يزيد بن عبد المَدَان، ويزيد بن المأمور، ويزيد بن هَوْبر، ويزيد بن المُخَرّم، ومعهم عبد يغوث الحارثي، وساروا حتى إذا كانوا ببلاد باهِلَة، قال جَزْء بن جَزْء الباهلي لابنه: يا بُنيّ، هل لك في أُكرومة لا يُصاب مثلُها؟ قال: وما هي؟ قال: هذا الحيُّ من تميم، قد لجأوا إلى هذا المكان خوفاً من العرب، وهذا الجيش يأخذهم، فارْكَبْ جملي الأَرْحَبيّ، وسِرْ سيراً رويداً، عُقْبَةً من الليل، ثم أَنِخْه وحُلَّ حَبْلَه، وتوسَّد ذِراعَه، فإذا سمعتَه قد أفاض بجِرَّته[١]، فشُدَّ حبلَه، ثم احْمِلْ السَّوط عليه، فإنك لا تسأله شيئاً من السَّير إلا أعطاكه، فحَذِّر القوم من الجيش، وكان جيشاً عظيماً، لم يجتمع مثله إلا في يوم ذي قار ويوم جَبَلة ويوم الحارث بن أبي شَمر الغَسَّاني، ففعل ابنه ما أمره، ووافاهم قُبَيْل الصُّبح، وصاح يا صباحاه، وحَذَّرهم الجيش، ودَهَمَهُمْ القَوْم، فساقوا النَّعَم، وإذا قد أقبل رجل منهم ينادي: واصباحاه، قالوا: ما الخبر؟ قال: أُتِيَ على النَّعم، وكَرَّ راجعاً نحو الجيش، ولقيه عبدُ يَغُوث الحارثي فطعنه على رأس مَعِدِته، فسبق اللَّبَنُ الدمَ، ثم تقدم عبد يَغُوث إلى الجيش وقال لهم: يا قوم أطيعوني، وامْضُوا بالنَّعَم، وخَلّوا عجائزَ تميم ساقطةً أفواههن، فقالوا: لا بُدَّ من نكاح بناتهن، فقال ضَمْرَةَ بنُ لبيد المَذْحجيّ الكاهن: انظروا إذا سُقتم النَّعم، إنْ أتتْكُم الخيلُ عُصَباً ـ العصبة تنتظر الأخرى حتى تلتحق بها ـ فإن أمرهم هَيِّن، وإن لحقوكم فردُّوا النَّعَمَ ولم ينتظر بعضُهم بعضاً، فإنّ الأمرَ شديد[٢].

وتقدمت سعد والرِّباب في أوائل الخيل، فالتَقَوا بالقوم ولم يلتفتوا إليهم، واستقبلوا النَّعم، ولم ينتظر بعضهم بعضاً، ورئيسُ الرِّباب النُّعمان بن جِساس[٣]، ورئيس سعد قيس بن عاصم، والتقى القومُ، فكان النّعمانُ أولَ قتيل؛ طعنه عبد يغوث الحارثي فقتله[٤]، وحَجَزَ بينهم الليلُ، وأَصْبحوا على راياتهم، وتنادَوْا، واعْتَزَتْ كلُّ

(١) ما يخرجه البعير فيأكله ثانية، من الاجترار.

(٢) في العقد ٥/ ٢٢٦: وإن لحق بكم القوم ولم ينتظر بعضهم بعضاً حتى يردوا...

(٣) في (خ) و(ك): الحسان، وفي (ب): الجساس.

(٤) في النقائض ١٥١، والأغاني ١٦/ ٣٣١ أن الذي قتله عبد الله بن كعب من بني حنظلة، وفي الكامل لابن الأثير ١/ ٦٢٤ أن الذي قتله يزيد بن شداد الحارثي.

طائفة، فنادى قيس بن عاصم: يا آل سعد، ونادى عبد يَغُوث: يا آل سعد، وقيس ينادي بسعد بن زيد مَناة، وعبد يَغُوث ينادي بسعد العشيرة، ونادى قيس بن عاصم: يا آل مقاعس، وكان وَعْلة بن عبد [الله] الجَرْمي بيده لواءُ اليمن، فلما سَمِعَ صوت قيس، طرح اللواء وانهزم القوم، وصاح قيس: يا بني تميم لا تقتلوا إلا فارساً، فالرجّالة لكم، فتبعوهم يقتلون ويأسرون، وأسر عِصْمةُ بن أُبَير عبدَ يَغوث الحارثي، وكان عصمةُ غُلاماً، فوضع عَبْدَ يغوث عند الأَهْتَم، وكانت عنده امرأتُه العَبْشَمِيّةُ، فأعجبها خَلْق عبد يغوث وجمالُه، فقالت: مَن أَسر هذا؟ فقال: أسرني عِصمة، فقالت: من أنت؟ فقال: سيد القوم عبد يغوث، فضحكت، وقالت: قَبَّحَك الله من سَيِّدٍ أسره مثل هذا الغلام، واجتمعت الرِّباب إلى الأهتم، وقالوا: ثَأْرُنا عندك، وكان قد قتل النّعمان ابن الجِساس ومَصاد بن ربيعة بن الحارث، فامتنع من تسليمه، وقال: لا أُسلِمُه إلا إلى مَن دَفعه إليّ، وكادت الفِتْنة أن تقع بين سعد والرِّباب، حتى أقبل قيس بنُ عاصم فضرب الأَهْتَم بقوس فهَتَمَه، فسُمي الأهتم، وأَتَوا عِصْمة، فقالوا: ثأْرُنا عندك، قتل سيِّدنا النعمان وفارسنا مَصاد، فقال: إني مُمْلِق، وقد أصبتُ الغِنى، فباعهم إيّاه، فأخذوه فشدّوا لسانَه بِنِسْعةٍ، فقال: أنتم قاتليّ لا محالة، فدعوني أنوحُ على نفسي، وأَذُمُّ أصحابي، فقالوا: أنت شاعرٌ ونخاف أن تَهجوَنا، فعاهدهم أن لا يفعلَ، فأطلقوا لسانه فقال أبياتاً منها: [من الطويل]

فيا راكباً إمّا عَرضْتَ فبَلِّغَنْ ... ندامايَ من نَجرانَ أنْ لا تلاقِيا
وتَضحكُ منّي شيخةٌ عَبْشَمِيَّةٌ ... كأنْ لم تَرى قبلي أسيراً يَمانيا

يعني امرأة الأهتم، فضربوا عُنقَه[(١)].

ومنها **يوم اللِّوى**، غزا عبد الله بن الصِّمَّة، واسمه معاوية الأصغر، من بني غَزِيّةَ، فأغار على غطفان، فأَطْرَدَ إبلاً عظيمةً، فقال له أخوه دريد: النَّجاءَ فقد ظَفِرْتَ، فقال: لا أبرحُ حتى أنحرَ ناقة، وأَطبخَ منها طعاماً لي ولأصحابي، فنحرها بمكان يقال له: اللِّوى، وقَسم الإبلَ بين أصحابه، وأَدْركه القومُ، وقُتِلَ عبدُ الله، وارتُثَّ دريد[(٢)]، وقام

(١) العقد ٥/ ٢٢٤-٢٣٠، وانظر النقائض ١٤٩ - ١٥٤، والأغاني ١٦/ ٣٢٩ - ٣٣٤، والمفضليات ١٥٧.

(٢) حُمل من المعركة جريحاً وبه رَمَق.

من بين القتلى يمشي، فنزل على امرأة من هَوَازن فأقام عندها، فداوتْه حتى برىء، فعاد إلى أهله، وقال أبياتاً أوّلُها: [من الطويل]

أَعـاذِلَ إن الـرُّزْءَ فـي مـثـل خـالـدٍ ... ولا رُزْءَ فيـمـا أَهـلـك الـمرءُ عـن يـدِ

ومنها:

أَمـرتُـهـمُ أمـري بـمُـنْـعَـرَج الـلِّـوى ... فلم يَسْتبينوا الرُّشْدَ إلا ضُحى الغَدِ
عَـلانـيـةً ظُـنُّـوا بـألـفَـيْ مُـدَجَّـجٍ ... سَـراتُـهـمُ فـي الـفـارِسـيِّ الـمـسـرَّدِ
فـلـمّـا عَـصَـوْني كنتُ منهم وقد أَرى ... غَـوايَـتَـهـم وأنّـنـي غـيـرُ مُـهـتَـدي
وهـل أنـا إلا مـن غَـزِيَّـةَ إن غَـوَت ... غَـوَيْـتُ وإن تَـرْشُـد غَـزِيَّـةُ أَرْشُـدِ

ومنها:

فـإن يَـكُ عـبـدُ الله خـلَّـى مـكـانَـه ... فـمـا كـان وَقَّـافـاً ولا طـائـشَ الـيَـدِ
قـلـيـلُ الـتَّـشَـكِّـي لـلـمـصـائـب حـافِـظٌ ... مـن الـيـوم أعـقـابَ الأحـاديـث فـي غـدِ
كَـمـيـشُ الإزارِ خـارجٌ نـصـفُ سـاقِـه ... بَـعـيـدٌ مـن الآفـاتِ طَـلَّاعُ أَنْـجُـدِ
صبـا مـا صبـا حتى عـلا الشَّيبُ رأسَه ... فـلـمـا عَـلاه قـال لـلـبـاطـلِ ابـعُـدِ[1]

ومنها **يوم مُبايض**، كانت الفرسانُ إذا كانت أيام عُكَاظ في الشَّهر الحرام، وأمن بعضُهم بعضاً، تقنَّعوا لئلا يُعْرَفوا، وكان طَريف بن تَميم لا يَتقنَّع، وكان قد قَتل شَراحيل الشَّيبانيّ، فوافى سوق عُكاظ، فرآه حَمَصيصةُ بن شَراحيل، فقال: مَن هذا؟ قالوا: قاتلُ أبيك، فصار كلّما مرَّ به يتأمَّلُه، فقال له طَريف: مالك تنظرُ إليّ؟ قال: أَتوسَّمُك لأعرفك، فللّه عليَّ إن لقيتُك لأقتُلنَّك أو تقتلني، فقال طريف: [من الكامل]

أو كـلّـمـا وردتْ عُـكـاظَ قـبـيـلـةٌ ... بَـعـثـتْ إلـيَّ عَـريـفَـهـا يَـتـوسَّـمُ
فـتَـوسَّـمـونـي إنـنـي أنـا ذاكُـمُ ... شـاكٍ سـلاحي فـي الـحـوادثِ مُـعْـلِـمُ

ومضت على ذلك مُدّة، فأغار حَمَصيصة على بني تميم وهم غارّون، فخرج إليه طريف فقتله حمصيصة، وفيه يقول الشاعر: [من الكامل]

---

(١) العقد ٥/ ١٦٨ـ١٧٠، والأبيات في الأصمعيات ١٠٧ وتخريجها ثمة. المدجّج: تام السلاح، سراتهم: أشرافهم، الفارسي المسرد: الدرع محكم النسج، كميش الإزار: مُشمّر مُجدّ، طلاع أنجد: يركب صعاب الأمور.

خاض الغَداةَ إلى طريف في الوغى حَمَصيصةُ المِغْوانُ في الهيجاءِ[(١)]

ومنها يوم مَنْعِج، قُتل فيه شَأسُ بن زهير، وكان قد أقبل من عند النّعمان بن المنذر وقد حباه بمالٍ وطِيبٍ كثير، وفيه قَطيفةٌ حمراء ذاتُ أهداب، فورد مَنْعِج، وهو ماءٌ لغَنيّ، فأناخ راحلتَه إلى جانب الرَّدْهَة، وعليها خِباءٌ لرِياح بن الأَسَل الغَنويّ، فجعل يغتسل، وامرأةُ رِياح تنظر إليه، وهو مثل الثّور الأبيض، فرماه رياح بسهم فقتله، ونَحر ناقتَه فأكلها، وضمَّ متاعَه، وغيَّب أثرَه، وفُقِد شأس، حتى وجدوا القطيفةَ الحمراء تُباع في سوق عُكَاظ، قد باعتها امرأةُ رياح، فطلبوا رياحاً ليقتلوه، فأفلت إلى قومه فنجا[(٢)].

ومنها يوم المُرَيْقِب، كان لبني عَبْس على فَزارة، اقتتلوا فانهزمت فَزارة، وقَتل عوفَ بنَ بدر عنترةُ، وقَتل أيضاً ضَمْضَماً المُرّي، وبلغ عنترة أن حُصينَ بن ضَمضم وأخاه يَتواعدانِه ويشْتُمانه، فقال: [من الكامل]

يا دارَ عَبْلَةَ بالجِواءِ تَكَلَّمي وعِمِي صباحاً دارَ عَبْلَة واسلمي

إلى أن قال:

ولقد خَشيتُ بأن أموتَ ولم تَدُرْ للحربِ دائرةٌ على ابنَيْ ضَمضَمِ
الشَّاتِمَيْ عِرضي ولم أَشتُمهُما والنَّاذِرَيْن إذا لَقيتُهما دَمي
إن يَفعلا فلقد تَركتُ أباهما جَزَرَ السِّباع وكلِّ نَسرٍ قَشْعَمِ[(٣)]

ويُقال: إن عَنترة لم يَقتل عوفَ بن بدر، وإنما قتل ضَمْضَماً المُرِّي في ذلك اليوم.

ومنها يوم النَّفْراوات، قُتِل فيه زُهير بن جَذيمة بن رَواحة العَبْسيّ، وكانت هَوازن تؤدي إليه الإتاوَة، فجاءته عجوزٌ بعُكَّةِ سَمْن، فذاقها فلم يَرْضها، فقال: ما هذا؟ فقالت: تتابعُ السنين والقَحْط، فضربها بقوس في صَدْرها، فوقَعَتْ على ظَهْرها، وبدت عورتُها، وبلغ خالد بنَ جَعْفر الكلابي فقال: والله لأقتلنّه، ثم غزاه، فخرج زُهير إليه فقاتله، فجُرِح زهير، وأقام ثلاثة أيام لا يَسقونه ماءً خوفاً عليه، فعطش. فقال: اسقُوني، فسَقَوه فمات، فقال خالد بن جعفر: [من الكامل]

(١) مجمع الأمثال ٢/ ٤٤٢، وروايته: خاض العُداة... المغوار.
(٢) العقد ٥/ ١٣٣، والأغاني ١١/ ٧٥.
(٣) العقد ٥/ ١٥٣-١٥٤، والأبيات في ديوانه ١٨٧ و٢٢١.

وقَتلتُ ربَّهم زُهيراً بعد ما ... جَدَعَ الأُنوفَ وأكثرَ الأوتارا
وجعلتُ مَهرَ بناتِهم ودياتِهم ... عَقْلَ الملوكِ هَجائناً وبِكارا[1]

ومنها **يوم وارِدات**، وهو من أيّام حرب البَسوس، ظهرت فيه بنو تَغْلب على بَكْر، وقتلت فيهم هَمَّامَ بن مُرَّة، أخو جَسَّاس لأبيه وأمه، فمرَّ به مُهَلهل فقال: والله ما قُتل بعد كليب قتيلٌ أعزُّ منك[2].

ومنها **يوم الوَقيط**، كان في الإسلام بين تميم وبَكْر بن وائل، تجمّعت اللّهازمُ ليغيروا على تميم وهم غارُّون، وكان ناشِبُ بن بَشامة العَنْبريّ أسيراً في بني سَعْد بن مالك، وكان أعورَ، وكان حَنْظلة بنُ الطُّفيل أسيراً في بني سعد بن مالك أو في بني العَنْبر، فقال ناشب: أعطوني رسولاً إلى بني العَنْبر، أوصيهم بصاحبكم خيراً، كما تفعلون معي من الإحسان، فقالوا: على أن تُوصيه ونحن حُضور، قال: نعم، فأحضروا رجلاً، فقال له ناشب: اذهب إلى بني العَنْبر، وقل لهم يُحسنوا إلى أسيرهم، وملأ كفَّه من الرمل، وأشار إلى الشمس، وقال: قل لهم يُعْروا جَملي الأَصْهب، ويركبوا ناقتي العَيْساء، و[يَرْعَوا] حاجتي في بني مالك، وأن العَوْسَجَ قد أورَق، وأن النّساء قد اشتكت، ولْيَعْصوا همّام بنَ بَشَامة فإنه مَشؤوم، ويُطيعوا [هُذَيل ابن] الأَخْنَس فإنه حازمٌ مَيمون.

فمضى الرَّسولُ إليهم وأدَّى الرِّسالة، فلم يَفهموا ما قال، وقالوا: والله لا نَعرفُ له ناقةً عَيْساء، ولا جَملاً أَصهب، ومضى الرَّسول، فقال رجل من بني العَنْبَر: ويحكم! والله إنه يقول حقّاً لو فَهمتُم، أما الرَّمْلُ الذي قَبض عليه، فإنه يقول: أتاكم عدوّكم كعدد الرمل، وأما إشارتُه إلى الشمس فإنه قال: يُوافونكم عند طُلوع الشمس، وأما الجملُ الأَصْهب فهو الصَّمَّان، والنّاقة العَيْساء هي للدَّهْناء، وهو يأمرُكم أن تَحترِزوا [فيها]، وأما بنو مالك فهو يأمرُكم أن تُنذروهم، وأن تَتَمسَّكوا بالحِلف الذي بينكم وبينهم، وأما العَوْسَج فيقول: إنهم قد لَبِسُوا السِّلاح، وأما اشْتكاءُ النساء فيقول: قد عَمِلْن لهم كلَّ ما يَحتاجون إليه حتى أسقيةَ الماء، وأما هَمَّام بن بَشَامَة فكان جَباناً يَأمرُهم

(١) العقد ٥/ ١٣٥ـ١٣٧، والأغاني ١١/ ٩٠.
(٢) العقد ٥/ ٢١٩.

بالقُعود، و[هُذَيل بن] الأَخْنَس كان حازماً يأمرهم بالرَّحيل، وأنذرت بنو عَمروٍ بني مالك، فخالفوهم، وقالوا: ما نَدري ما يقول صاحبكم، وما نحن بمتحوِّلين، وصَبَّحَتْهم اللّهازمُ، فوجدوا بني عَمْرو قد ارتحلوا، فاجتاحوا بني مالك(١).

قال المصنف رحمه الله: وقد روي أن الأسير حَمّل الرسول رسالة بغير محضر من اللّهازم، وهو الأصح لأن هذا الكلام ظاهرٌ في التحذير من الرسول، فكيف كانوا يمكِّنونه من أداء هذه الرسالة.

ومنها **يوم الهَباءة**، لقيس بن زهير العَبْسي على حُذَيفة بن بدر الفَزَاري، قتله قيس في جَفْر الهَباءة، وهو مستنقعٌ بها، وقال أبو عبيدة: كانت الدائرة لبني عَبْس على ذُبْيان، قُتِلَ حذيفةُ وحَمَل ابنا بدر الذُّبْيانيّان، التقوا في يوم شديدِ الحَرِّ، فاقتتلوا إلى جانب جَفْر الهَباءة من أوّل النهار حتى اشتدّ الحَرُّ وحَجَز بينهم، وركض حُذَيفة وحَمَل ومالك بنو بدر، وكان حُذيفة على فرس يقال له: صارف، وأخوه حَمَل على الحَنْفاء، فنزلوا الجَفْر، فقال قَيس بن زُهير: يا بني عَبْس احْذَروا أن يَفوتوكم، فساقوا خَلفهم، فأدركوهم في الجَفْر، فرآهم حَمَلُ بنُ بدر، فقال لحُذيفة ومَن معه: مَن أَبغضُ إليكم أنْ يقفَ على رأس الجَفْر؟ فقالوا: قيس بن زهير والرَّبيع بن زياد، قال: فهذا قيس والرَّبيع، فصاح قيس: لبَّيكُم لبَّيكُم، أشار إلى الغِلْمة الذين أوصى بهم سُبَيع بن عمرو ولدَه مالك بنَ سُبَيع وقال: لا تُسلمهم إلى حُذيفة، وأنه سلّمهم إليه فقتلهم حذيفة، وقد ذكرناه(٢)، وإنما صاح قيس: لبّيكم لبّيكم، لأنهم كانوا يُنادونه: يا أبه يا أبه، وحذيفةُ يَقْتلهم، قال حُذيفة: يا قيس ناشدتُك الله والرَّحِم، فقال قيس: لبّيكم لبيكم، فعلم حذيفةُ أنه قاتلُه، فقال: والله لئن قتلتَني لا تنصلحُ غطفانُ أبداً، فقال قيس: أبعدَها الله ولا أَصلَحها.

ثم تَوافت فرسانُ بني عَبْس، وكان معهم في الجَفْر وَرْقاءُ بنُ هلال الثّعلبيّ وحَنَش ابنُ وَهْب، وحمل عليهم شَدَّاد بنُ معاوية العَبْسي، فحال بينهم وبين خيولهم، وقتلوا الجميع، ومثّلوا بحذيفة كما فعل بالغِلْمة، وقطعوا مذاكيرَه وجعلوها في فِيه، ودَسُّوا

(١) النقائض ٣٠٥-٣٠٧، والعقد ٥/ ١٨٢-١٨٤ وما بين معكوفين منهما، وانظر الملاحن لابن دريد ٥٦، وأمالي القالي ١/ ٦، واللآلي ١/ ٢١، ومعجم ما استعجم ٤/ ١٣٨٢، ومجمع الأمثال ٢/ ٤٣٣.

(٢) في يوم حُسا.

لسانَه في اسْتِه، ولهم في يوم الهَباءة أشعارٌ كثيرة، منها قول قَيس بن زُهير: [من الوافر]

تَـعـلَّـم أن خـيـرَ الـنـاس مَـيْـتٌ ... عـلـى جَـفْـرِ الـهَـبـاءةِ لا يَـريـمُ
ولـولا ظُـلْـمُـه مـازلـتُ أبـكـي ... عـلـيـه الـدَّهـرَ مـا طَـلـع الـنُّـجـومُ
بـغـى حَـمَـلُ بـنُ بـدر مـع أخـيـه ... وإن الـبَـغْـيَ مَـصـرَعُـه وَخـيـمُ[1]
أظـنُّ الـحِـلْـمَ دَلَّ عـلـيَّ قـومـي ... وقـد يُـسـتَـضْـعَـفُ[2] الـرَّجلُ الـحـلـيـمُ
ومـارسْـتُ الـرِّجـالَ ومـارَسـونـي ... فـمُـعـوَجٌّ عـلـيَّ ومُـسـتـقـيـمُ

ومنها **يوم اليَعْمريَّة**، لما بلغ عَبْساً ما فعل حُذَيفة بالغِلْمان، اجتمعوا والتَقَوا، فقتلوا مالك بن سُبيع الذي سَلَّم الغِلْمة إلى حُذيفة، وأخاه يزيد بنَ سُبيع، وعامر بن لَوْذان وغيرهم، وانهزم حُذيفة بن بدر، ثم قُتل بعد ذلك على ما ذكرنا[3].



(١) رواية البيت في المصادر:

ولـكـن الـفـتـى حـمـل بـن بـدر ... بـغـى والـبـغـي مـرتـعـه وخـيـم

ولم أجد رواية المصنف، انظر النقائض ٩٦، والفاخر ٢٢٧، والعقد ٥/ ١٥٧، والأغاني ١٧/ ٢٠٦، وشرح ديوان الحماسة ١/ ٤٢٩، وشرح الحماسة للتبريزي ١/ ٢٢١، ومجمع الأمثال ٢/ ١١٦.

(٢) في النسخ: يُستعطف، والمثبت من العقد.

(٣) العقد ٥/ ١٥٥.

فصل في ذكر ما سار من الأمثال

قد ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه القديم، وعلى لسان رسوله الكريم، فأما أمثال القرآن العظيم فنيِّفٌ وثلاثون مثلاً، وأما ما جاء عن رسول الله ﷺ فكثير.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، حدثنا همّام، عن حَفْص بن عاصم، عن النَّوَّاس بن سَمْعان قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرب الله مثلاً صِراطاً مُستقيماً، وعلى جانبي الصِّراط سُوران فيهما أبواب مُفَتَّحة، وعلى الأبواب سُتورٌ مُرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: أَيُّها النَّاس، ادْخُلوا الصِّراط ولا تَعوجوا، وداعٍ يدعو من جَوْف الصراط، فإذا أراد العبد أن يفتحَ شيئاً من تلك الأبواب، قال: وَيْحك لا تَفْتحه، فإنك إنْ تَفتحْه تَلِجْه، فالصّراط: الإسلام، والسُّتور: حدودُ الله، والأبواب: محارمُ الله، والدّاعي على رأس الصّراط: كتابُ الله، والدَّاعي من جَوْفه: واعظُ الله في قَلب كُلِّ مُسلم»[1].

وقد تكلَّمت العربُ العاربةُ بفنون الأمثال، وقد عُنِيَ بجمعها علماءُ اللغة، كأبي عُبَيدٍ القاسمِ بن سلّام، وأبي عُبَيْدة مَعْمَر بن المُثَنَّى، والميداني وغيرهم، فمن ذلك:

أَبْلَغ من قُسّ، هو قُسُّ بن ساعدة الإياديّ، كان من حُكماء العرب، وهو أَوَّلُ مَن أقرَّ بالبعث منهم، وأول مَن قال: أما بعد، بعد داود عليه السلام، وأول مَن كتب: من فلان إلى فلان، وأول مَن قال: البَيِّنةُ على المدَّعي، واليمينُ على مَن أَنكَر، وأوّل مَن اتّكأ على سيف أو عصا عند خُطبته[2].

أَبْخَل من مادِر، وهو رجل من بني هلال بن عامر بن صَعْصَعة، سقى إبلَه، فبقي في أسفل الحَوْض ماءٌ قليل، فسَلَح فيه، ومَدَرَ به الحوض[3]، بُخلاً أن يُشرَب من فَضْله، قال الشاعر: [من الطويل]

---

(١) مسند أحمد (١٧٦٣٤) عن الحسن بن سوار، عن ليث بن سعد، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه، عن النواس. والإسناد الذي ذكره المصنف ليس في المسند ولا في الكتب الستة، انظر أطراف المسند ٥/ ٤٢٢، وتحفة الأشراف ٩/ ٦٠ ـ ٦١.

(٢) الدرة الفاخرة ١/ ٩١، وجمهرة الأمثال ١/ ٢٤٩، ومجمع الأمثال ١/ ١١١.

(٣) يعني لطّخه.

لقد جَلَّلَتْ خِزْياً هلالُ بنُ عامرٍ بني عامرٍ طُرّاً بسَلْحَة مادِرِ

واسم مادِر: مُخارِق[1].

أبصر من زرقاء اليمامة، من نُمَير، وكانت تبصر الشَّعْرة البيضاء في اللبن[2].

أبله من باقِل، هو رجل من ثَعْلبة[3]، اشترى ظَبياً بأحد عشر دِرْهماً، فقيل له: بكم اشتريتَه؟ ففتح كفّيه وفرَّق أصابعَه، وأخرج لسانه، يشير بذلك إلى أحد عشر درهماً، فانْفلتَ الظَّبيُ، فضربوا به المثل في العِيِّ، قال حُمَيْد يهجو ضيفاً له: [من الطويل]

أتانا ومادَاناه سَحْبانُ وائلٍ بَياناً وعِلْماً بالذي هو قائلُ

فما زال عنه اللَّقْمُ حتَّى كأنه من العِيِّ لما أن تكلَّمَ باقِلُ

وقال ابن الكلبيّ: لمّا نَسبوه إلى العِيّ قال: [من المتقارب]

يَلومون في حُمقِه باقِلاً كأنّ الحَماقَةَ لم تُخْلَقِ

فلا تُنكِروا العِيَّ في فِعلِه فلَلْعِيُّ أجْمَلُ بالأَمْوقِ

خُروجُ اللّسانِ وفَتْحُ البَنانِ أحبُّ إليَّ من المَنطِقِ[4]

وقال أبو العلاء المَعَري: [من الطويل]

إذا سَفّه الطَّائيَّ بالبُخلِ مادِرٌ وعَيَّر قُسّاً بالفَصاحةِ باقِلُ

وقال السُّها للشّمسِ أنت خَفيَّةٌ وقال الدُّجى للصُّبح لَونُكَ حائلُ

فيا مَوتُ زُرْ إن الحياةَ ذَميمةٌ ويا نفسُ جِدِّي إنَّ دَهرَك هازِلُ[5]

أسرعُ من نكاح أمِّ خارجة، وهي عَمْرة بنت سعد بن عبد الله بن قُداد بن ثَعْلبة، كانوا يقولون لها: خِطبٌ، فتقول: نِكْحٌ، وخارجةُ ابنها لا يعلم ممّن هو، ويُقال: هو خارجة بن بَكْر بن يَشْكُر بن عَدْوان، وَلَدت أمُّ خارجة لبَكْر بن عبد مناة الدُّئِل، وهو:

---

(١) الدرة ١/٨٦، وجمهرة الأمثال ١/٢٤٦ و٢/١٦، ومجمع الأمثال ١/١١١، والمستقصى ١/١٣.

(٢) الدرة ١/٧٩، والعقد ٣/٧١، والجمهرة ١/٢٤١، والمجمع ١/١١٤، والمستقصى ١/١٨.

(٣) كذا ذكر، والذي في المصادر أنه من إياد من بني مازن، ورواية المثل: أعيا، لا أبله، انظر أمثال أبي عبيد ٣٦٨، والدرة ٣١١، والعقد ٣/٧٠، والجمهرة ٢/٧٢، والمجمع ٢/٤٣، والمستقصى ١/٢٥٦، وفصل المقال ٤٩٦، والوسيط ١/٧١.

(٤) المستقصى ١/٢٥٦.

(٥) شروح سقط الزند ٢/٥٣٣ـ٥٣٨، الطائي: هو حاتم، السُّها: كوكب خفي.

العَنْبر، والهُجَيم[١].

وكانت تسير يوماً في الهَوْدَج وابنٌ لها يَقودها، فرأت رجلاً فقالت: أظنّه خاطِباً، أتراه يُعْجِلُنا أن نَحِلَّ الهودج، يا بنيَّ أَنِخ أنخ، فنكحها، وكانت ذوّاقة للرجال، تزوّجت نيفاً وأربعين زوجاً، وولدت عدّةَ قبائل: الهُجَيم، وثعلبة، وبَهْراء، وهلالاً، وغيرهم[٢].

وقال أبو عمرو بن العلاء: ولدت نيّفاً وعشرين حيّاً من آباء متفرّقين، وابنها خارجة كان يَصْدُر في كل سنة من المَوسم وقد رحل الناس، فيرفع صوتَه وهو واقفٌ على ناقته، ويقول: [من الطويل]

ولـمّـا قَضَـيْـنـا من مِـنـىً كـلَّ حـاجـةٍ ... ومـسَّـحَ بـالأركـان مَـن هـو مـاسِـحُ
وقد قَلِقَتْ خُوصُ الرِّكاب لبَيْنِنا ... ولم يَعلم الغادي الذي هو رائحُ
أَخَذْنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المَطيِّ الأباطِحُ[٣]

أَتْيَمُ من المُرَقِّش، وهو من بني سَعْد بن مالك، كان عاشقاً لفاطمة بنت المنذر بن ماء السماء، مُتَيَّماً بها، وله معها قصص، وبلغ من وَجْده بها أنه قطع إبهامه، وبعث بها إليها[٤].

أَتْيَهُ من أحمق ثَقيف، وهو يوسف بن عُمر، ولّاه هشام بن عبد الملك العراق، فضربت العربُ المثَل بحُمْقه، حجمه حجَّامٌ، فارتَعدت يداه خوفاً منه، فقال يوسفُ لحاجبه: قل له: لابأس عليك. وكان قصيراً ذميماً، فإذا فصّل الخياط له ثَوْباً، وقال: يحتاج إلى زيادة خِرقة أكرمه، وإن قال: هذه الخِرقة تكفيك أهانه[٥].

---

(١) كذا ذكر، والذي في الدرة الفاخرة ١/ ٢٢٤، ومجمع الأمثال ١/ ٣٤٨ أن العنبر وَلَدُ عامر بن عمرو البهراني من قضاعة، وأن الهُجَيم وَلَدُ عمرو بن تميم، وانظر جمهرة ابن حزم ٣٩٠.

(٢) المثل في الفاخر ٦٠، وأمثال السدوسي ٦٥، والكامل ٥٨٠، وثمار القلوب ٤٨١، وانظر فصل تخريج في حواشيها.

(٣) نسبت هذه الأبيات إلى نصيب وكثير وابن الطثرية والمضرب، انظر ديوان كثيّر ٥٢٥، و«الشعر والشعراء» ١/ ٦٦.

(٤) «الدرة» ١/ ٩٩، و«الجمهرة» ١/ ٢٨٣، و«المستقصى» ١/ ٣٨، و«المجمع» ١/ ١٤٨.

(٥) «الدرة» ١/ ١٠٠، و«الجمهرة» ١/ ٢٥٨، و«المستقصى» ١/ ٤٠، و«المجمع» ١/ ١٤٩.

أثقل من ثَهْلان، وأُحُد، وشَمام، ونَضاد، وعَمايَة، وهذه جبال[١].

أثقل من الزَّواقي، وهي الدُّيوك، كانت العرب تَسْمُرُ ليلاً، فإذا زَقَت استثقَلَتْها؛ لأنها تُؤْذِنُ بالصبح[٢].

أَجْرأُ من ذُباب، إنما ضربوا به المَثَل لأنه يقع على أَنْف الملك والأسد، ويُطْرَد فيَعود[٣].

أجودُ من كعب بن مامَة بن إياد، خرج مع رِفْقة في سفر فعَطِشوا، وكان معه ماءٌ فسقاهم إياه، ومات عطشاً[٤].

أَجْبَن من صافِر، وهو طائرٌ يتعلَّق في الشجر برجليه، ويُنكّس رأسَه خوفاً أن يَنام فيؤخذ، فلايزال يَصفِر إلى السَّحَر[٥].

أجبن من هِجْرِس، وهو الثعلب[٦].

أجول من قُطْرُب، وهو دُوَيْبَّة تجولُ الليلَ لا تنام[٧].

أَجْوَع من زُرْعَة، وهي كَلْبة لبني يَرْبوع أماتوها جوعاً[٨].

أجْمَعُ من نملة[٩].

وأَجْرَدُ من جراد[١٠].

وأَجْرَأُ من أُسامَة، وهو الأسد[١١].

---

(١) «الدرة» ١/ ١٠٣ـ١٠٤، و«الجمهرة» ١/ ٢٩٢، و«المستقصى» ١/ ٤٢، و«المجمع» ١/ ١٥٥ـ١٥٦.

(٢) الدرة ١/ ١٠٤، والجمهرة ١/ ٢٩٣، والمجمع ١/ ١٥٦، والمستقصى ١/ ٤١.

(٣) الدرة ١/ ١١٤، والجمهرة ١/ ٣٢٧، والمجمع ١/ ١٨١، والمستقصى ١/ ٤٦.

(٤) الدرة الفاخرة ١/ ١٢٩، وجمهرة الأمثال ١/ ٣٣٨، ومجمع الأمثال ١/ ١٨٣، والمستقصى ١/ ٥٤.

(٥) الدرة ١/ ١١١ـ١١٢، والجمهرة ١/ ٣٢٥، والمجمع ١/ ١٨٤، والمستقصى ١/ ٤٤.

(٦) الدرة ١/ ١١٣، والجمهرة ١/ ٣٢٦، والمجمع ١/ ١٨٥، والمستقصى ١/ ٤٥.

(٧) الدرة ١/ ١١٦، والجمهرة ١/ ٣٣٠، والمجمع ١/ ١٨٥.

(٨) الدرة ١/ ١١٧، والجمهرة ١/ ٣٣١، والمجمع ١/ ١٨٦، والمستقصى ١/ ٥٧ وفيها أنها لبني ربيعة.

(٩) الدرة ١/ ١٢١، والجمهرة ١/ ٣٣٤، والمجمع ١/ ١٨٨، والمستقصى ١/ ٥١.

(١٠) الدرة ١/ ١٢٢، والجمهرة ١/ ٣٣٥، والمجمع ١/ ١٨٩، والمستقصى ١/ ٤٨.

(١١) الدرة ١/ ١١٦، والجمهرة ١/ ٣٢٩، والمجمع ١/ ١٨٩، والمستقصى ١/ ٤٨.

أحمق من أبي غُبْشان، وهو الذي اشترى منه قُصيّ [مفاتيح] الكعبة بزِقٍّ خمر، وكان قد سقاه الخمر فأسكره، فلما أفاق نَدِم، فقال النَّاس: أَحْمَقُ من أبي غُبْشان، أو أندم، وفيه يقول الشاعر: [من الوافر]

إذا افتَخَرت خُزاعَةُ في قديم وَجَدْنا فَخرَها شُرْبَ الخُمورِ
وباعوا كعبةَ الرحمن بَخْساً بزِقٍّ بئس مُفْتَخَر الفَخُور[1]

أَحْمَقُ من عِجْل، وهو ابن لُجَيْم بن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل، قيل له: ما سَمَّيت فرسَك؟ فقام ففقأ عينَه، وقال: سمَّيتُه الأعور، وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]

رَمتْني بنو عِجلٍ بداءِ أبيهمُ وأيُّ امرئٍ في النّاسِ أحمقُ من عِجْلِ
أليس أبوهم عارَ عينَ جوادِه فصارت به الأمثالُ تُضربُ في الجَهْلِ[2]

أَحْمَقُ من هَبَنَّقَة، وهو ذو الوَدَعات، يزيدُ بنُ ثَرْوان، ضَلَّ له بعيرٌ فجعلَ ينادي: مَن رأى بعيري فهو له، فقيل له: فأيُّ فائدةٍ لك؟ فقال: تستتمُّ فائدةُ حلاوةِ الوِجْدان[3].

أحمق من رَجْلَة، وهي بَقْلةٌ تَنبُتُ في مجاري السيول، فتمرُّ بها فتَقْلَعها[4].

أحْلَمُ من الأَحْنَف بن قيس، سنذكره[5].

أَحْمى من مُجير الجراد، وهو مُدْلِج بن سُوَيْد الطائيّ، وقيل: حارثة بن أبي حَنْبل، كان يمنع أحداً أن يتعرّض للجراد إذا نزل بأرضه[6].

أَحْذَرُ من غُراب، في المثل قال [الغراب لابنه]: يا بُنيّ إذا رُميت فتَلَوَّص [أي: تَلَوَّ]، قال: أنا أَتَلَوَّص قبل أن أُرْمى[7].

---

(١) الدرة ١/ ١٤٠ـ١٤١، والجمهرة ١/ ٣٨٧ وليس فيه الأبيات، والمجمع ١/ ٢١٦ـ٢١٧، والمستقصى ١/ ٧٢ـ٧٣ وما بين معكوفين منها.

(٢) الدرة ١/ ١٤٤ـ١٤٥، والجمهرة ١/ ٣٩٠، والمجمع ١/ ٢١٧، والمستقصى ١/ ٨٣.

(٣) الدرة الفاخرة ١/ ١٣٥، والعسكري ١/ ٣٨٥، والميداني ١/ ٢١٧، والزمخشري ١/ ٨٥.

(٤) الفاخر ١٥، والدرة ١/ ١٥٥، والعسكري ١/ ٣٩٥، والميداني ١/ ٢٢٦، والزمخشري ١/ ٨١.

(٥) الفاخر ٢٩٨، والدرة ١/ ١٦٤، والعسكري ١/ ٤٠٧، والميداني ١/ ٢١٩، والزمخشري ١/ ٧٠.

(٦) الدرة ١/ ١٦٦، والعسكري ١/ ٤٠٨، والميداني ١/ ٢٢١، والزمخشري ١/ ٨٧.

(٧) أمثال أبي عبيد ٣٦٠، والدرة ١/ ١٥٦، والعسكري ١/ ٣٩٦، والميداني ١/ ٢٢٦، والزمخشري ١/ ٦٢، وما بين معكوفات منها.

أَحْذَرُ من ذِئب، لأنه ينام وإحدى عينيه مفتوحة، خوفاً من مُغْتال، قال حُمَيد بن ثَور: [من الطويل]

ينامُ بإحدى مُقْلَتَيْه ويَتَّقي بأُخرى المَنايا فهو يَقْظانُ نائِمُ[١]

وذكروا في الخواصّ أن العين التي ينام الذئبُ وهي مفتوحة، إذا علقت على شخص لا ينام حتى تُزَالَ عنه، والعين التي تنام وهي مضمومة إذا عَلَّقها عليه لا يزال نائماً حتى تزال عنه[٢].

أَحْيَرُ من ضبٍّ، لأنه إذا فارق جُحْرَه لا يَهتدي إلى الرجوع إليه[٣].

وفي المثل: أَعَقُّ من ضَبّ، لأنه ربّما أكل حُسولَه[٤].

ومن كلامهم: لا أَفعل حتى يَرِدَ الضَّبُّ؛ لأنه لا يَرِدُ الماء ولا يَشربُه[٥].

أَخْطَبُ من سَحْبان وائل[٦]، كان لَسِناً يُضْرَب به المَثَل في البيان، خَطيبٌ مِصْقَعٌ شاعر، وهو القائل: [من الطويل]

لقد عَلِم الحَيُّ اليَمانون أنّني إذا قلتُ أمّا بعدُ أنّي خطيبُها

دخل على معاوية فقال له: قُمْ فاخطُب، فقال: عليَّ بعصا، فقيل له: ما تَصنَعُ بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ فقال: كما صنع موسى عليه السلام بعصاه وهو يخاطب ربَّه، فجيء بها، فقام فتوكّأ عليها، وخطب من الظُّهر إلى العصر، فما تَنَحْنَح، ولا سَعَل، ولا أعاد كلمة، ولا شرع في معنى فخرج عنه وقد بَقيتْ منه بَقيَّة، ولما جاءت صلاةُ العصر، قال معاوية: الصلاةَ الصلاةَ، فقال: الصلاةُ أمامَك، أَلَسْنا في تَحميدٍ

---

(١) الدرة ١/١٥٦، والعسكري ١/٢٩٦ـ٢٩٧، والميداني ١/٢٢٦ـ٢٢٧، والزمخشري ١/٦١، وديوان حميد ١٠٥، ورواية البيت في هذه المصادر: يقظان هاجع، وهو برواية المصنف في العقد» ٦/ ٢٤٢.

(٢) انظر عجائب المخلوقات ص ٤٢٥.

(٣) الدرة ١/١٥٩، والعسكري ١/ ٤٠٠، والميداني ١/٢٢٧، والزمخشري ١/ ٩٠.

(٤) الدرة ١/٣٠٦، والعسكري ١/٦٩، والميداني ١/٤٧، والزمخشري ١/ ٢٥٠ وحسوله: أولاده.

(٥) الدرة ١/ ٢١٠، والميداني ١/ ٣١٥.

(٦) الميداني ١/ ٢٤٩، والزمخشري ١/ ١٠٢، وروي في الدرة ١/ ٩٠، والعسكري ١/ ٢٤٨: أبلغ من سحبان وائل، والبيت الآتي في المصادر خلا المستقصى.

وتمجيد، ووعدٍ ووعيدٍ؟ فقال له معاوية: أنت أَخطبُ العرب، فقال: العرب وحدها؟! والعجم، والجنّ، والإنس، فقال معاوية: صَدَقْت[١].

وهو الذي مدح طَلْحةَ الطَّلحات فقال: [من مجزوء الكامل]

يــا طَــلْــح أكْــرَمَ مَــن بــهــا حَــسَــبــاً وأَعْــطــاهــم لــتــالِــدْ
مــنــك الــعــطــاءُ فــأعــطِــنــي وعــلــيَّ مَــدحُــك فــي الــمَــشــاهِــدْ

فقال له طلحةُ: احتَكِم، فقال: بِرْذَوْنك الوَرْد، وغُلامك الخَبَّاز، وقَصرك بزَرَنْج، وعشرة آلاف درهم، فقال طلحة: أُفٍّ لك، إنما سألتني على قَدْرِك، ولو سألتَني على قَدْري لأعطيتُك كلَّ دابَّةٍ، وكلَّ عبدٍ، وكلَّ قصرٍ، وكلَّ مالٍ هو لي، ثم أمر له بما سأل، ثم قال: تالله ما رأيتُ مَسألةَ مُحَكَّمٍ أَلأَمَ من هذا[٢].

أَخْنَث من هِيت، كان بالمدينة[٣].

أَخْنَثُ من مُصَفِّر اسْتِه، هو أبو جهل بن هشام، وهذا مثل ضربتْه الأنصار، كانوا يغيظون به من هاجر من بني مَخْزوم، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك[٤].

أخلى من جَوْف حمار، وهو اسم وادٍ في أرض عاد، فيه ماءٌ وشجر، حماه حِمار ابن مُوَيْلِع، وكان له بنون فماتوا، فكفر كُفْرَاً عظيماً، وقتل كلَّ مَن مَرَّ به من المُسْلمين، فأقبلت نارٌ من أسفل الجَوْف فأحرقَتْه ومَن فيه، وغاض ماؤه، فقالوا: أَكْفَر من حمار، ووادٍ كجَوْف حمار.

وقيل: المراد به حمار الوَحْش، لأنه يُرمى جميعُ ما في جَوفه إذا صِيْدَ، فلا يُنْتَفَعُ به[٥].

أَدَقُّ من خَيط باطل، هو لُعَاب الشمس، وقيل: الخيط الذي يَخرج من فم العنكبوت، وكان مروان بن الحكم يُلقَّب خَيط باطل[٦].

---

(١) جمهرة الأمثال ١/ ٢٤٨ـ٢٤٩.
(٢) الخبر مع الشعر في الدرة ١/ ٩١، و«الميداني ١/ ٢٤٩.
(٣) الدرة ١/ ١٨٢، والعسكري ١/ ٤٣٥، والميداني ١/ ٢٤٩، والزمخشري ١/ ١١١.
(٤) الدرة ١/ ١٨٨، والعسكري ١/ ٤٣٨، والميداني ١/ ٢٥١، والزمخشري ١/ ١١٠.
(٥) الدرة ١/ ١٨٠، والعسكري ١/ ٤٣٥، والميداني ١/ ٢٥٧، والزمخشري ١/ ٩٨.
(٦) الدرة ١/ ١٩٨، والعسكري ١/ ٤٥٤، والميداني ١/ ٢٧٣، والزمخشري ١/ ١١٨.

أَذَلُّ من حُنَيْفِ الحَناتِم، هو رجل من تَيْم اللّات بن ثَعْلبة، كان ماهراً بالدّلالة ومعرفة الطُّرق[١].

أَذَلُّ من فَقْعٍ [بقَرْقَر]، يُشَبَّه به الرجل الذّليل،يقال: هو فَقْعُ قَرْقَرٍ، لأن الدَّواب تَنْجُلُه بأرجُلها، وهو ضَرْبٌ من الكَمْأَةِ البيضاء الرِّخوة[٢].

أَرْوَى من النَّعامة، لأنها لا تُريد الماء ولا تطلبه، فإن رَأَتْه أو شربَتْه كان عَبثاً[٣].

أَزْكَنُ من إياس، وهو التفرُّس والظنّ، وإياس: هو ابن معاوية المُزَني، والعامَّة تقول: أَذْكى، وهو خطأ، فإن قيل: فقد قال أبو تمام: [من الكامل]

إقدامُ عَمْرٍو في سَماحةِ حاتِمٍ		في حِلْمِ أَحنفَ في ذَكاءِ إياسِ

فالجواب: إنما قاله لضرورة الشّعر[٤].

أَزْنى من ظُلْمة، وهي امرأةٌ زَنَت أربعين سنة، ثم قَادَتْ[٥] أربعين سنة، ولما عَجزت عن القسمين اتّخذت تَيْساً وأعنُزاً، فقيل لها في ذلك، فقالت: لأسمعَ أَصْوات الجِماع.

أَزْنى من قِرْد[٦].

أَزْهى من غُراب، لأنه إذا مَشى يَختال ويَنظر إلى نَفْسه، قال الشاعر: [من المتقارب]

أَشدُّ لَجاجاً من الخُنفساءِ		وأَزْهى إذا ما مَشى من غُراب[٧]

ويقال: **أَزْهى من طاووس وديك**[٨].

---

(١) الدرة ١/ ٢٠٠، والعسكري ١/ ٤٥٦، والميداني ١/ ٢٧٣، والزمخشري ١/ ١١٨.
(٢) الدرة ١/ ٢٠٤، والعسكري ١/ ٤٦٩، والميداني ١/ ٢٨٤، والزمخشري ١/ ١٣٤.
(٣) الدرة ١/ ٢١٠، والعسكري ١/ ٤٩٨، والميداني ١/ ٣١٥، والزمخشري ١/ ١٤٧.
(٤) الدرة ١/ ٢١٥، والعسكري ١/ ٥٠٧، والميداني ١/ ٣٢٥، والزمخشري ١/ ١٤٨، وديوان أبي تمام بشرح التبريزي ٢/ ٢٤٩.
(٥) في النسخ: ثم استحسنت!؟ والمثبت من العقد ٣/ ٧٢، والمثل في الدرة ٢/ ٣٥٣، والعسكري ٢/ ١٣١، والميداني ٢/ ١٢٥، والزمخشري ١/ ٢٨٧ برواية: أقود من ظلمة.
(٦) الدرة ١/ ٢١٣، والعسكري ١/ ٥٠٦، والميداني ١/ ٣٢٦، والزمخشري ١/ ١٤٩.
(٧) الدرة ١/ ٢١٤، والعسكري ١/ ٥٠٧، والميداني ١/ ٣٢٧، والزمخشري ١/ ١٥١.
(٨) الميداني ١/ ٣٢٧، والزمخشري ١/ ١٥١.

أَسْرَقُ من بُرْجان، هو سارق بالكوفة، صُلب في سَرِقة، فسَرق وهو مصلوب[١].

أَسْرَقُ من شِظاظ، وهو لصٌّ في بني ضَبَّة، مرّ بامرأةٍ من نُمَيْر تَعْقِل بعيراً لها، وتَتعوَّذ من شِظاظ، وكان راكباً على بَكْرٍ له، فقال لها: تَخافين من شِظاظ، فغافلها وركب بعيرها، وساق بعيره، وقال: [من الرجز]

رُبَّ عَجوزٍ من نُمَيرٍ شَهْبَرَه عَلَّمتُها الإنْقاضَ بعد القَرْقَرَهْ[٢]

أَسْأَلُ من فَلْحَس، وكان سيِّداً عزيزاً في قومه، مرَّ به قومٌ يَغزون، فقال لهم: اجعلوا لي قسماً في الجيش، قالوا: نعم، قال: ولامرأتي، قالوا: نعم قال: ولابني زاهر، قالوا: نعم، قال: ولعبدي، قالوا: نعم، قال: ولناقتي، قالوا: لا، قال: فإني جارٌ لمَن طلعت عليه الشَّمس، ومانِعُه منكم، فرجعوا خائبين، ولم يغزوا عامَهم ذلك[٣].

أَسْأَلُ من قَرْثَع، وهو من بني أوس بن ثَعْلبة، كان في زمن معاوية، وفيه يقول أعشى باهلة[٤]: [من الوافر]

إذا ما القَرْثَعُ الأَوْسِيُّ وَالَى عَطاءَ النَّاسِ أَوسَعَهُم سُؤالا

أَسْمَع من سِمْعٍ، وهو مُرَكَّبٌ من الضَّبُع والذِّئب، يَثِبُ مقدارَ ثلاثين ذِراعاً، ويُسابِقُ الطَّير[٥].

أَشْأَمُ من أحمر ثمود، وهو قُدار بن سالف[٦].

أَشْأَمُ من البَسُوس، وهي بنتُ مُنقِذ[٧] من بني تميم، خالة جَسَّاس بن مُرَّة الشيباني،

(١) الدرة ١/ ٢٣١، والعسكري ١/ ٥٣٣، والميداني ١/ ٣٥٣، والزمخشري ١/ ١٦٦.

(٢) الدرة ١/ ٢٣٠_٢٣١، والعسكري ١/ ٥٣٢، والميداني ١/ ٣٤٧، والزمخشري ١/ ١٦٧.

(٣) الدرة ١/ ٢٢٩، والعسكري ١/ ٥٣٢، والميداني ١/ ٣٤٧، والزمخشري ١/ ١٥٢.

(٤) كذا، والذي في الدرة ١/ ٢٣٠، والعسكري ١/ ٥٣٢، والميداني ١/ ٣٤٧، والزمخشري ١/ ١٥٢: أعشى بني تغلب.

(٥) الدرة ١/ ٢٢٦، والعسكري ١/ ٥٣٠، والميداني ١/ ٣٥٢، والزمخشري ١/ ١٧٢ _١٧٣.

(٦) الدرة ١/ ٢٤٧، والعسكري ١/ ٥٥٨، والميداني ١/ ٣٧٩، والزمخشري ١/ ١٧٦.

(٧) في النسخ: سعد، والمثبت من مجمع الأمثال ١/ ٣٧٤، والعقد ٥/ ٢١٤، والاشتقاق ٢٥٨، وثمار القلوب ٤٧٥، والمثل في الدرة ١/ ٢٣٦، والفاخر ٩٣، والعسكري ١/ ٥٥٦، والزمخشري ١/ ١٧٦، وفصل المقال ٥٠٤، والعقد ٣/ ٧١.

كانت لها ناقةٌ يقال لها: سَرَاب، فرآها كُلَيب ترعى في حِماه، وقد كَسَرت بَيضَ طائرٍ كان قد أجاره، فرمى ضَرْعها بسهم فوثب جَسَّاسٌ على كُلَيبٍ فقتله، فهاجت الحربُ بين بَكْر وتَغْلب ابني وائل بسببها أربعين سنة، حتى ضربت بها العربُ المَثلَ في الشُّؤم، وكان بين هذه الحرب ومبعث رسول الله ﷺ ستون سنة.

وقال أبو عبيدة: وكان للبَسوس جارٌ من جَرْم يقال له: سَعد بن شمس، وكان له ناقة يقال لها: سَراب، وكان كُلَيب قد حمى أرضاً من أرض العالية في مستقبل الرَّبيع، فلم يكن يرعاها أحدٌ إلا جسّاس لمصاهرةٍ بينهما، لأن جَليلة بنت مُرَّة أخت جَسّاس كانت تحت كُلَيْب، فخرجت ناقة الجَرْمي ترعى في حِمى كُلَيب فأنكرها، فرماها بسهم فأصاب ضَرْعها، فولَّت حتى بَرَكَتْ بفِنَاء صاحبها، وضَرْعُها يَشْخَب لبَناً ودماً، فلما نظر إليها صاحبُها صاح واذُلَّاه، واذُلَّ جاراه، فخرجت جاريةُ البَسوس، فلما رأت النّاقة ضربت يدها على رأسها وصاحت: واذُلّاه، وقالت: [من الطويل]

لَعَمْريَ لو أصبحتُ في دار مُنْقِذٍ ... لما ضِيمَ سَعدٌ وهو جارٌ لأبياتي
ولكنني أصبحتُ في دارِ غُرْبَةٍ ... متى يَعْدُ فيها الذّئبُ يعدو على شاتي
فيا سَعْدُ لا تغرر بنفسك وارتَحِلْ ... فإنك في قومٍ عن الجار أمواتِ
ودونَك أذْوادي فإنيَ عنهمُ ... لَراحِلةٌ لا يَغدِروا بِبُنَيَّاتي(١)

فسمعها جَسّاس، فقال: اسكُني أيَّتُها المرأة، فليُقْتَلَنَّ جملٌ عظيم، هو أعظم من ناقة جارك، ولم يَزلْ جَسَّاس يتوقع غِرَّةَ كُليبٍ حتى خرج كُليب لا يخاف شيئاً، فتباعد عن الحيّ، وتبعه جَسَّاس ومعه عمرو بنُ الحارث، فأدرك جَسَّاس كُليباً فطعنه بالرُّمح، فدَقَّ صُلْبَه فأنفذه، فقال كُليب: يا جَسّاسُ اسقني شربةَ ماء، فقال: [تركْتَ] الماءَ وراءك، ثم أدركه عمرو بن الحارث فأجهزَ عليه، ونَشِبت الحرب بينهم أربعين سنة حتى قُتلَ أكثر بكر، وكانت الغلبة لتغلب عليهم.

وقال هشام بن الكلبي: لم تجتمع مَعَدٌّ كلُّها إلا على ثلاثة رَهْطٍ من رؤساء العرب: عامر بن الظَّرِبِ، وربيعة بن الحارث، وكُلَيب بن وائل، وكان كُليب قد بلغ في مَعَدٍّ منزلةً عالية، حتى ضُرب به المَثَلُ، فقالوا: أَعَزُّ من كُلَيب وائل(٢)، حتى كان يَحمي

---

(١) الفاخر ٩٣، وثمار القلوب ٤٧٥، والمستقصى ١/ ١٧٦، والميداني ١/ ٣٧٥.
(٢) الفاخر ٩٣، والدرة ١/ ٣٠٠، والعسكري ٢/ ٦٥، والميداني ٢/ ٤٢، والزمخشري ١/ ٢٤٦.

مَواقعَ السَّحاب، فلا تُرعى، ويُجير على الدّهر فلا تُخْفَر ذِمَّتُه، ويقول: وَحْشُ الأرض في جِواري فلا يُهاج، ولا يُورِدُ أحدٌ مع إبله، ولا تُوقَدُ نارٌ مع ناره، ولا يتكلَّمُ أحدٌ في مجلسه ابتداءً، وهو كُلَيب بنُ ربيعة بن وائل، سيِّد ربيعة في زمانه، وأطاعتْه العربُ وملَّكَتْه، وجعلوا له قسم الأموال، وكان كليب قد فَضَّ جُموعَ اليمن كلّها، فتوَّجَتْه العرب، وتزوَّج جَليلة بنت مُرَّة.

وكان بنو جُشَم وبنو شيبان ينزلون بتِهامة في دار واحدة، وكانت البَسوس في بني شيبان، ولها ناقة يُقال لها: سَراب، وبها ضربت العرب المَثَل، فقالوا: أَشْأَمُ من سَراب[1]، فمرَّت إبلٌ من [إبل] كليب بسَراب، وهي مَعقولَةٌ بفِناء بيت البَسوس جوار جَسّاس، فلما رأت الناقة الإبل نازعت عِقالها إليهم حتى قَطَعَتْه، وتَبعت الإبل، فاختَلَطَتْ بها حتى انتهت إلى الحَوض وكُلَيبٌ عليه، فرآها فأنكرها، فرماها بسهم، فخَرم ضَرعها، ففرَّت الناقة وهي ترغو، فلما رأتها البسوس ألقت خِمارها عن رأسها وصاحت: واذُلَّاه واجاراه، وسمعها جَسّاس، فركب فرساً له عُريانة، وتبعه عمرو بن الحارث[2] بن ذُهْل بن شيبان، وكان كُليب قد طغى وبغى، فدخلا على كُليبِ الحِمى، فطعنه جَسّاس، فقَصم صُلْبَه، وتممه عمرو، فوقع كُليب يَفْحَصُ برجلَيْه، وقال لجَسّاس: أَغِثْني بشَرْبَةٍ من ماء، فقال: [هيهات، تجاوزت] شُبَيْثاً والأَحَصّ، يعني: موضع الماء، وفيه يقول عمرو بن الأَهْتَم: [من الطويل]

وإن كُلَيباً كان يَظلمُ قومَه ... فأَدْرَكَه مثلُ الذي تَريانِ
فلمّا حَشَاه الرُّمحَ كفُّ ابن عمِّه[3] ... تذكَّر ظُلمَ الأهل أيَّ أَوانِ
وقال لجَسَّاس أَغِثني بشَرْبَةٍ ... وإلا فَخَبِّر مَن رأيتَ مكاني
فقال تَجاوزتَ الأحصَّ وماءَه ... وبطنَ شُبَيْثٍ وهو غيرُ دِفانِ

أي: قليل.

---

(١) الدرة ١/ ٢٣٧، والعسكري ١/ ٥٥٦، والميداني ١/ ٣٩٠، والزمخشري ١/ ١٨٢.

(٢) في النسخ: وائل، والمثبت من النقائض ٩٠٥، والعقد ٥/ ٢١٤.

(٣) في النسخ: كف بزعمه، والمثبت من العقد ٥/ ٢١٥، وما بين معكوفين منه، وانظر معجم ما استعجم ٣/ ٧٨٠، ومعجم البلدان ٣/ ٣٢٣.

وقال النابغة الجَعدي: [من الطويل]

كُلَيبٌ لَعَمْري كان أكثرَ ناصراً ... وأيْسَرَ ذَنْباً منك ضُرِّج بالدَّمِ
رمى ضَرْعَ ناب فاستمرَّ بطَعنةٍ ... كحاشيةِ البُرْدِ اليَماني المُسَهَّمِ
وقال لجسَّاسٍ أغِثني بشَرْبَةٍ ... تَدارَكْ بها مَنّاً عليَّ وأنْعِمِ
فقال تَجاوزْتَ الأَحَصَّ وماءَه ... وبطنَ شَبْيثٍ وهو ذو مُتَرَسَّمِ(١)

ولما قُتل كُليب، ارتحلت بنو شَيبان، فنزلوا بماء يُقال له: النِّهْي، واستعدَّ عَديُّ بن ربيعة أخو كُليب لحرب بَكْر، ويقال له: المُهَلْهِل؛ لأنه أوَّلُ من هَلْهَلَ الشعر، أي: أَرَقَّه، وجمع مُهلهل قومَهَ، وحَرَّم الشّرابَ والنساءَ والغزلَ والقِمار، حتى يأخُذَ بثأر أخيه، وهو القائل: [من الكامل]

نُبِّئْتُ أن النار بعدك أُوقِدت ... واسْتَبَّ بعدك يا كُليبُ المَجْلِسُ
وتكلَّموا في أمرِ كلِّ عَظيمةٍ ... لو كُنتَ شاهِدَهُم بها لم يَنْبِسوا(٢)

ولما استعدّ مُهَلْهِلٌ لحرب بَكْر، أرسل رجالاً من قومه إلى بني شيبان يُعذِر إليهم، فأَتَوْا مُرَّةَ بن ذُهل بن شيبان، وهو في نادي قومه، فقالوا: لقد ارتكبتُم عظيماً بقتلكم كليباً بنابٍ من النوق، فقطعتُم الرَّحم، وانتهكتُم الحُرْمَة، وإنّا كرهنا العَجَلةَ عليكم دون الإعذار إليكم، ونحن نعرض عليكم خِلالاً، قال: وما هي؟ قالوا: إما أن تُحيوا لنا كُليباً، أو تدفعوا إلينا جسَّاساً وعمراً أو هَمَّاماً ـ يعني أخا عَمرو ـ أو تمكِّنّا من نفسك، فإن بها وفاء من دمِه. فقال مُرَّة: أما إحياؤنا كليباً فهذا من السَّفَه، لأنه تكليفُ ما ليس في الوسع، وأما جَسّاس فإنه غُلامٌ طعن طَعنةً على عَجَل، وركب فرسَه، ولا أدري إلى أين ذهب ومعه عمرو، وأما همّام فإنه أبوعشرة، وأخو عشرة، وعمُّ عشرة، كلُّهم فرسان قومهم، ولن يُسلموه لي فأدفعه فيُقتَل بجريرة غيره، وأما أنا فلا ناقةَ لي في هذه ولا جَمَل، ولا جنيتُ جنايةً فأُسلم نفسي، وما هو إلا أن تَجول الخيلُ، فأكون أوَّلَ قتيل بينهم، فلِمَ أَتعجَّلُ الموتَ، ولكن لكم عندي خصلتان:

---

(١) ديوانه ١٤٢ـ١٤٥، والنقائض ٩٠٦، والعقد ٥/ ٢١٥، والأغاني ٥/ ٣٣ـ٣٤، ومعجم ما استعجم ٣/ ٧٨٠. المسهم: المخطط بصورة على شكل السهام.

(٢) شرح ديوان الحماسة ٩٢٩، والكامل ٤١٢، والتعازي والمراثي ٢٩٠، والعقد ٣/ ٢٩٨، والأمالي ١/ ٩٥.

أما إحداهما: فهؤلاء أولاد القاتِلين[١]، عَلِّقوا في عُنُق أحدهم، أو أيّ من شئتُم منهم نِسْعَةً، وانطلقوا به إلى رحالكم، فاذبحوه ذَبْح الشاة. وأما الأخرى: فهذه ألفُ ناقة سُودُ الحَدَق، أُقيمُ لكم بها كَفيلاً من بكر وائل. فغضبوا وقاموا عنه، ووقعت الحربُ بينهم، ولحقت جَليلة زوجةُ كُليب بأبيها وقومِها، ورثى مُهلهل كليباً بأشعار منها: [من البسيط]

كُليبُ لا خيرَ في الدُّنيا وأَهليها ... إذ أنت خَلَّيْتَها مع مَن يُخَلِّيها

كُليبُ أيّ فتى عِزٍّ ومَكرُمَةٍ ... تحت السَّقائِف إذ يَعلوك سافِيْها

نَعى النُّعاةُ كُليباً لي فقلتُ لهم ... مادَتْ بنا الأرضُ أو زالَتْ رواسيها

العَزمُ والحَزْمُ كانا من طبيعته ... ما كلُّ آلائه يا قومُ نحصيها

ليت السماءَ على مَن تحتها وَقَعَتْ ... وانشقَّت الأرضُ فانجابت بمَن فيها

لا أَصلح الله منا مَن يُصالحكم ... ما لاحت الشمسُ في أعلى مجاريها[٢]

أَشْأَم من رَغيف الحَوْلاء، هي خَبّازة كانت في بعض أحياء العرب، نازلةٌ في جِوارهم، وكانت في بني سعد بن تميم، مرَّت بخُبْزها على رجل، فأخذ منها رغيفاً، فقالت: والله ما أخذتَه إلا لتُخفِر جِوار فلان ـ يعني الذي كانت في جِواره ـ فجاء الرجل الذي ذُكر أنها في جواره إلى الذي أخذ الرغيف، فقال له: أَخفَرْت جِواري؟! فطعنه فقتله، واقتتلوا فقُتل منهم ألفُ رجل[٣].

أَشأَمُ من طُوَيْس، وهو مُخَنَّثٌ نَذكُره[٤].

أشأم من قاشِر، اسم فَحْل كان لبني عُوافةَ بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وكانت لقومه إبل [تُذْكِر]، فاستَطْرَقوه رجاء أن يُؤْنِثَ إبلَهم، فماتت الأمهات والنَّسْلُ، فضربت العرب به المَثَل.

وقيل: قاشر اسم الرجل الذي دَلّ حسان بن تُبَّع على جَديسٍ حتى استأصلهم[٥]،

(١) في العقد ٥/ ٢١٦: فهؤلاء بَنِيَّ الباقون.
(٢) العقد ٥/ ٢١٧.
(٣) الدرة ١/ ٢٤٧، والعسكري ١/ ٥٥٧، والميداني ١/ ٣٨٢، والزمخشري ١/ ١٨٢.
(٤) الدرة ١/ ٢٣٥، والعسكري ١/ ٥٣٨، والميداني ١/ ٣٩٠، ويروى: أخنث.
(٥) سلفت القصة في باب ملوك الحيرة. وانظر الدرة ١/ ٢٣٧، والعسكري ١/ ٥٥٦، والميداني ١/ ٣٨٠.

وهو قاشر بن مُرَّة أخو زرقاء اليمامة، واسمه رياح، ولقبه قاشر لشُؤمه.

أشأم من مَنْشِم، امرأة كانت بمكة عَطَّارة، وكانت خُزاعَة وجُرْهُم إذا أرادوا القتال، تطيَّبوا من طِيبها، فتَكثُر القتلى، فصارت مثلاً. قال زهير: [من الطويل]

تَـداركـتُـمـا عَـبْـسـاً وذُبْـيـان بـعـدمـا ... تـفـانَـوْا ودَقُّوا بـيـنـهـم عِـطـرَ مَـنْـشِـمِ[1]

وقيل: إنها كانت تبيع الحَنوط بمكة، وقيل: إنها كانت عَطَّارةً بمكة، وكان مَن أراد أن يشتري منها عطراً شَمّه، فقالوا: عِطرُ مَن شَمّ، وأن جماعة تعدَّوْا عليها وأخذوا طيبها، فتطيَّبوا به، ثم إنهم فضحوها، وعلم بهم أهلُها فأدركوهم وقالوا: اقتلوا من تَطيَّب بعِطْرها، فشَمّوهم فقتلوهم[2].

أَشْغَلُ من ذات النِّحْيَيْن، هي امرأة من تَيْم الله بن ثعلبة، كانت تَبيعُ السمن في الجاهلية، فأتاها خَوَّات بن جُبَيْر الأنصاري يبتاع منها سمناً، فلم يجد عندها أحداً، فساوَمَها، فحَلَّت نِحْياً مملوءاً، فنظر إليه وقال: أمسكيه حتى أَنظر إلى غيره، ثم فتحت له نِحْياً آخر، فنظر فيه وقال: أمسكيه حتى أُعيد النّظر إلى الآخر، فلما شَغل يديها ساوَرَها، فلم تَقدِر على دَفعِه لشُغل يديها، فقضى ما أراد منها وهرب، وقال في ذلك: [من الطويل]

وذاتِ عِـيـالٍ واثِـقِـيـن بـعـقـلـهـا ... خَـلَـجْـتُ لـهـا جـارَ اسْـتِـهـا خَـلَـجـاتِ
شَـغَـلْـتُ يـديـهـا إذ أردتُ خِـلاطَـهـا ... بـنِـحْـيَـيْـنِ مـن سَـمْـنٍ ذوي عُـجَـراتِ
فكانت لـهـا الـوَيْـلاتُ من تَـرْكِ سَـمنِها ... وويـلٌ لـهـا مـن شـدَّة الـطَّـعَـنـاتِ
فـشَـدَّت عـلـى الـنِّـحْـيَـيْـن كـفّـاً شـحـيـحـةً ... عـلـى سَـمْـنِـهـا والـفَـتـكُ مـن فَـعَـلاتـي[3]

وهجا رجلٌ تيم الله فقال: [من الوافر]

أُنـاسٌ ربَّـةُ الـنِّـحْـيَـيْـنِ مـنـهـم ... فـعُـدُّوهـا إذا عُـدَّ الـصَّـمِـيـمُ[4]

(١) ديوانه ١٥.
(٢) الدرة ١/ ٢٤٢، والعسكري ١/ ٥٥٧، والميداني ١/ ٣٨١، والزمخشري ١/ ١٨٤.
(٣) الفاخر ٨٦، والدرة ١/ ٢٦٠ و٢/ ٤٠٤، والعسكري ١/ ٥٦٤ و٢/ ٣٢١، والميداني ١/ ٣٧٦، والزمخشري ١/ ٩٩ـ١٠٠ و١٩٦.
(٤) الفاخر ٨٧، والميداني ١/ ٣٧٧.

أَصحُّ من عَيْر أبي سَيّارة، هو رجل من بني عَدْوان، كان له حمارٌ أسود، أجاز الناس عليه في الجاهلية من عرفات إلى مِنى أربعين سنة(١).

أَصْدَقُ من قَطَاة؛ لأن لها صوتاً واحداً لا تُغيِّره، تقول: قطا قطا(٢).

أصفى من ماء المَفاصِل، هذا مثل للعرب في رِقَّة الشيء وصفائه(٣).

أَظْلَمُ من حَيَّة، لأنها لا تتَّخِذُ بيتاً لنفسها، وإنما تدخل بيتاً لغيرها فتَسْكُنه، فيهرب صاحبُه.

وكذا قولهم: **أَظلمُ من أفعى، وأظلم من ذئب**، لأنّه يتعدى بالطبع كالعقرب.

وكذا قولهم: **أَظلَمُ من تِمساح، وأظلم من الجُلَنْدى**، وهو من أجداد الحجّاج، بينهما سبعون جَدًّا، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[الكهف: ٧٩].

وأَظْلَمُ من شَيْبٍ، لأنه ربما هجم على صاحبه قبل أوانه(٤).

أَعَزُّ من بَيْضِ الأنوق، وهو الرَّخَم يَخزِنُ بَيضَه في رؤوس الجبال ويُحمَّق، قال الكُميت: [من الوافر]

وذاتُ اسمَيْنِ والألوانُ شَتّى ... تُحَمَّقْ وهي كَيِّسَةُ الحَويلِ(٥)

ذات اسمَيْن: لأنها تُسمّى الأَنُوق والرَّخَمَة.

وأَعَزُّ من الغُراب الأَعْصَم، وهو الذي إحدى رجليه بيضاء، وهو نادر، والذي في جناحه ريشة بيضاء.

و: الأَبْلَقُ العَقُوق: لكلِّ شيء يَعُزُّ وُجودُه، وهو مَثَلٌ لما لا يكون.

وأَعَزُّ من الكبريت الأحمر، فإنه لا يُوجد أيضاً.

---

(١) الدرة ١/ ٢٧١، والعسكري ١/ ٥٨٨، والميداني ١/ ٤١٠، والزمخشري ١/ ٢٠٥.
(٢) الدرة ١/ ٢٦٥، والعسكري ١/ ٥٨٤، والميداني ١/ ٤١٢، والزمخشري ١/ ٢٠٦.
(٣) الدرة ١/ ٢٢٦، والعسكري ١/ ٥٨٤، والميداني ١/ ٤١٢، والزمخشري ١/ ٢١٠.
(٤) الدرة ١/ ٢٩٣ـ٢٩٥، والعسكري ٢/ ٢٩ـ٣١، والميداني ١/ ٤٤٥ـ٤٤٧، والزمخشري ١/ ٢٣١ـ٢٣٤.
(٥) ديوانه ٣٥٤، والدرة ١/ ١٥٤، والميداني ١/ ٢٢٦، والزمخشري ١/ ٨٢.

أعزُّ من أُمِّ قِرْفَة، هي امرأةٌ من فَزارة، كانت تحت مالك بن حُذَيفة، وكان يُعلَّقُ في بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً، كلّهم لها مَحْرَم[1].

أَعْطَشُ من ثُعالة، وهو اسم للذّئب، وقيل: هو رجل من بني مُجَاشع، خرج هو ونَجيح بن عبد الله بن مُجاشع في غزاة فعطشا، فشرب كلٌّ واحد منهما بَولَ الآخر، فماتا عطشاً[2].

أَغْدَرُ من قَيس بن عاصم، لم يكن في العرب أَغْدرُ منه ولا أكذب، أما غَدراتُه فكثيرة، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه على صدقات بني مِنْقَرٍ قومِه، فجباها ومات رسول الله ﷺ وبلغه، فقسمها في قومه، ولم يحملها إلى المدينة، وقال: [من الطويل]

ألا أَبلِغا عنّي قريشاً رسالةً ... إذا ما أَتَتْهم مهدياتُ الودائعِ
حَبَوْتُ بما جَمَّعتُ من آل مِنْقَرٍ ... وآيَسْتُ منها كلَّ أطلسَ جائعِ[3]

وأما كذبه فبه يُضرب المثل، قال زيد الخيل: [من الطويل]

فلستُ بفَرّارٍ إذا الخيلُ أحجَمتْ ... ولست بكذّابٍ كقيسِ بن عاصمِ[4]

أَفْرَغُ من حَجّام ساباط، كان يَحجُم الجُنْدَ بالدّانِق والدَّانِقَيْن، نسيئةً إلى حين رُجوعهم من الغَزو، يمضي عليه الأسبوع وما يَقربُه أحد، فيُخرِجُ أمَّه فيحجمها، ليُري الناس أنه غيرُ فارغ، فمازال يَحجُم أمَّه حتى نَزَفَ دَمُها فماتت، فضُرب به المثل، قال الشاعر: [من السريع]

مَطْبَخُهُ قَفْرٌ وطَبّاخُهُ ... أَفْرغُ من حَجّامِ ساباطِ

وبلغ كسرى حديثَه فاستدعاه، فحجمه، فأعطاه مالاً كثيراً، فأغناه عن الحِجامة، وساباط مَوضعٌ بالمدائن[5].

---

(١) الدرة ١/ ٢٢٩ـ٣٠٢، والعسكري ٢/ ٦٤ـ٦٦، والميداني ٢/ ٤٣ـ٤٥، والزمخشري ١/ ٢٤٢ و٢٤٥.

(٢) الدرة ١/ ٣٠٩، والعسكري ٢/ ٧٠، والميداني ٢/ ٤٩، والزمخشري ١/ ٢٤٨.

(٣) الدرة ١/ ٣٢٤، والعسكري ٢/ ٨٧، والميداني ٢/ ٦٥ـ٦٦، والزمخشري ١/ ٢٥٩، وانظر الكامل ٥١٠ و٧١٢، والأغاني ١٤/ ٧٥.

(٤) ديوانه ٢٠٥ (شعراء إسلاميون)، والدرة ٢/ ٣٦٥، والعسكري ٢/ ١٧٤، والميداني ٢/ ١٦٩، والزمخشري ١/ ٢٩٣.

(٥) الدرة ٢/ ٣٣١، والعسكري ٢/ ١٠٧، والميداني ٢/ ٨٦، والزمخشري ١/ ٢٧٠، وليس فيه البيت، وثمار القلوب ٢٣٥ منسوباً لابن بسام ضمن ثلاثة أبيات.

أَفْرَسُ من بِسطام بن قيس الشيباني فارس بَكْر، وكانوا يُقَدِّمونه على عمرو بن معدي كَرِب[١].

أفرسُ من عامر، هو عامر بن الطُّفَيل، أفرسُ أهلِ زمانه وأجودُهم، وكان مناديه ينادي بسوق عُكاظ: هل من راجِلٍ فنَحمِلَه، أو جائعٍ فنُطعمَه، أو خائفٍ فنُجيرَه ونُؤَمِّنَه، والعامران: عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعصعة أبو براء، مُلاعبُ الأَسِنَّة، عمُّ عامر بن الطُّفيل، وعامر بن الطُّفَيل بن مالك بن جعفر بن كلاب أبو عليّ[٢].

أَفْتَكُ من البَرَّاض بن قَيس الكِناني، قاتلُ عُروةَ الرَّحّال، كان فاتكاً، نَبَتْ به بلادُه من كثرة قَتْله وفَتْكه، وتبرَّأ منه قومُه، فرحل إلى النّعمان، وكان يبعث في كل عام بلَطِيمَةٍ إلى سوق عُكاظ، فقال يوماً: من يُجير لَطيمتي؟ فقال البَرَّاض: أنا أُجيرُها على بني كنانة، فقال: ما أُريد إلا مَن يُجيرها على الحيَّيْن قيس وكنانة، فقال الرَّحّال للنعمان: أهذا العَيَّار الخليع يُجير لَطيمتَك على كِنانة، أنا أُجيرها على أهل الشِّيحِ والقَيْصوم من نَجْدٍ وتِهامة، فأخذها ورحل بها، فاتَّبعَه البَرَّاضُ يَقفو أثرَه، حتى إذا كان عُروة بين ظَهْرَي قومه بجانب فَدَك، أخرج البَرَّاض قِداحاً يَستقسِم بها، فمرَّ به عروة فقال: ويحك ما تصنع هاهنا؟ فقال: أستخبر القِداح في قَتلي إياك، فقال عروة: اسْتُك أضيقُ من ذلك، فوثب إليه البَرَّاض، فضربه بسيفه حتى قتله، واستاق العِير[٣].

أَفْتَكُ من الجَحّاف، هو ابن حَكيم السُّلَمي، كان من فُتَّاك العرب، وهو ابنُ عمِّ عُمَيْر بنِ الحُباب السُّلَمي، وكان عُمير قد نَهض في الفتنة التي كانت بين الزُّبَيْريَّة والمَروانيّة بالشام، فلَقِيَتْه خيلٌ لبني تَغلب في بعض الغارات فقتلوه.

فلما قُتل ابن الزُّبير رضي الله عنهما، واجتمع الناس على عبد الملك بن مروان، دخل الجَحّاف على عبد الملك وعنده الأخطل، فقال الأخطل: [من الطويل]

ألا سائلِ الجَحّافَ هل هو ثائرٌ ... بقَتلى أُصيبَتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ[٤]

(١) الدرة ١/ ٣٣٣، والعسكري ٢/ ١٠٩، والميداني ٢/ ٨٧ و٨٦، والزمخشري ١/ ٢٦٨ و٢٦٩.

(٢) الدرة ١/ ٣٣٣، والعسكري ٢/ ١٠٩، والميداني ٢/ ٨٧ و٨٦، والزمخشري ١/ ٢٦٨ و٢٦٩.

(٣) الدرة ١/ ٣٣٥-٣٣٦، والعسكري ٢/ ١١٠، والميداني ٢/ ٨٧-٨٨، والزمخشري ١/ ٢٦٥-٢٦٦.

(٤) ديوانه ٢٨٦.

فقال الجَحَّاف: [من الطويل]

بَلى سوف أبكيهم بكلِّ مُهَنَّدٍ وأَبكي عُمَيراً بالرِّماح الخَواطِرِ[١]

ثم قال: يا ابن النّصرانيَّة، ما ظننتُ أنّك تجترىء عليّ بمثل هذا ولو كنتُ مأسوراً، فَحُمَّ الأخطل في الحال خوفاً منه، فقال عبد الملك للأخطل: لا تَخفْ، فإني جارٌ لك منه، فقال: يا أمير المؤمنين: فهبْ أنك تُجيرُني منه في اليَقْظة، أتُجيرني منه في المنام؟ ونهض الجحّاف فخرج يجرُّ رداءَه، فقال عبد الملك: إن في قَفاه لَغَدرةً، وجمع الجحّاف قومَه، وأتى الرُّصافة، فصادف في طريقه أربع مئةٍ من بني تَغلب رهط الأخطل فقتلهم، وأتى ماءً لبني تَغلب يقال له: البِشْر، عليه جمعٌ كثيرٌ منهم فقتل منهم خمس مئة رجل، ثم تعدَّى إلى قَتْلِ النساء والوِلدان، فصاحت به عجوزٌ منهم: قاتلك الله يا جَحَّاف، تعدَّيتَ من قتل الرجال إلى قتل النساء والوِلدان، أما تَخاف العاقبة؟! فرفع السيفَ عنهم.

وبلغ الأخطل، فدخل على عبد الملك وعنده أُمَراء دولتِه، وقال: واقوماه، وأنشد أبياتاً منها: [من الطويل]

لقد أَوْقَعَ الجَحّافُ بالبِشْرِ وَقْعَةً إلى الله منها المُشْتَكى والمُعَوَّلُ[٢]

فأهدر عبد الملك دمَ الجَحَّاف، فدخل بقومه بلادَ الرُّوم، فأقام بها سبع سنين حتى مات عبد الملك، فكتب إليه الوليد فرجع فأَمَّنَه[٣].

أفتكُ من الحارث بن ظالم، كان قد فتك برجالٍ من أصحاب الأسود بن المنذر بن النعمان ملكِ الحيرة، فطلبه الأسود ففاته، فأرسل إلى جاراتٍ كُنَّ للحارث، فأَخذهُنَّ واستاق الإبل، وأُخبر الحارث، فعارض الجيش، واستَنْقَذَ ما أخذوه، وفتك بأصحاب الأسود.

أَفتكُ من عمرو بن كُلثوم، سار إلى عمرو بن هند ملكِ الحيرة في دار مملكته ما بين

---

(١) الأغاني ١٢/ ٢٠٥.

(٢) ديوانه ١٠.

(٣) المثل والقصة في الدرة ١/ ٣٣٧، والعسكري ٢/ ١١١ـ١١٢، والميداني ٢/ ٨٨ـ٨٩، والزمخشري ١/ ١٩٢ـ١٩٣ وانظر الأغاني ١٢/ ١٩٨ـ٢٠٨.

الحيرة والفرات، ففتك به، وانتهبَ أموالَه، وسار بها إلى الشام، ولم يلتفت إلى أحد[(١)].

أَقْرى من زاد الرَّكْب، ضُرب هذا المثل لثلاثة من قريش: مُسافِر بن أبي عمرو بن أُميَّة، وأبي أميَّة بن المُغيرة، والأسود بن المُطَّلب بن أسد بن عبد العُزَّى، وإنما سُمُّوا بذلك لأنهم إذا سافروا لم يمكنوا أحداً من رفقتهم من حَمْل زاد[(٢)].

أَكْذَبُ مَن دَبَّ ودَرَج، معناه: أكذبُ الأحياء والأموات.

أكذبُ من فاخِتَة، لأنها تقول إذا صَوَّتَت: هذا أَوانُ الرُّطَب، والطَّلْعُ لم يَطْلُع بَعْدُ، قال الشاعر: [من مجزوء الكامل]

أَكْـذَبُ مِـن فـاخِـتَـةٍ ... تـقـول وَسْـطَ الـكَـرَبِ
والـطَّـلْـعُ لـم يَـبْـدُ لـهـا ... هـذا أَوانُ الـرُّطَـبِ[(٣)]

أكبرُ من عجوز بني إسرائيل، وهي التي دَلّت موسى عليه السلام على تابوت نبيّ الله يوسف عليه السلام، وهي من ولد إسحاق عليه السلام، وقيل: من ولد يعقوب عليه السلام، وعاشت أربع مئة سنة[(٤)].

أَلأَمُ من أَسْلَم، هو ابن زُرْعة، وَلي خُراسان، فقيل له: إن الفُرس كانوا إذا مات منهم مَيت جعلوا في فيه درهماً، فنَبش المقابر ليستخرج الدَّراهم، فقال صَهْبان الجَرْمي: [من الطويل]

تَعوَّذ بنَجمٍ واجْعَلِ القبرَ في صفاً ... من الطَّودِ لا يَنْبُش عِظامَك أَسْلَمُ
هو النَّابِشُ المَوتى المُحِيلُ عِظامَهم ... لِيَنْظُرَ هل تحت السَّقائف دِرهَمُ[(٥)]

أَلأَمُ من راضِع اللَّبن، هو رجل من بني تميم كان يَرتَضِعُ من ضَرعِ ناقته، ولا

---

(١) المثلان في الدرة ٢/ ٣٣٧ و٣٣٩، والعسكري ٢/ ١١٢، والميداني ٢/ ٨٩، والزمخشري ١/ ٢٦٦.

(٢) الدرة ٢/ ٣٥٦، والعسكري ٢/ ١٣٣، والميداني ٢/ ١٢٧، والزمخشري ١/ ٢٨١.

(٣) المثلان والشعر في الدرة ٢/ ٣٦٤، والعسكري ٢/ ١٧٣، والميداني ٢/ ١٦٧، والزمخشري ١/ ٢٩٢، والفاختة من أنواع الحَمام.

(٤) الدرة ٢/ ٤٣٨، والميداني ٢/ ١٦٨، والزمخشري ١/ ٢٨٨.

(٥) الدرة ٢/ ٣٧٢، والعسكري ٢/ ٢١٩، والميداني ٢/ ٢٤٩، والزمخشري ١/ ٢٩٨.

يَحلُبها مخافةَ أن يَسمعه أحدٌ وقتَ الحَلب، فيَطلب منه لبناً[١].

أَلَذُّ من الغَنيمة الباردة، وهي التي لا قتالَ فيها[٢].

أَلَذُّ من المُنى، قال الشاعر: [من الطويل]

مُنًى إن تكن حَقّاً تَكُنْ أحسنَ المُنى   وإلا فقد عِشْنا بها زَمَناً رَغْداً[٣]

وقال ابن المقفَّع: كَثرةُ الأماني تَطرد القناعة، وتُفسِدُ الحِسَّ، وتُخْلِق العقلَ[٤]، وأنشد: [من البسيط]

إن المُنى رأسُ أموالِ المفاليسِ[٥]

وقال آخر: [من الكامل]

إن المُنَى طَرَفٌ من الوَسْواسِ[٦]

وقد أخذ بعضُهم عليه، فقال: الغالب على الناس أن يعيشوا بالأماني، قال الشاعر: [من البسيط]

لولا التَّعَلُّلُ بالآمال متُّ أسىً   يَفنى الزَّمانُ وما تَفنى المَواعيدُ[٧]

أَلْحَنُ من قَيْنَتَي يَزيد، هو يزيد بن عبد الملك، وهما حَبَّابة وسَلّامة، وكانتا أَلْحَن من رُؤي من القِيان في الإسلام، ومعناه أفطن، قال الفَزاري: [من الخفيف]

وحديثٍ أَلَذُّه هو مما   يَنْعَتُ النَّاعِتون يُوزَنُ وَزْنا
مَنطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيا   ناً وخيرُ الحديث ما كان لَحْنا

يُريد أنها تَتكلّم بشيء وتُريد غيرَه[٨].

---

(١) الدرة ٢/ ٣٧٣، والعسكري ٢/ ٢٢٠، والميداني ٢/ ٢٥١، والزمخشري ١/ ٣٠٠.

(٢) الدرة ٢/ ٣٧٥، والعسكري ٢/ ٢٢١، والميداني ٢/ ٢٥٢، والزمخشري ١/ ٣٢١.

(٣) الحيوان ٥/ ١٩١، وعيون الأخبار ١/ ٢٦١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٤١٣.

(٤) المثل والشعر وقول ابن المقفع في الدرة ٢/ ٣٧٦، والعسكري ٢/ ٢٢١، والميداني ٢/ ٢٥٣.

(٥) صدره:

إذا تمنيتُ بِتُّ الليلَ مُغتبِطاً

وهو في الحيوان ٥/ ١٩١، وعيون الأخبار ١/ ٢٦١، والميداني ٢/ ٢٥٣.

(٦) مجمع الأمثال ٢/ ٢٥٣.

(٧) البيت في معجم الأدباء ١٧/ ٦٨ للمبارك بن المبارك المعروف بالوجيه.

(٨) الدرة ٢/ ٣٧٩ـ٣٨٠، والعسكري ٢/ ٢٢٤، والميداني ٢/ ٢٥٥، والزمخشري ١/ ٣١٤، والبيتان لمالك بن =

أَنْجَبُ من أمِّ البَنِين، هي ابنةُ عمرو بنِ عامر فارس الضَّحْياء، ولدت خمسةً من النُّجَباء، وكانوا إذا وَلَدت المرأةُ ثلاثةً، قالوا: مُنْجِبَة، وهذه وَلَدَتْ خمسةً من مالك ابن جعفر بن كلاب، وهم: أبو براء مُلاعِبُ الأَسِنّة، وفارساً وهو الطُّفَيل أبو عامر، ورَبيعة [ربيع] المُقْتِرين، ونَزّال [المضِيق]، ومعاوية مُعَوِّد الحُكَماء، وقد افتخر بها لَبيد فقال: [من الرجز]

نحن بنو أمِّ البَنِينَ الأَرْبَعَهْ

وإنما قال: أربعة، وهم خمسة لضرورة الشعر[١].

أَنْجَبُ من مَارِيَة، هي بنت أَرقم بن ثَعْلَبة بن عمرو بن جَفْنَة بن عَوف بن عمرو بن ربيعة، وابنُها الحارث الأَعرج الذي قال فيه حسان: [من الكامل]

أولادُ جَفْنَةَ حول قبرِ أَبيهم   قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ[٢]

وقال أبو عبيد: مارية بنت عبد مناة بن مالك بن زيد بن عبد الله بن دارم.

وقال ابن قتيبة: مارية بنت ظالم بن وهيب بن الحارث بن معاوية الكِندي، وأختُها هِند الهُنود امرأةُ آكِلِ المُرَار[٣]، ويُقال في المثل: خُذْها ولو بقُرْطَي مارِيَة، فضُرب مثلاً للشيء الثَّمين[٤].

أَنْجَبُ من عاتِكة، هي بنتُ هِلال بن مُرَّة بن ذَكوان السُّلَميّة، جدَّةُ رسول الله ﷺ، ولدت لعبد مَناف بن قُصَيّ هاشماً وعبدَ شمس والمُطَّلب[٥].

أَنْدَمُ من الكُسَعِيّ، واسمه مُحارِب بنُ قيس من بني كُسَع، وقيل: غامِدُ بنُ الحارث، كان يرعى إبلاً بوادٍ مُعْشِبٍ، فرأى نَبْعَةً في صخرةٍ فأَعجبتْه[٦]، فقطعها

= أسماء في البيان ١/ ١٤٧، وأمالي القالي ١/ ٥، والشعر والشعراء ٧٨٢.

(١) الدرة ٢/ ٤١١، والعسكري ٢/ ٣٥، والميداني ٢/ ٣٥٠، والزمخشري ١/ ٣٨٢، وديوان لبيد ٣٤١.

(٢) ديوانه ١/ ٧٤ (عرفات).

(٣) المعارف ٦٠٩.

(٤) أمثال أبي عبيد ٣٣٢، والفاخر ١٠٧، والدرة ٢/ ٤١٠ و٤١٢، والعسكري ٢/ ٢٩٩ و٣٢٦، والميداني ٢/ ٣٤٩ و٣٥٧، والزمخشري ١/ ٣٨٤ و٢/ ٧٣، وفصل المقال ٣٣٥.

(٥) الدرة ٢/ ٤١٢، والعسكري ٢/ ٣٢٦، والميداني ٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥١، والزمخشري ١/ ٣٨٤.

(٦) النبع من أشجار الجبال.

واتَّخذ منها قَوساً، فمرَّت به قُطعانٌ من حُمُرِ الوَحْش ليلاً، فرمى عيراً فأنْفَذَها، وخرج السَّهمُ منها فأصاب الجبل، فأَوْرى ناراً، فظنَّ أنه أخطأ، ثم مرَّ قطيعٌ آخر، فرماه فأَنْفَذَه، وخرج السَّهمُ فأصاب الجبل، فظنّ أنه أخطأ، فعل ذلك مِراراً وهو يظنُّ أنه يُخطىء، فعمد إلى قوسه فكَسَرها من حَنَقِه، فلما أَصبح نظر إلى الحُمُرِ قَتْلى مُضَرَّجةً بالدم، فنَدِم، وعَضَّ إبهامَه فقطعها، وقال: [من الوافر]

نَـدِمْـتُ نَـدامـةً لـو أن نَـفْـسـي ... تُـطـاوِعُـنـي إذاً لَـقـطـعـتُ خَـمْـسـي

فضَربت العربُ به المثل في كلِّ أمرٍ يُندَمُ فيه[١].

أَنْسَبُ من دَغْفَل الشَّيباني، وقيل: السَّدُوسِيّ، واختلفوا في صُحبَتِه[٢]، كان أَعلمَ أهلَ زمانه بالأنساب والعربيَّة والنُّجوم، وَفَد على معاوية فقال له: بم عَلِمْتَ ما علمت؟ فقال: بلسانٍ سَؤول، وقَلبٍ عَقول. وكان عند معاوية قُدامَةُ بنُ جَراد القُرَيعي، فنَسَبه حتى بَلَغَ أباه الذي وَلَده، ثم قال له: وَلد جَراد وَلَدين: أحدُهما ناسك والآخر شاعر سَفيه، فممن أنت منهما؟ فقال: من الشاعر[٣].

وكان قد ذهب بَصَرُه، فمرَّ عليه واحدٌ من الأنصار، أو جماعةٌ من الأنصار، فسلَّموا عليه، فقال: مَن أنتم؟ فقالوا: أَشرافُ أهلِ اليَمن. فقال: من أهل مَلِكها القديم، وشَرَفها العَميم كِنْدة؟ قالوا: لا. قال: فمن الطِّوال قَصَباً، المُمْحَضين نَسَباً، بني عبد المَدَان؟ قالوا: لا. قال: فمن أَقْوَدِها للزُّحوف، وأَخْرَقِها للصُّفوف، وأَضْرَبِها بالسيوف، بني زُبَيْد؟ قالوا: لا. قال: فمن أَحْضَرِها قِراءً، وأَطْيَبِها فِناءً، وأصدقها لِقاءً، طَيِّىء؟ قالوا: لا. قال: فمن الغارِسين للنَّخل، والمُطعِمين في المَحْل، والقائلين بالعَدْل، الأنصار؟ قالوا: نعم[٤].

---

(١) الفاخر ٩٠، والدرة ٢/ ٤٠٧، والعسكري ٢/ ٣٢٤، والميداني ٢/ ٣٤٨ـ٣٤٩، والزمخشري ١/ ٣٨٦، وثمار القلوب ١٣٣، والمعارف ٦١٢.

(٢) انظر الإصابة ٣/ ١٩٤.

(٣) المعارف ٥٣٤، ومجمع الأمثال ٢/ ٣٤٦ وفيهما: أنا الشاعر السفيه، والمثل دون قصة في الدرة ٢/ ٣٩١، العسكري ٢/ ٢٩٩، والزمخشري ١/ ٣٩١، وبرواية: أعلم من دغفل في الدرة ١/ ٢٩٨، والعسكري ٢/ ٣٤، والميداني ٢/ ٥٤، والزمخشري ١/ ٢٥٢.

(٤) أمالي القالي ٢/ ٢٨٤، والعقد ٣/ ٣٢٧ـ٣٢٨.

أَنْعَمُ من حَيَّان أخي جابر، كان مُتَنَعِّماً، وفيه يقول الأعشى: [من السريع]

شَتَّان ما يَومي على كُورِها ويومُ حَيَّانَ أخي جابرِ

يقول: أنا في المسير والشَّقاء، وأخو جابر في الرّاحة والغناء[١].

أَنْعَمُ من خُرَيْم، هو ابن خَليفة المُرِّي، ويُلقَّب بالنَّاعم، لأنه كان يَلبس الخَلَق من الثيّاب في الصّيف، والجديدَ في الشتاء[٢]، ودخل على الحجّاج فقال له: ما النِّعْمةُ؟ قال: الأَمْن، لأن الخائف لا يَنتفعُ بالعَيش.

أَنَمُّ من صُبْح، لأنه يَهتك الأستار[٣].

أَوْفى من السَّمَوْءَل، هو ابن عادِياء اليهوديّ، بلغ من وفائه أن امرأَ القيس بن حُجْر الكِندي أودَعَ عنده دروعاً لمّا ذهب إلى قيصر، وأوصاه إذا مات أن يدفعها إلى وَرَثته، فغزاه بعضُ ملوك الشام، فسبى ولَدَه وقال: إن لم تدفع إليَّ الدُّروع وإلا ذَبحتُ وَلَدَك، وكان قد أَحْصَره في حِصْنِه بتيماء وهو الأَبْلَقُ الفَرْد، فقال: والله لا أُعطيك إياها أبداً، ولا أُفَرِّط في أمانتي، فذبح ولدَه وهو ينظر إليه، ثم رحل عنه، فلما كان في الموسم وافى بالدُّروع، فدفعها إلى وَرَثته وقال: [من الوافر]

وَفيتُ بأَدْرُعِ الكِنديِّ إني إذا ما خان أقوامٌ وَفَيتُ

وقالوا إنه كَنْزٌ رَغيبٌ ولا واللهِ أَغدِرُ ما مَشَيْتُ

بَنى لي عادِيا حِصناً حَصيناً وبِئراً كلَّما شِئْتُ استَقيتُ[٤]

أَهْوَنُ من تَبالَةَ على الحَجّاج، وهي بلدة باليمن خِصبَة، كان عبد الملك ولّاه إياها، فلما أتاها استحقرها، فلم يدخل إليها، ولما سار إليها قال للدليل: أين هي؟ قال: سَتَرَتْها عنك هذه الأَكَمة، فقال: أَهْوِن بعَملٍ تَستُره أَكَمة، ثم رجع.

(١) الدرة ٢/ ٤٠٣، والعسكري ٢/ ٣٢٠، والميداني ٢/ ٣٥٦، والزمخشري ١/ ٣٩٣، وديوان الأعشى ١٩٧.

(٢) كذا، والذي في كتب الأمثال: أن الحجاج سأله عن تنعمه فقال: لم ألبس خَلَقاً في شتاء، ولا جديداً في صيف، انظر الدرة ٢/ ٤٠٢، والعسكري ٢/ ٣١٩، والميداني ٢/ ٣٥٥-٣٥٦، والزمخشري ١/ ٣٩٤.

(٣) الدرة ٢/ ٣٩٢، والعسكري ٢/ ٣١٥، والميداني ٢/ ٣٥١، والزمخشري ١/ ٤٠١.

(٤) الدرة ٢/ ٤١٥، والعسكري ٢/ ٣٤٥ وليس فيه الأبيات، والميداني ٢/ ٣٧٤، والزمخشري ١/ ٤٣٥، وثمار القلوب ١٣٢، وديوانه ٧٩، وانظر المحبر ٣٤٩، والفاخر ٣٠٢.

أَهْوَنُ من قُعَيْسٍ على عَمَّته، هو رجل من أهل الكوفة زار عمته في ليلة باردة وكان بيتها ضَيِّقاً وعندها كلب، فأدخلت الكلبَ البيتَ وأخرجت قُعَيْساً، فمات من البرد.

وقيل: هو قعيس بن مقاعس من بني تميم، مات أبوه، فرَهَنَتْه عمته على صاع من بُرٍّ، ولم تَستَفِكَّه فاستعبده الذي رهنته عنده(١).

فصل

إن البَلاءَ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِقِ. أوَّلُ مَن قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه(٢).

إن من البَيان لسِحْرا، قاله عليه السلام لعَمرو بنِ الأَهْتَم لمّا وَصف الزِّبرقان بن بدر(٣).

إن البُغاثَ بأرضنا يَسْتَنْسِرُ، يُضرب مثلاً للضَّعيف يصير قويّاً، والذَّليل يَعزُّ، ومعناه: إن مَن جاوَرَنا عَزَّ بنا(٤).

إن الجَبان حَتْفُه من فَوْقه، أَوَّلُ مَن قاله عَمرو بنُ مامَة، وكانت مُراد قد أصابته، فقال وهو في سياق الموت: [من الرجز]

لقد حَسَوْتُ المَوتَ قبلَ ذَوْقِه
إن الجَبانَ حَتْفُه من فَوْقِه
والثَّورُ يَحمي أنْفَه بِرَوْقِه(٥)

(١) المثلان على الترتيب في الدرة ٢/ ٤٣١ و٤٣٢، والعسكري ٢/ ٣٧٣، والميداني ٢/ ٤٠٨ و٤٠٧، والزمخشري ١/ ٤٤٥ و٤٤٧.

(٢) الفاخر ٢٣٥، ومجمع الأمثال ١/ ١٧، وأمثال الحديث لأبي الشيخ (٥١)، ومن كلام عَبيد بن شرية في عيون الأخبار ٢/ ٣٠٥، والمستقصى ١/ ٣٠٥، ومن كلام ابن مسعود رضي الله عنه في الزهد لوكيع (٣١١)، ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٥٧٨، والزهد لهناد (١١٩٣)، وروي مرفوعاً من حديث علي وحذيفة وأنس وأبي الدرداء وابن مسعود والحسن مرسلاً، وفي كل منها مقال، انظر المقاصد الحسنة (٣٠٥)، وفيض القدير ٣/ ٢٢٣، وتنزيه الشريعة ٢/ ٢٩٦، وكشف الخفاء ١/ ٣٤٣.

(٣) أخرجه أحمد (٤٦٥١)، والبخاري (٥٧٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه مطولاً العسكري ١/ ١٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٣١٦ و٣١٧، وانظر الميداني ١/ ٧، والزمخشري ١/ ٤١٤، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧١ (السيرة)، والبداية والنهاية ٧/ ٢٤٢ و٢٤٣ (هجر).

(٤) أمثال أبي عبيد ٩٣، والبكري ١٢٩، والعسكري ١/ ١٩٧ و٢٣١، والميداني ١/ ١٠، والزمخشري ١/ ٤٠٢.

(٥) أمثال أبي عبيد ٣١٦، والبكري ٤٣٩، والعسكري ١/ ١١٤، والميداني ١/ ١٠، والزمخشري ١/ ٤٠٣.

إن الحديدَ بالحديد يُفْلَحُ، معناه: أن يُستعان على الأمر الشّديد بما يُقاربه ويُشاكله[(١)].

إن في المَعاريض لَمَنْدوحَةً عن الكَذِب[(٢)]، والمعاريض: التَّوريةُ بالشيء عن الشيء، أي: فيها سَعَة.

إن القُدرة تُذهِب الحَفيظَة، طلب رجلٌ عظيمٌ رجلاً، فلما ظَفِر به قال: لولا أن القُدرة تُذهب الحَفيظة لانتقمتُ منك، ثم عفا عنه[(٣)].

بلغ السَّيلُ الزُّبى، والزُّبْية: حُفرةٌ تُحفَر للأَسد إذا أرادوا أن يَصيدوه، ولا يَعلوها الماء، فإذا بلغها السيل كان جارفاً مُجْحِفاً، فضرب مثلاً لما جاوز الحدّ[(٤)].

وكذا قولهم: **الحِزام الطُّبْيَيْن**[(٥)].

وكذا: **اتَّسعَ الخَرْقُ على الرَّاقِع**[(٦)].

بَرِحَ الخَفاء، معناه: وَضح الأمرُ[(٧)].

تجوع الحُرَّةُ ولا تأكلُ ثَدْيَيْها، معناه: أن الحُرَّةَ وإن آذاها الجوع لا تكون ظِئراً،

(١) أمثال أبي عبيد ٩٦، والبكري ١٣٤، والعسكري ١/ ٣٤٥، والميداني ١/ ١١، والزمخشري ١/ ٤٠٣.

(٢) روي عن عمران بن حصين مرفوعاً وموقوفاً، فأخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ٩٦٣، وأبو الشيخ في الأمثال (٢٣٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٢٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠١١) مرفوعاً، وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٤/ ٢٨٧ و٧/ ١٤٤، وابن أبي شيبة في المصنف ٨/ ٧٢٣، وهناد في الزهد (١٣٧٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٥٧) و(٨٨٥)، والطبري في تهذيب الآثار (٩٤٣) (مسند عمر)، والطبراني في الكبير ١٨/ (٢٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤٥٨)، وفي السنن الكبرى ١٠/ ١٩٩، وابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٥٢ موقوفاً.

قال البيهقي: هذا هو الصحيح موقوفاً، وروي من كلام عمر بن الخطاب ﷺ، أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٧٢٣، والبيهقي ١٠/ ١٩٩، وابن عبد البر ١٦/ ٢٥٢، وانظر كشف الخفاء ١/ ٢٧٠، ومجمع الأمثال ١/ ١٣.

(٣) أمثال أبي عبيد ١٥٥، والبكري ٢٣٤، والميداني ١/ ١٤، والزمخشري ١/ ٣٤٩.

(٤) أمثال السدوسي ٤٠، والعسكري ١/ ٢٢٠، والميداني ١/ ٩١، والزمخشري ٢/ ١٤.

(٥) الكامل ٢٧، والمستقصى ٢/ ١٣.

(٦) العسكري ١/ ١٦٠، والزمخشري ١/ ٣٥.

(٧) أمثال أبي عبيد ٦٠، والبكري ٦٣، والعسكري ١/ ٢٠٥، والميداني ١/ ٩٥، والزمخشري ٢/ ٧، والفاخر ٣٥، وأمثال أبي عكرمة ٨٤.

وأوَّلُ من قال ذلك: الحارث بن سَلِيل الأسدي، أراد به: أن الرجل الحُرَّ يَصونُ نفسَه عن الخَسائس[١].

لا أطلُبُ أثَراً بعد عَيْن، أوّلُ مَن قاله مالك بن عمرو الباهلي، وقيل العاملي: قُتل أخوه سِماك، فخرج يطلب قاتلَه، فرآه في رَكْبٍ، فقالوا له: يا مالكُ خُذْ مئةً من الإبل ولا تقتلْه، فقال: لا أطلبُ أثَراً بعد عين، وحمل عليه فقتله. فضرب مثلاً لمن ترك شيئاً وهو يراه، ثم تتبَّع أثَرَه بعد فوات عَينه[٢].

تَسْمَع بالمُعَيْدِيِّ لا أن تَراه، يُضربُ مَثَلاً للرجل الذي له صِيتٌ وذكرٌ في الناس، فإذا رأيتَه ازْدَرَيتَه، وأولُ مَن قال ذلك المُنذر بن ماء السماء، بَلغَه عن بعض أحياءِ العرب أن لهم جمالاً وهَيبة، فلما حضروا بين يديه لم يجدهم كما وصفوا، فقال ذلك، فصار مَثلاً[٣].

تَعِسَت العَجَلَة، أوَّلُ مَن قاله فِنْدٌ مولى عائشة بنت سعد بن أبي وَقّاص، بعثَتْه ليأتيها بنار، فصادف قوماً خارجين إلى مصر، فخرج معهم، فأقام بها سنة، ثم ندم فعاد، وأخذ ناراً وجاء بها إلى عائشة يعدو، فعثر فتبَدّد الجمرُ، فقال: تَعِسَت العَجَلة. وفيه يقول عبيد الله بن قيس الرُّقَيّات: [من الخفيف]

قُلْ لِفِنْدٍ يُشيِّعُ الأَظْعانا ... طالَ ما سَرَّ عيشَنا وكَفانا[٤]

كجار أبي دُؤاد، هو كَعْبُ بنُ مامة، ما جاوره جارٌ إلا وأحسن إليه، وأَخلف له ما تَلِفَ من مال وغير ذلك. فضربت العربُ به المَثَل، قال قيس بن زهير:

أُطوِّف ما أُطوِّفُ ثم آوي ... إلى جارٍ كجارِ أبي دُؤادِ[٥]

(١) أمثال أبي عبيد ١٩٦، والبكري ٢٨٩، والفاخر ١٠٩، والعسكري ١/ ٢٦١، والميداني ١/ ١٢٢، والزمخشري ٢/ ٢٠.

(٢) أمثال أبي عبيد ٢٤٨، والعسكري ٢/ ٣٨٩، والميداني ١/ ١٢٧ و٢/ ٢١٥، والزمخشري ٢/ ٢٤٢.

(٣) أمثال أبي عبيد ٩٧، والفاخر ٦٥، والعسكري ١/ ٢٦٦، والميداني ١/ ١٢٩، والزمخشري ١/ ٣٧٠، والبكري ١٣٥.

(٤) الفاخر ١٨٩، ومجمع الأمثال ١/ ١٣٩، والأغاني ١٧/ ١٧٦، وديوان عبيد الله ١٥٧.

(٥) مجمع الأمثال ١/ ١٦٣، وثمار القلوب ١٢٧، وبرواية: أجود من كعب في الدرة ١/ ١٢٩، والزمخشري ١/ ٥٤ وفيهما البيت.

جَوِّعْ كلبَك يَتْبَعْكَ، أوَّلُ مَن قال ذلك مَلِك من ملوك حِمْيَر، كان ظالماً لرعيَّته، غاصباً لأموالهم، وكانت له زوجةٌ تنهاه عن ذلك وتقول: أخاف أن يصيروا سِباعاً بعد أن كانوا تِباعاً، فيقول لها: جَوِّعْ كلبَك يَتْبَعْك، وكان له أخ، فاجتمعت الرعيَّةُ إليه، وسألوه أن يَليَ عليهم، وقتلوا الملك وولَّوْا أخاه، فمرَّ به عامر بنُ جَذيمة وهو مقتول فقال: ربّما أكل الكلبُ سيِّدَه إذا لم يُشْبِعْه، فصارت مثلاً[(١)].

جاء بقَرْنَي حِمار، معناه: جاء بالباطل والكَذِب، لأن الحمار لا قَرْنَ له[(٢)].

حديث خُرافَة، وهو رجل استَهْوَتْه الجنُّ، فكان يُحدِّثُ بما رأى فكذَّبوه، وقالوا: حديثُ خُرافة[(٣)].

حَلَبَ الدَّهرَ أَشْطُرَه، يُضربُ مَثَلاً لمَن جَرَّبَ الدَّهر[(٤)].

حُبُّك الشيءَ يُعمي ويُصِمّ، هو حديث عن رسول الله ﷺ[(٥)]، ومعناه: يُخفي عليك مساويه، ويُصمُّ سَمعَك عن العَذْل فيه.

وحَبيبٌ إلى عبدٍ مَن كَدَّه، معناه: أن مَن أهان العبدَ وأتعبه كان أحبَّ إليه ممَّن أكرمه، لأن طباع العبد مَجبولةٌ على الهَوان[(٦)].

الحديثُ شُجون، أوَّلُ مَن قاله ضَبَّةُ بن أُدّ بن طابخة بن إلياس، قال الفرزدق: [من الطويل]

فلا تَأمَنَنَّ الحربَ إنَّ استِعارَها كضَبَّةَ إذ قال الحديثُ شُجونُ[(٧)]

وكان لضَبَّةَ وَلَدان: سعد وسُعَيد، فنَفِرت إبلُه، فبعث ولدَيه في طَلَبِها، فلقي

---

(١) أمثال أبي عبيد ٣٥٨، والفاخر ١٥٨، والعسكري ١/ ١١١، والميداني ١/ ١٦٥، والزمخشري ١/ ٥٠.
(٢) مجمع الأمثال ١/ ١٦٦.
(٣) مجمع الأمثال ١/ ١٩٥، وبرواية: أَمْحَل من حديث خرافة في الدرة ٢/ ٣٨٩، والعسكري ٢/ ٢٩٥، والميداني ٢/ ٣٢٦، والزمخشري ١/ ٣٦١.
(٤) العسكري ١/ ٣٤٦، والميداني ١/ ١٩٥، والزمخشري ٢/ ٦٤.
(٥) الصحيح أنه موقوف على أبي الدرداء ﷺ كما ذكر محققو مسند أحمد (٢١٦٩٤)، وانظر مجمع الأمثال ١/ ١٩٦.
(٦) الميداني ١/ ١٩٦، والزمخشري ٢/ ٥٧.
(٧) ديوانه ٢/ ٣٣٣ (صادر).

الحارث بنُ كعب سُعَيْداً وعليه بُرْدان، فسأله الحارث إياهما فأبى عليه، فقتله الحارث ولم يعرفه، وغاب خبره عن أبيه ضَبَّةَ زماناً، ثم خرج إلى الموسم، فرأى الحارث وعليه البُردان فقال: من أين لك هذان؟ فقال: لقيتُ غُلاماً من صفته كذا وكذا، فسألْتُه إياهما فأبى، فقتلتُه وأخذتُهما. فقال ضَبَّة: الحديثُ شُجون، ثم قال للحارث: أَقتَلْتَه بسيفك هذا؟ قال: نعم. قال: أَظُنُّه صارماً، فناوله إياه، فهزّه ثم ضرب به الحارث حتى برد، وأخذ بثأر ولده(١).

الحَربُ سِجال، أولُ مَن قاله أبو سفيان بن حرب يوم أُحُد(٢).

حَمَّام مِنْجاب، هو ابنُ راشد الضَّبِّي، بنى حمَّاماً بالبصرة، فكان يجتمع إليه الفُسَّاق، فضربت العرب به المَثَل، واحْتُضِرَ بعض الناس فقيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: [من البسيط]

يا رُبَّ قائلةٍ يوماً وقد لَغِبَتْ   كيف الطَّريقُ إلى حَمَّام مِنجابِ

ومات(٣).

خُفَّا حُنَيْن، كان رجلاً شديداً، ادَّعى أنه ابنُ أسد بن هاشم بن عبد مناف، فأتى عبدَ المُطَّلب، وعليه خُفَّان أحمران، فقال: يا عمُّ، أنا ابنُ أسد بن هاشم، فقال عبد المطلب: لا وثياب [ابن] هاشم، ما أعرف فيك شمائلَ هاشم فارجع، فرجع، فقال الناس: رجع حُنَين بخُفَّيه، فصارت مثلاً.

وقيل: كان حُنين إسكافاً من أهل الحيرة، ساوَمَه أعرابيٌّ بخُفَّيْن، ولم يَشتر منه شيئاً، وغاظه ذلك، فخرج فعلَّق أحد الخُفَّين في شجرة على طريقه وتقدَّم قليلاً، وطرح الآخر وكَمَن، وجاء الأعرابيُّ فرأى أحدَ الخُفَّين فقال: ما أَشبَهَ هذا بخُفِّ حُنَين لو كان معه آخر، فتقدَّم فرأى الخُفَّ الآخر مطروحاً في الطريق، فنزل وعَقل بعيرَه وأخذه، ورجع ليأخذ الأوّل، فخرج حُنَيْن من الكمين، فأخذ بعيره، وذهب الإسكاف بالبعير،

(١) أمثال أبي عبيد ٦١، والبكري ٦٧، والفاخر ٥٩، والعسكري ١/ ٣٧٧، والميداني ١/ ١٩٧، والزمخشري ١/ ٣١٠.

(٢) السيرة ٢/ ٩٢، ومسند أحمد (١٨٥٩٣)، وصحيح البخاري (٤٠٤٣) بقصة غزوة أحد من حديث البراء رضي الله عنه.

(٣) التعازي والمراثي ٢٥٢، والمعارف ٦١٤، وعيون الأخبار ٢/ ٣١١، وثمار القلوب ٤٨٨ (صالح).

ورجع البدوي إلى حيِّه بخُفَّي حُنَيْن(١).

خَلا لك الجَوُّ فبِيْضِي واصْفِري، أوَّلُ مَن قال ذلك طَرَفة بنُ العَبْد الشاعر، خرج مع عمِّه في سفر وهو غلام، فنزلوا على ماءٍ، فنصب طرفة الفِخاخ ليَصيد القَنابِر، وجلس عامَّةَ يومِه، فلم يقع في الفِخاخ شيء، فأخذ الفِخاخ وارتحلوا، فنظر إلى القَنابر فإذا بهنّ يَلقُطنَ ما نثره من الحَبِّ، فقال طرفة: [من الرجز]

يــا لــك مــن قُــنْــبَــرةٍ بــمَــعْــمَــرِ
خــلا لــك الــجــوُّ فــبِــيــضــي واصــفِــري
ونَــقِّــري مــا شــئــتِ أن تُــنَــقِّــري
قــد رَحَــل الــصــيَّــادُ عــنــك فــابْــشِــري
ورُفِــعَ الــفَــخُّ فــمــاذا تَــحــذَري
لابُــدَّ مــن صــيــدِك يــومــاً فــاصــبــري(٢)

دَرْدَبَ لمّا عَضَّه الثِّقاف، خشبة تُسَوَّى بها الرّماح، ومعناه: ذَلّ وخضع، يضرب مثلاً لمن امتنع من شيء، ثم ذَلَّ وانقاد إليه(٣).

ذَكَّرْتَني الطَّعْنَ وكنتُ ناسياً، أوّلُ مَن قاله: رُهَيْم بن حَزْن الهِلاليّ، وكان قد خرج بأهله وماله يُريد بلاداً أخرى، فاعترضه قوم من بني تَغلب، فعرفوه ولم يعرفهم، فقالوا له: خَلِّ ما معك وانْجُ بنفسك، فقال: خذوا المال ودَعوا الحَريم ـ وكان قد نسي أن رُمحه في يده ـ فقال له بعضُهم: فأَلْقِ رُمْحَك، فتذكّر وقال: وإن رُمحي معي، ثم حمل عليهم فقتل منهم جماعة، وانهزم الباقون، وهو يَرتَجز ويقول:

رُدُّوا عــلــى أَقْــرَ بِــهــا الأَقــاصِــيــا

(١) أمثال أبي عبيد ٢٤٥، والبكري ٣٥٤، والعسكري ١/ ٤٣٣، والميداني ١/ ٢٥٦ و٢٩٦، والزمخشري ١/ ١٠٥ و٢/ ١٠٠، وما بين معكوفين منهما.

(٢) أمثال أبي عبيد ٢٥١ـ٢٥٢، والفاخر ١٧٩، والبكري ٣٦٣، والعسكري ١/ ٤٢٢، والميداني ١/ ٢٣٩، والزمخشري ٢/ ٧٥، وديوان طرفة ١٥٧.

(٣) أمثال أبي عبيد ٣١٨، والعسكري ١/ ٤٤٤، والميداني ١/ ٢٦٤، والزمخشري ٢/ ٧٩.

إنَّ لـهـا بـالـمَـشْـرَفـيِّ حـادِيـا
ذَكَّـرْتَـنـي الـطَّـعْـنَ وكـنـتُ نـاسِـيـا

وقيل: أصل هذا أن رجلاً حمل على رجلٍ ليقتُلَه، وكان في يد المحمول عليه رُمحٌ، فأنساه الدَّهَشُ ما في يده، فقال الذي حمل عليه: ألقِ الرُّمحَ، فتذكر، فحمل عليه برُمحه فقتله. وصاحب الرُّمح: يزيد بن الصَّعِق، والمقتول: صَخْر بن معاوية السُّلَمي[(١)].

رُميَ فلانٌ بحَجَرِه، يعني: بِقِرْنِهِ في الصَّلابة والصُّعوبة.

ولما بعث معاوية عَمرو بنَ العاص حكماً في أيام صِفّين قال الأحنف لعليّ بن أبي طالب ﷺ: إنك قد رُميتَ بحَجَر أهل الأرض، أي: لا نَظيرَ له في الدَّهاء، فابعث ابنَ عبّاس، فإنه رجلُ الدَّهر، أي: نَظيرُه[(٢)].

رُبَّ أخٍ لم تَلِدْه أُمُّك، أوّلُ مَن قال ذلك لُقمانُ بن عاد، خرج في سفر فعَطِش، فلاحت له خيمةٌ، فقَصدَها، فإذا فتاةٌ إلى جانبها شابٌّ تُغازِله، فاستسقى ماء، فقالت المرأة: أتَبغي اللبن أم الماء؟ فقال: كلاهما. فقالت: إن أَردتَ اللبنَ فخَلْفَك، وإن أردتَ الماء فأَمامَك، فقال: ما هذا الرجلُ منكِ؟ فقالت: أخي، فقال: رُبَّ أخٍ لم تَلِدْه أمُّكِ. فذهبت مثلاً، ثم نظر إلى شَعرٍ مَفتول فعرف أن زوجَها أَعْسَر، فقال: ثَكِلت الأُعَيْسِرَ أُمُّه، لو يَعلمُ العِلمَ لطال غَمُّه. فذهبت مثلاً.

وذُعِرت منه المرأة، فعَرضت عليه الطَّعامَ والشَّرابَ فأبى، وقال: المَبيتُ على الطَّوى حتى تَنالَ به كريم المَثْوَى خيرٌ من إتيان ما لا تَهوى. فذَهَبت مثلاً.

ثم مضى، وإذا برجُلٍ يسوق إبلاً وقت العشاء، فعرف صوتَه ولم يره قبل ذلك، وهو يقول: [من الرجز]

---

(١) أمثال أبي عبيد ٦٢، والفاخر ١٤٢، والعسكري ١/ ٤٦٣، والميداني ١/ ٢٧٩، والزمخشري ٢/ ٨٥، والبكري ٧٠.

(٢) أمثال أبي عبيد ٩٧، والعسكري ١/ ٤٨٠، والميداني ١/ ٢٨٧، والزمخشري ٢/ ١٠٣، ووقع في (ب) بعد هذا: حمل العصا للمبتلى...، وموضعه قبل المثل: قوس حاجب.

رُوحِي إلى الحيِّ فإن نَفْسي
رَهينةٌ فيه بخَيرِ عِرْسِ
حُسَّانَةُ المُقْلَةِ ذاتُ أُنْسِ
لا يُشتَرى اليومُ لها بأَمْسِ

وكان اسم الرجل هانىء، فناداه لقمان: يا هانىء، فقال: مالك؟ فقال:

يا ذا البِجادِ الحلَكَهْ
والزّوجةِ المُشْتَرَكَهْ
لستَ لمَن ليستْ لَكَهْ

فذهبت مثلاً، فقال له هانىء: نَوِّرْ، نَوَّر الله أَثَرَك، فقال له لقمان: عليَّ التَّنوير، وعليك التَّغيير إن كان عندك نكير، كلُّ امرىءٍ في بيته أمير، فذهبت مثلاً، ثم قال: مَرَرْتُ وبي أُوام[1]، فدُفِعْتُ إلى خيمةٍ من الخيام، وإذا بفتاةٍ إلى جانب غُلام، والمنزلُ منزلُك، والمرأةُ امرأتُك وهي تُغازل شاباً، فسألتُها عنه فزعمَتْه أخاها، ولو أنه كما قالت لأفْصَح شِقَّاها، قال هانىء: ومن أين علمتَ أنه منزلي، والعَروس عِرْسي؟ فقال: رأيت عَقائقَ هذه النُّوق في الأَفْياء، وأَثَر هذه الخليَّة في الفِناء، وسَقْبَ هذه النّاب، وأَثَر يَدك في الأَطناب[2]، فقال: صَدَقْتَ، فداك أبي وأمي، وكذَّبْتُ نَفْسي، فما الرّأي؟ فقال: تحمي عِرْسَك، وتَحفظُ نفسَك، وتَقلبُ الظَّهرَ بطناً والبَطْنَ ظَهْراً، حتى يستبينَ لك الأمر أمراً، قال: ألا أُعالجها بكيَّة تُورِدُها المَنِيَّة، فقال لقمان: آخرُ الدَّواء الكَيّ، فأرسلها مثلاً، وهو أوَّلُ مَن قالها، وجاء هانىء إلى منزله فقال لامرأته: مَرَّ بك رجلٌ من هَيْئَتِه كذا وكذا؟ قالت: نعم. فَسَلَّ سيفَه، ثم ضربها به حتى بَرَدَتْ[3].

(١) أي: عَطَش.
(٢) العقائق: جمع عقيقة، الشاة التي تذبح عند حلق شعر المولود، أو صوفها، والأفياء: جمع فيء، ما بعد الزوال من الظلّ، والخلية: الإبل المخلّاة للحَلْب، والناب: الناقة المسنّة، والسقب: ولدها، والأطناب: حبال يشد بها سرادق البيت، أو الأوتاد.
(٣) مجمع الأمثال ١/ ٢٩١، وأمثال أبي عبيد ١٧٥، والعسكري ١/ ٤٢٤ و٤٨١، والزمخشري ٢/ ٩٣.

رُبَّ ساعٍ لقاعِد، أَوَّلُ مَن قاله: النابغة الذُّبياني. قَدم جماعةٌ من الوُفود على النعمان ابن المنذر وفيهم شقيق العَبْسي، فمات عنده، وأعطى النعمانُ الوُفودَ الجَوائز، وبعث بجائزةِ شَقيق إلى أهله بمثل ما حبا به واحداً من الوفود، فقال النابغة: [من الطويل]

أَبقيتَ للعَبْسيِّ فضلاً ونِعمةً ومَحْمَدةً من باقيات المَحامِدِ
حِباءَ شَقيقٍ فوق أَعْظُمِ قَبْرِه وما كان يُحْبى قبلَه قبرُ وافِدِ
أتى أهلَه منه حِباءٌ ونعمةٌ ورُبَّ امرىء يسعى لآخر قاعِدِ[1]

رُبَّ رَميةٍ من غير رامٍ، أول من قاله الحَكَمُ بنُ عبد يَغوث المِنقَري، كان قد آلى أن يَرمي مَهاةً، فرماها فأخطأها، وكان معه ابنٌ لا يُحسنُ الرَّميَ، فرمى مَهاةً فأصابها، فقال الحكم: رُبَّ رَميةٍ من غير رام[2].

شَرُّ أيَامِ الدّيك يوم تُغسَلُ فيه رِجلاه، وإنما تُغسل بعد ذبحه وتهيئته للطَّبخ، قال عليُّ بن الحسن البَاخَرزي يشكو قومه: [من البسيط]

ولا أُبالي بإذلالٍ خُصِصْتُ به فيهم ومنهم وإن خُصُّوا بإعزازِ
رِجلُ الدَّجاجةِ لا من عِزّها غُسِلَتْ ولا من الذُّلِّ خِيطَتْ مُقْلَةُ البازِ[3]

شِنْشِنةٌ أَعرفُها من أَخْزَم، أَوَّلُ من قاله أبو أخزم الطَّائي جَدُّ حاتم، وكان له ابن يُقال له: أَخْزَم، وكان عاقاً له، فمات الابن، وترك بنين، فوثبوا على جدِّهم أبي أَخْزَم فأَدْمَوه، فقال: [من الرجز]

إن بَنيَّ ضَرَّجوني بالدَّمِ شِنْشِنَةٌ أَعرِفُها من أَخْزَمِ

أي: أشبهوا أباهم في العُقوق.

وقيل: كان عَقيل بن عُلَّفَة المُرِّي يسكن الباديةَ لشَرَفِ نَفْسه، وكان يُصهِر إليه الخُلَفاء، خطب إليه عبدُ الملك بن مروان ابنتَه الجَرْباء على أحد بنيه، فقال له: جَنِّبْني هُجَناءك.

---

(١) أمثال أبي عبيد ١٩٥، والفاخر ١٧٥، والعسكري ١/ ٤٧٩، والميداني ١/ ٢٩٩، والزمخشري ٢/ ٩٥، والبكري ٢٨٧، وديوانه ٤٦ (صادر).
(٢) أمثال أبي عبيد ٥١، والبكري ٤٣، والعسكري ١/ ٤٩١، والميداني ١/ ٢٩٩، والزمخشري ٢/ ١٠٥.
(٣) مجمع الأمثال ١/ ٣٥٩.

وكان غيوراً خرج يَمتارُ ومعه ابنتُه الجَرْباء وابنُه عَمَلَّس، فنزل ديراً بالشام يُقال له: دير سَعْد، فلما ارتحلوا قال عَقيل: [من الطويل]

قَضتْ وَطَراً من دير سعدٍ وربَّما ... على عُرُضٍ ناطَحْنَه بالجَماجِمِ

ثم قال لابنه: أَجِزْ، فقال: [من الطويل]

فأَصْبَحْنَ بالمُوماة يَحْمِلْنَ فِتْيَةً ... تَميلُ من الإدلاج مَيْلَ العمائمِ

ثم قال لابنته: يا جَرْباء أَجيزي فقالت: [من الطويل]

كأن الكَرى سَقَّاهُمُ صَرْخَدِيَّةً ... عُقاراً تَمَشَّت في المَطا والقَوائمِ

فقال: وما يُدريكِ ما نَعْتُ الخمر، وأخذ السَّوط، وأهوى إليها؟ فحال بينهما عَمَلّس، فأراد أن يضربه، فرماه عَمَلّس بسهم، فاختلّ فخذيه فبرك، ومَضَوا وتركوه، حتى إذا بلغوا أدنى ماءٍ لهم قالوا: إنا خلَّفنا جَزوراً، فأدرِكوه وخذوا معكم ماء، فأخذوا وقَصدوه، وإذا بعَقيل باركٌ وهو يقول: [من الرجز]

إن بَنيَّ ضَرَّجوني بالدَّم ... شِنْشِنَةٌ أَعرِفُها من أَخْزَمِ

مَن يَلق أبطالَ الرجال يُكلَمِ

وقيل: كان في الجاهلية فحلٌ يقال له: أَخْزَم، أنجب أولاده جميعاً، وكان يُضرب به المثل.

وشاور عمر بن الخطاب ابنَ عباس رضي الله عنهما في أمر، فأشار عليه بما أعجبه، فقال عمر رضي الله عنه: شِنْشِنَةٌ أَعرِفُها من أَخْزَمِ. أشار إلى العباس رضي الله عنه، لأنه لم يكن في قريش شِبهُه في الرّأي والحَزْم[1].

صارت الفِتيانُ حُمَماً، أوَّلُ مَن قاله الحَمراء، واسمُها: ضَمْرة بنت جابر، كان عمرو بنُ هند ملكُ الحيرة قد نَذَر دماء بني تميم؛ لأنهم قتلوا أخاه سعد بن هند وقال: والله لأحرقَنَّ منهم مئةً من ساداتهم. وسار إليهم في جيوشه، فتفرَّقوا فأتى دارَهم، فلم يجد فيها إلا عجوزاً كبيرة، فنظر إلى حُمْرتها، فقال: إني لأَحْسَبُك أعجميَّةً، فعرفَته،

(١) العققة والبررة لأبي عبيدة ٢/ ٣٥٧ (نوادر المخطوطات)، وطبقات فحول الشعراء ٧١٠-٧١٦، وأمثال أبي عبيد ١٤٤، والبكري ٢١٩، والعقد ٢/ ١٩١-١٩٢، والعسكري ١/ ٥٤١، والميداني ١/ ٣٦١، والزمخشري ٢/ ١٣٤.

وعرفتْ أنه قاتلُها، فقالت: لا والذي أسألُه أن يَخفِضَ جَناحَك، ويَهدَّ عِمادَك، ويَضَعَ وِسادَك، ويَسلبَك أهلَك وأولادَك وبلادَك ما أنا بأعجميّة، فقال: مَن أنت؟ فقالت: ضَمْرة بنت جابر الحمراء، بنت من سادَ مَعَدّاً كابِراً عن كابر. قال: فمَن زوجُك؟ قالت: هَوْذَة بنُ جَرْوَل. قال: أما تعرفين مكانَه؟ فقالت: لو علمتُ مكانَه لحال بيني وبينك، فقال: وأيُّ رجلٍ هو؟ فقالت: طَيِّبُ العِرْقِ، سمينُ العَرْقِ، يأكلُ ما وَجَد، ولا يَسأل عما فَقَد، فقال عمرو: أما والله لولا أني أخافُ أن تَلِدي مثلَ أبيك وأخيك وزوجك لاسْتَبْقَيْتُك، فقالت: إنك لا تَقتُل إلا نساءً أعاليهنّ ثُدِيّ، وأسافلهن دُمِيّ، والله ما أدركتَ ثأراً، ولا غَسلْتَ عاراً.

فأمر بها أن تُحرقَ، فقالت: صارت الفِتيانُ حُمَماً، ثم ألقاها في النار. وأقام عامَّةَ يومه لا يَقدر منهم على أحد، حتى إذا كان آخر النهار أقبل راكبٌ اسمُه عَمّار، فقال له عَمرو: مَن أنت؟ فقال: وافِدُ البَراجِم. فقال عمرو: إنّ الشَّقيَّ وافِدُ البَراجِم، فذهبت مثلاً[1].

صَبْراً على مَجامِر الكِرام، أَوَّلُ من قال ذلك مولاةُ يسار الكَواعب، راودها مولاها يسار عن نفسها، فأبت عليه، فألحَّ عليها، قالت: إن ريحَك سَهِكَة، فإنْ بخَّرتُك ببَخورٍ طاوعتُك، فقال: افعلي. فجاءت بمجمرة فجعلتها تحته، وأدخلت يدها تصلِحُه، وقبضت على ذَكَره ومخاصيه، فجذبَتْه فصاح، فقالت: صَبْراً على مَجامِرِ الكرام، فأرسلَتْها مثلا لمَن يَصبر على ما يكره، قال الفرزدق يخاطب جريراً: [من الطويل]

وإنّـي لَأَخـشـى إن خـطـبْـتَ إلـيـهـمُ عليك الذي لَاقى يَسارُ الكَواعبِ[2]

الصَّيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ، كانت امرأةٌ تحت رجل مُوسِر، فكرهته لكبره فطلَّقها، فتزوَّجها رجلٌ مُمْلِق، فبعثت إلى زوجها الأوَّل تَسْتَمْنحُه، فقال: الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ، وكان طلَّقها في الصيف[3].

---

(١) مجمع الأمثال ١/ ٣٩٤، والمستقصى ٢/ ١٣٧، وانظر أمثال أبي عبيد ٣٢٨، والبكري ٤٥٤، والعسكري ١/ ١٢١، والميداني ١/ ٩، والزمخشري ١/ ٤٠٥.

(٢) النقائض ٨١٦، والفاخر ٩٩، والميداني ١/ ٣٩٣، والزمخشري ٢/ ١٣٩، وديوانه ١/ ٩٧ (صادر).

(٣) أمثال أبي عبيد ٢٤٧، والبكري ٣٥٧، والفاخر ١١١، والعسكري ١/ ٥٧٥، والميداني ٢/ ٦٨، والزمخشري ١/ ٣٢٩.

ظاهِرُ العِتاب خيرٌ من باطنِ الحِقْد، ومثله قول القائل: [من الوافر]

إذا ذَهب العِتاب فلا وِداد ... ويَبقى الودُّ ما بَقي العِتابُ

ظَنُّ العاقِلِ خيرٌ من يقينِ الجاهل(١).

عند جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليَقينُ، وكان من حديثه: أنّ حُصَيْن بن عمرو بن معاوية بن عمرو ابن كلاب خرج ومعه رجلٌ من جُهَيْنَة، وأخذ مالَه، وكانت صَخْرة بنت مُعاوية تبكيه في المواسم. فقال الأخنس: [من الوافر]

تُسائلُ عن حُصَيْنٍ كلَّ رَكْبٍ ... وعند جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليقينُ

فمَن يكُ سائلاً عنه فعِندي ... لصاحِبه البيانُ المُسْتَبِينُ

وقيل: جُهَيْنَة اسمُ خَمّار(٢).

عند الصَّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرى، أوَّلُ مَن قاله رافع الطَّائي دليلُ خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق إلى الشام، وقيل: هو قَولُ خالد بن الوليد رضي الله عنه(٣).

على الخَبير سَقَطْتَ، أوَّلُ من قاله مالك بن جُبَير العامِريّ، وكان من حكماء العرب.

وسأل هارون الرشيد الأصمعيّ عن شيء، فقال له الأصمعي: على الخبير سقطتَ، فقال له الفضلُ بن الربيع: أسقط الله أسنانَك، أبمثل هذا تُخاطب أميرَ المؤمنين؟ فقال الأصمعيّ: هذه لغةُ العرب، فنهاه هارون وقال: صدق(٤).

على يَدَيَّ دار الحديث، يُضرب مثلاً لمن كان عالماً بالأمر، وقد تكلم به جابر بن عبد الله في حديث المتعة(٥).

---

(١) المثلان في مجمع الأمثال ١/ ٤٤٥، والبيت في العقد ٢/ ٣١٠ و ٤/ ٢٣٠.

(٢) أمثال أبي عبيد ٢٠١، والفاخر ١٢٦، والعسكري ٢/ ٤٤، والميداني ٢/ ٣، والزمخشري ٢/ ١٦٩، والبكري ٢٩٥.

(٣) أمثال أبي عبيد ١٧٠، والبكري ٢٥٤، والفاخر ١٩٣، والعسكري ٢/ ٤٢، والميداني ٢/ ٣، والزمخشري ٢/ ١٦٨.

(٤) أمثال أبي عبيد ٢٠٦، والعسكري ٢/ ٤٦، والميداني ٢/ ٢٤، والزمخشري ١/ ١٦٤.

(٥) أمثال أبي عبيد ٢٠٣، والميداني ٢/ ٨، والزمخشري ٢/ ١٦٧، وأخرج حديث المتعة أحمد (١٤١٨٢)، ومسلم (١٢١٧).

عَضَّت الخيلُ على اللُّجُم[١]، يُضرب مثلاً لمَن يَغضبُ غَضباً لا ينتفعُ به، ولا يُلتَفَتُ إليه فيه.

في بيته يُؤتى الحَكَمُ، وَضَعت العربُ أمثالاً على ألسنة البهائم، فقالت: التقطت الأرنبُ تمرةً، فأخذها الثّعلب، فخاصَمَتْه إلى الضَّبّ، فجاءا إلى باب بيته، فنادت الأرنبُ: يا أبا لحُسَيْل، فقال الضَّبُّ: سَميعاً دَعوتِ، فقالت: أتيناك لنَحتكمَ إليك، فقال: عادلاً حَكَّمتُما، قالت: فاخرج إلينا، فقال: في بيته يُؤتى الحَكَم، فقالت: إني التقطتُ تَمرةً، فقال: حُلواً جَنَيتِ، قالت: فاختَطفَها ثُعالَة - يعني الثعلب - قال: حُلواً جنى، قالت: فلَطَمْتُه، قال: بحقِّك أَخذتِ، قالت: فلَطَمَني، فقال: كان حُرّاً فانتصر، قالت: فاقْضِ بيننا، قال: قد فعلتُ[٢].

قد يَضْرُطُ العَيْرُ والمِكْواةُ في النَّار، أوّلُ مَن قاله مسافر بن أبي عمرو بن أُميَّة، كان يهوى هنداً بنت عُتبة بن ربيعة، فأراد أن يتزوّجها فقالت له: أنت فقيرٌ، وأهلي لا يُزوِّجونك وأنت مُعسِرٌ، فاذهب إلى بعض الملوك لعلّك أن تُصيب مالاً.

فذهب إلى النعّمان بن المنذر ملك الحيرة فأقام عنده، وتزوّج أبو سفيان هنداً وقدم الحيرة، وكان صديقاً لمُسافِر، فسأله عن أهل مكّة فأخبره، وقال: تزوّجتُ هنداً، فشَهَقَ شَهقةً عظيمة، وسَقَى بطنُه، فأمر النعمان أن يُكوى، فأتي بطشتٍ فيه نار، فوضع الحجّام عليه مِكواةً لتُحمى، فضَرط الحجّام، فقال مُسافر: قد يَضرُط العَيْرُ والمِكواةُ في النار. يُضرب مثلاً للرَّجل يَتخوَّفُ من الأمر، فيَجزَعُ قبل وُقوعه[٣].

قد أَنْصَفَ القارَةَ مَن راماها، وسبب هذا أن رجلاً منهم التقى رجلاً من العرب، فقال القاريّ: إن شئتَ سابقتُك، وإن شئتَ راميتُك؟ فقال الرجل: قد اخترتُ المُراماة. فقال القاريّ: [من الرجز]

---

(١) كذا، والذي في مجمع الأمثال ٢/ ٥٦، والمستقصى ٢/ ١٧٧: غَضَب الخيل على اللجم، بنصب غضب ورفعها.

(٢) أمثال أبي عبيد ٥٤، والفاخر ٧٦، والعسكري ١/ ٣٦٧ و ٢/ ١٠١، والميداني ٢/ ٧٢، والزمخشري ٢/ ٦٠ و١٨٣.

(٣) أمثال أبي عبيد ٣٠٩، والفاخر ٧١ و ١٥٤، والعسكري ٢/ ١٢٣، والميداني ٢/ ٩٥، والزمخشري ١/ ٣٣٦، والبكري ٤٣٢.

قـد عـلـمـتْ سَـلـمـى ومَـن والاهـا
إنّـــا إذا مـــا فِـــئـــةٌ نَـــلـــقـــاهـــا
نَـــردُّ أُوْلاهـــا عـــلـــى أُخْـــراهـــا
قـــد أَنْـصَـفَ الـقـارَةَ مَـن راماهـا

ثم رماه القاريُّ بسهم فأصاب فُؤادَه فمات، والقَارةُ: رُماةُ الحَدَق(١).

قَلَبَ له ظَهْرَ المِجَنّ، يضرب مثلاً لمن كان على مَودَّةٍ ورعايةٍ لصاحبه، ثم تغيّر واستحال. وكتب عليٌّ عليه السلام إلى ابن عباس رضي الله عنهما: قَلبْتَ لي ظَهرَ المِجَنّ(٢).

قد ألقى عصاه، مثل لمَن استقرَّ من سفرٍ وغيره، قال جرير: [من الطويل]

فلما التقى الحَيَّان أُلقِيَتِ العَصا ... ومات الهوى لمّا أُصيْبَتْ مَقاتِلُهْ(٣)

وفي عكسه يقول عليّ بن الحسن بن أبي الطيِّب الباخَرْزي: [من مجزوء الكامل]

حَـمْـلُ الـعـصـا لـلـمُـبْـتَـلـى ... بـالـشّـيـب عُـنـوانُ الـبِـلا
وُصِـفَ الـمُـسـافِـرُ أنّـه ... أَلـقـى الـعـصـا كـي يَـنـزِلا
فـعـلـى الـقِـيـاسِ سـبـيـلُ مَـن ... حَـمَـلَ(٤) الـعـصـا أن يَـرحـلا

قَوْسُ حاجِب، دعا رسول الله ﷺ على بني تميم، فأَجدَبت أرضُهم، فوفد حاجبُ ابن زُرارة التَّميمي على كسرى، يسألُه أن يأذن له ولقومه أن ينزلوا في أرياف العراق بسبب المَرعى، فقال له كسرى: أنتم قوم فُسدٌ غُدرٌ، وأخاف أن تُؤذوا الرَّعايا، فقال حاجب: أنا ضامنٌ أن لا يفعلوا شيئاً من ذلك، فقال: ومن أين لي بوفائك؟ قال: هذه قوسي، فضحكت أَساوِرَتُه، فقال كسرى: ما كان لِيُسْلِمَها أبداً، فأخذ قَوسَه رهناً، وأَذن لهم فنزلوا الأرياف.

---

(١) أمثال أبي عبيد ١٣٧، والفاخر ١٤٠، والعسكري ١/ ٥٥، والميداني ١/ ١٠٠، الزمخشري ٢/ ١٨٩، والبكري ٢٠٤.
(٢) العسكري ٢/ ١٢٥، والميداني ٢/ ١٠١، والزمخشري ٢/ ١٩٨.
(٣) النقائض ٦٣٠.
(٤) في النسخ: ألقى، والمثبت من مجمع الأمثال ٢/ ١٠١ـ١٠٢.

ثم وفد جماعةٌ منهم على رسول الله ﷺ وأَسلموا، فدعا لهم فأَخصبت أرضُهم، ومات حاجب، فأمر عُطارد بنُ حاجب قومَه بالرحيل إلى بلادهم، وجاء إلى باب كسرى يطلب قوس أبيه، فقال: إنك لم تُسلِم إليَّ شيئاً، فقال: أيُّها الملك، إني وارثُ أبي، وقد وَفينا بالضَّمان، ورحلنا عن بلادك، فإن لم تدفع إليَّ قوسَ أبي صار عاراً عليَّ وسُبَّةً، فدفع إليه القوس، وكساه حُلَّةً من حُلَلِه، فوَفد عُطارد على رسول الله ﷺ في نَفرٍ من بني تميم وأَسلم، وأهدى الحُلَّة لرسول الله ﷺ فردَّها عليه، فباعها عُطارد من يهوديّ بأربعة آلاف درهم.

فكان بنو تميم يتوارثون ذلك القوس، وآخرُ مَن كان عنده جعفر بن عُمَير بن عُطارد ابن حاجب، فهو في ولده، يَعدُّونها من أعظم المفاخِر، وقد ذكرتْه الشعراء في أشعارها، فقال أبو القاسم الزمخشري: [من الطويل]

فكلُّ وَفاءٍ كان في قوسِ حاجبٍ ... وأنت جمعْتَ الغَدْرَ في قوسِ حاجبِ

وقال آخر: [من المنسرح]

تَزهو علينا بقَوسِ حاجبِها ... تِيْهَ تَميم بقَوسِ حاجبِها[1]

قيل للبَغل: مَن أبوك؟ قال: **خالي الفَرس**، يُضرب مثلاً للمُختلِط النَّسب[2].

أكثِرْ من الصَّديق فإنك على العدوِّ قادرٍ، أوَّلُ مَن قاله: أَبْجَر بن جابر العِجلي في وَصِيَّته لولده حجار بن أَبْجَر[3].

كلُّ شاةٍ برِجْلِها، معناه: لا يَنبغي لأحدٍ أن يَأخُذَ بالذَّنب غيرَ المُذنب[4].

كلُّ الصَّيدِ في جَوْفِ الفَرَا، خرج ثلاثةُ نَفرٍ إلى الصَّيدِ، فصاد أحدُهم أرنباً، والآخر ظَبْياً، والآخر حمارَ وَحْشٍ، فتطاولا عليه وقالا: ما صِدتَ شيئاً، فقال: كُلُّ الصَّيدِ في

(١) المعارف ٦٠٨، وثمار القلوب ٦٢٥-٦٢٦، وربيع الأبرار ٥/ ٣٤٣، والبيت الثاني فيهما للمطراني، وهو له في يتيمة الدهر ٤/ ١٣٨.

(٢) العسكري ٢/ ١٠٠، والميداني ٢/ ١١٠.

(٣) الفاخر ٢٤٧، والميداني ٢/ ١٥٣.

(٤) أمثال أبي عبيد ٢٧٤، والعسكري ٢/ ١٥٣، والميداني ٢/ ١٣٣، والزمخشري ٢/ ٢٢٦. وروايته فيها: كل شاة برجلها تُناط، وفي الفاخر ٢٨٨ برواية: برجلها مُعلَّقة.

جَوْفِ الفَرَأ، أي: إن هذا الحمار يَشمل ما معكما؛ لأنه أكبرُ الصُّيود، فكلُّ صَيدٍ حَقيرٌ في جانبه[1].

كَلَابِس ثَوْبَي زُور[2]، معناه: أن الرّجلَ يَلبَسُ ثياب الزُّهَّاد، ويُظهرُ من التَّخشُّع أكثرَ ممّا فيه.

كلامٌ كالعَسَل، وفِعلٌ كالأَسَل، يُضرب لمَن خالفَ قولُه فِعلَه[3].

كِلاهُما وتَمْراً، وخطب عَمرو بن حُمْران الجَعْديّ امرأةً من العرب[4]، وكانت تَسجع، وكان هو يَسجع فتزوَّجها، فولدت له أولاداً فسمّى أحدهم عَمْراً، فنشأ فصيحاً، ودفع إليه إبلاً يَرعاها، فبينا هو يرعى، وبين يديه زُبْدٌ وتَمْرٌ وتامِك ـ وهو لحمُ السَّنام ـ إذ مرَّ به رجل عطشانٌ جائعٌ، فقال: أَتَطعمُني من هذا الزُّبدِ والتَّامِك؟ فقال: نعم، كلاهما وتَمْراً، فسار مثلاً[5].

لَبِسْتُ له جِلدَ النَّمِر، يُضرب في إظهار العداوة وكَشْفِها[6].

لو تُرِك القَطا لهدا وناما، أولُ مَن قاله حَذَامِ بنتُ الرَّيَّان، قَصدهم عاطِسُ بن خلاج ليلاً، فنَفَر القَطا، فقالت لأهلها: ارتَحِلوا فهذا العدوُّ، فلم يلتفتوا إليها، فقالت: [من الوافر]

ألا يا قومَنا ارتَحِلوا فسِيروا ... فلو تُرِكَ القَطا ليلاً لَناما

فعرف قولَها دَيْسَمُ بنُ طارق وكان حازماً فقال: [من الوافر]

إذا قالت حَذَامِ فصَدِّقوها ... فإن القولَ ما قالت حَذامِ[7]

(١) أمثال أبي عبيد ٣٥، والبكري ١٠، والكامل ٤١٤، والعسكري ٢/ ١٦٢، والميداني ٢/ ١٣٦، والزمخشري ٢/ ٢٢٤، وفي حواشي الكامل فضل تخريج.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٥٣٤٠)، ومسلم (٢١٢٩) عن عائشة، وانظر مجمع الأمثال ٢/ ١٥٠.

(٣) الميداني ٢/ ١٣٣.

(٤) كذا، والصواب أن الخاطب حمران الجعدي، انظر المصادر في الحاشية التالية.

(٥) أمثال أبي عبيد ٢٠٠، والفاخر ١٤٩، والعسكري ٢/ ١٤٧، والميداني ٢/ ١٥١، والزمخشري ٢/ ٢٣١، والبكري ١١٠.

(٦) أمثال أبي عبيد ٣٥٣، والبكري ٤٨٠، والعسكري ٢/ ١٩٩، والميداني ٢/ ١٨٠، والزمخشري ٢/ ٢٧٨.

(٧) أمثال أبي عبيد ٢٧١، والبكري ٣٨٤، والفاخر ١٤٥، والعسكري ٢/ ١٩٤، والميداني ٢/ ١٧٤، والزمخشري ٢/ ٢٩٦.

لعلَّ له عُذْراً وأنت تَلُومُ، وهذا نصفُ بيت، وأوَّلُه: [من الطويل]

تَـأنَّ ولا تَـعـجَـلْ بـلَـومِـك صـاحِـبـاً

يُضرب مثلاً لِمَن يلوم مَن له عُذْر[1].

لا تَعدَمُ الحَسناءُ ذاماً، أي: أن الحَسَدَ يحملُهم على ذَمِّها[2].

لا يُرسِلُ السَّاقَ إلا مُمْسِكاً ساقاً، معناه: لا يَدع حاجةً إلا سألَ أخرى[3].

لا عِطرَ بعد عَروس، تَزوَّجَ رجل امرأةً، فقال: أين الطِّيب؟ فقالت: خَبَأْتُه، فقال: لا عِطْرَ بعد عَروس، أي: لا يُخْبَأُ الطِّيبُ بعد العرس[4].

مَرعىً ولا كالسَّعْدان، وهو نَبْتٌ من أفضل مَراعي الإبل[5].

المُلْكُ عَقيم، معناه: أن الرجلَ قد يَقتلُ ابنَه إذا خافَهُ على المُلك، وإذا تنازع قومٌ في مُلْكٍ، انقطعت بينهم الأرحام، فلم يُبْقِ فيه والدٌ على ولده، فصار كأنه لم يُولَد له[6].

مَواعيدُ عُرْقُوب، هو رجلٌ من العَمالقة، أتاه أخٌ له يَسأله شيئاً، فقال: إذا أَطْلَع نخلي فأْتِني، فلما أَطْلَع جاءه، فقال: إذا أَبْلَح، فلما أَبْلَح جاءه، فقال: حتى يُزْهي، فلما أَزْهى جاءه، فقال: حتى يُرْطِب فجاءه، فقال: حتى يُتْمِر، فلما صار تَمراً أخذه في الليل، ولم يُعطِه شيئاً. فضربت به العرب المَثَل في الخُلْف، وفيه يقول كعب: [من البسيط]

كـانـت مَـواعـيـدُ عُـرْقـوبٍ لـهـا مَـثَـلاً　　　ومـا مَـواعـيـدُهـا إلا الأبـاطِـيـلُ[7]

---

(١) أمثال أبي عبيد ٦٣، والبكري ٧٣، والعسكري ١/ ٤٧٤، والميداني ٢/ ١٩٢، والزمخشري ٢/ ٢٨٢.

(٢) أمثال أبي عبيد ٥١، والفاخر ١٥٥، والعسكري ٢/ ٣٩٨، والميداني ٢/ ٢١٣، والزمخشري ٢/ ٢٥٦، والبكري ٤٣.

(٣) أمثال أبي عبيد ٢٤٢، والبكري ٣٥٠، والعسكري ٢/ ٣٨٨، والميداني ٢/ ٢١٧، والزمخشري ٢/ ٢٦٩.

(٤) أمثال أبي عبيد ٣٠٣، والفاخر ٢١١، والعسكري ٢/ ٣٩٥، والميداني ٢/ ٢١١، والزمخشري ٢/ ٢٦٣، والبكري ٤٢٦.

(٥) أمثال أبي عبيد ١٣٥، والفاخر ٦٤، والعسكري ٢/ ٢٤٢، والميداني ٢/ ٢٧٥، والزمخشري ٢/ ٣٤٤، والبكري ١٩٩.

(٦) أمثال أبي عبيد ١٤٨، والعسكري ٢/ ٢٤٧، والميداني ٢/ ٣١١، والزمخشري ٢/ ٣٥٠.

(٧) أمثال أبي عبيد ٨٧، والبكري ١١٣، والفاخر ٦٤، والميداني ٢/ ٣١١، وشرح بانت سعاد لابن هشام ٣٩، وبرواية أخلف من عرقوب في الدرة ١/ ١٧٧، والعسكري ١/ ٤٣٣، والزمخشري ١/ ١٠٧.

المَوتُ دون الجَمَلِ المُجَلَّل، قاله عبد الرحمن بنُ عَتَّاب بن أَسِيد يوم الجمَل[(١)].

نار الحُباحِب، ضربت العربُ المَثَل بهذه النار لكلّ نارٍ لا يُنتَفَعُ بها[(٢)].

نَوْمَةُ عبُّود، هو رجلٌ تَماوت على قومه، وقال: انْدُبوني حتى أعلم كيف تَندُبوني مَيتاً؟ ثم نام فمات على تلك الحالة.

وقال ابن عباس ﵄: أولُ مَن يَدخلُ الجنّة عبدٌ أسود يقال له: عَبُّود، بعث الله نبيّاً إلى أهل قريةٍ،فلم يُؤمن إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل القرية أخذوا ذلك النبي، فألقوه في بئر، وجعلوا على رأسها صخرةً، فكان عَبُّود يَحتطبُ كلَّ يوم، ويبيعُ الحَطَب، فيشتري بثمنه طعاماً وشراباً، ويأتي إلى رأس الصخرة، ويلقيه إلى النبي، فخرج العبدُ يوماً يَحتطب، فجلس ليَستريح، فنام سبع سنين، ثم استيقظ، وجاء يطلب النبيَّ فلم يجده في البئر، وكانوا قد استخرجوه، فضربوا به المَثَل[(٣)].

وافقَ شَنٌّ طَبَقَة، يُضرب مثلاً للمُتَوافِقين في الشِّدَّة[(٤)].

أَوْرَدَها سَعدٌ وسَعدٌ مُشْتَمِل، هذا نصفُ بيت وتَمامُه:

ما هكذا تُورَدُ يا سَعْدُ الإِبِلْ

وهو سَعدُ بن زَيد مناة أخو مالك، وكان يُحَمَّق، تزوَّج امرأةً، فلم يُحسن إليها، فقال له أخوه ذلك[(٥)].

---

(١) الفاخر ٢٩٤، والميداني ٢/ ٣١١.

(٢) ثمار القلوب ٥٨١، وبرواية: أخلف من نار الحباحب في الدرة ١/ ١٧٩، والعسكري ١/ ٤٣٤، والميداني ١/ ٣٥٣، والزمخشري ١/ ١٠٨.

(٣) الفاخر ١٣٥، والميداني ٢/ ٣٣٦، وثمار القلوب ١٤٣، والحديث فيها عن محمد بن كعب القرظي مرفوعاً، قال الفيروزآبادي في القاموس (عبد) وهو حديث مُعضل، وورد المثل مختصراً برواية: أنوم من عبود في الدرة ٢/ ٤٠٢، العسكري ٢/ ٣١٩، والزمخشري ١/ ٤٢٦.

(٤) أمثال أبي عبيد ١٧٧، والفاخر ٤٧، والعسكري ٢/ ٣٣٦، والميداني ٢/ ٣٥٩، والزمخشري ٢/ ٣٧١، والبكري ٢٦٢.

(٥) كذا، والذي في مصادر التخريج أن مالكاً كان يُحسن رَعْيَ الإبل، فتزوّج، فخرج أخوه سعد بالإبل وهو متلفّف بثوبه، فأعاقه ذلك عن إحسان عمله، فقال له ذلك، انظر طبقات فحول الشعراء ٢٨ـ٣٠، وأمثال أبي عبيد ٢٤٠، والعسكري ١/ ٩٣، والميداني ٢/ ٣٦٤، والزمخشري ١/ ٤٣٠، والبكري ٣٤٧.

أَوْسَعْتُهم سَبّاً وراحوا بالإبِل، أوَّلُ مَن قاله كعبُ بن زهير، كان له إبلٌ يرعاها، فأغار عليها الحارث بنُ وَرْقاء فاستاقها، وصَعِد كعبٌ على أكَمَة، وجعل يَشتُم الحارث وهو لا يَلتفت. يُضربُ لمَن لم يكن له حيلةٌ وقد ذهب مالُه(١).

اليومَ خَمْرٌ وغداً أَمْرٌ، أوَّلُ مَن قاله امرؤ القيس بن حُجر الكِندي، ومعناه: اليوم يومُ خَفْضٍ ودَعَة، وغداً جِدٌّ واجتهاد(٢).

فصل في ذكر طوائف العرب وما كانوا يعتقدون من الأديان

وكانت العربُ في الجاهليّة تَدين بأديانٍ، فمنهم مَن كان يَدين بالله تعالى، وباليوم الآخر، والبعث، والنشور، وأن الله يُثيب المُطيع ويُعذّب العاصي، كقُسِّ بنِ ساعدة ومَن كان في الفترة.

ومنهم مَن كان يُثبتُ حَدَثَ العالَم، وقِدَمَ الصَّانع، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام، ويزعمون أنها تُقَرِّبُهم إلى الله زُلْفى.

ومنهم مَن أقرَّ بالخالق، وكذَّبَ بالرُّسُل والبَعْث والنُّشور، وقال بالدَّهر.

ومنهم مَن تَنصَّر وتهوَّد وتَمجَّس.

ومنهم طائفةٌ عَبدت الكواكب، وقالت: هم بناتُ الله.

ومنهم من كان يُثبتُ التَّوحيد والوَعْد والوَعيد، وَيترك التَّقليد، كعبد المطلب بن هاشم وغيره، ومع هذا كانوا يُعَظِّمون الأصنام(٣).

فصل في أخبارِ قوم منهم أهلكهم الله تعالى

فمنهم عاد وثَمود وطسْم وجَديس، ولما هلك هؤلاء تفرق مَن بَقي من القبائل، فنزل بعضُهم مكّة، وبعضُهم الطائف، ونزل يَثرب بن مَهلاييل بن إرم مكان المدينة فنسبت إليه.

---

(١) أمثال أبي عبيد ٣٢١، والفاخر ١٧٦، والعسكري ١/ ١١٦، والميداني ٢/ ٣٦٣، والزمخشري ١/ ٤٣١.
(٢) أمثال أبي عبيد ٣٣٣، والعسكري ٢/ ٤٣١، والميداني ٢/ ٤١٧، والزمخشري ١/ ٣٥٨.
(٣) مروج الذهب ٣/ ٢٥٦ـ٢٥٨.

ومنهم داسِم قبيلةٌ عظيمة، خرجوا إلى الشام، فنزلوا أرض السَّماوة بين العراق والشام، وكانت عمارة وبساتين ومياه تَتدفَّق، فأقاموا مُدَّة، ثم طَغَوا وفسدوا، ومال قويُّهم على ضعيفهم، فبعث الله عليهم ريحاً سوداء في ليلة مُظلمة فنسفَتْهم، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنُهم، ويَبِسَت الثّمار، وغارت المياه كأن لم تكن بالأمس[١].

وأهلك الله أُمماً كثيرة بعدهم لمَّا طغَوا وبَغوا، قال الله تعالى: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾[مريم: ٩٨].

فصل

في مذاهب العرب في النَّفْس والرُّوح، والغِيلان، والسَّعالى، والهواتف، والنَّسْناس، والزَّجْر، والسَّانِح، والبارِح، والكَهانة، والسّحر، والعائِف، والقائف.

فأمّا **النَّفْس** فقال بعضهم: هي الدَّم، وقال بعضهم: هي الرُّوح، وقالت طائفة: النَّفْسُ شِبْهُ طائر، يَنبسِطُ في جسم الآدميّ، فإذا مات لم يزل مُطِيفاً به يَصدحُ على قبره، وهو الهَام، ثم يَكبر حتى يصير كالبوم، وهو مُتوَحِّش من الناس، يسكن الخَراب والنَّواويس، وعند مصارع القَتْلَى[٢].

وأما **الغُول**: فقد زعم قومٌ من العرب أنها تَتَراءى لهم في البَراري، وتظهر في أنواع من الصُّوَر، فتُخاطبهم ويُخاطبونَها، وربما باضعوها.

وقال تأبَّط شَرّاً: [من المتقارب]

فأَصبحتُ والغُولُ لي جارةٌ ... فيا جارتي أنتِ ما أَهْوَلَا
فطالَبْتُها بُضْعَها فالْتَوَتْ ... بوَجْهٍ تَغَوَّل فاسْتَغْوَلا
فمَن كان يَسألُ عن جارتي ... فإنّ لها باللِّوى مَنزِلا[٣]

وقال عمر رضي الله عنه: كنتُ في طريق الشام قبل الإسلام فغالَتْني الغُول، فضَرَبْتُها بسيفي فانهزمتْ[٤].

---

(١) انظر مروج الذهب ٣/ ٢٨٩.
(٢) مروج الذهب ٣/ ٣٠٩-٣١٢.
(٣) ديوانه ١٦٤-١٦٦، ومروج الذهب ٣/ ٣١٤-٣١٥.
(٤) مروج الذهب ٣/ ٣١٦.

وفرَّقوا بين الغُول والسِّعْلاة، قال الشاعر: [من الطويل]

وساخِرةٍ منّي ولو أن عَينَها رأتْ ما أُلاقيه من الهَولِ جُنَّتِ
أتَيْتُ وسِعْلاةٌ وغُولٌ بقَفْرَةٍ إذا الليلُ وارى الجِنَّ منه أرَنَّتِ[١]

وعلى هذا القُطرُبُ والغَدَّار وما شاكل ذلك، والغالب عليها أنها تظهر بأكناف اليمن وتِهامة وصَعيد مصر والأماكن البعيدة، وقد تَغلِبُ على الإنسان فتنكِحه، فيُدوِّد دُبُرُه فيموت.

ومن أمثال أهل تِهامة: أَمَنكوح أم مَذْعُور، لمَن رأى في طريقه شيئاً من ذلك، فإن قال: مَذعور قالوا: لا بأس عليك، وإن قال: مَنكوح يئسوا منه.

وروي عن وَهْب بن مُنَبِّه أنه قال: أَصلُ هذه الأنواع المُتَشَيْطِنَة أن إبليس خلق الله له زوجةً من نار السَّموم فنكحها، فباضت بَيْضاً، فمنه هذه الأشياء[٢].

وأما **الهواتف**، فالهَتْف: الصوت يُسمَع من غير أن يُرى جِسمُه.

وأما **النَّسْناسُ**، فهو جنس من الخَلْق يَثِبُ على رِجلٍ واحدة، وهو بحَضرموت واليمن، وحمله حَنين بن إسحاق إلى المتوكل من أرض حضرموت وهو حي.

قال حنين: هو على صورة ابن آدم إلا أن وجهَه في صدره، وله نصفُ وَجه، وإلْيَةٌ كإلْيَةِ الغنم، وأهل حضرموت يأكلونه، ولحمُه لَذيذ، ولا يتولّد إلا في بلادهم.

والعربيد: دابَّةٌ من جنس النسناس.

وقال شَبيب بن شَيبة التّميمي: قَدِمتُ حضرموتَ، فنزلت على رجل من أكبر أهلها، فتَذاكرنا النَّسْناس، فقال لغلمانه: صِيدوا لنا منه، فصادوا واحداً، فلما رآني صاح: أنا بالله وبك، فسألتُه فأطلَقَه. ثم خرج ذلك الرجل وخرجت معه أتصيَّد، وإذا بواحد منهم يعدو، وله ثَدي كثَدي المرأة، فأطلقوا عليه الكلاب فأمسكوه وذبحوه، فقلت: ما أشدَّ حُمْرةَ دَمِه، فصاح نَسناسٌ آخرُ من شجرة: مما يأكل السّماق، فأخذوا الآخر فذبحوه[٣].

---

(١) البيتان لعبيد بن أيوب العنبري في الحيوان ٦/ ١٦٠، ومروج الذهب ٣/ ٣١٨.
(٢) مروج الذهب ٣/ ٣١٩ـ٣٢٠، وانظر عجائب المخلوقات ٣٩١ـ٣٩٩.
(٣) مروج الذهب ٤/ ١٠ـ١٧، وانظر أمثال السدوسي ٦٨.

وأما **الزَّجْرُ**: فهو العِيافَة، وهو ضَرْبٌ من التَّكَهُّن.

وأما **السَّانِح**: فهو ما ولّاك مَيامِنُه من ظَبْيٍ أو غيره، والبارِح بخلافه. والعرب تَتيمَّن بالسَّانح وتَتَشاءم بالبارح[١].

وخرج جماعةٌ من العرب يقصدون سيِّداً في بعض المنازل، فسنَح قطيعٌ من الظِّباء مُعترِضةٌ للرَّكْب، ثم كرَّت راجعة، فقال زاجر معهم[٢]: [من الطويل]

ألم تَدْرِ ما قال الظِّباءُ السَّوانِحُ عَطَفْنَ أمام الرَّكْبِ والرَّكْبُ رائحُ
فكبَّر مَن لم يَعرف الزَّجْرَ منهم وأَيقَنَ قلبي أنَّهنَّ نَوائحُ

ثم قال: قَضى الرَّجل، قالوا: من أين لك؟ قال: أما رأيتم الظِّباء سَنحت، ثم رَجعت على أعقابها؟ قالوا: بلى، قال: فهذا أمر لا يَتمُّ، فجاؤوا فوجدوا الرجل قد لُدغ فمات[٣].

وأما **الكَهَانة والسِّحْر** فلا فرق بينهما، يستخدم الكاهنُ والساحرُ الشيطان، بفنون الرُّقى والأسامي والبَخورات، فيُخبره بالغائبات، وقد كانت الشياطين قبل مَبعث رسول الله ﷺ تَصْعَدُ السّماء، فتَستَرِقُ السَّمع، فلما بُعث رسول الله ﷺ حجبت حراسه القرآن العزيز.

والسِّحْرُ حَقٌّ.

ذكر أسامي الكُهَّان بعد المَبْعَث

وهم: شِقّ، وسَطيح، وسَمْلَقة، وزوبَعة، وسَديف، والأفعى الجرهمي، وعمران أخو عامر، وعمرو بن عامر الخارج من اليمن وكاهنته طريفة، وكاهنة باهلة، وكُهَّان أُخَر.

والعَرَّاف: الكاهن، وقيل: هو الطبيب.

وأما **العِيافَة** فهي: زَجْر الطائر، وهو أن يَنظرَ في أسمائها، ومَسَاقِطها، وأصواتها، ويقال للعائف: المُتَكَهِّن.

(١) الصحاح (زجر، سنح، برح).
(٢) هو الراعي النميري، والبيتان في ديوانه ٤٥.
(٣) مروج الذهب ٣/ ٣٤٠_٣٤١.

وأما **القِيافَة** فهي: مَعرفة الآثار[١]، وهي لا توجد إلا في الفُطَناء من العرب.

وكانت كلُّ قبيلة مخصوصة بشيء، فلبعضهم الكَهانَة، ولبعضهم الزَّجْر والفأل، ولبعضهم القافَة، والشَّبَه يكون في القَدم غالباً.

وكانت القيافة في مُضر وربيعة وأنمار أولاد نِزار، وكذا في إياد ومَذْحِج، وهم اليوم بالحجاز وتِهامة، وبالجِفار بين مصر والشام.

فصل

وقد كان لهم العَدْوى، والطِّيَرَة، والصَّفَر، ثم انتَسخ الجميع بقوله ﷺ: «لا عَدوى، ولا طِيَرة، ولا هامَة، ولا صَفَر»[٢].

فصل في أطعمة العرب

منها البَسيسَة، وهي كلُّ شيءٍ خَلَطْتَه بغيره من غير طَبْخ.

ومنها البَكِيْلَة، وهي أن يُخلط السَّويق بماء وتمر.

ومنها الخُرْس، وهي طعام الوِلادة.

والإعذار: طعام الختان للجارية والغُلام.

والنَّقيعَة، طعام القادم من السَّفر.

ومنها الحَريرَة، وهي أن تُنصَبَ القِدْر، ويُقَطَّع اللَّحْمُ صِغاراً على ماء كثير، فإذا نَضِج ذُرَّ عليه الدَّقيق، وإن لم يكن فيها لَحم فهي عَصِيدة[٣].

ومنها الرَّبيكَة، وهي تَمْرٌ يُعجَنُ بسَمْنٍ وأَقِط، وفي المثل: غَرْثان فارْبُكوا له، لأن أعرابيّاً أتى أهلَه، فبُشِّر بغُلام وُلِد له، فقال: ما أَصنعُ به، آكُله أم أَشرَبُه؟ فقالت امرأتُه: غَرْثان فارْبُكوا له، أي: جائِعٌ فأطعِموه[٤].

---

(١) الصحاح (عيف، قيف).

(٢) أخرجه أحمد (٧٦٢٠)، والبخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر العقد ٦/ ٢٩١-٢٩٢، وإصلاح المنطق ٣٨٣، وفقه اللغة ٤٥٠، ٤٥٤، ٤٥٥.

(٤) إصلاح المنطق ٣٨٢-٣٨٣، والصحاح (ربك)، وفقه اللغة ٤٥٣، والمثل في جمهرة الأمثال ٢/ ٨٢، ومجمع الأمثال ٢/ ٥٦.

ومنها الرَّغيدَة، وهي اللَّبن الحليب، يُغلى ويُذَرُّ عليه دَقيق، ثم يُساط ويُلْعَقُ لَعْقاً[١].

ومنها السَّخينة، وهو خَلْطُ الدّقيق بالماء لا غير، وكانت قريش تُعيَّرُ بها[٢].

ومنها السُّلْفَة، وهو ما يَتَعَجَّله الرجلُ من الطعام قبل الغَداء.

ومنها الصَّفيف، وهو ما صُفَّ من اللحم على الجَمْر ليُشْوى[٣].

ومنها العَبِيثة، وهي اللّبن يُطبَخ ويُلقى فيه الجراد، وقيل هو: الأقِطُ لا غير[٤].

ومنها العَصيدة، وهي ما يُعْصَد بالمِسْواطِ من الدَّقيق[٥].

ومنها العَقيقَة، وهي الشَّاة التي تُذبَح عن المَولودِ يوم أُسبوعه[٦].

ومنها العَليث، وهو الطّعامُ المَخلوط بالشّعير[٧].

ومنها الفَرِيقَة[٨]، وهي تَمْرٌ يُطبَخُ بحُلْبة للنُّفَساء.

ومنها العَكِيس، وهو الدَّقيقُ يُصبُّ عليه الماء ثم يُشرب[٩].

ومنها اللَّفِيتَة، وهي الغَليظَةُ من العَصَائِد[١٠].

ومنها المَأْدُبَة، وهو كلُّ طعامٍ يُصنَع لدَعوة[١١].

---

(١) إصلاح المنطق ٣٩٢، والصحاح (رغد)، والعقد ٦/ ٢٩٢، وفقه اللغة ٤٥٢.

(٢) العقد ٦/ ٢٩٢، وانظر إصلاح المنطق ٣٥٦، وفقه اللغة ٤٥١.

(٣) الصحاح (سلف، صفف)، والعقد ٦/ ٢٩٢.

(٤) العقد ٦/ ٢٩١، وإصلاح المنطق ٣٤٦، وفقه اللغة ٤٥٤.

(٥) إصلاح المنطق ٣٩٣، والصحاح (عصد).

(٦) العقد ٦/ ٢٩٢، وانظر الصحاح (عقق)، وفقه اللغة ٤٥٠، وإصلاح المنطق ٢٦٣.

(٧) العقد ٦/ ٢٩١.

(٨) في النسخ: الفريعة، وهو خطأ، انظر إصلاح المنطق ٣٤٤، والصحاح (فرق)، والعقد ٦/ ٢٩١، وفقه اللغة ٤٥٢، والنهاية ٣/ ٤٤٠، والجراثيم ١/ ٣٢٢، والغريب المصنف ١/ ٩٠.

(٩) العقد ٦/ ٢٩٢، والغريب المصنف ١/ ٩٠، والجراثيم ١/ ٣٢٢.

(١٠) إصلاح المنطق ٣٤٧، والصحاح (لفت)، وفقه اللغة ٤٥٧.

(١١) الغريب المصنف ١/ ٨٦، والجراثيم ١/ ٣١٥، والعقد ٦/ ٢٩٢، وفقه اللغة ٤٥٠، وانظر إصلاح المنطق ١٣٤، والصحاح (أدب).

ومنها الوَشِيقَة، وهو أن يُغْلَى اللَّحْمُ، ثم يُقَدَّد ويُحمَل في الأسفار[١].

ومنها الوَكِيْرَة، وهو طعامُ ما يَبنيه[٢] الرَّجلُ في داره. والوَليمة: طعامُ العُرْس.

ومنها الهَرِيْسَة، وهي أَفْخَر طعامِهم، سُمِّيت بذلك لأنّها تهرسُ اللَّحم[٣].

فصل

في ذكر مَن كان في الفترة بين عيسى عليه السلام ونبيّنا ﷺ

كان في الفترة جماعةٌ من أهل التَّوحيد ممَّن يُقرُّ بالبَعث والنُّشور، والجنة والنار، وكان بعضُهم دُعاة إلى الله تعالى، وبعضُهم أنبياء، فمنهم:

جرجيس: كان عبداً صالحاً من أهل فلسْطين، أدرك بعضَ الحواريّين من أصحاب عيسى عليه السلام، وكان تاجراً، يكتسب ما يستغني به، ويعود بالفَضْل على المساكين، فسافر إلى المَوْصِل وبها جَبَّار يُجبرُ النّاسَ على عبادة الأصنام، فوَعَظه، فأخَذه وعذَّبه بأنواع العَذاب، وقتله عِدَّة قَتلات فلم يَمُت، فبَعث الله إليه مَلَكاً، فقال له: لا تَخَفْ، فإنك تَبقى في جهاده سبعَ سنين، ويقتُلُك مَرَّةً رابعة.

فجعله في تَوْرٍ من نُحاس، وحشاهُ نفطاً وكبريتاً، وأَدخلَه فيه، وأَوقد عليه، فاختلطت عظامُه، وبعث الله جبريل، فحمل التَّور فألقاه بين السماء والأرض، فخرج جرجيس حيّاً، فقال: يا إلهي، قد وَعَدْتَني مَنازلَ الشهداء، وأكرَمْتَني بهذا البلاء، وهذا آخرُ يومي الذي وَعدْتَني فيه الرَّاحة، فأَسألُك أن تَقبِض روحي، وتُنزِلَ عُقوبَتك بهذا الجبَّار، فما استتمَّ كلامَه حتى نزلت نارٌ من السماء، فلما رأوها مالوا عليه فضربوه بالسّيوف حتى قتلوه.

وأحرق اللهُ الجبّارَ وقومَه والمَوصل، فصارت رَماداً مُنتناً، وجعل الله عاليَها سافلَها، ولبثتْ زماناً يخرج منها الدُّخان المُنتِن، وخرج مَن آمن بجرجيس منها،

(١) الغريب المصنف ١/ ٨٦، والجراثيم ١/ ٣١٧، والصحاح (وشق)، والعقد ٦/ ٢٩٠.

(٢) في النسخ: الوديرة... ما يثبته، وهو خطأ، انظر الغريب المصنف ١/ ٨٦، وإصلاح المنطق ٣٨٤، والجراثيم ١/ ٣١٥، والصحاح (وكر)، والعقد ٦/ ٢٩٢، وفقه اللغة ٤٥٠.

(٣) العقد ٦/ ٢٩١، والصحاح (هرس).

وكانوا أربعةً وثلاثين ألفاً[١].

ومنهم: **حَنْظَلة بنُ صفوان**، نبيُّ أصحاب الرَّسِّ، كان في الفترة، وهو من ولد إسماعيل عليه السلام، قام في قومه خطيباً، فنهاهم عن عبادة الأوثان، وأمرهم أن يَعبدوا الله ويُوَحِّدوه، فقَتلوه، ورَمَوه في بئر، فلما قتلوه أَلهم الله بعضَ المُلوك، فسار إليهم فقتلهم، وشرَّدهم، وفعل برُؤسائهم كما فعلوا بحَنْظلة، فلم يَبْقَ لهم أثر[٢].

ومنهم: **خالد بن سِنان بن غَيْث العَبْسي**، كان عبداً صالحاً، وأكثرُ العلماء على أنه كان نبيّاً على دين المسيح عليه السلام، وظهرت نارٌ بين مكّة والمدينة، فعبدها طوائفُ من العرب، فأتاها خالد، فاقتحمها، فأطفأها غَضباً لله، لئلا تُعبدَ معه، ولما عَزم على دخولها، قال: [كلُّ هَدْيٍ مُؤدَّى إلى] الله الأعلى، لأَدْخُلَنّها وهي تَلَظَّى، ولأَخْرُجَنَّ منها وثيابي تَنَدَّى، فكان كما قال.

ولما احتُضر قال: ادفنوني في حِقْفٍ من هذه الأَحقاف، واحرُسُوني أياماً، فإذا رأيتُم حماراً أَشهَب أَبْتَر يدور حول الحِقْف فانْبُشوني، وأَحضِروا كاتباً يَكتبُ ما أقول، فإني سأُخبرُكم بالكائنات والمغيبات إلى يوم البعث، فرَصَدوا قبرَه ثلاثاً، فجاء الحمار فدار حول الحِقْفِ، فاجتمع قومُه ليَنْبُشوه، فقام بنوه، وشَهروا سُيوفهم وقالوا: نَخاف العار فتركوه، فقال شاعر: [من الطويل]

بَني خالدٍ لو أنّكم إذ حَضَرْتُمُ ... نَبَشْتُم عن المَيْتِ المُغَيَّب في القَبْرِ
لأَبْقى لكم في آل عَبْسٍ ذَخيرةً ... من الفضلِ لا تبْلَى على سالفِ الدَّهرِ

ولما ظهر رسول الله ﷺ بمكة؛ وَفدتْ عليه ابنةُ خالد بن سنان وهي عجوز مُسِنّة كبيرة، فرحَّبَ بها وقال: «مرحباً بابنةِ أخي خالد، كان أبوها نبيّاً، وإنما ضيَّعه قومُه»[٣]، وسمعتْ رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[الإخلاص: ١]

(١) ذكر القصة مختصرة المسعودي في مروج الذهب ١/ ١٢٧، ومطولة الطبري ٢/ ٢٤ـ٣٦، والثعلبي في عرائس المجالس ٤٣٢ـ٤٣٨، وابن الجوزي في المنتظم ٢/ ١٤٨ـ١٤٩.

(٢) مروج الذهب ١/ ١٢٥.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٠٠، وابن شبة في أخبار المدينة ٤٢١ عن سعيد بن جبير، قال الحافظ في الإصابة ٣/ ١١٧: ورجاله ثقات إلا أنه مرسل.

فقالت: كان أبي يقرؤها، قال ابن عباس: وقد بَشّر برسول الله ﷺ(١).

ومنهم: **رِئابُ بنُ البَراء**، كان على دين عيسى عليه السلام قبل مبعث النبيّ ﷺ.

قال السدّي: سمع الناسُ قائلاً يقول من السماء: خيرُ أهلِ الأرض ثلاثة: بَحيرى الرّاهب، ورئاب الشَّنّي، وآخر لم يجئ بعد، يعني النبيَّ ﷺ.

قال ابن قتيبة: لمّا سَمع رئاب النّداء قال: صدق فيما قال.

وقال وهب: ما مات أحدٌ من ولده إلا ورأوا النُّور على قبره(٢).

ومنهم: **زيد بن عَمرو بن نُفَيل بن عبد العُزَّى العَدَويّ**، ابنُ عمّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٣).

ومنهم: **صِرمَةُ بن أبي أنس**، أبو قيس من بني النجار، كان قد تَرهّب في الجاهليّة، ولَبس المُسوح، وهَجر الأوثان، وهمَّ بالنَّصرانية، ثم أَمسك عنها، واتّخذ في بيته مسجداً لا يَدخله طامث ولا جُنُب، وقال: أَعبدُ إله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أَسلم في السَّنة الأولى من الهجرة، ولما رأى رسول الله ﷺ قال: يا قوم، هذا الذي كنتُ أَنتَظِره(٤).

ومنهم: **قُسُّ بن ساعِدة**.

ومنهم: **أصحابُ الكهف والرّقيم**، قال سعيد بنُ جُبَير: **الرَّقِيم**: لَوحٌ من ذَهَب على باب الكهف، فيه مكتوب أسماءُ الفِتية وقِصَّتُهم.

وقال ابن عباس: الرَّقيم: وادٍ بين عُسْفان وعَمَّان البَلْقاء، فيه أصحابُ الكهف.

قال مجاهد: كانوا من أولاد المُلوك.

قال وَهْب: كان من قِصَّتِهم أنه لما رُفع عيسى عليه السلام، وكَثُرت الأحداثُ،

---

(١) ذكر قصته مطولة ومختصرة ابن قتيبة في المعارف ٦٢، والجاحظ في الحيوان ٤/ ٤٧٦ـ٤٧٧، وابن شبة في أخبار المدينة ٤٢٠ـ٤٣٣، والمسعودي في مروج الذهب ١/ ١٣١ـ١٣٢ ومابين معكوفين منه و٤/ ٢١ـ٢٢، وابن الجوزي في المنتظم ٢/ ١٤٧، والحافظ في الإصابة ٣/ ١١٧ فما بعدها.

(٢) المعارف ٥٨ وليس فيه كلام ابن قتيبة، ومروج الذهب ١/ ١٣٢ـ١٣٣.

(٣) السيرة ١/ ٢٢٤، والمعارف ٥٩، ومروج الذهب ١/ ١٣٦، والمنتظم ٢/ ٣٢٨.

(٤) المعارف ٦١، ومروج الذهب ١/ ١٤٤، وانظر الإصابة في ترجمته.

وذُبِحَ للطّواغيت، وعُبِدت من دون الله، وفي الناس بقايا من أهلِ التّوحيد، مُتَمسِّكين بدين عيسى عليه السلام، وكان ببلدِ الروم ملكٌ يقال له: دقيانوس، يأمر الناسَ بالذَّبح للأصنام، ويُخيِّرهم بين ذلك وبين القتل، وبلغه خَبرُ الفتية، فاستدعاهم، وأمرهم بالذَّبح للطَّواغيت، فقال له أحدهم: أيّها الملك، إن لنا إلهاً ملأت عظمتُه السماوات والأرض، لن نَدعوَ من دونه إلهاً آخر، فقال دقيانوس: أنتم من أولادِ الملوك، وما أحبُّ أن أَعجَل عليكم بالعُقوبة، وأنتم شباب، حتى أضربَ لكم أَجَلاً تَنظرون فيه لأنفسكم، فخرجوا من عنده.

واتّفق أنه مضى إلى بلدٍ آخر لأمرٍ عَرَض له، فقال بعضُهم لبعض: اخرُجوا بنا إلى الجبل، فإن عاد الملك وذَكَرنا قَتلَنا، فخرجوا، واتَّبعهم كلبُ راعٍ، فطردوه فلم يَرجِع، فردُّوه ثانياً فأنطقه الله وقال: لِمَ تَطردوني؟ إنْ لم أكن من جِنسكم، فمعبودكم ليس من جنسكم، دعوني أَحرُسكم إذا نِمتم، فعجبوا منه.

ثم دخلوا الكهف، وجعل يمليخا - أحدهم - يدخل المدينة فيأتيهم بالطّعام، ويتحسَّس لهم الأخبار، وقَدِم الجبَّار إلى المدينة فذكرهم، فجاء يمليخا إليهم وهو يبكي، فأخبرهم، فخرّوا سُجَّداً لله تعالى يبكون ويَتضَرَّعون، وذلك عند غُروب الشمس، فضرب الله على آذانهم في الكهف سنينَ عددا، فناموا ونام الكلب وهو باسِطٌ ذراعَيه بالوَصيد، أي: بعَتَبة الباب.

وجاء دقيانوس وراءهم، فوَجدهم في الكهف، فسدَّ عليهم الباب عقوبةً لهم، وفي ظنِّه أنهم أحياء أيْقاظ.

وكان في أصحاب دقيانوس رجلان على دين الفتية، فكتبا أسماءَ الفِتيَة في لوح من ذَهب، ودفناه عند الباب، وقالا: لعلّ الله أن يُطْلِعَ على أحوال هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين، فَيُعْلَم عِلْمُهم، ومات دقيانوس، وخَلَفت الملوكُ قرناً بعد قرن وهم على حالهم. فقصَّ الله على نبيِّه ﷺ أخبارَهم.

وكان سببُ إيقاظهم أنه مَلَك تلك البلاد مَلِك صالح، فرأى اختلافَ الناس في الأديان، فسأل الله أن يُرِيَه آيةً يستدلُّ بها على التوحيد، فمرَّ بهم راعٍ في ليلةٍ باردة، ففتح باب الكهف وآوى إلى جانبه غَنَمَه.

وأيقظ الله الفِتية، فجلسوا كأنهم ناموا من ساعتهم، لا يُنكرون من أحوالهم شيئاً، وهم يرون أن الملِك دقيانوس، فبعثوا يمليخا إلى المدينة على عادتهم ليشتري لهم طعاماً، فتَنكَّر وخرج، فرأى الحجارةَ على باب الكهف فعجب، ورأى أَثَرَ البنيان، وأتى بابَ المدينة، فرأى عليها علامةً تكون للمؤمنين، ورأى أُناساً لا يعرفهم، وسمعهم يحلفون بالمسيح، فقال: والله ما أدري ما هذا، عَشيَّةَ أمسِ ليس على وجهِ الأرض أحدٌ يذكر المسيح إلا قُتل، واليومَ كلُّ أَحدٍ يَحلف به لا يَخاف.

ثم دنا من واحدٍ، ودَفع إليه دراهم، فنظر إليها وعجب، ثم ناولها آخر فتَعجَّبَ، فقالوا له: إنك قد وَجَدْتَ كَنْزاً، وإن لم تُخْبِرْنا به حَمَلناك إلى المَلِك، وهو ساكت، فجعلوا كِساءَه في عُنقه، وسحبوه في سِكك المدينة، وما يرى أحداً يَعرفه، وهو يَظنُّ أن أباه وأهلَه في الحياة، وأنهم يحملونه إلى دقيانوس، وجعل يبكي ويقول: فُرِّق بيني وبين إخوتي، يا ليتهم يعلمون ما حلَّ بي.

وكان على تدبير الملك رجلان صالحان: أرنوس وأنطوس، فقالا: يا فتى، أين الكنز الذي وجدت؟ فقال: والله ما وَجدتُ كَنْزاً، قالا: فهذه الدَّراهم تَشهد عليك بتاريخ ضَرْبها من زمن دقيانوس منذ ثلاث مئة سنة، وأنت شابّ وخزائنُ هذه المدينة بأيدينا، وما فيها منها شيء، فإن أَخبَرتَنا وإلا عَذَّبناك، وهو يبكي ويقول: والله ما أدري ما أقول، ثم قال: وأين دقيانوس؟ قالا: ما نعرف اليوم في الأرض ملكاً يُقال له: دقيانوس، وإنما كان هذا منذ ثلاث مئة سنة.

فقال: أَصدُقكم؟ كنّا فِتيةً أَكرَهَنا دقيانوس على الذَّبحِ للطَّواغيت، فهربنا منه عشيَّةَ أمس، ونمنا في كهف؛ فلما كان اليوم بعثوني أَشتري لهم طعاماً، وهاهم في الكهف جُلوس يَعبدون الله، فلما سمع أرنوس كلامَه قال لهم: يا قوم، هذه آيةٌ أراكم الله إيّاها على يَدَي هذا الفتى، انطلقوا معه، وأخبرواالملك، وخرج معه الناس، وسبق يمليخا ودخل عليهم، وأخبرهم الخَبر.

وجاء أرنوس فدخل عليهم، فرأى وجوههم مُشرقة، لم تَبْلَ ثيابُهم ولم تتغيَّر، ووَجد اللّوح على باب الكهف، وفيه عَدَدُهم وتاريخُ يومهم، فأرسل إلى الملك: بادِرْ، فقد أَراك الله آيةً للعالمين، وجاء الملك فدخل عليهم الكهف واعتَنقَهم وبكوا جميعاً،

ثم قالوا: نستودعك الله.

ثم عادوا إلى مضاجعهم وناموا، فتوفّى الله نُفوسَهم، وأمر الملك أن يُتَّخذَ لكلِّ واحدٍ منهم تابوتٌ من ذهب، فرآهم في منامه وهم يقولون: لا تَفعلْ هذا، فنحن من التُّراب خُلِقنا، وإليه نعود، فاترُكْنا على حالنا، فتركهم وبنى عليهم مسجداً، وصنع لهم عيداً في كل سنة، وهم من الحواريين[(١)].

ومنهم **أصحاب يس**، قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾[يس: ١٤]. اتَّفقوا على أنهما أُرسِلا إلى أنطاكية فكذَّبوهما ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ والثالث: شمعون، وقيل: سمعان.

ذكر القصة

كان ملك أنطاكية يعبد الأوثان، فلما قَرُبا من أنطاكية إذا بشيخ يرعى غنماً، وهو حَبيب النّجار، فسلما عليه فقال: مَن أنتم؟ قالا: رسولا عيسى المَسيح، قال: وما جاء بكما؟ قالا: ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن. قال: أمعكما آية؟ قالا: نعم، نشفي الأكمَه والأَبرص بإذن الله. فقال حبيب: إن لي ابناً صاحب فِراش منذ سنين، وانطلق بهما إلى منزله، فمسحا أيديهما عليه، فقام صحيحاً بإذن الله.

ثم شَفيا خَلْقاً عظيماً، وبلغ المَلك، فاستدعاهما وقال: مَن أنتما؟ فقالا له مثل ما قالا لحَبيب، فقال: قُوما حتى أَنظرَ في أمركما، وقيل: إنهما لم يَصلا إلى الملك، بل أقاما عند حبيب النجار وكان قَزَّازاً.

فركب الملك يوماً، فوَقفا له، وكبَّرا وذكرا الله، فغضب، وأمر فجُلِد كلُّ واحد منهما مئة جلدة وحُبِسا، فحينئذٍ بعث عيسى عليه السلام شمعون رأسَ الحواريّين على إثْرهما لينْصُرَهما، فلما وصل إلى أنطاكية دخل مُتَخفِّياً، يُؤنِسُ حاشيةَ الملك، حتى أَنِسوا به، وأعجبهم عَقلُه، فرفعوا خَبَره إلى الملك، فدعاه فأعجبه وأَنِس به.

فقال له يوماً: أيّها الملك، بلغني أنك ضربتَ رجلين وسجنْتَهما حين دَعواك إلى

(١) ذكر قصتهم الطبري في تفسيره ١٥/ ١٦٢ـ١٧٦، وتاريخه ٢/ ٥ـ٩، وانظر عرائس المجالس ٤١٤ـ٤٣٢، والمنتظم ٢/ ١٥١ـ١٥٣.

دينهما، فهل كلَّمْتَهما؟ قال: لا، حال الغضبُ بيني وبينهما، قال: فإن رأى الملكُ أن يُحضِرهما ويسمعَ كلامَهما، فدعاهما، فقال لهما شمعون: مَن أرسلكما؟ فقالا: الذي خلق كلَّ شيء، وليس له شريك، فقال: صِفاه وأوجزا، قالا: إنه يَفعل ما يشاء ويَحكم ما يُريد، قال: فما آيتُكما؟ قالا: نُبرِئ الأكمَهَ والأبرص بإذن الله.

فأمر الملك، فجيءَ بغُلام مَطموس العينين، فدعَوا الله فانشقَّ مَوضعُ عينيه، فأخذا بُندُقَتَيْن من طين، فوضعاهما مَوضعَ عينيه، فصارتا مُقلَتَيْن، فأبصر بهما، فعَجب الملك، فقال له شمعون: إن أنت سألتَ صنَمك أن يَفعل مثل هذا كان له ولك الشَّرَف، فقال له الملك: ما منك سِرّ، إن إلهنا الذي نَعبده لا يَسمع ولا يُبصر ولا يَضرُّ ولا يَنفع، ثم قال الملك للرجلين: إنْ قَدر إلهكما على إحياء مَيت آمنّا [به وبكما].

وكان شَمعون يُظهِر للملك أنه على دِينه، وكان قد مات ابن دِهْقانٍ منذ سبعة أيام، فجاؤوا به وقد أَرْوَح، فسألا الله فأحياه، فقام يَنفض التُّرابَ عن رأسه ويقول: منذ متّ وإلى الآن أنا في سبعة أوديةٍ من نار، وأنا أُحذِّرُكم ما أنتم فيه، فآمِنوا بالله، ثم قال: قد فُتحت أبوابُ السماء، ونَزل منها شاب حتى يَشفعَ لهؤلاء الثلاثة، وأشار إلى الرَّسولَين وشمعون، فآمن الملك ومعه خلْقٌ كثير، وكفر آخرون.

وقال مُقاتل: لم يُؤمن الملك، وأَجمع هو وقومُه على قتل الرُّسُل، وبلغ حبيبَ بن إسرائيل النّجار قصَّتُهم - وكان رجلاً صالحاً مُتَصدِّقاً مؤمناً، يعبد الله سِرّاً، وكان بيتُه بعيداً عن المدينة - فأقبل يَسعى ويقول: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١﴾[يس: ٢٠-٢١] فلما قال ذلك وَثبوا إليه وَثْبَةَ رجلٍ واحد، فوَطِئوه بأرجُلهم حتى خرج قُصْبُهُ[1] من دُبُره، ورمَوْه بالحجارة وهو يقول: [اللهم] اهْدِ قومي، حتى مات. فعلّقوه على سُور البلد، فأوجب الله له الجنة، فلما دخلها قال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾[يس: ٢٦] الآية، فهو فيها حيٌّ يُرزَق قد أَمِن أَسقامَ الدُّنيا وأَوْصابَها.

قال ابن عباس رضي الله عنه: فلما قتلوه، أمر الله جبريل فأخذ بعَضادتَيْ باب المدينة، ثم صاح بهم صيحةً فخَمدوا وصاروا رماداً، المدينة وجميعُ ما فيها من بني آدم، والمواشي والمَلِك، ولم يبق لهم باقية.

---

(١) القُصبُ: اسم للأمعاء كلها. اللسان (قصب).

وكانت القصَّةُ في أيام ملوك الطوائف في حياة عيسى عليه السلام، وقيل: بعد رَفْعِه[١].

فصل في ذكر جماعة من القدماء

فمنهم **خليفةُ موسى عليه السلام**، كان بنو إسرائيل استَخلَفوا عليهم خليفةً بعد موسى عليه السلام، فقام يُصلّي في ليلةٍ مُقمِرةٍ فوق بيت المقدس، فذكر أموراً كان صَنعها، فتدلّى[٢] بسبب، فأصبح السبب معلقاً في المسجد.

وانطلق، فأتى على قوم يَضربون اللَّبِن، فلَبَّن معهم، وكان يأكل من عَمل يده، فرفع ذلك العُمَّال إلى قَهْرَمانهم، فأرسل إليه فأَبى أن يَأتيَه، فجاءه القهرمان بنفسه إليه، فلما رآه فَرَّ، فاتَّبعه وقال: إني لَأَظنُّ أني لاحِقٌ بك، فلَحِقه، فعبدا الله حتى ماتا برُمَيْلَةِ مِصر.

ومنهم **ابن الملك الذي تَزَهَّد**، كان رجل من ملوك بني إسرائيل قد أُعطي طولَ العُمر، وكثرةَ المالِ والولد، وكان أولادُه إذا كَبر أحدُهم لبس [ثياب] الشَّعْر، ولحق بالجبال، وساح في الأرض يأكل من بُقولها وشجرها حتى يموت، ففعل ذلك جماعةٌ منهم واحداً بعد واحد حتى تتابعوا على ذلك، فأصاب وَلَداً على كِبَر، فدعا قومَه وقال: إني قد أصبتُ هذا الولدَ على الكِبَر وقد تَرَوْنَ شفَقَتي عليكم، وأخافُ أن يَتبع سُنَّة إخوته، فحَبِّبوا إليه الدنيا عسى أن يَبقى بعدي لكم.

فبنَوْا له حائطاً فرسخاً في فرسخ فكان فيه دهراً، ثم ركب يوماً، فرأى الحائطَ فقال: إني لأحسَب أن وراء هذا الحائط أُناساً وعالماً آخر، أخرجوني أَلقى الناس، وأَزْدَدْ علماً، فأُخبِر أبوه بذلك فجَزع وقال: اجمعوا عليه كلَّ لهوٍ ولَعب، ففعلوا.

ثم ركب في السنة الثانية. وقال: لابُدَّ من الخروج. فأخرجوه على عَجَلَةٍ مُكَلَّلَةٍ بالدُّرِّ والياقوت والذّهب والزَّبَرْجد، والناس حوله، فبينا هو يسير إذ مرَّ برجلٍ مُبْتَلى، فقال ما هذا؟ قالوا: مُبْتَلىً قال: أيُصيبُ هذا أُناساً دون أُناس، أو كلٌّ خائفٌ منه؟ قالوا: بل كلٌّ خائفٌ منه، قال: وأنا فيما أنا فيه من السُّلطان؟ قالوا: نعم، قال: أُفٍّ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧_١١، وما بين معكوفين منه، وانظر قصص الأنبياء للثعلبي ٤٠٨_٤١٠، والبداية والنهاية ٢/ ١٠_١٥.

(٢) في النسخ: فبكى، وهو تصحيف، والمثبت من التوابين ٧٤، وقد ورد هذا الخبر من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعاً في المسند (٤٣١٢)، وانظر المنتظم ٢/ ١٨٤، السبب: الحبل.

لعيشكم هذا، إنه عيش كَدَر.

فرجع مَهموماً مَحزُوناً. فأُخبِر أبوه بذلك فقال: قَرِّبوا إليه كلَّ لَهوٍ وباطل حتى تَنزعوا من قلبه هذا الغمَّ والحُزْن.

فلبث حولاً ثم قال: أَخرجوني، فأُخرِج على مثلِ حالهِ الأوّلِ، فبينا هو يسير إذ مَرَّ برجل هَرِم، ولُعابُه يسيلُ من فيه،، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا رجل هَرِم، قال: أيُصيب هذا ناساً دون ناس، [أوكلٌّ خائفٌ منه؟] قالوا: بل كلٌّ خائفٌ منه، فقال: أُفٍّ لعَيشكم هذا، إنه لَعَيش كَدَر، لا يَصفو لأحد، فقال أبوه: احشروا له كلَّ لَهوٍ وباطل. ففعلوا.

فمَكثَ حولاً، ثم ركب، فبينا هو يسير إذا بنَعْشٍ يحمله الرجال على أعناقهم وعليه ميت فقال: ما هذا؟ قالوا: ميت. قال: وما الموت؟ قالوا: هلاك، قال: قَرِّبوه إليَّ. فقرَّبوه إليه فقال: أجلِسوه، قالوا: إنه ما يجلس، قال: كلِّموه، قالوا: ما يَتكلَّم، قال: فأين تَذهبون به؟ قالوا: نَدفِنُه تحت التُّراب، قال: فما يكون بعدَ ذلك؟ قالوا: يُحشَر، قال: وما الحشر؟ قالوا: يوم يقوم الناسُ لربِّ العالمين، فيُجزى كلُّ أحدٍ على قَدْرِ حسناته وسيّئاته. قال: ولكم دارٌ غيرُ هذه؟ قالوا: نعم، فرمى بنفسه إلى الأرض، وجعل يُعَفِّر وجهه بالتراب ويقول: من هذا كنتُ أَخشى، كاد هذا يأتي عليَّ وأنا لا أعلم به، أمَا وربٌّ يُحيي ويُميت، ويُعطي ويُجازي، إنّ هذا آخرُ الدَّهر بيني وبينكم، فلا سبيلَ لكم عليَّ بعد اليوم، قالوا: لا نَدَعُك حتى نُسلِمَك إلى أبيك.

فردوه إليه وكاد يُنْزَفُ دمُه. فقال: يا بُنيّ، ما هذا الجَزَع؟ فقال: يا أبت، جَزعي ليومٍ يُعطى فيه الكبيرُ والصغيرُ مُجازاتَهما على ما عَمِلا من خيرٍ وشرّ.

ثم لبس المُسوح، وخرج من القصر نصفَ الليل وهو يبكي ويقول: اللهم خِرْ لي في أمرٍ سَبقتْ به المَقادير، إلهي لوَدِدْتُ أن الماء كان في الماء، والطينَ في الطين، ولم أَنظُر بعيني إلى الدُّنيا نظرةً واحدة. فكان آخر العهد به.

قال بكر بن عبد الله: فهذا رجلٌ خرج من ذَنْبٍ واحد لا يعلم ماذا عليه، فكيف بمَنْ يُذْنِبُ وهو يعلم ما عليه، ولا يَجزَعُ ولا يتوب[1]؟!

---

(١) التوابين ٦١ـ٦٤، والمجالسة (٢٨٦٨)، والمنتظم ٢/ ١٨٤ـ١٨٧، وما بين معكوفين منها.

ومنهم **ذو الرِّجْل**، كان في بني إسرائيل رجل يَتعبَّدُ في صَومعته، فأقام زماناً، فأَشرفَ يوماً، فإذا بامرأةٍ، فرآها فافتُتِنَ بها، وهمَّ أن يَنزل، فأَخرج رجلَه لِيَنزلَ إليها، فأدركه الله بسابقةٍ منه، فقال: ما هذا الذي أُريدُ أن أصنع؟! ورَجعتْ إليه نفسُه، وجاءتْه العِصمةُ ونَدِم، فلما أراد أن يُعيد رِجْلَه إلى صومعتِه قال: هيهات هيهات، رِجْلٌ خرجتْ تُريدُ أن تعصيَ الله، والله لا عادت إلى صومعتي أبداً. فتركها مُعلَّقةً ظاهر الصَّومعة، تُصيبُها الرِّياحُ والمطرُ والشمسُ والحَرُّ والبردُ، حتى تَقطَّعتْ، فشكَر الله له ذلك، وأنزلَ في بعض الكتب: [«وذو الرِّجْل»] يُثني عليه[١].

ومنهم **صاحبُ الغَمامة**، وَلِعَ رجلٌ قَصَّابٌ بجاريةٍ لبعض جيرانه، فأرسلَها أهلُها لحاجة لهم في قريةٍ أُخرى، فتبعَها، فراوَدَها عن نفسِها، فقالت له: لا تفعل فأنا أَشدُّ حُبّاً لك منك لي، ولكنّي أخافُ الله. فقال: وأنت تخافينَه وأنا لا أخافُه؟ فرجع تائباً، فعَطِش حتى كاد أن يَنقطعَ عُنقُه، فإذا هو برسولٍ لبعض أنبياء بني إسرائيل، فقال له: ما الذي بك؟ قال: العَطَشُ. فقال: تعالَ حتى ندعوَ الله تعالى، فتُظِلَّنا سحابةٌ إلى أن نَدخُلَ القرية، فقال: مالي من عمل، فقال: أنا أدعو وأنت تُؤَمِّن، فدعا الرَّسولُ وأمَّن القَصَّاب، فأَظَلَّتْهُما سحابةٌ حتى انتَهيا إلى القرية، فأخذ القَصَّاب إلى مكانه، ومالت السَّحابةُ معه، فقال له الرسول: زعمتَ أنه ليس لك عمل! وأنا الذي دعوتُ وأنت أَمَّنْتَ، فلما افترقنا أَظلَّتْك السَّحابة، فأخبرني ما الذي صنعتَ. فأَخبره، فقال الرسول: التَّائب إلى الله من ذنبه بمكان ليس أحدٌ من الناس بمكانه[٢].

ومنهم **ذو الكِفْل**، رُوي عن ابن عمر ﵄[٣] أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يُحدِّث حديثاً، لو لم أسمعْه إلا مَرَّةً أو مرَّتين لم أُحدِّث، سمعتُه منه أكثر من سبع مرات، قال: «كان رجلٌ من بني إسرائيل يُقال له ذو الكِفل، لا يَنزعُ عن ذَنْبٍ عمله، فاتَّبع امرأةً، فأعطاها ستين ديناراً على أن تُعطيَه نَفْسَها، فلما قعد منها مقعَد الرجل من المرأة، أُرْعِدت وبَكَتْ، فقال: ما يُبكيك؟ فقالت: من هذا العمل ما عَمِلْتُه قط. قال:

---

(١) التوابين ١٠٠-١٠١، والمنتظم ٢/ ١٨٠، وما بين معكوفين منهما.

(٢) المنتظم ٢/ ١٧٧، والتوابين ٩٧.

(٣) في النسخ: روي عن عمر ﵁، وهو خطأ، فالحديث من رواية ابنه عبد الله في مسند أحمد (٤٧٤٧)، وسنن الترمذي (٢٤٩٦)، وصحيح ابن حبان (٣٨٧)، وانظر المنتظم ٢/ ١٦٣-١٦٤، والتوابين ٩٤-٩٥.

أكرهتُك؟ قالت: لا، ولكن حَملَتْني عليه الحاجة، قال: اذهبي فهي لك، ثم قال: والله لا أَعصي الله أبداً. ثم مات من ليلته، فقيل: مات ذو الكِفل، فوُجِد على باب داره مكتوب: إن الله قد غفر لذي الكِفل».

ومنهم **جُرَيج الرَّاهب**، قال رسول الله ﷺ: «لم يَتكلَّم في المَهْد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وكان في بني إسرائيل عابدٌ يقال له جُرَيْج، فقالت بَغيٌّ منهم: إنْ شئتُم فَتَنْتُه، قالوا: قد شِئْنا، فأتَتْه، فتَعرَّضت له، فلم يلتفت إليها، فأمكَنَتْ من نَفْسِها راعياً كان يُؤوي غَنَمه إلى أَصْلِ صَومَعتِه، فحَملتْ منه، ووَلَدت غُلاماً فقالوا: ممّن هذا؟ قالت: من جُريج. فأتَوْه، وأنزلوه من صومعته، وضربوه وشَتموه، وهدموا صومَعتَه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيتَ بهذه البغيّ، وقد وَلدتْ غلاماً. فقال: وأين هو؟ قالوا: ها هو. فقام فصلى ودعا، ثم انصرف إلى الغُلام، فطَعَنه بإصبعه وقال: بالله يا غُلام، مَن أبوك؟ فقال: فلانٌ الرَّاعي، فوَثبوا إلى جُريج فجعلوا يُقَبِّلُونه، وقالوا: نبني صومعتَك ذهباً، قال: لا حاجةَ لي في ذلك، ابنوها طيناً كما كانت.

قال: وبينما امرأةٌ في حجرها ابنٌ لها تُرضِعُه، إذ مرَّ بها راكبٌ ذو شارة، فقالت: اللّهم اجعلْ ابني مثلَ هذا. فترك الصبيُّ الثديَ، وأقبل على الرّاكب وقال: اللهم لا تَجعَلْني مثلَه، ثم عاد إلى ثَديها يَمَصُّه.

ثم مَرَّت بأمَةٍ تُضْرَب، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلَها، فتَرك ثديَها، وأقبل على الأَمةِ فقال: اللهم اجعَلْني مثلَها، ثم قال: يا أُمَّاه، أمّا الرّاكب فجَبّار من الجبابِرة، وهذه الأَمَة يقولون لها: زَنيتِ، ولم تَزْنِ، وسَرقتِ، ولم تَسرِقْ، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل». أخرجاه في الصحيحين(١).

حديث العَقار والجَرَّة

قال رسول الله ﷺ: «اشترى رجلٌ من رجلٍ عَقاراً، فوجد المُشتَري فيه جَرَّة فيها ذَهب، فقال المُشتري: خُذْ ذَهَبَك، فإنما اشتريتُ العَقار ولم أشتر الذَّهب، فقال البائع: إنما بِعتُ الأرض بما فيها. فتحاكما إلى رجلٍ، فقال: ألكما ولد؟ قالا: نعم.

(١) البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٨٠٧١).

قال أحدهما: لي غُلامٌ، وقال الآخر: لي جاريةٌ، فقال: أنكِحوا الغُلامَ الجاريةَ، وأنفقوا عليهما منه، وتصدَّقوا. وفي رواية: وأنفِقا عليهما، وتصرَّفا فيه». أخرجاه في الصحيحين(١).

حديث الرَّجل الذي قَتل تسعةً وتسعين ثم أكمل المئة

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هَمَّام بنُ يحيى، عن قتادة، عن أبي الصِّدِّيق النَّاجي، عن أبي سعيد الخُدري قال: لا أُحدِّثُكم إلا ما سمعتُ من رسول الله ﷺ، سمِعتْه أُذُناي، ووَعاه قلبي:

«إن عبداً قتل تسعةً وتسعين نَفْساً، فعَرَضَتْ له التوبةُ، فسأل عن أعلمِ أهلِ الأرض، فدُلَّ على رجلٍ، فأتاه، فقال: إني قتلتُ تسعةً وتسعين نَفْساً، فهل لي من توبة؟ قال: لا، فقتله وكمل به المئة.

ثم عَرضت له التوبة، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على رجلٍ، فأتاه فقال: إني قتلتُ مئة نَفْس، فهل لي من توبة؟ فقال: مَن يَحولُ بينك وبينها، اخرُجْ من القرية الخبيثة التي أنت بها إلى القرية الصالحة. فخرج، فعَرَضَ له أجلُه في الطريق، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذاب، فقال إبليس: أنا أولى به؛ لأنه لم يَعصِني طَرفةَ عينٍ، أو ساعةً قَطُّ، فقالت ملائكةُ الرَّحمة: إنه خرج تائباً». قال همَّام: فحدَّثني حُميد الطَّويلُ، عن بكر بن عبد الله المُزَنيّ، عن أبي رافع قال: «فبعثَ الله ملائكةً، فاختصموا فيه». رجع الحديث إلى قتادة، قال: فقال: «انظُروا إلى أيِّ القريتين كان أقرب، فألحِقوه بأهلها».

قال قتادة: فحدثنا الحسن: أنه لما عَرفَ الموتَ احتَفَزَ بنَفْسِه، فقرَّبه الله من القرية الصَّالحة»، وهو في رواية: «فوجدوه أقربَ إلى القرية الصالحة بشِبْر، فغُفر له». ومعنى الحَفْزُ، أي: اندفع من خَلْفه(٢).

(١) البخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٨١٩١).
(٢) أخرجه أحمد (١١١٥٤)، والبخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦)، وانظر التوابين ١٠٨-١٠٩.

حديث الرَّغيف

قال مُغيثُ بنُ سُمَيّ: تَعبَّد راهبٌ من بني إسرائيل في صَومعته ستين سنة، فنظر يوماً في غِبِّ سماء، فأعجَبتْه الأرضُ، فقال: لو نزلتُ فتمشَّيتُ في الأرض، ونظرتُ فيها.

قال: فنزل معه برغيفٍ، فعَرضت له امرأةٌ، فتكشَّفتْ له، فلم يَملِك نفسَه أن وَقعَ عليها، فأدركه الموتُ على تلك الحال، وجاء سائلٌ، فأعطاه الرَّغيفَ، ومات. فجيءَ بعملِ ستين سِنةً، فوُضِعَ مع عَمله، فرَجح بخطيئته[1].

حديث القِرد

قال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ: حدثنا بَهْز، حدثنا حمّاد بنُ سَلَمة، أخبرني إسحاق بنُ عبد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «حَمَلَ رجلٌ معه خمراً في سفينة يبيعه، وكان معه قرد، فكان الرجل إذا باع الخمر شابه بالماء، فأخذ القردُ الكيس، وصَعِد على رأس الدَّقَل[2]، فجعل يطرح ديناراً في البحر وديناراً في السفينة، حتى قسَمه نِصفين».

حديث السَّقَّاء

قال وَهب بن منبّه: كان في بني إسرائيل عابدٌ لم يكن له إلا جُبَّةُ صوف، وقِرْبةٌ يَستقي فيها الماء للفقراء والأرامل، فلما احتُضر قال لأصحابه: إني لا أُخَلِّفُ من الدنيا سوى هذه الجُبَّة والقربة، فإذا متُّ، فاحملوها إلى الملك، وقولوا له: إني لا أَقْدِر على حَملِ هذه يوم القيامة، فاحملها مع ما تحمل من دُنياك. فلما مات حملوها إلى الملك، وأبلغوه رسالته، فقال الملك: هذا الزاهد عَجَز عن حمل قِربَةٍ وجُبَّةٍ من صوف، وأنا قد تَحمَّلتُ في الدنيا من الآثام والمظالم ما حملتُ! ثم أخذ الجبّةَ فلَبسها، وحمل القِربةَ على كتفه، وصار يستقي للناس الماء كما كان العابد يفعل، وانخلع من الملك حتى مات على ذلك[3].

---

(١) التوابين ٩٩.

(٢) في النسخ: المرقل! والمثبت من مسند أحمد (٨٠٥٥)، وهي خشبة يُمدّ عليها شراع السفينة.

(٣) التوابين ٧٤.

حديث الخائف

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر قال: قال لي الزُّهْري: ألا أحدّثك حديثين عجيبين؟ قال الزهري: عن حُمَيد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أَسرف رجلٌ على نفسِه، فلما احتُضر أوصى بَنيه فقال: إذا أنا متُّ فأَحْرِقوني، ثم اسْحَقوني، ثم اذْروني في البحر، فوالله لئِنْ قَدَرَ عليّ ربّي لَيُعَذِّبَنّي عذاباً ما عَذَّبه أحداً، قال: ففعلوا ذلك به، فقال الله عز وجل للأرض: أَدِّي ما أَخَذْتِ، فإذا هو قائم، فقال له الله تعالى: ما حَملَك على ما صَنعتَ؟ قال: خَشْيَتُك يا ربّ، أو مَخافَتُك. فغَفَر له بذلك»[١].

قال الزهري: وحدثني حُميد، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأةٌ النارَ في هرَّةٍ رَبَطَتْها، فلا هي أطعَمَتْها، ولا هي أَرسلَتْها تأكلُ من خَشاش الأرض حتى ماتَتْ»

قال الزهري: ذلك لئلا يَتّكِلَ رجلٌ، ولا يَيأَسَ رَجلٌ. أخرجاه في الصحيحين[٢].

حديث الكلب

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «بينا كلبٌ يُطيفُ برَكِيَّة، قد أَدْلَعَ لسانه في يوم حارّ، قد كاد يقتلُه العَطشُ، إذ رأتْه بغيٌّ من بَغايا بني إسرائيل، فنَزعت مُوقَها فسقَتْه، فغفر الله لها»[٣]. الموق: الخُفُّ القصير.



(١) مسند أحمد (٧٦٤٧)، وأخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦).

(٢) مسند أحمد (٧٦٤٨)، وأخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٦١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

فهرس الموضوعات